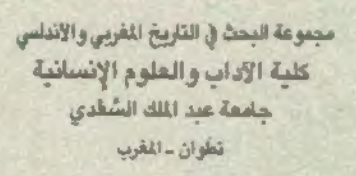




مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السعدي
تطوان - المغرب

رِياضُ الْوَرْدْ

فيما انْتَمى إلَيْهِ هذا الْجَوْهر الفَرْد

لأبي عبد الله، محمد الطَّالب
بن أبي الفَيْض، حَمْدون ابْن الحاجّ
السُّلَميّ المِرْداسيّ الفاسِيّ
(ت 1273 هـ - 1857 م)

تحقيق:
جعفر ابن الحاجّ السُّلَمِيّ
أستاذ بكلية الآداب بتطوان

الجزء الأول

دمشق 1413 هـ - 1993 م



رياض الورد

فيما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد



رياض الورد

فيما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد

مجموعة البحث في التاريخ المغربي والاندلسي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السّعْدي
تطوان - المغرب

رِياضُ الْوَرْدْ

فيما انْتَمى إلَيْهِ هذا الْجَوْهر الفَرْد

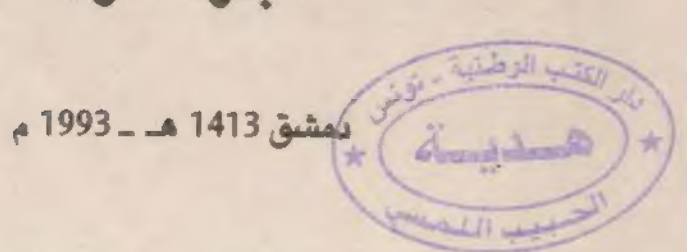
لأبي عبد الله، محمد الطّالب
بن أبي الفَيْض، حَمْدون ابْنِ الحاجّ
السُّلَميّ المِرْداسيّ الفاسيّ
(ت 1973 هـ - 1857 م)

تحقيق:

جعفر ابن الحاجّ السُّلَمِيّ

أستاذ بكلية الآداب بتطوان

الجزء الأول



دمشق 1413 هـ - 1993 م

2000 - 1993/9 م

مطبعة الكاتب العربي ـ دمشق

شارع خالد بن الوليد ☎ ٢٢٢٠٣٨ ـ ٢١٩٧٣٨

الإهداء

إلى والديَّ الكريمين:
الحسن وأمّ الفضل
وفاءً وامتنانا
إلى عشاق التّراث المغربي
إلى عشاق الثقافة المغربية
الأندلسية.
أُهدي هذه النشرة النقدية



بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على محمد وعلى آله

مقدمة التحقيق

1) المؤلف:

أ – مصادر ترجمته:

ليس القاضي أبو عبد الله، محمد الطالب، ابن الشيخ العلامة الأديب، أبي الفيض، حمدون ابن الحاج السُّلَمي المِرْداسي الفاسي الأندلسي، بالرجل المعمور أو المجهول. لقد ترجم له معاصروه ومن خلفهم، فمنهم المطنب في التعريف به، ومنهم المقتصد. ونذكر من مصادر ترجمته المطبوعة:

– سلوة الأنفاس: 1/ 157 – 158 .
– الشرب المنتظر: 238 .
– الدرر البهية: 330/2 .
– الفكر السامي: 300/2 .
– فهرس الفهارس: 465/1 – 466 . رقم 251 .
– شجرة النور: 404/1 . رقم 1603 .
– مؤرخو الشرفاء: 246 – 247 .
– الإعلام عن حل مراكش وأغمات: 303/6 – 306 . رقم 818 .

ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى: 75/1 . 110/1 ـ 111 . 191/1 . 214/1 ـ 215 . 298/2 . 408/2 . 466/2 .

ـ الموسوعة المغربية: 1/ 67 - 68 .

ـ معجم المطبوعات: 99 ـ 100 . رقم 254 .

ونذكر في النهاية كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي من المراجع المشرقية، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان من المراجع الأوربية، فضلاً عن دائرة المعارف الإسلامية.

ومن مصادر ترجمته المخطوطة:

ـ حديقة الأزهار، في ذكر معتمدِيٍّ من الأخيار. لمحمد بن المعطي السرغيني المراكشي. (ت 1296هـ).

ـ إمداد ذوي الاستعداد، إلى معالي الرواية والإسناد، لعبد القادر بن أحمد الكوهن.(ت 1253هـ).

ـ المظاهر السامية، في النسبة الشريفة الكتانية، لمحمد عبد الحيّ الكتاني.

وفضلاً عما سبق، تمدُّنا مؤلفات أبي عبد الله، محمد الطالب ابن الحاج بمعلومات متنوعة عن حياته، ولاسيما رياض الورد نفسه. (الترجمة رقم 41)، وروض البهار، في ذكر شيوخنا الذين فضلهم أجلى من شمس النهار (فهرسته المخطوطة)، ثم حاشيته على شرح المرشد المعين لميارة الفاسي. كما تعكس مؤلفاته هذه وغيرها ثقافته وعلمه وشخصيته الفكرية والخلقية.

ب ـ مولده ونشأته وعصره:

اتفق كل مؤرخيه على أن مسقط رأسه بفاس. غير أنهم لم يشيروا إلى تاريخ مولده. ولعله هو نفسه الذي تعمد إخفاءه، إما لأنه لم يكن يدريه على وجه التحديد، أو متابعة لمن كره من الفقهاء ذكره. غير أن ما لدينا من القرائن، على ضعفها، يكفينا لترجيح زمن تقريبي لمولده. أهمها أن سنه كان صغيراً عند وفاة والده سنة 1232/

1817 ، يعقد تدريسه لعلوم المختلفة بالقرويين، لاكنّه لم يأخذ عنه[1]. إذن، إذا افترضنا أن سنه يوم توفي أبو الفيض حمدون كان عشر سنوات، فلا بد أنه، بناء عليه، قد ولد حوالي سنة 1222/ 1807 . وإذا افترضنا أن سنه يومئذٍ كانت لا تزيد على خمسة عشر عاماً، جاز لنا أن نزعم أن مولده كان حوالي سنة 1217/ 1803 . ولما كنا نعدم أي تقدير لسنّه يوم توفي، فإنه يجوز لنا أن نرجح أنه ولد بين سنتي 1217/ 1803 ، و 1222/ 1807 م. ونحن أميل إلى التاريخ الأول، لأنه يناسب ولايته لقضاء الجماعة، وهو ابن اثنين وأربعين عاماً، ووفاته عن حوالي ستة وخمسين عاماً أو ما يقاربها، وهي السن التي تُفسِّر إنتاجه العلمي الكبير.

ومهما يكن من أمر مولده، فالثابت أن أبا عبد الله، محمداً الطالب، قد ولد في عصر المولى سليمان، الذي كان والده حمدون أحد أبرز رموزه، وفيه نشأ وترعرع ووعى الدنيا، وبدأ اضطرابه ومقاعته لها، وسط عائلة مثقفة تعتز بانتسابها إلى الصحابة، ولاسيما إلى العباس بن مرداس السُّلَمي منهم، وتعتزّ بمن أنجبتهم من العلماء والأدباء والصوفية في الأندلس وفاس وتطوان. لقد كان أبوه، أبو الفيض حمدون، عالم الدنيا في وقته، وأديب فاس والمغرب. وكان شقيقه الأكبر، أبو عبد الله محمد المحدث، فقيهاً محدّثاً نحوياً أديباً شاعراً، وهو الذي اصطلع بمهمة تعليمه وتثقيفه. وإحياءً لذكرى والده وأسلافه الذين أناروا الدنيا بنور العلم الشرعي واللدني، وشعوراً منه بضخامة تراث أهل بيته، وبوجوب إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراثهم الأدبي، كان رياض الورد فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد.

وإذ كان عصر المولى سليمان (1792 ــ 1822) السلطان العالم، عصراً قد اضطربت فيه أحوال المغرب السياسية، وأخذت بمخنقه الدول الأوربية الطاغية، فإنه لم يعدم حركة علمية وأدبية رائدة، قادها السلطان نفسه، وكان من أبرز القائمين بها أبو الفيض حمدون ابن الحاج، والطيب ابن كيران، ومحمد الرهوني وغيرهم.

ولم يكن عصر السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، (1822 ــ 1859)

---

(1) الإعلام: 303/6 . رقم 818 .

العصر الذي اكتنف نشاط أبي عبد الله محمد الطالب العلمي، بأقل اضطراباً مما سبقه. ذلك أن فيه استولت فرنسة على الجزائر سنة 1830 م، وهزمت المغرب في ساحة الوغى سنة 1844 م، وثقل التكالب الأوربي على دار الإسلام. وافتضح ضعف المغرب الشنيع. ولعل إطالة المؤلف في وصف سقوط الأندلس ونقل قصائد رثائها، مرآة عاكسة لما وقر في نفسه من الأسى على حالة دار الإسلام عامة، ومصير الجزائر خاصة، وربط ضمني بين مصير المغرب المجهول، وخاتمة قصة الإسلام بالأندلس. بل لم يمض على وفاة المؤلف إلا سنتان، حتى كانت الجيوش الإسبانية قد اخترقت المغرب متجهة إلى تطوان سنة 1859 م.

ت ـ دراسته وشيوخه وتلامذته:

درس أبو عبد الله محمد الطالب كل متون وقته أو جلّها. وهذه المتون تدور حول الفقه والنحو والحديث والسيرة والبلاغة والمنطق.

وقد ذكر في رياض الورد، أنه قرأ صحيحي البخاري ومسلم، والشفا والموطأ والشمائل، وألفية العراقي وابن مالك والجرومية، ومختصر خليل والخريدة في المنطق، ومختصر سعد الدين التفتازاني في البلاغة وما إلى هذا[2].

ويلاحظ أن دراسته خلت من كل درس رياضي أو درس تجريبي أو فلسفي، اللهم إلا المنطق في منظومة والده. وقد أثرت طبيعة دراسته على وعيه للفكر والعالم، حتَّى شكلت منه وعياً فقهياً صوفياً تاريخياً، وهذا ما سوف نعرض له فيما بعد.

وإذا كان قد أدرك والده أبا الفيض، فقد حال صغر سنه يومئذ دون أن يأخذ عنه. غير أنه درس على خليفة أبيه في العلوم الشرعية والأدبية، أي على شقيقه أبي عبد الله ، محمد المحدث. وعليه عرض أهم المتون في ضروب من العلوم متنوعة[3].

ثم أخذ على علماء فاس وغيرها. تذكر منهم:[4]

---

(2) (3) رياض الورد. الترجمة رقم 41 .

(4) الإعلام: 304/6 . رقم 818 . السلوة: 157/1 الفهرس: 466/1 .

1 ــ أبا بكر بن زيان الإدريسي.
2 ــ أحمد بن عبد الملك العلوي.
3 ــ إدريس البدراوي.
4 ــ التهامي بن حمادي المكناسي.
5 ــ عبد القادر بن أحمد الكوهن.
6 ــ عبد الهادي العلوي.
7 ــ عبد السلام بن الطائع بوغالب.
8 ــ العباس بن كيران.
9 ــ العربي بن محمد الدمناتي.
10 ــ علي بن عبد الله المتيوي.
11 ــ محمداً اليازغي.
12 ــ محمد بن طاهر العلوي.
13 ــ محمدا صالحا الرضوي البخاري، الزائر لفاس.

ونذكر من أعلام تلامذته:
1 ــ ابن أخيه المؤرخ الطَّبيب النحوي الشاعر، أحمد بن محمد المحدث [5].
2 ــ قاسما القادري [6].
3 ــ محمد بن أحمد بناني [7].
4 ــ محمد بن المعطي السَّرْغيني [8].

ث ــ مؤلفاته:

كان أبو عبد الله، محمد الطالب، عالماً موسوعياً، على العادة في علماء المغرب القديم، متشبهاً في ذالك بأبيه وشقيقه. ولقد كان التأليف في ضروب العلم المختلفة،

---

(5) الفهرس: 466/1 .
(6) الشجرة: 401/1 . رقم 1603 .
(7) الفهرس: 466/1 . الإعلام: 306/6 .
(8) الإعلام: 305/6 .

شهادة تبريز فيها. ولعل هذا ما كان يحفزه، على أن يكتب في التاريخ والنحو والفقه، ويجمع شعر أبيه. ونذكر من مؤلفاته:

1 ــ الأزهار الطيبة النشر، فيما يتعلّق ببعض العلوم من المبادئ العشر.

2 ــ الإشراف، على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف. (مخ)

3 ــ حاشية على شرح ميارة للمرشد المعين.

4 ــ حاشية على شرح بحرق للامية الأفعال.

5 ــ رياض الورد، فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد. (وهو هاذا).

6 ــ روض البهار، في ذكر شيوخنا الذين فضلهم أجلى من شمس النهار. (مخ)

7 ــ شرح على إحياء الميت للسيوطي. (مخ)

8 ــ شرح على مقصورة أبيه في العروض والقوافي. (مخ)

9 ــ كناشتان. (مخ)

10 ــ كتاب التعريف بالتاودي ابن سودة.

11 ــ منظومات.

12 ــ نظم الدر واللآل، في شرفاء عقبة ابن صوال (مخ).

وزيادة على ما سبق، نشير إلى أن المؤلف عمل على جمع شعر أبيه. وما بين أيدينا من شعر لأبي الفيض حمدون في «النوافح العالية» والديوان، كلّه من نسخه وترتيبه وتصنيفه في الأصل.

ج ــ وظائفه:

اشتغل أبو عبد الله ، محمد الطالب بالتدريس في القرويين بفاس، ومكث مدرساً للعلوم بها زمناً طويلاً لا نستطيع أن نحدّده. ولعل تبريزه في الفقه، تدريساً وتأليفاً، فضلاً عن زهده وورعه، هو الذي حفز السلطان المولى عبد الرحمان، وقد كانت له مع وزيره ابن ادريس العمراوي صداقة متينة، كما تدل على ذالك ترجمته له في رياض الورد[9]، على تعيينه قاضياً بمراكش ثم بفاس. ويجوز لنا أن نفترض أنه تولى

(9) رياض الورد: الترجمة رقم 24 . 85/1 ــ 86 .

الإمامة والخطابة ببعض مساجد فاس، وربما العدالة أيضاً، شأن أخيه الأكبر، أبي عبد الله، محمد المحدث. ولكننا لا نقطع بشيء.

لا ندري بالضبط متى تولّى المؤلف قضاء الجماعة بمراكش. وقد أشار الشيخ محمد عبد الحي الكتاني إلى أنه مكث على قضاء مراكش قبل فاس، نحوا من 13 سنة[10]. فيكون إذن قد تولّى القضاء حوالي سنة 1259/ 1843 . كما أشار صاحب الإعلام إلى أنه ولي قضاء مراكش مدة تنيف على عشرة أعوام[11].

وبناء عليه، يكون التاريخ المتقدم راجحاً. ثم كتب له أن يلي قضاء الجماعة بفاس، فكان ذلك بعد وفاة قاضيها، شيخه عبد الهادي بن عبد الله العلوي سنة 1272هـ/ 1856 م، ومكث على قضاء فاس إلى أن توفي، رحمه الله، سنة 1273هـ/ 1857 م. غير أن تلبسه بالقضاء بين المسلمين لم يمنعه من تدريس العلم بمراكش، والخطابة بجامع بن يوسف بها[11]، بل تدريس العلم بفاس، ورواية الحديث عن العلماء الزائرين لها[12]، كما سمح له الزمان بزيارة مسقط رأسه، بل التأليف في الفقه والنحو والتاريخ وما إلى هذا.

والظاهر أن طرفا من رياض الورد قد قُدِّر له أن يكتب في مراكش.

ح ـــ شخصيته وتصوفه ومواقفه:

نشأ أبو عبد الله، محمد الطالب في بيئة علماء يعون جيداً أنهم ورثة الأنبياء. وما موقف الحسن اليوسي وعبد السلام جسوس ومحمد بن أحمد بن العربي ابن الحاج، وأبي الفيض حمدون والده، إلا نماذج رفيعة لإحساس العلماء بقيمة وراثتهم للأنبياء، ومسؤولياتهم التاريخية في الدفاع عن الشريعة الغرّاء والصدع بالحق، مهما تكن الثمرة. ونشأ أيضاً في أسرة توارثت، منذ عصر المولى إسماعيل على الأقل، ظهائر التوقير

(10) الفهرس: 1/ 465 .

(11) الإعلام: 305/6 . رقم 818 .

(12) الفهرس: 466/1 . السلوة: 158/1 .

والاحترام، يبعث بها السلاطين العلويون، كلما خلا سلطان، قام سلطان، فوقّر العلم وأهل العلم فيها وفي غيرها، ورفع عنها ما عسى أن تكلّف به من المغارم والكلف المخزنية، وما عسى أن تصاب به من جور الولاة عند اضطراب الأمور. ولم يكن السلاطين العلويون، رحمهم الله، ليوقروا ويحترموا ويميزوا أسلافه بالعناية والتنويه، لولا أن أسلافه حافظوا على حرمة العلم طبقة بعد طبقة، وأحبوا آل البيت، وشرفوا انتماءهم للصحابة، ولاسيما للعباس بن مرداس السُّلَميّ، بالفضل والدين والمروءة والورع والمسكنة.

إن إحساس محمد الطالب ابن الحاج بثقل الإرث المعنوي الدي ورثه، ولّد في نفسه إحساساً بضرورة صيانته وتنميته. وعلى الرغم من ولايته لقضاء الجماعة ما ينيف على 13 سنة، وصداقته للوزير ابن ادريس، مدبّر دولة المولى عبد الرحمان، وجاه شقيقه محمد المحدث عند السلطان، وجاه أبيه من قبل عند المولى سليمان، والمولى محمد بن عبد الله، فإن هذا لم يغره إلا بصيانة إرثه المعنوي. لقد اتفق المؤرخون على زهده وورعه ونزاهته. فهو «آخر قضاة العدل[13]» ، «وما عُدَّت له هفوة»[14]. و«لم يسمع بمثل عدله في الأعصار المتأخرة»[15]. وتتشابه عبارات المؤرخين في وصفه بكل محمدة. ولم يكن العدل والنزاهة صفتيه اليتيمتين. بل كان زاهداً في الدنيا وورعاً كبيراً. فلما مات «لم يخلّف شيئاً»[16]، «ولم يوجد في تركته ما يقوم على تجهيزه، مع أنه بقي على قضاء مراكش قبل فاس نحوا من 13 سنة»[17]. ومن زهده أنه رفض أن يقبض مالاً من الأحباس، توفر لقاضي فاس قبله[18]. وفضلاً عن هذا، تدل كتاباته، رياض الورد وغيره، على تصريحه بالتبرم بالقضاء والعدالة، وسخطه على ما آلت إليه حال هاتين الخطتين الشرعيتين، وتمجيده لمواقف العلماء الورعين[19]، وتركيزه على مواقف أهل بيته الصادعة

---

(13) الفهرس: 465/1 .

(14) (15) الإعلام: 305/6 . رقم 818 .

(16) الإعلام: 305/6 . رقم 818 .

(17) الفهرس: 465/1 .

(18) الإعلام: 305/6 . رقم 818 .

(19) رياض الورد: الباب الرابع حاشيته: 151/2 ــ 154 .

بالحق، سواء أكانت في الأندلس أم في فاس، ويكاد هذا يكون الثابت الكبير لتراجمه في رياض الورد.

وقد شجعه على ازدراء الدنيا، والتزام النصيحة لخاصة المسلمين وعامتهم، أخذه الطريقة الشاذلية الدرقاوية، عن الشيخ الكبير، أبي عبد الله ، محمد الحراق الشفشاوني الفاسي[20]. ولهذه الطريقة الدرقاوية الشاذلية، مواقف مشهودة في تربية النفوس وتهذيبها، وفي تزعم حركة الإصلاح الإجتماعي السياسي بالمغرب والجزائر.

خ ــ وفاته ومدفنه:

توفي أبو عبد الله ، محمد الطالب في تاسع ذي الحجة، عام ثلاثة وسبعين ومائتين وألف. (1273هـ) موافق 13 يوليوز 1857 م، بعد مرض ألزمه الفراش، وجعله ينيب شقيقه محمدا المحدث عنه في القضاء، ودفن في ضريح سيدي ابن الحاج بالدرب الطويل من فاس[21]، ولم يتوفَّ شقيقه إلا بعده سنة أربع وسبعين ومائتين وألف، في اليوم السابع عشر من شوال.

2 ــ الكتاب

لا نقصد في هذا العرض المقتضب، إلى أن نقوم بدراسة تحليلية لرياض الورد، مثلما إننا لم نقصد إلى تحليل شخصية المؤلف،لأن المقام لا يتسع لهذا. ولكننا سوف نحاول التقرب من رياض الورد وزواياه.

أ ــ عنوانه:

ليس لدينا عنوان موحَّد لكتاب، لأن المؤلف مات قبل أن يفرغ مه. إن نسخة ميم التي هي بخط المؤلف، تنقصها الورقات الأولى. ولذالك، فإنها لا تذكر له عنواناً. أما

(20) الإعلام: 304/6 . رقم 818 . السلوة: 158/1 .

(21) الشِرْب: 238 .

نسختا ألف وخاء، فتذكران أنه «رياض الورد، إلى ما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد». وأما نسخة باء، ففيها أنه: «رياض الورد، فيما اختُصَّ به هذا الجوهر الفرد».

وتتفاوت المصادر في ضبط العنوان، فهو «رياض الورد، إلى ما انتهى إليه هذا الجوهر الفرد»، في دليل مؤرخ المغرب الأقصى، وسلوة الأنفاس، والإعلام[22].

وهو «رياض الورد، إلى ما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد»، في «مؤرخو الشرفاء»[23].

وهو «رياض الورد، وما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد»، في «شجرة النور الزكية»[24].

وهو «رياض الورد، فيما انتهى إليه هذا الجوهر الفرد»، في «النبوغ المغربي»[25].

بل يذكر صاحب «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» أنه «نيل السرور والابتهاج، بترجمة الشيخ حمدون ابن الحاج»[26]. ولا ندري من أين نقل هذا العنوان الإضافي.

والظاهر أن الخلاف الكبير هو في انقلاب «فيما» إلى «إلى ما»، وفي انقلاب «انتمى» إلى «انتهى» بنوع من التصحيف. ولما كان المؤلف لم يستقرَّ على صيغة واحدة، وكانت النسخ الخطية متعارضة في إثبات صيغة العنوان، فقد اخترنا الصيغة المركبة التالية: «رياض الورد، فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد». حسماً للخلاف.

ب ــ موضوعه:

إن الموضوع البارز للكتاب، هو الذي سماه المؤلف «الجوهر الفرد». إنه التأريخ والترجمة لأبي الفيض حمدون ابن الحاج، أحد أكابر رموز العصر السليماني في الأدب

(22) الدليل: 214/1 . السلوة: 158/1 . الإعلام: 305/6 رقم 818 .

(23) مؤرخو الشرفاء: 248 .

(24) الشجرة: 401/1 . رقم 1603 .

(25) النبوغ: 307/1 .

(26) الدليل: 214/1 .

والعلوم. ولقد كان في تصور المؤلف أن الترجمة لوالده أبي الفيض، وإثبات عراقته في الأصل والفضل والعلم، لم تكن لتكتمل من حيث التصور والمنهج، إذا لم يبحث في أصول أصوله.

هكذا قسم رياض الورد إلى مقدمة وخمسة أبواب:

ـ المقدمة:

وهي قصيرة، وتعكس وعي المؤلف بذاته الفردية والعائلية، وانتظام رياض الورد في الفكر الجدلي لعصره، وإجابته عن بعض إشكالاته الفردية والاجتماعية.

ـ الباب الأول:

وقد وصل فيه المؤلف نسب أبيه بالصحابي الكبير العباس بن مرداس السُّلَمي، وأثبت شرف قبيلة سُلَيْم في علاقتها بالرسول (ص)، وتحدث عن هذا الصحابي وعن الخنساء، ثم عن أولاده، ثم أثبت دخول ذريته إلى الأندلس، مستشهداً بالمصادر الأندلسية. ثم أثبت اتصال نسب أبي الفيض حمدون بأبي إسحاق ابن الحاج السُّلَمي البَلَّفيقي، واستشهد في هذا الصدد، بالحسن اليوسي، وأحمد ابن ناصر، وولده محمد، وكلهم من أعلام علماء المغرب المتقدمين عليه، كما استشهد برسالة رسمية بعثها المولى إسماعيل إلى أحمد بن العربي ابن الحاج، تتضمن شهادة هؤلاء العلماء في هذا الصدد. ثم حاول معرفة أوّل داخل من أجداده الأندلسيين إلى فاس، ثم أثبت نص ظهير سليماني شريف، يأمر بتوقير بني الحاج السُّسلَميين واحترامهم، لما «لهم من خصوصية العلم والنسب».

بعد هذا، أخذ المؤلف في استعراض الإشارات الأدبية إلى سُلَمِيَّة نسب أبيه، فأتى بنصوص نادرة وقع فيها التصريح به، ثم استعرض فروع أسرته المستقرين وقتئذ بتطوان وفاس. ثم ختم الباب بمجموعة من التراجم لبني الحاج غير السُّلَمِيين، ليتميز المشتركون في لقب ابن الحاج بعضهم عن بعض. وفي أثناء كل هذا، أثبت طائفة كبيرة من المعلومات التاريخية والنصوص الأدبية النثرية والشعرية، وطائفة من التراجم، تجعل من هذا الباب أهم باب في رياض الورد، بعد الباب الخامس.

ـ الباب الثاني:

وقد خصصه المؤلف لاستعراض تاريخ فتح الأندلس، ووصفها، وذكر فضائلها، ومحافظة أهلها على أنسابهم العربية، واستيطان قبائل العرب في أرجائها. وهذا الباب هو أصغر أبواب رياض الورد من حيث الحَجْم. ولما كان عصر العظمة والمجد والفتوح قد ولى، فإن المؤلف لم يعبأ بتطويله، حيث لا فائدة ترتجى من استعراض ماضٍ مجيد في زمن الانحطاط والضعف والهزيمة، وفيه يظهر واضحاً التأثر بـ«عناية أولي المجد».

ـ الباب الثالث:

وقد خصصه المؤلف لترجمة أعلام أسلافه من الأندلسين، ولاسيما أبي إسحاق ابن الحاج البَلّفيقي وذريته. وقد لاحظت أن جوهر الترجمة فيه هو دائماً موقف المترجم من السلطة السياسية لعصره، وأخلاقه الصوفية المتشددة، ثم إبداعه الأدبي وعلمه.

ـ الباب الرابع:

وقد تحدث فيه المؤلف عن انتقال أسلافه من الأندلس إلى المغرب، وحلل فيه أسباب انهيار دار الإسلام بالأندلس، وأثبت نصوصاً أدبية طويلة دعت إلى إنقاذ الأندلس، ثم جهرت برثائها.

بعد ذلك، تحدث عن مدينة فاس، وتاريخها وفضائلها ومساوئها، واستطرد في أثناء هذا لعرض آرائه في الثقافة الفاسية، أو الحضارة الفاسية، كما يسميها هو، ولعرض تذمره من انحطاط أحوال المناصب الشرعية بفاس، وتراوح تذمره بين التصريح والتلميح.

ويظهر أن مأساة الجزائر، والتوسع الاستعماري المسيحي في عصره، كانا ماثلين في ذهنه وهو يكتب هذا الباب. وهذا ما يفسر إطالته في الحديث عن سقوط غرناطة ورثاء الأندلس. إن مأساة الجزائر المعاصرة له، هي مأساة الأندلس. وإذا كانت الظروف السياسية والاجتماعية تسمح بالحديث عن الماضي، فقد لا تسمح بالحديث عن الحاضر إلا في حذر وعجلة. لذالك استغل المؤلف الفرصة، فعرض لمشاكل عصره بالحديث عن مشاكل زمن انقضى. غير أنه عندما كان يجد الحرج مرتفعاً، لم يتردد في الإعلان عن تذمره ورفضه لحالة الإدارة والقضاء بفاس.

ـ الباب الخامس:

وقد خصصه المؤلف للتعريف بالعلماء من أسلافه الفاسيين، فترجم أحمد بن العربي ابن الحاج وطائفة من دريته، كما ترجم لعميه وأخيه الأكبر محمد المحدث.

بعد ذالك، رجع إلى موضوع الكتاب الأصلي، وهو التعريف بأبي الفيض حمدون، فجعل بقية الباب في روضات على طراز روضات «أزهار الرياض» للمقري.

1 ـ روضة الأقحوان:

وقد تحدث فيها المؤلف عن مولد أبيه ونشأته، ودراسته وتدريسه للعلوم، ومنهجه في تفسير القرآن الكريم، وثناء العلماء عليه ووفاته. كل هذا في الباب الأول منها.

أما في الباب الثاني منها، فقد تحدث المؤلف عن سيرته وأخلاقه، وسلوكه ومحبته للرسول (ص)، وتصوفه ومواقفه السياسية والاجتماعية. وضَمَّن هاذا الباب شِعْراً كثير منه ينشر لأول مرة.

2 ـ روضة النيلوفر:

وقد خصصها المؤلف للحديث عن علاقات أبيه بمعاصريه، فأورد كثيراً من النصوص في الثناء عليه، تشكل ذخيرة تاريخية وشعرية تنشر لأول مرة. وهي آخر ما وجد من رياض الورد.

وعلى غرار الباب الثالث، تنتظم تراجم هذا الباب، ومنها ترجمة أبي الفيض حمدون، في سياق واحد، هو إثبات تميز أسلافه بالعلم والإبداع الأدبي والتقوى، ثم إبرار مواقفهم. وخلال هذا، يسجل المؤلف ثروة كبيرة من أشعار غير منشورة، ويبث معلومات تاريخية سياسية نادرة. وبالجملة، إن هذا الكتاب، وإن كان يدخل في دائرة الكتب المخصصة للعائلات المغربية العريقة، وضمن إشكال الأنساب والموقع السياسي، فإنه يتجاوز تجاوزاً شديداً هذه الدائرة، لكي يصير وثيقة تاريخية مهمة، تصوّر ثقافة العالم المغربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومواقفه من التاريخ والواقع والفكر والسياسة، ولكي يصير خزانة من خزائن الأدب المغربي، ورياضاً مونقة من الشعر والنثر.

ت ــ قيمته:

انتبه العلماء إلى قيمة رياض الورد، فأكثروا من النقل عنه، كل في دائرة اختصاصه. ولنا أن نحدد بعض جوانب قيمته فيما يلي:

1ــ يضم رياض الورد وثائق سياسية علوية نادرة، ومعلومات تاريخية من عصر العلويين ينفرد بها، أو يكاد.

2ــ يضم ثروة شعرية هائلة هو أصل فيها، لأن المؤلف استخرجها من وثائقه العائلية.

3ــ يضم تراجم كثيرة هو أصل فيها، ولاسيما تراجم أهل بيت المؤلف، حتى إن كثيراً من المصادر لم تعمل إلا على نقلها وتلخيصها.

4ــ يمثل استمرارا للكتب المخصصة لتاريخ العائلات المغربية، ويشكل حلقة مهمة فيها.

5ــ يقدم إمكانيات جديدة لإعادة تحقيق كثير من النصوص الأندلسية بما ينقله منها، ولاسيما نصوص الإحاطة.

6ــ يمثل مرآة للثقافة المغربية القديمة، بكل مسالكها ومضايقها، وبكل فقهها وتصوفها وأدبها وشعرها وتاريخها ووعيها للواقع، كما يمثل مرآة لمنهج العالم المغربي القديم، في سلفيته الفكرية، وفي تحريه وتَثَبُّتِه واستقصائه وربطه للأسباب بالمسببات، وتركيزه على الجزئيات، ومناقشته للقضايا، وتنزيهه للعلماء والصوفية، وإغراقه في النقل من مصنفات الآخرين، وفي سلوكه وأخلاقه وأعرافه ورؤيته للعالم والوجود والفكر.

إن هذه القيمة التاريخية الأدبية الكبيرة، هي التي حفزتنا على تحقيق «رياض الورد» ونشره، إحياء لقطعة من الثقافة المغربية القديمة، وخدمة لتراثنا المغربي الاسلامي.

ث ــ مصادره:

اعتمد المؤلف مصادر متنوعة ومتعددة هائلة. فمن حيث موضوعها، نلاحظ أن فيها اللغوي والأدبي والتاريخي والنَّسبي والفقهي والحديثي. ومن حيث جنسيتها، نلاحظ أن فيها المشرقي والأندلسي والمغربي. ومن حيث شكلها، فيها الكتب والأشعار

والرسائل والظهائر والتقاييد والروايات الشفهية.

وقد أسرف المؤلف في النقل عن مصادر بعينها، كنفح الطيب وأزهار الرياض والاستيعاب، والإحاطة وديوان أبيه، وفهارس العلماء، كفهرسة محمد بن عبد السلام بناني، وإدريس المنجرة، وتقاييده الشخصية. وهو في نقله وتوظيفه لمصادره، شديد الضبط والتحرّي والتَّثَبُّت. غير أنه أحيانا يجمح به القلم، فإذا هو يعمّي مصادره، وإذا هو ينقل نصوصاً بعينها لمؤلفين سابقين له، دون أن يكلّف نفسه عناء الإشارة إليهم.

ج ـ تاريخ التأليف:

لم يذكر المؤلّف في مقدمة رياض الورد تاريخاً لتأليف كتابه. لكنه صرّح عرضاً عهداً حديداً في تاريخ المغرب الإسلامي. غير أنه قبيل هذا التصريح، ذكر أن مولد ابن أخيه أبي العباس، أحمد بن محمد المحدث، المؤرخ الطبيب الأديب النحوي، كان في سنة عهدا حديداً في تاريخ المغرب الاسلامي. غير أنه قبيل هذا التصريح، ذكر أن مولد ابن أخيه أبي العباس أحمد بن محمد المحدث، المؤرح الطبيب الأديب النحوي، كان في سنة 1248هـ/ 3 ـ 1832م. وهدا يعني أن المؤلف لم يفرغ من كتابه في نفس سنة البدء بالكتابة، وأنه استمر يضيف إلى كتابه أشياء كلّما توفرت له المادة المناسبة، وارتفعت الموانع. والظاهر أنه ظل يزيد في رياض الورد وينقص إلى وفاته سنة 1273هـ/ 1857م. وهو ما يفسر عدم فراغه من التأليف، وعدم وجود نسخة تامة منقحة من رياض الورد بخطه. وليس هذا بغريب عن المؤلف، فقد ترك كتابه: «الأزهار الطيبة النشر» غير تام. ويبدو أن انشغاله بالفقه والقضاء، وعدم توفر بعض المصادر له أحياناً، هو ما كان يقطع عملية الكتابة.

ح ـ نسخ الكتاب:

ليست مخطوطات «رياض الورد» نادرة جداً، بل هي متوفرة توفراً نسبياً. وقد اعتمدنا في تحقيقنا على النسخ الآتية:

1 ـ نسخة م. وهي نسخة المؤلف. وهي أقدم النسخ ولا ريب. وعليها شهادة عدلية حررها العلامة الأديب سيدي المحمد، وأخوه الفقيه العدل الفاطمي، ابنا

عبد الكبير بن محمد ابن المؤلف، تثبت نسبة النسخة للمؤلف نفسه. وهي في ملك خالي وشيخي، حفيد المؤلف، العلامة محمد بن الفاطمي ابن الحاج(*)، حفظه الله، في خزانته بفاس. وقد أمدّني مشكوراً بصورة منها، فله جزيل الشكر.

وهذه النسخة تنقصها أوراق في أولها وآخرها. تبدأ في الباب الأول بقول المؤلف: «فإن تك في سعد العشيرة». وتنتهي عند قوله: في الباب الثاني من روضة الأُقحوان: «أعني قرابته لمولانا رسول الله (ص)». وهي لا منقحة ولا مصحّحة ولا تامّة. وفي حواشيها وطررها بعض الإضافات بخط المؤلف. وفي متنها بعض الفراغ، قد يقدر بالسطور والصفحات. وفيها أيضاً بعض المحو وكثير من الضّرب. وتحتوي هذه النسخة الأصلية على 111 ورقة، وفي كل صفحة منها حوالى 22 سطراً، ومقاسها (15 × 10) سنتيمترات. خطها مغربي واضح عموماً، وقلّما كان فيه إدماج. بل إن عناوين الأبواب والفصول مكتوبة بخط غليظ.

2 ــ نسخة ألف. وهي نسخة محمد ابن العلامة عبد الهادي بن محمد المحدث ابن الحاج. استنسخها صاحبها في مطلع هذا القرن، وإن كان تاريخ النسخ غير مسجل عليها، وتشبه شبهاً شديداً نسخة الخزانة العامة. وهي في الوقع قطعة من رياض الورد. تحتوي على 40 ورقة فقط. وفي كل صفحة منها حوالى 23 سطراً. مقاسها 22 × 16,50 سنتيمتراً. وهي شديدة الضبط والتحرير. وخطها مغربي واضح. والعنواين وأسماء الاعلام بها عريضة ومزوقة بالأحمر والأخضر والأزرق. وكلما ترك المؤلف بياضاً ذكَرَتْه وقدَّرَتْه. وقد اعتنى ناسخها اعتناءً خاصاً بالشعر. وهي محفوظة في خزانتنا بتطوان. أولها: «إن خير ما سطرته الأقلام» وآخرها: «كتب نسختها: بسم الله الرحمان الرحيم» في الباب الثالث.

3 ــ نسخة باء. وهي نسخة والدي الفقيه العالم السيد الحسن بن المفضل، ابن العلامة محمد المحدث ابن الحاج. وقد استنسخها له ــ حفظه الله ــ بعض طلبة

(*) توفي رحمه الله، يوم 8 شوال 1413هـ ــ موافق 31 مارس 1993 ، والكتاب مايزال يطبع. وقد كان متشوقاً لصدوره. جزاه الله خير الجزاء على خدمة العلم.

العسم على عهد الحماية من نسخة ميم. تحتوي على 83 ورقة. وفي كل صفحة حوالى 24 سطراً. مقاسها 23 × 17 سنتيمتراً. وخطها مغربي متفاوت بين الجودة الرفيعة والرداءة التامة. وهو أزرق أحياناً، وأسود أو أرمد أحياناً أخرى. أولها: «إن خير ما سَطرته الأقلام»، وآخرها هو عين آخر نسخة ميم.

4 ـــ نسخة حاء. وهي نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم 396و111 د. وهي أوفى نسخ رياض الورد. فيها 130 ورقة. وفي كل صفحة حوالى 20 سطراً. مقاسها 28 × 18 سنتيمتراً. أنيقة وجميلة جداً، والعناوين في متنها ملونة، وفي هامشها عناوين من وضع الناسخ. وهي شديدة التحرير والتنقيح والترويق بالألوان المختلفة. ليس عليها إسم الناسخ، ولعله عين ناسخ ألف. أولها: «إن خير ما سطرته الأقلام». وآخرها قول الطغرائي:

«قـد رشّحـوك لأمـرٍ إن فطـنـت له فـارْبـأْ بنفسك أن ترْعَى مَعَ الْهَمَـلِ»

5 ـــ روضة النيلوفر، في ثناء الناس عليه، وبعض مناقبه التي هي أعطر من المسك الأذفر: هذه الروضة قطعة ساقطة من كل نسخ رياض الورد. وهي ثابتة في آخر ديوان أبي الفيض حمدون ابن الحاج المخطوط بالخزانة العامة بالرباط (رقم 383 د). وتشغل فيه من صفحة 350 إلى صفحة 418 . أولها العنوان، وآخرها: «انتهى ما وجد من تكملة هذا الديوان نحمد الله تعالى وحسن عونه». عدد الأوراق 35 ورقة. وفي كل صفحة منها حوالى 17 سطراً. ومقاسها 22 × 17 سنتيمتراً.

خ ـــ منهج التحقيق:

1 ـــ اعتمدنا في تحقيق متن رياض الورد على نسخة ميم، وهي التي نَعُدُّها النسخة الأصل، لأنها نسخة المؤلف، على الرغم من إشكالاتها. ثم قابلناها بعدئذٍ على نسخ ألف وباء وحاء، ولاحظنا الفروق في الزيادة والنقص، واجتهاد النساخ، في قراءة ما أدمج من الخط. ولاحظنا أخطاء النساخ وأثبتنا كل هذا في الحاشية. ثم أثبتنا متن روضة النيلوفر، على نسخة يتيمة.

2 ـــ حاولنا تعريف الأعلام الواردة في المتن، ولاسيما الأعلام الأندلسية المغربية. وقد اقتصدنا في تعريف الأعلام المشرقية، لأنها ترد عرضاً في الغالب، وأضربنا عن تعريف المشهورين جداً، ككبار الصحابة والخلفاء ومن إليهم، تجنباً لإثقال الهوامش. وقد توصلنا إلى التعريف بعدد هامّ من الأعلام، وشرد عنا عدد قليل لم نهتد إلى مصادر ترجمته من المغمورين، أو ممن ظلمهم التاريخ.

3 ـــ حاولنا في كل تعريف ذكر اسم العلم وأبيه ونسبه وكنيته وشهرته بالعلم أو الصلاح أو غيره. كل هذا في إيجاز بالغ. ثم أتبعناه ببعض مصادر ترجمته أو أخباره المطبوعة. ولم نلتزم الإحالة على المصادر المخطوطة، لأن هذا فوق الطاقة. وعند تعرضنا لكبار المشاهير، اجتزأنا بذكر أبرزهم فقط، احتياطاً لإثقال الهوامش، فيما الفائدة فيه قليلة.

4 ـــ حاولنا تخريج نقول المؤلف، فأحلنا على مصادرها المطبوعة، وقابلنا النقول على الأصول. ولم نلتزم المقابلة على الأصول المخطوطة، لأن هذا متعذر كثيراً، ولا على النصوص غير المحققة، حيث نستشعر أن المقابلة على نص شديد الاضطراب، ضرب من العبث. وقد شذت بعض النقول فلم نستطع تخريجها، ولاسيما تلك التي رياض الورد أصل فيها، لأنها منقولة عن كناشات وتقاييد ووثائق، هي الآن محجوبة عنا.

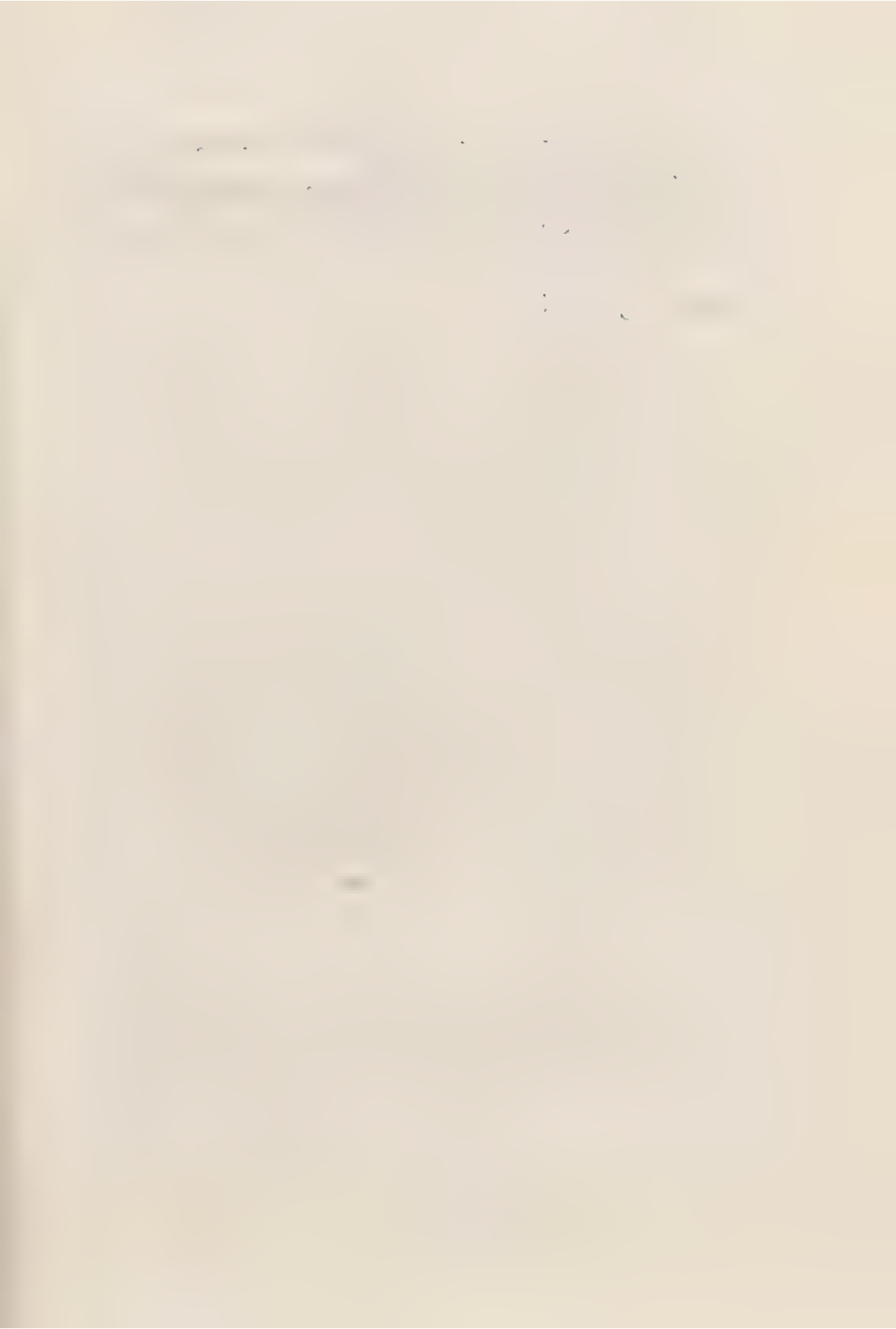
5 ـــ حاولنا تخريج النصوص الشعرية الواردة، وما أكثرها! وضبط ألفاظها وأوزانها، ومقابلتها على الدواوين، وعددنا ما أورده المؤلف من شعر لأهل بيته أصلاً، عندما كان يتعذر علينا تخريجه. وأضربنا عن تخريج الأحاديث، لأن هذا من عمل رجال الحديث.

6 ـــ وضعنا عناوين للفقرات، حسب ما حسبناه يناسب موضوعها، وجعلناها بين معقوفين، لنشير إلى أنها من عملنا، لا من لفظ المؤلف، وجعلنا لكل ترجمة رقماً تيسيراً للاستفادة. واخترنا العناوين بالهامش، واجتزأنا بالكلمة الأولى من كل عنوان، إلا عند خوف اللبس.

7 ــ وضعنا طائفة من الفهارس لتيسير الاستفادة من المتن.

هدا، ولا ندعي أننا قدمنا متناً معصوماً من الجهل والغفلة والخطأ والنسيان، ولكننا ندعي أننا جهدنا لإصلاح ما أفسده الدهر. والله الموفق للصواب.

تطوان في: 30 مارس 1989



*** رياض الورد ***
فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد

المقدمة والباب الأول



بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

[مقدمة المؤلف]

إن خير ما سطرته الأقلام، حمد الله والصلاة على سيدنا محمد خير الأنام، وآله وصحابته ومن انتمى إليهم من الأعلام.

هذا، وبعد [illegible] علي الذمم، وبيضت علي العمائم، عقيب بالفحص عن الدرّ المكنون، [illegible] لفيض حمدون، حتى اقتبست من جواهر محاسنه، ذخائر العقول [illegible] من رياض مآثره، بمحاضره جوهر، فحمدت الله الذي يسّر [illegible] ضيق صدري، وقلة بضاعتي، وكثرة إضاعتي وقد أتيت من المقال، [illegible] عين ومق، ويرغم أنف قالٍ، وإن كنت ممن هو في ثوب العيّ رافل، وعن نسبته للقصور غير غافل.

[الكامل]

1) أوليس مِثْلي قاصراً في مثله ... والحقُّ نورٌ واضحٌ للمُهتدي

وسميته: رياض الورد، فيما[1] انتمى إليه[2] هذا الجوهر الفرد. وفيه خمسة أبواب.

(1) خاء وألف: إلى ما.

(2) باء: اختص به.



الباب الأول

في اسمه وكنيته ولقبه ونسبه العريق[3]، ومن اتّصل نسبه بنسبه، أو اشتهر من الأعلام بشهرته.

[مشروعية الباب]

اعلم أن معرفة النسب، مما يتأكد في حقها الطلب. لوّح الكتاب العزيز بالإرشاد إليها، وصرّح الحديث الكريم بالحضّ عليها. قال تعالى: «يا أيها الناسُ إنا خلقْناكُمْ من ذَكَرٍ وأُنثى، وجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقبائلَ لتعارفوا»[4]. قال الحافظ ابن حجر: أي يعرف بعضكم بعضاً بالنسب. يقول فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان. وقد أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حسان بن ثابت، أن يأخذ ما يحتاج إليه من علم نسب قريش من أبي بكر، رضي الله عنه. فلأجله وجب (الاعتناء بهذا الباب، فجعلته كالغرة في وجه)[5] الكتاب.

[إسم الشيخ حمدون]

أما الشيخ، رضي الله عنه، فحمدون، من الحمد، زيادة في الحامدية أو المحمودية، كعبدون من العلبة. وهو علم مرتجل تلزمه الواو في الأحوال كلها، والإعراب

---

(3) ألف: الشريف.

(4) سورة الحجرات: 13 .

(5) زيادة من خاء.

بالحركات على النون، غير منصرف على رأي أبي علي الفارسي[6] في اعتبار مطلق الزائد، ومنصرفاً على المختار.

[كنيته]

وأما كنيته، فأبو عبد الله، وأبو الفضل وأبو المواهب، وأبو الفتح وأبو الفيض، وهي أشهر كناه. وكان بعض العارفين الصالحين لا يكنيه إلا بها. وبذلك اقتصرنا عليها في هذا الموضوع. ولم تكن الكنى لأمة من الأمم إلا للعرب، وهي من مفاخرها. قال عمر رضي الله عنه: «أشيعوا الكنى فإنها مَنْبهة». والتكنية إعظام. وما يؤهل لها إلا ذو شرف. قال الشاعر:

[البسيط]

1) أُكْنيه حين أناديه لأُكْرِمَهُ ... ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْأَةُ اللَّقَبُ[7]

[الطويل]

2) وكانت صَبِيلا شخْصاً فتطاولتْ ... وكانت تُسمّى دلّةَ فتكنّتِ

فالذي دعا العرب إلى التكنية، هو الاجلال عن التصريح بالاسم. وقيل في قوله تعالى: «فَقولا له قَوْلاً لَيّناً»[8] أي كنّاه. وهذا يخالف كونها من مفاخر العرب

ثم التكنية، كما تكون باسم الولد، كأبي الحسن، لعلي بن أبي طالب، تكون بما يلابس المُكنّى من غير الأولاد. كقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، في علي، كرم الله وجهه، أبا تراب.

[لقبهُ]

وأما لقبه، فقد لقبه بعض المشارقة في رحلته للحجاز ببعض ألقابهم الحجازية، كمحيي الدين وعز الدين. إلا أنه ينبغي التحفظ منه[9]، فإنه من الأعلام المخالفة

---

(6) الحسن بن أحمد نحوي وفقيه لغة. (ت 377هـ) ترجمته في: الوفيات 2/80 ـ 82 رقم 163 الغاية: 1/206 ـ 207 . رقم 951 . البغية: 1/496 ـ 498 . رقم 1030 .

(7) بعده بياض في ألف منقول عن الأصل.

(8) سورة طه: 45 .

(9) باء وخاء: عنه.

مشروع، لما فيه من تزكية النفس المنهيّ عنها، كما صرح به القرطبي[10] في شرح الأسماء الحسنى إذ هو على معنى من يحيي الدين، أو يحيي الله به الدين. وفي ذلك[11] قال الفضل بن سهل[12] من قصيدة:

[الطويل]

1) أرى الدين يستحيي من الله أن يُرى ... هـــذا له فخـــرٌ وذاك فصـــيرُ
2) وقد كثُرت في الدين ألقاب عُصبةٍ ... هُــمُ في مــراعي المُـنـكَـرَات حميرُ
3) وإني أُعــــزُّ الدين عن عــزِّه بهمْ ... وأعْــلمُ أن الذنب فيــــه كبــيرُ

ولما دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، على أم المؤمنين زينب قال لها: ما اسمك؟ قالت بَرّة. (بفتح لباء). فكره ذالك. وقال: لا تُزكّوا أنفسكم. وسماها زينب.

وكان النووي يقول، حسبما نقله في المدخل[13]: لا أجعل من دعاني بمحيي الدين في حِلّ ثم قال في المدخل[14]: «فمن نادى بهذا اللقب فأجاب[15] به، ارتكب ما لا ينبغي، لأنه كذب». وفي حديث: «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنة. والكذب فجور، والفجور يهدي إلى النار». فإذا قال: محيي الدين، يقال: أهذا الذي أحيا الدين؟. فإذا أخذ صحيفته، وجدها مشحونة بالكذب». اهـ.

فإن قيل: هذا لم يضعه الإنسان لنفسه، وإنما سماه به أبوه في صغره وعدم تكليفه. قلنا: الغالب في هذه الألقاب أن لا توضع للملقّب بها، إلا بعد ظهوره في مدرك معناه[16]، تفؤلاً ببلوغه غايته. ذالك بعد التكليف في الغالب والحكم له. ولا

---

(10) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح القرطبي مفسر مشهور (ت 671هـ)، ترجمته في الوافي: 2/122 — 123 . رقم 470 . النفح: 2/210 — 21 .

(11) خاء: وفي ذم ذالك.

(12) وزير المأمون عباسي (ت 202هـ) ترجمته في الوفيات 4 41 — 44 رقم 529

(13) المدخل 1 127 ، بتصرف في النقل ويلاحظ أن هذا الفصل ينظر عموماً إلى المدخل 1/122 — 130 .

(14) المدخل: 1/123 — 124 . بتصرف في النقل.

(15) خاء: وأجاب.

(16) خاء: معناها.

يقال إنها خرجت عن أصلها بالنقل لِلْعَلَمِيَّة، لأنا نقول: كثيراً ما يقصدون بالأعلام الإضافية، ولاسيما في الألقاب، مع تعيين مسماها، إفادة معناها التركيبي، لغرض تفاؤل أو مدح أو غيرهما، كأبي السعود وحجة الاسلام وغيرها ونحوها. قال أبو العلاء المعرّي[17]:

[الوافر]

1) سَأَلْنَ فقُلْتُ مَقْصَدُنا سَعِيدٌ   فَكَانَ اسْمُ الأَمِيرِ لهنّ فالا

وقال آخر:

[الوافر]

1) أتيْتُ أبا المحاسِنِ كيْ أراهُ   لشَوْقٍ كادَ يجْذبُني إليهِ[18]

2) فلما أن أتيْتُ رَأَيْتُ[19] فَرْداً   ولم أرَ من بَنيهِ ابناً لديهِ

وقوله: أبا المحاسن، لقب، وإن كان مصدّرا بأب، لأن الفرق بينه وبين الكنية اعتباري، كما صرح به المَناري في «حواشي المطوّل».

[شهرته]

وأما شهرة رهطه وقبيله، فابن الحاج، وهي شهرة قديمة، كما في ترجمة أبي البركات من الاحاطة[20] والديباج[21]، قائلين يعرف بابن الحاج. شهرة قديمة. وفي ترجمته (زاد)[22] في الديباج: «لا يعلم لمن الإشارة بها من سلفه»[23].

ثم لفظ الحاجّ، يحتمل أن يكون علماً على رجل من سلفه فنقول: من إسم فاعل حَجَّ المضعف، وأدخلت عليه أل للمح الأصل المنقول عنه، وهو القصد إلى مكة

(17) سقط الزند: 48 .

(18) البيتان في: المحاضرات: 12 غير منسوبين. شرح الخريدة للطيب ابن كيران ملزمة 7 . ص 2

(19) باء وخاء: وجدت.

(20) الإحاطة: 143/2 .

(21) الديباج: 2/ 269 — 274 .

(22) زيادة من باء وخاء.

(23) الديباج: 2/ 269 .

للنسك، أو صفة صريحة، أي خالصة للوصفية، وهي التي لم تغلب عليها الاسمية فتحري صفة لموصوف[24]، وتعمل عمل الصفات، وتتحمل ضميراً وتوصف بها أل لشبهها بالفعل. ولعل هذا هو المتعيّن، إذ لم أقف على من اسمه الحاج، من آباء الشيخ العارف بالله، سيدي أبي إسحاق، إبراهيم ابن الحاج[25]، الآتي ذكره إلى العباس بن مرداس[26]. وعلى كلّ، فتسقط همزة الوصل، إذ هو صفة لعلم مفرد مضاف لعدم مفرد، أو لصفة جارية مجرى اللقب. وقول بعض الفقهاء: إذا نسب لجده نحو محمد ابن ماللك لم تحذف، غير صحيح. بل لا فرق بين الأب[*] دنية أو بواسطة. وكأنه غرّه كلام ابن قتيبة[27]. وليس مراداً له، وإنما مراده ما ظهر من تمثيله. انظر «فتح القدوس».

[نسبه]

وأما نسبه، فهي مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، من طريق خصفَة بن قيس عيْلان بن مضر، بإسقاط ابن بين قيس وعيلان، على أن عيلان لقب له، وهو الذي صحّحه ابن حزم[28] في الجمهرة[29]. وأنشد قول نصر بن سَيَّار:

[البسيط]

1) أنـا ابْنُ خِنـدف تنميني قـائلُها للصّـالحـات وعمّي قيسُ عَيْـلانـا

لُقّب به لعبد احتضنه اسمه عيلان، أو لأنه كان يعاتب على جوده فيقال له: لتعسَّ عيبك العيبة.

---

(24) خاء: على موصوف.

(25) سيعرف به المؤلف في الباب الثالث. (الترجمة رقم 29).

(26) سيعرف المؤلف في هذا الباب به.

(*) كذا بالأصل.

(27) أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي (ت 267هـ) أديب ولغوي ترجمته في: البغية: 63/2 ـ 64. رقم 1444. الوفيات: 42/3 ـ 44. رقم 328.

(28) أبو محمد، علي بن حزم أديب فقيه كبير (ت 456هـ) ترجمته في جذوة المقتبس: 308 ـ 311. رقم 708. المعجب 1 354. النفح: 77/2 ـ 84 الوفيات: 325/3 ـ 330 رقم 448.

(29) الجمهرة: 10.

وقال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر:[30] أكثر الناس على أن قيساً هو ابن عيلان بن مضر، بزيادة ابن بين قيس وعيلان[31]. قال[32]: ويشهد له قول زهير:

[الطويل]

1) إذا ابْتَـدَرتْ قَيْسُ بْنُ عَيْـلانَ غايةً مِنَ الْمَجْـدِ من يَسْبِقْ إليهـا يُسَبَّقِ[33]

وقول العباس بن مرداس:

[الطويل]

1) فإن تكُ في سَعْد العَشـيرةِ تَـلْقِني إلى الغُرِّ من قَيس بن عَيْلان مَوْلدي[34]

وعلى كلّ، فيلتقي نسب الشيخ أبي الفيض حمدون مع النبي، (صلّى الله عليه وسلّم)، وجميع العشرة في مضر، لأنه، صلى الله عليه وسلم، وجميع العشرة من بني إلياس. وأبو الفيض من بني قيس عيلان، وكلاهما ابن لمضر.

وقد حازت المضرية بولاده رسول الله، (صلّى الله عليه وسلّم)، وجميع العشرة، الفخر الذي لا يُباهَى. وفي الحديث[35] «واْخْتارُ مِن الْعرَب مُضر» و«خيْرُ الْعرب مُضَرُ». وقال، صلّى الله عليه وسلّم، وقد سمع منشداً ينشد:[36]

[البسيط]

1) إني امْـرؤٌ حِمْـيـريٌّ حيْـن تنسُـبني لا من ربيعـة آبـائي ولا مُضَـرا:

«ذالك أَلأَمُ لجَدِّك، وأَقَلُّ لجَدِّك»[37]

---

(30) أبو عمر، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي محدث حافظ (ت 460هـ) ترجمته في: جذوة المقتبس 367 — 369 رقم 874 الصلة: 677/1 — 679 رقم 1501 الترتيب 127/8 — 130 . الديباج: 367/2 — 370 . الوفيات: 7/ 66 — 72 . رقم 837 .

(31) (32) لم نقف على قوله هذا في الاستيعاب.

(33) لم يرد هذا البيت في شعر زهير، صنعة الأعلم الشنتمري.

(34) ديوانه: 119: وفيه: إلى الفرع من قيس عيلان مولدي.

(35) ينقل المؤلف هنا عن: شرح العقود: 509/1 — 510 .

(36) البيت في: الاكتفاء: 19/1 . محاضرة الأبرار: 271/1 . الدر النفيس: 42 .

(37) الاكتفاء: 19/1 «ذالك أبعد لك من الله ورسوله» محاضرة الأبرار: 271/1 . «ذالك الأم لك أبعد من الله ورسوله».

وقال التّنسي[38]: «كانت قحطان تناضل المضرية في كثير من مفاخرها، فلم تدرك شأوها، بل حازت الفخر الذي لا يبارى برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وولادة الخلفاء شرقاً وغرباً. وإلى ذلك أشار جرير بقوله[39]:

[الكامل]

1) إن الذي حَرم المكارم تغلباً — جعل النبوءة والخلافة فينا

2) مُضرٌ أبي وأبو المُلوكِ فهلْ لكُمْ — يا أهلَ تغلِبَ من أبٍ كأبينا؟!

وذكر محاورات وقعت بين القبيلين بمحضر الملوك.

ولاسحاق بن إبراهيم الموصلي:[40]

[الطويل]

1) إذا مُضرُ الحمراءُ كانتْ أرومتي — وقام بنصري حازمٌ وابنُ حازم[*]

2) عطسْتُ بأنفٍ شامخٍ وتناولتْ — يداي الثُّريّا قاعداً غيرَ قائم

ولبشار بن برد:

[الطويل]

1) إذا ما غضبنا غضبةً مُضريّةً — هتكْنا حجاب الشَّمْسِ أو تقطُرَ الدِّما[41]

2) إذا ما أعرنا سيّداً من قبيلةٍ — ذُرى منبرٍ، صلّى علينا وسلّما[42]

وقد تفرّع من خصفة بطنان عظيمان: بنو سُليْم، كبير، بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، وهوازن بن منصور، أخو سليم. ويلحق بهذين البطنين بطون صغار تفرعت من خصفة أيضاً: بنو مازن بن منصور، وبنو محارب بن خصفة.

---

(38) أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني (ت 899هـ) ترجمته في: النيل 329 الضوء 8/120 رقم 274 الدرة: 143/2 رقم 609 الفهرس: 267/1 — 268 . الشجرة: 267/1 . رقم 986 . النفح والأزهار في مواضع متفرقة.

(39) شرح ديوانه: 578 — 579 .

(40) أديب نديم عباسي (ت 235هـ) ترجمته في طبقات ابن المعتز: 359 — 361 . الوافي: 388/8 — 393 . رقم 3826 . الوفيات: 1/ 202 — 205 . رقم 87 .

(*) البيتان في: محاضرة الأبرار: 271/1 .

(41) ديوانه: 184 — 185 وفيه: تمطر .

(42) انتهى النقل عن شرح العقود .

ثم الشيخ أبو الفيض من بني سُلَيْم، من طريق ذَكْوان بن رفاعة بن الحارث بن يحيى بن الحارث[43] بن بَهْثَة بن سُلَيْم، في قبائل كثيرة: دَوْس ومَذْحِج وزَبيد. والمراد عند الإطلاق، سُلَيْم بُن منصور، في قيس عَيْلان.

وفي بني سُلَيْم يقول عمرو بن معدي كرب[44]: (لله دَرُّ بني سُلَيْم، ما أحسن في الهيجاء لقاءها[45]، وأكثر في اللَّزْبات عطاءها، وأثبت في المكرمات بقاءها). وهو نثر ليس بشعر. واللَّزْبات، ساكن الزاي، جمع لَزْبة، وهي الشدة.

[مفاخر بني سُلَيْم]

ولبني سليم مفاخر كثيرة، منها:

1 ــ قوله، عليه السلام، يوم حنين: «أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك من سُلَيْم». خرَّجه عبد الباقي في معجمه. والعواتك ثلاث نسوة من أمهات النبي، صلى الله عليه وسلم: عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان السُّلَمي، أم عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال المذكور، أم وهب، أبي آمنة بنت وهب، أم النبي، صلى الله عليه وسلم. فالأولى عمة للثانية، والثانية عمة للثالثة. وبنو سُلَيْم تفخر بهذه النسبة.

2 ــ ومنها أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «يا أبا الدرداء: إذا فاخرت ففاخر بقريش، وإذا كاثرت فكاثر بتميم، وإذا حاربت فحارب بقيس. ألا إنَّ وجوهها كنانة، ولسانها أسد، وفرسانها قيس[46]. ألا إن لله فرساناً في سمائه وهم الملائكة، وفرساناً في أرضه وهم قيس. وإن آخر من يقاتل عن الإسلام حين لا يبقى إلا ذكره، ومن القرآن إلا رسمه قيس. قلت: يا رسول الله من أيّ قيس؟ قال: من سُلَيْم».

3 ــ ومنها أنها ألَّفت معه، صلى الله عليه وسلم، يوم فتح مكة. أي شهد معه منهم ألف رجل[47].

---

(43) سقطت الكلمة من ألف وباء .

(44) شاعر مخضرم . ترجمته في: الشعر والشعراء: 289/1 .

(45) ميم: ما بين قوسين ساقط .

(46) ألف: الكلمة ساقطة .

(47) سيرة ابن هشام: 3 ــ 4/ 421 .

4 ـــ ومنها أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قدّم لواءهم يومئذ على الألوية، وكان أحمر[48].

5 ـــ ومنها أن عمر، رضي الله عنه، كتب إلى أهل الكوفة والبصرة ومصر والشام، أن ابعثوا إليّ من كل بلد أفضله رجلاً، فبعث أهل الكوفة عُتْبَةَ بْنَ فَرْقَدٍ السلمي، وبعث أهل مصر معْن بن يزيد السُّلمي، وبعث أهل الشام بالأعور السُّلمي. كذا قاله جماعة.

[العباس بن مِرْداس السُّلَميّ]

ثم الشيخ أبو الهيثم من بني الصحابي الجليل شاعر النبي، (صلّى الله عليه وسلّم)، وأحد خطبائه، العباس بن مرْداس بن أبي عامر، وقيل أبي غالب بن حارثة بن عبد عبس، بن رفاعة بن الحارث بن بهثة، بن سليم بن منصور.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب:[49] «يكنى أبا الفضل، وقيل أبا الهيثم. أسلم قبل فتح مكة بيسير. وكان مرداس أبوه شريكاً ومصافياً لحرب بن أمية، وقتلهما جميعاً الجن. خبرهم معروف عند أهل الأخبار. وذكروا أن ثلاثة نفر ذهبوا على وجوههم، فهاموا ولم يوجدوا ولم يسمع لهم بأثر: طالب بن أبي طالب، وسنان بن حارثة المري، ومرداس بن أبي عامر، أبو عباس بن مِرْداس». اهـ.

وذكر ابن هشام[50] أنه كان لمرداس وثن يعبده، يقال له ضمار. فلما حُضِر قال لعباس: أي بُني: أُعبد ضمارا فإنه ينفعك ويضرك. فبينما عباس يوماً عند ضمار، إذ سمع من جوف ضمار منادياً يقول:

[الكامل]

1) قُـلْ للقَبـائـل منْ سُـلَيْـمٍ كُلِّهـا	أَوْدَى ضِـمـارٌ وعاشَ أَهْـلُ المَسْجـدِ[51]
2) إن الذي وَرِثَ النبـــوةَ والهُـــدى	بَعْـدَ ابْنِ مَـرْيَـمَ من قُرَيْشٍ مُهْتَـدي

---

(48) سيرة ابن هشام: 3 ـــ 4/ 426 .

(49) الاستيعاب: 2/ 817 . رقم 1379 . (مع بعض التصرف) .

(50) سيرة ابن هشام: 3 ـــ 4/ 427 .

(51) القطعة في الاكتفاء 1 232 . الأغاني: 14/ 286 . مع تغيير في الرواية .

3) أودى ضمارٌ وكان يُعْبَدُ مرةً ... قبلَ الكتابِ إلى النبيِّ مُحمَّدِ

فحرق العباس ضمارا، ولحق بالنبي، صلى الله عليه وسلم.

ثم قال ابن عبد البر [52]: «وكان عباس من المؤلَّفة قلوبهم، وممن حسن إسلامه منهم. ولما أعطى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المؤلفة قلوبهم من سَبْي حُنَيْن مئة من الإبل، ونقص طائفة من المئة، منهم عباس بن مرداس. جعل عباس يقول، إذ لم يبلغ به من العطاء ما بلغ بالأقرع بن حابس وعُيَيْنَة بن حِصْن:

1) أتجعلُ نَهْبي ونهب العَبيد ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأقْرَعِ [53]

2) فما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ ... يَفُوقانِ مِرْداسَ في مَجْمَعِ

3) وما كُنتُ دون امرئٍ منهما ... ومن تضَعِ اليومَ لا يُرْفَعِ

4) وقد كنتُ في القومِ ذا تُدْرَإٍ ... فلَمْ أُعْطَ شيئاً ولم أُمْنَعِ

في شعر مطوَّل. فأتمّ له، (صلّى الله عليه وسلّم)، المئة. وفي رواية ابن إسحاق [54]، فقال رسول الله، (صلّى الله عليه وسلّم): «اِذْهَبوا فاقْطَعوا عَنّي لِسَانَهُ». فأعطوه حتى رضي [55].

(وفي رواية: فتكرم أن يأخذ شيئاً. فبعث إليه المصطفى بُجّة فقبلها ولبسها) [56].

وكان شاعراً محسناً مشهوراً بذالك. روي أن عبد الملك بن مروان قال يوماً، وقد ذكر الشعراء في الشجاعة، فقال: أشجع الناس في الشعر، عباس بن مرداس حيث يقول:

[الوافر]

1) أُقاتِلُ في الكَتيبةِ لا أُبالي ... أَحَتْفي كانَ فيها أم سِواها [57]

---

(52) الاستيعاب: 2/ 817 ــ 818 . مع بعض الاختصار والزيادة .

(53) الأبيات في سيرة ابن هشام: 3 ــ 4/ 493 ــ 494 . الشعر والشعراء: 2/ 634 . الأغاني: 14 290 ديوان العباس: 84 . وبين هذه المصادر خلاف في الرواية . الاكتفاء: 2, 360 .

(54) محمد بن إسحاق بن يسار . مؤرخ السيرة المشهور . (ت 151هـ) ترجمته في الوافي: 2/ 188 ــ 189 . رقم 550 . الوفيات: 4/275 ــ 277 . رقم 612 .

(55) سيرة ابن هشام: 3 ــ 4/ 494 . الاكتفاء: 2/ 360 .

(56) ما بين قوسين غير وارد في: الاستيعاب: 2/ 818 .

(57) ديوان العباس: 110 . وفيه: (أشد على الكتيبة لا أبالي) .

وله في يوم حُنَيْنٍ أشعار حسان، ذكر كثيراً منها ابن إسحق في مغازيه[58] منها قوله في قصيدة[59]:

[البسيط]

1) يا بُعْدَ منزلِ من ترجو مودّتهُ ... ومن أتى دونه الصّمّانُ فالحَفَرُ

2) دَعْ ما تقدّمَ من عهدِ الشبابِ فقد ... ولّى الشبابُ وجاءَ الشيبُ والذَّعَرُ

3) واذكُرْ بلاءَ سُلَيْمٍ في مواطِنِها ... وفي سُلَيْمٍ لأهلِ الفَخْرِ مُفتَخَرُ

ومنها قوله[60]:

[الطويل]

1) جزى اللهُ خيراً خَيْرَنا لصديقهِ ... وزوّدهُ زاداً كزادِ أبي سعدِ

2) وزوّدهُ صِدْقاً وبِرّاً ونائِلاً ... وما كان في تلكَ الوفادةِ من حَمْدِ

ومنها قوله[61]:

[الكامل]

1) يا خاتِمَ النُّبَثاءِ إنكَ مُرْسَلٌ ... بالحقِّ كُلُّ هُدى السَّبيلِ هُداكا

2) إنّ الإلهَ بنى عليكَ محبّةً ... في خَلْقِهِ ومحمّداً سمّاكا

(فكساه رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته)[62] ومنها قوله[63]:

[البسيط]

1) إني إخالُ[64] رسولَ اللهِ صَبَّحَكُمْ ... جَيْشٌ له في فضاءِ الأرضِ أركانُ

2) فيهم أخوكم سُلَيْمٌ ليس تارِكَكُمْ ... والمسلمونَ عبادَ اللهِ غسّانُ

3) وفي عضادَتِهِ اليمنى بنو أسدٍ ... والأجربانِ بنو عبسٍ وذُبيانُ

---

(58) لم ترد نصوص العباس في القطعة المنشورة من سيرة ابن إسحاق .

(59) الأبيات في سيرة ابن هشام 3 ــ 4 466 الاكتفاء 2 344 ديوان العباس 53 ــ 54 والأبيات مختلفة الترتيب في باء .

(60) ديوان العباس: 49 .

(61) البيتان في سيرة ابن هشام 3 ــ 4. 461 . ديوان العباس 95 وقد سقط في باء

(62) زيادة من المؤلف لم ترد في الاستيعاب: 2/ 819 .

(63) الأبيات في سيرة ابن هشام: 3 ــ 4، 441 ديوان العباس: 107 ــ 108

(64) سيرة ابن هشام: 3 ــ 4/ 441 . ديوان العباس: 107: إني أظن .

(أكثر الأدباء ينشدون ذبيان بالجر. عطف على عبس وهو غلط. والصواب الرفع، عطف على «بنو»، بدليل الأبيات قبله. قاله ابن الطيب[65] في حواشي القاموس)[66].

وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية على نفسه، كأبي بكر الصديق، وعثمان بن مظعون، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمان بن عوف، وقيس بن عاصم. وحرَّمها قبل هؤلاء عبد المطلب، وعبد الله بن جدعان، وشَيْبة بن ربيعة، وورقة بن نوفل، والوليد بن المغيرة، وعامر بن الظَّرب، وهو أول من حرمها على نفسه. وقيل: بل[67] عفيف بن معدي كرب. «انتهى من الاستيعاب وزيادة»[68].

[الخنساء السُّلَمية]

وأم العباس بن مرداس، وهي الخنساء بنت عمرو بن الشريد السُّلَمية، كما قاله ابن الكلبي[69]، واعتمده ابن حزم في الجمهرة[70] وغيرهم. واسمها تماضر، بضم التاء. كما قاله صدر الأفاضل.

قال في الاستيعاب[71]: «قدمت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع قومها من بني سُلَيم، فأسلمت معهم. وذكروا أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يستنشدها ويعجبه شعرها. فكانت تنشده وهو يقول: هيه يا خُناس، ويومئ بيده، صلى الله عليه وسلم. وكانت في أول أمرها تقول البيتين والثلاثة، حتى قتل أخواها:

---

(65) محمد بن الطيب الشركي الصميلي . لغوي كبير (ت 1170هـ) . ترجمته في: السلوة: 52/3 . الفهرس: 1067/2 ـــ 1071 . الحياة: 258 ـــ 264 .

(66) إضاءة الراموس لم أقف على نصه فيما نشر منه . وما بين قوسين زيادة من المؤلف ، عاد بعدها إلى النقل عن الاستيعاب: 2/ 809 ـــ 820 . بتصرف .

(67) في الأصل: ابن . والتصويب من: الاستيعاب: 2/ 820 .

(68) الاستيعاب: 2/ 820 .

(69) في مقدمة ديوان العباس: 3 ـــ 5: ذكر لروايات عن ابن الكلبي نفسه ، وعن غيره ، تفيد أن الخنساء ليست بأمه ، وإنما هي إمرأة أبيه .

(70) الجمهرة: 263 .

(71) الاستيعاب: 4/ 1827 . رقم 3317 . مع بعض التصرف في النقل .

شقيقها معاوية بن عمرو، وقتله هاشم وزيد[72] المرِّيان، وأخوها لأبيها صَخْر. وكان أحبَّهما إليها، لأنه كان حليماً جواداً محبوباً في العشيرة. كان غزا بني أسد، فطعنه أبو ثور الأسدي، فمرض منها قريباً من حول، ثم مات. فلما مات أخواها، أكثرت من الشعر وأجادت.

فمن قولها في صخر أخيها:

[المتقارب]

1) أعَيْـنَيَّ جـودا ولا تَجْـمُـدا ... ألا تَبْـكِيـانِ لِصَخْـرِ النَّـدى؟![73]

2) ألا تبـكـيـانِ الجريءَ الجميـلَ ... ألا تبـكـيـانِ الفـتى السَّيـدا؟!

3) طـويـلُ النِّجـادِ، عظـيمُ الرَّمـاد ... سـادَ عشـيرتَـهُ أمْـرَدا

انتهى.

وذكر الحافظ أبو عبد الله التّنّسي، أن صخراً لما جرحَ وطال ذالك زمناً طويلاً، وسمع إمرأة تسأل عنه زوجته، فقالت لها: لا حيٌّ فيرجى، ولا ميت فينعى. قد لقينا منه الأمرّين. فقال[74]:

[الطويل]

1) أرى أمَّ صَخْـرٍ مـا تجفُّ دمُوعُهـا ... ومَـلَّتْ سُـلَيْمى مَضْجَعي ومَكـاني

2) لعمْـري لقـد نبّهتُ من كان نـائماً ... وأسْـمـعتُ من كانَتْ له أذُنـانِ

3) فـأيّ امْرئٍ سـاوى بـأمّ حَـليـلةً ... فـلا عـاشَ إلا في شـقـا وهَـوانِ

ثم شق موضع جرحه، فكان سبب حتفه. فعَظُم مصاب الخنساء به، فأكثرت فيه من المراثي. منها قولها من قصيدة[75]:

[البسيط]

1) يـا صَخْـرُ ورَّادَ مـاءٍ قـد تَـوارَدَهُ ... أهْـلُ الميـاهِ ومـا في وِرْدِه عـارُ

---

(72) في الأصل: دريد . والتصويب من الاستيعاب: 1827/4 .

(73) الأبيات في: ديوانها: 31 . الأغاني: 15/ 68 .

(74) الأبيات في. الأصمعيات: 146 . الأغاني: 15، 63 . مع خلاف في الرواية .

(75) الأبيات في: ديوانها: 50 ــ 51 . الأغاني: 5، 64 ــ 65 مع خلاف في الرواية رفع الحجب: 2/ 128 .

إلى أن قالت:

2) إن صَخْراً لمولانا وسيِّدُنا ... وإنَّ صَخْراً إذ نَشْتو لنَحَّارُ
3) وإن صَخْراً لتأتَمُّ الهُداةُ به ... كأنه عَلَمٌ في رَأسِهِ نارُ
4) جوَّابُ قاصيَةٍ، جَزَّازُ ناصيةٍ، ... عَقَّادُ ألْوِيَةٍ، للجَيْشِ جرَّارُ
5) حامي الحقيقةِ، محمودُ الخليقةِ، ... مَهْدِيُّ الطريقةِ، نَفَّاعٌ وضرَّارُ
6) لم تَرَهُ جارةٌ يمشي بساحتِها ... لريبَةٍ حين يُخْلي بيْتَهُ الجارُ

ومنها قولها[76]:

[الوافر]

1) ألا يا صَخْرُ: إن أبْكَيْتَ عَيْني ... لقد أضْحَكْتَني دَهْراً طويلاً
2) بَكَيتُكَ في نِساءٍ مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحَقَّ من أبْدى العَويلا
3) دَفَعْتُ بكَ الجليلَ وأنت حيٌّ ... فمن ذا يَدْفَعُ الخطْبَ الجليلا؟!
4) إذا قَبُحَ البُكاءُ على قتيلٍ ... رَأيْتُ بكاءَكَ الحَسَنَ الجَميلا

ومنها قولها[77]:

[الوافر]

1) ألا يا صَخْرُ لا أنْساكَ حتى ... أفارِقَ مُهْجَتي وأشُقَّ رَمْسي
2) يُذَكِّرُني طُلوعُ الشَّمْسِ صَخْراً ... فأبْكيهِ لكلِّ غروبِ شمسِ
3) ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانِهِمْ لقَتلتُ نَفْسي
4) وما يَبْكونَ مِثْلَ أخي ولكن ... أُعَزِّي النَّفْسَ عنه بالتأسّي

وروي أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لقيها فقال: أنشدينا فأنشدته(*):

[البسيط]

1) تَرى الأمورَ سواءً، وهي مُقْبِلةٌ ... وفي تأمُّلِها تِبْيانُ ما الْتَبَسا
2) ترى الحليسَ يقولُ الحقَ تحْسَبُهُ ... نُصْحاً، وَهيْهاتَ! ما نُصْحاً به التمسا
3) فاسْمَعْ مقالَتَهُ، واحْذَرْ عداوَتَهُ، ... والْبَسْ له ثَوْبَ شَكٍّ مثلَ ما لَبِسا

---

(76) ديوانها: 124 .

(77) ديوانها: 90 . والبيت الأول فيه مؤخر .

(*) لم أجد هذه الأبيات في ديوانها .

فقال له عمر: أنت أشعر كل ذات ثدي. فقالت: وكل ذي خُصْيَيْن.

وكان بشار يقول: ما قالت إمرأة شعراً إلا وظهر عليه الضعف. فقيل له: حتى الخنساء؟ فقال: لا. تلك لها أربع خُصَى.

وكان النابغة الذبياني تُضْرب له قبة من أَدَم بسوق عكاظ، يعرض عليه الشعراء فيها أشعارهم. فدخل عليه حسان بن ثابت، وعنده الأعشى، وقد كان أنشده شعراً له فاستحسنه، وإذا بالخنساء فأنشدت:

1) يا صَخْرُ وَرَّادَ ماءٍ قد تَوارَدَهُ.... الخ

فقال لها النابغة: لولا أن الأعشى أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الجن والإنس. فقال حسان: أنا أشعر من الجميع حيث أقول:[78]

[الطويل]

1) لنا الجفَناتُ الغرُّ يلمعْنَ بالضُحى   وأَسْيافُنا يقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دما

2) ولدْنا بني العنْقاء وابنيْ مُحرِّقٍ   فأكْرِمْ بنا خالاً، وأكْرِمْ بنا ابنَما!

فقال له النابغة: إنك شاعر غير أنك قلت: الجفنات، فقلّلت العدد. ولو قلت: الجفان، لكان أكثر. وقلت: يلمعن بالضحى. ولو قلت: يشرقن بالدجى، لكان أبلغ. وقلت: يقطرن. ولو قلت: يجرين. كان أبلغ. وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك. على أنك لا تُحْسن أن تقول:

[الطويل]

1) فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكي   وإن خلْتُ أن المُنتأى عنك واسعُ[79]

فقام حسان خجلاً منكسراً. «انتهى. الخ». بتقديم وتأخير.

[استطراد نقدي ولغوي]

قال[80] في زهر الأكم[81]: «قول النابغة: أشعر الجنّ والإنس، أو الإنس والجنّ[82]،

---

(78) ديوان حسان: 130 ــ 131 . وفيه تقدّم البيت الثاني .

(79) ديوان النابغة في: شرح الأشعار الستة: 374 .

(80) أبو علي اليوسي . وستأتي ترجمته . الترجمة رقم 7 .

(81) زهر الأكم: 1/ 219 ــ 220 . مع اختصار طفيف .

(82) زهر الأكم: 1/ 219: «أشعر الإنس والجن، أو الجن والإنس» .

خطأ في العربية، فإن المعطوف في حكم المعطوف عليه، وإسم التفضيل إنما يضاف إلى ما هو بعض منه. غير أنه، إن كانت الرواية تأخير الجن، أمكن أن يستسهل في التابع مالا يسوغ في المتبوع. وبيت النابغة الذي تبجح به، اعترضه الأصمعي في انتصاره للرشيد على البرامكة، بأن النهار سواء هو والليل في الإدراك واللحاق، ولا مزية لليل حتى يُخَصَّ بالذكر.

قلت: ليس لحاق النهار كلحاق الليل، الذي تنقطع الحركات لإقباله، ويستكن كل أحد لغشيانه، ويخضع تحت أطنابه. فتشبيه الملك به أحق». انتهى. الخ.

وقوله: غير أنك قلت: الجفنات، فقلّلت العدد. الخ. هذا مبني على أن جمعي التصحيح من قبيل جموع القلة. والتحقيق أنهما لمطلق الجمع، من غير نظر إلى القلة والكثرة، فيصلحان لهما. على أنهم قالوا: «إذا قرن جمع القلة بأل التي للاستغراق، أو أضيف إلى ما يدل على الكثرة، انصرف بذالك إلى الكثرة»[83]. وعليك بحفظ هذه القاعدة، فكثيراً ما يغفل عنها. نقله يس[84] في حواشي الالفية[85].

[عودة إلى الخنساء]

وقال أبو الربيع سليمان الكَلاعي[86] في الاكتفاء[87]، والحافظ أبو عمر ابن عبد البرّ في الاستيعاب[88]، عقب ما تقدم: «حضرت الخنساء حرب القادسية، ومعها بنون لها أربعة، فقالت لهم من أولّ الليل:

يا بَني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين. والله الذي لا إلاه غيره، إنكم لبنو رجل واحد، ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحت خالكـم، ولا هجَّنت حسبكم، ولا

---

(83) النص من: حاشية ياسين: 2/ 390 ــ 391 .

(84) ياسين العليمي الحمصي . (ت 1061هـ) نحوي بلاغي . ترجمته في معجم المطبوعات: 371 رقم 848 .

(85) حاشية ياسين: 2/ 390 ــ 391 .

(86) محدث أديب . (ت 634هـ) ترجمته في: التكملة: رقم 1991 . الذيل: 4/83 ــ 95 . الاحاطة: 4/295 ــ 308 . المرقبة: 119 ــ 122 . النفح: 4/ 473 ــ 476 .

(87) الاكتفاء: لم يرد النص فيما نشر منه .

(88) الاستيعاب: 4/ 1828 ــ 1829 . مع بعض التصرف في النقل .

غيّرت سنّكم. وقد علمتم ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل، في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية، خير من الدار الفانية، لقول الله عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا اصْبِروا وصابِروا ورابطوا واتَّقوا الله لعلَّكُمْ تُفْلِحونَ»[89]. فإذا أصبحتم غداً، إن شاء الله، سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى عنْ سياقها، وجللت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها، تظفروا بالمغنم والكرامة، في دار الخلد والإقامة. فلما أضاء لهم الصبح، بادروا مراكزهم، وأنشأ أولهم يقول:

[الرجز]

1) يا إخْوتي أرى العجوزَ الناصحةْ[90]
2) قد نَصَحَتْنا إذ دَعَتْنا البارِحةْ
3) مقالةً ذات بيانٍ واضِحةْ
4) فباكروا الحربَ الضروسَ الكالِحةْ
5) وإنما تَلْقَوْن عند الصائِحةْ
6) من آلِ ساسانَ كلاباً نابِحَةْ[91]
7) قد أيْقَنوا مِنكُمْ بِوَقْعِ الجائِحَةْ
8) وأنْتُمْ بين حَياةٍ صالِحَةْ
9) أو مَيْتَةٍ تورِثُ غُنْماً رابِحَةْ

وتقدم فقاتل حتى قتل، رحمه الله. ثم حمل الثاني وهو يقول[92]:

[الرجز]

1) إن العجوزَ ذاتُ حَزْمٍ وجَلَدْ
2) والنَّظَرِ الأوْفَقِ والرأيِ السَّدَدْ
3) قد أمَرَتْنا بالسَّدادِ والرُّشَدْ

---

(89) سورة آل عمران: 200 .

(90) الاستيعاب: 4/ 1828: إن العجوز . رفع الحجب: 129/2 .

(91) الاستيعاب: 4/ 1828 . الكلاب النابحة .

(92) الاستيعاب: 4/ 1829 . رفع الحجب: 2/ 129 .

4) نصيحةً منها وبِرّاً بالولَدْ
5) فباكروا الحربَ حُماةً في العَدَدْ
6) إما لفَوْزٍ باردٍ على الكَبَدْ
7) أو مَيْتةٍ تورِثُكُمْ غُنْمَ الأبَدْ
8) في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ والعَيْشِ الرغَدْ

فقاتل حتى استشهد. ثم حمل الثالث وهو يقول[93]:

[الرجز]

1) واللهِ لا نَعْصي العَجوزَ حَرفا
2) قد أمَرَتْنا حَدَباً وعَطْفا[*]
3) نُصْحاً وبِرّاً صادِقاً ولُطْفا
4) فبادروا الحرْبَ الضروسَ زَحْفا
5) حتى تَلُفُّوا آل كِسْرى لَفّا
6) أو تكْشِفوهُمْ عن حِماكُمْ كَشْفا
7) إنا نرى التَّقصيرَ عنكم ضَعْفا
8) والقَتْلَ فيكم نَجْدَةً وعُرْفا[94]

فقاتل حتى استشهد. ثم حمل الرابع وهو يقول[95]:

1) لستُ لخنساءَ ولا لأخْزَمِ[96]
2) ولا لعَمْرٍو ذي السَّناءِ الأقْدَمِ
3) إن لم أرِدْ في الجَيْشِ جَيْشِ العَجَمِ
4) ماضٍ على الهَوْلِ خِضَمٍّ خِضْرَمِ
5) إما لِفَوْزٍ عاجِلٍ ومَغْنَمِ
6) أو لِوَفاةٍ في السَّبيلِ الأكْرَمِ

---

(93) باء: الأبيات مختلفة الترتيب عن ألف وميم والاستيعاب .
(*) في الأصل: حرباً. وهو تصحيف.
(94) الاستيعاب: 4/ 1829: زلفى .
(95) الاستيعاب: 4/ 1829: رفع الحجب: 2/ 129 .
(96) الاستيعاب: 4/ 1829: للاخرم .

فقاتل حتى استشهد. رحمة الله عليه وعلى إخوته. فبلغ الخبر أمهم فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من الله أن يجمعني معهم في مستقر رحمته.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعطيها أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد مئتا درهم حتى قبض. انتهى[98]. ونقل الأصبهاني في الأغاني[99] عن أبي عبيدة، أن بني مرداس الأربعة، وكلهم من الخنساء، كل واحد منهم كان شاعراً، وعباس أشعرهم وأفرسهم وأشهرهم وأسودهم. وقد روى العباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ونقل عنه الحديث. انتهى.

[أولاد العباس بن مِرْداس السُّلَميّ]

قال ابن حزم في الجمهرة[100]: «ولعباس من الولد: كنانة وجاهمة[101] وسعيد وعبيد الله وغيرهم. (يعني حارثة وأُبَيّ بن العباس)[102]. ومن ولده عبد الملك[103] وهارون، ابنا حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة[104] بن العباس. روى عنه أبو عبيدة[105] وبكار بن أحمد بن بكار، بن عبد الله بن سعيد بن العباس بن مرداس، محدث عابد مات بمصر» انتهى.

---

(97) في الأصل: خصى. والتصويب من: الاستيعاب: 4/ 1829.

(98) الاستيعاب: 4/ 1829.

(99) الأغاني: 14/301 ـ 302.

(100) الجمهرة: 263.

(101) الجمهرة: 263: جلهمة.

(102) زيادة من المؤلف.

(103) عبد الملك بن حبيب السلمي. فقيه كبير (ت 238هـ) ترجمته في: جذوة المقتبس: 282 ـ 284. رقم 628 الإحاطة. 3/ 548 ـ 553 النفح: 2/ 5 ـ 12. تاريخ العلماء: 1/ 459 ـ 463. رقم 814. الترتيب: 4/122 ـ 142. بغية الملتمس: 364 ـ 366. رقم 1063. الديباج: 2/ 8 ـ 16. البغية: 2/ 109. رقم 1565.

(104) الجمهرة: 263: جلهمة.

(105) الجمهرة 263: الذي روى عنه أبو عبيدة، هو أُبَيّ بن العباس بن مرداس.

[أبو الفيض حمدون وسيّدي أبو إسحاق إبراهيم ابن الحاج]

ثم الشيخ أبو الفيض حمدون، من بني الشيخ الإمام حافظ الأندلس، وزعيم علمائها، وشمس الولاية وبدرها، العارف بالله، سيدي أبي إسحاق، إبراهيم ابن الحاج (الأندلسي)[1]، دفين مراكش، الآتي ذكره[2].

وهو إبراهيم بن محمد بن خلف، بن محمد بن سليمان بن سوار، بن أحمد بن حزب الله بن عامر، بن سعد الخير بن عياش. إلى هنا رفع هذا العمود ابن القاضي[3] في ترجمة أبي البركات من الجذوة[4].

زاد ابن الخطيب[5] في الإحاطة[6]، وابن فرحون[7] في الديباج[8]، والمقرّي[9] في

---

(1) زيادة من ألف وباء.

(2) انظر الباب الثالث: الترجمة رقم 29.

(3) شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن محمد بن العافية المكناسي (ت 1025هـ) عالم مشارك. ترجمته في: الالتقاط: 69 — 71. رقم 108. النشر: 1 213 — 216. الروضة 239 — 299 الصفوة: 77 — 78 بدرر 2 352 — 353 السلوة: 3 133 — 135 مؤرخو الشرفاء 83 — 88. الفهرس: 114/1 — 115. الإعلام: 295/2. رقم 226. معجم المطبوعات 285 — 286. رقم 651.

(4) الجذوة: 1/ 292. رقم 299.

(5) لسان الدين، محمد بن عبد الله السلماني أديب الأندلس ووزير الدولة النصرية بها (ت 776هـ). ترجمته في: النفح: 7/ 26. الجذوة: 8/2. رقم 184.

(6) الاحاطة: 143/2. وفيها أنه إبراهيم بن خلف، لا إبراهيم بن محمد بن خلف، بن سليمان بن سوار. ويلاحظ أن الجذوة تنقل عن الاحاطة.

(7) برهان الدين، إبراهيم بن علي اليعمري المدني. المؤرخ الفقيه. (ت 799هـ). ترجمته في الدرر الكامنة: 48/1 رقم 124. النيل: 30 — 32. الدرة: 182/1 — 183. رقم 240. الشجرة: 222/1. رقم 789. معجم المطبوعات: 276. رقم 630.

(8) الديباج: 2/ 269 — 274.

(9) أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن محمد المقري. عالم أديب مشارك. (ت 1041 هـ) ترجمته مفصلة في مقدمة كتابه النفح.

روضة المنثور من زهر الرياض[10]: «وهو المُكَنّى بأبي عيشون بن محمد، الداخل إلى الأندلس».

وفي الإحاطة[11] بدل محمد، حمود الداخل إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير، ابن عبسة بن حارثة، ويقال ابن الحارث بن العباس بن مرداس.

قال في أزهار الرياض[12]: «وهذا هو الصواب، لا ما قال الملاّحي[13] وابن عبد الملك[14]. فإنهما أسقطا بين خلف وسوار رجلين، إذ جعلاه خلفا ابن سوار، وليس كذالك. بل بينهما رجلان كما ذكرته». انتهى.

[مصادر ترجمة نبهاء بني الحاج السُّلَميين]

وقد كان بالأندلس من بني الحاج السلميين، عدد عظيم من نبهاء السروات، وأكابر البيوتات، متفقاً على جلالة حسبهم، وسُلَمِيّة نسبهم. والبيت عند العرب، كما قال هشام بن عبد الملك، لما ذكرت البيوت عنده. هو ما كانت له سالفة ولاحقة، وعماد حال ومساك دهر. فإن كان كذلك، فهو بيت قائم».

قال الزمخشري[15] في ربيع الأبرار: «أراد بالسالفة، ما سلف من شرف الآباء، وباللاحقة، ما لحق من شرف الأبناء، وبعماد الحال، الثروة، ومساك الدهر، الجاه عند الأمير». انتهى.

---

(10) الأزهار: 115/4 . وفيه أنه ابن عيشون .

(11) الاحاطة: 2/ 143 .

(12) الأزهار: 115/4 .

(13) أبو القاسم، محمد بن عبد الواحد الغافقي . محدث حافظ مؤرخ (ت 619هـ) ترجمته في: التكملة. رقم 960 . الذيل . 6 413 ـ 418 رقم 1113 . المغرب 126/2 . الاحاطة: 176/3 ـ 177 .

(14) محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي . عالم مؤرخ مشارك (ت 703هـ) . ترجمته في. المرقبة: 130 ـ 132 الإعلام 331،4 ـ 335 رقم 583 مقدمة كتابه الذيل السفر الثامن .

(15) جار الله، محمود بن عمر مفسر وبلاغي مشهور (ت 538هـ) ترجمته في الوفيات 5/ 168 ـ 174 . رقم 711 . البغية: 179/2 ـ 280 . رقم 1977 .

وقد ألم بذكر أئمة من بني الحاج السلميين، وعدّهم من البيوتات، الكثير ممن صَنَّفَ في رجال الأندلس، كأبي بكر ابن صهيب[16]، وابن عمه إسحاق، وابن[17] عبد المجيد المالقي، وابن الابار القضاعي[18]، وابن فرتون[19]، وابن صاحب الصلاة[20]، وابن الزبير[21]، وابن عبد الملك[22]، حسبما نقل ابن الخطيب في الاحاطة عنهم[23].

وكذالك جهيسة الأخبار، ولي الدين ابن خلدون، في كتابه: ديوان العبر، وكتاب المبتدإ والخبر، في تاريخ العرب والعجم والبربر[24].

---

(16) في الأصل: كأبي بكر صهيب والتصويب من: الإحاطة: 144/2 .

(17) في الأصل: أبي . وهو تصحيف . وابن عبد المجيد المالقي، هو أبو علي، عمر بن عبد المجيد الأزدي الرندي المالقي عالم أديب . (ت 616هـ) ترجمته في: برنامج لرعيني: 86 ــ 88 . صلة الصلة: 67 ــ 70 . رقم 126 الذيل: 5/ 450 ــ 454 . رقم 780 . التكملة: رقم 1828 الإحاطة: 4/ 104 ــ 109 .

(18) بعده في ألف: في الصلة . وهو وهم . وابن الأبار، هو أبو عبد الله، محمد بن عبد الله القضاعي . حافظ أديب مؤرخ . (ت 658هـ) . ترجمته في. الذيل: 253/6 ــ 276 . رقم 709 الاختصار: 191 ــ 195 . المغرب: 2/ 309 ــ 312 . العنوان: 257 ــ 261 . الأزهار: 3/ 204 النفح: 589 ــ 595 .

(19) أبو العباس، أحمد بن يوسف السلمي الفاسي . حافظ مؤرخ (ت 658هـ) . ترجمته في: الجذوة: 117/1 ــ 119 . رقم 48 . النيل: 63 . الشجرة: 200/1 رقم 678 .

(20) في الأصل: صاحب الصلة . والتصويب من الاحاطة: 144/2 .

(21) أبو جعفر، أحمد بن إبراهيم الثقفي العاصمي . حافظ مؤرخ (ت 708هـ) ترجمته في الذيل: 1/ 39 ــ 45 . رقم 31 . الديباج: 188/1 ــ 189 . الاحاطة: 188/1 ــ 193 الدرة: 11/1 ــ 12 . رقم 8 . الغاية: 32/1 ــ 33 . رقم 132 . البغية: 29/1 ــ 292 . رقم 532 .

(22) بعده في ألف: في الذيل .

(23) الاحاطة: 144/2 .

(24) تاريخ ابن خلدون: 7/ 535 ــ 536 . 7/ 686 .

وعبد المهيمن الحضرمي[25]، وأبو زكريا، سيدي يحيى السراج،[26] حسبما في كفاية المحتاج[27]، نقلاً عنهم.

وكذالك لسان الدنيا والدين، ذو الوزارتين، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله ابن الخطيب السَّلْماني، فقد ترجم في كتابه الإحاطة، في أخبار غرناطة[28]، وطُرْفة العصر، في دولة بني نصر، والتاج المحلّى، في مساجلة القدح المعلّى، والكتيبة الكامنة، فيمن لقيته من شعراء المئة الثامنة[29]، لأئمة من أعلامهم. والشيخ الإمام القاضي أبو الحسن، علي بن محمد النباهي[30] في كتابه: المرقاة العليا، فيمن يستحق القضاء والفُتْيا[31].

والفقيه الأديب العالم النسّابة، المتأصل في المملكة الأندلسية، أبو الوليد، إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر الأنصاريّ الخزرجيّ[32] في كتابه: نثير الجمان، في شعر من نظمني وإياهم الزمان[33]، ونثير فرائد الجمان، في نظم فحول الزمان[34]، (من أهل المئة الثامنة. من فرسان الكتيبة الكامنة).

---

(25) فقيه أديب سبتي . (ت 749هـ) . ترجمته في: الاحاطة: 4/ 11 ــ 18 . النثير: 223 ــ 226 . تاريخ ابن خلدون: 7/ 522 ــ 523 . النفح. 5/ 464 ــ 471 . الجذوة: 444/2 ــ 445 . رقم 477 . الدرة: 3/ 173 ــ 174 . رقم 1148 .

(26) يحيى بن أحمد السراج الرندي النفري . فقيه صوفي محدث . (ت 805هـ) . ترجمته في الدرة: 335/3 رقم 1455 الجذوة: 539/2 . رقم 623 . النيل: 356 ــ 357 . الفهرس: 2/ 993 ــ 994 .

(27) الكفاية: 31 ــ 32 . 149 .

(28) الاحاطة: 143/2 ــ 170 3/ 234 ــ 236 . 3/ 548 ــ 553 .

(29) الكتيبة: 127 ــ 134 .

(30) قاضي غرناطة وأديبها . (ت بعد 793هـ) . ترجمته في: الأزهار: 2/ 5 ــ 7 . الاحاطة: 88/4 ــ 100 . الكتيبة: 146 . النثير: 170 ــ 174 . النفح: 119/5 ــ 138 .

(31) المرقبة: 164 ــ 167 .

(32) سيعرف به المؤلف بعد قليل . الترجمة رقم (4) .

(33) النثير: 156 ــ 161 .

(34) ليس في هذا الكتاب شيء عنهم .

وجعله في فصلين: الأول في شعراء المشرق، والثاني في شعراء المعرب. وحصر الثاني في فرعين: الأول في شعراء الأندلس، والثاني في شعراء برّ العَدْوة.

وأبو جعفر، أحمد ابن خاتمة[35]، في كتابه: مزية المرية، على غيرها من البلاد الأندلسية.

والشيخ أبو البركات ابن الحاج[36]، في كتابه: الإفصاح، فيمن عرف بالأندلس بالصلاح، وكتابه الذي ألفه في خصوص نسبه، وعظيم حسبه.

والشيخ الخطيب أبو الحسن، علي بن محمد[37] العزّال الحميري[38]، في الجزء الذي وضعه في كرامات الشيخ العارف بالله، أبي إسحاق، إبراهيم ابن الحاج[39]، وشيخه الغزّال[40]، وشيخه ابن العريف[41].

وصاحب الكواكب الوقادة، في ذكر من دفن بسبتة من العلماء والصلحاء والقادة. والإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في طبقات النُّحاة[42]، وابن فرحون في

---

(35) سنعرف به بعد قليل، عند ذكر المؤلف لوفاته. الترجمة رقم (3).

(36) سيعرف به المؤلف في الباب الثالث. الترجمة رقم 33.

(37) الأزهار: 118/4: علي بن أحمد.

(38) علي بن أحمد الأنصاري، المعروف بأبي الحسن ابن الغزال. فقيه أديب من أهل المرية. (ت بعد 670هـ). ترجمته في: الذيل: 5/ 179. رقم 348. صلة الصلة: رقم 287 ولا يصح ما ذكره المؤلف من أنه الغزال الحميري.

(39) سيعرف به المؤلف في الباب الثالث. الترجمة رقم 29.

(40) أبو عبد الله محمد بن يوسف الغزال. لم أقف له على ترجمة وفي الأزهار 4/ 108، والفتوحات المكية: 3/ 385 ـ 386، وروح القدس: 64. 66، ما يدل على أنه كان من كبار الصوفية.

(41) أبو العباس، أحمد بن محمد الصنهاجي. صوفي أديب. (ت 536هـ) ترجمته في: التشوف: 118 ـ 123 معجم الصدفي 18 ـ 22 المعرب: 212/2. بغية الملتمس. 154 ـ 155. رقم 360 المقتضب: 700. التحفة: 26 ـ 27.

(42) البغية: 1/ 38. 295. 423. 424.

الديباج[43]، والشيخ أحمد بابا السوداني[44] في كفاية المحتاج[45].

والإمام الحافظ، أبو العباس المقري في كتابيه: نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب[46]، وأزهار الرياض، في مناقب عياض[47].

والقاضي أبو العباس، أحمد بن محمد المكناسي الزناتي، الشهير بابن القاضي، في جذوة الاقتباس، فيمن حل من العلماء بمدينة فاس[48].

وناهيك بابن الخطيب وابن خلدون في علم التاريخ، كما قاله الإمام ابن القصار[49] في بعض مقيداته.

وقال القاضي أبو عبد الله ابن السكاك[50] في كتابه: نصح ملوك الإسلام[51]:

---

(43) الديباج: 2/ 269 ـ 274.

(44) أحمد بابا بن أحمد أقيت التنبكتي: علامة ونقيب العربية (ت 1036هـ) ترجمته في الروضة: 393 ـ 415. النشر: 1/ 271 ـ 276. الالتقاط: 86 ـ 88 رقم 145. المنح: 33 ـ 37. الصفوة: 52 ـ 55. الإعلام: 2/ 302 ـ 307 رقم 232. معجم المطبوعات: 164 ـ 165، رقم 390.

(45) الكفاية: 31 ـ 32. 149.

(46) النفح: 2/ 5 ـ 9. 5/ 471 ـ 486.

(47) الأزهار: 4/ 101 ـ 120.

(48) الجذوة: 1/ 292 ـ 295.

(49) محمد بن قاسم القصار القيسي الغرناطي الفاسي (ت 1012هـ) ترجمته في النشر: 1/ 86 ـ 89. الالتقاط: 39 ـ 40 رقم 47. الروضة: 316 ـ 332. الدرة: 2/ 153 رقم 632. النزهة: 192 ـ 193. الصفوة: 16 ـ 19. السلوة: 2/ 62 ـ 63. الإعلام: 5/ 108 ـ 127، رقم 665.

(50) محمد بن علي بن غالب المكناسي العياضي فقيه مفسر (ت 818هـ) ترجمته في: الدرة: 2/ 284، رقم 800. النيل: 284. الجذوة: 1/ 238 رقم 218. معجم المطبوعات: 157، رقم 376.

(51) النصح: 18.

«وابن الخطيب[52] ممن يعول عليه في هذا[53]، لكونه[54] دخل في يده[55] من كتب التواريخ، وطالع منها ما لا يمكن أن يدخل إلا بيد ملك شامخ الملك، كالحكم المستنصر في زمانه، فتحقق ذلك». انتهى.

وكان الإمام القصار وغيره، كثيراً ما يعتمدون كلام ابن خاتمة وابن الأحمر في هذا الباب، لعلمهم بعلمهما وثقتهما. اهـ.

1) [وفاة ابن الخطيب]

توفي ابن الخطيب مخنوقاً بسجن فاس، بتحيُّل ابن زَمْرَك[56]، سنة ست وسبعين وسبع مئة (776/ 5 ــ 1374)، ودفن خارج باب المحروق، ثم أخرج من قبره خفية، وأضرمت عليه نار حتى احترق شعره، واسودّ بشره، وأعيد إلى قبره.

وكان أيام امتحانه يتوقع مصيبة الموت، فتهجش هواتفه بالشعر يبكي نفسه. ومما قال في ذالك[57]:

[المتقارب]

1) بَعُدْنا وإن جاوَرَتْنا البيوتْ   وجئنا بوعظٍ ونحنُ صُموتْ

2) وأنفاسُنا سَكَنَتْ دفعةً   كجهرِ الصَّلاةِ تلاهُ القُنوتْ

3) وكُنَّا عِظاماً فصِرْنا عِظاماً   وكُنَّا نقوتُ فها نحن قوتْ

---

(52) النصح: 18: وهو

(53) النصح: 18: بعده: الأسلوب.

(54) النصح: 18. إذ.

(55) النصح: 18. بيده.

(56) محمد بن يوسف الصريحي. أديب غرناطة ووزيرها. (ت بعد 793هـ). ترجمته في: الكتيبة: 282. الاحاطة: 2/ 300 ــ 314. نثير الفرائد: 327 ــ 329. الجذوة: 1/ 312 ــ 314. رقم 318. النيل: 282 ــ 283. النفح: 7/ 145 ــ 279. الأزهار: 2/7 ــ 206.

(57) القصيدة في ديوانه: 1/ 185. تاريخ ابن خلدون: 7/ 453. الأزهار: 1/ 231. النفح: 111/5 ــ 112. المعرب المبين: ملزمة 4. ص 6. السلوة: 3/ 190.

4) وكُنّـا شُـمـوسَ سماءِ العُـلى غَرَبْنَ فـاحَتْ عـلينـا السُّـموتْ(*)
5) فكَـمْ جَدَّلَتْ ذا الحُسامِ الظُّبـا وذو البَخْتِ كَمْ خَـذَلَتْـهُ البُخـوتْ؟!
6) وكَمْ سِيـقَ للقَبْـرِ في خِرْقَـةٍ فتى مُـلِئَتْ من كُسـاهُ التُّخـوتْ؟!
7) فقُـلْ للعِـدى ذَهَبَ ابْنُ الخطيـبِ وفـاتَ فمـن ذا الذي لا يَفـوتْ؟!
8) ومن [كان][58] يَفْـرَحُ منهـم(**) له فقُـلْ: يَفْـرَحُ اليومَ من لا يَمـوتْ

2) [وفاة ابن خلدون]

وتوفي ابن خلدون في القاهرة، سنة ثمان وثمان مئة (808/6 ـــ 1405). وفي تاريخه قال شمس الدين البغدادي:

[البسيط]

1) قاضي القُضـاةِ ابنُ خلدونَ أتى عجباً تـاريخُـهُ مُخبِـرٌ عن سـائِرِ الدُّوَلِ[59]
2) قـالوا «وَلِّي»: فقلتُ[60] من كَرامَتِـهِ وكَشْـفِـهِ جـاءَ يُنْبِينـا عن الأوَّلِ
3) وليس بِـدْعـاً، ولا في اللهِ مُمْتَنِعـاً أن يجْمَعَ العـالَمَ[61] الكُـلّي في رَجُلِ

عرّف بنفسه في آخر تاريخه[62]، وترجم له في الإحاطة[63].

(*) ديوانه: 1/ 185: البيوت .
(58) سقطت من الأصل . والإثبات من المصادر المذكورة .
(**) ديوانه: 1/ 185: فمن كان يفرح منكم .
(59) الأبيات في: الأزهار: 1/ 26 . الإعلام: 108/8 .
(60) في الأصل: تولّى. وهو تصحيف. الأزهار: 1/ 26: فقلنا .
(61) في الأصل: العلم. وفضلنا رواية الأزهار: 26/1 .
(62) تاريخ ابن خلدون: 7/ 503 ـــ 742 . (كتاب التعريف بابن خلدون) .
(63) الاحاطة: 3/ 497 ـــ 516 .

3) [وفاة ابن خاتمة]

وتوفي ابن خاتمة[64] سنة[65] [770/9 ــ 1368]. ترجم له في الإحاطة[66]، ونفح الطيب[67]. ويكفيه العناية التي سلمها له إمام الطريقة، وواحدها الفذّ على الحقيقة، ابن الخطيب حيث قال فيه:

[الخفيف المجزوء]

1) قَسَماً بالكَواكِبِ الزُّهرِ والزَّهرِ عاتِمَة[68]

2) إنّما الفَضلُ مِلّةٌ خُتِمَتْ بابنِ خاتِمَة

4) [وفاة ابن الأحمر]

وتوفي ابن الأحمر سنة سبع وثمان مئة (807/ 5 ــ 1404). ترجم له في جذوة الاقتباس[69] ودرة الحجال[70]. له شرح على البردة، وتأنيس النفوس، في إكمال نُقط العروس، وحديقة النسرين، في أخبار بني مرين.

---

(64) أبو جعفر، أحمد بن علي ابن خاتمة الأنصاري المري. أديب شاعر. (ت 770هـ) ترجمته في. الاحاطة 1/ 239 ــ 259. النثير: 175 ــ 186. نثير الفرائد: 331 ــ 332 الكتيبة: 239 ــ 245. النيل: 72 ــ 73. الدرة: 1/ 85 ــ 86. رقم 116.

(65) بياض بالأصل.

(66) الاحاطة: 1/ 239 ــ 259.

(67) النفح. 8/ 46. ولم يترجم له المقري، بل اكتفى بذكره والنقل عنه.

(68) البيتان في: النفح. 31/6. الأزهار: 1/ 268. ديوانه: 548/2. النفاضة: 3/ 224. 229.

(69) الجذوة: 1/ 166.

(70) الدرة: 213/1.

5) [وفاة المقري]

وتوفي المقري [71] بقاهرة مصر، أو دمشق الشام، في منتصف رجب أو شعبان، سنة إحدى وأربعين وألف (2/1041 — 1631).

وإلى تاريخ وفاته أشار الشيخ ميارة [72]، مذيلاً لوفيات المشتالي [73] بقوله:

[الطويل]

1) وجامع أشتات العلوم بأسرها ... وهو أحمد المقري شام بمخفل [*]

والمقري نسبة إلى مقرة، بفتح الميم وسكون القاف، وقيل بفتح القاف المشددة، وهما لغتان في اللفظة المذكورة. وناهيك بتآليفه نفح الطيب، فإنه يدل على باعه وجودة فكره، حفظا واطلاعا وإتقانا وضبطا، ولا التفات لمن نقل أنه غير ثقة، بل هو من أعظم علماء الإسلام، ثقة وديانة، وحفظا وفهماً.

[عودة إلى ذكر بني الحاج] السلميين الأندلسيين

وسيأتي، إن شاء الله، في الباب الثالث، التعريف بجملة منهم، وما كانوا عليه في جزيرة الأندلس من صميم المجد، تعريفاً بالخلف، بما كان عليه السلف، وتمهيداً لذكر المقصود، بتقديم الذكر على بعض الآباء والجدود.

---

(71) توفي المقري في دمشق.

(72) محمد بن أحمد فقيه مشهور (ت 1072هـ) ترجمته في النشر 2/ 120 — 121. الالتقاط 151 — 152 رقم 246. صفوة 140. سلوة 1/ 165 — 167. مؤرخو الشرفاء 182 — 183. الفكر السامي: 2/ 279. معجم المطبوعات: 340 — 341، رقم 774.

(73) محمد بن علي أديب عالم مؤرخ (ت 1021هـ) ترجمته في النشر 1/ 174. الالتقاط 57 — 58 رقم 84. منعى 1/ 250. نزهة 168. مؤرخو الشرفاء 81 — 83. [illegible] 1/ 264. الإعلام: 5/ 221 — 223، رقم 670.

(*) الشطر ساقط الوزن.

[الشيخ أبو الفضـل أحمد بن العربي ابن الحاج، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم ابن الحاج السُلَمي البَلْفيقي]

فالشيخ أبو الفيض حمدون، من بني الحاج السلميين الذين كانوا بجزيرة الأندلس. صرح جماعة من أهل العلم والصلاح، والظفر والنجاح، بأن نسب الشيخ العارف بالله، أبي الفضل، أحمد بن العربي، بن محمد بن علي، بن محمد، الشهير بابن الحاج، الآتي ذكره في الباب الخامس، عم والد جد أبي الفيض، دفين ضريح سيدي عزيز بدرب الطويل[74]، يتصل بالشيخ أبي إسحاق دفين مراكش المتقدم الذكر.

[شهادة العلماء]

وممن صرَّح بذالك، القطب الكامل، العارف الواصل، أبو عبد الله، سيدي امحمد (فتحا)، بن أحمد ابن ناصر الجعفري، الدَّرْعي الأَغْلاني التامَجْروتي[75]. وولده العارف بالله، أبو العباس، سيدي أحمد ابن ناصر[76]، والشيخ الكامل القُدْوَة، الشهير العلامة المحقق، أبو علي، سيدي الحسن اليوسي[77] وغيرهم.

[رسالة السلطان المولى اسماعيل إلى أحمد بن العربي ابن الحاج، لما ولاه القضاء]

عندنا كتاب المنصور بالله، أبي الظفر، مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف، الحسني العلوي السجلماسي[78]، للشيخ سيدي أحمد ابن الحاج، لما ولاه خطة القضاء بفاس البيضاء أواخر عمره، ثاني عشر محرم الحرام، عام خمسة ومئة وألف (4/1105 ــ 1693)، وقبلها على رغم منه، في طاعة الله تعالى، بطاعة أميره، بعد الامتناع الشديد، وسار فيها سيرة حسنة، فبلغ الأمير خبره فاستحسنه، وكتب إليه كتاباً طويلاً

---

(74) يوجد هذا الدرب بعدوة الأندلس بفاس . وما يزال الضريح موجوداً .

(75) (76) سنعرف بهما بعد قليل عند تعرض المؤلف لوفاتهما . الترجمة رقم 6 ورقم 8 .

(77) ألف: أبو الحسن سيدي علي اليوسي وهو وهم . وسنعرِّف به في الترجمة رقم 7 .

(78) سنعرف به عند تعرض المؤلف له .

أثنى عليه فيه عناية، ورفع من ذكره إلى النهاية. ومن جملة فصوله[79]:

«أما بعد: فإنه ورد على أبوابنا العلية بالله، الرجل الصالح، السيد أحمد ابن ناصر بقصد الزيارة. وحين التقينا معه، طلبنا منه بذل النصيحة، والدلالة على رجل من أهل الظاهر، وسر الباطن، نستعين به على أمر ديننا ودنيانا، وما نحن بصدده من أمور الخلافة. وأكدنا عليه في ذلك، فحين فهم الرغبة والجد منا، دلنا عليك، فقال لنا فيما يرويه عن والده:

أخبرني والدي، سيدي محمد بن ناصر، رحمة الله، وأن العارف بالله، الفقيه السيد أحمد بن العربي ابن الحاج، القاطن بفاس، رجل من بيت كبير علماً وصلاحاً وزهداً، رجل من أهل سر الباطن، متبحراً في العلوم الدينية والدنيوية، يتولى خطة القضاء بالمدينة البيضاء[80]، نجل الإمام الولي الصالح، العالم العارف الرباني، صاحب الكرامات، أبي إسحاق، إبراهيم ابن الحاج السَّفيقي السُّلمي، دفين مراكش، ينتمي نسبه إلى العباس بن مرداس.

وقد كان أخبرني بهذا، العلامة الهمام، السيد الحسن اليوسي عن شيخه المذكور، وسمعته من غيرهما، فلاح لنا بذالك.

وإن السر من أصله، والدر من معدنه. «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاتِه»[81]. فنحمد الله الذي جمع لنا فيك ما نحبه من شرف العلم، وعلو النسب». وسيأتي تمامه[82].

[تعليق على شهادة العلماء عند السلطان]

قلت: وأكثر الناس عناية بهذا الأمر، أهل الصولة من عظماء الدولة. ولا جرم أن مجالس الملوك والكبراء سوق تجلب إليها بضائع الأخبار، من بعيد الأقطار، ولا يروج

---

(79) ورد في أصل بعضهم أغلاط لغوية أثبتها كما هي. وهذا الظهير في تحفة السنة. 129 — 130. مع بعض الاختصار.

(80) فاس الجديد.

(81) سورة الأنعام: 124.

(82) ورد تمامه في الباب الخامس. ترجمة أحمد بن العربي ابن الحاج رقم 34.

فيها إلا خالص الإبريز، لما احتوت عليه من كثرة النقاد على صيارفة الحديث، مما كان وما يكون.

وناهيك بكل واحد من هؤلاء الأئمة، إمامة وجلالة وأمانة وعدالة. إمام شهير، وصدر أهل وقته وأوانه، خاتمة مشاييخ العلوم بالأقطار المغربية، وإمام المتحققين في العلوم العقلية والنقلية، ممن جمع بين رياسة العلم والدين، ودان له أكابر العلماء المهتدين، وتخرج به في علمي الظاهر والباطن، غير واحد من أكابر الاعلام، وأئمة الاسلام.

ولو انفرد هذا القطب ابن ناصر بالشهادة لهذه الشعبة السلمية، والقول بثبوت النسب لها لكفى. كيف وقد تم نصاب الشهادة، بالشيخ الإمام أبي علي، سيدي الحسن اليوسي، رضي الله عنهم!. والشهادة من مثل هؤلاء الأئمة، أتم من مئة من اللفيف، بل من مئة ألف. إذ في العالم الثقة الضابط عالَم. (بفتح اللام). ونحن نجد المؤرخ الذي لم نعرف قدره في العلم والتحقيق، يذكر بعض من يعرّف بهم، فيسلّمه الناس ويثنون عليه، ويلهجون بذكره، لما علم من أن حبر أهل العلم أوثق من غيره، فما بالك بالأئمة المعتمدين، والجهابذة المعتبرين!.

6) [وفاة الشيخ سيدي محمد ابن ناصر][83]

توفي الشيخ سيدي محمد ابن ناصر، عشية يوم الثلاثاء، لأربع عشرة بقيت من صفر سنة خمس وثمانين وألف (5 ــ 1674 م). وإلى تاريخ وفاته أشار سيدي محمد الحوات[84] بقوله:

---

(83) أبو عبد الله، محمد بن محمد الدرعي . عالم صوفي . (ت 1085هـ) ترجمته في النشر 2/ 211 ــ 215 . الالتقاط: 196 ــ 197 . رقم 299 الصفوة: 173 ــ 177 الصفوة 1 127 ــ 331 . المحاضرات 37 . الحياة: 86 ــ 89 معجم المطبوعات 345 ــ 346 رقم 781

(84) أديب شفشاون وقاضيها (ت 1160هـ) . ترجمته في: النشر. 4/ 59 ــ 62 الالتقاط 407 رقم 533 . السلوة: 3/ 119 . السر: 90 .

[الطويل]

1) وأما السَّنِي السَّنِيُّ ذو العلْمِ والهُدى ... وذو الْجودِ والإرْشَادِ والمَنْصِبِ العَلي

2) مُحَمَّدُ الأَسْمَى الإمامُ ابنُ ناصرٍ ... فهشَّ بلُقْيَا روحِهِ كُلُّ مُعْتَلي

وهو الممدوح بدالية الشيخ اليوسي، المشهورة بين أهل الأداب، التي لم تسمح قريحة بمثلها[85]. عارض بها دالية البوصيري[86]، في مدح الشيخين أبي الحسن الشاذلي[87] وأبي العباس المرسي[88]. وفيه يقول أبو سالم العياشي[89] من قصيدة:

[الكامل]

1) يا من به ظمأٌ لعِلْمٍ نافِعٍ ... جِدَّ المسيرَ إلى حِماهُ وبادِرِ

2) والزمْ دارهُ. تَفُزْ بما أمَّلْتَهُ، ... واصْبِرْ به صَبْرَ الكرامِ، وصابِرِ

7) [وفاة أبي علي، الحسن اليوسي][*]

وتوفي الشيخ اليوسي لسبع ليال بقين من ذي الحجة، عام اثنين ومئة وألف.

---

(85) ديوانه: ملزمة 3 ص 3 — ملزمة 6 ص 2 .

(86) شرف الدين، محمد بن سعيد الصنهاجي (ت 696هـ) . ترجمته في الوافي: 3/ 105 — 113 رقم 1045 . مقدمة ديوانه .

(87) علي بن عبد الله الشاذلي، مؤسس الطريقة الشاذلية . (ت 656هـ) ترجمته في: الدرر: 2/ 157 — 158، الشجرة 1/ 186 — 187 رقم 620، الموسوعة 3/ 21، لطائف المنن 41 — 55 . معجم المطبوعات: 185 . رقم 422 .

(88) أحمد بن عمر الأنصاري، صوفي شهير كبير . (ت 685هـ) ترجمته في: الوافي: 7/ 264 . رقم 3229، سلى 64، بدرة 1/ 9 رقم 4 . الشجرة 1/ 187 — 188 . رقم 624 . لطائف المنن: 55 — 149 .

(89) أبو سالم عبد الله بن محمد، أديب عالم رحالة (ت 1090هـ) ترجمته في: النشر: 2/254 — 264، الاستقصا 212 — 213 رقم 318، مؤرخو الشرفاء 184 — 185، الحياة: 90 — 101 . الفكر السامي: 2/ 280 . معجم المطبوعات: 250 — 251 . رقم 586 .

(*) حسن بن مسعود، أديب المغرب وعلامه الأكبر (ت 1102هـ) ترجمته في: النشر: 3/ 25 — 49 . الاستقصا: 258 — 260 . رقم 391، الشجرة 1/ 328 — 329 . رقم 1284 . الصفوة: 205 — 210، الصبغة: 2/ 52 — 53، الفهرس: 2/ 1154 — 1161 . رقم 658، السوع: 1/ 285 — 286، الحياة: 122 — 136 . معجم المطبوعات: 373 — 374 . رقم 852 . الفكر السامي: 2/ 284 . رقم 705 .

(1/1102 ـ 1690) ومولده عام أربعين وألف (1/1040 ـ 1630). وإلى رمز وفاته أشار بعضهم بقوله:

[الطويل]

1) وفي غرْبٍ لِي ذا الْغَربِ حَلَّتْ كَآبةٌ عَلى العـالِمِ اليـوسـي ٱلإمامِ أبي علي

ومنذ خاطبه شيخه ابن ناصر، بقوله يدعو له حين مدحه بالدالية:

[البسيط]

1) أبـا عـلِيٌّ جُزيتَ الخَيْرَ والنِّعمـا[90] وحُزْتَ من رَبِّنـا كُلَّ المُنى قسمـا[91]

2) يا مَرْحَباً بك كُلَّ الرَّحْبِ لا بَرِحَتْ قَـرائحُ الفِـكْـرِ منك تَجتَـنِي حِكَمـا

فاض بحر علومه، واشتهر بدر فهومه، حتى كان يعد من نظراء حجة الإسلام، والفخر والعضد والسعد(*). على أنه، والله، قد نور بالعوارف والمعارف صدره، وشاع بذالك في الآفاق صيته وذكره، حتى قال عنه أبو سالم العياشي من قصيدة:

[البسيط]

1) من فـاتَـهُ الحَسَـنُ البـصريُّ يَنْظُرُهُ فـلْيَـنْظُـرِ الحَسَـنَ اليـوسِيَّ يَكْفيـهِ[92]

وقال العلامة نابغة أوانه، أبو عبد الله بن قاسم ابن زاكور[93] فيه من قصيدة:

[الكامل المجزوء]

1) عـــلاَّمَـــةُ الدُّنيـــا بـــلا ثُـنـيـــا وِمِصْـــقَــعُــهـــا المُـــدَّدْ

2) بَحـرُ الشـــريعـــةِ والحقيــــــــ قَـــة فـــاضَ فَيْـضـــاً ليس يُعْـهَـــدْ

3) بَـــذَّ الذينَ تَقَـــدَّمـــوا واسْتَشْـــهِـــدِ الأخبـــارَ تُـــرْشِـــدْ

4) فَسَـمِـيُّـــهُ البَـصْـــرِيُّ لو رُزِقَ الحَيَـــــاةَ، له تَـــرَدَّدْ

---

(90) البيتان في: الطلعة: 1/ 155 . الالتقاط: 260 . النشر: 43/3 . الصفوة: 209 .

(*) حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي، وعضد الدين الإيجي، وسعد الدين التفتازاني

(91) النشر: 43/3 . الالتقاط: 260 . «ونلت كل المنى من ربنا قسما» .

(92) البيت في المحاضرات: 16 .

(93) محمد بن قاسم ابن زاكور . شاعر أديب كبير . (ت 1120هـ) ترجمته في النشر: 3/ 201 ـ 204 . الالتقاط: 303 ـ 305 رقم 458 . الأنيس: 19 ـ 38 . الحياة 161 ـ 171 النبوغ: 313/1 . مؤرخو الشرفاء: 204 ـ 205 معجم المطبوعات: 137 . رقم 328

5) حَسَــنُ الْعَــلِى. هُـو والعُـلى ... أخـوانِ. ذاكَ بِـذاك يُعْـضَـد
6) بَيْـنَ الْهَـوى وفعـالِهِ ... ومقـالِهِ حِـلْفٌ مُـؤَكَّد

8) [وفاة الشيخ سيدي أحمد ابن ناصر][94]

وتوفي الشيخ سيدي أحمد ابن ناصر، ليلة الجمعة بين العشائين، لإحدى عشرة بقيت من ربيع الثاني سنة تسع وعشرين ومئة وألف (1129/7 — 1716). وإلى تاريخ وفاته ومولده، ومدة حياته، أشار بعضهم بقوله، وهو المكتوب بضريحه:

(الطويل)

1) أيا زائراً قِفْ داعِياً مُتَوَسِّلاً ... إلى الله بالشَّيْخ ابْن ناصرٍ أحْمَدِ
2) تنلْ كُلَّ ما ترجو من الله مِنْ مُنًى ... وفي دَرْعةٍ أُلْسِمَ بمغناهُ تَهْتَدِ
3) ولادَتُهُ «شُسرٌ»، وأعوامُ عُمْرِه ... «يَضُبٌّ»، وعامُ المَوْتِ «حَيْنِي بِمَشْهَدِ»

وما أحسن قول الأديب، أبي عبد الله الدغيمي الرباطي[95] فيه[*]:

[الطويل]

1) لئن فاتَنا المرسيُّ قُطْبُ زمانِهِ ... ولم نَجْنِ من تِلْكَ الرِّياض له قُطُفا
2) فعَنْهُ أبو العَبَّاس نجْلُ ابْنِ ناصرٍ ... كفانا وأغنانا، وكان لنا غطْفا

وهو، مع ما تقدم، مأخوذ من قول بعضهم في الشيخ أبي الحسن البكري:

[البسيط]

1) خَوْفَ الضَّلالِ أَمِنَّا حين قامَ بنا ... داعٍ بمعرِفَةٍ للحَقِّ يَهْدِينا
2) إن فاتنا الحَسَنُ البصريُّ موعِظَةً ... عنه أبو الحَسَنِ البكريُّ يُغْنِينا

---

(94) أحمد بن محمد الدرعي الأغلاني (ت 1129هـ). صوفي مؤرخ. ترجمته في: النشر 3/ 324 — 235. الالتقاط: 312 — 313 رقم 473. الصفوة 221 — 223. الطلعة: 17/2 — 128. الاستقصا 111/7 — 113. السلوة 1/ 264. الإعلام: 363/2 — 375. رقم 254. مؤرخو الشرفاء 206 — 207. الحدة 172 — 176. معجم المطبوعات: 344 رقم 779.

(95) محمد بن أحمد الحسني السجلماسي الرباطي. فقيه أديب. ترجمته في: الاغتباط: 100. (وفيه أنه الدغيمر).

(*) البيتان في السلوة 264/1. منسوبان لأبي عبد الله الدقاق الدعيمي.

9) [وفاة المولى إسماعيل][96]

وتوفي السلطان مولانا إسماعيل، بحضرة مكناسة، في الثامن والعشرين من رجب، سنة تسع وثلاثين ومئة وألف(1139/ 1727). وكانت بيعته في سادس ذي الحجة، بعد وفاة أخيه مولانا الرشيد بخمسة أيام، سنة اثنين وثمانين وألف (1082/2 ــ 1671). واستمرت مملكته في جميع أقطار المغرب، بما لم يعهد لأحد من الخلفاء قبله، خصبا وهناء، وكثرة العلماء والأولياء والمشاهير، إلى أن توفي. وفي أيامه قيل[97]:

[الكامل]

1) وأُطلَت أيام السُّرور فلم يُصِبْ[98]   من قال: أيَّامُ السُّرورِ قِصارُ
2) وَجبرْت من جُرْحِ الزمانِ فكُذِّبتْ   أقْوالُهُم: «جُرْحُ الزمانِ جُبارُ» *

وكان كأخيه مولاي الرشيد، يُبدئ بالبحث في النسب ويُعيد، مسندا النظر في ذالك للعلماء والأتقياء. حتى جمع رحال المغرب، ورد كل فرع إلى صنفه، فأسى في ذالك الملوك المتقدمين، وأحيا النقابة في كل قطر من الأقطار، وأجرى على الأشراف من بحر العطاء، حرصاً على الضبط، الأنهار، وانتهت إليه الرياسة في الدين والدنيا، واستقل بسياسة الأمور العليا، مع رصانة العقل، وسداد الرأي، وجميل المعاشرة، وكرم النفس، وعلو الهمة، وفيضان العطا، ووسع المعروف. ولازالت الخلافة في عقبه إلى الآن[99].

«وأول من ظهر منهم، والده أبو عبد الله محمد الشريف، ابن علي بن محمد بن علي، بن يوسف ابن مولانا علي الشريف.

---

(96) السلطان العلوي الكبير (ت 1139هـ) ترجمته وأخباره في. النشر: 3/ 292 ــ 293 بالتفاصيل. 333 ــ 338 . رقم 494 تاريخ الضعيف: 58 ــ 102 . الاستقصا 7 45 ــ 114 . الترجمان 12 ــ 29 . الإعلام: 64/3 ــ 70 . رقم 349 . السلوة: 3/ 229 ــ 230 والنص بعده ينظر إلى نص في: السر: 32 . مع تقديم وتأخير .

(97) البيتان في: تاريخ الضعيف: 58 النشر: 3/ 287 الإشراف: 143 .

(*) الشطر مضطرب الوزن. وفيه تحريف ظاهر.

(98) النشر: 3/ 287: فلم يعب .

(99) النص بعده في: السر: 32 مع تغيير بسيط في العبارة .

10) [المولى محمد والمولى الرشيد][100]

ثم استقل بالأمر بعده، أكبر ولده، مولاي محمد. وبويع بتافيلالت بيعة عامة في جميع نواحي الصحراء، في حدود الخمسين والألف (1/1050 — 1640).

وبعده بنحو عشرة أعوام، دخل فاسا وبويع بدار الملك منها، ورجع لتافيلالت، إلى أن توفي في محاربة له مع أخيه مولاي الرشيد، في محرم سنة خمسة وسبعين وألف (5/1075 — 1064).

واستبد بالملك المولى الرشيد[101] في جميع أقطار المغرب، إلى أن توفي بمراكش سنة اثنين وثمانين وألف (2/1082 — 1671). ونقل إلى فاس، فدفن بروضة أبي الحسن علي ابن حرزهم[102].

وقد أشار العلامة سيدي محمد ابن جلون[103]، محشي المكودي[104]، إلى تاريخ بيعة السلطانين مولانا الرشيد ومولانا إسماعيل، في بيتين وهما:

[الطويل]

1) أتى فاسنا الغرّاءَ حِجّةَ سِتّةٍ	وألفٍ وسَبْعينَ الرَّشيدُ مُؤيَّدا
2) وذو النَّصْرِ إسْماعيل بويعَ بَعْدَ ذا	بِبَيْتَةِ أَحْوامٍ فأضحى مُمَجَّدا

(100) ترجمته وأخباره في الاستقصا: 15/7 — 28. النشر 2، 145. الالتقاط: 163 — 164. رقم 623. النزهة: 301 — 302. تاريخ الضعيف: 11 — 42. الترجمان: 1 — 12.

(101) ترجمته وأخباره في النشر 2، 192 — 194. الالتقاط 195 — 188. رقم 292 النزهة: 302 — 304 تاريخ الضعيف: 43 — 57. الاستقصا: 7/ 29 — 44. الترجمان: 9 — 12

(102) من مشاهير أولياء المغرب. (ت 559هـ) ترجمته في: التشوف: 168 — 173. رقم 51. الجذوة: 464/2 — 467. رقم 508. النيل: 198.

(103) محمد بن أحمد. فقيه نحوي فاسي (ت 1136) ترجمته في: الفهرس: 1/ 307 معجم المطبوعات: 74. رقم 186.

(104) أبو زيد، عبد الرحمان بن صالح بن علي المكودي الفاسي. أديب فقيه نحوي (ت 807هـ) ترجمته في: النشر 372 — 396 البغية. 2، 83. رقم 1497. فهرسة ابن غازي: 84. الجذوة. 2/ 403. رقم 410 الدرة: 3 84 رقم 1008. النيل 169. الموسوعة: 1، 210 معجم المطبوعات 332 — 333. رقم 754.

وقد أولع الناس بالتذييل على هذين البيتين، مضمنين تواريخ خلفاء هذا العصر.

فمن ذالك قول القاضي أبي القاسم العميري[105]:

[الطويل]

1) ومن بَعْدِهِ، منْ بَعْدِ خمْسين حجَّةً ... وستٍّ سنينَ، بايَعَ النّاسُ أحْمَدا

2) وفي سَنةٍ من بَعْدِهِ قامَ مَالِكاً ... ولِلْمُلْكِ عَبْدُ اللهِ كانَ مُجَدِّدا

ومنه قول القاضي أبي عبد الله الهواري[106]:

[الطويل]

1) وبايَعَ أهْلُ الغَرْبِ في عام واحدٍ ... وسَبْعينَ مَوْلانا الإمام مُحمَّدا

ومنه قول العلامة الأديب، أبي الربيع، سليمان الحوات الحسني[107]:

[الطويل]

1) وفي عام «رُشْدٍ» بعْدهُ بويع ابْنهُ ... يزيدُ، إلى أن حلَّ في شَرَكِ الرَّدى

2) فبويع في «شوْرٍ» من النّاسِ صِنْوُهُ ... سُلَيْمانُ. دام المُلْكُ فيه مُؤَبَّدا

ومنه قولي:

[الطويل]

1) ونَجْلُ هشامٍ أَلْفُهُ جاريٌ على(*) ... سبيلِ الهُدى لشَرْحِ صَدْرِ الذي اهْتَدى

---

(105) أبو القاسم بن سعيد العميري المكناسي، الفقيه القاضي. (ت 1178هـ) ترجمته في: الإتحاف 514/5 — 563. الفهرس: 831/2. (وهو ينقل عن النشر. وليس في النشر إلا ترجمة أبيه: 3/ 238 — 239).

(106) محمد بن طاهر الهواري. (ت 1220هـ). ترجمته في: الشجرة 375/1 رقم 1498 الشرب: 217 — 218.

(107) سليمان بن محمد الحسني الشفشاوني (ت 1231هـ) ترجمته في: الدرر: 2 95 — 96 الشجرة 379/1. رقم 1514. مؤرخو الشرفاء: 241 — 244. السلوة: 3 116 — 119 الشرب 220. معجم المطبوعات: 85. رقم 210.

(*) الشطر ساقط الوزن، ويصلح بتنوين جاري للضرورة.

11) [محمد ابن الحاج الداخل إلى فاس]

ثم محمد، رابع آباء الشيخ أبي الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج، المتقدم الذكر، لم نقف على من فوقه إلى الشيخ أبي إسحاق (المتقدم الذكر، ولم ندرِ أهو من ذريته من طريق أبي البركات، محمد بن محمد، بن إبراهيم بن محمد، بن أبي إسحاق، الآتي ذكرهم، أو من طريق أخرى) [108]، ولا يبعد أن يكون هو القادم من الأندلس إلى عدوة فاس، لما سيأتي.

وفي العربي، والد الشيخ أبي الفضل أحمد، يجتمع نسب الشيخ أبي الفيض معه، إذ هو أبو الفيض، حمدون بن أبي زيد، عبد الرحمان بن حمدون، بن عبد الرحمان بن محمد، بن العربي المذكور. فالشيخ أبو الفضل، عم والد جد أبي الفيض.

[ظهير السلطان المولى سليمان
بتوقير آل أبي الفيض
حمدون ابن الحاج واحترامهم]

وعندنا كتاب الإمام العلم، المفرد في باب العدل والمعرفة والإحسان، السلطان الأفخم، أبي المكارم، مولانا سليمان الحسني العلوي السجلماسي [109]، إلى الشيخ أبي الفضل [110] حمدون، لما وقف على كتاب جده مولانا إسماعيل، وغيره من ظهائر أسلافهم، ونصه بعد الفاتحة:

---

(108) ما بين قوسين زيادة من «د»، وهي مضروب عليها في «م». وقد ذكر ساهي أن أبا البركات لم يخلف ذكراً. المرقبة: 166.

(109) (ت 1238هـ) ترجمته وأخباره في: تاريخ الضعيف: 244 — 400. الاستقصا: 8/86 — 174. السلوة: 3/231 — 232. الإتحاف: 2/20 — 21. الفهرس: 2/980 — 984. الشجرة: 1/380 — 381. رقم 1523. الحياة: 360 — 367. الفكر السامي: 2/297 — 298. الترجمان: 92 — 104. معجم المطبوعات: 219. رقم 503.

(110) كذا بالأصل. والأشهر أبو الفيض.

«يستقر كتابنا هذا، السمي بالله، بيد ماسكه، قبيل العلامة الأفضل، القاضي الأعدل الأنبل، السالك أقوم المحاج، العارف بالله، سيدي أحمد ابن الحاج، المتشعبين من فصوله، والمتفرعين من أصوله، من أهل فاس وتطوان. صانهم الله من طروق العدوان:

يعلم الواقف عليه، والواصل إليه، أنا جددنا لهم حكم ما بيدهم من ظهائر أسلافنا الأعلام، الحامين بيضة الإسلام، من إجْلالِهِمْ على منصة التوقير والاحترام، وإجلاسهم على كاهل المبرة والإكرام، رعيا لنسبهم الزاهر المستنير، المنتمي إلى العباس بن مرداس، الصحابي الشهير، ولمن كان منهم من العلماء المتميزين، والقادة المتبررين، فرسان الأقلام والمحابر، وثمرات أعواد الكراسي والمنابر، الطالعين بالعدوتين، طلوع المشرقين.

بل زدناهم توقيراً واحتراماً، وإجلالاً وإكراماً، رعياً لجانب من له لدينا الحظوة المحظوظة، والمكانة المحوطة المحفوظة، الذي أثمرت أفنان علومه ونبغت، وطلعت شموس آدابه وبزغت، ذالك محبنا في الله، المحبة الوثيقة، ورضيعنا في ثدي العلوم الرقيقة، أبو عبد الله، حمدون ابن الحاج. سلك الله بنا وبه أقوم منهاج.

فنأمر من أطلقنا لهم زمام التصرف والأحكام، من حملة السيوف والأقلام، أن يقتدوا بما رسمنا، ويقتفوا ما رقمنا. ومن خالف منهم ذالك، خاف على رأسه، ولا لوم له إلا على نفسه. والله، تعالى، يتولانا وإياهم لما عليه المدار، مما يسعدنا في الآخرة. ونعم عقبى الدار .

وكتب في أواخر ذي الحجة، متم عام ثمانية ومئتين وألف (1208/4 ـــ 1793).

ووقع، رضي الله عنه، بخطه الشريف على هذا الظهير ما نصه:

«شيخنا ومحبنا في الله، السيد حمدون، عندنا فوق ما هو مرسوم. سليمان بن محمد. كان الله له في اليوم المعلوم».

[قيمة الظهائر الملوكية]

ولظهائر الملوكية في هذا الشأن كبير مدخل، ومزيد اعتماد عند أهل الحل والعقد، لدلالتها على ثبوت النسب واشتهاره في الأقطار النائية، حتى انقاد الملوك، على أنفة نفوسهم الأبية، للتسليم له والإذعان، ومعاملة أهله بما تأباه همتهم من التواضع والإحسان، مع ما علم لهم من الفحص عن مثل هذا الشأن، والحرص على علم ما كان، وكيف كان. وناهيك بالسلطان مولانا سليمان ثقة وعدلاً، وديانة وعلماً وصلاحاً. وسيأتي التعريف به[111].

[تصريح الشيخ أبي الفيض حمدون بنسبه]

وكان الشيخ أبو الفيض حمدون، كثيراً ما يصرح بهذه النسبة في مجالس العلم، ومحافل الصدور، وفي مواضع كثيرة من تآليفه.

قال في ميميته، بعد أن ذكر شعراء النبي، صلى الله عليه وسلم:

[البسيط]

1) راحمْتُهـمْ فيك، خيرُ المرسلين، لأنْ ... أكونَ تحت لواكَ يـوْمَ مُقْتَحَـم[112]

2) ومـا أنـا بمقَصِّـرٍ وقد ظَفِـرتْ ... يَـداي بـالقَـوْلِ منثـورٍ ومُنْتَظَـمِ

3) نسـلِّيـاً عن نثـيرِ الدُّرِّ في بُسُـطِ ... وعن مُـنَظِّـمِـهِ بـالجيـدِ من قِسَـمِ

4) لي في دَبِّ رقيـقُـهُ محرَّرُهُ ... دَبيبَ نَمْـلٍ، وتِـلْكَ حـالَةُ السُّـلَمي

5) لو أن خَنْسـاءَ لافْتِنـانِـهِ سَمِعَتْ ... تَعـودُ خَـرْسـاءَ بـافْتِنـانِـهِ الحذَمِ

6) وحَقَّقَتني ونَجْـلُ مَنْطِقَيْنِ يُـبِينُ (م) ... مَنْطِقـاً. إنني ابْنُ لابْنِـهـا الشَّـهِـمِ

وقال في حرف السين من وَتْرياته، التي سلك بها مسلك ابن رشيد البغدادي في المدح[113]:

---

(111) لم يعرف به المؤلف

(112) لم ترد هذه الأبيات فيما نشر من شرح العقود.

(113) جمال الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر. شاعر عراقي، مدح الرسول (ص). (ت 663هـ) واشتهر شعره في المغرب لأنه وفد عليه. ترجمته في: الذيل 264/8 — 280. رقم 75. والبيتان في ديوان حمدون: 324 — 325.

[الطويل]

1) سَفَيْنسا إلى عَلْيائِهِ بِعَرائسٍ ... مِنَ الْمَدْحِ تَزْهو، وَهْيَ قَرْعٌ مِنَ الخَنَسا

2) سَماعاً، عبادَ اللهِ، ما يَنْتَهي لهُ ... مَديحٌ، وقد أَنْهى القَراطيسَ والنَّفَسا

وقال من قصيدة في مدح الملك:

[الكامل]

1) خُذْها إليكَ ابْنَ الرَّسولِ ابْنَ الْعَوا ... تِلْكَ من سُلَيْمٍ أَشْرَفِ الأَخْوالِ[114]

2) سُلَمِيَّةً بِنْتَ ابنِ خَنْساءَ وعَبّا ... سٍ ابنِها الْمُبْدي لِفَضْلِ مَقالِ

3) وله رَسولُ اللهِ أَنْصَفَ قاطعاً ... للسانه عنهُ بسيفِ نوالِ

وقال من قصيدة أخرى[115]:

[الطويل]

1) شَكى لرسولِ اللهِ عَبّاسٌ الذي ... عَلِمْتَ، فأَشْكى بالذي أَبْهَجَ الخَنسا

2) وها وَلَدُ العباسِ قد جاءَ شاكِياً ... إلى وَلَدِ الرسولِ، لا يَخْتَشي بَخْسَا

3) وإنْ مالُكَ لم يُشْكِ من جاءَ شاكِياً(*) ... شَكاهُ لمن آتاهُ مُلْكاً وما أَنْسى

وقال من قصيدة أخرى[116]:

[البسيط]

1) مولايَ: لازِلْتَ تُدْنينا إليكَ كما ... نَرْجوهُ منكَ، وتَنْأى عن تَنالينا

2) جَدّي لِجَدِّكَ خَيْرِ الخَلْقِ أَحْسَنَ في ... مَدْحٍ. أَأَنْتَ كما كَساهُ كاسينا؟

وقال من قصيدة أخرى[117]:

[البسيط]

1) لكنَّني من أُناسٍ طابَ خِيمُهُمْ، ... شُمُّ الأُنوفِ عن المنازلِ الدُّونِ

2) من قَوْمِ مِرْداسٍ، مَنْ عَرَفْتَ قِصَّتَهُ ... مع النَّبِيِّ الأَمينِ، أَنْسٍ مَحزونِ

3) أَنْشا: «أَتَجْعَلُ نَهْبي»؟ غَيْرَ مُتَّهَمٍ ... بل مُظْهِرَ صَفْقَةِ بانَتْ لمغْبونِ

---

(114) القصيدة في: النوافح: 2/ 477 .

(115) الأبيات في: النوافح: 2/ 490 .

(*) الشطر ساقط الوزن. ويستقيم بقوله: وإنْ مالُكُمْ.

(116) الأبيات في: النوافح: 2/188 .

(117) القطعة من قصيدة في: ديوان حمدون 285 . وقد اضطربت الأبيات في ألف

4) وقال، إذ ليمَ: إنّ الشـعْرَ يَرْقُصُ في — قـلـبـي، إلى أن يَبِـيـنَ فيـهِ مَكْنـوني
5) فقال خيرُ الورى: اقْطعوا لسـانَهُ — عـني بـالعـطـاءِ غيْـرَ مَمْـنـون

[إشارة الشعراء إلى نسب الشيخ أبي الفيض حمدون]

ولطالما خاطبته ببيغ أشعارها فحول الشعراء، فيما عرض لهم أو لغيرهم من الأغراض وعرا، وعلى اختلاف الأغراض من الرثاء والتهنئة، مشيرين لهذه النسبة السُّلَمية.

فمن ذلك قول شيخنا العلامة المشارك الأديب، أبي عبد الله، سيدي محمد اليازغي[118] في مدحه، وقد كانا جالسين على واد سبو:

[الكامل]

1) لمـا رأيتُ سبو تتـابَع جزيُـهُ[119] — طـرَبـاً بـالحُسْـن راق من جُـلاّسِ
2) وأطـال ذيْـل الفخـرِ من إعجـابِهِ — لمـا اسْتطبْنـا فيـهِ شُـرْبَ الكـاسِ
3) خـاطبْتُـهُ يـا بحْـرُ لا تتكبَّـرنْ — فعـليـكَ بحْـرٌ من بـني مِـرْداسِ
4) حمـدونُ من عذُبَتْ مواردُ خُـلقِـهِ — وحوتْ محـاسِـنُـهُ على غيْرِ مِقيـاسِ

ومن ذلك قول العلامة نابغة أوانه، المتفنن المشارك، الصالح الناسك، السني الزاهد، دفين المدينة المنورة، أبي عبد الله، محمد حسوس، من قصيدة تأتي(*):

[الكامل]

1) طِبْتُـمْ فُروعـاً في الحديث بمجدِكُمْ — وكذاكَ طِبْتُـمْ في القَـديمِ نِجـارا
2) قد سُـدْتُـمْ في غابرِ الأزمانِ حتى — ضـاهـاكُم، وغـلبْتُـمـوهُ فخـارا
3) وافتـكُـمْ بوراثـةِ تـلك المكـارمُ — إذ ورَدْتُـمْ في الفخـارِ نِـزارا

---

(118) محمد بن أبي بكر اليازغي (ت 1238هـ) ترجمته في: الإعلام، 6/177 ـ 182، رقم 789 (عن الدر النفيس للوليد العراقي).

(119) تكررت الأبيات في روضة النيلوفر.

(*) أورد مؤلف القصيدة كاملة في روضة النيلوفر بآخر الكتاب، وهنالك نسبها الى المفضل حسوس!! ولاشك أن الرجلين واحد. والسهو من المؤلف أو الناسخ، والمقصود هو محمد المفضل حسوس.

4) وإذا الفخارُ الفخْرُ كان مُوَصَّلاً من سالِفِ الأجْدادِ كان يُبارى!؟
5) هذا هو المَجْدُ المُؤثَّلُ لا الذي ظُلْماً عليه مُدَّعيه انْمارا
6) هذا هو الشرفُ الذي لما بدا أبْدَتْ لغُرَّتِهِ البدورُ صَغارا
7) هذا هو الفَخْرُ الذي ما نالَهُ لعُلُوِّهِ كِسْرى، وجاوَزَ دارا
8) لا غَرْوَ في هذا، وقد كُنْتُمْ لِخَيْـ ـرِ المُرْسَلينَ لدينِهِ أنْصارا
9) كَمْ ذادَ عبَّاسُ بْنُ مِرْداسٍ أبو كُمْ عنه إنْ حَرْبٌ تأجَّجَ نارا
10) ليثُ الكتائبِ في الوغى، ما إنْ له إنْ فَرَّتِ الأبْطالُ ثَمَّ فِرارا
11) النَّاسُ كُلُّهُمُ دثارٌ وأنْتُمُ[*] كُنْتُمْ لِخَيْرِ العالمِينَ دِثارا
12) مازالَ نورُهُ فيكُمْ طَوْراً يَلو حُ عَلَيْكُمْ ويَعُمُّكُمْ أطْوارا
13) قد نِلْتُمُ من ذاكَ خَلْعَةَ بَهْجَةٍ وجَلالةً ومَهابَةً وَوَقارا

وقوله أيضاً من قصيدة:

[الكامل]

1) فضْلُ البرايا كُلُّها بشمائِلٍ وأضاء نور سناهُ عطْرٌ مُفْطِسٌ
2) لَطُفَتْ، فما لُطْفُ النَّسائمِ عِنْدَها!؟ عَبِقَتْ، فما مِسْكٌ لِنَشْرِهِ مُنْفِسٌ؟!
3) طابَتْ بطيبِ عَناصِرٍ ذُكِيَتْ بها رَقِيَتْ، وفي كُلِّ المراتبِ تَخْدِشُ
4) كرُمَتْ بأكْرمِ مَحْتِدٍ قِدْماً لهُ فَخْرٌ تَليدٌ للْمَجادَةِ مُفْرِشُ
5) لو أن خَنْساءَ دَرَتْهُ جَنى لَها ما كانَ تَنْدِبُ صَخْرَها أو تَخْمِشُ

وقوله أيضاً من قصيدة:

[الكامل]

1) طابَتْ بعُنْصُرِهِ ومَحْتِدِهِ الذي قد بانَ فَضْلُهُ عابِرَ الأزْمانِ
2) أصْلُ الفخارِ ومَعْدِنُ الأخْيارِ هُمْ بعَمارِق الأقْيالِ كالتيحانِ
3) وبِلَبَّةِ الأيَّامِ عِقْدٌ مِنْهُمُ قصد[120] مَهْيَعِ الغُدْرانِ
4) ضَرَبَتْ بِهِ في وَجْهِ كُلِّ مُلِمَّةٍ سَلِمَتْ بِهِ مِنْ طارِقِ الحَدَثانِ
5) الأنْجُمُ الغُرُّ الكِرامُ بنو سُلَيْـ ـمٍ مَنْ لَهُمْ في الفَضْلِ فَضْلُ مَبانِ

(*) تسهل الهمزة، ويمدّ الميم، لإقامة الوزن.

(120) بياض في جميع النسخ، قدره كلمة.

ومن ذالك قول صاحبنا الأديب الوزير، السيد محمد ابن إدريس[121]، من قصيدة تأتي:

[الكامل]

1) والمُنتقى من أُسرةٍ حازوا العُلى | ولكُلِّ مكْرُمَةٍ وفَخْرٍ شادوا
2) نصَرَ النَّبيَّ لِسانُهُمْ وسِنانُهُمْ | فلذاك أعلام البَرِيَّة سادوا
3) هُمُ السماحةُ والحَماسةُ شيمةٌ | وهُمُ السَّراةُ السّادةُ الأمجادُ
4) قوم، إذا حضروا النّديَّ، سحائب | وهُمُ، إذا حضروا الوغى، آسادُ
5) أحيا وجُودُك ذكرَهُمْ فكأنَّهُمْ | لم تُخْفِهِمْ بوُجودِك الألحادُ

[تواتر النسب السُّلَمي]

ولم يزل هذا الوصف السلمي ملازماً لرهط الشيخ أبي الفيض حمدون، فيما استوطنوه بهذه العدوة من حضرة فاس وتطوان، يحوزونه بما تحازُ به الأنساب، في السؤال والجواب، والكتابة والخطاب، والرسوم والظواهر[122]، حتى تواتر فيهم، تواتره في أسلافهم بعدوة الأندلس. وقد قال مالك، رضي الله عنه: «الناس في أنسابهم على ما حازوا وعرفوا به كحيازة الأملاك». اه. فالحيازة، إذن، ملاك الأنساب، كما أنها ملاك الأملاك، ولأجله كان الناس مصدقين في أنسابهم التي يحوزونها، ويعرفون بها بين الناس، لا ينازعون فيها بمجرد الدعوى، ولا يطالبون بإقامة البينة عليها، إذ يكفيهم حوزة الملك، ومعرفتهم عند الناس بها، من غير إنكار عليهم. ثم التواتر في مثل هذا من ثاني مسمى التواتر. وهو ما تواتر عند الخاصة، مثلما تواتر عند حملة الشريعة أن مالكا هو ابن أنس، وعبد الرحمان العتقي هو ابن القاسم، والبخاري هو محمد بن إسماعيل. وقس عليهم غيرهم من مشاهير أئمة الدين.

قال أبو الحسن، علي بن إسماعيل الأبياري[123] في شرح البرهان: «ولا شيء في

---

(121) سيعرف به المؤلف في آخر هذا الباب. الترجمة رقم 24.

(122) جمع ظهير في الاصطلاح المغربي أو استعمال المؤلف.

(123) عالم مصري. (ت 616هـ). ترجمته في الديباج: 2/121 — 123.

الدين أعظم تواتراً من القرآن، ولكن عند القراء حملته. وكم رجل من العقلاء لا يدري كلمات القرآن، ولا سورة منه. فلا يكون عدم التواتر عند بعض الناس، دليلاً على انتفاء التواتر على الاطلاق».

وإذا أحطت علماً بما أسلفناه، فلا جرم أن الفرع السُّلَمي المعروف بابن الحاج، الذي طلع في سماء هذه العدوة الغربية، قد اتصل بأصله الطيب من الشجرة السلمية، النابتة بسواحل الجزيرة الأندلسية، اتصال استفاضة دون مين، عند مؤرخي العدوة، كل من العدوتين. على أن الأحلاق من حسن السمت، وصدق اللهجة، والديانة والأمانة، وكرم النفس، وعلو الهمة، دالة على الأعراق، كما قيل:

[الكامل]

1) وإذا جَهِلْتَ من امرئٍ أعراقَهُ وقَديمَهُ، فانْظُرْ إلى ما يَصْنَعُ

[ذرية أبي حامد، العربي ابن الحاجّ السُّلَمي]

وأما الطالع من بني الحاجّ في سماء الوجود، بفاس وتطوان لهذا العهد، فنيف وثلاثون ذكراً عند العدّ. وجماع جميعهم، أو جلهم، الفاضل الخير الدّيّن، الثقة البركة الصدوق، الذاكر الصائم، أبو حامد، العربي بن محمد، بن علي بن محمد، المتقدم الذكر.

توفي في حدود الثمانين وألف (1080/70 ــ 1669) عن ولدين.

12) [ذرية محمد بن العربي ابن الحاج السُّلَمي]

ــ الأول: الفاضل الأرشد، أبو عبد الله، محمد. ومن أعقابه أهل عقبة ابن صوال بفاس وما قاربها، رهط الشيخ أبي الفيض. الموجود منهم الآن[124]:

ــ الفقيه العالم الصوفي، الناسك المحدث، البركة الكاتب، أبو عبد الله، محمد، شقيق أبي الفيض.

---

(124) سيعرف المؤلف بأعلامهم في الباب الخامس. انظر الجزء الثاني.

ـ والإخوة الثلاثة: العلم الهمام الأوحد، المحدث المعقولي، أبو عبد الله، محمد، وراقم هذه الحريفات، الصعيف الذليل الحقير، محمد الطالب، والطالب عبد الوهاب، أبناء الشيخ أبي الفيض.

ـ والفاضل أبو عبد الله، محمد بن أبي جيدة، شقيق أبي الفيض.

ـ وأبو فارس، عبد العزيز بن العربي بن عبد الغني، بن علي بن عبد الرحمان، والد جد أبي الفيض.

ـ وأبو عبد الله، محمد، المتأهل بناحية المشرق، بن عبد الرحمان بن الطيب، بن علي بن عبد الرحمان المذكور.

ولكن من الأولين من أبناء الشيخ أبي الفيض عقب:

ـ فلأبي عبد الله محمد الآن، أبناؤه الأربعة:

ـ الوقور الفاضل الأمجد، المجتني من ثمر العلم أنفس ما يحمد، القائم على قدم التحصيل، في الوسيلة والمقصد، أبو عبد الله محمد.

ـ والطالبان الأمجدان أحمد[125] وحمدون والصبي المهدي[126].

ـ ولأبي عبد الله محمد الطالب، ابناه الصبيان مُحمد (بضم الميم) وأحمد. أصلحهما الله.

ولد أبو عبد الله، محمد بن محمد في مهل الحجة، متم ثلاث وعشرين ومئتين وألف (8/1223 ـ 1807).

وولد عبد الوهاب، في حادي عشر ذي الحجة، عام تسعة وعشرين ومئتين وألف (4/1229 ـ 1813)، وحمدون يوم الخميس، حادي عشر ربيع الأول، عام أربعة وثلاثين ومئتين وألف. (9/1234 ـ 1818).

---

(125) علامة أديب، مؤرخ حوي صيب (ت 1316هـ) ترجمته في الدرر 2 329 مؤرخو الشرفاء. 262 ـ 266 الإعلام 2 435 ـ 439 رقم 306 الموسوعة 1 65 معجم المطبوعات 83. رقم 205. نفسه: 102 ـ 103. رقم 257. (ترجمة مكررة سهواً).

(126) عالم فقيه محدث (ت 1290هـ) ترجمته في الدرر. 2 329. السلوة. 1 238 الشجرة: 404/1. رقم 1920. الموسوعة: 69/1.

وأحمد بن محمد، سادس عشر شعبان، عام خمسة وثلاثين بعده (20/1235 ـ 1819).

ومحمد بن الطالب، عند صلاة المغرب، يوم الاثنين سادس ذي الحجة، سنة اثنين وأربعين ومئتين وألف (7/1242 ـ 1826).

والمهدي في رابع عشر من رمضان، سنة أربع وأربعين ومئتين وألف (9/1244 ـ 1828).

وأحمد عند غروب شمس [...](*) ليلة خلت، سنة ثماني بعده (3/1248 ـ 1832).

13) [ذرية أحمد بن العربي ابن الحاج السُلَمي]

الثاني: العلامة المحقق العارف بالله، أبو الفضل، أحمد بن العربي. ومن عقبه أهل درب الطويل من فاس.

الموجود منهم الآن:

ـ أبو العباس أحمد، المدعو حدو، وولده الصبي محمد، وولد أخيه أحمد، ومحمد ابنا العباس، وولد أخيه محمد، المدعو حمُّ ابن الطيب، وأولاده إدريس ومحمد والمفضل، وحدو والعباس والطيب، هم أبناء أحمد بن محمد بن امحمد (فتحا)، ابن الشيخ أبي الفضل.

ومن عقبه أيضاً أهل تطوان، ابنه[127] البركة الخير الديّن، الحاج الفاضل الأثْرُ، امحمد (فتحا) بن أحمد بن عبد الرحمان، بن امحمد (فتحا) ابن أبي الفضل. قدم إليها في المسغبة العظمى الواقعة في عام خمسين ومئة وألف (1150/ 1737). قدم إليها، وقد كان خلا بسببها من فاس نحو الثلثين.

الموجود الآن من أولاده: عبد القادر والعربي وعبد الله وعبد الغفور، أبناء محمد المذكور. أما عبد القادر، فقد تأهل بمصر، وله هناك أولاد. وأما العربي فقد انقطع لعبادة الله، عز وجل، في المدينة المنورة، فيما يزيد على العشرين سنة.

(*) بياض في الأصل.

(127) في الأصل: ابناه.

وأما عبد الله وعبد الغفور، فلا زالا في تطوان. والموجود من أحفاده: الطالبان الخيران أحمد ومحمد، ابنا الفقيه الأرضى الخير الدين، الحاج أحمد بن محمد المذكور. والتاجران محمد وأحمد، ابنا عبد السلام بن محمد المذكور. ومحمد (فتحا) وأحمد، ابنا عبد الغفور بن محمد.

فتحصل أن الموجود مما تقدم من أبناء أبي عبد الله محمد، في زمن تأليف هذا التأليف، وهي سنة ست وأربعين ومئتين وألف (1/1246 ـــ 1830)، اثني عشر(*) ذكراً. وأن الموجود من أبناء أبي الفضل أحمد، ثمانية عشر. وأما أولاد أعمامنا، الفقيه خير الدين، التالي لكتاب الله عز وجل، الأبرّ الأتقى الأرضى، أبو عبد الله، محمد المدني بن عبد الله، القاطن بدرب سيور، وابن أخيه محمد بن إدريس بن عبد الله، وابن عمه التهامي بن قدور، القاطن بدرب ابن ريان من فاس: ابنا محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد (فتحا)[128]. هذا جمع أفرادهم السالم، المرفوع الآباء إلى جدهم القادم. وسأعرّف، إن شاء الله، في الباب الخامس، جملة من الأعيان منهم، الذين تقدموا. وفي كل طبقة من طبقات الفروع والأصول، شيوخ وأئمة وقضاة وعدول، على الشيخ أبي الفيض في الرماد، ومن كان معاصراً له، أو عنه من الآخذين، وبالله أستعين.

[بنو الحاج غير السُّلَميين]

وأما من اشتهر بشهرته من الأعلام، فكثيرون، فإن الشهرة بابن الحاجّ، كما وقعت في هذا القرع السُّلَمي، وقعت في قبائل كثيرة.

14) [أبو عبد الله ابن الحاج التُّجيبي][1]

وقعت في تُجيب. ومنهم قاضي الجماعة بقرطبة، الشيخ أبو عبد الله، محمد بن أحمد، بن خلف، بن إبراهيم التجيبي، الشهير بابن الحاج. صاحب كتاب النوازل في

(*) كذا في الأصل.

(128) عبارات مضروب عليها، يظهر أنها جواب أما.

(1) ترجمته في بغية 117 ـــ 122 الصلة: 2 580 ـــ 581 رقم 1277. بغية الملتمس. 40 ـــ 41 رقم 25 معجم الصدفي 114 ـــ 116 الوافي: 2/ 94 رقم 413 المرقبة: 102. الأزهار: 3/ 61 ـــ 62.

الأحكام، المتداول بأيدي الناس، الدّالّ على تقدمه. ولد في صفر سنة ثمان وخمسين وأربع مئة (458/ 1066). وقتل ظلما بالمسجد الجامع بقرطبة، يوم الجمعة، وهو ساجد، لأربع بَقِينَ من صفر، سنة تسع وعشرين وخمس مئة (529/ 1134). وهو من أشياخ عياض. ولم يحفظ له جور في قضية، ولا ميل بهواه.

15) [القاسم ابن محمد ابن الحاج الأموي الزقاق][2]

وفي بني أمية. ومنهم قاسم بن محمد بن مبارك الأموي، ابن الحاج المعروف بالزقاق، المقرئ الفاضل النحوي الحافظ. الإمام المشهور.

ذكره صاحب الجذوة[3]، وتوفي بسلا نحو سنة ستين وخمس مئة (560/ 1165).

16) [أبو عبد الله ابن الحاج الأنصاري][4]

وفي الأنصار. ومنهم الشيخ أبو عبد الله، محمد بن حسين بن محمد، بن خلف الأنصاري المالقي، المعروف بابن الحاج وبابن صاحب الصلاة، المقرئ المحدث المتقن، الضابط الدّيّن الخطيب.

ذكره في الديباج[5] وأثنى عليه. توفي شهيداً سنة تسع وست مئة (609/ 1212).

---

(2) ترجمته في: الذيل: 5/ 570 ــ 571 . رقم 1104 .

(3) الجذوة: 2/ 513 . رقم 588 .

(4) ترجمته في الذيل: 6/ 166 ــ 168 . رقم 441 .

(5) الديباج: 2/ 284 . رقم 95 .

17) [أبو عبد الله ابن الحاج العبدري][6]

وفي بني عبد الدار. ومنهم أبو عبد الله، محمد بن محمد العبدري، المعروف بابن الحاج المغربي الفاسي. أحد المشاييح المشهورين بالزهد والخير والصلاح، من أحلّ أصحاب ابن أبي جمرة[7].

صنف كتاباً سماه: المدخل إلى تنمية الأعمال، بتحسين النيات، والتنبيه على كثير من البدع المحدثة، والعوائد المنتحلة. وهو كتاب حفيل. جمع فيه علما غزيرا. والاهتمام بالوقوف عليه متعين، ويجب على من ليس له في العلم قدم راسح، أن يهتم بالوقوف عليه.

توفي سنة سبع وثلاثين وسبع مئة (737/ 1336).

18) [أبو إسحاق ابن الحاج النميري][8]

وفي بني نمير. ومنهم الإمام الرحالة، الكاتب بديوان الإنشاء على عهد أبي الحسن المريني[9]، أبو إسحاق، إبراهيم بن عبد الله بن محمد، بن إبراهيم النميري الغرناطي، المعروف بابن الحاج. من أشياخ ابن الخطيب.

ألف تآليف كثيرة، وناهيك برحلته: فيض العباب، وإجالة قدح الآداب، في الحركة إلى قسنطينة والزاب، علما وأدبا. ورجزه في الأحكام أسلس وأعذب، حلو

---

(6) ترجمته في: الديباج: 2 321 ــ 322 . الوافي 1، 237 . رقم 157 . الدرة: 2 114 . رقم 563 . الجذوة: 1/ 228 . رقم 197 . معجم المطبوعات: 232 . رقم 526 .

(7) عبد الله بن محمد الأزدي أديب فقيه مرسي (ت 711هـ) ترجمته في الاحاطة: 415/3 . النيل: 140 .

(8) (ت 777هـ) ترجمته في: الاحاطة 1 342 ــ 363 نثير الفرائد 313 - 318 . النيل: 44 ــ 46 . الجذوة: 91/1 ــ 96 . رقم 16 .

(9) السلطان مشهور . (ت 752هـ) ترجمته وأخباره في: النثير: 67 ــ 86 . تاريخ ابن خلدون: 7/ 334 ــ 379 . الجذوة: 2/ 461 ــ 462 . رقم 505 . الاستقصا: 3/ 118 ــ 181 .

المساق، إلا أنه كثير التضمين. وهو الذي عرَّض به ابن عاصم[10] في «التحفة» في قوله:

[الرجز]

1) «قد ضُمِّنَهُ جَهْدي من التَّضمينِ»

ومن بديع نظمه في قلم[11]:

[الطويل]

1) أُحاجيكَ[12] ما واشٍ يُرادُ حديثُهُ — ويَهوى الغَريبُ النازحُ الدَّار إفصاحَهْ؟

2) تَراهُ مع الأخيان أصْفر ناحلاً — كمثل مريضٍ[13]، وهو قدْ لازم الرّاحةْ

ومن نظمه أيضاً[14]:

[البسيط]

1) إثنانِ عزًّا فلمْ يُظفرْ بِنَيلهما — وأعْوَزا من هُما في الدَّهر مَطْلَبَهْ

2) أخٌ مَودَّتُهُ في الله صادِقَةٌ — ودرْهمٌ من حلالٍ طاب مكْسَبَهْ

ذكر في نفح الطيب[15] أنه بقي في خلوته جميع شهر رمضان المعظم، فلما خرج في يوم عيد الفطر، أنشده ابن جُزَيّ[16] لنفسه[17]:

[الخفيف]

1) ما سِرارُ البُدورِ إلا ثلاثٌ — فلماذا أرى سِرارك شهرا؟!

2) أتُعَجِّلُهُ سِراراً لِعامٍ — ثم تبقى في سائرِ العامِ بدْرا؟!

---

(10) أبو بكر، محمد بن محمد الغرناطي فقيه مشهور (ت 829هـ) ترجمته في النفح 5/ 19 ـــ 22 الأزهار: 3/ 5 ـــ 7 . النيل: 289 ـــ 290 . معجم المطبوعات: 225 . رقم 511 .

(11) الأبيات في: النفح: 7/ 115 . الجذوة: 93/1 .

(12) النفح: 115/7: سألتك .

(13) النفح: 115/7: عليل .

(14) البيتان في: النفح: 7/ 116 . الجذوة: 96/1 .

(15) النفح: 5/ 531 .

(16) محمد بن محمد الكلبي الغرناطي . أديب فقيه (ت 757هـ) ترجمته في الإحاطة 2/ 256 ـــ 265 . الكتيبة 223ـــ 228 . النثير: 283 ـــ 296 . الأزهار: 195/3 .

(17) البيتان في: النفح: 531/5 . الأزهار: 3/ 195 .

19) [أبو أحمد، جعفر ابن الحاج المعافري][18]

وفي معافر، وهو أبو حي من همدان. ومنهم أبو أحمد، جعفر بن إبراهيم ابن الحاج المعافري. له تأليف سماه: «محك الشعر»[19]، أورد فيه لمحمد بن عبادة[20]:

[السريع]

1) أَوْدِعْ فُؤادي حُرَقاً أَوْدِعِ ... ذاتك تَرْدى. أنّتَ في أَضْلُعي[21]

2) وارْمِ سِهامَ اللَّحْظِ أو كُفَّها ... أنت بما ترمي مُصابٌ معي

3) مَوْقِعُها قَلْبي وأنّتَ الّذي ... مَسْكَنُهُ في ذالك الموضعِ

20) [أحمد بن محمد ابن الحاج الأزدي][22]

وفي الأزد. ومنهم أحمد بن محمد، المعروف بابن الحاج الأزدي. مقرىء أصولي أديب محدث. لم يكن في أصحاب الشلوبين[23] مثله.

---

(18) (ت 520هـ) ترجمته في: بغية الملتمس: 241 ـ 243 رقم 616 المطرب: 175 ـ 177 معجم الصدفي 69 المغرب 2 277 ـ 281 . القلائد: 139 ـ 144 . ويلاحظ أن المؤلف كرر هذه الترجمة جاعلاً من المترجم رجلين ، وهما منه . انظر الترجمة رقم 25 ، في هذا الباب .

(19) في الأصل: مجد الشعر . والتصويب من الأزهار: 2/ 254 .

(20) أبو عبد الله ، محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز . أديب من القرن الخامس الهجري . ترجمته في: الذخيرة. 2/801 ـ 805 المغرب: 2/134 ـ 137 . الأزهار: 2/259 ـ 255 ومواضع متفرقة في النفح .

(21) الأزهار: 2/ 255 .

(22) أبو العباس الأزدي الاشبيلي . ترجمته في: الاختصار: 96 ـ 97 . الذيل. 1/ 386 . رقم 539 . البغية: 1/ 359 ـ 360 . رقم 698 .

(23) أبو علي، عمر بن محمد . النحوي المشهور . (ت 645هـ) ترجمته في. المغرب 2/129 ـ 130 . الاختصار: 152 ـ 154 . التكملة رقم 1829 . الذيل: 5 460 ـ 464 . رقم 807 . البغية: 2، 224 ـ 225 رقم 1855 صلة الصلة. رقم 128 الديباج: 2، 78 ـ 80 . الوفيات: 3/ 451 ـ 452 . رقم 498 .

له مُصَنَّف في الإمامة، وعلم القوافي، ومصنف في حكم السماع، ومختصر «المستصفى»، وله حواشٍ على مشكلاته، وعلى «سر الصناعة»، وعلى «الإيضاح» و«الصحاح»، وايرادات على «المقرّب». توفي سنة إحدى وخمسين وسبع مئة (751/ 1350)[24].

21) [أبو العباس ابن الحاج الإدريسي البيدري][25]

وفي نعض الأشراف الأدارسة البيدريين. ومنهم أبو العباس، أحمد بن محمد بن عثمان، بن يعقوب بن سعيد بن عبد الله، الشهير بابن الحاج، ابن علي بن محمد بن محمد، بن الحاج بن أبي بكر، جماع العلميين[26].

أثنى عليه المديوني في البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان[27]. له شرح على سينية ابن بادس القسنطيني[28] التي ضمنها ما في الروض الناضر، في مناقب الشيخ عبد القادر، ومن عاصره من الأولياء والأكابر، وشرح على لامية الدمياطي في سر الحرف. كبير وآخر صغير[29].

ومن نظمه هذا التخميس على قصيدة أبي مدين الغوث[30]: «أيامن تعالى» الخ. ونصه[31]:

---

(24) بل الصحيح أنه توفي سنة 651 كما في المصادر.

(25) في الأصول: البيدري وهو تصحيف وترجمة أبي العباس ابن الحاج البيدري في البستان 8 ــ 24 وفيه أنه الورنيدي مولداً وداراً. ومنها ينقل المؤلف.

(26) لم ينص المديوني صاحب البستان على نفيه النسب، ولا على النسبة الأدريسية.

(27) البستان: 8 ــ 24. وانظر عن المديوني محمد بن أحمد بن مريم التلمساني، مؤلف البستان، مقدمة كتابه المذكور بقلم محمد بن أبي شنب.

(28) أبو علي، الحسن بن أبي القاسم. أديب عالم (ت 787هـ) ترجمته في وفيات ابن قنفذ 323 النيل. 108. الدرة: 242/1. رقم 363. السر: 47.

(29) لم يذكر البستان هذين المؤلفين.

(30) أبو مدين، شعيب الأنصاري الصوفي. (ت 594هـ) ترجمته في أنس الفقير التشوف 319 ــ 327 رقم 162. الذيل 4/ 127 ــ 130. رقم 245. العنوان 55 ــ 65 الجذوة 530/2 ــ 531. رقم 609. التكملة: رقم 2005 النفح في مواضع متفرقة. النيل: 127 ــ 129.

(31) البستان: 11 ــ 14. ورواية القصيدة فيه دقيقة، وقد اعتمدناها.

[الطويل]

1) إذا أنـا من زادِ التُّقى كُنتُ مُعْسِرا ... ومِنْ موبِقـاتِ الإثـمِ أَصْبَحتُ موقَرا

2) دَعَـوْتُ إلاهي ضَـارِعـاً مُتَحَقِّـراً ... «أيـا من تعـالى مَجْـدُهُ فتـكَبَّـرا

3) وجَلَّ جَلالُ قَدْرِهِ أن يُقَدَّرا»

4) بعـفْـوِكَ رَبي عُبَـيْـدُكَ لائـذٌ ... من السَّخْطِ يَنجو[32] وبالرضى مِنْكَ عائذُ

5) أَمَنْ بِـواصي كُلُّنـا هُـوَ آخِـذُ ... «ومَنْ حُكْمُـهُ مـاضٍ على الخَلْقِ نـافذُ

6) كما خَطَّ في أُمِّ الكِتابِ وسَطَّرا»[33]

7) بنـاصِيَتي خُذْ للهُدى أنا شـاسِعُ[34] ... ومُنَّ بـإحْسـانٍ فجـودُكَ واسِـعُ

8) وعَبْـدُكَ بـالغُفْـرانِ والعَفْـوِ قـانِعُ ... «لكَ الحُكْـمُ لا مُعْطِيَ لمـا أَنْتَ مـانِعُ

9) ولا مانِعَ ما أَنْتَ تُعْطي مُوَفَّرا»

10) تداركْ عُبَيْداً لم يَزَلْ وهْوَ جابِذٌ[35] ... بِعَهْـدِ الصِّبـا أنت الكَريمُ العَطـاءِ ذو

11) يُسـامحُ مَنْ ميثـاقُـهُ هو نـابذُ ... «قضـاؤُكَ مَقْـضِـيٌّ وحُكْمُكَ نـافذُ

12) وعِلْمُكَ في السَّبْعِ الطِّباقِ وفي الثرى»

13) عُبَيْدُكَ إن لم تَكْسُهُ العَفْوَ حائنٌ[36] ... غَـريقٌ، وإن أَمَّنْتَـهُ، فَهْـوَ آمِنُ

14) مَساويه. إن ترضى عليه[37]، محاسنُ ... «وأَمْـرُكَ بـينَ الكـافِ والنـونِ كائنُ

15) وأَسْرَعَ من لَحْظِ العيونِ وأَيْسَرا»

16) عُبَيْـدُكَ، يـا ربي، لِعَفْوِكَ سـائلُ ... ولَيْسَ له إلا رَجـاكَ وَسـائِـلُ

17) وأَنْتَ الذي تَجْري[38] لديك مسائلُ ... «إذا قُـلْتَ: كن، كان الذي أَنْتَ قـائِلُ

18) ولَمْ يَكُ مِنْكَ القَوْلُ فيه مُكَرَّرا»

---

(32) في الأصل: يغلو . والتصويب من البستان: 12 .

(33) في الأصل: مسَطْرا . والتصويب من البستان: 12 .

(34) البستان: 12 بالهوى أنا شائع .

(35) البستان: 12:

1ـ «تداركْ عُبَيْدا لم يزلْ وهْو هائمُ ... بعهد الصبا حتى اغتلته الجرائمُ

2ـ وسامِحْهُ. إنه على الذَّنْبِ نادِمُ ... قَضاؤكَ مَقْضيٌّ وحكمك جازِمُ

3ـ وعلمك في السبع الطباق وفي الثرى

(36) في الأصل: خائن . والتصويب من البستان: 12 .

(37) في الأصل: عنه . والتصويب من البستان: 12 .

(38) في الأصل: تجدي . والتصويب من البستان: 12 .

19) فصُنْ من لظى وَجْهي، فديني لم أُصْنِ سوى أنّي التوحيد بالشّرك لم أَخُنْ
20) ومن يتجلَّلْ عِزَّك الدّهر لم يَهُنْ[39] «سبقْتَ ولم تُسْبَق، وكُنْت ولم يكُنْ
21) سِواكَ وتَبْقى حِينَ يَهْلَكُ ذا الورى»
22) فجُدْ لعَبيدك[40] العُصاة بعتقهمْ غداً يَوْمَ يَحْظى الصادقون بصدْقهمْ
23) كما جُدْتَ في هَذي[41] لكُلٍّ برزْقِهِمْ ودبّرْت أمْر الخلق من قبل خلْقهمْ
24) فكان الذي دَبَّرْتَ أمْراً مُيَسَّرَا»
25) قطعْتُ زَماني في المَعاصي مُجاهِرا فجئْتُكَ أبغي العفْو، إذ كُنْت قادرا
26) وعلْمُكَ ما يخفى كعِلْمِك ظاهِرا «علوْت على السّبْع السّماوات قاهرا
27) فأنت تَرى ما قد خَلَقْتَ[42] ولا تُرى»
28) ظَننْتُ بربي خَيْرَ ظَنٍّ ومنْ يظُن جميلاً بمَوْلاهُ عليه به يمُن
29) أيا ربِّ ألْبِسْني لباس التقى ومَنْ «لبِسْت رداء الكِبْرياء ولم يكُنْ
30) لغيْرك، يا ذا المجْد، أن يتكبَّرا»
31) ذُكتْ نارُ جَوْفي[43] والخطايا تشُبُّها أيُهْلكُني داءُ المعاصي ورُغْبُها؟[44]
32) وأنت الذي، لاشكَّ، عِندكَ طبُّها[45] «تُقِرُّ لكَ الأرْبابُ أنك ربُّها
33) ولو أنْكرتْ، ذاقتْ عذاب مَنْ أنْكرا»
34) وَعدْت إلاهَ العرش، أنّكَ غافرُ فجُدْ لي بغُفْرانٍ، فعندي كبائرُ
35) وإني ضَعيفٌ عاجزٌ مُتصاغرُ[46] «وأنت كما سَمّيْتَ نفسك قاهرُ
36) وأنت إلاهُ العَرْش حقّاً بلا افترا»

---

(39) في الأصل: ومن تجلله بعزك لم يهن. «والتصويب من البستان: 12» .
(40) البستان: 12 . لعبادك .
(41) في الأصل: هذا . والتصويب من البستان: 12 .
(42) في الأصل: أردت . والتصويب من البستان: 13 .
(43) البستان: 13 . خوفي .
(44) في الأصل: غيها . والتصويب من البستان: 13 .
(45) في الأصل: طيها . والتصويب من البستان: 13 .
(46) في الأصل: متناصر . والتصويب من البستان: 13 .

37) حَمَلْتُ من الأَوْزار عِبْئاً[47] مُثقَّلا وجئْتُكَ[48] ربّي مُسْتعيناً مُؤَمِّلا[49]
38) فأنت الذي تعْفو الكثير تفضُّلا[50] «وأنت رفعت السَّبْعَ في ذِرْوة العُلا
39) وأمْسكْتها كي لا تخرَّ على الثرى»
40) فأنزِلْ بقلْبي[51] مِنْ رِضاك سكينةً فنفْسي عادتْ من حمْلِ وِزْرٍ حزينةً[52]
41) أمَنْ رَفع السّما طِباقاً[53] مكينةً[54] «وسخَّرْت فيها الشُّمْس[55] والبَدْر زينةً
42) [لها][56] ونجوما طالعاتٍ زوَاهرا[57]»
43) فلا تُبْقِ لي ضَرّاءَ إلا مَحَوْتَها أمَنْ يُبْصرُ الأشْياء ويسْمعُ صوْتها
44) وقَدَّرْتَ فِينٌ الحَياةَ ومَوْتَها «وأنت نسطْت الأرْض ثُمّ دحوْتها
45) وأجْريْتَ أنهاراً عليْها وأبْحُرا»
46) فأمْنْ عُبيْداً أمّ بابك[58] صارخاً إذا صارَ إسْرافيلُ في الصُّور نافخا
47) أمَنْ مدّ في القفْر فجاجاً رواسخا[59] «وأرْسيْت فيها الرّاسيات شوامخا
48) وفجَّرْتَ منها ماءَها فتفجَّرا»
49) أجِرْني من أصْل الرّدى وفروعه أيا مَنْ تَلقَّى آدما[60] في وُقوعه

---

(47) في الأصل: أعباء . والتصويب من البستان: 13 .
(48) البستان: 13 . فجئتك
(49) في الأصل: موسلا . والتصويب من البستان: 13 .
(50) في الأصل: مفضلا . والتصويب في البستان: 13 .
(51) البستان: 13 . علي .
(52) البستان: 13 . «فنفسي من الأوزار عادت حزينة» .
(53) في الأصل: العلاه . والتصويب من البستان: 13 .
(54) في الأصل: حمينة . والتصويب في البستان: 13 .
(55) في الأصل: الشموس . والتصويب من البستان: 13 .
(56) الكلمة ساقطة من الأصل .
(57) في الأصل: وغررا . والتصويب من البستان: 13 .
(58) في الأصل: يرتجي بك .
(59) البستان: 13 «وسخرت في الأرض الفجاج رواسخا»
(60) البستان: 14 . آدم

50) وتُبْتَ عـلَيْـهِ إذ دَعـا بخضـوعِـهِ ‏«وزَوَّجْتَـهُ زَوْجـاً من إحدى ضُـلوعِـهِ
51) وأنسَلْتَ نَسْلاً منه مُتَكاثِراً»[61]
52) غَدَوْتُ بأثْواب المعاصي[62] مُسَرْبَلا وقَـلْبـي بـأسْـقـامِ القَسَـاوةِ مُـتْـلى
53) فجُدْ بدواءِ التَّوْبِ رَبِّ تفضُّـلا»[63] «فسُبْحـانَكَ اللَّهُـمَّ ذا[64] المجْد والعُـلى
54) تَبَارَكَ رَبِّي ما أجَلَّ وما أقْدَرا!
توفي، رحمه الله، سنة أربع وثلاثين وتسع مئة[65] (934/ 1527).

22) [أبو الفضل، عبد الجليل ابن الحاج العيسوي][66]

وفي قبيلة بني عيسى. ومنهم الشيخ المتفق على ولايته، المجذوب الهائم المولَّه، الشهير الكرامات، أبو الفضل، عبد الجليل، المدعو حمولا العيساوي، الشهير بابن الحاج.

أثنى عليه صاحب «المقصد الأحمد»[67] غاية، وقال[68]: «إنه كان يقول في بعض الأوقات: اطلبوا الله في حياة بَبّ جلول، فإنه تأكدة الغرب». يعني عمدته.

ويقول في بعض الأوقات[69]:

---

(61) في الأصل: فتنثرا . والتصويب من البستان: 14 .

(62) في الأصل: المعالي . والتصويب من البستان: 14 .

(63) في الأصل: متفضلا . والتصويب من البستان: 14 .

(64) في الأصل: ذو . والتصويب من البستان: 14 .

(65) البستان: 24: «قريبا من الثلاثين وتسع مئة»

(66) ترجمته في: الصفوة: 50 ــ 51 . النشر: 1/ 269 . الالتقاط: 86 رقم 144 . الاستقصا: 6/ 59 . السلوة: 1/ 207 ــ 208 . المقصد: 285 ــ 286 .

(67) المقصد الأحمد، في التعريف بسيدي ابن عبد الله أحمد . لعبد السلام بن الطيب القادري، المؤرخ النسابة الفاسي (ت 1110هـ). ترجمته في: النشر: 3/ 86 ــ 115 . الالتقاط: 275 ــ 280 . رقم 418 . الدرر: 2/ 192 ــ 194 . السلوة: 2/ 348 ــ 350 . الحياة: 142 ــ 146 . معجم المطبوعات: 281 ــ 283 . رقم 648 .

(68) المقصد: 286 . مع تصرف في اللفظ عند النقل ، وبعض الاختصار .

(69) البيتان في: النشر: 1/ 269 . المقصد: 286 .

1) بابا جَلّولْ يا جَوْهَرة في اخْراصي
2) يا بابا جَلّولْ يا عْمَمْ فوقْ راسي

وكان العارف بالله الفاسي[70] يثني عليه ويشهد بصحة حاله، ويقول: إنه رجل قوي، وإنه من أهل الحضرة، وإنه غول من الأغوال، يتكلم على الخواطر، وينبئ عن الضمائر.

توفي عند طلوع الشمس، من يوم الخميس السابع عشر من شوال، سنة ست وثلاثين وألف[71] (1036 / 1626). ودفن بداره حول رقاق الرمان من فاس، وضريحه مقصود الزيارة، شهير النفع.

23) [أبو عبد الله ابن الحاج العامري التلمساني][72]

وفي بني عامر. ومنهم أبو عبد الله، محمد ابن الحاج العامري التلمساني، الفاسي الدار. علامة مشارك محصّل، مقرئ مدرّس حيسوبيّ. أخذ عن الْوَجاري[73] وطبقته. ومن بديع نظمه:

[الطويل]

1) بـــربّك لذْ فيما تُحبّ وتَـــرْتجي	تَعُـمّـك آلاءٌ لديْــه ظــواهِــرُ[74]
2) ألم تــرَ أن الله أنْــزَلَ رَحْمَـــةً	فراقَتْ على الأغْصــانِ منها جَواهِرُ

ومن بديع نظمه أيضاً[75]:

---

(70) عبد الرحمن بن محمد الفاسي فقيه صوفي (ت 1036هـ) ترجمته في الصفوة 34 ـ 36 النشر 1 266 ـ 169 الالتقاط 1 85 ـ 86 رقم 143 الدرر 2، 286 ـ 287 السلوة 2 302 ـ 306 المقصد 280 ـ 283 معجم المطبوعات. 264 ـ 265 رقم 612. العناية: 25 ـ 28.

(71) انتهى النقل عن المقصد: 286.

(72) ترجمته في: الالتقاط: 436. 474 ـ 476.

(73) محمد بن علي الفصاعي الأندلسي الفاسي مؤرخ لغوي (ت 1141هـ) ترجمته في النشر 3/ 304 ـ 312. الالتقاط:344. رقم 497. السلوة: 148/2 ـ 149.

(74) (75) الأبيات في: الالتقاط: 475.

[الكامل]

1) مـازحْتُكُـمْ لصـداقتي إيـاكُمْ ... لولا الصَّـداقـةُ مـا اسْتبـانَ مِزاحُ

2) أو مـا تَرى أن الصَّـديقَ إذا خـلا ... وسـلا يمزَح صـديقه يرتـاحْ

توفي في حدود السبعين ومئة وألف (1170/ 1756).

24) [أبو عبد الله ابن الحاج العمراوي الزموري][76]

وفي العمراويين من آزمور الشيخ. ومنهم الكاتب بديوان الإنشاء، الوزير أبو عبد الله، محمد بن إدريس بن محمد بن عبد الله، الشهير بابن الحاج.

«رقيق الإشارات، حلو الحكايات، له في النظم والنثر القلم الأعلى، والمورد الأحلى. لازم الحنو لتعليم بين يدي أكثر أشياخنا، فمن فوقهم. ثم اتصل بمولانا السلطان عبد الرحمن بن هشام[77]، وأنشده قصيدة منها[78]:

[الكامل]

1) رُفِعتْ لمجدك رايـةُ الإحسـانِ ... وبـدا بحضـرك سـاطعُ البُرهـانِ

2) وسـرتْ بسـرِّك في الأنام مسـرّةٌ ... سَـرَّ المحبُّ بهـا وغصَّ الشـاني[79]

3) يا مفرداً في الفضـل غير مُشـاركٍ ... أقْسـمْتُ مـالك في البريّـة ثـاني[80]

فاشتملت عليه دولته اشتمال الأكمام على الزهر، والهالة على القمر، حتى انتظم في سلك الرياسة وارتبط، وحلّ ما شاء بحكم اختصاصه بها وربط»(*).

---

(76) توفي سنة 1264هـ. ترجمته في الاستقصا: 9/ 4، 14 ـ 15. السلوة: 2/ 362 ـ 363. [illegible]: 1/ 316 ـ 317. الإعلام: 6/ 263 ـ 288، رقم 807. الحياة: 409 ـ 420. الموسوعة: 1/ 40. فواصل الجمان: 40 ـ 60.

(77) سلطان المغرب (1822 ـ 1859م) ترجمته وأخباره في الاستقصا: 9/ 3 ـ 79. [illegible]: 1/ 185 ـ 187. الإعلام: 8/124 ـ 142. رقم 1113. الإتحاف: 5/2 ـ 174.

(78) الأبيات في الإعلام: 6/ 271. السلوة: 2/362.

(79) في الأصل: الشان.

(80) في الأصل: ثان.

(*) النص في السلوة: 2/ 362.

ومن بديع نظمه ما أنشدنيه مخمّسا لقول ابن سهل[81]: «إن شكوت الهوى» الخ:[82].

[الخفيف]

1) يـا مُحبّـاً بُجُبِّنـا قـد تغـنّـى ... وعَنَـاهُ غـرامُنـا حيـن عنّـا

2) فبكـتْ عينُـهُ وحنَّ وأنّـا ... «إن شكـوْتَ الهوى فما أنت منا

3) إحْملِ الصَّدَّ والجفا يا مُعَنَّى»

4) إنْ شَكْواكَ من جوى الحُبِّ شِرْكْ ... بـانَ منـهُ بـأنَ دعْـواكَ إفْكْ

5) غـايـةُ الحُبِّ للمُحبِّيـن هُلْكْ ... «تـدّعي مـذهبَ الهـوى ثم تشكـو

6) أين دَعْواكَ في الهوى قلْ لي أيْنا؟»

7) كمْ مُحبٌ بصـدْقـه مَـذْهبـانـا ... حمـلَ الصّـدّ والهـوى والهـوانـا

8) فـاز منـا بـوصْـلنـا ورِضـانـا ... «لو وجـدْنـاك صـابـراً لهـوانـا

9) لوَهَبْناكَ[83] كُلَّ ما تَتَمَنَّى»

25) [أبو الحسن ابن الحاج اللُّورَقي][84]

وقد وقفت على أئمة مشهورين بهذه الشهرة، ولم أدر من أي القبائل هم.

منهم ذو الوزارتين، أبو الحسن ابن الحاج اللّوْرقي أثنى عليه الفتح بن خاقان[85]

---

(81) إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي شاعر مشهور (ت 649هـ). ترجمته في المغرب 1: 269 — 270 الاختصار 73 — 85 نفح 3: 522 — 527 الوافي 6: 5 — 11 رقم 2440.

(82) أبيات ابن سهل في الإيقاظ 141 — 340 ... ترد في ديوانه المطبوع، وهي واردة في مقدمة الاستهلال من كناش الحائك (غير مسبوقة) 145 وقد خمسها أبو الفيض حمدون بن الحاج من غير أن ينسبها لأحد. ديوانه: 272 — 273.

(83) الإيقاظ: 141: لأعطيناك.

(84) ترجمته في المغرب 2: 277 — 281 المطرب 175 — 177 بغية الملتمس 1: 241 — 243 رقم 616 معجم الصدفي 69 — 70 وقد سها المؤلف أن ترجمه باسم أبي أحمد جعفر ابن الحاج المعافري. والرجلان واحد. انظر الترجمة رقم 19.

(85) أديب أندلسي كبير (ت 529 أو 535هـ). ترجمته في المغرب 1: 259 — 260. المطرب 25 معجم الصدفي 300 رقم 285 نفح 5: 529 — 531. رقم 1020 الاختصار 4: 248 — 253. الوفيات: 4/ 23 — 24، رقم 525.

في القلائد[86] والمطمح[87] غاية. قال في القلائد[88]:

«شيخ الجلالة وفتاها، ومبدأ الفضائل و(منتهاها)[89]. كَرَمٌ كانسجام الأمطار، وشِيَمٌ كالنسيم المعطار. أقام زمناً على المدامة معتكفا، ولثغور البطالة مرتشفا، لا يغدو إلا ثملا، ولا يروح إلا بنشوة مشتملا، وجوده أبدا هاطل، وجيده إلا من المعالي عاطل. ثم فاء عن تلك الساحة، واختار تعب النسك على تلك الراحة، فراح خلف[90] خشوع، وأصبح بين سجود وركوع». ومن نظمه[91]:

[الكامل]

1) ومُهفهفٍ مزَجَ الفُتورَ بشدَّةٍ — وأقامَ بين تَبذُّلٍ وتَمنُّعِ

2) يثْنيه من فعْلِ المُدامةِ والصِّبا — سُكرانِ: سُكْرُ طبيعةٍ وتطبُّعِ

3) أوْ ما إليّ بكاسِهِ فكففْتُها[92] — ودنا فشفَّعها بلحظٍ[93] مُطْمعِ

4) والله لولا أن يُقالَ هوى الهوى — منهُ بفضلِ عزيمةٍ وتورُّعِ

5) لذَهبْتُ من تلك السَّبيلِ بمذْهبي[94] — فيما مضى، ونزعْتُ فيها[95] منزعي

(86) القلائد: 139 ـــ 144 .

(87) المطمح: لم أقف على ترجمته فيما طبع منه .

(88) القلائد: 139 .

(89) زيادة من القلائد لم ترد بالأصل . ثم من باء وألف .

(90) القلائد: 139: حليف .

(91) الأبيات في: النفح: 3/ 259 ـــ 260 . القلائد: 140 .

(92) القلائد: 140: بكاسه فرددتها .

(93) القلائد: 140: لحظة .

(94) النفح: 3/ 260: بمأخذي .

(95) القلائد: 140: فيه .

26) [أبو يحي ابن الحاج القرطبي][96]

ومنهم أمير قرطبة، أبو يحيى بن محمد ابن الحاج. قال في قلائد العقيان في ترجمة ابن أبي الخصال[97] ما نصه[98]:

«وفي أيام مقامي بالعدوة، اتفق[99] بيني وبين أبي يحيى محمد ابن الحاج، سقى الله مصرعه، وأورده منهل الصفو ومشرعه، مودة استحكم تواخيها[100]، وعدونا بها حبيبي صفاء وإخلاص، وأليفي إخاء واختصاص، والزمان مساعد، وصرفه متباعد، والشباب خضل يانع، والدهر يبيح له ما هو اليوم مانع[101]، والدنيا سرور وإيناس، والأرض ظباء وكناس، فوقع بيني وبينه في بعض الأيام تنازع أدى بنا إلى الانفصال، وتعطل تلك البكر والآصال. ثم نمى (إليَّ عنه قول)[102] ضاق به ذرعي، واجتث منه أصلي وفرعي، فكلما صدَّني عن الرحلة صمّمت، وكثت من عرى التلوي ما كنت أبرمت. وبعد انفصالي، علمت أن ذالك القول عدا زورا، ومشى[103] به من غصَّ أن يرانا زائرا أو مزورا، فانقشعت تلك المخيلة، وتحركت لوعة مودَّته لدخيلة، وأكدت تجديد ذالك العهد الرائق، وكفّ أيدي تلك العوائق، فكتبت إليه:

---

(96) ترجمته وأخباره في: الأزهار: 3/ 102 . النفح: 3/287 .

(97) أبو عبد الله، محمد بن مسعود . أديب كاتب أندلسي . (ت 540هـ) ترجمته في: الذخيرة: 2/ 784 ـ 809 . الصلة: 2/ 588 ـ 589 رقم 1292 بغية الملتمس 121 رقم 282 . المعجب 256 معجم الصدفي 144 المطرب: 187 ـ 189 . المغرب: 2 66 ـ 67 القلائد: 175 ـ 181 .

(98) القلائد: 179 ـ 180 .

(99) القلائد: 179 : تفقت

(100) بعده في القلائد: 179 : وسدت أواخيها .

(101) القلائد: «والدهر مبيح ما هو له اليوم مانع»

(102) ما بين قوسين مضروب عليه في مم . وثابت في: القلائد: 179 .

(103) القلائد: 174: ووشى .

[الطويل]

1) أَكَعْبَـةَ عَـلْيَـاءٍ، وهضبـةَ سُـؤْددٍ ... وروضـةَ مجْـدٍ بـالمفـاخرِ تُمْطِرُ[104]

2) هَنيئـاً لمُـلْكٍ زانَ نورُك أُفْقَـهُ[105] ... وفي صَـفْحَتَيْـهِ من مَقَـالِكَ[106] أسْطُرُ

3) وإني لَخَـفَّـاقُ الجنـاحَيْنِ كلّمـا ... سَـرى لك ذِكْرٌ، أو نَسـيمٌ مُعَطَّـرُ

4) وقد كان واشٍ هاجَنـا لتهاجُرٍ[107] ... فبتُّ، وأحْشـائي جَـوى تَتَـفَـطَّـرُ

5) فهـلْ لك في وُدٍّ ذوى لك طـاهراً ... وباطِنُـهُ يَنْـدى لَكَ صَـفـاءً ويَقْطُرُ

6) ولَسْتُ بِعِـلْقٍ بِيعَ بَخْسـاً، وإنني ... لأَرْفَعُ أعْـلاقِ الزَّمـانِ وأخْطَـرُ[108]

فأمر كاتبه ابن أبي الخصال[109] بمراجعتي، فكتب عنه[110] بقطعة منها[111]:

[الطويل]

1) تَنَـيَّتَ أبَـا نصْـرٍ عِتـابي وربمـا ... تَنَتْ عِزَّةَ الشَّـهْمِ المُصَمِّمِ أسْطُرُ

2) ونـالت هُـدى[112] ما لم تكُنْ لِتنـالَهُ ... سُـيوفٌ مِراضٌ[113]، أو قَنـاً تَتَـأطَّرُ

3) ومـا أنـا إلا من عـرَفْتَ، وإنمـا ... نَظَـرْتَ ودادي، والمَـوَدَّةُ تُبْـطِـرُ

4) نَظَـرْتَ بِعَيْـنٍ لو نَظَـرْتَ بغَيْـرِها ... اصبْتَ، وحقُّ الرّأْيِ وشـانُ أشْطُرُ[114]

5) وقِـدْمـاً بَـذَلْتُ الوُدَّ والحُبَّ فِطْرَةً ... ومـا الوُدُّ إلا مـا يَخُـصُّ ويَقْـطُـرُ

وذكر في المطمح[115]، أنه كان له ثلاثة أولاد من أجمل الناس صورة: رحمون

---

(104) المقطوعة في: المطرب: 189 . القلائد: 180 .

(105) في الأصل: أفقك نوره. والتصويب من القلائد: 180 .

(106) المطرب: 189 . القلائد: 180 . معضائلك.

(107) المطرب: 189: لتنافر .

(108) المطرب: 189: أنضر .

(109) القلائد: 180: فأمره .

(110) القلائد: 180: عنه .

(111) المقطوعة في: المطرب: 189 . القلائد: 180 .

(112) المطرب: 189 . القلائد: 180: هوى .

(113) القلائد: 180: مواض .

(114) المطرب: 189: يشطر .

(115) لم يرد نص في المطمح المطبوع. والحكاية في: نفحه 2/ 56، الأزهار 3/ 102، نفح 3/ 287 . 3/ 459 .

وعزون وحسون، فأولع بهم ابن السيِّد البطليوسي[116]، وقال فيهم[117]:

[البسيط]

1) أخفيْتُ سقمي حتى كادَ يُخفيني وهمْتُ في حُبِّ عزونَ فعَزوني
2) ثم ارْحَموني برَحمون فإن ظمئتْ نفسي إلى ريقِ حسون فحُسوني

27) [أبو عبد الله ابن الحاج الإشبيلي]

ومنهم محمد بن علي بن عبد الله، بن محمد ابن الحاج. قال في الإحاطة[118]:

«يكنى أبا عبد الله. من مدجَّني مدينة اشبيلية، من العارفين بالحيل الهندسية والمهرة في نقل الأجرام ورفع الأثقال. توفي بفاس الجديد [في العشر الأول من شعبان، عام أربعة عشر وسبع مئة].[119]» (714/ 1314).

28) [عبد الرحمان ابن الحاج الإلبيري]

ومنهم عبد الرحمان[120] ابن الحاج الالبيري. قال في الإحاطة:[121].

«كان شاعراً مجيداً. هجا القاضي ابن توبة[122] بغرناطة، فضربه ضربا وجيعا، وطيف به على الأسواق. [فقال في ذالك بعضهم][123]:

---

(116) أبو محمد، عبد الله بن محمد أديب نحوي أندلسي. (ت 521هـ). ترجمته في الذخيرة: 6/ 890 — 892 المغرب 218 — 219. الصلة. 1/ 292 — 293. رقم 634 المغرب: 1/ 385 — 386 الديباج. 1/ 441 البغية 2/ 55 — 56 رقم 1422 النفح. 1/ 643 — 650 القلائد 193 — 202 الوفيات. 3/ 96 — 98. رقم 347. الغاية. 1/ 449. رقم 1873.

(117) البيتان في: البغية: 2 56 النفح 3/ 287 3/ 459. الأزهار: 3/ 102.

(118) الاحاطة: 2/ 139 — 140. وليس النقل عنها باللفظ.

(119) مم: ما بين المعقوفين مضروب عليه. والزيادة من ألف وباء.

(120) ديوان أبي اسحاق الالبيري: 109: أبو بكر ابن الحاج.

(121) الاحاطة: 3/ 517 — 518. بتصرف في النقل.

(122) أبو الحسن علي بن محمد ابن توبة. قاضي غرناطة. من القرن الخامس. ترجمته في: الاحاطة: 4/ 82 — 83. التكملة:رقم 2292. صلة الصلة: رقم 144. (ت بعد 450هـ).

(123) بياض في ألف. وزيادة من باء. والبيتان في الاحاطة:3 517: منسوبان لأبي إسحاق، إبراهيم بن مسعود الالبيري. وهما مطلع قصيدة له في الموضوع. ديوانه: 109.

[البسيط]

1) السَّـوْطُ أَبْلَغُ مِنْ قال ومن قِيـل[124]   ومن نُبـاحِ سَـفيـهٍ بـالأَبـاطيـلِ

2) مُرُّ المَـذاقِ[125] كحـرِّ النـارِ أَبْرَدُهُ   يُعَـقِّـلُ المتـعـاصي[126] أيّ تعْقيـلِ

(124) الاحاطة: 3/ 517: من قول ومن قيل .

(125) ألف وياء. من المذا . الاحاطة 3/ 517 من الدر والتصويب من ديوانه: 109 .

(126) الاحاطة: 3/ 517: التقاضي . ديوانه: 109 : المتعاطي .

الباب الثاني



*** الباب الثاني ***

في ذكر انتقال سلفه من الحجاز إلى الأندلس، وأول قادم منهم إليها كالتاج على الأرؤس. وما أفاء الله به من الخير على طارق بن زياد، وموسى بن نصير. فوائد[1].

[فوائد عن الأندلس]
[الأندلس قديما]

الأولى:

قال في المسهب[2]: «أول من سكن بَرَّيْ العدوة والأندلس من ولد نوح، بعد الطوفان، سبت وأندلس، ابنا يافث بن نوح. فنزل سبت بآخر المعمور من برّ العدوة، وبنى منزلاً في موضع سبتة. وتناسلت منه قبائل البربر. ونزل أندلس مقابلاً له في أثناء المعمور، فسميت باسمه» اه. إلخ[3].

وقيل: أول من اختطها بنو طوبال بن يافث. وهم قبيلة من الأصبهانيين الذين يعرفون بالأشبانيين. وهي كما قال الرازي[4]: «في آخر الإقليم الرابع إلى المغرب»[5].

---

(1) ميم: كل عنوان الباب مضروب عليه فيها.

(2) مؤلف المسهب في فضائل المغرب، هو أبو محمد، عبد الله بن إبراهيم الحجاري الأديب الأندلسي. من أهل القرن السادس. وكتابه المذكور مايزال مفقوداً. والمؤلف ينقل هنا عن أزهار الرياض، لا منه مباشرة.

(3) الأزهار: 1/29 ــ 30. بتصرف.

(4) أحمد بن محمد بن موسى. مؤرخ جغرافي. ترجمته في: جذوة المقتبس: 194. رقم 175. بغية الملتمس: 140. رقم 330.

(5) النفح: 1/ 140.

وقال أبو القاسم صاعد[6] في طبقات الأمم: «إن معظمها في الاقيم الخامس. وطائفة منها في الرابع كقرطبة وغرناطة وغيرهما». اه. إلخ[7].

وكان بر الأندلس في القديم متصلاً بعدوة المغرب. وكان أهل المغرب يُضرون بأهل الأندلس، حتى اجتار بهم الإسكندر. فشكوا حاهم إليه، فأحضر المهندسين، وأمرهم بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي، فوجد المحيط يعلو الشامي بشيء يسير. فأمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض، فحفرت، وبنى رصيفين، من ناحية طنجة، والآخر من ناحية الأندلس. بينهما ستة أميال: وطول كل واحد منهما اثنا عشر ميلاً. وهي المسافة التي كانت بين البحرين. فلما كمل الرصيفان، حفر من جهة المحيط، وأطلق فم الماء بينهما، فدخل في الشامي. وفاض ماؤه، فأغرق مدنا كثيرة، وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين. وطغى الماء على الرصيفين، أحد عشر قامة[8].

[مزايا الأندلس]

الثانية:

قال عبد الحق الأزدي[9] في مختصر الرشاطي[10]: «والأندلس بقعة كريمة، طيبة التربة، كثيرة المياه، غزيرة الأمطار. قليلة الهوامّ ذوات السموم، معتدلة الهواء، كثيرة الفواكه، تكاد تدوم كل الأزمنة. وبها المدن العظيمة، والمعاقل الحصينة. وفيها سائر المعادن النقدين وغيرهما». اه. الخ.

---

(6) صاعد بن أحمد الصبيطي. مؤرخ (ت 462هـ). ترجمته في: الصلة. 1، 236 ـ 237 رقم 540. بغية الملتمس: 311. رقم 852. الوفيات: 2/ 488 ـ 489. رقم 301.

(7) طبقات الأمم: 158. بتصرف في النقل.

(8) النفح: 1/ 135 ـ 136. بتصرف.

(9) فقيه ومحدث أندلسي. (ت 582هـ). ترجمته في: بغية الملتمس: 378 رقم 1104 العنوان: 57 ـ 73. الديباج: 2/ 59 ـ 61.

(10) الرشاطي. أبو محمد، عبد الله بن علي اللخمي. فقيه نسابة. (ت حوالي 540هـ) ترجمته في: بغية الملتمس: 336. رقم 943. النفح: 4/ 462 الوفيات: 3/ 106 ـ 107. رقم 352. معجم الصدفي: 217 ـ 222 رقم 200. الصلة: 1/ 297 رقم 653. وكتابه الأصلي هو. «اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار، في أنساب الصحابة ورواة الآثار».

ونقل ابن الياسع عن بعضهم، حسب ما في نفح الطيب[11]، أنه رأى عند المعتمد[12] أربعا من التفاح، دَوْر كل واحدة خمسة أشبار.

وما أحسنَ قَوْل ابن خفاجة[13] متشوقاً إليها[14]:

[المديد]

1) إن للجَنَّـةِ بـالأنـدلُسِ ... مُجْتَلى حُسْنٍ، وريَّا نَفَسِ

2) فَسَنَا صُبْحَتِها من شَنَبِ ... ودُجى لَيْلتِها من لَعَسِ

3) وإذا ما[15] هَبَّتِ الريحُ صَبَاً ... صِحْتُ: واشَوْقي إلى الأندلُسِ

وقول ابن سفر المريني[16] من قصيدة:

[البسيط]

1) في أرض أندلُسٍ تُلتَذُّ نَعْماءُ ... ولا يُفارِقُ فيها القَلْبَ سَرَّاءُ

2) وليس في غيرِها بالعَيْشِ مُنتفَعٌ ... ولا تَقومُ بحَقِّ الأُنسِ صَهْباءُ

3) وكيفَ لا تُبهِجُ الأبصارَ رُؤْيتُها ... وكُلُّ رَوْضٍ بها في الوَشْيِ صَنْعاءُ

4) أنهارُها فِضَّةٌ، والمِسْكُ تُرْبَتُها، ... والخَزُّ رَوضَتُها، والدُّرُّ حَصْباءُ

5) وللهَواءِ بها لُطْفٌ يَرِقُّ بِهِ ... مَنْ لا يَرِقُّ، وتَبْدو منه أهْواءُ[17]

وفي نفح الطيب[18]، أن الحبيلي لما قدم من الأندلس رسولاً إلى السلطان أبي

---

(11) النفح: 1/ 164.

(12) محدث اشبيلية، أديب (ت 587 أو 588هـ) ترجمته في: الوافي: 3/ 183 ـ 188. رقم 1165. الذخيرة: 3/ 41 ـ 77. المعجب: 149 ـ 151.

(13) أبو إسحاق إبراهيم، شاعر مشهور (ت 533هـ). ترجمته في: الصلة: 1/ 99. رقم 225. المغرب 2/ 367 ـ 371. المطرب 109. الذخيرة 6/ 541 ـ 648. بغية الملتمس: 202 ـ 203. رقم 502. الوفيات: 1/ 66 ـ 57. رقم 17.

(14) النفح: 1/ 170. ديوانه: 136.

(15) ديوانه: 136. فإذا.

(16) أبو عبد الله، محمد بن سفر، أديب شاعر. ترجمته في المغرب 2/ 212 ـ 213. التحفة: 147. الوافي: 3/ 114. رقم 1048.

(17) النفح: 1/ 209 ـ 210.

(18) النفح: 1/ 681.

عنان[19]، وأنشد بحضرته قول ابن خفاجة:

[البسيط]

1) يــا أهْــلَ أنْــدَلُسٍ لله دَرُّكُمُ ... مــاءٌ وظِــلٌّ وأنْهــارٌ وأشْجــارُ[20]

2) مــا جَنَّــةُ الخُلْدِ إلا في دِيــارِكُمُ ... وهــذِهِ، لو كُنْتُ خُيِّــرْتُ، أخْتــارُ[21]

3) لا تَحْسَبوا في غَدٍ أن تَدْخلوا سَقَراً[22] ... فــليس تُــدْخَــلُ بَعْــدَ الجَنَّــةِ النّــارُ

فقال أبو عنان: كذب هذا الشاعر. يعني حيث جعلها جنة الخلد، ولو خير لاختارها. فقال الخليلي: يا مولانا: صدق الشاعر، لأنها موطن جهاد، ومقارعة للعدو وجلاد. والنبي، صلى الله عليه وسلم، الرحيم الرؤوف يقول: «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ». فاستحسن منه هذا الكلام، ورفع عن قائل الأبيات الملام، وأجزل صلته، ورفع منزلته. ولعمري إن هذا الجواب، لجدير بالصواب. وهكذا ينبغي أن يكون رُسُل الملك في الإفتنان. روَّح الله أرواح الجميع في الجنان[23].

[فتح الأندلس وولاتها للأمويين]

الثالثة:

بعد بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، وخلافة الخلفاء، وصدر من دولة بني أمية، ولّى يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري[24] على المغرب، سنة اثنين وستين للهجرة [62/ 682]. وأول من ورّخ بها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. فاستفتح

---

(19) أبو عنان المريني. (ت 759هـ) ترجمته وأخباره في: الاستقصا: 3/ 181 ـ 208. الشبر: 69 ـ 70. الجذوة: 2/ 508 ـ 510. رقم 582. تاريخ ابن خلدون: 7/ 378 ـ 397. روضة النسرين 27 ـ 29.

(20) النفح: 1/ 680 ـ 681. ديوانه: 364.

(21) النفح: 1/ 680 ـ 681. ديوانه: 364. (وهذه كنت لو خيرت أختار).

(22) النفح: 1/ 680 ـ 681. ديوانه: 364. لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقرا»

(23) النفح: 1/ 681. والنقل فيه تغيير بسيط في أوله.

(24) فاتح المغرب. (ت 63هـ) ترجمته وأخباره في. البيان المغرب: 1/ 19 ـ 32. الاستقصا. 78 ـ 84

بعضه، وأسلم على يديه بعض منهم. وحين رجع منه، ارتد بعض من أسلم. ثم ولّى الوليد بن عبد الملك، موسى بن نصير[25] على إفريقية وما خلفها، سنة ثمان وثمانين. [88/ 707] فلم يزل يقاتل البربر ويفضّ جموعهم، ويفتح بلادهم، حتى بلغ طنجة، وهي قصبة ملكهم، فحصرها حتى فتحها، ثم رجع إلى إفريقية، إلى أن هلك غيطشة ملك الروم بالأندلس، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها للملك. فتراضوا بعلج من كبارهم من غير بيت المملكة، يقال له لذريق، (بلام في أوله أو الراء) فولّوه أمرهم.

وكان من سير أكابرهم، القواد والوزراء فمن دونهم، تربية أولادهم، ذكورهم وإناثهم بدار الملك، فاتفق أن فعل ذالك يليان، عامل لذريق على سبتة، إذ كان أهلها على دين النصرانية، بابنة له بارعة الجمال. فلما صارت عند لذريق، وقعت عينه عليها، فلم يملك نفسه حتى افتضّها. فاحتالت حتى أعلمت والدها بذالك سراً، فقال: ودين المسيح، لأزيلن سلطانه، ولأحفرن تحت قدميه. فذهب إلى موسى بن نصير، وذالك عام تسعين [90/ 709]، وكلّمه في غزو الأندلس، ولم يزل يغريه على ذالك حتى شوّقه إليه، فبعث لغزوها، بعد أن شاور الوليد، مولاه أبا زرعة طريف[26] في أربع مئة رجل، معهم مئة فرس، سار بهم في أربعة مراكب. وذالك في رمضان سنة إحدى وتسعين [91/ 710]، فنزل بجزيرة يقال لها اليوم طريفة، لنزوله فيها، فأصاب غنائم وطرائف وسبيا.

وفي شعبان من سنة اثنين وتسعين [92/ 711]، جاز إليها طارق بن زياد، وموسى بن نصير، في سبعة آلاف من المسلمين، جلّهم من البربر والموالي. ووجه معه يليان مهيئاً له المراكب. وحط بجبل طارق المنسوب إليه. فلقي ملكها لذريق، في نحو

---

(25) اللخمي: (ت 98هـ) . ترجمته وأخباره في: الوفيات: 5/ 318 ــ 329 . رقم 748 . جذوة المقتبس: رقم 793 . تاريخ العلماء: 2/ 848 ــ 850 . رقم 1454 . بغية الملتمس: رقم 1334 . البيان المغرب: 1/ 39 ــ 46 . الحلة السيراء: 2/ 332 ــ 334 . النفح: 1/229 ــ 282 . الاستقصا: 1/95 ــ 100 .

(26) امحت هنا بعض الكلمات من هامش الأصل . وأبو زرعة، هو طريف بن مالك . وأخباره في النفح: 1/ 229 . 230 . 233 . 253 . 254 . 258 .

مئة ألف ذوي عدة وعدد، فهزمه طارق، وفتح فيها فتوحاً كثيرة. وأنشد من قصيدة في الفتح[27]:

[الطويل]

1) ركبنـا سـفينـا بالمجاز مُقَيَّراً[28] عسـى أن يكـون الله منـا قد اشـترى

2) نفـوسـاً وأمـوالاً وأهـلاً بجنَّـةٍ إذا مـا اشْتهيْنـا الشـيء فيهـا تيسّـرا

3) ولسنـا نُبالي كيف ماتتْ نفوسنـا[29] إذا نحن أدركْنـا الذي كان أجـدرا[30]

ولما بلغ موسى ما أتيح لمولاه طارق من الفتح، سار إلى الأندلس في نحو ثمانية عشر ألفاً من قبائل العرب العدنانية وغيرهم، فدخلها في رمضان سنة ثلاث وتسعين [93/ 712]، من الموضع المنسوب إليه، المعروف الآن بجبل موسى. فدوّخ البلاد، وفتح الأقصار، حتى طاعت له الأعاجم، ولاذوا بالسلم وبذل الجزية. ووصل إلى موضع فيه صنم كبير مكتوب فيه: «يا بني إسماعيل: انتهيتم فارجعوا، وإن سألتم مما ترجعون، فاعلموا أنكم ترجعون بضرب بعضكم رقاب بعض».

ثم بعث الوليد بن عبد الملك، يأمره بالخروج من الأندلس، والإضراب عن الوغول فيها. ففرق في أقطارها من أراد من العرب استيطانها.

[استيطان القبائل العربية]

فأنزل على غرناطة، بني مرة بن صعصعة بن معاوية، بن بكر بن هوازن، وبني نمير بن عامر بن صعصعة، وبني عطية بن محارب. وأنزل على قرطبة من قيس عيلان، بني سليم بن منصور، ومن ربيعة بني تغلب بن وائل.

وأنزل على مدينة وادي آش، عامة بني أسد بن ربيعة بن نزار. وأنزل على مالقة عامة الأزد.

وأنزل على إشبيلية بني حزم بن بكر بن هوازن.

---

(27) النفح: 1/ 265 . والأبيات يظهر عليها أثر النحل .

(28) في الأصل: مغمدا . والتصويب من النفح: 1/ 265 .

(29) النفح: 1/ 265: سالت نفوسنا .

(30) في الأصل: كان مقدرا . والتصويب من النفح: 1/ 265 .

[غنائم الفتح]

واستخلف ولده عبد العزيز على إمارتها، وأقره بإشبيلية. وركب البحر إلى المشرق، سنة خمس وتسعين (95/ 714)، وحمل معه الغنائم والسبي، وهو ثلاثون ألف رأس، ومائدة سليمان من الزمرد الأخضر، والذهب والفضة، منمقة على أشكال بديعة، منوها بها. ومعها من الذخائر والجواهر، ونفيس الأمتعة ما لا يقدّر قدره. وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته، أسيف على ما لحقه من الإزعاج، و«إنما الأعمال بالنيات».

وإلى تاريخ فتح الأندلس، أشار ابن غازي[31] في قوله من أبيات:

[الرجز]

1) وفتح الغرب لسوس الأقصى[32]	موسى وطارقٌ بما لا يُحصى[33]
2) وافترس الأندلس العُقبانُ	وبرٌّ في يمينه يُليانُ
3) دخلها بعد الفتى المزواني	في عام «قلح» عابدُ الرحمانِ

[أنساب أهل الأندلس]

الرابعة:

ثم لما استقر قدم الإسلام بالأندلس، وتم فتحها، صرف أهل الشام وغيرهم[*] من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جرائم العرب وساداتهم، جماعة أورثوها أعقابهم. ولذا كانت أنساب جلهم عربية. قال في الإحاطة[34]:

«وأنسابهم، حسب ما يظهر من الاسترعاءات والبيعات السلطانية والإجازات،

---

(31) أبو عبد الله، محمد بن أحمد العثماني المكناسي (ت 919هـ) ترجمته في: النيل. 333 الدرة. 2 147 ـ 148 رقم 622 جذوة 1 320 رقم 331 الدوحة 45 ـ 47 مؤرخو الشرفاء: 156 ـ 159 .

(32) وقع خلاف في ترتيب الأبيات بين ميم وبين ألف وباء .

(33) أرجوزة في الدر النفيس 118 وهي منسوبة لأحمد بن عبد الحي الحلبي نفسه

(*) ميم: غير .

(34) الاحاطة: 1/ 135 ـ 136 . مع تغيير في ترتيب الأنساب .

عربيـة. يكـثر فيهـا القرشي والفهري والأموي، والأنصـاري والأوسي والخزرجي والقحطـاني، والحميري والمخزومي والتنوخي، والغسـاني والأزدي، والقيسي والمعافري والكنـاني، والتميمي والهذلي، والبكري والكلابي والكلبي، والنميري والنمري واليعمري، والمازني والثقفي والسلمي، والفزاري والباهلي والعنسي، والعبسي والعدوي والجمحي، والضبي والعبشمي والمري، والعقيلي والفهمي والسهمي، واليحصبي والتجيبي والصدفي، والحضرمي واللخمي والجذامي، والسـلولي والحكمي والهمداني، والمذحجي والخشني والبلوي، والجهني والمزني والطائي، والعافقي والأسدي والأشجعي، والعامري والخولاني والإيـادي، والليثي والخثعمي والكسكسي، والزبيدي والثعلبي والتغلبي، والكلاعي والدوسي، والحواري والسـلماني[35]. وكفى بهذا شاهداً على الأصـالة، ودليلاً على العروبية» اه. الخ.

وبعد أن ذكر ابن غالب[36]، «في فرحة الأنفس بالأندلس»، جماعة من العرب الذين دخلوها، قال ما نصه:

«وأما قيس عيلان بن مضر، ففي الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم. ومنهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة، كعبد الملك بن حبيب بن سليمان، بن هارون بن جاهمة بن العباس بن مرداس السلمي، الفقيه، صاحب الإمام مالك، رضي الله عنه. وكالقاضي بقرطبة، أبي حفص بن عمر[37]» اه[38].

وذكر المقري في «كنوز الأسرار»، أن موسى بن نصير أنزل على قرطبة من قيس عيلان، بني سليم بن منصور، كما تقدم.

---

(35) حذف المؤلف بعض ملاحظات الاحاطة .

(36) محمد بن أيوب بن غالب، مؤرخ أندلسي، وكتابه المذكور نشرت منه قطعة بمجلة معهد المخطوطات العربية: 7/ 272 ـ 310 . سنة 1950 .

(37) الأغماتي السلمي . شاعر الموحدين (ت 603هـ) ترجمته في التكملة. رقم 1831، صلة الصلة: 2، 548 ـ 549، رقم 77 . الأزهار: 2/ 359 ـ 374، الذيل 8، 222 ـ 232، رقم 26 الجذوة: 2/ 496 ـ 498 . رقم 565 .

(38) النفح: 291/1 . مع اختصار وتغيير طفيفين .

[محافظة أهل الأندلس على الأنساب]

الخامسة:

قال العلامة الشريف، مولاي عبد السلام القادري[39]، في «العرف العاطر»[40]:

«ولأهل الأندلس عموماً من المحافظة بالبحث في هذا الشأن، (يعني من علم النسب)[41]، ما ليس لغيرهم في سائر الأقاليم والأزمان، بحيث إذا قدم عليهم من ينتسب إلى بيت من البيوت، ويدلي به إليهم، استفصلوه عن جده وأبيه، وفصيلته التي تؤويه، واستفهموه عن مولده ومنشئه وبلده. حتى إذا أحاطوا عنه علماً بذالك، كتب به طالباً لصحة خبر من له ولاية عندهم هنالك، وتوجه الكتاب إلى الناحية التي قدم منها، قريبة كانت أو نائية. فإن ورد الجواب بصدق الخبر دون كذب، أحبّوا مكانته، وعظّموا حرمته كما يجب. وإلا عزّروهُ تعزيراً شديداً، وأخرجوه عن أرضهم شريداً، فكانت أنسابهم لذالك مضبوطة، وأحسابهم عن الأدعياء محوطة».

[بلاغة أهل الأندلس]

السادسة:

قد كانت عمرت في الأندلس أسواق فيها لا يحصى من الصون، وكان أهلها في غاية البلاغة. حتى قال الرئيس ابن الجياب[42] مفتخراً بذالك[43]:

---

(39) أديب نسابة فاسي (ت 1110هـ) ترجمته في النشر: 3/ 86 — 115 الالتقاط 275 — 280 رقم 418 الفهرس 1/ 188 — 189 الصفوة 2/ 348 — 350 الدرر 2/ 192 — 193 مؤرخو الشرفاء 195 — 197 الحياة: 142 — 146 معجم المطبوعات: 281 — 283 . رقم 648 .

(40) العرف العاطر، فيمن بفاس من أبناء الشيخ عبد القادر . والنص في النشر: 74 — 75 . العناية: 5 — 6 .

(41) زيادة من ألف .

(42) أبو الحسن، علي بن محمد الأنصاري . أديب ووزير غرناطي . (ت 749هـ) ترجمته في نثير الفرائد: 239 — 242 الكتيبة 183 — 193 الإحاطة 4/ 125 — 152 . النفح: 5/ 434 — 464 .

(43) المقطوعة في: النفح: 5/ 458 .

[الطويل]

1) أبى اللهُ إلا أن تكونَ اليدُ العُليا[44] لأندلسٍ من غيرِ شرطٍ ولا ثُنيا

2) وإن هِيَ عضَّتها نُيوبُ نَوائبٍ[45] وصَيَّرَتِ الشَّهْدَ المَشورَ بها شَرْيا

3) فما عَدِمَتْ أهلَ البلاغَةِ والحجا يُقيمون فيها الرَّسم للدينِ والدُّنيا[46]

4) إذا خَطَبوا قاموا بكُلِّ بَليغَةٍ تُجلِّي القُلوبَ الغُلْفَ والأعيُنَ العَمْيا

5) وإن شَعَروا جاءوا بكُلِّ عظيمَةٍ[47] تخالُ النُّجومَ النَّيِّراتِ لها حَلْيا

6) فأسألُ في الدُّنيا من اللهِ سِتْرَهُ علينا، وفي الأُخرى إذا حانَتِ اللُّقيا

ولعمري، لقد صدق قائل هذه الأبيات، فإن البلاغة لم تزل شمسها بالأندلس باهرة الآيات، إلى أن استولى عليها العدو. وعطَّل من أهل الإسلام الرواح إليها والعدوّ. وقد نقل المقري في «نفح الطيب»[48]، في الباب الذي عقده في ذكر نبهاء الأندلس وأشعارهم ولطائفهم، ما يبهر العقول. انظر ذالك.

---

(44) في الأصل: يد العليا .

(45) النفح: 4/ 458 . نوب نوائب .

(46) في الأصل: ثريا . والشري هو الحنظل .

(47) النفح: 4/ 458: غريبة .

(48) النفح: 4/458 . 3/ 150 — 618 .

الباب الثالث



الباب الثالث

في ذكر جملة من هذا القبيل المذكور، وما كانوا عليه في جزيرة الأندلس، من السعي المشكور.

أقول: ذكر ابن الخطيب وغيره ممن عرّف بهم، الجمّ الغفير من أعيانهم. وإني أقتصر في هذا الموضوع، على ذكر نفر منهم، تعريفاً للخلف، بما كان عليه السلف. فنقول:

29) [أبو إسحاق ابن الحاج السُّلَمي البَلَّفيقيّ][1]

منهم الامام العارف بالله، قطب رحى بني الحاج، وشمس ضحاهم، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن خلف ابن الحاج، دفين مراكش.

[مولده ومشيخته]

قال في أزهار الرياض[2]:

ولد ــ رضي الله عنه ــ ببلّفيق، سنة سبع وخمسين وخمس مئة (1162/557)، فيا حكاه غير واحد.

وقال [المكتب][3] أبو محمد، عبد الله بن علي ابن فرحون، سنة أربع وخمسين. (1159/554). ونشأ في كمالة والدته. إذ كان والده قد توفي، فدرس القرآن وجوده على حطيبها المعروف بابن مهارش وبابن القصير، وقرأ عليه جملة من «التعريع». وكان هذا

---

(1) له ترجمة في التكملة 1 166.رقم 434 انيل: 34 ــ 35 الكفاية. 31 ــ 32 . الاعلام: 154/1 ــ 164.رقم 11 . فضلاً عما يأتي.

(2) الأزهار: 110/4 .

(3) سقطت من الأصل.

الخطيب يلقّب ببغل القرآن. وكان رجلاً صالحاً مجوداً للقرآن. فلما ترعرع وبلغ مبلغ الرجال، انتقل إلى ألمرية، وأقام بها أزيد من عشر سنين. فقرأ القرآن[4] على خطيبها ومقريها الأستاذ أبي محمد البسطي[5]، وعلى الأستاذ المقرىء الخطيب، أبي الحسن، علي بن محمد بن مجبر الزهري[6]، وأخذ عنه القراءات السبع إفراداً وجمعاً، وعلى الأستاذ أبي القاسم، محمد بن علي بن محمد، الهمداني البراق[7].

وروى الحديث عن أبي الحسن، علي بن أحمد، وعن المحدث أبي جعفر، أحمد بن يحيى الضبي[8]، والقاضي أبي محمد، عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم ابن الفرس[9]، وأبي بكر، محمد ابن أبي زمنين،[10] وأبي عمر ابن عات[11]، في جماعة آخرين.

[وعلوم العربية على أبي العباس ابن اليتيم[12]][13].

---

(4) قطع المؤلف النقل هنا عن: الأزهار: 110/4 ، ورجع إلى: 107/4 .

(5) فقيه أندلسي. ترجمته في: التكملة: 669/2 . رقم 1704 .

(6) (ت بعد 610 هـ). ترجمته في: صلة الصلة: 124 . رقم 251 الذيل: 403/5 رقم 678 .

(7) الوادياشي. (596 هـ). أديب فقيه. ترجمته في. التكملة: رقم 857 . بغية الملتمس 103 ـ 104 . رقم 235 . الذيل: 457/6 ـ 483 . رقم 1241 . الوافي 156/4 رقم 1690 . التحفة. 112 ـ 113 . المغرب: 144/12 ـ 150 . المطرب: 241 . الزاد: 151 ـ 152 . النفح: 506/3 .

(8) محدث مؤرخ (ت 599 هـ). ترجمته في: التكملة: 93/1 ـ 94 رقم 242 النفح. 381/2

(9) عالم أديب. (ت 597 هـ) ترجمته في: بغية الملتمس. 360 . رقم 1050 . التكملة: رقم 1814 الذيل: 58/5 رقم 129 . صلة الصلة: 17 . رقم 28 . الديباج: 133/2 ـ 135 المرقبة. 110 . الاحاطة: 541/3 ـ 546 . التحفة: 114 ـ 118 . البغية 116/2 . رقم 1582 .

(10) الفقيه القاضي. (ت 602 هـ). ترجمته في: التكملة: رقم 886 الذيل: 310/6 ـ 312 . رقم 804 . المرقبة: 110 ـ 111 .

(11) أحمد بن هارون النفزي الشاطبي. محدث فقيه. (ت 609 هـ) ترجمته في: التكملة: 101/1 ـ 102. رقم 262 . الذيل: 556/1 ـ 562 . رقم 858 . الديباج: 231/1 ـ 234 النفح: 601/2 ـ 603 .

(12) أحمد بن محمد الأنصاري، المعروف بالأندرشي وابن اليتيم. (ت 581 هـ) ترجمته في: التكملة: 83/1 ـ 84 . رقم 221 . البغية: 367/1 . رقم 716 الذيل: 439/1 ـ 447 رقم 447 . معجم الصدفي: 53 ـ 54 .

(13) لم ترد هذه الإشارة في الأزهار.

[صحبته لأبي عبد الله الغزال]

وصحب بألمرية، الشيخ العالم الرباني الزاهد، صاحب الكرامات، أبا عبد الله، محمد بن يوسف الغزال. وقرأ عليه وأخذ عنه، وسلك على يديه[14] [وبإرشاده، فانتفع بذالك][15].

وكان الشيخ الغزال يحبّه ويقدّمه ويثني عليه. وكان يتردد إلى بلّفيق، لزيارة والدته في الأعياد خاصة.

ولما[16] توفي الشيخ أبو عبد الله الغزال، عاد إلى بلّفيق. وكانت والدته قد توفيت، فتزوج ابنة خاله، وأقام هنالك[17] سنتين، ثم انتقل إلى صيعته بظاهر طَبَرْنَش، فأقام فيها[18] يسيراً، ثم انتقل إلى ألمرية، باستدعاء واليها يومئذ، السيد أبي عبد الله محمد، ابن السيد أبي زكرياء، ابن الخليفة أمير المؤمنين، ابن أمير المؤمنين[19]. فحل بها وأوطنها تحت بره وإكرامه، واستمر مقامه بها إلى أن[20] [انتقل إلى مراكش][21].

[سيرته وتصوفه]

وكان[22]، رحمه الله، أحد الأفراد العبّاد، والأولياء الأتقياء، الذين علا قدرهم وفاق، وطبّق ذكرهم الآفاق، وممن طار صيته كل مطار، وأخذت جلالته بالاسماع والأبصار، وكان للمرية الشفوف به على سائر الأقطار. شمس الولاية وبدرها، وأوحد الأندلس وصدرها. وكان، رحمه الله، مشهوراً بالولاية، جارياً في التبتل والانقطاع إلى

---

(14) هنا انقطع النقل عن: الأزهار: 108/4 ، ليبدأ عن: 111/4 .

(15) زيادة من المؤلف.

(16) الأزهار: 111/4 : فلما.

(17) الأزهار: 111/4 : هناك.

(18) الأزهار: 111/4 : بها.

(19) يوسف بن عبد المؤمن الموحدي.

(20) هنا انقطع النقل عن الأزهار: 111/4 .

(21) زيادة من المؤلف.

(22) النقل هنا عن: الأزهار: 105/4 .

الله تعالى، إلى أبعد غاية، مع كمال العلم والمعرفة، والتحلي من الفضائل بكل حلية حميدة الصفة، ورسوخ القدم في علوم الحقيقة، والجري في[23] سبيل سنة الصوفية على أقوم طريقة، والمشاركة في فنون الآداب، والأخذ من كل علم بلباب اللباب[24].

هكذا وصفه ابن خاتمة، وقال: إنه كان عالماً عاملاً، فقيهاً أديباً شاعراً محسناً، سهل العبارة، لطيف الاشارة، صوفياً سنياً، ظاهراً سرياً، عالي الهمة، كريم العشرة، صادق الفراسة، عظيم الجاه في القلوب، سامي الرئاسة، شديد الالتزام لمذهب مالك، رضي الله عنه، لايسمح من مخالفته في شيء. قلما لازمه أحد، إلا وحسنت حاله في دينه ودنياه، ولا دعا له، إلا ظهرت بركة دعائه في عقبه وعقباه.

وكان حصن بلَّفيق وما يليه، هو موضع انتجاعه واستعلاله، إذ كان مالكاً لكثير من أملاك ذالك الصقع وأحقاله، فصار بذالك نجعة للفقراء والمساكين، وكعبة للأولياء والصالحين، يقوم على من قصده ببره وإرفاقه، ويكفيه المؤن حتى ينسيه ذكر آفاقه، فكان إليه حجّ كل حاجّ، وزيارة ذوي الآمال والحاجّ، ومع ذالك، فكان يقرىء جاهلهم القرآن العظيم، ويعلّمه من أمور دينه ماهو جدير بالتعليم، ويصرف بطالهم فيما يناسب حاله من الأشغال[25]، ويحضّهم على اتخاذ الحرف وملازمة الأعمال، ويحمل من صحبه من أمر دينه ودنياه على أحسن الأحوال، وكان هنالك[26] ذا أرض أريضة، وثروة عريضـــة، فبسعة ما كان يفيض عنه من العطاء، ويعمّ رفده[27] من قصده من كافة الأنحاء، صار متهماً عند بعض السفارة الضعفاء، بصناعة الكيمياء، كما رمي بذالك كثير من الأولياء.

قال ابن خاتمة: حكى لي شيخنا حفيده، القاضي أبو البركات، محمد بن محمد

---

(23) في الأصل: من.

(24) في الأصل: الألباب.

(25) في الأصل: الاشتغال.

(26) الأزهار: 106/4 : هناك.

(27) في الأصل: رفد.

بن ابراهيم، بن محمد ابن الشيخ الولي أبي إسحاق هذا، رضي الله عنهم[28]، قال[29]:

قد[30] نزل بالشيخ أبي إسحاق ابن الحاج، رضي الله عنه، بعض الفقراء السفارة، وكان كلما قصده أحد، أنزله وقام عليه برفده[31] وضيافته ثلاثة أيام، ثم يسأله عن حاجته، فإن كان ممن حاجته في المقام أقام، وإلا قضى حاجته وانصرف. فسأل هذا الفقير عن قصـــده على العـادة، فقـال له: إنه بلغني أنك تعرف الكيميـاء، وأريد أن أصحبك وأخدمك على أن تطلعني عليها، وتعلّمني إياها، فقال له: نعم. فلما كان من الغد، استصحبه حتى وقف به على أرض عامرة، وشجراء ملتفة، قد شرع[32] بناسه وعبيده في فتحها، وتصييرها أحقالاً للزراعة، وأملاكاً للاستغلال.

فقال له الشيخ أبو إسحاق: هذه كيمياء إبراهيم. فإن شئت تعلّمْها، فتناولْ فأساً من تحت الفؤوس، وخذ مكانك من الخدمة.

ثم قال في أزهار الرياض[33]. وكان الشيخ أبو إسحاق يواصل الصوم أربعين يوماً حكى ذالك من حاله غير واحد من أصحابه. وأنه بنى ثمانية عشر حباً في مواضع متفرقة، ونحو عشرين مسجداً، وبنى أكثر سور حصن بلغيق(*). كل ذالك من ماله.

وله، رضي الله عنه، كرامات جمة مشهورة، وكلمات ذكر وحكم[34] مأثورة. ويروى أنه كانت له ثلاث دول في اليوم يتحلق عليه فيها في مسجده.

[مقتطفات من رسائله وكلامه في التصوف](**)

«الصـوفي عبارة عن رجل عدل، تقي صـالح زاهد، غير منتسب لسبب من

---

(28) الأزهار: 107/4 : عنه.

(29) سقط من الأصل، والاثبات من: الأزهار: 107/4 .

(30) سقط من الأزهار.

(31) في الأصل: رفده.

(32) في الأصل: شاع.

(33) الأزهار: 109/4 . النفح: 477/5 .

(*) مايزال هاذا السور قائماً حتى الآن.

(34) الأزهار: 109/4 . حكمة.

(**) النص بعده في نفحة المسك: 156 .

الأسباب، ولا تخلّ بأدب من الآداب، قد عرف شأنه وزمانه، وملكت مكارم الأخلاق عنانه. لاينتصر لنفسه، ولا يتفكر في غده وأمسه. العلم خليله، والقرآن دليله، والحق حفيظه ووكيله. نظره إلى الخلق بالرحمة، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة».

ومن كلامه، رضي الله عنه: التصوف عدمك عندك فيه، ووجودك عنده[35] فيه.

وقال أيضاً: التصوف بدايته إيثار الحق على ما عداه، ونهايته الغيبة بالحق عما سواه.

وقال أيضاً: بنور التقريب، يفرق بين البعيد والقريب، وبنور الاختصاص، يمتاز أهل الرياء من أهل الاخلاص.

وقال في بعض رسائله:

اعلم، يا أخي، أن الفهم عن الله، هو العلم الأكبر، والنور الأزهر، والسنا الأنور، ولا سبيل إلى اقتباس أنواره، والتماس أسراره بالاستبداد، ولا وجه لوجوده بالانفراد، فإن سره مصون، ولا يعقله بفضل الله إلا العالمون، فمن عثر على الدليل، هدي إلى السبيل، ومن اغترّ بنفسه، وتبنى أبناء جنسه، حجب عن الحقيقة، وسلب عن الطريقة، وطفق يخبط عشوا، ويألف الهوى. عافاك الله وإيانا من سبيل بغير دليل، وتوجه بغير وصول ومعاد. والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته. كتبه إبراهيم الضعيف. [عفا الله عنه][36].

وقال رحمه الله: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة، لم يفتح له في[37] هذه الطريقة شمة.

وقال: لاترض لنفسك[38] فائدة، فإن حبك للشيء[39] يعمي ويصم.

---

(35) في الأصل: عندك.

(36) زيادة من الأزهار: 110/4 .

(37) الأزهار: 110/4 : من.

(38) الأزهار: 110/4 : بنفسك.

(39) الأزهار: 110/4 : الشيء.

وقال: لو تُصُوِّر صوفي [منتصر منتسب، لتصور زاهد مفتر مكتسب][40].

وقال: دواء مرض القلوب، تلاوة القرآن بالتدبر، وصحبة الصالحين، واللجأ إلى الله تعالى بالأسحار.

وقال: من جاهد نفسه[41] برأي عالم مقبول في الاسلام، صالح للقدوة والائتمام، ظهرت عليه الأحوال الصديقية، والمواهب الربانية، والالهامات الملكية، وهؤلاء في الاسلام خلفاء الرسل، وأمناء السبل. قال الله تعالى: «قلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبعوني يُحْبِبْكُم اللهُ[42]».

وقال، رحمه الله. المجاهدات لطهارة[43] من الذنوب، والمعاملات للتنظيف من العيوب، والمراقبات لملاحظة الغيوب، والمكاشفات تحرق الحجوب. قال ابن خاتمة: وفي هذه اللفظة إشباع. والمحاضرات لمعاهدة المحبوب.

وقال رضي الله عنه[44]: الناس إذا كان الفاضل حيا لم يقصدوه، فإذا مات وصار جيفة مثلهم، قصدوا قبره.

وقال أيضاً[45]: من أحب معرضاً عن الله، سقط من عين الله، ومن أحب لله، وأبغض لله، فهو من صفوة الله.

وقال[46]: الذي صححته التجربة: السودان لايخدمهم إلا من قلبه لونهم.

ومن أذكاره، رضي الله عنه، هذا الاستغفار:

«أستغفر الله الذي لاإله إلا هو، [الحي القيوم][47]، عالم الغيب والشهادة،

---

(40) بياض في الأصل، والزيادة من: الأزهار: 110/4 .

(41) سقطت من الأزهار.

(42) آل عمران: 21 .

(43) الأزهار: 110/4 : الطهارة.

(44) النقل هنا من الأزهار: 102/4 .

(45) الأزهار: 102/4 : ومن كلامه أيضاً.

(46) الأزهار: 102/4 : ومن رشيق كلامه.

(47) سقطت من الأصل. والزيادة من الأزهار: 103/4 .

الرحمان الرحيم. وأسأله التوبة النصوح، والعفو عني وعن والدي وإخواني، وعن الذين ظلموني وعن الذين ظلمتهم، وعن كل مذنب من المسلمين، من كان منهم أو يكون. وأسأله طهارة السر من حب الدنيا ومن حب أهلها، ومن حب المحمدة[48]، ومن خوف المذمة، ومن السعي في حظ نفسي، ومن الانتصار لها، ومن الحسد والشك والشرك والإعجاب، ومن كل حائل وحجاب، ومن غيبة المسلمين، والكذب والدعوى والانتساب، ومن[49] الركون إلى سبب من الأسباب، ياحي ياقيوم. برحمتك أستغيث فأغثني، ولا تكلني إلى نفسي ولا لغيرك طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، وشأن إخواني، وثبت قلبي على دينك، حتى ألقاك وأنت راض عني. يا أرحم الراحمين».

قال ابن خاتمة[50]: وله، رضي الله عنه، دعاء وهو من المأثور عن أبي هريرة، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما وجه جعفراً إلى الحبشة، شيعه وزوده بكلمات. قال: قل: اللهم الطف بي[51] في تيسير كل عسير، فإن تيسير العسير عليك يسير، وأسألك اليسر والمعافاة في الدنيا والآخرة.

وهذا دعاء آخر له ـــ رضي الله عنه ـــ كان يستفتح به مجلسه بالمرية. قال ابن خاتمة: نقله شيخنا أبو البركات من خط الولي أبي العباس ابن مكنون[52]، وهو: اللهم اجعلنا في عياذ منك منيع، وحصن حصين، وولاية جميلة، حتى تبلغنا آجالنا مستورين محفوظين، مبشرين برضوانك، يوم لقائك. قال: وفي وسط الدعاء وآخره: واكفنا عدونا إبليس، وأعداءنا من الجن والانس بعافيتنا وسلامتنا.

وقال ابن خاتمة أيضاً[53]:

---

(48) في الأصل: التحمدة. والتصويب من الأزهار: 103/4 .

(49) سقطت من الأصل.

(50) النقل هنا عن الأزهار: 102/4 .

(51) الأزهار: 102/4 : لي.

(52) أحمد بن محمد اللخمي المروي. فقيه صوفي. (ت بعد 660 هـ) ترجمته في. الذيل: 518/1 ـــ 519 . رقم 760 . الإعلام: 226/1 ـــ 227،رقم 72 .

(53) النقل هنا عن: الأزهار: 101/4 . وانظر النفح: 477/5 .

حكى هذه الصلاة شيخنا أبو البركات ابن الحاج، عن الشيخ الصالح الحاج الصوفي[54]، أبي الأصبغ ابن عزرة قال: أخذتها عن رابك[55] الشيخ الصالح، أبي عبد الله، محمد بن علي ابن الحاج مشافهة، وقال لي: إنّها صلاة جدك سيدي أبي إسحاق ابن الحاج وهي:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، صلاة دائمة مستمرة تدوم بدوامك، وتبقى ببقائك، وتخلد بخلودك، ولا غاية لهادون مرضاتك، ولا جزاء لقائلها ومصليها غير جنتك، والنظر إلى وجهك الكريم.

[كراماته]

ثم قال في أزهار الرياض[56]:

وكان سيدي أبو إسحاق المذكور ذا مقامات كبيرة، وكرامات شهيرة، فمن كراماته ما حكاه الأستاد أبو جعفر اس الزبير، عن الشيخ أبي العباس ابن فرتون قال: دخلت مع بعض أصحابي على الشيح أبي إسحاق بموضع سكناه بألمرية زائراً، فسأل عي، فأخبره المسؤول أني أسدد[57] في الوادي بالقضاء، وأني أتحرى فلا آخد شيئاً الا من توثيقي، فتنمر الشيخ وقال: من أمر القاضي أن يأخد شيئاً. هل هو واسطة بين الله وبين الناس؟.

قال: فقلت له: إن بي حمى، فادع الله أن يصرفها[58] عي. فقال: لأي شيء تقول هذا، وكل يوم يعدد[59] عليك في دالك أجر. ثم همس بشفتيه وحركهما داعياً. ثم قال لي: لاعليك، فما تراها أبداً. قال: فلم تأحدني حمى[60] من دالك الوقت إلى الآن.

---

(54) في الأصل: الصوفي الحاج. والتصويب من الأزهار والنفح.

(55) رابك: مربيك.

(56) أزهار: 103/4 ـ 104 .

(57) في الأصل: أسوف. والتصويب من الأزهار: 104/4 .

(58) في الأصل: يصرفه. والتصويب من الأزهار: 104/4 .

(59) في الأصل: يعود. والتصويب من الأزهار: 104/4 .

(60) في الأصل: حمة. والتصويب من الأزهار: 104/4 .

ومن كراماته، رضي الله عنه، أنه كان من جملة أصحابه رجل ناسك فاضل قارىء، يصلي به التراويح في شهر رمضان في إبان العصير. وكان أبو إسحاق في جنّة له بخارج ألمرية، وكان يقدم في كل ليلة لذالك القارىء، ولجماعة من أصحابه طبقاً بعنب، وثريداً بعد دالك. فلما كان في نعض الأيام، جاء ذالك القارىء ليتوصأ في صهريج تلك الجنة بعد العصر، فرأى العنب في العريش الذي على الصهريج، فحدثته نفسه بأن لو قرب المغرب ليأكل منه. ثم عاد على نفسه بالبوم، ولتعلقها بالشهوات وهو صائم. وعقد على نفسه فيها بينه وبين الله، تعالى، عقدا أن لا يأكل العنب بقية سنته تلك. فلما جاء المغرب، قدَّم لهم الشيخ بعد المغرب الثريد، ولم يقدم العنب، فبقي القارىء متعجباً. فقال له الشيخ: ما شأنك؟ فقال له: ياسيدي، كنت قد عودت الأصحاب عادة ولم نرها الليلة. فقال له الشيخ: أنت فعلت ذالك، فلم يسعنا إلا موافقتك فيما عقدته مع الله. قال: وبقي الشيخ لم يأكل العنب سنته تلك، لموافقته التلميذ.

ومن كراماته[61]، رضي الله عنه، ما حدث به بعض[62] الثقات من أصحابه، أنه كان بألمرية متطبِّب ممن يسرّ[63] إنكار الكرامات فأتته امرأة بصبي يشتكي ألم الحصاة، فقال لجليس له ممن يمالئه[64] على مذهبه: قم بنا الى هذا الفقيه، يعني الشيخ أبا إسحاق حتى نرى ما يصنع. فدخلا عليه موضع إقرائه، ومجتمع جلسائه، فسأل الصبي عن شكايته، فأخبره بما يجده من الألم. وكان الشيخ كوشف بالحال، فتغير وجهه، وجعل إحدى يديه على ظهر الصبي، والأخرى على قلبه.

قال الحاكي: فرأيت الصبي قد تقبض واجتمع، ثم قذف من الحصيات التي قدر الحمص، خمساً أو نحوها، مخضوبة بالدم. وسكن ما كان به، ورفع عن الموضع. ثم

---

(61) الأزهار: 115/4 . 116 .

(62) الأزهار: 115/4 : أحد.

(63) في الأصل: يصر.

(64) الأزهار: 115/4 : يماليه.

عطف الشيخ حنقاً على المتطبب وصاحبه وقال: إنكاركم أحوج إلى هذا، فتوبا إلى الله، أو نحو هذا الكلام. فأخذا يتنصلان ويعتذران، وخرجا من عنده خزيين.

وحدث الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير قال: سألت الشيخ المقرىء أبا الوليد، إسماعيل ابن يحيى: هل لقيت الشيخ أبا إسحاق، فحدثني. قال: كنت أحدث نفسي بلقائه ورؤيته، فاحتاج أبي إلى شراء أسباب لتجهيز أختي، وأخذ في توجيه ثقة ممن كان يلوذ به إلى ألمرية، لشراء تلك الأسباب، فرغبت من والدي أن يأذن لي في السفر معه برسم تلك الأسباب، وآتي الشيخ أبا إسحاق. فأذن لي، فلما وصلت إلى ألمرية، سألت عنه، فدللت على مسجده، فحضرت فيه صلاة المغرب.

قال: فجاء الشيخ وأقيمت الصلاة، فتقدم إمامه، فصلى بنا والشيخ وراءه، فلما سلَّم، تنفل الشيخ بما تنفَل، وأنا أترقبه، وقد عرفته بقرائن الأحوال. ثم أخذ في الخروج. فقمت وراءه وتبعته، إلى أن أخذ في دخول داره. فحين قدم رجله للدخول كلّمته، فصرف وجهه إلي. ولم يكن رآني قبل ذالك ولا رأيته. وأقبل علي وقال: من أين الطالب؟ فقلت له: من غرناطة. جئت برسم رؤيتك والتبرك بك، مالي حاجة سوى ذالك. فتبسم وقال: إنما جئت في شأن أختك وجهازها. فتحيرت. ثم دعالي وأنّسني وانصرفت، وقد رأيت العجب من أمره. قال: فهذا ما اتفق لي في لقاء من سألت عنه. ولقد رأيت رجلاً لم أر مثله.

وحدث الوزير أبو الربيع، سليمان ابن شعيب[65] قال: قصدت أنا وأبو اسحاق ابن الجياد، إلى زيارة الشيخ صالح بن حمدون التشكري، أحد الجلة من أصحاب الكرامات، وأحد الجلة من أصحاب أبي إسحاق ابن الحاج، إلى تشكر. فأقمنا عنده مدة. قال أبو الربيع: ثم قلت لصاحبي: ينبغي لنا أن ننصرف. فقال لي صاحبي: حتى يكون ذالك عن إذن الشيخ. فلما حضرنا عنده قال لي: يا أبا الربيع: أدركك القلق من مقامك معنا، لاتنصرف حتى نأذن لك. فخجلت وقلت له: لاتعاتبني بجهلي. قال: فأخبرنا الشيخ صالح قال:

---

(65) في الأصل: شعبة. والتصويب من الأزهار: 116/4 .

سافرت وقرأت بسبتة، وقرأت على العزفي وغيره، وبغيرها، ثم أتيت إلى هذا الموضع بعد عامين، بسبب والدي. فقعدت يوماً في نفسي: لقد قرأت واجتهدت وما قصرت، ولكنني لم أفهم حقيقة الإخبار بالمغيبات، فبينا أنا في هذا الخاطر، وإذا ثلاثة رجال. فقلت لهم: من أين أقبلتم؟ فقالوا: من منزل الشيخ أبي إسحاق ابن الحاج بطَرْنش. فأخبروني عنه، وكانوا ثقاة، أنهم لما أشرفوا على طرنش قاصدين زيارته، قال أحدهم، وكان حاجاً: لقد سمعت ذكر رمان هذا الموضع بالاسكندرية، فنسأل عنه الشيخ. فقال الآخر: حاش لله أن نسأل الشيخ عن الرمان. إنما نسأله كيف كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يأكل اللحم. وقال الآخر: إنما أسأله أنا في حكم من له زوجة لاتصلي، ما يفعل معها، هل يتخلى عنها أم لا؟ فلما وصلنا، قدم لنا لحماً ورماناً[66]، وناول الحاج الرمان وقال لهم: كلوا من هذا الرمان، فإن ذكره مشهور بالاسكندرية. فقال له الحاج: نعم يا سيدي، أنا سمعت ذكره هنالك بأذني. ثم أخذ بعد ساعة قطعة من لحم بيده، وقال للآخر: هكذا رُوِيَ أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يأكل اللحم، وأراه الصورة بفيه. ثم سكت. ثم قال للآخر: من له زوجة لاتصلي، ينهاها عن ذلك، فإن انتهت، وإلا توعدها بالطلاق، فإن انتهت، وإلا طلقها، وله في النساء سَعَة. قال صالح: فلما سمعت ذلك قلت: والله لأخرجن من ساعتي إلى هذا الشيخ. وقلت في نفسي: أسأله أنا عن الشيخ أبي أحمد[67]، وعن حال أصحابه، هل هم على الحق أم لا؟ فخرجت وحملت معي جراباً فيه مصحف وكتاب الموطإ، وكتاب في علم الرياضي، فلما وصلت إليه، قال لي: أخرج ما في جرابك، فأخرجت المصحف ثم الموطأ، ثم أخرجت الرياضي. فقال لي: وهو لم يفتحه: أحرق ذالك الآن. فأحرقته. ثم قال لي: الشيخ أبو أحمد سيد وقته. وأما أصحابه، فينبغي أن يحبوا من أجله، فانطلق إليه. فانطلقت من وقتي إلى الشيخ أبي أحمد ولازمته. رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم، وسهل علينا بجاههم كل ما نرومه.

---

(66) الأزهار: 117/4 : رمانا ولحما.

(67) الأزهار: 118/4 : حافده.

وحدث القاضي أبو البركات حفيده قال:

دخلت على الشيخ الصالح، العابد المجتهد، الحاج أبي عبد الله، محمد بن علي سكري، المعروف بابن الحاج، في منزله بألمرية عائداً. قال: أظنه في مرضه الذي مات منه. فقال لي حين سألته عن حاله: ادع لي. فقلت له: ياسيدي، بل أنت تدعو لي. فقال لي: شرح الله صدرك، ونوَّر قلبك بنور معرفته، فمن عرف الله لم يذكر غيره. فقد حكى سيدي أبو جعفر ابن مكنون[68] عن جدك. قال[69]:

كنت مع سيدي أبي إسحاق ابن الحاج بمراكش، فقال لي: هل ترى في المنام شيئاً؟ فقلت: نعم. أرى كأني في ألمرية أمشي من الدار إلى المسجد، ومن كذا إلى كذا. فأعرض عني وقال: لا نرى[70] إلا الله. قال: ثم مر بي في أثناء كلامه ابنه محمد فقال: رأيت هذا. والله ما أدري أن لي ابناً حتى يمر بي، ولا أذكره إذا غاب عني. ولا أرى إلا الله.

قال في زهر الرياض بعد أن ذكر جملة من كراماته ما نصه[71]:

ومن أغرب ما شاهدته من كرامات الشيخ أبي إسحاق، رضي الله عنه، أني كنت أكتب كراماته هذه في يوم عظيم المطر، وأنا قريب من موضع نزول المطر لأمر قتضى ذالك، وماء المطر مجتمع أمام موضع جلوسي، فطرت الورقة من يدي لسبب قتضى ذالك، ووقعت على موضع الماء، فاغتممت لذالك، خوف أن أعيد الورقة، ولم أدر أخذ الورقة لبعدها مني، فجاءت صبية عادتها أن تناول ما بَعُد مني[72]، فرأت ورقة على موضع الماء، فتناولتها من طرفها، فلم تمسكها، بل زادتها[73] حركة على الماء، ورددت عملاً، ثم أخذتها مرة أخرى، فناولتني إياها، فبالله الذي لا إله إلا هو، ما

---

(68) هو عينه أبو العباس ابن مكنون المتقدم الذكر. أو لعله رجل من قرابته.

(69) سقطت من ألف.

(70) الأزهار: 118/4 : لاترى.

(71) الأزهار: 104/4 . 105 .

(72) الأزهار: 105/4 : عني.

(73) الأزهار: 105/4 : زادت.

أصاب موضع الكتابة من ذالك شيء البتة، ببركة هذا الشيخ، وأصاب آخر الطرة من ذلك شيء نادر مثل رؤوس الإبر، فسبحان من خصَّهم بمنحه الفاخرة، نسأله، سبحانه، أن ينفعنا بهم دنيا وآخرة. وكان هذا، وأنا أكتب مسودة هذا الكتاب، يوم الأربعاء ثاني ربيع النبوي، من عام سبع وعشرين وألف. (1617/1027).

[سبب هجرته إلى مراكش]

ثم قال ابن خاتمة، عقب كلامه السابق[74]:

واستمر مقام الشيخ أبي إسحاق ابن الحاج بألمرية، إلى أن قدم عليها[75] والياً جبايتها أحد الظلمة الغشمة، وهو المشرف علي بن أبي بكر، فأحدث على الناس أحداثاً منكرة. فرفعوا أمرهم إلى الشيخ أبي إسحاق، شاكين إليه بحالهم معه، راغبين في صرف ما حلَّ بهم من قبله. وكان هذا المترف المسرف، لأول قدومه على ألمرية، يزور الشيخ أبا إسحاق، ويظهر التبرك به، فلما بلغه تغير الشيخ عليه، ونكيره ما أحدث من المفاسد، ورأى أن الحال يتغير عليه بسببه، وأن لاطاقة له بمكابرته، كتب إلى ظهيره الذي يستند إليه نظر السلطان بمراكش، الوزير عثمان بن عبد الله، بن أبي إسحاق ابن جامع، يشتكي إليه بحاله، وما يتوقع من الشيخ أبي إسحاق في مآله، وأنه لايتم له شيء معه من أعماله. وزوَّر له أنه ذو أتباع وأعوان، لايؤمن من جانبه الثورة على السلطان. واستظهر على ذالك بعقد كتبه[76] بألمرية، واستنهض للشهادة فيه من لم يتقِ الله تعالى، في عظيم هذه الفِرْية، كأبي يحيى ابن أسود، ومحمد ابن الرميمي من وجوهها، وكعبد الله ابن مكنون، وصهره أحمد [الغلبري][77] من سوقتها، ممن يبطن للشيخ بغضة وحسدا، ولايؤمن أن الله، سبحانه، سائله عن شهادته عند الوقوف بين يديه غداً.

---

(74) الأزهار: 111/4 .

(75) غير المؤلف في هذه الجملة الضمائر إلى أسماء، والأسماء إلى ضمائر، لتستقيم له الصياغة. الأزهار: 111/4 .

(76) أزهار: 112/4 : كتب.

(77) بياض في الأصل، ملأناه من الأزهار: 112/4 .

ولما بلغ الوزير عثمان ابن جامع، ما وجه به إليه حديمه المشرف علي بن أبي بكر، حملته الأنفة له، والحميَّة لجانبه، على أن طالع به السلطان أمير المؤمنين، المستنصر بالله، أبا يعقوب، يوسف بن الناصر، بن المنصور بن يوسف، بن عبد المؤمن بن علي[78]، وألقى اليه في صورة الناصح، أن تغريب الشيخ أبي إسحاق من أعظم المصالح، فخرج أمر المستنصر بإزعاجه من المرية، وتوجيهه إلى مراكش، ووصل كتاب من المستنصر إلى أبي عمران، وأبي العباس ابني أبي حفص، يستفهمهما فيه عن حقيقة ما شُنّع به على الشيخ أبي إسحاق، فتفاوضا في كيفية الجواب. فكان من رأي أبي العباس التعافل، إلا أن يعاود الخطاب، واتفق رأيهما على ذالك.

فلما كان من الغد، توجه أبو عمران بن أبي حفص الى باب الخندق من أبواب المرية البحرية، ليودّع الشيخ أبا إسحاق. فأخبر أنه طلع في البحر على إثر صلاة الصبح. وذالك من يوم الإثنين، الثاني عشر لصفر، سنة ست عشرة وست مئة. (1219.616) في أسطول المرية. فقال أبو عمران: سبحان الله. أعان هذا [الرجل][79] على نفسه. يشير إلى أنه لو أراد أن لايتوجه، لأقام إلى النهار. فلم تكن العامة لتتركه، ولا توافقه على السفر لمراكش، والانفصال عنهم، اغتباطاً لجواره، وتمالكاً على مقامه بين أظهرهم واستقراره.

وكذالك كان يقول علي بن أبي بكر: لو بقي ابن الحاج بالمرية، لكنت أول من يقتل. وقد كان غير واحد من أهل المرية وغيرهم، يرومون صرف الشيخ أبي إسحاق عن التوجه إلى مراكش، فلم يوافقهم على ذالك، ولا رأى مخالفة للأمر، ولو أراد المقام لأقام كيف شاء. وكان أبداً يقول: سأموت غريباً.

ومن كلامه، رضي الله عنه، وقد أراد النهوض للقيام في هذه الوجهة، فأثقلته

---

(78) خامس خلفاء الموحدين (610 ــ 620هـ). أخباره وترجمته في: الأنيس المطرب: 241 ــ 243. البيان المغرب (قسم الموحدين): 265 ــ 267. الحلل: 161 ــ 162. المعجب: 459 ــ 463. تاريخ ابن خلدون: 337/6.

(79) سقطت الكلمة من: الأزهار: 112/4.

الكَبْرة: يقال عن إبراهيم يقوم، وهو لايقدر أن يقوم.

ويؤثر أنه قال: الذي يقوم عليهم هو القاعد في أسطواني. وكان قاعداً هناك ابن الرميمي ينتظر ليودعه. وهي من كرامات الشيخ أبي إسحاق.

[مقابلته للخليفة المستنصر]

ولما وصل إلى مراكش، وأُدخل على المستنصر، هابه المستنصر هيبة شديدة، وقذف الله، تعالى، في نفسه إجلاله، وأُشرب قلبه تعظيمه وإكباره، وندم على أن وجه عنه، وسأل الدعاء منه، وهو لايجد في فيه ريقاً. وأقام أياماً بمراكش، ثم مرض.

[وفاته وضريحه]

وتوفي ليلة الأربعاء، غرة جمادى الأخيرة، سنة ست عشرة وست مئة، (1219/616)، وهو ابن بضع وستين سنة، وقيل ابن نحو ثلاث وستين سنة.

وكانت جنازته حافلة. قدُم العهد بمثلها، وحضرها الأمراء والأكابر، رجالاً مشاة، ومنتعلين وحفاة. وكسرت العامة نعشه، وتوزَّعوهُ كسراً تبركاً به. وأشار بعض كبراء الدولة بدفنه مع سيدي أبي العباس ابن العريف، شيخ شيخه، فأبى المستنصر إلا أن يدفن بإزاء القصبة. وقال: بحيث يتأتى لنا زيارته، ويقرب منا. فدفن بمقبرة الشيوخ، وقبره [هنالك][80] إلى الآن معروف متبرك به. انتهى كلام ابن خاتمة[81].

قال في أزهار الرياض عقبه[82] [83]:

والمعروف عند أهل مراكش قاطبة في زماننا هذا، خلاف ذالك، وأنه مدفون بوسط البلد، لايلحقهم في ذالك شك. غير أن عامتهم يسمونه سيدي إسحاق، على ما جرت به عادة العامة من تغيير الأسماء. وأما الخاصة من العلماء وغيرهم فيقولون: سيدي أبو إسحاق البَلّفيقي. وقد زرته، ودعوت الله عنده بما أرجو من بركته قبوله، وهو مزور لالتماس الخير.

---

(80) (81) سقطت من الأصل. والزيادة من: الأزهار: 113/4 .

(82) (83) الأزهار: 113/4 .

[موقفه من الموحدين]

وكان أبو الحسن ابن بقي[84] وبعض أصحابه يقولون: كان الشيخ أبو إسحاق يقول أيام إقامته بالمرية: تمشي[85] حالة هذا الأمير ومن يختص به، وتتصل أيام دولتهم، ما لم ينتقلوا من موضعهم، فإذا نقلوها من موضعها، حل البلاء بجميعهم. فكان الأمر كذلك. وسئل الشيخ أبو إسحاق عما رآه[86] من المستنصر وحاشيته فقال: أما السلطان فمبارك. وما رأيت إلا خيراً، وإنما ذالك الوزير. ويسكت. يعني ابن جامع.

وقال له ابن جامع: يا فقيه: لعلك تستوحش في هذه البلاد. فقال: إنما يستوحش البهائم. وقد أنصف الله، تعالى، في دار الدنيا من كل من سعى عليه. فمات ابن جامع وعلي بن أبي بكر على أسوأ حال من الذلة والهوان. وأما ابن بقي، فصلبه المأمون بإشبيلية.

وكان الشيخ أبو إسحاق يقول: كل من نال من عرضي ما نال، فإني[87] أحلله من ذالك، وأغفر له. ماعدا من رماني بالقيام على السلطان، فإني لأغفر له، حتى أخاصمه بين يدي الله تعالى، فيما رماني به من البدعة الشنعاء، والمعصية الكبرى، والداهية الدهياء. ولو رماني بالزنى، ماكان أشدّ عليّ مما رماني به. ويذكر من فظاعة هذه الفرية عليه، وشناعتها لديه. وقد أخذ عنه جمع كثير من أهل العلم وغيرهم.

حدث حفيده القاضي أبو البركات ابن الحاج، عن ابن خميس التلمساني[88] [.......][89] قال: سمعت بعض الأشياخ يقول: كان الشيخ أبو إسحاق البلّفيقي

---

(84) علي بن محمد الغساني، وادي آشي عالم زاهد. كان حياً سنة 627 هـ. ترجمته في. صلة الصلة. 131 . رقم 627 .

(85) الأزهار: 114/4 : تمشي.

(86) الأزهار: 114/4 : رأى.

(87) الأزهار: 114/4 : فأنا.

(88) أبو عبد الله، محمد، أديب عالم تلمساني (ت 708 هـ). ترجمته في الدرر: 113/4 . البغية: 1 201 رقم 344 رحلة العبدري 13 ـ 17 النفح 356/5 ـ 378 الأزهار. 297/2 ـ 340 . الاحاطة: 528/2 ـ 562 .

(89) أسقط المؤلف جملة لاتناسب سياقه. الأزهار: 115/4 .

الكبير يقول: [اجتمع][90] لنا في الله أربعون ألف صاحب.

[مصادر كراماته]

ثم قال في أزهار الرياض بعد هذا[91]:

وكرامات هذا الولي أكثر من أن تحصى[92]. ومن شاء استيفاء أحواله وكراماته، فعليه بكتاب حفيده[93] أبي البركات، الذي وضعه في أخبار سلفه، رضي الله عنهم. وقد أورد طرفاً منها الشيخ الخطيب أبو الحسن، علي بن محمد العزال، حد أبي عبد الله المذكور، في الجزء الذي وضعه في كراماته، وكرامات شيخه أبي العباس ابن العريف، رضي الله عنهم، ونفعنا ببركاتهم.

[نماذج من شعره]

ومن نظم الشيخ أبي إسحاق، رضي الله عنه قوله:

[الطويل]

1) ألا كرَّمَ اللهُ البِـــلادَ بنُخْبَـــةٍ[94] هُـمُ حَسَنـاتُ الدَّهْرِ، لانائبهُـمْ خَطْبُ

2) رِعَـايَتُهُـمْ فَرْضٌ على كُلِّ مُسْـلِمٍ وحُبُّـهُـم حقٌّ قـد أوجبَـهُ الرَّبُّ

3) إذا ما سَـألْتَ اللهَ شَيْئاً فَسَـلْ بِهم فتعظيمُهُـم قُرْبٌ، وغَيْبَتُهُـمْ حَرْبُ

وقوله، رضي الله عنه[95]:

[الطويل]

1) شَكـا، فَشَكـا قَلْبي خَبالاً[96] مُبَرِّحاً علـى غَيْـرِ عِـلْمٍ كان مني بِشَكْـواهُ

2) ومـا الْتَـقَتِ الأَسْـرارُ إلا بجـامِعٍ من النَّعْتِ، وسُـلْطَانُ الْحقيقـةِ سِـواهُ

3) فيـا فَرْحَةَ الْمَجْهودِ أن بـاتَ سِرُّهُ وسِـرُّ الذي يَهْـواهُ مَـأْوَاهُ مـأْواهُ

(90) سقطت من الأصل. والزيادة من: الأزهار: 115/4 .

(91) الأزهار: 118/4 .

(92) الأزهار: 118/4 : تحصر.

(93) الأزهار: 118/4 : حافده.

(94) القطعة في: النفح: 475/5 . نفحة المسك: 156 .

(95) سقط الترضي من الأزهار. والقطعة في: النفح 475/5 ــ 476 .

(96) في الأصل: حيالاً.

4) ومِنْ أجْلِهِ قد كانَ بالبُعْدِ راضِياً … فكيفَ تَرى مَغْناهُ والقُرْبُ مَثْواهُ؟!

5) بدا فبدتْ أعْلامُ صِدْقٍ في الهوى … هُما عَجَبٌ لولا الدَّليلُ وفَحْواهُ

6) بِرُؤْيتِهِ فارقْتُ موْتي لِبُعْدِه … وَمِتُّ بها من أجْلِ عِلْمي بِسَلْواهُ

7) فها أنا حَيٌّ مَيْتٌ بِلِقائِهِ … ولَمْ يَتَّجِهْ مَنْ لَمْ يُسْعِدِ الفَهْمُ نَجْواهُ

8) إذا لَمْ تكُنْ أنتَ الحَبيبَ بِعَيْنِيهِ … رَضَى وعِتاباً، ضَلَّ من قالَ يَهْواهُ

9) وأكْذَبُ ما يُلْقَى[97] الفتى، وَهْوَ صادِقٌ … إذا لَمْ يُحَقِّقْ بالأفاعيلِ دَعْواهُ

وقوله:

[البسيط]

1) الحُبُّ في اللهِ نُورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ … والهَجْرُ في ذاتِهِ نورٌ على نورِ[98]

2) جَنِّبْ أخا حَدَثٍ، في الدِّينِ ذا غِيَرٍ … إن المُغَيِّرَ في نُكْسٍ وتَغْييرِ

3) حاشا الديانةَ أن تُبْنى على خَبَلٍ … سُبْحانَ خالِقِنا من قَوْلِ مَثْبورِ

4) إن الحقائِقَ لاتَبْدو لِمُبْتَدِعٍ … كذا المَعارِفُ لاتُهْدى لِمَغْرورِ

5) تاللهِ لو أُنصِرتْ عيناهُ أو ظَفِرتْ … بِمَعْناهُ، ما ظَلَّ في ظَنٍّ وتَقْديرِ

6) حَقِّقْ تَرى عَجَباً، إنْ كُنْتَ ذا أدبٍ … ولا يَغُرَّنْكَ الجُهّالُ بالزورِ

7) إن الطريقةَ في التَّنْزيلِ واضِحةٌ … وما تَواتَرَ مِنْ وَحْيٍ وَمَشْهورِ

8) فافْهَمْ، هُديتَ، هُدى الرَّحمانِ واهْدِ بِهِ … هُدى يُفيدُكَ يَوْمَ النَّفْخِ في الصُّورِ[99]

وكان، رحمه الله، كثيراً ما يتمثل ببيتي مهيار الديلمي[100] وهما[101]:

[الطويل]

1) ومن عَجَبٍ أنّي أحِنُّ إليهِمُ … وأسْأَلُ شَوْقاً عنهُم وهُمُ مَعي

2) وتبكيهِمُ عَيْني وهُمْ في سَوادِها … ويَشْكو النَّوى قَلْبي، وهُمْ بَيْنَ أضْلُعي

---

(97) في الأصل: يلقى. والتصويب من النفح: 5/476 .

(98) النفح: 5/476 .

(99) [illegible] بيتين من [illegible]، [illegible] هذه [illegible]، نثبتهما في ترجمة ابنه أبي عبد الله محمد

(100) أبو الحسن، مهيار بن مرزويه، أديب مشهور (ت 428 هـ) ترجمته في الوفيات: 5/359 ـ 363 . رقم 755 .

(101) [illegible] في ديوانه [illegible] كثيراً [illegible] في الإيضاح 54 (منسوبان لابن المرحل المالقي السبتي. وهذا لا يصح).

وللشيخ أبي إسحاق، رضي الله عنه، تأليف في مثال النعل الكريمة خاصة. نقل منه المقري في زهر الرياض[102] وفتح المتعال[103]. ذكر فيه أن من أمسك تمثال النعل عنده متبركاً به، كان له أمناً من بغي البغاة، وغلبة العداة، وحرزاً من كل شيطان مارد، وعين كل حاسد، وإن أمسكته المرأة الحامل بيمينها، وقد اشتد عليها الطلق، تيسر عليها أمرها، بحول الله وقوته[104].

30) [أبو عبد الله، محمد ابن أبي إسحاق، ابن الحاج السُّلمي البلَّفيقي]

ومنهم الخطيب، أبو عبد الله محمد، ابن الشيخ أبي اسحاق. ذكر المقري في نفْح الطيب[105] وزهر الرياض[106]، أنه مر بأبيه إبراهيم في مراكش. فقال لمن حدَّث عنه: رأيت هذا. والله ما أدري أن لي ابناً حتى يمرّ بي، ولا أذكره إذا غاب عني. ولا أرى إلا الله.

وكتب صدر رسالة وجه بها إليه، أيام قراءته بإشبيلية[107]:

[الطويل]

1) إذا شئتَ أن تحظى بوَصْلي وقربي	فجَنِّبْ قرين السُّوء، واصْرِمْ حباله
2) وسابق إلى الخيرات، واسلك سبيلها	وحصِّل علوم الدين، واعرف رجاله

ومن هذا المعنى قول بعضهم:

[البسيط]

1) صاحبْ ذوي الفضلِ، تَنْعَدْ من كَرامتهمْ	واتخذْهُمُ صادقاً، واصْدُقْهُمْ خَبرا
2) كَمْ صُحْبَةٍ ألحقتْ مِنْ شُؤْمها ضرراً	وصُحْبَةٍ طوَّقتْ من يُمْنِها دُررا
3) وشاهدي كَلْبُ أهْلِ الكهف مع صحةٍ	منْ أجل صُحْبتهِمْ في الوحْيِ قدْ ذُكرا

---

(102) الأزهار: 262/3 .

(103) فتح المتعال 8 ــ 9 111 ولم ينقل المقري منه مباشرة، بل بواسطة أبي اليمن ابن عساكر وغيره، بسنده إلى أبي إسحاق.

(104) فتح المتعال: 319 ــ 320 وقد كتب الحافظ ابن عساكر كتابه في النعل النبوية، وضمنه كتاب ابن الحاج، كما نص المقري: 8 ــ 9 . 111 .

(105) النفح: 476/5 .

(106) الأزهار: 118/4 .

(107) الأزهار: 120/4 . النفح: 476/5 . نفحة المسك: 156 .

31) [أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد، بن أبي إسحاق]
[إبراهيم ابن الحاج السُلمي البَلَّفيقي الحفيد]

ومنهم أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد، ابن الشيخ أبي إسحاق، إبراهيم ابن الحاج، المتقدم الذكر[108].

قال جلال الدين السيوطي في الطبقات الصغرى[109]: قال ابن عساكر[110]:

كان أديباً نحوياً قارئاً متقناً، ذاكراً للتاريخ. له حظ وافر من الفقه، فاضلاً ورعاً زاهداً، من جلّة[111] الناس وفضلائهم. لازم الدباج[112] والشلوبين في العربية والأدب سنين. وأخذ القراءة عن الدباج، وأقرأ بسبتة القرآن والعربية. وروى عن أبي القاسم ابن الطيلسان[113]، وأبي جعفر الفحام[114]، وغيرهما. ورحل وحج. [وأخذ عن النجيب الحراني وخلائق][115].

---

(108) هذا هو صاحب كتاب المقتضب من تحفة القادم، حسب د. إحسان عباس. (التحفة: ح). وفي الوافي 135/6 رقم 2573 أنه ولد سنة 616 هـ بالمرية، وتوفي سنة 661 هـ. ويذكره ابن رشيد في ملء العيبة (المجلد الثاني، في مواضع متفرقة). وقد خلط المحقق بينه وبين جده أبي إسحاق المشهور، لأنهما يشتركان في الاسم الشخصي واسم الأب والنسب والكنية. وينقل المؤلف ترجمته من: نفحة المسك: 155 ـ 156.

(109) البغية: 423/1 ـ 424 . رقم 857 .

(110) كذا في الأصل. وفي البغية: 423/1 أنه ابن الزبير.

(111) في الأصل: أجلة. والتصويب من البغية: 424/1 .

(112) علي بن جابر اللخمي نحوي كبير (ت 646 هـ) ترجمته في: صلة الصلة: 137 . رقم 277 . البغية 153/2 . رقم 1682 . الذيل 198/5 ـ 201 رقم 394 . المغرب. 255/1 ـ 260 اختصار القدح: 155 ـ 156 .

(113) القاسم بن محمد الأنصاري الأوسي القرطبي (ت 642 هـ) نحوي محدث. ترجمته في: البغية 261/2 . رقم 1931 . الغاية: 23/2 رقم . النيل: 221 ـ 222 .

(114) في الأصل: النحام وهو تصحيف. وأبو جعفر الفحام، هو أحمد بن علي الأنصاري المالقي. (ت 645 هـ) فقيه محدث نحوي. ترجمته في: البغية: 346/1 . رقم 654 . الذيل: 321/1 ـ 323 . رقم 414 . التكملة: 123/1 ـ 124 . رقم 308 .

(115) سقطت الجملة من الأصل. والزيادة من: البغية: 424/1 .

ومات بمصر سنة إحدى وستين وست مئة. (1262/661) عن نحو خمسين سنة.

32) [أبو بكر، محمد بن أبي إسحاق، بن محمد بن أبي إسحاق، ابن الحاج السُلَمي البَلَّفيقي][116]

ومهم الخطيب الولي الصالح، أبو بكر، محمد بن أبي إسحاق، بن محمد ابن الشيخ أبي إسحاق.

قال في الإحاطة[117] ناقلاً من جزء فيه لولده أبي البركات، فيه نحو سبعين ورقة:

[نشأته]

نشأ بسبتة على طهارة تامة، وعفة بالغة. وقرأ القرآن الكريم بالقراءات السبع، ثم تاقت نفسه إلى الاعتلاق بالعروة الوثقى التي اعتلق بها سلفه، فنبذ الدنيا، وأقبل على الآخرة. ولبس الخشن[118]، وترك مجالسة[119] الخلق سنين

[رحلاته]

ثم سافر إلى المغرب سائحاً في الأرض، على ري الفقهاء للقاء الأعلام. فأحرز من ذالك ماشاء.

ثم أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس، وورد المرية مستقر[120] أسلافه[121]، فكان على ما تلقيناه[122] من أصحابه وخدامه[123]، صواماً قواماً، وخاشعاً ذاكراً تالياً

---

(116) ترجمته في: الدرة: 59/2 رقم 503 رقم 503 نفحة المسك 154 ــ 155 .

(117) الإحاطة: 248/3 . ويلاحظ أن المؤلف يختصر في نقله.

(118) الاحاطة: 248/3 . الخشنية.

(119) الاحاطة: 248/3 : ملابسة.

(120) في الأصل: مستعمر. وفضلنا رواية الاحاطة: 249/3 .

(121) الاحاطة: 249/3 : سلفه.

(122) الاحاطة: 249/3 : تلقينا.

(123) الاحاطة: 249/3 : خدانه.

[للكتـاب][124]، قوالاً للحق، وإن كان مراً، كبيراً في إسقاط التصنع[125] والمباهاة. لايضاهى في ذالك، ولا يشق غباره.

قدم غرناطة ودخل على أمير المسلمين[126]، وقال له الوزير: يقول لك السلطان ماحاجتك؟ فقال: بهذا الرسم رحلت. ثم ظهر لي أن أنزل حاجتي بالله، فعار على من انتسب[127] إليه أن يقصد[128] غيره.

ثم أجاز البحر، وقد اشتدت أحوال أهل الأندلس بسبب عدوهم. ثم[129] قدم على ملك المغرب[130]، ووعظه موعظة عنّف[131] عليه فيها، فانفعل لموعظته، وأجاز البحر من سبتة إلى جزيرة الأندلس. وغز وأقام بها ما شاء الله.

قال: وأُخبرْتُ أن[132] السلطان يوسف المستنصر[133]، ملك المغرب: قال: كل رجل صالح دخل علي كانت ترعد يده[134] في يدي، إلا هذا الرجل. كانت يدي ترعد في يده.

كراماته

منها ما حدثني الشيخ المعلم الثقة، أبو محمد، قاسم الحصار، وكان من الملازمين

---

(124) لم ترد الكلمة في الاحاطة: 249/3 .

(125) في الأصل: الصنع.

(126) يرجح أنه السلطان، أبو عبد الله، محمد الغالب بالله (635 ــ 671 هـ).

(127) في الأصل: تنسب. والتصويب من: الاحاطة: 249/3 .

(128) في الأصل: نقصد. والتصويب من: الإحاطة: 249/3 .

(129) الاحاطة: 249/3 : و.

(130) يرجح أنه السلطان يعقوب المنصور المريني (656 ، 685 هـ). بقرائن الوفاة وشخصية السلطان، وسن المترجم ومحنته.

(131) الاحاطة: 249/3 : أعنف

(132) الاحاطة: 249/3 : وأخبره السلطان.

(133) الاحاطة: 3 249 أبو يوسف. وإذا ثبت أنه وعظ أبا يوسف لايوسف، فيكون المقصود قطعاً هو يعقوب المنصور. وقد وقع خلط بينه وبين يوسف المستنصر الموحدي. (ت 610/620 هـ).

(134) الاحاطة: 249/3 : يده ترعد.

(135) الاحاطة: 249/3 : يدي كانت ترعد.

له، المنقطعين إلى خدمته والسفر معه إلى البادية: إني لأحفظ لأبيك أشياء منها ما أذكره، ومنها ما لا أستطيع أن أذكره. ثم قال:

حدثني أهل واد الزرجون من أعمال ستة قالوا: انصرف الشيخ[136] أبو عبد الله من هنا، فلما استقر في رأس العقبة المشرفة على الوادي، صاح أهل القرى، إذ كانوا رأوا أسداً كبيراً جداً قد تعرض في الطريق، ما نجا قط من صادف مثله. فلما سمع الصياح قال: ماهذا؟ قالوا: أهل القرى يصيحون عليك خوفاً من الأسد[137]. قال: فأعرض عنهم وأخذ في الطريق، حتى وصل إلى الأسد فأشار عليه: من هاهنا، من هاهنا. اخرج عن الطريق. وأشار عليه بقضيب[138]، فخرج بإذن الله عن الطريق، ولم يوجد هنالك بعد. وأمثال ذلك كثير[139].

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي الحسين[140] ابن أبي الربيع القرشي[141]، وأجازه والده أبو إسحاق عامة. [وعدّ جملة وافرة من شيوخه، منهم][142] القاضي أبو عبد الله ابن عياض[143]، وأبو يحيى [عبد الرحمان][144] ابن الفرس[145].

---

(136) الاحاطة: 250/3 : السيد.

(137) الاحاطة: 250/3 : خيفة من السبع.

(138) الاحاطة: 250/3 : تقدمت هذه الجملة عما قبلها.

(139) الاحاطة: 250/3 : كثيرة.

(140) في الأصل: الحسن. والتصويب من الاحاطة: 250/3 .

(141) عبيد الله بن أحمد الإشبيلي السبتي نحويٌّ كبير (ت 688 هـ) ترجمته في البغية: 125/2 ـ 126 . رقم 1606 الغاية: 484/1 ـ 485 . رقم 2013 الدرة: 70/3 ـ 71 . رقم 990 .

(142) عبارة للمؤلف اختصر بها شيوخ أبي عبد الله، لم ترد في الاحاطة

(143) محمد بن عياض اليحصبي السبتي الحفيد. فقيه مشارك. (ت 655 هـ). ترجمته في: الديباج: 266/2 ـ 267 الاحاطة: 226/2 ـ 229 . الذيل. 342/8 ـ 344 . رقم 132 . صلة الصلة: (غرباء): رقم 222 . التكملة: رقم 1632 .

(144) سقطت من الاحاطة. وفيها ابن عبد الرحمان. وهو خطأ.

(145) عبد الرحمان بن عبد المنعم. (ت 663 هـ). محدث لغوي. ترجمته في البغية: 33/2 . رقم 1495 .

محنته

نمى إلى السلطان بالأندلس[146] أنه أغرى به ملك المغرب[147]، فحبسه وانتهب ماله، واستمر ذالك إلى دولة ولده[148]. فعجل الله عقوبتهم.

مولده

بسنة[149] في ذي القعدة، سنة ست وأربعين وست مئة (646/1248 م).

وفاته

ووفاته في العشر الأواخر من رمضان، عام أربعة وتسعين وست مئة. (694/1294) ودفن بمقربة قبر ريحان، العبد الأسود.

33) [أبو البركات، محمد بن محمد بن إبراهيم، بن محمد بن أبي إسحاق، ابن الحاج السُّلَمي البَلَّفيقي][150]

ومنهم أبو البركات، محمد بن محمد بن إبراهيم، بن محمد ابن الشيخ أبي إسحاق، ابن الحاج.

قال لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة ما نصه، مع اختصار كثير[151]:

---

(146) الأرجح أنه الغالب بالله النصري. (635/671 هـ).

(147) الأرجح أنه أبو يوسف، يعقوب منصور المريني (656 ـ 685 هـ)

(148) أبو عبد الله، محمد بن الغالب بالله. (671/ 701 هـ).

(149) سقطت من الاحاطة.

(150) ترجمته في نفح الطيب 2 269 ـ 274 نثير الجمان 4 155 ـ 157 رقم 414 العابة 235/2 ـ 236 رقم 3391 تاريخ ابن خلدون 535/7 ـ 536 النيل. 254 ـ 255. جذوة 1 292 ـ 295 رقم 299 الدرة 2 45 ـ 49. رقم 493 الشجرة 229/1. رقم 824 الإعلام 4 418 ـ 442 رقم 611 الأوصاف 28 ـ 30 رقم 5 نفحة المسك: 154 ـ 155. فضلاً عن مصادر المؤلف.

(151) الاحاطة: 144/2.

[حاله]

نشأ بألمرية بلده[152]، عمود[153] العفة، (غمر رداء الفضل)[154]، لابس فضفاض الصيانة، غضيض طرف الحياء، كثير[155] الانقباض، لايرى إلا في منزل من منازله[156]، أو في حَلَق الأساتيذ[157]، (أو في مقبرة)[158]، أو في مسجد من مساجد[159] خارج المدينة، المعدة للتعبد. لايغشى[160] سوقاً ولا مجتمعاً[161] ولا وليمة ولا مجلس حاكم. ولا يلابس أمراً من الأمور التي جرت عادة الناس[162] أن يلابسوها[163] بوجه من الوجوه.

ثم ترامى إلى الرحلة[164]، [فأخذ عن العلماء والصلحاء والأدباء بالقطر المغربي وبجاية][165]، ثم صرف عنانه إلى الأندلس، فتصدر[166] للقراءة[167] والقضاء والخطابة، [بالغاً في ذالك الدرجة التي لادرجة فوقها][168].

---

(152) الاحاطة: 144/2 : ببلده المرية.

(153) كذا بالأصل والاحاطة: 144/2 .

(154) سقطت من الاحاطة.

(155) الاحاطة: 144/2 : حليف.

(156) الاحاطة: 144/2 : من سأله.

(157) الاحاطة: 144/2 : الأسانيد.

(158) سقطت من الاحاطة.

(159) الاحاطة: 144/2 : المساجد.

(160) الاحاطة: 144/2 : لايجيء.

(161) الاحاطة: 144/2 : مجمعاً.

(162)(163) الاحاطة: 144/2 : عادته أن يلابسها. وهو تحريف.

(164) الاحاطة: 144/2 : رحلة.

(165) الاحاطة: 144/2 : «فجاس خلال القطر الغربي إلى بجاية، ناقضاً إياه من العلماء والصلحاء والأدباء والآثار بتقييده».

(166) الإحاطة: 144/2 : فتصرف.

(167) الاحاطة: 144/2 : في الاقراء. ولعل هذا الصواب.

(168) الاحاطة: 144/2 : الجملة ساقطة.

وهو الآن، نسيج وحده أصالة[169] عريقة، وسجية على السلامة مفطورة، ونفس سادجة، وباطن مساوٍ للظاهر. رحالة[170] الوقت، وفائدة العصر تفنناً وإمتاعاً. [مبرزاً في فنون: في القراءات والحفظ ومعرفة العروض، متضلعاً بصناعة الحديث والتاريخ، مستكثراً من الروايات، مشاركاً في أصول الفقه وفروعه، وعلم البيان وصناعة المنطق، معدوداً من رجال التصرف، أولي الأحوال والمقامات. جماعاً للدواوين، متبحراً في معرفة أسماء الكتب، كلفاً بالمطالعة، ريان من الأدب، شاعراً مفلقاً مطبوع الأغراض، حلو المقاصد، سهل النظم، غريب النثر، يعرف من حر، ويمتح من طود[171]، فارس المنابر، [خطيب المحافل][172]، طيب النغمة بالقرآن الكريم، كثير الشفقة، [سريع الدمعة][173]، [قرأ القرآن على الأستاذ أبي الحسن ابن أبي العيش، وبين يديه نشأ وتأدب[174]].

[دراسته وتدريسه]

إلى أن قال[175]:

وممن قرأ عليه الأستاذ العالم الشهير، أبو عبد الله ابن خميس الجحدري. أخذ عنه كثيراً من شعره، وكتباً منها الموطأ والمقامات. وقرأ عليه جملة من كلام الشيخ أبي مدين، رضي الله عنه. إلى أن قال[176]:

وسمع على العافقي[177] الموطأ والبخاري، بين سماع وقراءة تفقه، وسنن الترمذي، وقرأ عليه كتاب سيبويه، وقرأ على ابن الشاط[178] الإشارة الباجية، وبرهان أبي المعالي،

---

(169) الاحاطة: 144/2 : في أصالة.

(170) الاحاطة: 145/2 : وجلة.

(171) (172) (173) (174) سقطت كل هذه النصوص من الاحاطة المطبوعة

(175) (176) سقط النص من الاحاطة المطبوعة.

(177) لعل المقصود أبو محمد، عبد الله بن أحمد العافقي القرطبي الفقيه القاضي المحدث (ت 731 هـ) ترجمته في الاحاطة 3 411 — 412 الديباج 444/1 — 445 النيل 142

(178) أبو القاسم، قاسم بن عبد الله فقيه محدث (ت 723 هـ) ترجمته في الاحاطة 259/4 — 262 الديباج 2 152 — 153 الدرر 3 270 — 271 رقم 1324 برنامج الوادياشي 168 رقم 262 . النبوغ: 208/1 .

وتنقيح القرافي، ومقدمة المستصفى.

إلى أن قال[179]:

«وقرأ على عدة مشاييخ يطول ذكرهم، منهم أبو الحسن الصغير[180]، وأبو زيد الجزولي[181]، وأبو علي، ناصر الدين المشدالي[182]، شرحه على المدونة[183].

ومنهم أبو العباس ابن البناء العددي[184]. وتفقه عليه في كثير من تصانيفه. وله أشياخ أجلة كثيرون، ماعدا من ذكرنا من أهل المشرق والمغرب».

[تصانيفه]

وله تآليف أكثرها غير متممة[185]:

ـ منها كتاب «قد يكبو الجواد، في [ذكر][186] أربعين غلطة، عن أربعين من النقاد». وهو من نوع تصحيف الحافظ الدارقطني[187].

---

(179) سقط النص من الاحاطة المطبوعة.

(180) علي بن محمد الزرويلي. (ت 719 هـ) فقيه مغربي. ترجمته في الديباج 271/2 الدرة 243/3 ـ 244 . رقم 1260 . الجذوة: 472/2 . رقم 521 السلوة: 147/3 الشجرة 215/1 . رقم 757 . النبوغ: 204/1 ـ 205 . الفكر السامي 237/2 ـ 238

(181) عبد الرحمان بن عفان. (ت 741 هـ) فقيه مغربي. ترجمته في. الجذوة: 401/2 ـ 402 رقم 406 الدرة: 79/3 ـ 80 . رقم 1000 النيل: 165 ـ 166 الشجرة: 218/1 ـ 219 . رقم 772 . الفكر السامي: 240/2 ـ 241 .

(182) أبو علي، منصور بن أحمد، فقيه بجائي. (ت 731 هـ) ترجمته في: عنوان الدراية. 200 ـ 201 . النيل: 344 ـ 345 . الدرة: 9/3 . رقم 891 البغية: 301/2 رقم 2025 النفح. 223/5 ـ 224 . رحلة العبدري: 227 . الشجرة: 217/1 ـ 218 . رقم 764

(183) الديباج: 271/2 : الرسالة.

(184) أحمد بن محمد الأزدي المراكشي عالم مشارك كبير. (ت 721 هـ) ترجمته في النيل: 65 ـ 68 الدرة: 14/1 ـ 16 . رقم 17 . الجذوة: 148/1 ـ 152 . رقم 99 الشجرة. 216/1 رقم 759 . النبوغ: 213/1 . الإعلام: 202/2 ـ 210 . رقم 186 .

(185) الاحاطة: 148/2 . مع اختلاف كبير عن نص رياض الورد.

(186) سقطت الكلمة من الاحاطة.

(187) الاحاطة: 148/2 : الحافظ للدارقطني.

ـــ ومنها «سموة الخاطر، فيما أشكل من نسبة النسب الرتب إلى الذاكر[188]».

ـــ ومنها كتاب «خطر فنصر، ونظر فحظر[189]»، على تنبيهات على وثائق ابن فتوح».

ـــ ومنها «عرائس بنات الخاطر[190]، المجلوة على منصات المنابر». يحتوي على فصول الخطب.

ـــ ومنها «تأليف في أسماء الكتب والتعريف بمن ألفها[191]»، على حروف المعجم.

ـــ [ومنها][192] «ما اتَّفق لأبي البركات، فيما يشبه الكرامات».

ـــ ومنها «المرجع بالدرك، على من أنكر وقوع المشترك[193]».

ـــ ومنها «الفصول والأبواب، في ذكر من أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب».

ـــ ومنها «الإفصاح، فيمن عرف بالأندلس[194] بالصلاح»، و«تاريخ المرية».

ـــ ومنها «المؤتمن، على أنباء أبناء الزمن».

ـــ وكتاب «ما كثر دوره في مجالس القضاء، [وما صدر في مجالسه][195]».

[ومنها العسيبات][196]، في الكلام على صحيح مسلم في التعليق.

[نماذج من شعره]

ومن شعره، رضي الله عنه، قصيدته الصادة التي مطلعها[197]:

---

(188) الديباج: 272/2 : نسبته الذنب إلى الذاكر.

(189) الاحاطة: 148/2 : خطر فبطر، ونظر فحظر.

(190) الاحاطة: 148/2 . الديباج: 272/2 : الخواطر.

(191) الاحاطة: 148/2 : بمؤلّفيها.

(192) سقط من الأصل. والزيادة من: الاحاطة: 148/2 .

(193) الديباج: 276/2 : اللفظ المشترك.

(194) الديباج: 276/2 : في الأندلس.

(195) (196) سقط من الأصل. والزيادة من الاحاطة: 149/2 .

(197) نصوصه في: الاحاطة 151/2 ـــ 155 الديباج 272/2 ـــ 273 جذوة 292/1 . الدرة. 47/2 ـــ 48 . الإعلام: 330/3 .

[الطويل]

1) تَأَسَّفَ[198] لكن حينَ عَزَّ التَّأَسُّفُ[199] وكَفْكَفَ[200] دَمْعاً[201] حِين[202] لا عَيْنَ[203]

2) [وجاذَبَ قَلْباً ليس يَأْوي لِمَأْلَفٍ وعالَجَ نَفْساً داؤُها يَتَضَعَّفُ]

3) ورامَ سُكوناً، وهُوَ في رِجْلِ طائِرٍ ونادى بِأُنْسٍ، والمنازِلُ تَهْتِفُ[205]

ومنها:

4) أُراقِبُ قَلْبي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَأُلْفِيهِ ذَيَّاكَ الذي أنا عارِفُ[206]

5) فَإنْ حَلَّتِ الضَّراءُ لم يَنْفَعِلْ لها وإنْ حَلَّتِ السَّرَّاءُ لايَتَكَيَّفُ[207]

6) تُحدِّثُني[208] الآمالُ وهْي كذوبةٌ[209] تُبَدِّلُ في تَحْديثِها وتُحَرِّفُ

7) بأَنِّي، في الدنيا، سَأَقْضي مآربي[210] وبَعْدُ، يَحِقُّ الزُّهْدُ لي والتَّقَشُّفُ[211]

8) وتِلْكَ أَمانٍ لاحَقيقةَ عندها أي فَرْقِ[212] الضِّدَّيْنِ يُبْغى[213] التَّأَلُّفُ[214]

---

(198) الاحاطة: 151/2 : تأسفت

(199) الدرة: 47/2 : لكن عز عنه تأسف.

(200) الاحاطة: 151/2 : وكفكفت.

(201) الدرة: 47/2 : عيناً.

(202) الدرة: 47/2 . الديباج: 273/2 :حيث.

(203) الدرة: 47/2 : لادمع.

(204) أسقط المؤلف البيت بعده.

(205) الاحاطة: 151/2 : تعنف. الديباج: 273/2 : تقنف.

(206) الاحاطة: 151/2 · الديباج 273/2 الجذوة: 292/1 الدرة: 47/2 أعرف

(207) الاحاطة: 151/2 : «إذا حلت السراء لم يتكيف».

(208) الجذوة: 292/1 : وغرتني.

(209) الاحاطة: 153/2 : كذبتها.

(210) الديباج: 273/2 : أقضّي مآربي.

(211) الدرة: 47/2 : التأسف.

(212) الاحاطة: 153/2 : قربي.

(213) الاحاطة: 153/2 : يبقى.

(214) الجذوة: 292/1 : التكلف.

9) أَلا إِنَّهَا الأَقْدَارُ يَظْهَرُ سِرُّهَا[215] ... إِذَا مَا وَفَى الْمَقْدُورُ، فَالرَّأْيُ[216] يُخْلِفُ[217]

10) أَيَا رَبِّ: إِنَّ القَلْبَ[218] طَاشَ بِمَا جَرَى ... بِهِ قَلَمُ الأَقْدَارِ، وَالقَلْبُ يَرْجُفُ

ومنها:

11) وَفِي الكَوْنِ مِنْ سِرِّ الوُجُودِ عَجَائِبٌ ... أَطَلَّ عَلَيْهَا العَارِفُونَ وَأَشْرَفُوا

12) فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا أَنْ نَحُطَّ رِقَابَنَا ... لِأَبْوَابِ[219] الاسْتِسْلَامِ، وَاللهُ يَلْطُفُ

13) فَهَذَا سَبِيلٌ لَيْسَ لِلْعَبْدِ غَيْرُهُ[220] ... وَإِلَّا فَمَاذَا يَسْتَطِيعُ الْمُكَلَّفُ؟

ومن شعره أيضاً في السر والمحافظة عليه[221]:

[الطويل]

1) إِذَا مَا كَتَمْتُ السِّرَّ عَمَّنْ أَوَدُّهُ ... تَوَهَّمَ أَنَّ الوُدَّ غَيْرُ حَقِيقِي[222]

2) وَلَمْ أُخْفِ السِّرَّ مِنْ ضِنَّةٍ بِهِ ... وَلَكِنَّنِي أَخْشَى صَدِيقَ صَدِيقِي

ومنه[223]:

[الكامل]

1) لَا تَبْذُلَنَّ نَصِيحَةً إِلَّا لِمَنْ ... تَلْقَى لِبَذْلِ النُّصْحِ مِنْهُ قَبُولَا

2) فَالنُّصْحُ، إِنْ وَجَدَ القَبُولَ، فَضِيلَةٌ ... وَيَكُونُ، إِنْ عَدِمَ القَبُولَ، فُضُولَا

ومنه[224]:

---

(215) الديباج: 273/2 : تظهر سرها.

(216) (217) الديباج 2 273 الدرة 2 48 الجذوة 1 292 : الرأي مخلف.

(218) الاحاطة: 154/2 : اللب.

(219) جميع المصادر: بأبواب.

(220) الاحاطة: 155/2 : غيرها.

(221) البيتان في المرقبة: 166 الدرر الكامنة 4 156 الجذوة 1/294 نفح 92/2 الديباج: 273/2 .

(222) في الأصل حقيق والتصويب من الدرة. 49/2 الديباج 2 273 حقيقي

(223) البيتان في الاحاطة 2 158 الديباج 2 273 الدرة 48/2 . الجذوة 293/1

(224) البيتان في الاحاطة: 160/2 المرقبة: 166 مع اختلاف كبير الدرر الكامنة 156/4 الديباج: 274/2 . الغاية: 236/2 . الجذوة: 294/1 . الدرة: 49/2 .

[الطويل]

1) رَعَى اللهُ إخْوانَ الخِيانَةِ كُلَّهُمْ كَفَوْنا مَؤُونَةَ البَقاءِ[225] على العَهْد

2) فلو قد وَفَّوا كُنّا أُسارى حُقوقِهِمْ نُرَاوِحُ[226] [ما][227] بَيْنَ النَّسِيئَةِ والنَّقْد

[ولو رحل راحل إلى خراسان لما أتى الابهما][228]، انتهى.

[تحلية ابن الخطيب لشيخه أبي البركات]

وقال في الكتيبة الكامنة، فيمن لقيه من شعراء المئة الثامنة، في صاحب الترجمة ما نصه[229]:

«الشيخ القاضي أبو البركات، محمد بن أبي بكر، محمد بن إبراهيم، بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج [البَلَّفيقي السُّلَمي][230] شيخنا، رحمه الله [تعالى][231]:

واحد الفئة، وصدر صدور هذه المئة، ولعمري إن قوادِمَ الاجتهاد لَمَقْصوصة، وقواعد النَّصَفَة غير مَرْصوصة، لتعيين آية[232] مخصوصة. بل نقول، وهو الوفاء، وفيه للصدر الشفاء: تحفة الدهر التي يقل لها الكفاء، وبقية السلف التي يقال عندها: على آثار من ذهب العفاء.

أما لفظ السيادة فهو مدلوله. وأما ربع المجادة فلولاه لأقوت طلوله. فما شئت من شرف زاحم الثريا بمناكبه، ومجد خفقت [بنود الولاية][233] فوق مواكبه، وحسب ككعوب الرمح كابرا عن كابر، وأصالة تنتقل أسرارها إلى بطون المحاريب[234]، من ظهور

(225) الاحاطة: 160/2 : مؤونات.

(226) الاحاطة: 160/2 : تراوح.

(227) الاحاطة: 160/2 : الكلمة ساقطة.

(228) سقطت الجملة من الاحاطة.

(229) الكتيبة: 127 .

(230) (231) سقطت الكلمتان من الأصل والتعويض من الكتيبة: 127 .

(232) الكتيبة: 127 : غاية.

(233) الكتيبة: 127 : بنوده.

(234) الكتيبة: 127 : المحارب.

المنابر. تواضع مع علو الهمة، وتنازل مع الاستواء بأعلى القمة[235]، وإيثار للخمول[236] مع جلالة القدر ووفور الذمة، وأخذ عن الأصاغر مع كونه إمام الأئمة.

كان، رحمه الله، أبعد خلق الله عن الحسد، وأشدهم إقداماً على الأسد، ومتنفساً عن نفس لا نسبة بينها وبين الحسد، معروف الوفاء لمن عرفه، [عظيم الإغضاء عمن قرفه، ثم استقال شرفه][237]، لايساكنه الرياء في بقعة، ولا يُساوقه[238] الملق في رفعة. يرسل البادرة، ثم يتبعها الزفرة الندرة، والعبرة الهادرة، فمجالس العدل والإقساط مشوبة بالانبساط، ودسوت الإنصات والنحو، متعاقبة الغيم والصحو، وسقائف الجعجاع، جامعة بين الاسترسال والاسترجاع، والتفكه بالأسجاع[239]، والترلف بتسكين الأوجاع.

وأما الحصافة فهو زيد الخيل إذا أمر[240] أُخرج، والموقف الفصل[241] أُسرج، يبتدر الشورد على ظهره، معنياً[242] صبعه من قهره[241]، مقتصياً منه في الساعة من دهره، حبيئة شهره، كما فجر مذانب أنهار من نهره، أنجمت[244] عود المنبر بزهره.

وبالجملة، فكان هذا الشيخ في سَنف، واهتمام وكَلَف، وعدم خَلَف، بمنزلة أبي دُلف[245]، ولّت الدنيا على أثره، وقلّ أن ترجع، والبرهان يفصح من يجعجع.

---

(235) في الأصل: قمة.

(236) الكتيبة 127 : وآثر الخمول.

(237) الكتيبة: 127 : مابين معقوفتين ساقط.

(238) في الأصل: يسارقه.

(239) في الأصل: بالانتجاع.

(240) الكتيبة: 128 : منبر.

(241) الكتيبة: 128 : الفضل.

(242) في الأصل: متفيئاً. والتصويب من الكتيبة: 128 .

(243) في الأصل: نهره. والتصويب من الكتيبة: 128 .

(244) الكتيبة: 128 : أنجمها.

(245) أبو دلف العجلي قائد جيوش المأمون العباسي (والحكمة فيه جعله إلى بيتين مدح بهما وهما مشهوران) (ت 260 هـ) ترجمته في: الوفيات: 73/4 ـ 79 . رقم 538 .

وله في الأدب عليا الدرجات، والأفواح[246] المتأرجات، والبدائع التي سارت مسيرة[247] الشمس في الأقطار، وتغنى بها راكب الفلك وحادي القطار. فمن ذالك قوله في الأغراض الولهيات[248]، والأذواق الشهيات[249]:

[نماذج أخرى من شعره]

[الكامل]

1) يَــأْبَى شُجــون حَديثيَ الإفْصــاحُ ... إذ لاتقـــومُ بشَــــرْحِـــهِ الأَلْوَاحُ

2) قــالَتْ صَـفِيَّــةُ عِنْـدمـا مَرَّتْ بها ... إيـلي. أتَنْــزِلُ ســاعَــةً ترْتــاحُ[250]؟

3) فـأَجَبْتُهـا: لولا الرَّقيبُ لكـانَ لي[251] ... مَــا تَبْتَـغـي بَعْــدَ الغُــدُوِّ رَواحُ

4) قــالتْ: وهَـلْ في الحيِّ حَيٌّ غيْـرُنـا ... فـاسْمَحْ، فَديْتُك، فـالسَّمـاحُ رَباحُ

5) فـأَجَبْتُهـا: إن الرَّقيب هُو الذي[252] ... يَـــدَيْـــهِ منــا هَـــذِهِ الأَرْواحُ

6) وهْـوَ الشَّـهيـدُ على مَوارِدِ عَبْـدِهِ ... سِيَّــانِ مـا الإخْفــاءُ والإيضــاحُ[253]

7) قـالَتْ: وأيْنَ يَكونُ جودُ[254] اللهِ إذ ... يُخْشـــى، ومنـــه هـــذه الأفْــراحُ

8) فافْرَحْ على اسْمِ اللهِ[255]، جَلَّ جَلالُهُ ... واشْـطَحْ، فَنَشْـوانُ الهَـوى شَـطَّـاحُ

9) وازْهَجْ[256] على دَمَمِ الرِّجالِ ولا تَخَفْ ... فــالحِـلْمُ رَحْبٌ، والنَّـوالُ مُبـاحُ

---

(246) في الأصل: الأدواح.

(247) الكتيبة: 128 : مسير.

(248) كذا في الأصل، نسبة إلى الوله.

(249) القصيدة في الاحاطة. 155 ــ 158 مع تحريف شديد، ويلاحظ أن رواية رياض تورد تصادق كثيراً رواية الكتيبة، وأنها عموماً صحيحة.

(250) الاحاطة: 155/2 .

1) قــالـت صفية إذ مـررت بهـا ... أفـلا تنـزل ساعـة تـرتـاح؟

(251) الاحاطة: 155/2 : لي.

(252) الكتيبة: 128 : هوالك.

(253) الاحاطة: 156/2 : الافصاح.

(254) الاحاطة: 156/2 : وجود. وهو تحريف.

(255) الاحاطة: 156/2 : فافرح بإذن الله.

(256) الاحاطة: 156/2 : وابهج.

10) وانْزِلْ على حُكْمِ السُّرورِ ولا تُبَلْ   فالوَقْتُ صافٍ، ماعَلَيْكَ جُناحُ

11) واخْلَعْ عِذارَكَ في الخَلاعَةِ يا أخي   بـاسْمِ الذي دارَتْ بِهِ الأَقْداحُ

12) وانْظُرْ إلى هذا النَّهارِ فَسِنُّهُ   ضَحِكَتْ، ونورُ جَبينِهِ وَضّاحُ

13) أَنْوارُهُ نَفَحتْ[257] وأُتْرِعَ كَأْسُهُ   فَقَدِ اسْتَوى رَيْحانُهُ والراحُ

14) وانْظُرْ إلى الدُّنْيا بِنَظْرَةِ رَحْمَةٍ   فَجَفاؤُها بِوَفائِها يَنْزاحُ

15) لاتَعْذِلِ الدُّنْيا على تَلْوينِها   فَلِلَيْلِها بَعْدَ المَساءِ صَباحُ

16) فَأَجَبْتُها: لو كُنْتِ عالِمَةً[258] الذي   يَبْدو لِتارِكِها وما يَلْتاحُ

17) من كُلِّ مَعْنىً[259] غامِضٍ من أَجْلِهِ   قد ساحَ قَوْمٌ في الجِبالِ وناحوا[260]

18) حتى لقد سَكِروا مِنَ الأَمْرِ الذي   هاموا بِهِ عِنْدَ العِيانِ فَباحوا[261]

19) لَعَذَرْتِني وعَلِمْتِ أَنّي طالِبٌ   ما الزُّهْدُ في الدُّنْيا له مِفْتاحُ

20) فاتْرُكْ صَفِيَّكَ قارِعاً بابَ الرِّضى   واللهُ، جَلَّ جَلالُهُ، الفَتّاحُ

21) يا أُخْتُ[262] حَيَّ على الفَلاحِ وخَلِّني   فَجَماعَتي حَثُّوا المَطِيَّ وراحوا

ومن هذا النمط الغريب النزعة[263]:

[الكامل]

1) خُذها على رَغْمِ الفَقيهِ سُلافَةً   تُجْلى بها الأَقْمارُ في شَمْسِ الضُّحى

2) أَبْدى أَطِباءُ العُقولِ[264] لأَهْلِها   مِنْها شَراباً للنُّفوسِ مُفَرِّحا[265]

---

(257) الاحاطة: 156/2 : ضحكت.

(258) لأصل، وفي لاحاطة. 2 156 : نعم. وفضلت رواية الكتيبة: 129 ، لاستقامتها مع الصياغة النحوية.

(259) الاحاطة: 156/2 : ما كان معنى.

(260) الاحاطة: 156/2 : تاح.

(261) الاحاطة: 156/2 : وساح.

(262) الاحاطة: 156/2 : ياحي.

(263) القصيدة في: الاحاطة: 157/2 ــ 158 .

(264) الاحاطة: 157/2 : القلوب.

(265) الاحاطة: 157/2 : مُبرحاً.

3) وإذا المُرائي[266] قالَ في نَشْوانِها ... قُل أنت بالإخلاصِ فيمن قد صَحا

4) ياقَهْوةً[267] دارَتْ على أرْبابِها ... فاعْتَزَّتِ الأقْدامُ منها واللّحى

5) مُزِجَتْ، فَغارَ الشَّيْخُ من تَرْكيبِها ... فلِذاكَ جَرَّدَها وصاحَ وصَرَّحا[268]

6) لاتَعْتَرِضْ أبَداً على مُتَسَتِّرٍ[269] ... قد غارَ من أسْرارِها أن تُفضَحا

7) وكذاكَ لاتَعْتَبْ على مُسْتَهزِئٍ[270] ... لم يَدْرِ ما الإيضاحُ لما أوْضَحا

8) سَكْرانُ يَعْثُرُ في ذُيول لسانه ... كُفْراً ويَحْسِبُ أنَّهُ قد سَبَّحا

9) كَمْ الْهوى حُرْبَةَ بَعْضٍ[271] وبعـ ... ـضٌ ضاقَ ذَرْعاً بالغَرام فبَرِحا

10) لاتَخْسَبِنّ[272] على العدالةِ هاتفاً ... نَقَدَ[273] ارتياحَ العاشِقينَ فَجرَّحا[274]

11) الحبُّ خمرُ العاشقين[275] وقد قَضتْ[276] ... حَتْماً على من ذاقَها أن يَشْطَحا

12) فاشْطَحْ على هذا الوجُودِ وأهْلِهِ ... عَجَباً، فلَيْس براجحٍ من رَجَّحا

13) كَبِّرْ عليهِمْ إنَّهُمْ موْتى على ... غَيْرِ الشَّهادَةِ، ما أغرَّ[277] وأقْبَحا!

14) واهْزَأ بهم فمَتى يقُلْ نُصحاؤُهُمْ ... أفْلِحْ[278] فقُلْ: حتى ألاقِيَ مُفْلِحا

15) وإذا زَرَيْهُمْ[279] اسْتَخَفُّكَ[280] قُلْ[281] لهُ ... باللهِ يايَحْيى بن يَحْيى دَعْ جُحا

---

(266) الاحاطة: 157/2 : وإذا امرؤ.

(267) الاحاطة: 157/2 : ياقوتة.

(268) الاحاطة: 157/2 : ومرحا.

(269) الاحاطة: 157/2 : مسترفد. الكتيبة 130 : مستهتر

(270) الاحاطة: 157/2 . الكتيبة: 130 : مستهتر

(271) الاحاطة: 157/2 : وكم الهوى حرب بعض، وهو تحريف.

(272) الاحاطة: 157/2 : لاتخشين.

(273) الاحاطة: 157/2 : ثغر

(274) الكتيبة: 130 : مبرحا وهو تحريف. والصواب مافي الاحاطة 2 157 و لأصل

(275) الاحاطة: 157/2 : العارفين.

(276) الاحاطة: 157/2 : وقد ضفت. وهو تحريف.

(277) الاحاطة: 157/2 ، وفي الأصل أيضاً: ما أغر.

(278) الاحاطة: 157/2 : أهج. وهو تحريف.

(279) الاحاطة: 157/2 : أريتهم

(280) الاحاطة: 157/2 : استخف

(281) في الأصل: فقل له، كما في الاحاطة: 157/2 . والتصويب من الكتيبة: 130 .

16) أَنِي سُلَيْمٍ[282] قد مَحا[283] مَجْنونُكُمْ   مَجنـونَ لَيْلى العـامِرِيَّـةِ قـد مَحـا
17) هَـلْ يَسْتَـوِي مَنْ لم يَبُحْ بِحَبيبِـهِ   مَعَ مَنْ بِذِكْرِ حَبيبِـهِ قـد أَفْصَحـا[284]
18) فافْرَحْ وطِبْ وازْهَجْ[285] وقُلْ ما شِئْتَهُ[286]   مـا أَمْـلَحَ الفُقَـراءَ يـامـا أمْـلَحـا!!

ومن الأبيات المقطوعات، قوله [يعتذر لبعض][287] ممن[288] استدبره بحلقة العلم بسبتة، أيام رحلته اليها في طلب العلم[289]:

[السّريع]

1) إن كُنْتُ أَبْصَـرْتُكَ لا أَبْصَـرَتْ   بَصـيرَتي في الْحَـقِّ بُـرْهـانَهـا[290]
2) لاغَـرْوَ أَنّي لم أُشـاهِـدْكُمُ   فَـالْعَـيْـنُ لاتُبْـصِـرُ إِنْسـانَهـا

ومن ذالك قوله في غرض التورية، وهو بديع[291]:

[الطويل]

1) يـلومـونَني بَعْـدَ العِـذارِ على الهَوى   ومِثْـلي في حبّـي له لايُفَـنَّـدُ
2) يقولونَ: أَمْسِكْ عَنْهُ قد ذَهَبَ الصِّبا   وكيفَ أُرى الإِمْسـاكَ، والخَيْطُ أَسْوَدُ[292]؟!

---

(282) الكتيبة: 130 : سليمي.
(283) الاحاطة: 158/2 : نجا. وهو تحريف.
(284) الكتيبة: 130 : صرح.
(285) الاحاطة: 158/2 : ابهج
(286) الاحاطة: 158/2 : شئت
(287) سقطت من الاحاطة، ولعل المؤلف غير هذه الجمل.
(288) الكتيبة: 131 : لمن
(289) الكتيبة: 131 : بعدها: [الشريف يعتذر من فعله ذالك]:
(290) البيتان في الاحاطة: 158/2. النفح: 481/5. المرقبة: 116. نثير الجمان: 160. الكتيبة: 131. الجذوة: 292/1. الدرر الكامنة: 156/4.
(291) البيتان في: الاحاطة: 158/2. النفح: 478/5. المرقبة: 167. الكتيبة: 131. الجذوة: 293/1.
(292) أنهى المؤلف هنا النقل عن الكتيبة مؤقتاً.

[استطراد عن الخيط الأسود]

قلت: فيه أن الخيط الأسود إنما هو ما يمتد مع الخيط الأبيض من غبش آخر الليل. وعليه، فعند ظهوره يجب الإمساك، خلاف ما فهم من أن الخيط الأسود هو الليل. وعليه، فلو قال:

[الطويل]

1) يَلومونَني بَعْدَ العِذارِ علَى الهوى ... ومن يهْوِ بَعْدَ اللامِ حقّاً يُفَنَّدُ
2) يقولون أمْسِكْ عَنهُ قد ذَهب الصِّبا ... لقد وجب الإمساكُ، والخيْطُ أَسْودُ

لأصاب في المقال. قاله الشيخ أبو الفيض حمدون في حواشيه على الشعر[293].

[نماذج أخرى من شعره]

ثم قال في الكتيبة[294]:

ومن ذاك قوله في المُجَبَّات، وهو بديع جداً[295]:

[الطويل]

1) ومُصْفَرَّةِ الخدَّيْنِ مَطْويَّةِ الحشا ... على الجُبْنِ، والمُصْفرُّ يُؤْذِنُ بالخوفِ
2) لها هَيْئةٌ[296] كالشَّمْسِ عِنْد طُلوعها ... ولكنَّها في الحينِ تغْرُبُ في الجوْفِ

وقال في معتقل شفع فيه، اسمه مُرَجَّى[297]:

[الطويل]

1) مُرَجَّى يُرَجِّي فَضْلَ أَنْعُمِكَ التي ... بكفَّيْكَ مَجْراها ثَناءً ومَوْحدا
2) وقد جُدْتَ بالإحْسانِ في حَلِّ قَيْدِهِ ... فصَيِّرْهُ بالإحْسانِ مِنْك مُقَيَّدا

ومن قوله في شكوى البعاد[298]:

[البسيط]

1) قالوا: تَغَرَّبْتَ عَنْ أَهْلٍ وعن وَطَنٍ ... فَقُلْتُ: لَم يَبْقَ لِي أَهْلٌ ولا وَطَنُ

---

(293) انتهى الاستطراد. والبيتان في: ديوان حمدون: 107 .

(294) الكتيبة: 131 .

(295) البيتان في: الاحاطة: 158/2 . المرقبة: 166 . نثير الجمان: 161 . النفح: 478/5 الجذوة: 293/1 .

(296) كذا بالأصل والاحاطة: 158/2 . ورواية الكتيبة: 131 : بهجة

(297) البيتان في الكتيبة: 131 — 132 .

(298) بعد هذين البيتين، أسقط المؤلف بيتين في المحافظة على السر.

2) قَضى الأَحِبَّـةُ والأَهْـلونَ كُلُّهُـمُ ... ولَيسَ لي بَعْـدَهُـمْ سُـكْـنى ولا سَـكَنُ
3) أَفْرغْتُ حُزْني ودَمْعي بعْدهُمْ فأَنا ... مِنْ بَعْـدِ ذالِكَ لادَمْعٌ ولا حَـزَنُ

ومن قوله في الحكم والأمثال[299]:

[الخفيف]

1) مـا رَأَيْتُ الهُمـومَ تَـدْخُـلُ إلا ... من دُروبِ العُـيـونِ والآذانِ
2) غُضَّ طَرْفاً وسُـدَّ سَمْعاً وإن ... أَحْسَسْتَ هَمّـاً، فلا تَثِقْ بِضَمانِ

وقال في زرقة عينه، وهو من الغريب في معناه[300]:

[الكامل]

1) حَزِنتْ علَيْكَ العَيْنُ يا مغنى الهَوى ... فـالدَّمْعُ منهـا بَعْـدَ بُعْـدِكَ مـارَقـا
2) ولذاكَ [ما][301] صُبِغتْ بِلوْنٍ أَزْرَقٍ ... أو مـا تَـرى ثَـوْبَ المـآتِـمِ أَزْرَقـا

ومن نفثاته الغريبة قوله[302]:

[الطويل]

1) تُطـالِبُـني نَفْسـي بمـا لَيسَ لي بِـهِ ... يَـدانِ، وأُعْطيهـا الأَمـاني فَتَـقْبَـلُ
2) عَجِبْتُ لِخَصْـمٍ لَجَّ في طَـلَبـاتِـهِ ... يُصـالَحُ عنهـا[303] بالمُحـالِ فَيَفْصَـلُ

وقال في ذم النساء[304]:

[الخفيف]

1) مـا رَأَيْتُ النِّسـاءَ يَصْـلُحْنَ إلا ... لِلّذي يَصْـلُحُ الكَنيفُ من اجْلِهِ[305]
2) فـعَلَى هذِهِ الشَّـريطَـةِ فاصْحَبْـ ... ـهُنَّ[306] لاتَعْـدُ بِـأَمْري[307] عن مَحَـلِّهْ

---

(299) الكتبية: 132 . المرقبة: 166 . نثير الجمان: 160 .

(300) الكتيبة: 132 . الاحاطة: 159/2 . الجذوة: 293/1 .

(301) الكتيبة 132 ــ 133 النفح 5 482 ــ 483 . لاحاطة: 152/9 : قد

(302) الكتيبة: 133 . الاحاطة: 159/2 . الجذوة: 293/1 .

(303) الكتيبة: 133 : عنه.

(304) الكتيبة: 133 . الاحاطة: 160/2 . الجذوة: 294/1 .

(305) الاحاطة: 160/2 : لأجله.

(306) الاحاطة: 160/2 . صالحهن.

(307) الاحاطة. 160.2 . كتيبة. 133 امرىء. والشطر مضطرب الورد.

وقال في المعنى المذكور[308]:

[الخفيف]

1) قد هَجَوْتُ[309] النساءَ دَهْراً فلم أبْـ ... ـلِغْ أذاني[310] صِفاتِهِنَّ الذَّمِيمَةْ

2) ما عسى أن يُقالَ في هَجْوِ من قَدْ ... خَصَّهُ المُصْطَفى بِأَقْبَحِ شِيمَةْ

3) أوَ يَبْقى لِناقِصِ العَقْلِ والديـ ... ـنِ، إذا عُدَّتِ المثالِبُ، قِيمَةْ؟!

وقال، وما أعرقه في الأصالة[311]:

[السريع]

1) قد كُنتُ مَغْروراً بوَعْظي[312] وما ... أَبُثُّ من عِلْمي بَيْنَ البَشَرْ

2) من حَيْثُ قَدْ أمَّلْتُ إصْلاحَهُمْ ... بالوَعْظِ والعِلْمِ، فحانَ النَّظَرْ

3) فلم أجِدْ أوْعَظَ للناسِ[313] من ... أصْواتِ وُعّاظِ جُلودِ البَقَرْ

ومما أنشدني، وقد خرجت لتوديعه[314]:

[السريع]

1) يا مَنْ إذا [ما][315] رُمْتُ تَوديعَهُ ... ودَّعْتُ قَلْبي قَبْلَ ذاكَ الوَداعْ

2) فأتْرُكُ التَّوْديعَ عَمْداً لِكَيْ ... أُعَلِّلَ النَّفْسَ بِبَعْضِ الخِداعْ

3) يا مِحْنَةَ النَّفْسِ بِمَأْلوفِها ... مِنْ أجْلِهِ[316] قد جاءَ هذا الصُّداعْ[317]

---

(308) الاحاطة: 160/2 . الكتيبة 133 .

(309) في الأصل: هجرت. وكذالك في الاحاطة: 160/2 .

(310) في الأصل آداني وكذالك في الاحاطة 160/2 ولا يستقيم به الوزن.

(311) المقطوعة في الكتيبة: 133 . الاحاطة: 161/2 .

(312) الاحاطة: 161/2 : معذوراً. بعلمي.

(313) في الأصل: لوعظ الناس.

(314) الكتيبة: 134 .

(315) سقطت من الأصل.

(316) الكتيبة: 134 : أجلها.

(317) الكتيبة: 134 : الصراع.

وإن[318] لم يكن في هذه الطبقة [الجليلة][319] الا هذا الرجل لكفى رحمه الله [تعالى][320] [وغفر له][321]. انتهى من الكتيبة.

[تنويه أبي العباس المقري، بأبي البركات ابن الحاج السُلمي البَلَّفيقي]

وقال في نفح الطيب[322]:

ومن أشياخ لسان الدين، رحمه الله [تعالى][323]، الامام العلامة قاضي الجماعة، أبو البركات ابن الحاج البلّفيقي: نادرة الزمان، وشاعر ذلك الأوان. وهو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد، ابن الشيخ الولي أبي إسحاق ابن الحاج البلّفيقي. وكان أبو البركات أحد رجال الكمال، علماً ومجداً، وسؤدداً موروثاً ومكتسباً. وقد عرّف به في الإحاطة بترجمة مدّ فيها النفس[324]. وكتب ابنه على أول الترجمة ما صورته: «رحمة الله عليك يا فقيه الأندلس وحسيبها وصدرها وشيخها، وبرّد ضريحك، فلله ما أفدت من نادرة، واكتسبت من فائدة». انتهى.

وحكى في الإحاطة[325]، أنه لما استسقى وحصلت الإجابة. أنشده لسان الدين:

[الكامل]

1) طمِثتْ إلى السُّقيا الأباطحُ والرُّبى ... حتى دَعوْنا الْعامَ عاماً مُجْدِبَا

2) والْغيْثُ مسْدولُ الحجاب وإنما ... علِمَ الغمامُ قُدومَكُمْ فتأدَّبا

---

(318) الكتيبة: 134 : ولو.

(319) (320) سقطت من الأصل. والزيادة من: الكتيبة: 134 .

(321) لعلها زيادة من المؤلف.

(322) النفح: 471/5 .

(323) سقطت من الأصل. والزيادة من النفح: 471/5 .

(324) الاحاطة: 143/2 ــ 169 .

(325) الاحاطة: 146/2 .

[نماذج أخرى من شعره]

ثم ذكر في الإحاطة تآليف أبي البركات وشعره، إلى أن قال حاكياً عن أبي البركات ما صورته[326]:

[الخفيف]

1) في احتفارِ الآساسِ والآبـارِ ... وانتقـال التُّـراب والحَيَّـارِ

2) وقعودي[327] مابين رَمْلٍ وآجُـ ... ـرٍ وجصٍّ والطُّـوبِ والأحجـارِ

3) وامتهاني[328] بُرْدَيَّ بالطينِ والما ... ءِ، ورأسي وللحيـق بـالغُبـارِ

4) نَشْوَةٌ لم تَمُرَّ قطُّ على قلـ ... ـبِ خَليعٍ، وما لها من خُمـارِ

5) من غريبِ البِنـاءِ أن بَنِيـهِ ... مُتعَـون يهْـوَوْن طولَ النَّهـارِ

6) يَبْتغون الوصالَ من صانِعيـهِ ... والبِـدارَ إليـهِ كُلَّ البِـدارِ

7) فـإذا حَـلَّ في ذُراهُمْ[329] تَراهُمْ ... يَشْتَهـونَ مِنـهُ بَعيـدَ المَـزارِ

8) من عذيري مِنْ لائمي[330] في بِنائي ... وَهْوَ لي التَّرجُمانُ عن أخبارِ[331]

9) لَيسَ يَدْري مَغْناهُ مَنْ لَيسَ يَدْري ... أنَّ ما عِنْـدهُ على مِقْـدار

10) أقْتَدي بالذي يَقولُ بَناهـا ... ذلك الخالقُ الحكيمُ البـاري

11) وبمن يَرْفَعُ القَواعِدَ مِنْ بَيْـ ... ـتٍ عتيقٍ للحاجِّ[332] والزوَّارِ

12) وبمن كان ذا جِدارٍ وقد كا ... نَ أبوهُ من صالحِ[333] الأبرارِ

13) وبمن قد أقامَهُ الخضِرُ المَخْصُو ... صُ عِلْماً بباطِنِ الأسْرارِ

14) كانَ تَحتَ الجدارِ كَنـزٌ وما أدْ ... راكَ ما كانَ(*) تَحتَ الجِدارِ!

---

(326) لاوجود للقصيدة في الاحاطة، وهي في النفح: 472/5 .

(327) في الأصل: قعود. والتصويب من النفح: 472/5 .

(328) في الأصل: امتهان. والتصويب من النفح: 472/5 .

(329) في الأصل: دارهم. والتصويب من النفح: 472/5 .

(330) النفح: 472/5 : لائم.

(331) في الأصل: أخبار.

(332) النفح: 472/5 : للحج.

(333) النفح: 472/5 : صالحي.

(*) الشطر ساقط الوزن.

15) ومن قد مضى مِنَ ابائيَ الغُـــ ـرُ الأُلى شَـيَّـدوا رفيـعَ المنـارِ
16) فـالذي قـد بَنـوْهُ نَبـني له مِثْـ ـلاً، ونَجْـري له عـلى مِضْـمـارِ
17) قـد بَنَيْنـا من المَسـاجدِ دَهْراً ثم نَبْـني لجـارِهـا خيْـرِ جـارِ
18) مِثْـلَمـا قد بَنَيْتُ للمَجْدِ أمْثـا لَ مَبـانِيهِـمُ بِكُـلِّ اعِتْبـارِ
19) فـالمبـاني لِسـانُ حالي ولي فيـ ـهـا، لَعَـمْـري، ذِكْرٌ من الأذْكارِ
20) رُوحُ أعمـالِنـا المَقـاصِـدُ لكنْ حيْثُ تَخْـفـى، تَخْـفـى مَعَ الأعْـذارِ
21) فعَسـى من قَضى بِبُنْيـانِ هذي الـ ـدارِ، يَقْـضي لنـا بِعُـقْـبى الدارِ

ثم قال في الإحاطة بعد كلام[334]:

«ومن نظمه في الإنحاء على نفسه، واستبعاد وجود المطالب في جنسه. قال: مما نظمته يوم عرفة، عام خمسين وسبع مئة (1349/750)، وأنا منزو في غار ببعض جبال ألمرية:

[الخفيف]

1) زَعَمـوا أنَّ في الجِبـالِ رِجـالاً[335] صـالِحِـينَ، قـالوا، من الأبْـدالِ
2) وادَّعَـوْا أنَّ كُلَّ مَنْ سـاحَ فيهـا فَسَيَـلْقـاهُـمُ عـلى كلِّ حـالِ
3) مـا رأيْنـا بهـا خِلاقَ[336] الأفاعي وَدَبـا عَقْـرَبٍ كَمِثْـلِ النِّبـالِ
4) وسبـاعٍ يَجـرون بـاللَّيْـلِ عدْواً لاتسـلّي عَنْهُـمْ بِتِـلْك اللَّيـالي[337]
5) ولَوَ انّا كُنّـا عِنْـدَ العَـدْوَةِ الأُخـْ ـرَى رَأَيْنـا نُـواجِـذَ الرئبـالِ
6) وإذا أظْـلَمَ الدُّجى جـاءَ إبْـليـ ـسُ إلَيْـنـا يَـزورُ طَيْفَ خَيـالِ
7) هُـوَ كانَ الأنيسَ فيهـا ولولا هُ أُصيبَتْ عُقـولُنـا بـالخَبـالِ
8) خَـلِّ عَنكَ المُحـالَ يـا من تَعَنّى لَيْسَ يُـلْقـى الرِجـالَ غيْـرُ الرِّجـالِ»

ثم قال في النَّفْح[338]:

---

(334) الاحاطة: 165/2 . والقصيدة في النفح: 473/5 .
(335) الاحاطة: 165/2 : قوما.
(336) الاحاطة: 165/2 : سوى.
(337) الاحاطة: 165/2 : الفيالي.
(338) النفح: 473/5 — 474 .

وجمع شعره وسماه: «العذب والأحاج، من كلام أبي البركات ابن الحاج». وسمى أبو القاسم الشريف ما استخرجه منه بـ«اللؤلؤ والمرجان، من بحر أبي البركات ابن الحاج يستخرجان».

ومن نظمه أيضاً[339]:

[الطويل]

1) ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ لما أنا أرْتجي[340] ... مِنَ اللهِ في يَوْمِ الجَزاءِ بَلاغُ

2) وكَيْفَ لمثْلي أن ينالَ وَسيلَةً ... لها عن سَبيلِ الصّالحينَ مَراغُ

3) وكَمْ رُمْتُ دَهْري فَتْحَ بابِ عِبادَةٍ ... يَكونُ بها في الفائزينَ مَساغُ

4) فَكِدْتُ ولم أفْعلْ، وكَيْفَ ولَيْسَ لي ... (م) المعينان فيها[341]: صحةٌ وفَراغُ؟!

5) لأصْبَحْتُ من قَوْمٍ دَعاهُمْ إلى الرِّضى ... مُنادي الهُدى، فاسْتَنْكَروهُ، فَراغوا

6) أباغٍ يرى أُخْراه يَزْدهيه من ... زَخارِف دُنْياهُ الدَّنيَّةِ باغُ

7) ويَضْرِبُ صَفْحاً عن حَقيقَةِ ما طَوَتْ[342] ... فَيُلْهيهِ زورٌ قد أتَتْهُ مُصاغُ

8) إذا ما بَدا للرُّشْدِ نَهْجُ بَيانِهِ ... يُراغُ بِهِ عَنْ وَحْشَةٍ فَيُراغُ

9) فيارَبِّ بَرْدَ العَفْوِ هَبْ لي إذا غَلَتْ ... مِنَ الحَرِّ في يَوْمِ الحِسابِ دِماغُ

10) فَمِنْ حُرَقٍ للنَّفْسِ فيه لَواعِجٍ ... ومن خَجَلٍ لِلْوَجْهِ فيهِ صِباغُ

11) وَعَظْتُكِ نَفْسي، لَوْ أنِبْتِ، وفي الذي ... وُعِظْتِ بِهِ، لَوْ تَرْعَوينَ، بَلاغُ

[أخباره نقلاً عن نفح الطيب]

ثم قال في النفح، عقب هذا بكثير[343]:

ولما وقع بينه وبين ابن صفوان[344] ما يقع بين المتعاصرين، رد عليه ابن صفوان،

(339) النفح 574/5 . «ومن نظم الشيخ أبي البركات ابن الحاج قوله، رحمه الله تعالى».

(340) القصيدة في النفح: 474/5 .

(341) في الأصل: بها

(342) في الأصل: انطوت.

(343) النفح: 478/5 .

(344) أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المالقي (ت 763 هـ) ترجمته في: الاحاطة 221/1 ــ 232 الكتيبة 216 ــ 222 .

فانتصر لأبي البركات بعض طلبته بتأليف سماه: «شواظ من نار [ومن][345] نحاس، يرسل على من لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس»[346]. ألفي على ظهره بخط الشيخ أبي البركات ما نصه[347]:

[السَّريع]

1) قَـدْ شَبِـعَ الْكَـلْبُ كَمَا يَشْتَهِـي ... مِن حَجَـرٍ صَـلْدٍ وَمِنْ مِقْـرَعِ

2) فَـإِنْ يَعُـدْ مِنْ بَعْـدِ ذَا لِلّذِي ... قَـدْ كَانَ مِنْـهُ فَهْـوَ مِمَّنْ نُعِـي[348]

وحدث القاضي أبو البركات، أنه لما أراد الانصراف عن سبتة، قال له السيد الشريف أبو العباس[349]: متى عزمت على الرحيل؟ فأنشد أبو البركات، وهو لعمر بن أبي ربيعة[350]:

[الكامل]

1) أَمَّـا الرَّحِيـلُ فَـدُونَ بَعْـدَ غَـدٍ ... فَمَتَـى تَقُـولُ الدَّارُ تَجْـمَـعُـنَـا؟

فأنشد الشريف: [رحمه الله تعالى][351]:

[الكامل]

1) لاَ مَـرْحَبـاً بِغَـدٍ وَلاَ أَهْـلاً بِـهِ ... إِنْ كَانَ تَفْـرِيقُ الأَحِبَّـةِ فِي غَـدِ

وحكي أن السيد [أبا العباس][352] الشريف المذكور، ساير القاضي أبا البركات

---

(345) زيادة من الأصل.

(346) بعدها في النفح: «وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول».

(347) النفح: 478/5 : ما صورته.

(348) أسقط المؤلف بعد هذين البيتين أربعة أبيات من شعر أبي البركات وردت في نفح الطيب.

(349) محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي الغرناطي (ت 760 هـ) ترجمته في الإحاطة 2 181 — 186 نثير الجمان 145 — 149 نثير فرائد 231 — 235 المرقبة 171 — 177 تاريخ بني حمدون 7 535 الديباج 2 267 — 268 . الدرر الكامنة 3 352 رقم 933 البغية 1 39 رقم 54 الدرة 2 268 . رقم 770 جذوة 1 306 . رقم 314 .

(350) شرح ديوانه: 402 .

(351) (352) زيادة من النفح: 479/5 . لم ترد بالأصل.

في بعض أسفاره زمن الشباب بر الأندلس، [أعادها الله دار إسلام][353]، فلما انتهيا إلى قرية ترليانة، وأدركهما النصب، واشتد عليهما حرُّ الهجير، نزلا وأكلا من باكرالتين الذي هناك، وشربا من ذالك الماء العذب، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلاً بظلّها، ثم التفت إلى السيد أبي العباس فقال[354]:

[البسيط]

1) ماذا تقولُ. فَدَتْك النَّفسُ، في حالي يَفْنى زماني في حلٍّ وترحالِ

وارْتَجَّ عليه، فقال لأبي العباس: أَجِز، فقال بديهاً:

[البسيط]

1) كذا النُّفوسُ اللواتي العزُّ يصحَبُها لاترتضي[355] بمقام دون آمالِ
2) دَعْها تسيرُ الفيافي[356] والقفار إلى أَنْ تبلُغ السُّوْل أو موتاً بتجوال
3) الموتُ أهونُ من عيْش لدى زمنٍ يُعلي اللئيم ويُدْني الأشرف العالي

ثم قال في النَّفح[357]:

وقال، رحمه الله [تعالى][358]، يعني أبا البركات: نظمت صبيحة يوم السبت، السابع والعشرين لرجب، عام[359] خمسة وأربعين وسبع مئة، (745/1344) وقد رأيت في النوم بأني[360] أريد أن آتي[361] امرأة لاتحل لي، فيأتي رقيب فيحول بيني وبين ذالك، المرة بعد المرَّة، قولي:

[الطويل]

1) ألا كرَّم الله الرَّقيب فإنَّهُ كفاني أموراً لايحلُّ ارْتكابُها

---

(353) النفح: 479/5 : «أعاده الله تعالى».
(354) النفح: 479/5 : وقال.
(355) في الأصل: لاترضى. والتصويب من: النفح: 479/5 .
(356) النفح: 479/5 : تسيرُ في الفيافي.
(357) النفح: 480/5 .
(358) النفح: 480/5 . ولم ترد في الأصل.
(359) في الأصل: سنة، والتصويب من النفح: 480/5 .
(360) النفح: 480/5 . كأني.
(361) النفح: 480/5 : اتيان.

2) وبـالَغَ في سَــدِّ الذَّريعَــةِ فـاغْتَدى　　يُـلاحِظُــني نَـوْمـاً، لِيُغْـلَقَ بـابُهـا

وقال رحمه الله: أنشدني أبو عبد الله ابن رُشَيْد[362]، عند قراءتي عليه لقوافي أبي الحسن حازم[363]، وقد باحثته يوماً مناقشة في بعض ألفاظه من الشرح المذكور:

[الطويل]

1) تَســامَحْ ولا تَسْتَـوْفِ حَقَّكَ كُلَّهُ　　وأَغْضِ، فـلم يَسْتَـوْفِ قَطُّ كَريمُ

ومن نظم [الشيخ][364] أبي البركات قوله:

[الطويل]

1) ألا خـلِّ دمْعَ الْعيْنِ يهْمي بمُقْلتي　　لِفُرْقَةِ عَيْنِ الدَّمْعِ[365] وَقْفاً على الدمِ
2) فَـلِلْمـاءِ فِيـهِ رَنَّـةٌ شَجَنِيَّـةٌ　　كَرَنَّـةِ مَسْـلوبِ الْفُـؤادِ مُتَيَّـمِ
3) ولِلطَّيْـرِ فِيـهِ نَغْمـةٌ مَوْصِـلِيَّـةٌ　　تُـذَكِّرُني عَهْـدَ الصِّبـا المتَـقَـدِّمِ
4) ولِلْغُصْـنِ أَقْمـارٌ [بِه][366] يوسُفِيَّةٌ　　تَـرُدُّ إلى دِيـرِ[367] الْهَـوى كُلَّ مُسْـلِمِ

وله رحمه الله [تعالى][368]:

[السريع]

1) مـا كُلُّ مَنْ شَـدَّ عـلى رَأْسِـهِ　　عِمـامَـةً يَحْظـى بِسَـمْتِ الْوَقـارْ
2) مـا قِيـمَـةُ الْمَـرْءِ بـأثْـوابِـهِ　　السِّـرُّ في السُّـكّـانِ لا في الدِّيـارْ

---

(362) محمد بن عمر الفهري السبتي العلامة الرحالة (ت 721 هـ) ترجمته في الإحاطة 3/135 ـ 143 . الدرر الكامنة 4/111 ـ 113 . رقم 308 . الديباج 2/297 ـ 298 . الوافي 4/284 ـ 286 رقم 1805 . البغية 1/199 ـ 200 رقم 343 . الدرة: 2/96 ـ 100 . رقم 532 . الجذوة: 1/289 ـ 291 . رقم 298 . الأزهار: 2/347 ـ 356 . السلوة 2/191 ـ 192 . الشجرة 1/216 ـ 217 رقم 760 .

(363) القرطاجني أديب مشهور (ت 684 هـ) ترجمته في الرحلة المغربية. 258 ـ 261 . القدح 10 ـ 21 . البغية 1/491 ـ 492 رقم 1018 . الدرة 1/254 ـ 255 . رقم 384 . الأزهار: 3/172 ـ 184 . النفح: 2/584 ـ 589 .

(364) سقطت من الأصل. والزيادة من النفح: 5/481 .

(365) قرية في نواحي غرناطة.

(366) سقطت من الأصل. والزيادة من النفح: 5/481 .

(367) النفح: 5/482 : دين.

(368) سقطت من الأصل. والزيادة من النفح: 5/481 .

ثم قال في نفح الطيب(369):

وقد تمثل القاضي أبو البركات في مخاطبة له للسان الدين، بقول القائل(370):

[السريع]

1) أَيَّتُهـــا النَّفْسُ إليـــه اذهبـــي ... فحُبُّـــهُ المشْـــهُـــورُ من مـــذْهبـــي

2) أيْـــأَســـني التّـــوْبـــةَ مِنْ حُبِّـــه ... طُـــلوعُـــهُ شـــمْـــســـاً من المـغْـــرب

وقال في محل آخر عقب هذين البيتين(371):

ويغلب على ظني أنه خاطبه بذلك، عند قدومه ــ أعني لسان الدين ــ من المغرب إلى الأندلس، والله أعلم. زاد في محل آخر عقب البيت الأول(372):

وحكى غير واحد، منهم ابن داوود البلوي، أن القاضي أبا البركات، لما عزم على الرحلة إلى المشرق [من بلاده المرية](373)، كتب إليه ابن خاتمة [ما صورته](374).

[الوافر]

1) أشَـمْسَ الغَـرْب حَقّـاً ما سَمعْنـا ... بـــأنَّكَ قَـــدْ سَـــئمْتَ مِنَ الإقـــامَـــةْ

2) وأنك قـــدْ عـــزمْت عـلى طُـلوعٍ ... إلى شـــرْقٍ ســـموْت بـــه(375) عـلامةْ؟

3) لقـــدْ زلزلْت منـــا كُلَّ غُضْـــوٍ(376) ... بحـــقِّ الله لاتُقـــم الْقـــيـــامـــةْ

قال الحاكي: فحلف أبو البركات ألا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا».

انتهى.

---

(369) النفح: 428/5 .

(370) البيتان في النفح 4/14، منسوبان خطأ لابن خروف، وهما لأبي القاسم بن صحة الصقلي، كما ذكر ذالك ابن سعيد في القسم الخاص بصقلية. ونسبتهما له خطأ الجذوة: 295/1 .

(371) النفح: 482/5 .

(372) يعني مقصود أبو البقاء، خالد بن عيسى البلوي (ت قبل 770هـ) ترجمته في الإحاطة 1 500 ــ 512 الكتيبة 134 ــ 138 النفح 2 532 ــ 533 . النيل 115 الدرة 262/1 ــ 263 . رقم 397 . الجذوة: 186/1 ــ 192 . رقم 149 .

(373) زيادة من الأصل لم ترد بالنفح.

(374) زيادة من النفح: 482/5 . ديوانه: 206 . (من المستدرك).

(375) في الأصل: بلا.

(376) النفح: 482/5 : قلب.

يشير بقوله: «لقد زلزلت»، إلى طلوع الشمس من المغرب.

[استطراد عن أبي الفيض حمدون في تونس]

أقول: ولما رحل الشيخ أبو الفيض حمدون ابن الحاج إلى تونس قاصداً الحج، كتب الشيخ صالح بن حسين الكواش التونسي[377]، على حواشيه على مختصر السعد في كلام، غير أنه خوف بطلوع الشمس من المغرب. وكتب عليها أبو حفص عمر بن قاسم المحجوب[378] من قصيدة:

[الكامل]

1) يـا أيُّهـا الفَـرْدُ الذي آدابُـهُ ظَهَـرَتْ ظُهـورَ الشَّـمْسِ عِنْـدَ زَوالِها

2) لكنَّهـا مُذْ أشْـرقَتْ من مَغْـرِبٍ قـامتْ قِيـامَـةُ مُغْـرَمٍ بِمنـالِهـا

[عودة إلى أخبار أبي البركات نقلاً عن نفح الطيب]

ثم قال في النفح، نقلاً عن ابن الصباغ في ترجمة أبي البركات ما نصه[379]:

لما ورد مدينة فاس، في غرض الهناء والعزاء على أمير المسلمين، أبي بكر السعيد[380]، ابن أمير المؤمنين أبي عنان، وأبصر الدار عاصة بأرباب الدولة الفاسية، ولم يعدم منها عدا شخصه، والولد على أريكة أبيه، أنشد:

[الكامل]

1) لمـا تَبـدَّلَت المجـالسُ أوْجُهـاً[381] غَيْـرَ الَّذينَ عَهِـدْتُ من جُـلَسـائِهـا

2) ورأيْتُهـا مَحْفـوفَـةً بِسـوى الأُلى كانـوا حُمـاةَ صُـدورِها وفِنـائِهـا[382]

---

(377) فقيه تونسي ترجمته في الشجرة 1/365 . رقم 1454 (ت 1218 هـ)

(378) فقيه أديب تونسي (ت 1222 هـ) ترجمته في الشجرة. 366/1 . رقم 1459 .

(379) النفح 5/486 والمقري ينقل عمن رأى كلام ابن الصباغ، لا منه مباشرة.

(380) سلطان مريني (759 ـ 760 هـ) أخباره وترجمته في تاريخ ابن خلدون: 396/7 ـ 405 . الجذوة: 104/1 ـ 105 . رقم 25 . الاستقصا: 3/4 ـ 7 .

(381) القصة في إضاءة الراموس 2/124 ـ 125 الدرة: 166/2 . وقد أنشدها ابن الصلاح لما تصدر للتدريس بدمشق وهي ليست لأبي البركات. وقد تنسب لعلي بن أحمد الفالي (ت 448 هـ).

(382) إضاءة الراموس: 124/2 :

ورأيتها محفوفة بسوى الذي كانوا أولاء صدورها وضيائها

النفح: 487/5 : وبنائها.

3) أنشدتُ بيتاً سائراً متقدِّماً والعينُ قد شرقتْ بجاري مائِها
4) «أما القبابُ فإنها كقبابهم وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها»[383]

[استطراد صغير]

«قلت: وتذكرت هنا قول بعضهم[384]:

[الوافر]

1) سكنَّاها ليالي آمنينا وأيَّاماً تَسُرُّ النَّاظرينا
2) فلما أن جَلانا الدَّهرُ عنها تركناها لِقومٍ آخرينا»

[عودة أخرى إلى أخباره]

ثم قال[385]:

وحكى بعضهم أنه كان جالساً بدهليز بيته مع بعض الأصحاب، فدخلت زوجته من الحمام، وهي بغير سراويل، لقرب الحمام من البيت، فانكشف ساقها، فدخل خلفها مسرعاً، وغاب ساعة ثم خرج وأنشد:

[الكامل]

1) كشفتْ عن ساقٍ لها فرأيْتُهُ متلألئاً كالجوهرِ البراقِ
2) لاتعجبوا أنْ قامَ منهُ قيامتي إنَّ القيامةَ يومَ كشفِ الساقِ

وله في خديم اسمه يحيى، احتجم بمحجمة[386] واحدة:

[الطويل]

1) أراني يَحيى صَنعةً في قَفائه مُهذَّبةً لما تبادَر للبابِ
2) رأى[387] الخمسَ فيها لاتُفارقُ ساعةً[388] فصوَّرَ بالموسى بها شكلَ مِحرابِ

---

(383) البيت مقتبس.

(384) هو أمير المسلمين، المتوكل على الله، أبو حمو موسى ابن يوسف العبد وادي ولأبيات في الرحلة العياشية: 416/2-النثير: 111 .

(385) النفح: 487/5 .

(386) النفح: 487/5 : محجمة.

(387) النفح: 487/5 : أرى.

(388) في الأصل: سارعة. والتصويب من النفح: 487/5 .

ثم قال[389]:

وحدث الشيخ [القاضي][390] أبو البركات ابن الحاج، قال: كنت ببجاية بمجلس الامام ناصر الدين المشدالي، أيام قراءتي عليه، وقد أفاض طلبة مجلسه بين يديه: هل الملائكة أفضل أم الأنبياء؟ فقلت: الدليل لأن الملائكة أفضل، أن الله أمرهم بالسجود لآدم. قال: فجعل الطلبة ينظر بعضهم إلى بعض، حتى قال لي بعضهم: استند يا سيدنا. كأنه يقول: استند إلى حائط ليزول هوس رأسك. وكل منهم يقول لي نحو ذالك إزراء. وقال [لي][391] الامام ناصر الدين: أبصر، فإنهم يقولون لك الحق[392]. قال: فقلت: أتقولون أن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، أمر ابتلاء واختبار؟ قالوا: نعم. قلت: أفحتبر العبد بتقبيل يد سيده ليرى تواضعه؟ قالوا: لا. فإن ذالك من شأن العبد، دون أن يؤمر. بل السيد يختبر تواضعه بأن يؤمر بالسجود للعبد. فكذا الملائكة. لو أمرت بالسجود لأفضل منها، لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده. قال: فكأنما ألقمتهم[393] حجراً.

قال الشيخ أبو البركات:

وهذه كحكاية أبي بكر بن الطيب[394] [الباقلاني][395] مع رؤساء المعتزلة[396]. فقال له رئيسهم: ما الدليل أيها القاضي على جواز رؤية الله تعالى؟.

---

(389) النفح: 485/5 .

(390) النفح: 487/5 . الكلمة ساقطة فيه.

(391) سقطت من الأصل. والزيادة من النفح: 487/5 .

(392) بعدها في النفح: 487/5 : «وكانت لغته أن يقول: أبصر».

(393) في الأصل: ألقيتهم. والتصويب من النفح: 485/5 .

(394) أبو بكر، محمد بن الطيب متكلم أشعري (ت 403هـ) ترجمته في الوفيات: 4 269 ـ 270 . رقم 608 . الوافي 177/3 رقم 1150 . الترتيب: 44/7 ـ 70 . الديباج: 228/2 ـ 229 . المرقبة: 37 ـ 40 . الشجرة: 92/1 ـ 93 . رقم 209 .

(395) زيادة من الأصل.

(396) النفح 5 485 «مع بعض رؤساء المعتزلة، وذلك أنه اجتمع معه في مجلس الخليفة، فناظره في مسألة رؤية الباري».

فقال: قوله تعالى: «لاتدركه الأبصار(*)». فنظر المعتزلة بعض إلى بعض[397]، وقالوا: حن القاصي، وذالك أن هذه الآية هِيَ معظم ما احتجوا به على مذهبهم، وهو ساكت. ثم قال لهم[398]: أتقولون أن من لسان العرب «الحجر لايأكل»؟ قالوا: لا. قال: فلا يصح إذن نفي الصفة إلا عما من شأنه إثباتها له. قالوا: نعم. قال فكذا[399] قوله «لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَـارُ». لولا جوار إدراك الأبصـار له، لم يصحَّ نفيه. فأذعنوا لما قاله واستحسنوه. انتهى.

وفي كل من قوله وقول ابن الطيب[400] بحث مذكور في محله[401].

[طلاقه][402]

ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه[403] عائشة، بنت الوزير أبي عبد الله، محمد بن إبراهيم الكتاني المعيلي طلقة كتب نسختها بما نصه:

«بسم الله الرحمان الرحيم. وصلى الله على محمد وعلى آل محمد[404]».

يقول عبد الله الراجي رحمته، محمد، المدعو بأبي البركات ابن الحاج، خار الله له، ولطف به.

إن الله جلت قدرته، لما أنشـأ خلقه على طبائع مختلفة، وغرائز شتى، فمنهم السخي والبخيل، والجبان والكميّ[405]، والعييّ والفطن، والكيّس والعاجز، والمسامح[406]

(*) سورة الأنعام: 103 .

(397) النفح: 485/5 : «فنظر بعض المعتزلة إلى بعض».

(398) النفح: 485/5 : «أتقولون أن من لسان العرب قولك الحائط لايبصر قالوا: لا» وقد حصر مؤلف هذه الجملة.

(399) النفح: 485/5 : فكذالك.

(400) في الأصل: أبي الطيب.

(401) الكلام للمؤلف لا لصاحب النفح.

(402) النفح: 479/5 .

(403) النفح: 479/5 : بعده: الحرة العربية أم العباس.

(404) هنا تنتهي نسخة ألف.

(405) النفح: 479/5 : والشجاع والجبان.

(406) في الأصل: المحاسب. وقد فضلنا رواية النفح.

والمناقش، والمتكبر والمتواضع، إلى غير ذالك من الصفات المعروفة من الخلق، كانت العشرة لاتستمر بينهم إلا بأحد أمرين: إما بالاشتراك في الصفات أو في بعضها، وإما بصبر أحدهما على صاحبه، إذا عدم الاشتراك.

ولما علم الشارع أن بني آدم على هذا الوضع، شرع لهم الطلاق، ليستريح اليه من عيل صبره على صاحبه، توسعة عليهم، وإحساناً منه إليهم.

فلأجل العمل على هذا، طلّق كاتب هذا، عبد الله، محمد المذكور، زوجه الحرة العربية المصونة، عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب، النزيه الأصيل، الصالح الفاضل، الطاهر المقدس، المرحوم أبي عبد الله، محمد المعيلي[407]، طلقة واحدة ملكت بها أمر نفسها دونه، عارفاً قدره، قصد بذالك إراحتها من عشرته، طالباً من الله أن يغني كلا من سعته، مشهداً بذالك على نفسه، في صحته وجواز أمره، يوم الثلاثاء، أول يوم من شهر ربيع الثاني، عام إحدى وخمسين وسبع مئة. (1350/751)».

[وفاته]

ثم قال[408]:

وتوفي الشيخ القاضي أبو البركات[409]، بشوال سنة إحدى وسبعين وسبع مئة (771 1369)». انتهى ما ذكره المقري في نفح الطيب في ترجمته أبي البركات، بتقديم وتأخير، واختصار وإسقاط شيء كثير.

[أخبار أخرى له]

وحكى تلميذه، الإمام أبو جعفر، أحمد بن علي ابن خاتمة، كما في ترجمته من النفح قال[410]:

«قدم إلينا طعام بحسان الوزير الجليل، رئيس الكتاب، أبي عبد الله، محمد بن

---

(407) في الأصل: ابن المغيلي.

(408) النفح: 487/5 .

(409) النفح: 487/5 : بعدها: المذكور.

(410) النفح: 38/6 . القصة موجودة، غير أن اسم الذين حضروا الطعام وتفصيل ذالك معدوم، وكذالك بالاحاطة: 252/1 . والكتيبة: 245 . والنقل هنا بالمعنى لا باللفظ.

الخطيب، بعين الدمع خارج حضرة غرناطة، ونحن يومئذ ثلاثة نفر: أنا وشيخنا القاضي الخطيب أبو البركات ابن الحاج، والقاضي الأستاذ الفاضل، أبو جعفر ابن عبد الحق المالقي، فدعونا الخطيب أبا البركات إلى الطعام، فتحلف لعذر الصيام، فلما فرغنا أنشدته[411]:

[المتقارب]

1) دَعَوْنـا الْخطيبَ أبـا البَـركاتِ — لأكْلِ طَعـامِ الوَزيـرِ الأجَـلّ

2) وقَـدْ ضَـمَّنـا في نَـداهُ جنـانٌ — بـهِ احتفـلَ الحُسْنُ حتى كَمُـلْ

3) فَـأعْـرَضَ عَنّـا لعُـذْرِ الصِّيـامِ — ومـا كُلُّ عُـذْرٍ له مُسْتَـقـلْ

4) فـإنَّ الجِنـانَ مَحـلُّ الجزاءِ — وليْسَ الجِنـانُ محـلُّ العَـمَـلْ

فقال لي شيخنا القاضي أبو البركات[412]: لو أنشدتنيها والطعام حاضر، لأكلت معكم، إظهاراً للطلب، واسترسالاً مع أريحية الأدب».

[استطراد فقهي]

قلت: هذا على مذهب المخالف، وإلا فمذهب مالك سبعة أشياء يجب إتمامها بالشروع: أحدها الصوم. قال خليل[413]:

«وفي النفل بالعمد الحرام»[414]. وقال: «وفي وجوب قضاء القضاء خلاف»[415].

وقد جمعها بعضهم مع مالا يجب إتمامه في قوله:

[الطويل]

1) صَـلاةٌ وصَـوْمٌ ثم حَجٌّ وعُمْـرَةٌ — طَـوافٌ عُكـوفٌ وائتِمـامٌ تَحتَّـمـا

2) وفي غَيْـرِها كالطُّهْرِ والوقْفِ خَيِّرَنْ — فَمَـنْ شـاءَ فَلْيَقْطعْ، ومَنْ شـاءَ تمَّمـا

---

(411) القطعة في: النفح: 38/6 . الإحاطة: 252/1 . ديوانه: 186 . (من المستدرك).

(412) النقل هنا عن النفح: 38/6 . بالمعنى.

(413) خليل بن إسحاق، الفقيه المشهور، (ت 767 هـ) ترجمته في: الديباج: 357/1 — 358 الدرر الكامنة: 86/2 . رقم 1653 . النيل: 114 — 115 الدرة: 257/1 — 258 . رقم 388 . الفكر السامي: 243/2 — 245 . الشجرة: 223/1 . رقم 794 .

(414) مختصر خليل: 72 . وفي الأصل: حرام.

(415) مختصر خليل: 73 .

[عودة أخرى إلى أخباره]

وفي عين الدمع يقول أبو البركات، كما تقدم عن صاحب النفح[416]:

[الطويل]

1) «ألا خلِّ دَمْعَ العَيْنِ يَهْمِي بِمُقْلَتِي»

وقال ابن خاتمة أيضاً، وليس في النفح، يستشفع الى شيخه أبي البركات، في امرأة أمر بسجنها، بسبب دخولها الحمام غير مؤتزرة، وكان أمره خرج بالاشتداد في ذالك[417]:

[السريع]

1) يـا قـاضِـيـاً أَصْبَحَ ذا سـيرةٍ   بِكُـلِّ عَـدْلٍ في الورى سـارِيَـةْ
2) سـمحـك في جـاريَـةٍ ثُقِّـفَتْ   لَيْسَتْ عـلى حُكْـمِ الهُـدى جـارِيَـةْ
3) واعْجَبْ لمـا جـاء بِـهِ وَقْتُـنـا   مُـؤْتَـزِرٌ يَشْـفَـعُ في عـارِيَـةْ

وقال أيضاً، وقد بعث إليه أبو البركات بطبق فيه نوار منظمة تنظيماً عجيباً[418]:

[الطويل]

1) بـدَتْ فَجَـلا الإظْـلامُ نَيِّـر نورِهـا   فَلَوْلا الشَّـذا قُلْنـا: هِيَ الأَنْجُـمُ الزُّهْرُ
2) فَكَهْنـا بهـا حتى الصَّـباحِ تَنَعُّمـا   يُنـافِحُهـا[419] مني لك الحَمْـدُ والشُّكْـرُ
3) أقـولُ لِـنُدْمـاني، وقـد ظَـلَّ مُعْجَبـاً   بِحُسْـنِ الذي أَبْدى لها[420] النَّظْمُ والنَّثْرُ
4) وهَـلْ هُوَ إلا الرَّوْضُ حَيِّي بزَهْـرِهِ   «وَسَـاقَ الثُّرَيا في مَـلاءَتِهِ الفجرُ[421]»

وقال أيضاً:

كتب إلي شيخنا الفقيه، القاضي الجليل، العادل النزيه، الصدر الأوحد، الخطيب البليغ، الاستاد العلم الأكمل، خلف أولياء الله تعالى، ووارث درجتهم، أبو

---

(416) النفح 481/5 .

(417) لم أجد النص في ديوانه الأصلي، ولا في المستدرك عليه ضمن نفس الديوان.

(418) ديوانه: 207 . (من المستدرك). رفع الحجب: 100/1 .

(419) ديوانه: 207 : ينافحنا.

(420) ديوانه: 207 . رفع الحجب: 100/1 : بها.

(421) الشطر لذي الرمة.

البركات، محمد بن محمد، ابن الحاج البَلّفيقي، أبقى الله بركته، وحفظ في أعلى مراتب أهل العلم درجته، سائلاً ومغازلاً[422]:

1) يـا مَنْ إذا تَنـافَـرَتِ المـعـاني فهُـوَ لهـا حَكَـمٌ عـادِلُ

2) أيُّهـمـا أثْقـلُ عـلى المحِبِّ الـرقـيـبُ أم العـاذِلُ؟

وقد ظهر لي من الأثقل، لكن أردت أن يتأيد بما من ذالك يعقل، مما عن مثلك من الأخبار ينقل. لازلت للمعاني خِبْئاً، ولطلابها رِدْئاً: فأجبته جارياً من طريقة الأدب، على المهيع الذي سلك، والمذهب الذي ذهب، وهو: «الفصل العادل، بين الرقيب والعاذل». تأليف مستقل. أنظره.

وقال الشيخ أحمد بابا السوداني في كفاية المحتاج[423]، في ترجمة أبي البركات ما نصه:

[ترجمته عند أحمد بابا السوداني التنبكتي]

قال الحضرمي[424]:

شيخنا كان فقيهاً جليلاً، أستاذاً خطيباً بليغاً، قاضياً عدلاً متفننا، عالماً صالحاً فاضلاً، عماد الدين، قاضي القضاة، علم الرواية، وفخر الولاية، إماماً خاشعاً، أصيلاً شهيراً معظماً.

قال ابن خلدون[425]:

شيخنا شيخ المحدثين والفقهاء، والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس، سيد أهل العلم بالاطلاق، والمتفنن في أساليب المعارف، وآداب الصحبة للملوك فمن دونهم.

---

(422) في ورن البيتين حلل. وهما في: الإعلام: 436/4 . (عن رياض الورد)

(423) الكفاية: 149 .

(424) أبو عبد الله، محمد بن براهيم. عالم مغربي من أهل القرن الثامن، وتوفي في أواخره انظر بحثاً في تحقيقه في. الفهرس: 350/1 ـــ 351 . دليـل المؤرخ: 53/1 ـــ 54 . التشوف: 8 ـــ 10 والنص في: الكفاية: 149 . النيل: 254 . مع تصرف في اللفظ.

(425) تاريخ ابن خلدون: 535/7 ـــ 536 . مع تصرف في اللفظ.

قال أبو زكرياءَ السراج[426]:

شيخنا: كان فقيهاً قاضياً، وأستاذاً مقرئاً، عالماً محدثاً، راوية مكثراً، محققاً متخلقاً، سليل العلماء، ونتيجة الأولياء، ابن الفقيه الجليل، الصالح الزاهد، أبي بكر، ابن الأستاذ المحدث، الراوية المتبرك به، أبي إسحاق.

كان نحوياً حافظاً، متفنناً صوفياً، حسن التلاوة والمجالسة، مع خشوع وبكاء، صدراً في عدول القضاة وأئمة الرواية، من ذوي الأحساب والبيوت الرفيعة.

رحل في العلم قديماً وحديثاً، وحصَّل المعقول والمنقول، فطلع شمساً منيراً. أخذ عن عمه الفقيه المحدث، أبي القاسم، وابن الزبير وابن رشيد، والقاضي ابن فركون[427]، وأبي الحسن القيجاطي[428].

إلى أن قال[429]:

والفقيه الصالح، أبي محمد، أحمد بن حليل السكوني، في كثيرين. ولهم سماع كثير. ألّف في هذه الطريقة من هو أكبر منه. والله أعلم بهذا الشأن. انتهى.

قال الحَضْرَمي[430]:

كان ــ أي الشيخ أبو البركات ابن الحاج ــ على جلالته وتبحره في المعارف، شاعراً مفلقاً، وأديباً بارعاً، وخطيباً مصقعاً، له ديوان كبير أتى فيه بعجب عجاب[431].

وكان مذهبه ألا يخبر بسنه ولا مولده. وسمعته ينشد وقد سئل عن ذلك:

[الكامل]

1) احْفَظْ لسانَكَ لاتَبُحْ بثلاثَةٍ ... سِنٌّ ومالٍ، إن سُئِلْتَ، ومَذْهَبِ

(426) النص في: النيل: 254 ــ 255 . مع تصرف في اللفظ.

(427) أبو جعفر، أحمد بن محمد القرشي الفقيه قاضي الجماعة (ت 729 هـ) ترجمته في المرقبة: 138 ــ 139 . الاحاطة: 153/1 ــ 157 . النيل: 64 ــ 65 .

(428) أبو الحسن، علي بن عمر الكتاني أديب عالم (ت 730 هـ) ترجمته في الاحاطة: 4 104 ــ 107 الكتيبة 37 ــ 40 الديباج 2 110 . البغية 180/2 رقم 174 . النيل 255 (مع تصرف في النص). الدرة 3 239 رقم 1257 . النفح: 507/5 ــ 509 .

(429) الكفاية: 149 .

(430) الكفاية: 149 . النيل: 255 . مع تصرف في اللفظ.

(431) في الأصل: عجب العجاب.

2) فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة   بمكفر وبحاسد ومكذب

توفي عن نحو تسعين سنة[432]. [و][433] كانت جنازته حافلة، وتبعه ثناء حسن.

وقال في الكفاية[434] أيضاً، في ترجمة الامام المقري[435]:

لما ملك أبو عنان تلمسان، رحل معه لفاس وولاه قضاءها. ثم سخطه وعزله، ثم بعثه رسولاً للأندلس، فأبى من الرجوع، فأنكره على صاحب الأندلس وبعث فيه، فتشفع فيه صاحب الأندلس، وأوفده مع جماعة شيوخ العلم. منهم القاضيان: شيخ الدنيا جلالة وعلماً ورياسة، أبو القاسم الشريف السبتي، وشيخ المحدثين والفقهاء، والأدباء والصوفية والخطباء، سيد العلماء بإطلاق، أبو البركات ابن الحاج، فوفدوا به على السلطان شافعين، على عظيم تشوفه إليهما، فتجت[436] الشفاعة، وكان يوماً مشهوداً. انتهى.

[ترجمته عند أبي الحسن النباهي]

وقال الشيخ القاضي أبو الحسن النباهي، في كتابه: «المرقاة العليا، فيمن يستحق القضاء والفتيا»، في حق صاحب الترجمة ما نصه[437]:

ومن مشاهير القضاة، الشيخ أبو البركات، وهو محمد بن محمد بن محمد بن ابراهيم، بن محمد بن إبراهيم[438] السُّلَمي، من ذرية العباس بن مرداس، المعروف في بلده بابن الحاج، وفي غيره بالبَلَّفيقي. وبلَّفيق حصن من عمل مدينة ألمرية. وبيته بيت دين وفضل.

---

(432) أي إنه ولد حوالى سنة 1282/681 .

(433) لم ترد بالأصل.

(434) الكفاية: 108 . مع تصرف في اللفظ.

(435) المقري الجد: أبو عبد الله، محمد بن محمد العلامة الأديب، قاضي الجماعة (ت 759 هـ) ترجمته في: الاحاطة 191/2 — 226 المرقبة. 169 — 170 . تاريخ ابن خلدون. 7 534 — 536 . النيل: 249 — 254 . النفح: 203/5 . السلوة: 271/3 — 273 .

(436) يمكن أن تقرأ: فتجمت.

(437) المرقبة: 164 — 167 .

(438) المرقبة: 164 : ابن خلف.

ذكر ابن الأبار[439] جده الأعلى أبا إسحاق، وأطنب في الثناء عليه بالخير والصلاح.

وكان هذا الشيخ المترجم عنه، ممن نشأ على طهارة وعفاف. اجتهد في طلب العلم صغيراً وكبيراً. وعبر البحر إلى بجاية، فأدرك بها المدرس المعمر، أبا علي، منصور بن عبد الحق المشدالي، وحضر مجالسه العلمية، وأخذ عنه وعن غيره من أهلها.

ثم[440] أتى إلى مراكش، وتجول فيما بينها من البلاد، وآثر السكنى بسبتة، على طريقة جده إبراهيم الأقرب إليه، إذ كان أيضاً قد استوطنها.

ثم عاد إلى الأندلس، فأقام منها بمالقة، واختص بخطيبها الشيخ الولي، أبي عبد الله الطنجالي[441]، وروى عنه وعن غيره، وقيد الكثير بخطه، ورام في ابتداء طلبه، التشبه بالقاضي أبي بكر بن العربي[442] في لقاء العلماء، ومصاحبة الأدباء، والأخذ من المعارف كلها، والتكلم في أنواعها، والإكثار من ملح الحكايات، وطرف الأخبار، وغرائب الآثار، حتى صار حديثه مثلاً في الأقطار. وهو مع ذلك، على شدة انطباعه، وكثرة ردعته، سريع العبرة عند ذكر الآخرة، قريب الدمعة.

وكان كثير الضبط لحاله، منهمكاً بالنظر في تثمير ماله، آخذاً في نفقته بقول سحنون بن سعيد[443]: ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده. ولا يتكلف أكثر ما في وسعه.

---

(439) التكملة: 1/166 . رقم 434 .

(440) المرقبة: 164 : ثم إنه.

(441) محمد بن أحمد الهاشمي (ت 724 هـ) ترجمته في الإحاطة 3 245 — 248 المرقبة: 155 — 160 . النفح: 5/389 — 390 . الدرة: 2/113 . رقم 560 .

(442) فقيه مشهور (ت 543 هـ) ترجمته في الصلة 2 588 — 589 رقم 1297 بغية الملتمس 82 — 88 رقم 179 المعرب 1 254 — 255 الديباج 2 252 — 256 المرقبة 105 — 107 السمع 2 25 — 43 الأزهار 3 62 86 — 95 الجذوة 1/260 — 262 . رقم 268 . الشجرة: 1/69 — 70 . رقم 80 .

(443) فقيه مالكي مشهور (ت 240 هـ) ترجمته في المدارك 4 45 — 88 طبقات علماء إفريقية 101 — 104 الديباج 2 30 — 40 رياض النفوس 1 345 — 384 المرقبة 28 — 30 .

[كلامه]

إلى أن قال[444]:

ومن كلامه، رحمه الله: من اقتصر على التعييش من مرافق الملوك، صاع هو ومن له، وشمله القلّ، وحامره الذلّ. اللهم إلا من كان من القوة بالله، قد بلغ من[445] الزهد في الدنيا إلى الحد الذي يكسبه الراحة بالخروج من[446] متاعها، وترك شهوتها، قليلها وكثيرها، مالها وجاهها، فأمر[447] آخر. ومن لنا بالعون على تحصيل هذا المقام، ولا سيما في هذا الزمان. ولم نسمع ممن قاربه من الولاة المتقدمين بالأندلس، إلا ما حكي عن إبراهيم بن أسلم (*). وقد أراد الحكم المستنصر بالله رياضته، فقطع عنه جرايته، فكتب إليه عند ذالك(**):

[الطويل]

1) تزيدُ على الإقلال نفسي نزاهة — وتأنسُ بالسلوى، وتقوى مع الفقر

2) فمن كان يخشى صَرْفَ دهرٍ فإنني — أمنتُ بفضل الله من نُوب الدّهر

فلما قرأ الحكم البيتين، أمر برد الجراية وحملها إليه، فأعرض عنها، وتمنع من قبولها، وقال: إني، والحمد لله، تحت جراية من إذا عصيته لم يقطع عنّي جرايته، فليفعل[448] الأمير ما أحب. فكان الحكم بعد ذالك يقول: لقد أكسبنا ابن أسلم بمقالته مخزاة عظم منا موقعها، ولم تسهل علينا المقارضة بها.

[وظائفه]

وتولى الشيخ أبو البركات القضاء في بلاد عديدة. منها مالقة، تقدم بها بعد

---

(444) المرقبة: 164 . وقد أسقط المؤلف فقرة صغيرة.

(445) في الأصل: في

(446) المرقبة: 164 . عن.

(447) المرقبة : 164 : بأمر.

(*) إبراهيم بن أسلم الافريقي الورق. (ت ق 4 هـ) ترجمته في التكملة (الجزائر) 212 رقم 455

(**) البيتان في: التكملة: (الجزائر) 212 ، رقم 455 .

(448) في الأصل: فليقل. وفضلنا رواية المرقبة: 164 .

شيخنا أبي عمرو ابن منظور[449]، وذلك صدر عام خمسة وثلاثين وسبع مئة. (735/1334) ثم نقل إلى قضاء الجماعة بحضرة غرناطة، والخطابة بها. وكان مستوفياً لشروط الخطبة وجوباً وكمالاً، من صورة وهيئة، وطيب نغمة، وكثرة خشوع، وتوسط إنشاء. وشهر بالصرامة[450] في أحكامه، والنزاهة أيام نظره.

ثم أخر من[451] قضاء الحضرة، وأقام بها مدة، إلى أن صير إلى مدينة المرية، ثم أعيد إلى قضاء الجماعة. واستعمل في السفارة بين الملوك، فصحبه[452] السداد، ورافقه الإسعاد.

وكان في أطواره سريع التكوين، طامعاً في الوصول إلى مقام التمكين، كثير الانتقال من قطر إلى قطر، ومن عمل إلى عمل، من غير استقرار إلى منزل واحد[453]. ولذلك قال في أبياته التي أولها[454]:

[البسيط]

1) ماذا[455] تقولُ، فَدَتْكَ النَّفْسُ، في حالي ... يُفْنِي زَماني في حَلٍّ وتَرْحالِ؟!

وكان التكلم بالشعر[456] من أسهل شيء عليه، في كثير مراجعاته، وفنون مخاطباته. وله منه ديوان كبير، يحتوي من ضروب الأدب على جد وهزل، وسمين وجزل، سماه بـ «العذب والأجاج»، وكتاب وسمه بـ «المؤتمن، في أنباء من لقيه من أبناء الزمن».

---

(449) عثمان بن محمد القيسي المالقي الفقيه القاضي (ت 735 هـ) ترجمته في الديباج 2/ 90 ـ 91. الدرر 3/ 208 ـ 209 رقم 1210 شجرة 2/ 136 ـ 137 رقم 1635 الإحاطة 4/ 85 ـ 87. الكتيبة: 114. المرقبة: 147.

(450) في الأصل: الصراحة. والتصويب من المرقبة: 165.

(451) المرقبة: 165: تأخر عن.

(452) في الأصل: فصحب. والتصويب من المرقبة: 165.

(453) المرقبة: 165: «من غير استقرار منزل أو محل واحد».

(454) النفح: 5/479.

(455) في الأصل والمرقبة: 165: إذا. والتصويب من النفح: 5/479.

(456) في الأصل: في الشعر. والتصويب من المرقبة: 165.

[وفاته]

واستقر أخيراً بمدينة ألمرية، قاضياً وخطيباً، إلى أن توفي بها في شهر رمضان، عام اثنين وسبعين وسبع مئة، (1370/772)[457] من غير عقب ذكر.

وكان، أيام حياته، ممن اكتسب المال، وتمتع من النساء بما لم يتأتَّ في قطره لأمثاله من الفقهاء. وهو من أصحابنا القدماء، الذين ورثنا ودَّهم، وشكرنا عهدهم، رحمه الله، وغفر له وأرضاه.

إلى أن قال، بعد أن ذكر مقطعات تقدمت[458]: «ومن شعره:

[الطويل]

1) وإنّي لخَيْرٌ من زماني وأهلِهِ	على أنّني للشّرّ أوّلُ سائقِ [459]
2) لحى الله عصراً قد تقدّمتُ أهلَهُ	فتلك، لعمرُ الله، إحدى البوائقِ»

---

(457) المرقبة 166 وفيه أنه توفي سنة 773 ، ولعل هذا خطأ مطبعي في الأرقام الهندية.

(458) المرقبة: 167 .

(459) المرقبة: 167 : سائق.


الباب الرابع



الباب الرابع

في انتقالهم من جزيرة الأندلس إلى بر هذه العدوة، طلباً للأمن على الأنفس.

تقدم أن الأندلس قد كانت عمرت فيها أسواق فيما لا يحصى من الفنون، وقوي بها أمر المسلمين، حتى كان العدو لا يقدر أن يطمع لهم في كراع الشاة، بل يخاف ويطلب الأمن جهده. ثم وقع الاختلاف بين المسلمين، الذي هو سبب كل شر، وجعلوا يوهنون بعضهم بعضاً بالفتن، حتى اتسع الخرق على الراقع. فكانوا كما قيل:

[الرمل]

1) رُبَّ قومٍ قد أناخوا عيشَهُمْ   بذُرى مجدهِمُ لما اتّسقْ

2) غفل الدّهرُ زماناً عنهُمُ   ثم أبكاهُمْ دماً حين نطقْ

قال العلامة رئيس الكتاب، القاضي الوزير، أبو يحيى ابن عاصم، شارح التحفة في كتابه «جنة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى». وهو كتاب عجيب جداً ألفه عندما رأى اختلال أمر الجزيرة، أعادها الله دار إسلام، وأخذ النصارى، دمرهم الله، معظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غرناطة وما يقرب منها، مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر ما نصه[1]:

[سبب ضياع الأندلس عن كتاب «جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى»]

«من استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أن النصارى، دمرهم الله، لم يدركوا في المسلمين ثأراً، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً، ولم يُخرِّبوا من

---

(1) النص في الأزهار 1: 50 ـ 51، نفح 4: 508، ونقله بعض عن الأزهار.

الجزيرة منازل وديارا، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والحلالة بين حماتها في الفتن المبيرة.

ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة، والعمياء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة، فالحرب إذ ذاك سجال، ولله في إقامة الجهاد في سبيله رجال، وللمعاناة في عرض المدافعة ميدان رحب ومجال، وروية وارتجال». انظر تمامه [2].

[أوائل المدن الضائعة]

وأول ما استولى عليه العدو من القواعد العظام طليطلة [3] وقد قال بعض الشعراء حين أخذت، يخاطب أهل الأندلس:

[البسيط]

1) يا أهل أندلس شدّوا رحالكمُ [4]	فما المُقام بها إلا من الغلط
2) السِّلكُ يُنثر من أطرافه وأرى	سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
3) من جاور الشرّ لا يأمنْ بوائقه	كيف الحياة مع الحيّات في سفط؟

ولما استولى العدو على معظم بلادها مثل قرطبة ومرسية، وطليطلة وبلنسية، وغيرها مما يطول ذكره، على وجه الصلح والعنوة والاستسلام، [وضربوا الخراج على من غلبوا عليه، وانحاز أهل الاسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة وغيرها، وضاق الملك بعد اتساعه، وصار تيار العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً، ويهصر من دوح تلك البلاد غصناً، قال العلامة خاتمة أدباء الأندلس] [5]، أبو الطيب، صالح بن شريف الرندي [6]، رحمه الله، يندبُ بلادها، ويبعث العزائم ويحركها من أهل الاسلام لنصرة الدين، وإنقاذ البلاد من يد الكافرين، ولسان الحال ينشده:

---

(2) الأزهار: 51/1 ـ 55 . النفح: 508/4 ـ 510 .

(3) الأزهار: 46/1 . وقد سقطت طليطلة سنة 1082/475 .

(4) تنسب الأبيات لابن العسال الأندلسي، وفيها اختلاف كبير في ارواية النفح 4 352

(5) هذه الفقرة ممحوة في ميم. وهي من النفح: 510/4 .

(6) المتوفى سنة 684 هـ ترجمته في: الذيل 4 136 ـ 137 رقم 623 الاحاطة: 360/3 ـ 376 .

[الوافر]

1) لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ولكنْ لاحياةَ لمن تُنادي

[نونية أبي الطيب، صالح بن شريف الرندي][7]

[البسيط]

1) لكُلِّ شيءٍ، إذا ما تمَّ، نُقصانُ فلا يُغرُّ بطيبِ العيْشِ إنسانُ
2) هيَ الأمورُ، كما شاهدتها، دُولٌ من سَرَّهُ زمَنٌ، ساءَتْهُ أزْمانُ
3) وهذه الدارُ لاتُبقي على أحدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
4) يُمزِّقُ الدَّهرُ حتماً كُلَّ سابغَةٍ إذا [نبتْ][8] مَشْرَفيّاتٌ وخُرصانُ
5) وينتضي كُلَّ سيْفٍ للفَناءِ وَلَوْ كانَ ابْنَ ذي يَزَنٍ، والغِمْدُ غِمْدانُ
6) أيْنَ المُلوكُ ذوو التيجانِ من يَمَنٍ وأين منها أكاليلٌ وتيجانُ؟!
7) وأين ما شادَهُ شَدّادُ في إرَمٍ وأين ما ساسَهُ في الفُرسِ ساسانُ؟!
8) وأين ما حازَهُ قارونُ من ذَهبٍ وأين عادٌ وَشَدّادٌ وقَحْطانُ؟!
9) أتى على القَوْمِ أمْرٌ لامَرَدَّ لهُ حتى قَضَوْا، فكأنَّ القَوْمَ ما كانُوا
10) وصار ما كانَ منْ مُلْكٍ ومن ملكٍ كما حَكى عن خَيالِ الطَّيْفِ وَسْنانُ
11) دارَ الزَّمانُ على دارا وقاتِلِهِ وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ
12) كأنَّما الصَّعْبُ لم يسْهلْ له سببٌ يوماً، ولا مَلَكَ الدُّنْيا سُليْمانُ
13) فجائعُ الدنيا أنواعٌ مُنوّعةٌ وللزَّمانِ مَسرّاتٌ وأحْزانُ
14) وللحوادث سُلْوانٌ يُهوّنُها[9] وما لما حَلَّ بالإسْلامِ سُلْوانُ
15) دهى الجزيرَةَ أمْرٌ لا عَزاء لهُ هَوى لهُ أُحُدٌ، وانْهَدَّ ثَهْلانُ[10]
16) أصابها العَيْنُ في الإسْلام فامْتحنتْ[11] حتَّى خَلَتْ مِنْهُ أقْطارٌ وبُلْدانُ
17) فاسْألْ بلنسيةَ ما شأنُ مُرْسيةٍ وأيْنَ شاطِبَةٌ أم أيْنَ جَيّانُ؟
18) وأين قُرْطُبةٌ دارُ العُلومِ فكَمْ من عالِمٍ قد سَما فيها لَهُ شانُ

---

(7) القصيدة في: الأزهار: 47/1 ـ 50 . النفح: 487/4 ـ 488 .

(8) مابين معقوفين ممحو في ميم.

(9) النفح: 487/4 : يسّهلها.

(10) هذا البيت والأربعة أبيات بعده ممحو في ميم.

(11) الأزهار: 48/1 : فارتزئت.

19) وأين حِمْصٌ وما تحويهِ من نُزَهٍ ... ونَهرُها العَذْبُ فيّاضٌ ومَلآنُ
20) قواعِدُكُنّ أركانَ البِلادِ فَهَل[12] ... عَسى البَقاءُ، إذا لم تَبْقَ أركانُ؟!
21) تَبكي الحنيفيةُ البيضاءُ مِن أسَفٍ ... كما بَكى لِفِراقِ الإلفِ هَيمانُ
22) على دِيارٍ من الإسلامِ خالِيَةٍ ... قد أقْفَرَتْ، ولها بالكُفرِ عُمرانُ
23) حَيثُ المساجِدُ قد صارَتْ كنائس ما ... فِيهِنَّ إلا نَواقيسٌ وصُلْبانُ
24) حتى المحاريبُ تَبكي، وهْيَ جامِدَةٌ ... حتى المنابِرُ تَرثي، وهْيَ عيدانُ
25) يا غافِلاً، ولهُ في الدَّهرِ مَوْعِظَةٌ ... إنْ كُنتَ في سِنَةٍ، فالدَّهرُ يقظانُ
26) وماشِياً مَرِحاً يُلهيهِ مَوْطِنُهُ ... أبَعْدَ حِمصٍ تغُرُّ المَرْءَ أوطانُ؟!
27) تِلكَ المُصيبَةُ أنستْ ما تقدَّمها ... وما لها، طولَ الدَّهرِ، نِسيانُ
28) يا أيُّها المَلِكُ البيضاءُ رايَتُهُ ... أدرِكْ بسَيفِكَ أهلَ الكُفرِ. لا كانوا[13]
29) يا راكِبينَ عِتاقَ الخَيلِ ضامِرَةً ... كأنها في مَجالِ السَّبْقِ عِقْبانُ
30) وحامِلينَ سُيوفَ الهِندِ مُرْهَفَةً ... كأنها في ظَلامِ النَّقْعِ نيرانُ
31) وراتِعينَ وراءَ البَحرِ في دَعَةٍ ... لَهُمْ بأوطانِهِمْ عِزٌّ وسُلطانُ
32) أعِندَكُمْ نَبأٌ مِنْ أهلِ أندلسٍ ... فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ؟!
33) كَمْ يَستغيثُ بنو المُستضعفينَ وَهُمْ ... أسرى وقتلى، فما يَهتَزُّ إنسانُ
34) ماذا التّنافُرُ[14] في الإسلامِ بينكُمُ ... وأنتُمُ، يا عِبادَ اللهِ إخوانُ؟!
35) ألا نُفوسٌ أبيّاتٌ لها هِمَمٌ ... أما[15] على الخَيرِ أنصارٌ وأعوانُ؟!
36) مَنْ ذا[16] لِذِلّةِ قَومٍ بَعدَ عِزِّهِمُ ... أحالَ حالَهُمُ كُفرٌ وطُغيانُ؟!
37) بالأمسِ كانوا مُلوكاً في مَنازِلِهِمْ ... واليومَ هُمْ في بِلادِ الكُفرِ عُبدانُ
38) فلَوْ تَراهُمْ حَيارى لادَليلَ لَهُمْ ... عليهِمُ من ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ
39) ولو رأيتَ بُكاهُمْ عِندَ بَيعِهِمُ ... لهالكَ الأمرُ، واستهوتْكَ أحزانُ
40) يا رُبَّ أمٍّ وطِفلٍ حِيلَ بَينَهُما ... كما تُفَرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ

---

(12) النفح: 487/4 . الأزهار: 48/1 : فما.
(13) سقط البيت من النفح.
(14) النفح: 488/4 . الأزهار: 49/1 : التقاطع.
(15) في الأصل: سا. والتصويب من النفح: 488/4 الأزهار: 49/1
(16) النفح: 488/4 . الأزهار: 49/1 : يا من.

41) وطِفْلَةٍ ما رأتْها الشَّمسُ، إذْ طَلَعَتْ[17]   كأنّمـا هِيَ يـاقـوتٌ ومَـرْجـانُ
42) يَقودُها العِلْجُ لِلْمَكْروهِ مُكْرهـةً   والعَيْـنُ بـاكِيَـةٌ، والقَـلْبُ حَيْـرانُ
43) لِمِثْلِ هذا يَذوبُ القَلْبُ مِنْ أَسَفٍ   إن كانَ في القَـلْبِ إسْـلامٌ وإيمـانُ

[سينية أبي عبد الله ابن الابار، في استصراخ الخليفة الحَفْصيّ]

وقال الفقيه الكاتب أبو عبد الله، محمد بن عبد الله القضاعي، المعروف بابن الأبار، حين زحف الطاغية إلى بلنسية، يستصرخ بالخليفة أبي زكريا، يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص[18]:

[البسيط]

1) أدْرِكْ بخَيْـلك خَيْلِ الله أندَلُسـاً[19]   إنَّ السَّبيـلَ إلى مَنجـاتِها دَرَسـا
2) وَهَبْ لها مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ ما الْتَمَسَتْ   فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْـرِ مُلْتَمَسـا
3) وحاشِ مِمّا تُعانيـهِ حُشاشَتُهـا   فطـالمـا ذاقَتِ البَـلْوى صَباحَ مَسـا
4) يـا لَلْجَـزيرَةِ أضْحى أهْلُهـا جَزَراً   للحـادِثـاتِ[20] وأمْسـى جَدُّها تَعِسـا
5) في كُلِّ شـارِقَةٍ، إلمـامُ[21] بائقَـةٍ   يَعودُ مَـأتَمُهـا عِنْـدَ العِدا عُرُسـا
6) وكُلِّ غـارِبَـةٍ، إجْحـافُ نـائِبَـةٍ   تَثْـني الأمـانَ حِذاراً، والسُّـرورَ أسـى
7) تَقـاسَـمَ الرومُ، لانالَتْ مقاسِمُهُمْ   إلا[22] عقـائِلَهـا المحجـوبَـةَ الأُنُسـا
8) وفي بَـلَنْسِيَـةٍ منهـا وقُـرْطُبَـةٍ   مـا يَنْسِفُ[23] النَّفْسَ أو يَنْزِفُ النَّفَسـا
9) مدائنٌ حَـلَّهـا الإشْـراكُ مُبْتَسِمـاً   جَـذْلانَ وارْتَحَـلَ الإيمـانُ مُبْتَئِسـا
10) وصَيَّرَتْهـا العوادي العـائِثاتُ[24] بها   يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ منها ضِعْفَ ما أنِسـا

---

(17) الأزهار 50/1 بيروت النفح 4 488 «وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت».

(18) أبو سلطان حفصي (625 — 647 هـ). ترجمته وأخباره في تاريخ ابن خلدون: 380/6 — 401. البيان المغرب: 290 — 395. (قسم الموحدين).

(19) القصيدة في الذيل 6 259 — 265 الأزهار 207/3 — 210. النفح: 457/4 — 460. تاريخ ابن خلدون: 386/6 — 388. ديوانه: 395 — 400.

(20) تاريخ ابن خلدون: 386/6 : للنائبات.

(21) الذيل: 259/6 : إلمام.

(22) الأزهار: 207/3 : ولا.

(23) تاريخ ابن خلدون: 386/6 : ما ينهب.

(24) الذيل: 260/6 الأزهار: 207/3 . ديوانه. 396 : العائثات.

11) فمن دَساكِرَ كانَتْ دونَها حُرُماً[25] ومن كنائِسَ كانَتْ قَبلَها كُنُسا

12) يا[26] لَلْمَساجِدِ عادَتْ لِلْعِدا[27] بِيَعاً ولِلنِّداءِ غَدا[28] أثْناءَها جَرَسا

13) لَهْفاً[29] عليها إلى اسْتِرْجاعِ فائِتِها مدارِساً لِلْمَثاني أصْبَحَتْ دُرُسا

14) وأرْبُعاً نَمْنَمَتْ أيْدي[30] الرَّبيعِ لها ما شِئْتَ من خِلَعٍ مَوْشِيَّةٍ وكُسا

15) كانت حدائِقَ للأحْداقِ مونِقَةً فصَوَّحَ النَّضْرُ من أدْواحِها[31] وعسا

16) وحالَ ما حَوْلَها من منظرٍ عَجَبٍ يَسْتَجْلِسُ[32] الرَّكْبَ، أو يسترْكِبُ الحُلَسا

17) سُرْعانَ ما عاثَ جَيْشُ[33] الكُفْرِ واحرَبا عَيْثَ الدَّبا في مَغانيها التي كبسا

18) وابْتَزَّ بِزَّتَها مما تَحَيَّفَها تَحَيُّفَ الأسَدِ الضَّاري لما افْتَرَسا

19) فأيْنَ عَيْشٌ جَنَيْناهُ بها خَضِراً وأين غُصْنٌ جَنَيْناهُ[34] بها سَلِسا

20) مَحا محاسِنَها طاغٍ أُتيحَ لها ما نامَ عن هَضْمِها حيناً ولا نَعَسا

21) ورَجَّ أرْجاءَها لما أحاطَ بها فغادَرَ الشُّمَّ من أعْلامِها خُنُسا

22) خَلالَهُ الجَوُّ فامْتَدَّتْ يَداهُ إلى إدْراكِ ما لَمْ تَطَأْ[35] رِجْلاهُ مُخْتَلِسا

23) وأكْثَرَ الزَّعْمَ بالتَّثْليثِ مُنْفَرِداً ولو رَأى رايةَ التَّوحيدِ ما نَبَسا

24) صِلْ حَبْلَها أيُّها المولى الرحيمُ[36] فما أبْقى المِراسُ لها حَبْلاً ولا مَرَسا

25) وأحْيِ ما طَمَسَتْ منها العِداةُ كما أحْيَيْتَ من دَعْوَةِ المَهْدِيِّ ما طُمِسا

---

(25) ديوانه: 396 : حرسا.

(26) تاريخ ابن خلدون: 386/6 : ما.

(27) مم: قبلها.

(28) تاريخ ابن خلدون: 386/6 : يُرى.

(29) في الأصل: طفا.

(30) الذيل: 260/6 . ديوانه: 396 . يمنى.

(31) الذيل: 260/6 : أزهارها.

(32) تاريخ ابن خلدون: 386/6 : يستوقف.

(33) في الأصل: شيخ.

(34) في الأصل: عصر جنيناه. النفح: 458/4 : عصر جليناه وفضلنا رواية الأزهار: 208/3 الذيل 260/6 . تاريخ ابن خلدون: 387/6 .

(35) تاريخ ابن خلدون: 387/6 : مالم تنل.

(36) في الأصل: الكريم. وفضلنا رواية المصادر الأصلية.

26) أيّان [37] سِرْت [38] لنصرِ الحقّ مُنتبِهاً … وبتّ من نورِ ذاكَ الهُدى مُقْتبِسا

27) وقُمْتَ فيها بأمرِ اللهِ مُنتصِراً … كالصّارِمِ اهتزّ، أو كالعارِضِ انْبَجَسا

28) تمحو الذي كتَف [39] التّجسيمُ من ظُلمٍ … والصُّبْحُ ماحِيَةٌ أنوارُهُ الغَلَسا

29) وتقْتضي المَلِكَ الجبّارَ مُهْجَتَهُ … يَوْمَ الوَغَى جَهْرَةً [40] لاتَرْقُبُ الخَلَسا

30) هذي رَسائِلُها [41] تدعوكَ مِنْ كَثَبٍ … وأنت أفْضَلُ مَرْجُوٌّ لمنْ يَئِسا

31) وَافَتْكَ جارِيَةً، بالنُّجحِ راجِيَةً … منك الأميرَ الرِّضى، والسيِّدَ النَّدِسا

32) خاضَتْ خضارَةَ يُعْليها ويخفضُها … عُبابُهُ، فتُعاني اللينَ والشَّرَسا

33) وربما سَبَحَتْ، والريحُ عاتِيَةٌ … كما طَلَبْتَ بأقصى شَدِّهِ الفَرَسا

34) تؤُمُّ يحيى بنَ عَبْدِ الواحِدِ بنِ أبي … حفصٍ مُقبِّلَةً مِنْ تُرْبِهِ القُدُسا [42]

35) ملكٌ تقلَّدَتِ الأملاكُ طاعَتَهُ … ديناً ودُنْيا، فغَشّاها الرِّضى لِبَسا

36) مِنْ كُلِّ غادٍ إلى [43] يُمْناهُ مُستَلِماً … وكُلِّ صادٍ إلى نُعْماهُ مُلْتَمِسا

37) مُؤيَّدٌ، لو رَمى نَجْماً لأثْبَتَهُ … ولَوْ دعا أُفُقاً، لبّى وما احْتَبَسا

38) تاللهِ إنَّ الذي تُزْجي [44] السُّعودُ لَهُ … ما جالَ في خَلَدٍ يوماً وما هَجَسا [45]

39) إمارةٌ يَحْمِلُ المِقْدارُ رايَتَها … ودَوْلَةٌ عِزُّها يَستصْحِبُ القَعَسا

40) يُبْدي النّهارُ بها من ضَوْئِهِ شَنَباً … ويُطْلِعُ الليلُ من ظَلْمائِهِ لَعَسا

41) ماضي العزيمةِ، والأيامُ قد نَكَلَتْ … طَلْقُ المُحيّا، وَوَجْهُ الدَّهْرِ قد عَبَسا [46]

42) كأنه البدْرُ، والعَلْياءُ هالَتُهُ … تَحُفُّ مِنْ حَوْلِهِ شُهْبُ القَنا حَرَسا

---

(37) الذيل 6 261 تاريخ ابن خلدون 387.6 . الأزهار 208.3 . ديوانه 397 . النفح 458/4 : أيام.

(38) الذيل 6 261 . تاريخ ابن خلدون 6 387 النفح 458/4 : صرت.

(39) في الأصل كشف وهو تصحيف لكثف وهو رواية الذيل 216/6 وباقي المصادر. كثب

(40) الذيل: 261/6 : جهرة. والبيت ساقط من تاريخ ابن خلدون.

(41) الذيل: 261/6 : ديوانه: 397 : وسائلها.

(42) البيت ساقط في: ألف وباء.

(43) ديوانه: 398 : على.

(44) النفح: 458/4 . الأزهار: 209/3 . ديوانه: 398 : ترجي.

(45) البيت ساقط في: تاريخ ابن خلدون. ديوانه: 398 : ولا هجسا.

(46) البيت ساقط في تاريخ ابن خلدون.

43) تَدْبيرُهُ وسِعَ الدنيا وما وَسِعَتْ … وعُرْفُ مَعْروفِهِ آسى[47] الوَرى وأَسا
44) قامَتْ على العَدْلِ والإحْسانِ دَوْلَتُهُ … وانْتَشَرَتْ من وُجودِ الجودِ ما رُمِسا
45) مُبارَكٌ هَدْيُهُ، بادٍ سَكينَتُهُ … ما قامَ إلا إلى حُسْنى ولا جَلَسا
46) قد نَوَّرَ اللهُ بالتَّقْوى بَصيرَتَهُ … فما يُبالي طُروقَ الخَطْبِ مُلْتَبِسا
47) يَرى العُصاةَ وراشَ الطائِعينَ فَقُلْ … في اللَّيْثِ مُفْتَرِساً، والغَيْثِ مُرْتَجِسا
48) ولم يُغادِرْ على سَهْلٍ ولا جَبَلٍ … حَيّاً لَقاحاً، إذا وَفَّيْتَهُ بَخَسا
49) فَرُبَّ أَصْيَدَ لاتُلْفي[48] بِهِ صَيَدا … ورُبَّ أَشْوَسَ لاتَلْقى[49] لَهُ شَوَسا
50) إلى المَلائِكِ يَنْمي، والملوكِ معاً … في نَبْعَةٍ أَثْمَرَتْ لِلْمَجْدِ ما غَرَسا
51) من ساطِعِ النُّورِ صاغَ اللهُ صيغَتَهُ … وصانَ صيغَتَهُ[50] أن تَقْرُبَ الدَّنَسا
52) له الثَّرى والثُّرَيّا خُطَّتانِ فَلا … أَعَزُّ من خُطَّتَيْهِ ما سَما ورَسا[51]
53) حَسْبُ الَّذي باعَ في الأَخْطارِ يَرْكَبُها … إليهِ مَحْياهُ أنِ البَيْعَ ما وُكِسا
54) إن السَّعيدَ امْرُؤٌ أَلْقى بِحَضْرَتِهِ … عَصاهُ مُحْتَزِماً، بالعَدْلِ مُحْتَرِسا
55) فَظَلَّ يُوطِنُ من أَرْجائِها حَرَماً … وباتَ يوقِدُ من أَضْوائِها قَبَسا
56) بُشْرى لِعَبْدٍ إلى البابِ الكَريمِ حَدا … آمالَهُ، ومن العَدِّ[52] المَعينِ حَسا
57) كأنَّما يَمْتَطي، واليُمْنُ يَصْحَبُهُ … من البِحارِ طَريقاً نَحْوَهُ يَبَسا
58) فاسْتَقْبَلَ السَّعْدَ وضّاحاً أَسِرَّتُهُ … من صَفْحَةٍ فاضَ فيها النُّورُ وانْعَكَسا[53]
59) [وقَبَّلَ الجودَ طَفّاحاً غوارِبُهُ … من راحَةٍ غاصَ فيها البَحْرُ وانْغَمَسا][54]
60) يا أيُّها المَلِكُ المَنصورُ أَنْتَ لها … عَلْياءُ توسِعُ أعداءَ الهُدى تَعَسا[55]
61) وقد تَواتَرَتِ الأَنْباءُ أنَّكَ مَنْ … يُحْيي بِقَتْلِ مُلوكِ الصُّفْرِ أَنْدَلُسا

---

(47) النفح: 459/4 . الأزهار: 209/3 . ديوانه: 398 : واسى. والبيت وما بعده ساقط من تاريخ ابن خلدون.

(48) (49) الذيل: 262/6 : تلقى.

(50) النفح: 459/4 . صيقله.

(51) البيت في: تاريخ ابن خلدون: 388/6 .

(52) النفح: 459/4 الأزهار: 210/3 . ديوانه: 399 . العذب. والعد هو البئر القديمة.

(53) ديوانه: 399 : فانعكسا.

(54) البيت غير وارد في الأصل أضفناه من المصادر المذكورة. ديوانه: 399 : فانغمسا.

(55) البيت وما بعده وارد في: تاريخ ابن خلدون: 388/6 .

62) طَهِّرْ بِلادكَ منهُمْ، إنَّهُمْ نجَسٌ ... ولا طَهارةَ ما لَمْ تغسلِ[*] النَّجَسا

63) وأوْطِئِ الفَيْلَقَ الجرّارَ أرْضَهُمُ ... حتى يُطأطِئَ رَأساً كُلُّ مَنْ رَأَسا

64) وانصُرْ عبيداً بأقصى شرْقِها شرِقَتْ ... عُيونُهُمْ أدْمُعاً تَهْمي زَكاً وخَسا[**]

65) هُمْ شيعةُ الأمْرِ، وهْيَ الدارُ قد نُهِكَتْ ... داءً، وما لَمْ[56] تُباشِرْ حَسْمَهُ انْتَكَسا

66) فامْلأْ[57]، هَنيئاً لَكَ التَّمكينُ[58]، ساحَتَها ... جُرْداً سَلاهِبَ، أوْ خَطِّيَّةً دُعُسا

67) واضْرِبْ لها مَوْعِداً بالفَتْحِ تَرْقَبُهُ ... لَعَلَّ يَوْمَ الأعادي قد أنَى[59] وعَسى

«نغسل النجسا» هكذا ثبت بالنون في «نغسل»، كما في بعض النسخ العتيقة، وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء، لأن مثلهم لا يصلح للمخاطبات السلطانية، ولم يشتهر عند أكثر الناس إلا بالتاء. والله أعلم[60].

[دعوة ابن الخطيب إلى الجهاد في الأندلس][61]

ولم يزل العلماء والكتاب والوزراء، منذ تقلص ظل الإسلام بالجزيرة، يحركون حميات ذوي البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار، فمن ذلك قول ابن الخطيب في الحث على الجهاد والترغيب فيه:

«أيها الناس، رحمكم الله[62]، إخوانكم المسلمون [في الأندلس][63]، قد دهم العدو، قصمه الله[64]، ساحتهم، ورام الكفر، فضحه الله[65]، استباحتهم، ورجفت

(*) الأزهار: 210/3 : تغسل.

(**) أي زوجا وفردا.

(56) تاريخ ابن خلدون 388/6 الذيل 262/6 النفح 460/4 متى ما.

(57) في الأصل: فاملك.

(58) الذيل 262/6 الأزهار 210/3 النفح 460/4: التأييد.

(59) الذيل 262/6 تاريخ ابن خلدون 388/6 النفح 460/4 ديوانه 400: قد أتى.

(60) هذا التعليق مختصر من تعليق المقري على الإشكال عينه. الأزهار: 210/3.

(61) الخطبة في النفح: 5/167 ـ 168 الأزهار: 64/1 ـ 65 ومنها ينقل المؤلف.

(62) النفح: 167/6 : بعده: تعالى.

(63) سقطت من الأصل. والأزهار: 64/1 .

(64) النفح: 167/6 : بعده: تعالى.

(65) النفح: 167/6 : خذله الله تعالى.

أحزاب الطواغيت عليهم[66]، ومدّ الصـليب ذراعيه إليهم[67]، وأيْدُكم، بعزةِ اللهِ[68]، أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب[69] فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتُبصروهُ.

الجهادَ.. الجهادَ، فقد تعين. الجارَ. الجارَ، فقد قرر الشرع حقّه وبيَّن. اللهَ اللهَ في الاسلام. اللهَ اللهَ في أمة محمد، عليه السلام[70].

اللهَ اللهَ في المساجد المعمورة بذكر الله. اللهَ اللهَ في وطن الجهاد في سبيل الله. قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، وقد تأكد عهد الله. وحاشاكم أن تنكثوه. أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله[71] عند الشدائد. وجدّدوا عوائد الخير، يصل الله لكم جميل العوائد. صلوا رحم الكلمة، وآسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة. كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قائمة فيكم. والله[72] يقول: «ياأيُّها الَّذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ»[73] ومما صح عنه قوله: «من اغبَرَّتْ قَدَماهُ في سَبيلِ اللهِ، حَرَّمَهُما اللهُ، تعالى، على النارِ». «لايَجْتَمِعُ غُبـارٌ في سَبيلِ اللهِ ودُخانُ جَهنَّمَ». «مَنْ جَهَّزَ غازِياً في سَبيلِ الله فَقَدْ غَزَا».

أدركوا رمق[74] الدين قبـل أن يفوت، بادروا عليـل الإسـلام قبل أن يموت، اِحفظوا وجوهَكم من الله يوم يسألُكُمُ عن عبادِه. جاهِدوا في اللهِ بالألْسُنِ والأمْوال حق جهاده:

---

(66) النفح: 167/6 : إليهم.

(67) النفح: 167/6 : عليهم.

(68) النفح: 167/6 : بعده: تعالى.

(69) النفح: 167/6 : الغريب.

(70) النفح: 166/6 . عليه الصلاة والسلام.

(71)(72) النفح: 166/6 . بعده تعالى.

(73) سورة الصف: 10 .

(74) في الأصل: من. والتصويب من: النفح: 166/6 . الأزهار: 56/1 .

[الكامل]

1) مـاذا يَكـونُ جَوابُكُـمْ لِنَبيِّكُـمْ　　　وطَـريقُ هـذا العُـذْرِ غَيْـرُ مُمَهَّـدِ
2) إن قـالَ: لِمْ فَـرَّطْتُـمْ في أُمَّتي　　　وتَـرَكْتُمـوهُـمْ لِلعَـدُوِّ المُـعْتَـدي
3) تـاللهِ لو أنَّ العُـقـوبَـةَ لم تَخِفْ　　　لَكَفى الحَيـا مِنْ وَجْـهِ ذاكَ السَّـيِّـدِ

اللهم أعطف علينا قلوب العباد. اللهم بُثَّ لنا الحميَّة في البلاد. اللهم دافع عن الحريم الضعيف[75] والأولاد. اللهم انصرنا على أعدائك بأحبابك وأوليائك، يا خير الناصرين. اللهم أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله[76] وصحبه وسلم تسليماً». انتهى.

[استيلاء النصارى على غرناطة]

واستمر الأمر بالجزيرة على هذه الحال مدة، والمسلمون لايزدادون الا ضعفاً، والعدو تكالباً وشدة، حتى استولى عليها بأسرها وشرح ذلك مذكور في نفح الطيب[77] وغيره[78].

وكان استيلاؤُهُ على حمراء غرناطة، وهي آخر ما بقي بيد المسلمين في المحرم صلحاً، وفي ربيع الأول دخلها جيش الكفار، وذلك سنة سبع بالموحدة، وتسعين بالمثناة، وثمان مئة (1492/897). وقد وجد في طلسم مكتوب على فروج الرواح[79] من غرناطة:

[البسيط]

1) إيوانُ غَرْنـاطَـةَ الغَـرَّاءَ مُعْتَبِرٌ　　　طِـلَّسْـمُـهُ بِـوُلاةِ الحـالِ دَوَّارُ
2) وفـارِسٌ روحُـهُ، ريحٌ تُـدَبِّـرُهُ　　　مِنَ الجمـادِ، ولكـنْ فيـهِ أَسْـرارُ
3) فَسَـوْفَ يَبْقى قَـليـلاً ثم تَطْـرُقُـهُ　　　دَهْيـاءُ[80] يَخْـرُبُ منهـا المُلْكُ والدّارُ

---

(75) النفح: 166/6 . والضعيف.

(76) النفح: 166/6 : وعلى آله. وكذلك: الأزهار: 65/1 .

(77) النفح: 350/4 ــ 353 .

(78) انظر مثلاً كتاب «نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر» مؤرخ مجهول.

(79) في الأصل: مروح الروح. والتصويب من الأزهار: 315/3 . النفح: 507/4 .

(80) الأزهار: 315/3 : دهماء.

«ولما دخلها النصارى[81]، خرج أميرها أبو عبد الله، محمد بن أبي الحسن، علي [بن سعد بن علي بن يوسف][82] النصري [الخزرجي][83]، واشترط المسلمون على العدو الكافر شروطاً أظهر قبولها، وبسط لهم جناح العدل، حتى بلغت بزعمهم نفوسُهم مأمولها.

[شروط استسلام غرناطة، وحالة المسلمين بالأندلس]

وكان من جملتها، أن من شاء البقاء عنده أقام[84] مكرماً، ومن أراد الخروج إلى برّ العدوة أنزل بأي بلد شاء منها، من غير أن يعطي كراء ولا مغرما.

وأظهر للمسلمين العناية والاحترام، حتى كان النصارى يحسدونهم في ذالك ويقولون: أنتم عند ملكنا أعز وأكرم منا. ووضع عنهم المغارم حيلة منه وكيداً، ليغرّهم[85] ويثبطهم عن الجواز، فوقع الطمع لكثير من الناس، وظنوا أن ذالك البرق ليس بُخلَّب[86]. فاشترى كثير من المقيمين ارباع العظيمة، ممن أراد الذهاب إلى العدوة[87]، بأرخص الأثمان[88].

[طرد السلطان أبي عبد الله ابن الأحمر إلى المغرب]

ثم ظهر للطاغية، لعنه الله[89]، [أن يأمر السلطان أبا عبد الله المذكور، بالجواز إلى العدوة][90]، وأعد له المراكب العظيمة، وركب معه كثير من المسلمين ممن أراد الجواز، حتى نزلوا بمليلية من ريف المغرب.

---

(81) النقل هنا عن الأزهار: 67/1 . وفيها: «ولما دخل النصارى إلى الحمراء».

(82) زيادة من المؤلف.

(83) زيادة من المؤلف.

(84) الأزهار: 67/1 : بعده: في ظل الأمان.

(85) الأزهار: 67/1 : بعده: بذالك.

(86) في الأصل: بخلف. والتصويب من الأزهار: 67/1 .

(87) الأزهار: 67/1 : للعدوة.

(88) بعده أسقط المؤلف إشارة إلى إقامة أبي عبد الله ابن الأحمر بقرية أندرش، من جبال البشرات.

(89) زيادة من المؤلف لم ترد بالأزهار.

(90) عبارة للمؤلف، نقل بها بالمعنى عبارة أزهار الرياض: 67/1 .

ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس، حرسها الله، وما زال أعقابه بها[91] من جملة الضعفاء السؤّال، بعد الملك [السّابغ الأذيال][92]. فسبحان المعز المذلّ، المانع المانع، [المكثر المقلل][93]، [إلى أن انقرضوا في حدود خمسين ومئة وألف. (1737/1150)][94].

[ميمية أبي عبد الله، محمد بن عبد الله العربي العقيلي المسماة، بالروض العاطر الأنفاس، في التوسل إلى المولى الامام سلطان فاس]

ولا بأس أن نورد كتابه الذي بعث به لصاحب فاس في ذالك العهد، السلطان أبي عبد الله، محمد الشيخ[95]، أول ملوك بني وطاس، ابن الوزير أبي زكريا بن زيان بن عمر الوطاسي. تمهيداً لعذره، وتوطئة لمقصده، وتطارحاً على تلك الأبواب وتملقاً، وتمسكاً بذالك الجناب وتعلقاً، وهو في الغاية من الفصاحة والبلاغة، من إنشاء الفقيه[96] البليغ[97]، أبي عبد الله، محمد بن محمد العربي العقيلي[98]، رحمه الله. وسماه بالروض العاطر الأنفاس، في التوسل إلى المولى الامام سلطان فاس، ونصه بعد الافتتاح:

[البسيط]

1) مَولى المُلوكِ، مُلوكِ العُرْبِ والعجمِ[99]	رعْياً لما مِثْلُهُ يُرْعى مِنَ الذِّمَمِ
2) بِكَ استجرنا، ونِعْمَ الجارُ أنْتَ لِمَنْ	جارَ الزَّمانُ عليْهِ جَوْرَ مُنْتَقِمِ

---

(91) الأزهار 1/67 بعده بياض، أي زمن تأليف الكتاب وقد سقط هذا التحديد عمداً.

(92) الأزهار: 67/1 : الطويل العريض.

(93) الأزهار: 67/1 : لا إله إلا هو.

(94) زيادة من المؤلف ولاشك والظاهر أن المؤلف يقصد بني الأحمر الغساسيين، أو ذريه السلطان أبي عبد الله فقط، ولا عبرة ببني الأحمر بالأندلس يوم هذا مدة ثمان معروف وقرابة، ولم ينقرضوا البتة

(95) (ت 910 هـ) ترجمته في: الجذوة 1/211. رقم 173. الدرة 2/145 رقم 618. الاستقصا: 4/119 — 120. ونقل هنا عن الأزهار 1/72 بالمعنى، وبعده باللفظ مع بعض الاختصار.

(96) الأزهار 1/72: الفقيه الأديب الشاعر، الناظم الناثر الكاتب، مجيد البارع.

(97) في الأصل: البالغ.

(98) أديب شاعر غرناطي، عاصر سقوط دولة الأندلس (897 هـ). له ذكر في النفح. 529/4 . 552 والأزهار: 103/1 .

(99) القصيدة في: الأزهار: 72/1 — 102 . النفح: 529/4 — 535 .

3) حتى غدا مُلكُهُ بالرَّغمِ مُستَلَبا — وأفظعُ الخطبِ ما يأتي على الرَّغمِ
4) حُكْمٌ مِنَ اللهِ حتمٌ لا مَرَدَّ لَهُ — وهَلْ مَرَدٌّ لِحُكْمٍ منه مُنْحَتِمِ؟!
5) وَهْيَ اللَّيالي، وقاكَ اللهُ صَولَتَها، — تَصولُ حتى على الآسادِ في الأُجُمِ
6) كُنَّا مُلوكاً لنا في أرضِنا دُوَلٌ — نِمْنا بها تحت أفنانٍ من النِّعَمِ
7) فأيقظَتْنا سِهامٌ لِلرَّدى صُيُبٌ — يُرمى بأُفجعِ حتفٍ مَن بِهِنَّ رُمي
8) فلا تَنَمْ تحتَ ظِلِّ المُلكِ نَوْمَتَنا — وأيُّ مُلكٍ بِظِلِّ المُلكِ لم يَنَمِ؟!
9) يَبكي عليهِ الذي قد كان يَعرِفُهُ — بأدمُعٍ مُزِجَتْ أمواهُها بدمِ
10) كذالك الدَّهرُ لم يَبْرَحْ كما زعموا — يُشِمُّ بوَّ الصِّغارِ الأنفَ ذا الشَّمَمِ
11) وصِلْ أواصِرَ قد كانتْ لنا اشتبكتْ — فالمُلكُ بين مُلوكِ الأرضِ كالرَّحِمِ
12) وابسُطْ لنا الخُلُقَ المَرجُوَّ باسِطُهُ — واعطِفْ، ولا تنحرفْ، واعذِرْ ولا تَلُمِ
13) لا تأخُذنا بأقوالِ الوُشاةِ ولم — نُذنِبْ، ولو كثُرتْ أقوالُ ذي الوَخَمِ[100]
14) فما أطقْنا دِفاعاً لِلقضاءِ وما — أرادتْ أنفُسُنا ما حَلَّ من نِقَمِ
15) ولا رُكوباً بإزعاجٍ لسابِحَةٍ — في زاخِرٍ بأكُفِّ المَوجِ مُلتَطِمِ
16) والمرءُ، مالم يُعِنهُ اللهُ، أضيعُ من — طِفلٍ تشكّى بفقدِ الأمِّ في اليُتُمِ
17) وكُلُّ ما كان غيرُ اللهِ يَحرُسُهُ — فإنَّ مَحروسَهُ لحمٌ على وَضَمِ
18) كُنْ كالسَّمَوْألِ إذ سارَ الهُمامُ لَهُ — في جَحْفَلٍ كسَوادِ اللَّيلِ مُرتَكِمِ
19) فلم يُبِحْ أدرُعَ الكِنديِّ وهْوَ يَرى — أن ابنَهُ البِرَّ[101] قد أشفى على الرَّجَمِ
20) أو كالمُعَلّى مع الضِّليلِ الأروعِ إذ — أجارَهُ من أعاريبٍ ومن عَجَمِ
21) وصارَ يَشكُرُهُ شُكراً يُكافِئُهُ ما — أسدى إليهِ مِنَ الآلاءِ والنِّعَمِ
22) ولا تُعاقِبْ على أشياءَ قد قُدِرَتْ — وخَطَّ مسطورَها في اللَّوحِ بالقلمِ
23) «وعِد عما مَضى إذ لا ارتِجاعَ لَهُ»[102] — وعُدَّ أحرارَنا في جُملةِ الخَدَمِ
24) «إيهِ حَنانَيكَ يا ابنَ الأكرمين علي»[103] — ضَيفٍ ألَمَّ بفاسٍ غيرَ مُحتَشِمِ
25) فأنتَ أنتَ، ولَوْلا أنتَ ما نَهَضَتْ، — بنا إليها خُطى الوَخّادةِ الرُّسُمِ

---

(100) في الأصل: الوضم. والتصحيح من الأزهار: 73/1 . النفح: 530/4 .

(101) في الأصل: البكر. والتصويب من مصدري النص السابقين.

(102) الشطر مضمن من شعر النابغة الذبياني. شرح الأشعار: 333/1 .

(103) الشطر مقتبس من شعر المتنبي.

26) رُحْمَاكَ يا راحِماً يَنمي إلى رُحَما، ... في النَّفْسِ والأَهْلِ والأَتْبَاعِ والحَشَمِ

27) فكَمْ مَواقِفِ صِدْقٍ في الجِهادِ لنا ... والخَيلُ عالكَـةُ الأَشْداقِ لِلُجُمِ

28) والسَّيفُ يَخْضِبُ بالمُحمرِّ مِنْ عَلَقٍ ... ما ابْيَضَّ مِنْ سُبُلٍ، واسْوَدَّ من لِمَمِ

29) ولا تَرى صَدْرَ عضْبٍ غَيْرَ مُتَقصِفٍ ... ولا تَرى مَتْنَ لَدْنٍ غَيْرَ مُنْحَطِمِ

30) حتى دُهِينا بِدَهْيا لا اقْتِدارَ بِها ... سوى على الصَّوْنِ لِلأَطْفالِ والحُرَمِ

31) فَقَالَ مَنْ لَمْ يُشاهِدْها فرُبَّما ... يُخالُ جامِحُها يُقْتادُ بالخُطُمِ

32) هَيْهاتَ لوزَبَنَتْهُ الحَرْبُ كانَ بِها ... أَعْيى يَداً من يدٍ جالَتْ على زَخِمِ[104]

33) تاللهِ ما أَضْمَرَتْ غِشّاً ضمائِرُنا ... ولا طَوَتْ صِحَّةً منها على سَقَمِ

34) لكن طلبْنا من الأمرِ الذي طلَبَتْ ... وُلاتُهُ[105] قَبْلنا في الأَعْصُرِ الدُّهُمِ

35) فخانَنا عِنْدَهُ الجَدُّ الخَؤونُ ومَنْ ... تقْعُدْ بِهِ نكباتُ الدَّهْرِ لم يقُمِ

36) فاسْوَدَّ ما اخْضَرَّ مِنْ عَيْشٍ كعَتَّهُ عِدى ... بالأسْمرِ اللَّدْنِ، أو بالأَبيضِ الخذِمِ

37) وشَتَّتَ البَيْنُ شَمْلاً كان مُنْتَظِماً ... والبَيْنُ أَقْطَعُ لِلْمَوْصُولِ من جلَمِ

38) فَرُبَّ مَبْنى شَديدٍ قد أَناخَ بِهِ ... رَكْبُ البِلَى، فَقَرَتْهُ أَدْمُعَ الدِّيَمِ

39) قُمْنا لَدَيْهِ أُصَيْلاناً نُسائِلُهُ ... «أَعْيَا جَواباً وما بالرَّبْعِ من إرَمِ[106]»

40) وما ظَنَنَّا بأَنْ نَبْقى إلى زَمَنٍ ... نَرى بِهِ غُرَرَ الأَحْبابِ كالحُمَمِ

41) لكنْ رِضَى بالقضاءِ الجاري، وإنْ طُوِيَتْ ... منّا الضُّلوعُ على بَرْحٍ من الأَلَمِ

42) لبَّيْكَ يا مَنْ دعانا نحو حضرته ... دُعاءَ إبْراهيمَ الحُجّاحَ للحَرَمِ

43) وأَعْطِ الأَمْنَ[107] الذي رُصَّتْ قَواعِدُهُ ... على أساسٍ وفاءٍ غيرِ مُنْهَدِمِ

44) خَليفَةَ اللهِ: وافاكَ العَبِيدُ فكُنْ ... في كُلِّ فَضْلٍ وطَوْلٍ عِنْدَ ظَنِّهِمِ

45) وبيْنَ أَسْلافنا ما قد علِمْت به ... من اعْتِقادٍ بحُكْمِ الإِرْثِ مُقْتَسَمِ

46) وأَنْت منهُمْ كأَصْلٍ مُطْلِعٍ غُصُنا ... أو كالشِّراكِ الذي قد قُدَّ مِنْ أَدَمِ

47) وقد خَطَوْتَ خُطاهُمْ في مآثِرِهِمْ ... فلم يُذَمُّوا، إذَنْ فيها، ولم تُذَمِ

48) وصَيْتُ مَوْلى الوَرى الشَّيْخِ الإمامِ غَدا ... في النّاسِ أَشْهرَ من نارٍ على عَلَمِ

---

(104) الأزهار: 75/1 : زلم.

(105) الأزهار: 75/1 . النفح: 531/4 : ولاتنا.

(106) أصل البيت للنابغة. شرح الأشعار الستة: 329/1 .

(107) النفح: 531/4 : الأمان. والهمزة مسهّلة.

49) سُـــلالَةُ الأمــراءِ، الحلَّةِ الكُبَــرا ... ءِ، الْعِــلْيَــةِ الظُّهَــراءِ، القــادَةِ البُهُــمِ
50) بنــو مَرينٍ، لُيــوثٌ في عَرينِ أَبَوْا ... رُؤْيــا قَرينٍ لَهُــمْ، في الْبَــأْسِ والكَرَمِ
51) النّازلِينَ مِنَ «البَيْضاءِ»[108] وَسْطَ حِمى ... أَحمى من الأَبْــلق السّــامي ومِنْ إرَمِ
52) والحائسِــينَ بدُهْمِ الخَيْــلِ كُلَّ ذُرى ... والداعسِـــين بسُـمْـر الخطّ كُلّ كَمي
53) يُبريك فــارِسَــهُــمْ، إنْ هزّ عــامِلَهُ ... في مَــأْزِقٍ[109] بلظى الهَيْجــاء مُضْطَرِمِ
54) لَيْثــاً على أَجْدَلٍ، عارٍ من اجْنِحَــةٍ(*) ... يَسْــطــو بِــأَرْقَــمٍ، لَدَّاغٍ بِغَيْــرِ فَــمِ
55) في اللامِ يُـدْغِمُ مِنْ عَسّــالِهِ أَلِفــاً ... ولم نَجِـــدْ أَلِفــاً أَصْـــلاً بمُدَّغَــمِ
56) أَهْلُ الحفيظة يوْم الرَّوْعِ يحفظُهُمْ ... مِنْ عِصْـمَــةِ اللهِ ما يُرْبي على العِصَـمِ
57) بَــأْسٌ[110] تَطِــيرُ شِــرارٌ مِنهُ مُحْرِقَةٌ ... لِكُـــلِّ مُــدَّرِعٍ، بِــالْحَــزْمِ مُحْتَــزِمِ
58) هُــمْ بطـــائفــة التَّثْليث قد فتكوا ... كَمِثْــلِ مــا يَفْتِكُ السِّــرْحانُ بالغَنَــمِ
59) وإنْ يُــلْقَّــمْهُــمْ يَــوْمَ الوَغى رَهَجٌ ... أَنْسَــوْكَ مــا ذَكَروهُ عن ذَوي اللُّثُــمِ
60) تُضيءُ آراؤُهُــمْ في كُلّ مُعْضِـــلَةٍ ... إضــاءة السُّــرُجِ في كُلِّ داجٍ من الظُّلَمِ
61) هذا، ولَوْ مِنْ حَياءٍ ذابَ مُحْتَشِـمٌ ... لَذابَ مِنْـهُـــمْ حَيــاءً كُلُّ مُحْتَشِــمِ
62) طابَتْ مَدائحُهُمْ، إذ طابَتْ انْفُسُهُمْ(*) ... فــاشْتُقَّتِ النّسماتُ اسْــمــاً من النَّسَــمِ
63) للهِ دَرُّهُـــمْ، والسُّحْبُ بــاخِــلَةٌ ... بِــدَرِّهِنَّ عــلى الأَنْعــامِ والنَّــعَــمِ
64) بحيث الأفْقُ(*) يُرى مِنْ لَوْنِ حُمْرَتِهِ ... كالشَّــيب يُخْضب بــالحنّــاء والكتــم
65) هُنــاك تنهــلُ أيديهِمْ بصَــوْبِ حياً ... يُحْيي بــالأجْداث ما فيهــا من الرِّمم
66) وإن يثَنِّ زيــادٍ[111] طــالمــا ذُكِرا ... إذا أَلَمَّتْ أَحــاديثٌ ســـبكــرهـــم
67) وأَحْــلامُ عــادٍ، وأجْســامٌ مُطَهَّرَةٌ ... من المــعــقَّـــةِ والآفـــاتِ والأثَمِ[112]
68) يَرَوْنَ حقــاً عَلَيْهِــمْ حِفْظَ جارِهِمْ ... فــلم يُضَـــرَّ نــازِلٌ فيهِمْ ولم يُضَــمِ
69) فــرَوْعُــهُ بــالدَّواهي لايُــراعُ ولا ... يُغَـــمُّ منْهـــا بما يَعْرو من الغُمَـمِ

---

(108) البيضاء: فاس الجديدة.
(109) النفح: 532/4 : في مارق.
(110) النفح: 532/4 : بامن.
(111) النابغة الذبياني.
(112) البيت مضمن من ديوان النابغة. شرح الأشعار الستة: 493/1 .
(*) الهمزة مسهلة لإقامة الوزن.

70) هُمُ البِحارُ سَماحاً غَيْرَ أنَّ بها ... ما قد أنافَ على الأطْوادِ مِنْ هِمَمِ

71) ولَيْس يَسْلَمُ منْ حتفٍ مُحارِبُهُمْ ... حتى يكونَ إلَيْهِمْ مُلْقِيَ السَّلَمِ

72) كَمْ فيهِمْ من أميرٍ أوْحَدٍ نَدُسٍ ... يُقَرْطِسُ الغَرَضَ المَقْصودَ بالفَهَمِ

73) ولا كَسَطْ أبي حسون منْ حسنت ... أمداحُهُ حُسْنَ ما فيهِ مِنَ الشِّيَمِ

74) هداكُمُ ابنُ أبي زكريّ [113] الهمامُ فقلْ ... في أصْلِهِ المُنْتَقى من مَجْدِهِ العَمِمِ

75) خليفَةُ اللهِ حَقّاً في خَليقَتِهِ ... كَتائِبٍ نابَ في حُكْمٍ عن الحَكَمِ

76) مَهْما تُبِزْ نَسَماتٌ مِنْهُ نَيِّرَةٌ ... تَنَلْ بَنانٌ لَهُ ما جَلَّ عَنْ نَعَمِ

77) فَوَجْهُهُ بِدُجى، أو كَفُّهُ بِجَدى ... أبهى من الزَّهْرِ، أوْ أنْدى من الدِّيَمِ

78) وفَضْلُهُ، ولَهُ الفضْلُ المُبينُ، جَرى ... كَجَرْيِ الأمْثالِ في الأقْطارِ والأُمَمِ

79) وَجودُهُ المُتَوالي لِلْبَرِيَّةِ ما ... وجُودُهُ يَثْنيها طُرّاً بِمُنْهَدِمِ

80) إذا ابْتَغتْ نِعَماً مِنْهُ العُفاةُ لهُ ... لَمْ يَسْمَعوا كَلِمَةً مِنْهُ سِوى نَعَمِ

81) وإنْ يُعَبِّسْ زَمانٌ في وجُوهِهِمْ ... لَمْ يُبْصِروا غَيْرَ وَجْهٍ مِنْهُ مُبْتَسِمِ

82) وَجْهٌ تَبينُ سِماتُ المَكْرُماتِ بِهِ ... كَما تَبينُ سِماتُ الصِّدْقِ في الكَلِمِ

83) وراحَةٌ لَمْ تَزَلْ في كُلِّ آوِنَةٍ ... في نَيْلِها راحَةُ الشّاكي من العَدَمِ

84) للهِ ما القَرَعَةُ من نوافِلِهِ ... أيّام لاقرْض مفروضٌ بمُلْتَزِمِ

85) أسمى الخلائف في حلمٍ، وفي شرفٍ ... وفي سَخاءٍ، وفي عِلْمٍ، وفي فَهَمِ

86) فحاز مُعتَمِداً منهم، ومُعتَضِداً ... وامْتازَ عن قائِمٍ [114] منهم، ومُعْتَصِمِ

87) وناصِرَ الدينِ في الإقْبالِ فاقَ وفي ... محَبَّةِ العِلْمِ أزرى بابْنِهِ الحَكَمِ

88) أفعالُ أعدائِهِ مُعْتَلَّةٌ أبداً ... مَتى يَرُمْ جَزْمَها بالحَذْفِ تَنْجَزِمِ

89) فويْلُ أهْلِ العلا [115] من حيّةٍ ذكرٍ ... [لِلْمُتَقَلِّبِ] [116] اللَّهامِ المَجْرِ مُلْتَقِمِ

90) راموا عَداوَةَ مَنْ، إن شاءَ غادَرَهُمْ ... مِثْلَ الأحاديثِ عن عادٍ وعن إرَمِ

91) فَسَوْفَ يأكُلُهُمْ من جَيْشِهِ لَجِبٌ ... بِكُلِّ قَرْمٍ إلى لُحْمانِهِمْ قَرِمِ

---

(113) في الأصل زكريا والتصويب من الأزهار 1/78 النفح 533/4

(114) النفح: 533/4 : واثق.

(115) النفح: 534/4 : القلى.

(116) بياض بالأصل، عوضناه من النفح: 534/4 . الأزهار: 80/1 .

92) وإن الاعْرابَ(*) إذْ ساروا لِغايَتِهِ[117] ... لَسـائِـرونَ إلى لُقْـم على لَقَـمِ

93) وهُـمْ كما قـالَهُ مـاضٍ: أرى قَدمي ... بِسَـعْـيِـهِ نحو حَتْفي. قد أراقَ دمي

94) فَقُلْ إذن لِلْمُناوي النّاوي الآن(**) الأذى[118] ... يـاغِرُّ: غرَّكَ مـا أبْصـرْت في الحُـلُم

95) لَهُ صَـوارِمُ لَوْ نـاجَتْكَ ألْسُنُهـا ... لَبَشَّـرَتْكَ بِعُمْـرٍ مِنْكَ مُنْصَـرِمِ

96) وإن روحَكَ عن قُـرْبٍ سَـيَقْبِضُـهُ ... قَبْضَ الْمُسَـلِّمِ مـا قد حازَ من سَـلَمِ

97) فَهْوَ[119] الذي مـالَهُ نِدٌّ يُشـابِهُـهُ ... مِنْ كُلِّ مُتَّـصِفٍ، بـالدهْيِ مُتَّسِـمِ

98) يُـدَبِّرُ الأمْرَ تَـدْبيراً يُخَـلِّصُـهُ ... ممـا عسـى أن يُرى فيـه مِن الوهـمِ

99) ويُـبْصِـرُ الغَيْبَ لَحْظُ الذِّهْنِ إذا ... تَعْمى عن ادْرَاكِهِ(*) ألحـاظُ كُلِّ عمي

100) ويُمْعِنُ[120] النّظَر المفْضي بـناظره ... لِصَـوْبِ وجْهِ صَـوابٍ واضح اللُّقَـمِ

101) ذو مَنطِقٍ لم تَزَلْ تَجْـلو نَعـالِجُهُ ... عَنْ مُبْطِـلٍ بخصـام المُبْطِـلِ الخَصِـمِ

102) ومَسْمَعٍ ليس يُصْغي لِلْوُشاةِ فَلَمْ ... يَنْـفُـقْ لديْـه الذي عنهُـمْ إليْـه نُمي

103) فعقْـلُهُ لاتُـوازيـهِ العُقُولُ وهلْ ... يُـوازِنُ الطَّوْدُ مـاقد طـالَ من أكَمِ؟!

104) إيـهِ جميع الْورى من بدْوٍ او(*) حضرٍ ... نِداءَ مُرْتَبِطٍ، بـالنُّصْـحِ مُتَّسِـمِ[121]

105) شُـدُّوا وجِدُّوا، ولا تَعْنوا ولا تَهِنوا ... «قَدْ لَفَّهـا اللَّيْـلُ بالسَّوّاقَةِ الحُطَمِ»[122]

106) هذا الأميرُ[123] المرتضى السَّعيدُ لَهُ ... سَـعْـدٌ يُـؤَيِّـدُهُ في كُلِّ مُصْـطَـدَمِ

107) قد أقْسَمَتْ أنّهُ المنصـورُ ألْسِنَةٌ ... من نُخْبَـةِ الأوْليـا، مَبْرورةُ القَسَـمِ

108) فَشَـيِّعـوهُ وَوالوهُ، تَرَوْا عَجَبـاً ... وتظْـفَـروا معـهُ بـالأجْـرِ والغُـنُـمِ

109) والْحَمْـدُ للهِ إذْ أبْقى خـلافَتَـهُ ... كَهْـفـاً لنـا مَنْ يُخَيِّـمْ فيـهِ لم يَرِمِ

110) حِرْزٌ حَريزٌ، وعِزٌّ قـائِمٌ ونَدى ... غَمْـرٌ دِراكٌ، بِـلا مَنٍّ ولا سَـأمِ

---

(117) النفح: 534/4 : لغايته.

(118) الجملة مضطربة في الأصل، اعتمدنا في قراءتها رواية الأزهار: 80/1 .

(*) الهمزة مسهلة.

(**) تختلس حركة الياء في «النادي»، وتسهل همزة «الآن»، ليستقيم الوزن.

(119) في الأصل: وهو. والتصويب من الأزهار: 80/1 . النفح: 534/4 .

(120) الأزهار: 80/1 . النفح: 534/4 : ينعم.

(121) النفح: 534/4 : مرتسم.

(122) الشطر مقتبس من خطبة مشهورة للحجاج بن يوسف.

(123) النفح: 534/4 : الامام.

(*) تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

111) دامَتْ ودامَ لها سَعْدٌ يُساعِدُها ... في كُلِّ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ ومُخْتَتَمِ

112) فالله، عزَّ اسْمُهُ، قد زانها بِحُلى ... من غُرِّ أمْداحِهِ كالدُّرِّ في النَّظْمِ

113) الواهِبُ الألْفَ بَعْدَ الألْفِ مِن ذهبٍ ... كالجَمْرِ يَلْمعُ في مُتَوقِّدِ الضَّرَمِ

114) والفاعِلُ الفِعْلَ لم يَهِمْ به أحَدٌ ... والقائِلُ القَوْلَ فيه حِكْمةُ الحِكَمِ

115) داكُم هُو الشَّيْخُ فاعْجَبْ أنَّه «هرمٌ» ... جوداً، وحاشاهُ أنْ يُعزى إلى هَرَمِ

116) وحَسْبُنا أن أيْدينا بِهِ اعْتَصَمَتْ ... مِنْ حَبْلِهِ بِوَثيقٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ

117) فما مُحالِفُهُ، يَوْماً بمُضْطَهَدٍ ... ولا مُؤالِفُهُ، يَوْماً، بِمُهْتَضَمِ

118) ولا مُوافِيهِ في جَهْدٍ بمُطَّرَحٍ ... ولا مُصافيهِ في وُدٍّ بمُتَّهَمِ

119) ولا مُحَيّا مُحيِّيهِ بمُنْكَسِفٍ ... ولا رَجاءُ مُرَجِّيهِ بمُنْخَرِمِ

120) وما تكَرُّمُهُ سِرًّا بمُنْكَشِفٍ ... ولا تَشَكُّرُهُ جَهْراً بمُكْتَتَمِ

121) وليس لامِعُ مَرْآهُ بمُكْتَسِفٍ ... وليْسَ راضِعُ جَدْواهُ بِمُنْفَطِمِ

122) ولا مَقيلُ بِمَغْناهُ الكريمِ في ... مَحَلِّ مُمْتَهَنٍ، بَلْ دَسْتِ مُحْتَرَمِ

123) وما وسيلتُنا العُظمى إليه سوى ... ما لَيْسَ يُنْكَرُ ما فيها من العِظَمِ

124) وإنما هي وما أدراك ماهي من ... وَسيلَةٍ رَدُّها أدْهى من الرُّضَمِ[124]

125) نَبيِّنا المُصْطفى الهادي بخير هُدى ... مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

126) داعي الورى من أولي حِلْمٍ وأهْلِ قِرى ... إلى طَريقِ رَشادٍ لاحِبٍ أَمَمِ

127) عليه ما صلاةَ ما ذُكِرَتْ ... «أمِنْ تَذكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ»(*)

128) وما تشفّع فيها بالشَّفيع له ... دخيلُ حُرْمَتِه العلياءِ في الحُرَمِ

[تنكر الطاغية للمسلمين المدجنين][125]

وكان من قدر الله تعالى، أنهم لما وصلوا إلى فاس، أصاب الناس فيها شدة من الجوع والغلاء والطاعون، حتى رجع بعضهم إلى بلادهم، فأخبرهم بتلك الشدة، فتقاعس من أراد الجواز، وعزم على الإقامة والدجن، فلما رأى الطاغية ذلك، أخذ في نقض الشروط فصلاً فصلاً، إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم

(124) النفح: 535/4 : الوحم.

(*) الشطر للبوصيري: ديوانه: 190 .

(125) أصل النص في: الأزهار: 68/1 . وهو مختصر منه.

الهوان والذلة، وفرضت عليهم المغارم الثقيلة، وقطع عنهم الآذان في الصوامع، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلة صاغرين. ثم في سنة أربع وتسع مئة [1498/904] دعاهم للتنصر أو ضرب الرقاب. وأجّلهم شهرا، فافترقوا على ثلاثة فرق. فرقة قالوا: نقاتل على أولادنا، إلى أن نموت. وفرقة قالوا: نخرج بأولادنا إلى جبل عظيم نتحصن به، ونوجّه رسلنا إلى السلطان أبي يزيد خان، سلطان العثماني، ننتصر به. وفرقة قالوا: نكتم ديننا، ونقيم على أولادنا، فاعتزلت الفرق. فقاتلت الأولى حتى ماتوا كلهم، واستؤصلوا، وسبوا نساءهم وأولادهم، وارتدت الثانية ظاهراً، وكتموا إسلامهم، حتى ماتوا ونشأ أولادهم في الكفر. وتحصنت الثالثة في جبل وعر، ووجهت رسلها للعثماني بقصيدة يشكون له ماهم فيه من الذل والهوان، تقشعر الجلود لسماعها، وهي:

[تائية المدجّنين في الشكوى إلى السلطان العثماني [126]]

[الطويل]

1) سَلامٌ كريمٌ دائمٌ مُتجدِّدُ ... أَخصُّ بهِ مولايَ خَيْرَ خليفةِ

2) سَلامٌ على مَوْلايَ ذي المجْد والعُلى ... ومن أَلبسَ الكُفّارَ ثوبَ المذلّة

3) سَلامٌ على من وسَّعَ اللهُ مُلْكَهُ ... وأيَّدهُ بالنَّصْرِ في كُلِّ وِجْهةِ

4) سَلامٌ على مَوْلايَ منْ دارِ مُلْكِهُ ... قسنطينةٍ[127] أكْرِمْ بها منْ مدينةِ!

5) سَلامٌ على من زَيَّنَ اللهُ مُلْكَهُ ... بجُندٍ وأَتراكٍ من أهْل (*) الرِّعايةِ

6) سَلامٌ عليْكُمْ، شرَّفَ اللهُ قَدْرَكُمْ ... وزادكُمْ مُلْكاً على كُلِّ مِلَّةِ

7) سلامٌ على القاضي ومنْ كانَ مِثْلَهُ ... من العُلماءِ الأكْرمينَ الأجِلَّةِ

8) سلامٌ على أهْلِ الدِّيانةِ والتُّقى ... ومنْ كانَ ذا رأيٍ من أهْلِ (*) المشورةِ

9) سَلامٌ عليْكُمْ من عبيدٍ تخلَّفوا ... بأنْدلُسٍ بالغرْبِ في أرْضِ غُربةِ

(126) هذه التائية في: الأزهار: 109/1 ــ 115 . وفيها شيء من الركاكة واللحن، أثبتناه كما هو في الأصل والأزهار. وتزيد هذه الرواية على الرواية المطبوعة بأربعة أبيات.

(127) المقصود قُسْطنطينية أو اسطنبول عاصمة العثمانيين المشهورة، لاقسنطينة الجزائر

(*) تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

10) أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة
11) سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم يا لها من مصيبة!
12) سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عزة
13) سلام عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعد سترة
14) سلام عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم اللباط قهراً الخلوة
15) سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم جيفة
16) نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير في كل ساعة
17) أدام الإله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوء ومحنة
18) وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا ... وأسكنكم دار الرضى والكرامة
19) شكونا لكم يا مولاي ماقد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم المصيبة(128)
20) غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ... ظلماً وعوملنا بكل قبيحة
21) وكنا على دين النبي محمد ... نقاتل عباد(129) الصليب بنية
22) ونلقى أموراً في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر، ثم جوع وقلة
23) فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة
24) ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة
25) وكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
26) وفرسانهم تزداد في كل ساعة ... وفرساننا في حال نقص وقلة
27) فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
28) وجاءوا بأنفاط(130) عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة
29) وشدوا علينا في الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجد وعزمة
30) فلما تفانت خيلنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة
31) وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا ... أطعناهم بالكره خوف الفضيحة
32) وخوفاً على أبنائنا وبناتنا ... من أن يؤسروا ويقتلوا شر قتلة

(128) الأزهار: 110/1 : الرزية.

(129) الأزهار: 110/1 : عمال.

(130) في الأصل: أنفاض. والتصويب من الأزهار: 111/1 . والأنفاط أو الأنفاض: ضرب من المدافع القديمة.

33) على أن نكونَ مِثْلَ من كانَ قَبْلَنا　　من الدَّجْنِ من أهلِ البلادِ القديمةِ

34) ونَبْقى على آذانِنا وصَلاتِنا　　ولا نَتْرُكَنْ شَيْئاً من أمرِ(*) الشَّريعةِ

35) ومن شاءَ منا البَحْرَ جازَ مُؤَمَّناً　　بما شاءَ من حالٍ إلى أرْضِ عدْوَةِ

36) إلى غَيْرِ ذاكَ مِنْ شُروطٍ كثيرةٍ　　تَزيدُ على الخمسينَ شَرْطاً بخَمْسَةِ

37) فقالَ لنا سُلْطانُهُمْ وكبيرُهُمْ:　　لَكُمْ ما شَرَطْتُمْ كامِلاً بالزِّيادَةِ

38) وأبْدى لنا كُتْباً بعهْدٍ مُوثَّقٍ　　وَقالَ لَنا: هذا أماني وذِمَّتي

39) فكونوا على أمْوالكُمْ وديارِكُمْ　　كما كُنْتُمْ من قَبْلُ دونَ إذايَةِ(131)

40) فلما دَخَلْنا تحتَ عَقْدِ ذمامِهِمْ　　بَدا غَدْرُهُمْ فينا بنقْضِ العزيمةِ

41) وخانَ عُهوداً كانَ قد غرَّنا بها　　ونَصَّرَنا كَرْهاً بعُنْفٍ وسَطْوَةِ

42) وأحْرَقَ ما كانَتْ لنا من مَصاحِفٍ　　وخَلَّطَها بالزِّبْلِ أو النَّجاسَةِ

43) وكُلُّ كِتابٍ كانَ في أمْرِ دينِنا　　ففي النّارِ ألْقَوْهُ بهزْءٍ وحَقْرَةِ

44) ولم يَتْرُكوا فيها كتاباً لمُسْلِمٍ　　ولا مُصْحَفاً يُخْلى بِهِ للقِراءَةِ

45) ومَنْ صامَ أو صَلّى ويُعْلَمُ حالُهُ　　ففي النّارِ يُلْقوهُ على كُلِّ حالَةِ

46) ومن لم يَجِيءْ مِنّا لِموضِعِ كُفْرِهِمْ　　يُعاقِبُهُ اللَّبّاطُ شَرَّ العُقوبَةِ

47) ويَلْطِمُ خَدَّيْهِ ويأخُذُ مالَهُ　　ويَجْعَلُهُ في السِّجْنِ في سُوءِ حالةِ

48) وفي رَمَضانَ يُفْسِدونَ صِيامَنا　　بأكْلٍ وشُرْبٍ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةِ

49) وقد أمَرونا أن نَسُبَّ نَبِيَّنا　　ولا نَذْكُرَنْهُ في رَخاءٍ وشِدَّةِ

50) وقد سَمِعوا قَوْماً يُغَنُّون باسْمِهِ　　فأدْرَكَهُمْ مِنْهُمْ أليمُ المَضَرَّةِ

51) وعاقَبَهُمْ حُكّامُهُمْ وَوُلاتُهُمْ　　بِضَرْبٍ وتَغْريمٍ وسِجْنٍ وذِلَّةِ

52) ومن جاءَهُ مَوْتٌ ولم يَحْضُرِ الَّذي　　يُذَكِّرُهُ لم يَدْفِنوهُ بحِيلَةِ

53) ويُتْرَكُ في الزِّبْلِ طَريحاً مُجَدَّلاً　　كَمِثْلِ حِمارٍ مَيِّتٍ، أو بَهيمَةِ

54) إلى غَيْرِ هذا من أمورٍ كَثيرةٍ　　قِباحٍ وأفْعالٍ غِزارٍ رَديئَةِ

55) وقد بُدِّلَتْ أسماؤُنا وتَحوَّلَتْ　　بغَيْرِ رِضىً مِنّا وغَيْرِ إرادةِ

56) فَآهاً على تَبْديلِ دينِ مُحَمَّدٍ　　بِدينِ كِلابِ الرُّومِ شَرِّ البَرِيَّةِ

57) وآهاً على أسْمائِنا حينَ بُدِّلَتْ　　بأسْماءِ أعْلاجٍ من أهْلِ الغَباوَةِ

(*) تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

(131) الأزهار: 111/1 : أذية.

58) وآهـا عـلى أبنـائنـا وبنـاتِنـا يـروحـون لِلْبَـاطِ في كُلِّ غـدوةِ

59) يُعَـلِّمُهُـمْ كُفـراً وزوراً وفِرْيَـةً ولا يقـدروا أن يَمْنـعـوهُـمْ بحيـلةِ

60) وآهاً على تِلْكَ المَساجِدِ صُيِّرَتْ[132] مَـزابِـلَ للكُـفَّـارِ بَعْـدَ الطَّـهـارَةِ

61) وآهاً على تِلْكَ الصَّوامِعِ[133] عُلِّقَتْ نَـواقيسُـهُـمْ فيـهـا نَظـيرَ الشَّـهـادةِ

62) وآهـاً علي تِـلْكَ البِـلادِ وحُسْنِهـا لَقَـدْ أُظْـلِمَتْ بـالكُفـر أعْظَـمَ ظُلْـمَـةِ

63) وصـارَتْ لِعُبَّادِ الصَّـليبِ معاقلاً وقـد أمِنـوا فيـهـا وُقـوعَ الإغـارَةِ

64) وصِـرْنا عبيداً، لا أسـارى فتُفْتَدى ولا مُسْـلِمـينَ نُطْـقُـهُـمْ بالشَّـهـادَةِ

65) فلو أبْصَـرَتْ عَيْناكَ ما صـارَ حالُنا إلَيْـه، لجـادَتْ بـالدُّمـوعِ الغَـزيـرَةِ

66) فيـا وَيْلَنـا، يابُؤسَ ما قَدْ أصـابَنا من الضُّـرِّ والبَلْـوى وثَـوْبِ المَـذَلَّةِ

67) سَـألْنـاكَ يـا مَوْلاي بِـاللهِ رَبِّنـا وبـالمُصْـطفى المُخْتـارِ خيْـرِ البَـرِيَّـةِ

68) وبـالسَّـادةِ الأخْيـارِ آلِ مُحَمَّـدٍ وأصْحـابِـهِ، أكْرِمْ بِهِـمْ من صَحـابَةٍ!

69) وبـالسَّـادة العَبَّـاس عَـمِّ نبيِّنـا وشَيْبَتِـه البَيْضـاءِ أفْضَـلِ شَيْبَـةِ

70) وبـالصـالحينَ العـارِفينَ بِرَبِّهِـمْ وكُلِّ وَلِيٍّ فـاضِـلٍ ذي كَرامَـةِ

71) عَسى تَنْظُروا فينـا وفيما أصـابَنـا لعـلَّ إلاهَ العـرْش يـأتي بـرحْمـةِ

72) فَقَـوْلُكَ مَسْمـوعٌ، وأمْرُكَ نـافِذٌ ومـا قُـلْت من شيْءٍ، يكونُ بِسُـرْعة

73) ودينُ النَّصارى أصْلُهُ تحْتَ حُكْمِكُمْ ومِنْ ثَـمَّ يـأتيهِـمْ إلى كُلِّ كورةِ

74) فبـالله يـا مَوْلاي مُنُّوا بفَضْـلِكُـمْ عَـلَيْنـا بِـرَأيٍ أو كَلامٍ بِحُجَّـةِ

75) فأنْتُمْ أولو الأفْضـالِ والمَجْدِ والعُلى وغَـوْثُ عِبـادِ اللهِ في كُلِّ آفَـةِ

76) فَسَـلْ بَـابَهُـمُ المقـيمَ بِرومَةٍ بمـاذا أجـازوا الغَـدْرَ بَعْـدَ الأمـانَـةِ؟

77) ومـالَهُـمْ مـالوا عَلَيْنـا بِغَدْرِهِمْ بِغَيْـرِ أذى مِنَّـا وغَيْـرِ جَـريمَةٍ؟

78) وجُنْـدُهُم المَغْلوبُ في حِفْظِ دينِنا وأمْـرِ مُـلوكٍ ذي وَفـاءٍ أجِـلَّةٍ

79) ولم يَخْـرُجوا من دينِهِمْ ودِيـارِهِـمْ ولا نـالَهُـمْ غَـدْرٌ ولا هَتْـكُ حُرْمَـةِ

80) ومن يُعْطِ عهْـداً ثم يغْـدرُ بعهْـدِه فـذاكَ حَـرامُ الفِـعْـلِ في كُلِّ مِـلَّةِ

81) ولا سِيَّما عِنْـدَ المُـلوكِ فـإنَّـهُ قَـبيحٌ شَـنيـعٌ لايجـوزُ بـوجْهـةِ

82) وقـد بـلَغَ المَكْتـوبُ منكُـمْ إليهِمْ فـلم يعْمـلوا منـهُ جميعـاً بكـلمـةِ

(132) في الأصل: صورت. الأزهار: 112/1 : سُوِّرت. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(133) في الأصل: الصوارم. والتصويب من: الأزهار: 112/1 .

83) وما زادَهُمْ إلا اعْتِداداً وجُرْأةً ... عَلَيْنا وإقْداماً بِكُلِّ مَساءَةِ
84) وقد بَلغتْ أرْسالُ مِصْرَ إلَيهمُ ... وما نالَهُمْ غَدْرٌ ولا هَتْكُ حُرْمَةِ
85) وقالوا لِتِلْكَ الرُّسْلِ عنّا بأننا ... رَضينا بِدينِ الكُفْرِ من غَيْرِ قَهْرَةِ
86) وساقوا عُقودَ الزُّورِ ممن أطاعَهُمْ ... وواللهِ ما نَرْضى بِتِلْكَ الشَّهادَةِ
87) لقد كَذبوا بِقَوْلِهِمْ وكلامِهِمْ ... عَلَيْنا بِهذا القَوْلِ أعْظَمَ فِرْيَةِ
88) ولكنَّ خَوْفَ القَتْلِ والْحَرْقِ رَدَّنا ... نَقولُ كما قالوا مِنْ غَيْرِ نِيَّةِ
89) ودينُ رَسولِ اللهِ مازالَ عِنْدَنا ... وتَوْحيدُنا للهِ في كُلِّ لَحْظَةِ
90) وواللهِ ما نَرْضى بتَبْديلِ دينِنا ... ولا بالذي قالوا مِنَ أمْرِ[*] الثلاثةِ
91) وإنْ زَعَموا أنّا رَضينا بدينِهِمْ ... بِغَيْرِ أذى مِنْهُمْ وغَيْرِ مَساءَةِ[134]
92) فَسَلْ «واجرى»[135] عن أهْلِها كَيْفَ أصْبَحوا ... أسارى وقَتْلى تَحْتَ ذُلٍّ ومِهْنَةِ
93) وسَلْ «بَلْفيقاً» عن قَضِيَّةِ أمْرِها ... لقد مُزِّقوا بالسَّيْفِ من بَعْدِ حَسْرَةِ
94) «ومُنْيافَةٌ» بالسَّيْفِ مُزِّقَ أهْلُها ... كذا فَعَلوا أيْضاً بأهْلِ الْبُشْرَةِ[136]
95) «وأنْدَرَشٌ» بالنّارِ أُحْرِقَ أهْلُها ... بجامِعِها، صاروا جَميعاً كَفَحْمَةِ[137]
96) «ومالَقَةٌ» أيْضاً كذالِكَ حالُها ... لقد أحْرَقَتْ أكْبادَنا أيَّ حَرْقَةِ
97) لقد سُبِيَتْ أمْوالُنا وَرِقابُنا ... وأمْوالُنا طُرّاً بِغَدْرٍ وحيلَةِ
98) وصِرْنا على الأوْطانِ مِلْكاً لغيرنا ... عَبيدَ الأعْلاجِ على غَيْرِ مِلَّةِ
99) وكَمْ عَذَّبوا مَنْ [قد] أبى أن يُجيبَهُمْ ... إلى دينِهِمْ ويُؤْذى أشَدَّ الإذايَةِ
100) فها نحن يا مَوْلايَ نَشْكو[138] إليكُمْ ... بهذا[139] الذي نَلْقاهُ من شَرِّ فِرْقَةِ
101) عَسى دينُنا يَبْقى لنا وصَلاتُنا ... كما عاهَدونا قَبْلَ نَقْضِ الْعَزيمَةِ
102) وإلا فَيُجْلونا جَميعاً من أرضِهِمْ[*] ... بأمْوالِنا لِلْغَرْبِ دارِ الأحِبَّةِ

---

(134) الأزهار: 114/1 : «بغير أذى منهم لنا ومساءة». وهو تحريف.

(135) وفي الأزهار: 114/1 : وحرا.

(136) بعده في الأصل: ثبت لبيت مثله، ثم كرر مرة بعد، ولاشك أن إثباته خطأ يفسد السياق

(137) الأبيات الأربعة التالية ساقطة في الأزهار وقد تفرد رياض الورد بروايتها.

(138) في الأصل: أشكو. والتصويب من الأزهار: 114/1 .

(139) الأزهار: 114/1 . فهذا.

(*) تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

103) فإجلاؤنا خيرٌ لنا من مُقامِنا ... على الكُفرِ في عِزٍّ على غيرِ مِلَّةِ

104) فهذا الذي نَرْجوهُ من عزِّ جاهِكُمْ ... ومن عِندِكُمْ تُقضى لنا كُلُّ حاجَةِ

105) ومِن عندِكُمْ نرجو زوالَ كُروبنا ... وما نالَنا من سوءِ حالٍ وذِلَّةِ

106) فأنْتُمْ بحمدِ اللهِ خيرُ مُلوكِنا ... وعِزَّتُكُمْ تعلو على كُلِّ عِزَّةِ

107) فنسأَلُ مولانا دوامَ حياتِكُمْ ... بمُلكٍ وعِزٍّ في سُرورٍ ونِعمةِ

108) وتهدينِ أوْطانٍ ونصرٍ على العدا ... وكَثرةِ أجنادٍ ومالٍ وثَروَةِ

109) وثُمَّ سلامُ اللهِ تتلوهُ رحمةٌ ... عليكُمْ مدى الأيَّامِ في كُلِّ ساعةِ

فكتب السلطان أبو يزيد حال للطاغية يتهدده فيه، ويقسم له إن أحدث فيهم، ليقتلنَّ كل من في تحت ذمته من الكفار، ويحرقه بالنار. فكف الطاغية عنهم، إلى أن حملوا أولادهم ومتاعهم وتوجهوا للسواحل، فأركبهم في السفن، وأنزلهم بر العدوة الغربية.

وصارت الأندلس كلها دار كفر. ولم يبق من يجهر فيها بكلمة التوحيد. وهذه المصيبة في الإسلام لا أعظم منها بعد المصيبة بفقد المصطفى، عليه السلام.

وقد كثرت فيها المراثي، وتنافست في شجوها القرائح. وتباكى العادي والرائح. من ذلك قصيدة للشيخ أبي العباس، أحمد بن محمد الدقون[140]، المبكية لكل أديب أريب، المسماة بـ:

الموعظة الغراء، بأخذ الحمراء[141]

[البسيط]

1) أبنتَ مِنْ عكسِ آمالٍ وأحوالِ ... وعِشْتَ ما بين أغمامٍ وأخوالِ

2) ولا ابتُليتَ بما في القلبِ مِنْ نَكَدٍ ... فالجِسْمُ مُشتغِلٌ من غيرِ أشغالِ

3) وكَيفَ لا، وبِقاعُ الدينِ خاليةٌ ... من أرضِ أندلُسٍ من أجلِ أهوالِ!

---

(140) أحمد بن محمد المصبحي، مشهور بالدقون، أديب فقيه (ت 921 هـ) ترجمته في: الأزهار 1/104، النيل 88، درة 1/92 – 93 رقم 131، الجذوة 1/132 رقم 69، الشجرة 1/276 رقم 1031. السلوة: 3/248. التوشيح: 64. رقم 36.

(141) القصيدة في الأزهار: 1/104 – 108.

4) عَمَّتْ نَقَمْتُ قُلوبَ المُسلِمينَ فيا . . . لِلْمُسْلِمينَ مِن أعْداءٍ(*) وأنكَالِ

5) جاشَتْ بها من جُيوشِ الكُفْرِ ما دَرَسَتْ . . . بِهِمْ مَعالِمُ أخْيارٍ وأقْيالِ

6) أَهْلُ الشَّجاعَة، أَهْلُ العِلْمِ أَهْلُ تُقى . . . أَهْلُ النَّفاسَةِ في قَوْلٍ وأفْعالِ

7) عَنْهُمْ وفيهِمْ أَحاديثُ النَّبيِّ بَدَتْ . . . وهُمْ مَعاقِلُ قَوْلِ اللهِ للتّالي

8) رُهْبانُ لَيْلٍ وفُرْسانُ النَّهارِ فمن . . . يُلم[142] بِساحَتِهِمْ يَظْفرْ بِآمالِ

9) ولا عجيبَ فيهِمْ سوى أنَّ المُصافَ لَهُمْ . . . يَسْلو عن أهْلٍ(*) وأوْطانٍ وأمْوالِ

10) فهَلْ تَرى بَعْدَ هذا النَّفْسَ سائِلَةً . . . وكَيْفَ تَسْأَلُ عن وَصْفٍ وعَنْ حالٍ؟!

11) تاللهِ لازالَ ما في القَلْبِ من أَسَفٍ . . . ولو أكونُ حَليفَ المَنْزِلِ الحالي

12) أو يفتحَ اللهُ في نَصْرٍ يَمُنُّ بِهِ . . . فاللهُ باقٍ بَقي من كُلِّ مُخْتالِ[143]

13) قد رامَ إطْفاءَ نورِ اللهِ مُجْتَهِداً . . . وباذِلاً كلَّ ما قد حازَ من مالِ

14) سَطَا بِجَيْشٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في عُدَدٍ . . . نَعَمْ، وفي عَدَدٍ من رَهْطِ أَبْطالِ

15) مُؤَيَّداً بِاجْتِماعِ المِصْرِ يَتْبَعُهُ . . . شَرُّ الخَلائِقِ مَسْروراً بِإقْبالِ

16) يَسْبي المَسامِعَ بالأنْفاضِ مُشْبِهَةً . . . وَقْعَ الصَّواعِقِ في هَدٍّ وزِلْزالِ

17) يَبْني لِيَهْدِمَ ما الإسْلامُ شَيَّدَهُ . . . والوَصْفُ يُعْجِزُ من يُدْعى بِقَلْقالِ

18) فَهْوَ المُقاتِلُ في الأبْراجِ مُنْتَقِلٌ . . . إلْفَ النُّحوسِ، وتغْييرٍ وتَرْحالِ

19) فاسْتَوطَنَ المَرْجَ لايَنْوي الرَّحيلَ ولا . . . يخشى المُغيثَ بِسَهْلٍ أو بِأجْبالِ

20) والمُسلمون مِن الأضْغانِ قد مُلِئَتْ . . . قُلوبُهُمْ، وأبَوْا تَسْديدَ أخْلالِ

21) والحَقُّ مُخْتَلِفٌ، والحُمْقُ مُؤْتَلِفٌ . . . والكُلُّ مُنْصَرِفٌ، عن نَصْرِ أبْطالِ

22) وهُمْ لَدَيْهِ كَطَيْرٍ، وَهْوَ يَنْتِفُهُ . . . والطَّيْرُ يَرْجو البَقا مَعْ كَيْدِ قَتّالِ

23) إذ تَجَرَّدَ من ريشٍ يَطيرُ بِهِ . . . أضْحى يُدافِعُ عن روحٍ بِأوْصالِ

24) شَدُّوا مَسالِكَ أرْزاقٍ ومَنْفَعَةٍ . . . كَدودَةِ القَزِّ في نَسْجٍ لِسِرْبالِ

25) ثم اسْتَغاثوا: ألا فُرْسانٌ عادِيَةٌ . . . قالَ الصَّدى: لَسْتَ ذا رُمْحٍ ونَبّالِ

26) الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ ما أمَّلْتِ من لَبَنٍ . . . ففارَقَ الجَيْحَ من تَدْخينِ نَحّالِ

---

(142) الأزهار: 105/1 : يلمم.

(*) تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

(143) في الأصل: مختال. والتصويب من: الأزهار: 105/1 .

27) وارْحَلْ بنخلك نحو الغرْبِ في كَرمٍ — من قَبْلِ وَضْعك في قَيْدٍ وأغْلالِ
28) فاسْتَمْكَنَ الرُّعْبُ في الأكْبادِ واتّفقتْ — بَعْدَ اخْتلافٍ على تَأْمينٍ[144] أَنذال
29) واحْتلَّ غَرْناطةَ العزّاء مُذْ عدمَتْ — حَبَّ الحَصيدِ، ونَصْرَ اللهِ والآلِ
30) كأنّها الشَّمْسُ في أُفُقِ العُلى كسفت — فهلْ على طللٍ ترْمي بأطْلالِ؟!
31) وهل يَعودُ لها الدينُ الذي أتِيَتْ[145] — بِهِ. وقد أيِسْتُ من فتحِ أنْدالِ؟!
32) وهَلْ تعودُ لَيالٍ قد سَلَفْنَ بها — ونحن لانَشْتكي تَشْكيةَ ضُلّالِ؟!
33) فأصْبَحوا لاتَرى إلا مَساكِنَهُمْ — كَمِثْلِ عادٍ، وما عادَ بأشْكالِ
34) قد فُرِّقوا كُسْباً في كُلِّ مَنْزِلَةٍ — وقد سَبا عِدَّةً من أيْدٍ أوْ عالِ
35) فلا المساجدُ بالتوحيدِ عامِرَةٌ — إذ عَمَروها بِناقوسٍ وتِمْثالِ
36) ولا المَنابِرُ تنزغساط بارِزَةٌ — لِلأَمْرِ والنَّهْيِ أو تَذْكيرِ آجالِ
37) ولا المكاتِبُ بالصِّبْيانِ[146] آنِسَةٌ — تَتْلو القُرآنَ بأسْحارٍ وآصالِ
38) آهٍ[147] على الدينِ والدُّنيا وما نَفَعتْ — آهٍ إذا صَدَرَتْ مِنْ قَلْبِ بَطّالِ؟!
39) إنّا إلى اللهِ، والرُّجْعى لهُ وبِهِ — تعلَّقَ القَلْبُ في تصْحيحِ إغْلال
40) وكان ما كان، والألْطافُ شاملةٌ — لاحتْ بِقلةِ شُبّانٍ وأطفالِ
41) فلْنَكْرِمِ الآنَ من يَنزِلْ بِمَنْزِلِنا — فالدَّهْرُ ذو دُوَلٍ. فاسْمَعْ لأمثالِ
42) وإذْ ولا قُذرة تُدْني المُنى فلهُمْ — حَقُّ الجِوارِ فلا يُوصَفْ بإهْمالِ[148]
43) تلْقاهُمْ ولهُمْ بِشْرٌ ومَعْذِرةٌ — ورَحْمَةٌ، يا حُماةَ العَمِّ والخالِ
44) ولا تَذُدْ عن وُرودِ الحَوْضِ وارِدَهُ — ولا تَدَعْ قَوْلَ ذي نُصْحٍ وإجْمالِ
45) إخوانُكُمْ رفَعوا أيْدي الضَّراعةِ مَعْ — كَسْرِ القُلوبِ فلا يُلْقَوْا بإخْمالِ
46) وقُلْ لِوالٍ: تلَطَّفْ في مَغارِبِهِمْ — يَعْطِفْ بك اللهُ إذْ تُدْعى لأحْمالِ
47) هذا النَّذيرُ جِهاراً جاءَ يُنْذِرُنا — والأُذْنُ في صَمَمٍ عن قيلٍ أو(*) قال

---

(144) في الأصل: تأمير [illegible] والتصويب من الأزهار: 106/1
(145) الأزهار: 106/1 : هذا البيت متأخر عما بعده.
(146) في الأصل: للصبيان. والتصويب من: الأزهار: 107/1 .
(147) في الأصل: آها. والتصويب من: الأزهار: 107/1 .
(148) الأزهار: 107/1 : ولا توصف.
(*) تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

48) وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرادُ بِنَا … نَمْشِي عَلَى مُهْلَةٍ مِن طُولِ إِهْمالِ[149]

49) يا أَهْلَ فاسَ: أَما فِي الْغَيْرِ مَوْعِظَةٌ؟ … إِنَّ السَّعِيدَ لَمَوْعُوظٌ بِأَمْثالِ

50) فَقُلْ. تَعالَوا إِلى نُصْحٍ وَتَذْكِرَةٍ … فَالأَمْرُ جِدٌّ، فَلا تَصْحَبْ لِمِكْسالِ

51) كَيْفَ الحَياةُ إِذا الحَيّاتُ قَدْ نَفَحَتْ … عَلى السَّواحِلِ أَوْ هَمَّتْ بِإِرْسالِ؟!

52) وَلا سَبِيلَ إِلى التِّرْياقِ غَيْرُ تُقى … وَالحَزْمِ فِي سَعَةٍ مِن قَبْلِ إِعْجالِ

53) وَالأَخْذِ بِالجِدِّ فِي جَمْعِ القُلُوبِ عَلى … بَذْلِ النَّصِيحَةِ أَوْ إِبْراءِ أَدْخالِ

54) وَالزُّهْدِ فِي هَذِهِ الدُّنْيا وَزُخْرُفِها … وَالأَمْرِ بِالْعُرْفِ مَعْ تَحْسِينِ مِقْوالِ

55) وَلا نَرُمْ فِي أَمانِ الرُّومِ مَنْزِلَةً … خَوْفاً عَلى الدِّينِ، أَوْ بُعْداً مِنَ أنْذالِ(*)

56) فَمَنْ يَبِتْ فِي أَمانِ الكَلْبِ مُنْتَصِباً … لِسُخْطِ[150] مَوْلى، وَلا عُذْرَ بِأَثْقالِ

57) وَارْبأْ بِنَفْسِكَ عَنْ أَرْضٍ تُهانُ بِها … فَحَيْثُما كُنْت. لاتخش[151] مِن أقْلال(*)

58) فَالمَوْتُ عِندِي خَيْرٌ مِن حَياةِ فَتى … قَدِ اكْتَسى بَعْدَ عِزٍّ ثَوْبَ إِذْلالِ

59) وَالْهِجْرَةُ الآنَ قَدْ عادَتْ كَما سَبَقَتْ … فَافْهَمْ تَفاصِيلَ أَقْوالٍ وَإِجْمال

60) وَاخْتَلْ بِذِهْنِكَ، وَلْتَسْمَعْ نَصائِحَ مَنْ … قَدْ طَبَّ مِنْ حُبٍّ، لَمْ يُوصَفْ بِمُخْتالِ

61) فِي صَدْرِ سَبْعٍ عَلى التِّسْعِينَ زائِدَةٍ … شَمْسُ الجَزِيرَةِ غابَتْ بَعْدَ إِكْمالِ

62) وَبَلَّغَ الكَلْبُ ماقَدْ شاءَ مِن أَرَبٍ … إِذْ لَمْ يَجِدْ ذائِداً عَنْ دِينِنا العالِي

63) لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ قَدَّرَهُ … وَالأَمْرُ للهِ فِي قَوْلٍ وَأَفْعالِ

64) وَقَدْ وَعَظْتُ، وَلَوْ أَسْمَعْتُ لانْتَشَرَتْ … سَحائِبُ الدَّمْعِ لَمْ تُقْلِعْ عَنِ إنْزالِ

65) فَلْيَشْتَغِلْ كُلُّ مِسْكِينٍ بِمُهْجَتِهِ … وَاللهُ يَحْفَظُنا مِنْ كُلِّ مِهْوالِ

66) ثُمَّ الصَّلاةُ عَلى المُخْتارِ سَيِّدِنا … مُحَمَّدٍ وَالرِّضى عَنْ آلِ أَوْتالِ(*)

---

(149) الأزهار: 107/1 : إمهال.

(150) في الأصل: أسخط.

(151) الأزهار: 107/1 : لا يخشى

(*) تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

الباب الخامس



الباب الخامس

[أبو عبد الله محمد ابن الحاج السُلمي، الداخل إلى فاس من الأندلس]

ثم نعطف على الفصل، أن أول من قدم من سلف الشيخ أبي الفيض، حمدون ابن الحاج، رحمه الله، من جزيرة الأندلس، واستوطن فاسا من عدوة المغرب، واتخذها دار قراره ومن بعده من الأبناء، هو أبو عبد الله، محمد، ثامن آبائه.

كان على ما سمعنا من قدماء أسلافه، مؤثرا للخمول والبعد من الناس، والقلة في العيش، والميل للأيسر، والبراءة من التكلف، مقتصرا من الدنيا على ما لا بد منه، غير ناظر إلى زهرتها، منقبضا عن أهلها، متنزها عن الخوض فيما هم فيه من أمر دنياهم، لا يلابسهم إلا من حيث المندوحة عنه، متعززا بالله تعالى، عليهم، مع ما له من الحسب، وخفض الجناح، وطيب الأخلاق، وحسن السمت، ومؤالفة المساكين والضعفاء، وحب أهل البيت، والانحياش إلى الله.

ولا زال ماء التكوين يجري عنه في الأصلاب الطاهرة، إلى أن كان منه الخيّر الديّن الصالح، جامع جميع أرحامهم، أبو عبد الله، محمد العربي، خامس آباء أبي الفيض، فنفحت فيه وفي أعقابه حضارة مدنية تمج الطيب، حتى صاروا كأزهار روضها في الغصن الرطيب، فاتفق لهم فيه من المفاخر، ما اتفق لجدهم أبي إسحاق في الزمن الغابر، فكان فيهم من الأئمة والقضاة والعدول، والكتاب وولاة الأحباس عدد كثير.

[فوائد عن مدينة فاس]

الأولى:

مدينة فاس من أعظم وأحسن المدن بالمغرب. أسسها الإمام مولانا إدريس بن إدريس[1] في الخميس، غرة ربيع الأول، سنة اثنين وتسعين ومئة (192 808) ولما عزم على تأسيسها، رفع يديه إلى السماء وقال:

«اللهم اجعلها دار فقه وعلم[2]، يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، واجعل أهلها متمسكين بالكتاب[3] والسنة والجماعة ما أبقيتها[4].

اللهم وفق سكانها وقطانها للخير، وأعنهم عليه، واكفهم مؤونة أعدائهم، وأدر[5] عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق[6]. إنك على كل شيء قدير[7]»

ثم أخذ المعول بيده، وابتدأ حفر الأساس، وتبعه الفعلة في ذلك. فلم تزل دار فقه وعلم وإقامة سنة، ببركة دعائه وبركته. رضي الله عنه.

[فضل مدينة فاس]

ويكفي في فضلها ما رواه أبو ميمونة، سيدي دراس[8] بن إسماعيل[9]، عن علي

---

(1) المتوفى سنة 213 هـ. أخباره في الاستقصا 1 161 — 171 الأنيس المطرب 29 — 32 الجذوة 1 160 — 162 رقم 113 جنى الآس 19 — 28 [illegible] الأعلام 196 — 202.

(2) الأنيس المطرب: 36 : علم وفقه.

(3) الأنيس المطرب: 36 : مستمسكين بالسنة.

(4) أدمج المؤلف هنا خطبتين في واحدة انظر الأنيس المطرب 36 49 جنى الآس 22 — 23 26 . الجذوة: 36/1 . 39 .

(5) جنى الآس: 26 : أدرر.

(6) جنى الآس: 26 : النفاق. الأنيس المطرب: 49 : الشقاق والنفاق.

(7) الدعاء في: الاستقصا: 167/1 .

(8) في الأصل: إدريس. وهو تحريف.

(9) عالم كبير (ت 357 هـ) ترجمته في: الجذوة 194/1 — 196 رقم 155 تاريخ العلماء 1 264 رقم 432 الترتيب 81/6 — 84 السلوة 175/2 — 179 بغية الملتمس 278 ، رقم 378 . النبوغ: 49/1 — 50 .

بن أبي مطر[10]، عن ابن المواز، عن ابن القاسم، عن مالك، عن ابن شهاب، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال[11]:

«تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس، أقوم أهل المغرب قبلة[12]، وأكثرهم صلاة، أهلها على السنة والجماعة، ومنهاج الحق. لايزالون متمسكين به. لايضرهم من خالفهم. يدفع[13] الله عنهم كل[14] ما يكرهون إلى يوم القيامة». انتهى. والمراد بالقبلة في الحديث الدين والملة، كما في قولهم: لايكفَّر أحد من أهل القبلة، لاالتي يصلى اليها، وإلا فمحاريبها مطعون فيها.

[ثناء الشعراء على فاس]

وما زال الشعراء يلهجون بمحاسنها، والثناء عليها منذ أسست إلى الآن. فمن ذلك قول أبي عبد الله المغيلي[15]، حين ولي القضاء بآزمور:

[الكامل]

1) يا فاسُ: حَيّا اللهُ أرضَكِ من ثرى	وسقاكِ من صَوْبِ الغمامِ المُسْبِلِ[16]
2) يا جنّةَ الدُّنيا التي أرْبتْ على	حمص[17] بمنظرها البهيّ الأجملِ
3) غرفٌ على غرفٍ، ويجري تحتها	ماءٌ ألذُّ من الرّحيقِ السَّلْسلِ
4) وبساتنٌ من سندسٍ قد زُخرفتْ	بجداولٍ كالأيْمِ أو كالفَيْصلِ

---

(10) في الأصل: أبي مضر. والتصويب من الأنيس المطرب: 37 .

(11) لاشك في أن هذا حديث موضوع، وهو في الأنيس المطرب: 37 مع اختلاف طفيف. جنى الآس: 20 مع ألفاظ مطابقة. الجذوة: 34/1 .

(12) الأنيس المطرب: 37: «ستكون مدينة تسمى فاس، أهلها أقوم أهل المغرب قبلة»

(13) في الأصل: يرفع. والتصويب من: الأنيس المطرب: 37 . جنى الآس: 20 .

(14) سقطت الكلمة من الأنيس المطرب وجنى الآس.

(15) محمد بن عبد الرحمن، فقيه فاسي. (ت 684 هـ) ترجمته في: الدرة: 249/1 . رقم 729. الجذوة: 315/1 . رقم 319 .

(16) قصيدة في الأنيس المطرب: 34. جنى الآس: 33. النفح: 128/7 (وهي فيه للمزدغي). الاستقصا: 168/1. الجذوة: 315/1 . المحاضرات: 51. الأزهار العاطرة: 153

(17) المحاضرات: 51 . الجذوة: 315/1 : عدن.

وأنشد أبو الفضل ابن النحوي[18]، صاحب المفرجة[19]:

[البسيط]

1) يا فاسُ مِنْكِ[20] جَميعُ الْحُسْنِ مُسْتَرَقٌ   وسـاكِنـوكِ أهَنِيهِمْ. لَقَـدْ[21] رُزِقوا

2) هـذا نَسيمُكِ، أمْ رَوْحٌ لراحَتِنـا؟   وماؤُكِ السَّلْسَلُ الصافي، أم الْوَرِقُ؟

3) أرْضٌ تُخلِّلُها الأنْهارُ داخِلَها   حَتّى المجالِسُ والأسْواقُ والطُّرُقُ

وأنشد أبو الفيض حمدون، زمن رحلته للحجاز[22]:

[الكامل]

1) لولا دِيارُ المُصْطَفى ورُبوعُهُ   ما شاقَني فاسٌ ولا أطْلالُها

2) فاسٌ، لعَمْري، جَنَّةٌ قد زُخْرِفَتْ   نَسَماتُها فاحَتْ، وفاحَ ظِلالُها

3) غُرَفٌ بَدَتْ، مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ جَرَتْ   من تَحْتِها الأنْهارُ. دامَ جَمالُها

وأنشد في ميميته، عندما تعرض لذكر مولانا إدريس[23]:

[البسيط]

1) وشَيَّدَ الدّينَ فاشْتَدَّتْ قواعِدُهُ   وبَلْدَةٌ هِيَ شامُ الشّامِ، إنْ تَشِمِ

2) دارُ الهُدى، مُسْتَقَرُّ الْعِلْمِ، زاوِيَةٌ   لِلأوْلِياءِ، مَحَطُّ البِرِّ والكَرَمِ

3) فاسٌ، وما هِيَ إلا جَنَّةٌ حصَلَتْ   مِنْ تَحْتِ سَيْفٍ، وآلُها ذَوُو نِعَمِ

4) تَبْدو لَهُمْ غُرَفٌ، مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ   وَقَدْ جَرَتْ تَحْتَها الأنْهارُ مِنْ شِيَمِ

5) رَوْضٌ وأُفْقٌ بَنو مُبْديهِ(*) فيهِ بَدَتْ   زَهْراً وزُهْراً، فَشُمَّ طِيبَهُ وَشِمِ

---

(18) أبو الفضل بن يوسف. فقيه متصوف (ت 513 هـ) ترجمته في: التشوف 99 ـ 101 . رقم 9 التكملة. رقم 2098 . الذيل: 434/8 ـ 436 رقم 228 . الجذوة 2 552 ـ 553 رقم 643 . النيل: 349 . الأنيس المطرب: 33 ـ 34 . البستان: 299 الاستقصا 2 74

(19) القطعة في. الأنيس المطرب 34 جنى الآس. 31 الجذوة 553/2 الاستقصا 1 168 المعرب المبين: 16 . الأزهار العاطرة: 154 .

(20) في الأصل: منك. وفضلنا رواية المصادر المذكورة.

(21) الأنيس المطرب 34 . «ليهنهم بما رزقوا». جنى الآس 31 . «وليهنهم بعد رزقوا» الجذوة 553/2 : «أهنيهم بما». الاستقصا: 68/1 : «ليهنهم بما رزقوا».

(22) الأبيات في: ديوانه: 172 . الأزهار العاطرة: 154 .

(23) لم ترد الأبيات فيما نشر من شرح عقود الفاتحة. والبيتان الأولان في: الأزهار العاطرة: 144 .

(*) كذا بالأصل.

وأنشد آخر[24]:

[البسيط]

1) يـا غـدْوَةَ القَـرويّـين الّتِي كُرُمتْ . لازال جـانبُـكَ المحْـورُ مَعْـمـورا[25]

2) ولا سـرى الله عنهـا ثوْب نِعْمتـهِ . أرْضٌ تَجـنّبَتِ الآثـام والزّورا

[حالة أهل فاس النفسية وسببها]

الثانية:

كثيراً ما تتوارد على فاس الأحزان والبؤس، حتى قيل إنها بُنيتْ عام «قبض»، فلا يصحو أحد منهم. وفي ذلك قال بعضهم: «فاس لعمري» (*) البيتين. وحسبهما من قال:

[البسيط]

1) أمْعنتُ فكْري في الدُّنْيا وبهجتها . وثقْتُ أنَّ لفاسٍ حسْن شكْلتها

2) وقُلْتُ إذْ ولعتْ نفْسي بجوْلتها . «فاسٌ لعمْري، هي الدُّنْيا بأجْمعها

3) لَوْ لَمْ يَكُ الْقَلْبُ فيها ضيِّقاً حَرِجا»

4) فكُنْ لظنعها يا صاح في حذرٍ(**) . وحُزْ بها سكناً، واحْللْ على سَفَرِ

5) قدْ قيلَ لي وصْفِها في سالف الأثَرِ . «من حلَّ ساحَتَها، لمْ ينْجُ منْ كَدرٍ

6) كأنّما همُّها بمائها مُزِجا»

وسبب ذالك أمران:

أحدهما: كثرة التوسعات الدنيوية بها، إذ بقدرها يكون الغمّ، وترادف الأحزان، كما في «الحكم» لابن عطاء الله[26]: «ليَقِلَّ ما تَفْرَحُ به، يَقِلَّ ما تَحْزَنُ

---

(24) البيتان في أنباء المغرب 1/237 . جنى الآس 31 — 32 . معجم البلدان 4/231 . المسالك 117 . وهما لمحمد بن إسحاق البجلي. (صحف في معجم البلدان فصار الحليلي).

(25) جنى الآس 31 محورا. المسالك والممالك 117 مضورا. معجم البلدان 4/321 : «جانبك المحبوب ممطورا».

(*) البيتان في: الأزهار العاطرة: 238 . الدر النفيس: 279 .

(**) الشطر ساقط الوزن.

(26) أبو الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله صوفي مصري (ت 709هـ) ترجمته في الوافي 8/57 — 58 رقم 3471 . الدرر الكامنة 1/273 — 257 رقم 700 . الديباج 1/242 — 243 . الدرة: 1/12 . رقم 9 . معجم المطبوعات: 240 . رقم 550 .

عَلَيْهِ»[27]، فإن مفهومه أن بقدر ما يفرح به الانسان، يكون حزنه.

ثانيهما: ما ذكره ولي الدين ابن خلدون في المقدمة[28]، «أنه تقرر في موضعه من الحكمة، أن طبيعة الفرح والسرور، هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه. وطبيعة الحزن بالعكس، وهي انقباضه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار، مخلخلة له، زائدة في كميته.

وهذا يجد المُتَنَشّي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه. وذالك بما يداخل البخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سَوْرة الخمر في الروح، وتجيء طبيعة الفرح.

ولذالك تجد المتنعمين بالحمامات، إذا تنفسوا في هوائها، واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم. فسخنت لذالك أرواحهم. وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. والبرودة بالعكس في ذالك كله.

ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار، واستولى الحرّ على أمزجتهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم أكثر تفشياً، فتكون أسرع فرحاً وسروراً. ويجيء الطيش على إثر هذه. فمن ثَمَّ نشاهد من خلق السودان على العموم الخفة والطيش، فتجدهم مولعين بالرقص، موصوفين بالحمق.

وقد تجد يسيراً من ذالك في أهل البلاد الجريدية من الأقليم الثالث، لتوفر الحرارة فيها وفي أهوائها، لأنها قريبة[29] في الجنوب، من الأرياف[30] والتلول.

واعتبر ذالك أيضاً في أهل مصر، فإنها في مثل عرض البلاد الجريدية وقريب منها، كيف غلب الفرح عليهم، والخفة والغفلة عن العواقب، فشأنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم. وعامة مأكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب،

---

(27) شرح الحكم: 45 .

(28) المقدمة: 391/1 ــ 392 . «باب في أثر الهواء في أخلاق البشر». والملاحظ أن المؤلف تصرف تصرفاً شديداً في النص بالزيادة والنقص.

(29) في الأصل: عربية. وفي المقدمة 392/1 : عريقة. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(30) في الأصل: عن الارفاق. والتصويب من المقدمة: 392/1 .

بالعكس منها في التوغل في الجبال الباردة، كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن في نظر العواقب، حتى إن الرجل منهم ليدّخر قوت سنين من حبوب الحنطة وسائر الأقوات، ويشتري قوته ليومه، مخافة أن يرزأ في شيء من مدخره». انتهى ما ذكره ابن خلدون ملخصاً.

[هجاء الشعراء لفاس]

الثالثة:

قد أكثر الشعراء في مدحها والثناء عليها، مذ بنيت إلى الآن. وقد أنشد سيدي مصباح[31]، نبذة من ذالك في «أنس السمير، في مهاجاة الفرزدق وجرير»، في فصل المدح من الباب الرابع منه، وقد تقدم بعض ذالك.

وقال في فصل الذم:

«إن أهلها مهجوُّون قديماً وحديثاً، موصوفون بقلة الوفاء ونقض العهد، وشدة البخل، وبغض من يساكنهم ممن ليس من جنسهم. وقد أكثر الشعراء من وصفهم بهذه الأخلاق. قال ابن الخطيب[*]:

[الوافر]

1) أفاسي الحُبُّ فيك، وأنتَ فاسي	وقلبي من وِدادِكَ غيرُ ناسي
2) وصبري عنك، تعلمُهُ قليلاً،	أقلُّ مِنَ الوَفاءِ بأهلِ فاسِ
3) بلادٌ لم تذرْ وَطَناً لِحُرٍّ	ولا طُوِيَتْ على رَجُلٍ مُواسي[**]
4) فأمّا أرضُها فأجلُّ أرضٍ	وأما ناسُها فأقلُّ ناسِ

---

(31) علي مصباح الرروبلي (ت 1150هـ). أديب من عصر المولى إسماعيل. ترجمته في: النبوغ: 315/1. تاريخ تطوان: 119/7. الحياة: 220 — 228.

(*) لم نجد هذا النص فيما نشر من شعره. والبيتان الأخيران في: معجم البلدان: 231/4، منسوبان إلى البكّي الشاعر الأندلسي.

(**) كذا بالأصل. ورواية البيتين في معجم البلدان: 231/4:

1) فأما أرضُها فأجلُّ أرضٍ	وأما أهلُها فأخسُّ ناسِ
2) بلادٌ لم تكنْ وَطَناً لِحُرٍّ	ولا اشْتَمَلَتْ على رَجُلٍ مُواسي

قوله: لم تَذَرْ....» الخ: يعني أنها جلبت الناس إليها من كل وطن، ولم تترك أحداً في وطنه، لأجل حسنها وكثرة خيراتها. وقال الآخر فيها أيضاً:

[الخفيف]

1) أهْلُ فاسٍ أهْلُ الخَنا والوَضاعَةْ	تَخِذوا البُخْلَ حِرْفَةً وصِناعَةْ
2) لَيسَ مِنهُمْ شَيْخٌ ولا حَدَثٌ إلا (م)	اقْتَنى اللُّؤْمَ في زَمانِ الرَّضاعَةْ
3) إن يَضِفْهُمْ، ولَوْ نَبِيٌّ رَسولٌ،	ماتَ جوعاً، إنْ لَمْ يَكُنْ ذا بِضاعَةْ

[حضارة أهل فاس]

الرابعة:

الحضارة بفاس لا مفخر بعدها عند عامة الناس، إلا من كان من بيت آل الرسول، الذين دخلوا من باب الشهرة لمكان القبول. ومرجعها عندهم إلى تقدم سلف في العلم والثروة، وتنوع ولاية المناصب، مع القدم بفاس، إلى نحو أربع مئة سنة فما فوق. وغايتها مصاهرة الأشراف، والتطاول إلى مقاومتهم في الصولة وعلو الهمة عن تعاطي الدناءات، مع الوُقوف عند عوائد اصطلحوا عليها في إقامة ولائمهم ومآتمهم، وفي شهودهم لها عند غيرهم، وفي غير ذالك من أنواع الملابس والمآكل.

وقد توجد هذه الغاية أو بعضها لغيرهم، ممن لابسهم كثيراً بتكرر المصاهرة، فلا تقبل منه لمكان الملابسة. ولا مدخل للجود في حقيقتها، بل هم كغيرهم في الجود والبخل. ولا تُخْتَصُّ بالعرب. ولا يُنكِر معناها بعد ظهورها في أهلها أوضحَ من الشمس، إلا جاحد أو حاسد.

وقد شنَّع العلامة النحوي، اللغوي الأصيل، أبو عبد الله، محمد ابن الخياط، الشهير بابن إبراهيم الدكالي[32] المشنزائي، على بعض من أنكر معناها بقوله:

[البسيط]

1) عابَ الحِضارَةَ قَوْمٌ لا خَلاقَ لَهُمْ	إذْ لَمْ يَنالوا نَصيباً من مَبانيها
2) قالوا عَلَى حَسَدٍ أضْنَى قُلوبَهُمُ:	هذي الحَضارَةُ لا نَدْري مَعانيها

(32) فقيه فاسي. (ت 1184هـ) ترجمته في: النشر: 4/196 ــ 197 .

3) فَقُـلْتُ: إنَّ الَّذي أَنْكَـرْتُـمُ عَرَض	بـاقٍ، ومِنْ دونِـهِ الدُّنْيـا ومـا فيـا
4) إذِ الحَضَـارَةُ أَخْـلاقٌ مُهَـذَّبَـةٌ	الجـودُ أَوَّلُهـا، والفَضْـلُ ثـانيهـا
5) ونِسْبَـةُ العَـرب [(33)]	وأَرْضُ فـاسٍ، بـه تَبْـدو مَغـانيهـا
6) وصِـهْـرُ آلِ رَسـولِ اللهِ شَـرَّفَهـا	فمـن يُطـاوِلُهـا، أو مَنْ يُدانيهـا؟
7) أَكْرِمْ بهـا، وبِـأَقْوامٍ بهـا اشْتَهروا	وصَـرَّحَتْ بِثَـنـائِهِـمْ مَثـانيهـا!
8) عِـرْضٌ نَقِـيٌّ، وأبيـاتٌ مُطَهَّـرَةٌ	وقـد تَحَـلَّى بِتَـقْـوى اللهِ بـانيهـا
9) يا حاسِداً رامَ غضّاً من مَناصِبِهِمْ:	أَتْعَبْتَ نَفْسـكَ سَـعْيـاً في أمـانيهـا
10) هلْ يحْجُبُ الشَّمسَ، يا مِسْكينُ، في خملٍ	نَسْـجُ العَنـاكِبِ عَنْ عَيْنَيْ مُدانيهـا!؟

لولا أنه جعل الجود من أركانها، وخصها بالعرب.

[حالة المناصب النبيلة بفاس]

الخامسة: تحمل الشهادة

كان بفاس وغيرها في القديم حرفة كثير من أكابر الفقهاء المفتين وأهل الشورى. لا يُرضى لها إلا من ترضى بطانته وديانته.

ولما زوّج الإمام أبو العباس الونشريسي[34] ولده أبا مالك، عبد الواحد[35]، أطلق عبه القاضي المكناسي[36] تحمل الشهادة، وقال لأبيه: هذه هديتي للعروس، وهذه الخطة عندي عزيزة، فمن طلبها مني، فكأنما يخطب إلي ابنتي. وما كان شهود فاس في تلك

---

(33) بياض في الأصل.

(34) أحمد بن يحيى. عالم كبير. (ت 914هـ) ترجمته في الأزهار: 307/3 الدوحة: 47 ــ 48 . النيل: 87 ــ 88 . الجذوة: 156/1 ــ 157 . رقم 105 الدرة: 91/1 ــ 92 . رقم 130 . الفهرس: 1122/2 ــ 1123 رقم 633 . الدرر: 332/2 . السلوة: 253/1 . معجم المطبوعات: 367 ــ 368 . رقم 843 .

(35) عبد الواحد بن أحمد. فقيه مشارك. (ت 955هـ) ترجمته في: الدوحة: 52 ــ 54 . الدرة: 139/3 ــ 140 . رقم 108 . النيل: 188 ــ 189 . المرآة: 164 ــ 165 . النشر: 45/1 . الدرر: 323/2 ــ 325 . السر: 77 .

(36) أبو عبد الله، محمد بن عبد الله اليفرني القاضي المكناسي (ت 917هـ) ترجمته في: الشجرة: 275/1 . رقم 1025 . الدرة: 146/1 . رقم 620 . النيل. 333 . السلوة: 81/2 . السر: 77 . معجم المطبوعات: 372 . رقم 851 .

الأزمنة إلا الأكابر، مثل ابن غازي وابن هارون[37]، والزّقّاق[38] وأضرابهم. وقد حدث بها الآن من التهاون والإخلال بالواجب، ما أدى إلى تعطيل شروطها، وصار ينتحلها من كان لا يطمع في لمس مروطها، كما قيل:

[الطويل]

1) لَقَدْ هَزِلَتْ حَتَّى بَدا مِن هُزالِها كُلاها، وحتّى سامَها كُلُّ مُفْلِسٍ[39]

حتى عابها أكثر الفضلاء، وعافها بإعداء الجهل بعض النبلاء، كما قيل:

[الوافر]

1) سَئِمْتُ صِناعَةَ التَّوْثِيقِ لمّا أَشاعَ الْجَهْلُ فيها ما أَشاعَهْ

2) فآوِنَةً تحل الحيلُ فيها وآوِنَةً تُباعُ على الإشاعَهْ

وما ذاك إلا أنهم ألحقوها بأخسّ الحرف، ولم يتمسّكوا من الطلب بأدنى طرف.

وفي مثلهم قيل:

[البسيط]

1) أَرَى الْكَسادَ قد اسْتَوْلى عَلَى الْكَتَبَةْ[40] لا عَقْدَ في بَيْعِ فَدّانٍ[41] ولا عَتَبَةْ

2) أَخْسِسْ بِحِرْفَةِ[42] قَوْمٍ رَأْسُ مالِهِمُ حِبْرٌ تُبَرِّدُهُ في صَفْحَةٍ قَصَبَةْ

هذا مع تحامل بعض الفضلاء عليهم في أخذ الأجرة عليها، وتصدّيهم في الدكاكين إليها، وإن كان قد حكى أبو الحسن الطبري، إجماع الأئمة على جوازها. وفي مثل هؤلاء الذين نبذوا الوثيقة بالعراء، أنشد بعض فضلاء الشعراء:

---

(37) علي بن موسى بن هارون المطغري. فقيه كبير. (ت 951هـ). ترجمته في: الدرة: 254/3 رقم 1293. النيل: 212 ـ 213. الدوحة: 51. الجذوة: 477/2 ـ 478. رقم 533. الفهرس. 1105/2. السلوة: 82/2 ـ 84.

(38) أحمد بن علي التجيبي. (ت 932هـ). فقيه مشهور. ترجمته في: الدرة: 93/1. رقم 33. النيل: 90 ـ 91. الدوحة: 51 ـ 52. السلوة: 248/3 ـ 249.

(39) البيت في: النشر: 308/1. 134/3. غير منسوب.

(40) البيتان في: الأزهار: 315/3 غير منسوبين.

(41) الأزهار: 315/3: ما إن يباع بها شقص.

(42) الأزهار: 315/3: تبا لصنعة.

[الخفيف]

1) فَسَدَتْ خُطَّةُ الْوَثِيقَةِ لَمَّا ... أن بَدا كُلُّ جاهِلٍ يَدَّعِيها

2) لم تَكُنْ غَيْرَ رَوْضَةٍ فاسْتُبِيحَتْ ... فَغَدا كُلُّ ناعِقٍ يَدَّعِيها

السادسة:

ولاية الكتابة(*)

«كان في القديم لا يجلس في سريرها إلا الأخيار، ممن صدّق الخبرَ في فضلهم الاختبار. واستكمال أدواتها دليل المهارة. ولكل عصر شمس تعرب ليله، وتشرق نهاره. ولا أعلى من رتبة حلَّ فيها عبد المهيمن الحضرمي وابن الجيّاب، وتمسك فيها أبو بكر ابن الجدّ[43] وابن الخطيب بأوثق الأسباب. وأما اليوم فـ:

[مجزوء الخفيف]

1) لا تَسَلْ عما جَرى ... كُلُّ شَيْءٍ إلى وَرا

[الهزج]

1) زمانتنا كأهلِهِ ... وأهلُهُ كما ترى

[المجتث]

1) لكنْ للزمان خبايا ... وفي الرحال بقايا

السابعة:

ولاية النظر في الحبس

كان من أشرف ما تطمح إليه الأنفس. لا يرضى لها إلا شديد الشكيمة في الدين، مؤيّداً بدلائل العلم في مدافعة المعتدين، لا يبالي بالخلق في مضايق الحق، يعدل في القسمة، ولا يمنع أحداً سهمه، بل يخصُّ بالصدقة من كان من مصرفها، ويمنع من كان في البلاد من مترفيها، ويقوِّم الرباع على قدر الحرم في الإصلاح، بقدر مقتضيات

(*) النص بعده في: السلوة: 224/3 . مع شيء من التصرف.

(43) أبو بكر، محمد بن عبد الله الفهري. حافظ جليل. (ت 586هـ) ترجمته في: بغية الملتمس 88 . رقم 181 . التكملة: رقم 825 . الديباج: 286/2 — 287 . الاحاطة. 89/3 — 91 العبية: 10 — 11 .

الأحوال في رعاية الصلاح، حتى ربما يعتدّ لها القضاة بأنفسهم، وإلا أطلقوها في يدي من رأوه من أهل العلم والعمل من أنفسهم، فكم من شيخ عظيم قدّم لها في القديم، كأبي شامة ابن إبراهيم المشنزائي[44]، وأبي عبد الله القصار القيسي. وناهيك بهما. وإلى الآن لم تبتذل ابتدال حرفة التحمل، للتعلل بقصرها، مع شرط الطلب في العالب، على من له في النسب التأصُّل:

[الوافر]

1) ولكِـنَّ البِـلادَ إذا اقْشَـعَـرَّتْ، وصَـوَّحَ نَبْتُـهـا، رُعِيَ الهَشـيـمُ[45]

[انتهى الجزء الأول بتجزئة المحقّق]

* * *

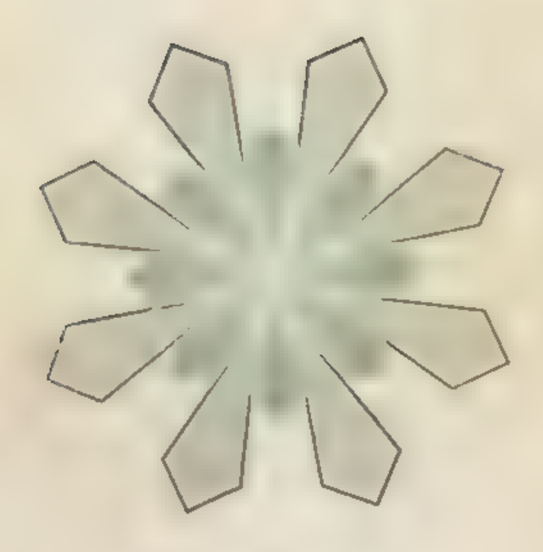
---

(44) محمد بن عبد الرحمان. فقيه خطيب زاهد. (ت 964هـ) ترجمته في: الجذوة: 248/1 . رقم 243 . الدرة: 207/2 . رقم 960 . النور: 346/2 .

(45) البيت في: فتح المتعال: 241 . إضاءة الراموس: 135/2 . ونسب في لسان العرب: 519/2 إلى علي البصيري.

فهرس موضوعات الجزء الأول من رياض الورد





مطبعة الكاتب العربي - دمشق
شارع خالد بن الوليد ☎ ٢٢٢٠٣٨ - ٢١٩٧٣٨

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان

جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث
8

رِياضُ الْوَرْدْ

فيما انْتَمى إلَيْهِ هذا الْجَوْهر الفَرْد

لأبي عبد الله، محمد الطَّالب
بن أبي الفَيْض، حَمْدون ابْن الحاجّ
السُّلَميّ المِرْداسيّ الفاسَيّ

تحقيق:

الدكتور: جعفر ابن الحاجّ السُّلَمِيّ
الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

الجزء الثاني

تطوان 1420 هـ - 1999م







رياض الورد

فيما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد



كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان

جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث
8

رِياضُ الْوَرَدْ

فيما انْتَمى إلَيْهِ هذا الْجَوْهر الفَرْد

لأبي عبد الله، محمد الطَّالب
بن أبي الفَيْض، حَمْدون ابْن الحاجّ
السُّلَميّ المِرْداسيّ الفاسيّ

تحقيق:

الدكتور: جعفر ابن الحاج السلمي
الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

الجزء الثاني

تطوان 1420 هـ - 1999م

رقم الإيداع القانوني: 1999-641



Imp. ALTOPRESS
Rue Abi Jarir Tabari n° 58 Tanger
Tél (09)94 36 80 - Fax (09)94 27 74

البابُ الخامِس

في ذِكرِ مَن كانَ فيهِم بِعُدوَةِ المغرِبِ مُتَّصِفاً بِالعِلمِ والصَّلاحِ والنَّجاح، مِن أعقابِ الجَدِّ القادِمِ، ذي الخُلُقِ الأحمَد، أبي عبدِ اللهِ مُحَمَّد



(34) [أبو الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج السُلمي][1]

فمنهم العلامة المحقق، العارف بالله، أبو الفضل والمكارم، أحمد بن العربي بن محمد بن علي بن محمد ابن الحاج.

[مولده]

[ولد بفاس عام اثنين وأربعين وألف][2]. (1632/1042) ونشأ بها في حجر أبيه أبي حامد العربي. وقرأ القرآن وأحكم تجويده. ثم أخذ في قراءة الفنون العلمية، بهمة لاتتوجه لغير الطاعة من لدن النشأة.

[مشيخته]

فأخذ عن جمع عظيم من مشيخة المغرب والمشرق، كشيخ الإسلام أبي محمد، عبد القادر بن علي الفاسي الفهري[3]، وعليه اعتماده في علمي الظاهر والباطن، والشيخ الحافظ حمدون الأبار[4].

- والشيخ ميارة شارح التحفة.
- والقاضي ابن سودة[5].

1- ترجمته في: النشر: 83/3. الالتقاط: 273-274. رقم 413. الدرر: 327/2. السلوة 1/ 153-155. الصفوة: 213-214. الشجرة: 327/1. رقم 1281. الحياة: 136-137.

2- عبارة مضروب عليها في ميم.

3- من كبار أعلام المغرب. (ت1091هـ). ترجمته في: النشر: 270/2-279. الالتقاط 217-218. رقم 325. الدرر: 267/2-269. السلوة 309/1-314. الشجرة: 314/1-315. رقم 1226. مؤرخو الشرفاء: 186-187. الحياة: 102-105. النبوغ: 283/1-284. العناية: 37-41. معجم المطبوعات: 265-266. رقم 613.

4- أحمد حمدون بن محمد الأبار الفاسي. (ت1071هـ) ترجمته في: النشر. 109/2-112 الالتقاط: 148. رقم 242. السلوة: 330/3. الموسوعة: 7/1.

5- محمد بن أبي القاسم. (ت1076هـ). فقيه قاض. ترجمته في: الصفوة: 159-160. النشر: 2/ 150-151. الالتقاط: 166. رقم 268. السلوة: 76/3-77.

- والشيخ حمدون المزوار[6].

- والشيخ أحمد بن جلال التلمساني[7].

- والشيخ أبي الحسن، علي الزرهوني[8].

- والشيخ نور الدين، أبي الحسن، علي الشبراملسي[9] مُحَشِّي «المواهب».

- والشيخ الخرشي[10] شارح المختصر.

- والشيخ أبي مهدي، سيدي عيسى الثعالبي الجزائري المكي[11].

- والشيخ ملا، إبراهيم الكوراني الشهرزوري المدني[12].

- والشيخ أبي الفرج، عبد السلام بن إبراهيم اللقاني[13].

- والشيخين الأخوين، زين العابدين[14] وعلي، الطبريين الحسنيين المدنيين.

- والشيخ إبراهيم الخياري[15].

---

[6]- حمدون بن محمد الزجني. (ت1084هـ). ترجمته في: الصفوة: 172 173. النشر: 2/205-206. الالتقاط: 195. رقم 297. السلوة: 3/77-78.

[7]- أحمد بن عبد الرحمان المرابط. (ت1079هـ) ترجمته في: النشر: 2/179-180 الالتقاط 174. رقم 282.

[8]- فقيه لغوي. (ت1072هـ). ترجمته في: النشر: 2/121. الالتقاط: 153 رقم 247.

[9]- عالم مصري. (ت1087هـ). ترجمته في. النشر:2/219. لالتقاط 199. رقم 301

[10]- فقيه مصري. (ت1102هـ). ترجمته في النشر: 3/18-23. الالتقاط. 257-258 رقم 390. معجم المطبوعات:110-111. رقم 273.

[11]- عيسى بن محمد. (ت1080هـ). ترجمته في: الصفوة. 163-165. النشر 2/185-187 الالتقاط: 179-180. رقم288 الفهرس: 2/126-137 الرحلة العياشية 1/12. 207 210

[12]- إبراهيم بن حسن. (ت1101هـ). ترجمته في: الصفوة: 210-211. النشر:3/5-15 الالتقاط: 255-256. رقم 389.

[13]- عالم مصري، (ت 1078هـ). ترجمته في: النشر: 2/170-172 لالتقاط 172-173. رقم 279.

[14]- زين العابدين بن محيي الدين، عبد القادر الطبري الحسني. (ت 1078هـ). ترجمته في. النشر: 2/170. الالتقاط: 172. رقم 278.

[15]- عالم مصري. (ت 1083هـ). ترجمته في: النشر 2/383-384. الالتقاط: 245. رقم 370.

- والشيخ ياسين[16].

- والشيخ عبد القادر الغزي.

- والشيخ عبد الله بن محمد الديري الدمياطي.

- والشيخ عاشور القسْنَطيني[17].

وغيرهم ممن تضمنته فهرسته، التي جمعها تلميذه شيخ الجماعة، الحافظ العلامة، شارح الاكتفاء، سيدي محمد بن عبد السلام بناني[18]، وفهرسة الشيخ أبي سالم، سيدي عبد الله لعياشي، لمشاركته صاحب الترجمة له في جميع إجازاته، كما استدعى الإجازة لنفسه ولأصفيائه، حين رحل إلى المشرق حاجا سنة أربع وسبعين وألف، (1663/1074)، من أكثر المشارقة وغيرهم، حتى برع في العلوم، كالعربية والأصلين، والمنطق والفقه، والحديث والتفسير والتصوف، وصار إماما في المعقول والمنقول، مقدما على علماء الحضرة الفاسية وصلحائها، كأنه البدر الطالع في أفق سمائها، واشتهرت فضائله، وانتشرت فواضله، وضرب به المثل في الورع وعلو الهمة، والتسليم للأقدار، والتوجه إلى الله الملك القهار، والاجتهاد في نشر العلم، ولزوم العبادة، والتحري عن الشبه، وإخماد البدع التي جرت بها العادة.

(تعريف محمد بن عبد السلام بناني به)

قال شارح الاكتفاء، في فهرسة شيخه هذا ما نصه[19]: «شيخنا الحافظ الجامع، والزاهد الخاشع، ألين أهل زمانه عطف، وأشدهم لله خوفا، مقيم رسم المعارف بعد الاعوجاج، سيدنا وسندنا، أبو الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج.

[16]- ياسين بن محمد غريس الدين الحلبي أديب فقيه (ت 1086هـ). ترجمته في: النشر: 2/382-383. الالتقاط: 245. رقم 369. معجم المطبوعات: 371. رقم 848

[17]- عاشور بن عيسى. فقيه قسنطيني. (ت بعد 1074هـ) ترجمته في الشجرة 1/310. رقم 1204.

[18]- عالم فاسي (ت 1163هـ). ترجمته في: النشر: 4/80-81. الالتقاط: 416-419. رقم 541 السلوة. 1/146-148. الحلة: 253-256. النبوغ: 1/290. تاريخ تطوان: 3/142.

[19]- النص في نفحة المسك: 128-129. فهرسة أحمد بن العربي ابن الحاج: لوحة: 34-35. مع بعض الاختصار.

كان ممن انفرد بعلمي المعقول والمنقول، إلى قدم راسخ في الفروع والأصول، آية لله تعالى في التبحر في العلم، والتصرف في دقائقه، واستحضار نوازله وغوامضه ورقائقه.

مجلسه كثير الفوائد، مليح الحكايات، وقضايا التواريخ، وملح الشواهد. يضرب به المثل في الزهد والعبادة، وتقف عند كلامه الفتوى في الأذكار والإرادة. مقبل على الآخرة، معرض عن الدنيا وزخرفها.

نفع الله به كل من قرأ عليه لصلاح نيته، وسلامة طويته. سيرته في الإقراء على مقتضى ما لابن عرفة من قوله:

«حقيقة الإقراء تصحيح المتن، وحلُّ المشكل، وإيضاح المقفل، وزيادة أخرى غير ذلك، ضررها بالمتعلم أقرب من نفعها».

مع دين لم تدنسه المطامع، وحسن خلق ما وقر مثله في مسمع سامع. مع إدمان على تلاوة القرآن، وحسن نغمة بقراءته، واحتساب لله تعالى، في أجر سعايته، وخشية وحياء، وإيثار ومواظبة على قيام الليل والنهار، وتبحر في القراءات وأحكامها، وبلوغ في علوم العربية مبلغا لم يدانه فيه أحد من أعلامها، مع مشاركة قوية في سائر العلوم الشرعية. لم أر من يحقق الفقه الساذج كتقريره، ولا من يحرره كتحريره.

ولي خطة القضاء أواخر عمره، على رغم منه في طاعة الله، تعالى، بطاعة أميره، بالمدينة البيضاء، فأقام الحق بها ولهج، فحمدت سيرته، وارتفع على منار العدل صيته». انتهى.

[ولايته القضاء][20]

وكانت ولايته لخطة القضاء، في الثاني والعشرين من المحرم الحرام، مفتتح عام خمسة ومئة وألف (1693/1105).

[ظهير المولى إسماعيل]

وعندنا كتاب المنصور، أبي الظفر، مولانا إسماعيل له، لما قبل خطة القضاء. ونصه:

«إلى الفقيه العلامة، البحر الفهّامة، المدرّس البركة، الحجة القاضي الأعدل، أبو البركات،

20- النشر: 3/65.

السيد أحمد ابن الحاج. حفظه الله ورعاه، [ونفعنا][21] به وبمحبته. آمين.

سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته. لا مُتعرُف بحمد الله إلا الخير والعافية، ونعم الله الصبغة[22] الصافية. نحمده تعالى، ونشكره ونستزيده من خزائن نعمه الوافية[23].

أما بعد: فإنه ورد على أبوابنا العلية بالله، الرجل الصالح، السيد أحمد ابن ناصر، بقصد الزيارة. وحين التقينا معه، طلبنا منه بذل النصيحة، والدلالة على رجل من أهل الظاهر، وسر الباطن، نستعين به على أمر ديننا ودنيانا، وما نحن بصدده من أمور الخلافة».

قلت: قد قدمت ذكر هذا الكتاب في الباب الأول، إلى قوله هناك:

«فنحمد الله الذي جمع لنا فيك ما نحبه: شرف العلم، وعلو النسب[24]. فأسمِعْنا من دعائك الصالح في ستر خلواتك وجلواتك، وابذل لنا النصح الواجب عليك، وقد شكرنا لكم صنيعكم، كونكم امتثلتم أمرنا، وساعدتمونا على توليتكم تلك الخطة، وأطعتُم الله بطاعتنا، فبارك الله فيكم. ذالك الظن فيكم، والمعهود من صالح محبتكم. فقد كنت مهتما من عدم قبولكم لتلك الخطة، وبتغير خاطرنا عليكم فحين وصلني قبولكم لها، وامتثال أمرنا، سجدت لله شكرا. ووالله ما حملني على توليتكم تلك الخطة. إلا إحياء شعائر الدين من بعد غربته، كما قال عليه السلام:

«بدأ الدين غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء».

فأنت منهم، وتقررت عندي سيرتك الجميلة، ووصفت لنا أوصافك الحميدة الجليلة، التي عزّ وجودها في هذا الزمان. فهي التي تدل على علو نسبك وحسبك، ودينك وخصوصيتك من بين أهل زمانك. نفعك الله، ونفع بك، وأسعدنا بمعرفتك، ونفعنا بمحبتك. فقد أخبرت وأن[25] أهل الذمة، أخزاهم الله، أتوك ليلة العيد، بما وظفناه عليهم من كسوة القاضي التي يخطب بها

[21]- سقطت من ميم. والتعويض من باء.

[22]- كذا بالأصل.

[23]- ما بعده في: نفحة المسك: 129-130، مع بعض الاختصار.

[24]- بعده في باء، وعقبه. ولا معنى لها.

[25]- كذا بالأصل.

خطبة العيد، فضربت بها وجوههم، وأبيت قبولها منهم، فأنهوا الأمر لشيخهم، بعد أن عزمت على عقابهم أشد العقوبة. فذكر لي وأنك[26] امتنعت من قبولها. فجزاك الله عنا خيرا. فمثلك في هذا الزمان، وجوده أعز من الكبريت الأحمر.

وأخبرنا خديمنا الناظر رضوان، وأنك[27] امتنعت من قبض ما كان يقبضه من كان من قبلك من الأوقاف، وإنما قبلت من ذالك شطره، مع ما أنهى لنا من تحرّيك في الأحكام، وتوقفك في المسائل، وردها لغيرك، مع غزارة علمك، وتضلعك بالفقه.

فالحمد لله الذي أنعم علينا بوجود أمثالك في دولتنا، نستعين بك على أمر الدين، فالله سبحانه، يعيننا على القيام بحقوقك الواجبة لك علينا. آمين.

إلى أن قال:

آمر باحترام دارك وقرابتك، ومن له أدنى انتساب إليك. فدارك جعلناها حرما وزاوية، فمن لاذ بها واحترم، فعليه أمن الله وأمننا».

[إشارة الوزير الغساني إليه][28]

ولما عرّف الفقيه العالم الضابط، أبو العباس، سيدي أحمد بن عبد الوهاب، الوزير الغساني، بالإمام العلامة، سيدي محمد بن أحمد المسناوي[29]، وعدّ جماعة من أشياخه، ومنهم صاحب الترجمة؛ قال[30]:

«كان عالما عاملا. ولي القضاء بفاس الجديد. وبعد وفاته، وجد ما كان يقبض من الأحباس موفّرا، وأوصى به أن يردّ إلى محله، ولم يتلبس بشيء منه، اقتداء بسيد العارفين بالله،

[26]- كذا بالأصل.

[27]- كذا بالأصل.

[28]- أديب كبير. (ت 1146هـ). ترجمته في: النشر: 3/364-366. الالتقاط. 360. رقم 509 السلوة. 2/299-300. الدرر: 2/360. مؤرخو الشرفاء: 215-216.

[29]- من كبار علماء الأسرة الدلائية. (ت 1136هـ). ترجمته في: النشر. 3/265-278 الالتقاط: 327-330. رقم 487. الدرر: 342-344. السلوة: 3/44-47. مؤرخو الشرفاء. 214. الحياة. 196-204. معجم المطبوعات: 325. رقم 731.

[30]- النص في نفحة المسك: 130-131.

سيدي محمد ابن عبّاد[31]. قال: حدثني شيخنا العالم، الأستاذ الحافظ المحدث، سيدي عبد الرحمان، ابن الفقيه العالم، سيدي أبي القاسم ابن القاضي[32]، أنه لما مات ابن عباد، وُجد ما كان يتحصل بيده من أحباس الإمامة والخطابة بجامع القرويين مجموعا، أوصى به أن يُرد إلى الأحباس، وقدر ذالك ثمان عشرة مئة مثقال ذهبا.» انتهى.

[تعريف مولاي إدريس المنجرة به]

وبعد أن ذكر العلامة الأستاذ الشريف، مولاي إدريس المنجرة[33]، في فهرسته[34] جملة من أشياخه قال[35]:

«ومنهم، أي من أشياخه، الشيخ الإمام البركة، الصوام القوام، المدرس النفاع، المشارك الحاج الأبرّ، أبو العباس، سيدي أحمد بن العربي ابن الحاج:

كان رحمه الله، شديد الحرص على التعليم، كثير الخوف من الله. تولى القضاء بفاس العليا، فباشره بعفة ونزاهة.

ولما توفي، رحمه الله، وُجد مرتب خراج القضاء مصرورا في تركته، مكتوبا عليه: «يُرد إلى الجامع» فردّ واشتري به ربع للحُبُس». انتهى، وسيأتي تمامه.

---

[31]- النعري الأندلسي الصوفي: (ت 792هـ). ترجمته في: الكتيبة: 40-44. النيل 279-281. الجذوة: 1/315-316. رقم 320. النفح. 5/341-350. السلوة: 2/133-142

[32]- عالم أديب (1082هـ) ترجمته في: الصفوة: 168-169. النشر: 2/194-196. الالتقاط: 188. رقم 293. السلوة: 2/223-224. الحياة: 84-85.

[33]- إدريس بن محمد. (ت 1137هـ). ترجمته في: الالتقاط: 331-332. رقم 492. السلوة. 2/ 272-273 مؤرخو الشرفاء: 226. الفهرس: 2/568-569.

[34]- نفس المعلومات في الصفوة: 213.

[35]- النص في: فهرسته: لوحة 78.

[إشارة الصغير الإفراني إليه]

وقال سيدي الصغير الإفراني[36] في صفوة ما انتشر[37]: «إنه كان يقرأ ثلاثين حزبا من باب المحروق[38] إلى فاس الجديد ذهابا، وثلاثين إيابا. وقال: إنه سأله السلطان عن لبس الحرير فقال: خلاف العلماء إنما هو في خيط التسبيح». انتهى.

[استطراد فقهي عن الحرير]

قلت: الذي نص عليه ابن الصلاح في فتاويه، وحزم به "شرح المهذب" هو الجواز، حيث لم يصحبها خيلاء، وإلا حرمت. وانظر هل علة التعظيم قياسا على تحلية المصحف، كتحلية الإجازات عند من قال به، أو كون خيط الحرير يصبر ويطول أكثر من غيره. فعلى الأول، يجوز ما جرت به العادة من الفصل بين الأثاث ونحوها بجاديل الحرير. وعلى الثاني لا يجوز. وهذا كله في حق الرجال. وأما النساء، فهو من ناحيته لباسهم. قاله العلامة سيدي محمد الرُّهوني[39] في حاشيته[40].

[كراماته]

وذكر الشريف العالم الصوفي، سيدي حمدون بن محمد الطاهري الحسني الجوطي[41] في كتابه المسمى بـ: «تحفة الإخوان، ببعض مناقب شرفاء وازان»[42]، لما ذكر مناقب سيدي محمد

---

[36]- من كبار مؤرخي المغرب. (ت بعد 1150هـ). ترجمته في: الالتقاط: 438-440. رقم 569 مؤرخو الشرفاء: 89-96. الحياة: 229-236. النبوغ: 288/1. معجم المطبوعات. 20-21 رقم 33

[37]- الصفوة. 213. بتصرف في اللفظ. والنص في: نفحة المسك: 131.

[38]- هي باب الشريعة من أبواب فاس القديمة.

[39]- محمد بن أحمد الرهوني الوزاني. فقيه مشهور. (ت 1230هـ) ترجمته في: الشجرة: 378/1 رقم 1512. الفكر السامي: 296/2-297. النبوغ: 295/1-296 الحياة 348-351. معجم المطبوعات 133-134. رقم 324.

[40]- النص بعده في نفحة المسك: 131-132.

[41]- من أعلام فاس: (1191هـ). ترجمته في: الموسوعة: 133/3 السلوة: 72/2-73 الدرر. 26/2 مؤرخو الشرفاء: 232. معجم المطبوعات: 211. رقم 488.

[42]- تحفة الإخوان: 70-71 (عن عبد الرحمان بن أحمد ابن الحاج)

بن عبد الله الشريف[43] قال:

«سأل رجل هذا القطب سيدي محمد، رضي الله عنه، فقال: يا سيدي: أرني القطب. فقال له: اذهب إلى فاس. وفي ثلث الليل الأخير، اذهب إلى القرويين قبل أن تفتح أبوابها، وقابل الباب التي يغسل الناس فيها أقدامهم. فأول من يدخل منه ويتوضأ منها[44]، ويصلي ركعتين فهو هو. فجاء الرجل، وصنع ما أمر به[45]. وجعل يرقب[46] تلك الأبواب[47]. فلما فُتحت، فأول من دخل منها، سيدي أحمد بن الحاج. فتوضأ وصلى ركعتين. فلما فرغ من الصلاة، قصده الرجل، فالتفت إليه سيدي أحمد المذكور، قبل أن يصل إليه ويكلمه، وقال[48] له: والله الذي لا إله إلا هو. إن الذي أرسلك هو القطب. أقسم على ذالك ثلاث مرات.

قال: قلت: وكل منهما صادق فيما أخبر به، فسيدي محمد، نفعنا الله به، فرّ من التعريف بنفسه أدبا من قوله: أنا. وأحال السائل على هذا العالم، ليعرفه به، لكونه عالما عاملا مدرسا. فهو قطب في مجلس علمه وتعليمه، فيصدق عليه اسم القطب لغة.

وسيدي أحمد ابن الحاج، أخبر السائل عن القطب حقيقة وعرفا. وهذه كرامة لسيدي أحمد ابن الحاج [رحمه الله][49]، وأنه من أولياء الله». انتهى.

وكان الشيخ سيدي التاودي ابن سودة[50]، رحمه الله، كثيرا ما يذكر فوق كرسيه، بأن[51]

[43]- محمد بن عبد الله الوزاني اليملحي. (ت 1120هـ) عالم صوفي: ترجمته في: النشر: 3/192-195. لالتقاط: 299. رقم 453. الأنيس: 147. الدرر: 2/79-80. تحفة الإخوان: 49-77.

[44]- سقطت من تحفة الإخوان.

[45]- سقطت من تحفة الإخوان.

[46]- تحفة الإخوان: 71: يراقب.

[47]- تحفة الإخوان: 71: الباب.

[48]- تحفة الإخوان: 71: فقال.

[49]- زيادة من تحفة الإخوان لم ترد بالأصل.

[50]- أبو عبد الله، محمد التاودي بن الطالب. من كبار علماء فاس: (ت 1209هـ). ترجمته في: الدرر: 2/ 294 299. السلوة: 1/112-115. النبوغ: 1/293-294. الفكر السامي: 2/294. معجم المطبوعات: 168-170. رقم 399. الشرب: 213-214. التعريف بالتاودي ابن سودة.

[51]- ميم: وأن.

الشيخ سيدي أحمد ابن الحاج، كان يفسّر فوق هذا الكرسي قوله، تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسولَ اللَّهِ»[52]، وأن الخطاب خاص بالصحابة. وكان العارف بالله سيدي أحمد بن عبد الله مَعْن[53] حاضرا، فقال: يا شيخ. فالتفت. فرأى رسول الله (ص)، حاضرا. وإذن دلت بأن الخطاب عام. انتهى.

نقله الشيخ أبو الفيض حمدون، رضي الله عنه[54]. وبالجملة، فقد وقع الإطبق من مشايخ عصره، على تبحره في علمي الظاهر والباطن، وأنه الإمام في ذالك على الإطلاق. ولم يتصدر، رضي الله عنه، لتأليف مخصوص كتاب ولاشرح. وإنما كانت تصدر منه أجوبة ما يُسْأل عنه، بأفيد من تأليف المؤلفين، فيُبدئُ فيها ويُعيد، وهي كثيرة موجودة. أكثرها في أيدي الناس.

[نماذج من شعره]

وله أنظام علمية، وأشعار أدبية. فمن ذالك قوله محرّضا على الزيارة، في مدح مولانا إدريس الأكبر، إبن عبد الله الكامل[55].

[الطويل]

1) خليليَ ثِقْ بالواحدِ الأحَدِ الصَّمَدْ	فليْسَ سِواهُ في المُهمَّاتِ يُعتَمدْ[56]
2) وإنْ ضِقْتَ ذَرْعًا بِالذُّنوبِ وحَملِها	وأمْسَيْتَ في هَمٍّ، وأُصْبحْتَ في نكدْ
3) فزُرْ نَجْلَ سِبْطِ المُصطفى الحسَنِ الَّذي	لهُ السُّؤْدَدُ المخصوصُ عندَ ذَوي الرُّشْدْ
4) إِمَامُ ذَوي العَلْيَاءِ إدريسُ مَنْ لهُ	سَنَامُ العُلى والمكرُماتُ بِلا عددْ

[52]– سورة الحجرات: 7.

[53]– أحمد بن محمد بن عبد الله معن الأندلسي الفاسي. (ت 1120هـ). ترجمته في: النشر. 3/182-191. الالتقاط: 300-301. رقم 454. الصفوة: 220-221. السلوة: 2/288-292. الدرر 2/336-337.

[54]– نفحة المسك: 131-132.

[55]– مؤسس الدولة المغربية الإدريسية. (172-177هـ). ترجمته وأخباره في: الأنيس المطرب. 15-25. البيان المغرب: 1/210-211. تاريخ ابن خلدون. 4/16-17. الأعمال. 188-196. الحلة: 1/50-53. الجذوة: 1/160-162. رقم 113.

[56]– القصيدة في: الأزهار العاطرة: 45-46.

5) وليٌّ زكيٌّ هاشِـــمِيٌّ مُــــرَفَّعٌ فليْسَ يَضيعُ مَن بِجانِبِـه اسْتَنَدْ

6) حَبَـاه إلاهُ الخَلقِ مَـجْـداً ورُتْبَـةً تَقَـاعَسَ عَنهـا كُلُّ مَن قَـامَ أوْ قَـعَـدْ

7) فَيَـا ابْنَ الرَّسُولِ: زائِرُونَ بِبَابِكُمْ أناخـوا رِكـابًا، كُلُّهُمْ يَرتَجِي المَدَدْ

8) فـأنجِزْ قِراهُمْ سيِّدي مِنْ نداكُمو فحَاشَا يَخيبُ مَنْ إلى جُودِكُمْ وَفَدْ

9) إجَـازَةُ وَفْـدٍ [شِـيمَـةٌ[57]] نَبَـوِيَّةٌ بِهَـا أَمَـرَ المُخْتَـارُ حَـقًّـا بِلا فَنَدْ

10) فَكَمْ مِن كَسِيرٍ قَد جَبَرتُمْ وَمُعْدِمٍ كَسَوتُمْ ثِيَابَ الكَسْيِ والعيشَةِ الرَّغَدْ

11) وكاسِفِ بَالٍ قَـد رَدَدْتُم[58] بَحَبْرَةٍ وذي عِلَةٍ أعْـيَتْ فـزَالَتْ إلى الأبَدْ

12) فـيـا ابْنَ الكِرَامِ عَطفَـةً وتَكَرُّمًا على فِـئَـةٍ جَاءَتْ لِتُـصْلِحَ ما فَـسَدْ

13) أفيضوا عليهم[59] من عِنَايَتِكَ الَّتي تَعُـمُّهُـمُو، والصَّحْبَ والآلَ والوَلَدْ[60]

14) بِجَاهِ أبيكُمْ سَيِّدِ الخَلقِ أحْـمَـدٍ عَلَيْـهِ صـلاةٌ[61] لا تُـحَـدُّ ولا تُـعَـدْ

وله أيضا يتشفع به إلى الله، تعالى، أن يمنَّ عليه بحجة[62]:

[الكامل]

1) يا ابْنَ الرَّسُـولِ الهـاشميِّ الأطهَـرِ يا مَلجَـأً لِلوَالِـهِ المُتَـحَـيِّـرِ

2) يا قُطبَ دائرَةِ السَّمَـاحَـةِ والنَّدى والفَـضْلِ والمَجْـدِ الرَّفـيعِ الأشـهَـرِ

3) يا سَـيِّدي، ذُخْـرِي وعِـزِّي عُـدَّتِي إنْ هالَني أمـــــرٌ فَظيعُ المنظرِ

4) إني أنَـخْتُ رِكَـــائِبي بِفِنائِكُمْ فـوَجَـدْتُ بَحْـرَ الجـودِ غـيـرَ مُكَدَّرِ

5) وقَـصَـدْتُكُمْ مُتَـوَسِّـلاً مُتَشَـفِّـعًـا بِشَـريفِ جـاهِكُمُ العليِّ الأكْـبَـرِ

6) كَـيــمـا أفـوزَ بِحَـجَّـةٍ مَـبْـرورَةٍ قَـرَنْتُ بِهـا أخـرى بِغَـيْـرِ تأخُّـرِ

[57]- بياض بالأصل. الأزهار العاطرة: 46. سمته. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[58]- في الأصل. رددت. والتصويب من: الأزهار العاطرة: 46.

[59]- في الأصل: عليه. والتصويب من الأزهار العاطرة: 46.

[60]- الأزهار العاطرة: 46: «تسعهم والأصحاب والأهل والولد».

[61]- باء: صلاة الله. ولا يستقيم به الوزن.

[62]- القصيدة في الأزهار العاطرة: 46.

7) وعَهِدتُ، مَهْما زُرتكُمْ في لَيلَةٍ، نَيْلَ[63] النَّجَاحِ مَعَ الصَّبَاحِ المُسْفِرِ

8) فَامْنُنْ عَلَيَّ بِمُنْيَتِي يا سَيِّداً حَازَ المَفَاخِرَ كَابِراً عن كَابِرِ

فمنَّ الله عليه بذالك، فتوجه إلى الحجاز في حادي عشر ربيع الثاني، عام ثمانية وسبعين وألف (1667/1078).

[من أخباره]

ولما أراد السفر، منعه والده أبو حامد العربي من ذالك، فتحاكما عند شيخ الإسلام، أبي محمد، سيدي عبد القادر الفاسي. وجعل أبوه يبكي ويتضرّع. فقال الشيخ، وقد رفع يديه للفاتحة: قلّب الله قلب أحدكما. فقاما عنه، فما خرجا من الزاوية حتى أطلقه والده طوعا. ثم صار يحذّره عليه أن لا يطلقه السلطان. ثم لقيه السلطان فهمّ أن يحبسه، ثم قلّب الله قلبه فأطلقه. وهذه من كرامات سيدي عبد القادر الفاسي» ذكرها ولده في تحفة الأكابر[64].

وذكر أيضا «أنه لما وادعه للحج، قال له والده بمحضره، يا سيدي: أخاف أن يبقى هنالك مجاورا. فقال له: لاتخف. فعما قريب تراه آتيا سريعا، فبشّرهما بالرجوع، فكان كذالك»[65].

قال لي «وكان دم يعتريه. فأصابه وهو ببلاد الجريد[66]. فشكا ذلك إلى بعض الصالحات هنالك، فذهب عنه. ثم أصابه قليلا بمصر، فعزم أن يداويه على طبيب وجده عند الشيخ إبراهيم المأموني. فذهب قبل التداوي. ثم أصابه بالحجاز، فرأى الشيخ، (أعني سيدي عبد القادر الفاسي)[67]، في المنام، فجعل يقص عليه شكواه وما وقع له، فأصبح وما به شيء. ولم يصبه إلى الآن. ورآها آية عظيمة»[68]. انتهى من تحفة الأكابر.

---

[63]- في الأصل: ليل. والتصويب من الأزهار العاطرة: 46.

[64]- تحفة الأكابر: 258. (ضمن مجموع). عن أبي العباس أحمد ابن الحاج نفسه، بتصرف في النقل.

[65]- تحفة الأكابر: 266-267. بنقل لفظي.

[66]- في الجنوب التونسي.

[67]- زيادة من المؤلف.

[68]- تحفة الأكابر: 267: عظمى.

[أبو سالم العياشي يبعث معه قصيدة في التوسّل]

ولما توجه للحجاز، بعث معه، سيدي أبو سالم العياشي، صاحب الرحلة، هذه الأبيات وأمره بقراءتها تجاه الروضة المشرّفة:

[الطويل]

1) أيَا خَيْرَ خَلْقِ اللهِ جِئْتُكَ زائِراً — فَهَا أنذا بِالبابِ أدعو فَأخْضَعُ
2) وعَبْدُكَ عبْدُ اللهِ نَجْلُ مُحَمَّدٍ — أخي وخليلي في جِوارِكَ يَطْمَعُ
3) وقد عاقَهُ ما عاقَهُ فاسْتَنابني — لأبلغَكُمْ عَنهُ السَّلامَ فَتَسْمَعُ
4) وألثِمَ عنه التُّرْبَ، تُرْبَكَ، سيِّدي — وأدعو لَهُ الرَّحْمانَ ربِّي وأضْرَعُ
5) يَدي يدُهُ عِنْدَ الدُّعاءِ ولِسانُهُ — لِساني، وقَلْبِي قلبُهُ، حينَ يَخْشَعُ
6) فَيارَبِّ: وَفِّقْنِي وإيَّاهُ واهدِنَا — بِفَضلِك، ربِّي، لِلَّذي هُوَ أنْفَعُ
7) ولسْنَا بِأهْلٍ أنْ يُجَابَ دُعاؤُنا — ولاكِنَّنَا بِالمصطفى نَتَشَفَّعُ
8) عَلَيهِ مِنَ الرَّحْمانِ خَيْرُ صَلاتِهِ — وأزكَى سَلامٍ، عَرفُهُ يَتَضَوَّعُ

قال صاحب الترجمة:

فقرأتُها ولثمتُ عنه الترب، كما أمر. ولما أخبرته بذالك، فرح حتى قال: هات يدك أقبّلْها.

[نماذج أخرى من شعره]

ومن نظم الشيخ أحمد بن العربي، رضي الله عنه، هذه الأبيات. بعثها من طرابلس لفاس، يبثّ ما به من الأشواق، ويتمنى أن يكون له بعد طول البين التلاق، ويطلب من أهل وداده أن ينوبوا عنه في طلب الدعاء، من حضرة شيخه، سيدي عبد القادر الفاسي:

[المتقارب]

1) خَليلي، إنْ جِئْتَ فاسًا فَجِئْ — أحِبَّةَ قلبي وسُكانَهُ
2) وصِفْ حالي، وقُلْ إنَّهُ — فتى ضَعْضَعَ الحُبُّ أركَانَهُ
3) أكَلِّفُ قَلْبِي نِسْيَانَكُمْ — وتَمْنَعُ نَفْسِي إمْكَانَهُ

4) فَمَنْ لَمْ يَذُقْ بُعْدَ أحبابِهِ ولا فارَقَ الدَّهْرَ أوطانَهُ

5) فما جرعَ الغَصَّات[69] الّتي تُقَوِّضُ لِلصَّبْرِ بُنْيَانَهُ

6) فيَا ليْتَ شِعْرِي مَتى نَلْتَقِي بِكُمْ فَسِرحَ القَلْبِ جَذْلانَهُ؟!

7) ويُضحي أسيرُ النَّوى قد نَفَى وِصَالُكُمْ عَنْهُ أحزانَهُ

8) أهَيْلَ ودادي: إذا كُنتُمْ بِمَجلِسِ مَن فاقَ أقرانَهُ

9) إمامِ الأئمَّةِ وقُطبِ الوَرى بما خَصَّهُ اللَّهُ، سُبْحانَهُ

10) أطالَ الإلاهُ لَنا عُمْرَهُ مُعافى، وأعطاهُ رِضوانَهُ:

11) أتَدْعُونَ لي دَعْوَةً أرْتَجِي بِها فَضْلَ ربِّي وإحسانَهُ

12) وَيَجْعَلُني سالِمًا حيثُما أكونُ، ويَمْنَحُ غُفْرانَهُ

13) فدُمْتُمْ ودامَ اعتكافُكُمو على العِلْمِ تَجْنونَ أفنانَهُ

ومن نظمه أيضا عند زيارته لأبي العباس المرسي:

[الطويل]

1) ولَئِنْ كانَ ذَنْبِي ليْسَ يُحْصَى بِالعدِّ وَطَبْعِي عَنِ الخيْرَاتِ في غايَةِ البُعْدِ

2) ونَفْسِي أبَتْ إلاَّ مُتابَعَةَ الهَوَى فَإنْ دُعِيَتْ لِلخَيْرِ تُسْرِعْ للضِّدِّ

3) وكَرَّتْ شيوخُ الهَمِّ نحوِيَ لِلّذي رَأتْ فيَّ مِنْ ضَعْفٍ، ومِنْ قِلَّةِ الجَهْدِ

4) وفاضَتْ جُفُوني، واعْتَرَتْني كَآبَةٌ وَشَوْقٌ إلى الأوطانِ والأهْلِ والوُلْدِ

5) فها أنا قد لُذْتُ بِالحرَمِ الّذي لهُ يَلْتَجي العاصِي المُجاوِزُ لِلْحَدِّ

6) وإنْ جاءَهُ المَلْهُوفُ فازَ بما ارتجَى ونالَ المُنَى مِنْ غَيْرِ خوفٍ مِنَ الطَّرْدِ

7) حِمَى الشَّيْخِ، تاجِ الأولياءِ وقُطْبِهِمْ، ونُورِهِمْ، غَوثِ الوَرى العَلَمِ الفَرْدِ

8) إمامِ ذَوِي العِرفَانِ والمَجْدِ والتُّقَى وقُدْوَةِ أهْلِ النُّورِ والفَضْلِ والزُّهْدِ

9) عِمادي أبو العبَّاس ذُخْرِي وملجَاي بِدُنْيا وأُخْرَى، إنْ تَخَوَّفْتُ ما يُرْدِي

10) هَنيئًا، فُؤادي، أنْ وَصَلْتُ ضَريحَهُ ومرَّغْتُ في ذالك الثَّرَى صَفحَةَ الخَدِّ

[69]- في الأصل: الغصصات.

11) ضَرِيحٌ به سَلْ ما تَشاءُ تُجَبْ، وإِنْ قَصَدْتَ الهُدَى تولى بِهِ غايَةَ القَصْدِ

12) أيا سيِّدي المُرسيَّ: أنا في حِمَاكَ يا مـلاذي ومَـولايَ: رُحْـمَـاك بِالعَـبْـدِ

13) حَنَانَكَ يَا مَنْ لا يُخَـيِّـبُ آمِـلاً على بابِهِ حَطَّ الرِّحالَ لِيَسْـتَـجدي

14) فيـا عُدَّتي: إنّي مُسيءٌ ومُـذْنِبٌ ولَكِنَّ وُدّي فـيـكَ مِنْ أعظَمِ الوُدِّ

وقال أيضا في الشيخ أبي يعزى[70]، نفعنا الله به، والتحريض على زيارته، والدعاء لملك وقته:

[البسيط]

1) نِلْتَ المُنَى، وبَلَغْتَ غـايةَ الأمَلِ يـا زائراً لِفَـرِيدِ القَـولِ والعَـمَلِ

2) شَيْخِ الشُّيُوخِ أبي يَعْزَى الَّذي ظَهَرتْ بِهِ الكَرامَـاتُ للأسْـمَـاعِ والمُقَلِ

3) ما إِنْ يُرَى مِثْلُهَا كُثْراً ولا عِظَما هذي الأُسُودُ لَهُ انقـادَتْ على وَجَلِ

4) فـأعْـمِلِ اليَـعْـمُلاتِ في زِيارَتِهِ بِـلا تَوانٍ، ولا مَـيْـلٍ إلى المَلَلِ

5) وَسَلْ بِهِ كُلَّ مـا تَرجُـو وتَأمُلُهُ تَنَلْهُ حَـقّـا، بِعَـونِ اللهِ عَنْ عَـجَلِ

6) يا رَبِّ: أعطِ الأُلى زاروهُ ما طَلَبوا واسلُكْ بنا وبِهِمْ في أحْسَنِ السُّبُلِ

7) واحْفَظْ إِمَامَ الوَرَى قُطْبَ الخلافَةِ مَنْ أرْبَتْ مـآثِرُهُ فَـخْـراً على زُحَلِ

8) يقـولُ واصِـفُـهُ قَـولاً بِلا كَـذِبٍ: «رأَيْتُـهُ فـرَأيْتُ النَّاسَ في رَجُلِ»[71]

9) أَنِلْهُ، رَبِّ، المُنَى وامنَحْـهُ بُغْـيَـتَـهُ وارزُقْـهُ عَـونًا لدَى حَلٍّ ومُـرْتَحَلِ

10) واجْعَلْهُ يَسْقِي جُيُوشَ الشِّرْكِ قاطِبَةً كَـأْسَ المَنِيَّـةِ بَيْنَ العَلِّ والنَّهَلِ

11) واجْـعَلْ لأجْنادِهِ الأيَّامَ تَخْـدُمُـهُ وجَـمْـعَـهُ سـالِمـاً مِنْ جُمْلَةِ العِلَلِ

12) لا زَالَ وجْهُ الزَّمَانِ ضاحِكًا حَسَنًا يَرفُـلُ مِنْ مُلْكِهِ في سُنْدُسِ الحُلَلِ

13) ودَامَ يُسْنَدُ مِنْ أخْـبَـارِهِ أثَرٌ مُسَلْسَلٌ، وصَحِيحُ النَّقْلِ مِنْهُ جَلِي

وقال أيضا في شيخه سيدي عبد القادر الفاسي، حسبما ذالك مذكور في تحفة

[70] - يلنور بن ميمون. من كبار أولياء المغرب. (ت 572هـ). ترجمته في: التشوف: 213-222. رقم 77. أنس الفقير: 15-17. 21. الجذوة: 2/563-564. رقم 657. الإعلام: 1/406-420 رقم 124.

[71] - الشطر مضمن.

الأكابر[72]، لولده سيدي عبد الرحمان[73]:

[الطويل]

1) لئِنْ ضَاعَ مِنِّي العُمْرُ في غَيْرِ طائِلِ ... وطَوَعْتُ نَفْسِي في الهوَى والأباطِلِ

2) وأسْرَفْتُ في لَهْوِ البطالَةِ عادلاً ... عَنِ الرُّشْدِ، لا أَلْوِي إلى عَذْلِ عاذِلِ

3) وتِهْتُ بِبَيْداءِ العَمايَةِ حائِراً ... وأمْسَيْتُ عن صُبْحِ المُنَى بِمَراحِلِ

4) فإنِّي، بِحَمْدِ اللهِ، أصْبَحْتُ عِنْدَ مَنْ ... بِنَظْرَتِهِ يُرقَى لأعْلَى المَنازِلِ

5) إمَامِ ذَوِي العِرْفَانِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةٍ ... وجَامِعِ أشْتَاتِ العُلَى والفَضائِلِ

6) ومُحْيِي سَبِيلِ الحَقِّ بَعْدَ دُرُوسِهَا ... وبَحْرِ عُلُومِ الدِّينِ مِنْ غَيْرِ سَاحِلِ

7) وشَمْسٍ بَدَتْ بِالغَرْبِ، دَامَ طُلُوعُهَا ... وبَدْرٍ، بِحَوْلِ اللهِ، لَيْسَ بِآفِلِ

8) وشَيْخٍ يُرَبِّي السَّالِكِينَ بِحالِهِ ... وإنْ قَالَ، لَمْ يَتْرُكْ مَقالاً لِقائِلِ

9) رَحِيمٍ، لهُ بالخَلْقِ شِدَّةُ رَأْفَةٍ ... وَخَفْضُ جَنَاحٍ لِلضِّعَافِ الأرامِلِ

10) يَمِينًا: لئِنْ كَانَ الأخِيرَ زمانُهُ ... فَإنَّ لهُ التَّقْدِيمَ بَيْنَ الأوائِلِ

11) هَنِيئًا وبُشْرَى، إخْوَتِي، بِوُجُودِهِ ... فلا رَيْبَ أنَّ لُقْيَاهُ أسْنَى الوسائِلِ

12) أمَوْلايَ عَبْدَ القادِرِ العَلَمَ الذِي ... على بابِهِ حُطَّتْ رِحالُ الأفاضِلِ

13) حَنَانَيْكَ شَيْخِي سَيِّدِي سَنَدِي الذِي ... إلَيْهِ اسْتِنَادِي في اشْتِدادِ النَّوَازِلِ

14) فَهذا مَرِيضٌ في يَدَيْكَ عِلاجُهُ ... وتَخْلِيصُهُ مِنْ دَأْبِهِ المُتَطاوِلِ

15) كَسِيرٌ حَقِيرٌ، مالهُ عُدَّةٌ سِوى ... وِدادِكُمُو بِالقَلْبِ لَيْسَ بِزائِلِ

16) وكَمْ مِثْلُهُ قَدْ فَازَ بِالقُرْبِ مِنْكُمُو ... ونالَ، بِفَضْلٍ مِنْكُمُو، خَيْرَ نائِلِ

17) عُهِدْتَ مُغِيثًا مُغْنِيًا مَنْ أجَرْتَهُ ... فَجِئْتُ إلَيْكُمْ هارِبًا مِنْ غَوائِلِ

72- تحفة الأكابر: 478-479. (عن الناظم نفسه).

73- مؤرخ نسابة. (ت 1096هـ) ترجمته في: الصفوة: 201-202. النشر: 2/325-329. الالتقاط: 230-232. رقم 347. الدرر: 2/269-270. السلوة: 1/314-316. الاستقصا: 7/108. مؤرخو الشرفاء: 187-188. الحياة: 114-121. الفكر السامي: 2/283. العناية: 43-44. معجم المطبوعات: 263-264. رقم 611.

18) وأَلْقَيْتُ رَحْلِي في فِنَاكُمْ ولَيْسَ لي سِواكُمْ وإنِّي عَنْكُمُو، غَيْرُ راحِلِ
19) أَغِـثْنِي، أَيُّهَـا الغَـوْثُ، إنَّنِي أَسِـيـرٌ لِنَفْسٍ أُولِعَتْ بالرَّذائِلِ
20) فَـلا زِلْتَ لِلْهُـفَـانِ تَشْفِي غَلِيلَهُ ولا زِلْتَ مَـأْمُـولاً غِـيَـاثًا لآمِلِ

ومن نظمه أيضا:

[الطويل]

1) أَحِنُّ إِلَى نَوْحِ الحَـمَـامِ إِذَا غَنَّى وأَشْتَاقُ لِلْوَادِي وأَصْبُو إِلَى المَغْنَى
2) ويُعْـجِـبُنِي مَـرُّ النَّسِـيمِ لأَنَّهُ يُحَدِّثُ عَن نَجْدٍ حَدِيثًا لَهُ مَعْنَى
3) ويُخْـبِـرُ عَن زُوَّارِ لَيْلَى بِأَنَّهُمْ رَأَوْا عِنْدَ أَبْيَاتِ النَّقَى وَجْهَهَا الأَسْنَى
4) بِعَيْشِكَ، إِنْ جِئْتَ الخِيَامَ فَقِفْ بِهَا وَقُلْ لِمَلِيحِ الخَـدِّ: إِنِّي بِهِ مُضْنَى
5) وعَـرِّضْ بِذِكْـرِي عِنْدَهُ فَلَعَلَّهُ يَرِقُّ لِمُـشْـتَـاقٍ إِلَى رَبْعِـهِ حَنَّا
6) متَى بِقُبَا تَقْضِي مُنْيَةَ عَاشِقٍ ويُدْفَنُ في سَلْعٍ، وتُمْسِي لَهُ سُكْنَى
7) تَمَلَّكَ قَلْبِي حُبُّ مَن سَكَنَ الحِمَى فَـقَلْبِي يَهْـوَاهُ، وعَـقْلِي بِهِ جُنَّا
8) تكامَلَ مَـعْنَاهُ، فَـأَصْبَحَ كـامِـلاً ألا يالَهُ بَدْرًا حَوَى الحُسْنَ والحُسْنَى!!
9) عَلَيْكَ صَـلاةُ اللَّهِ مَـا لاحَ بارِقٌ وما نَاحَ طَيْرٌ في الغُصُونِ وما حَنَّا

وقال أيضا في التحذير من الدنيا:

[السريع]

1) يا خَـاطِبَ الدُّنْيَـا إلى نَفْسِـهِ تَنَحَّ عَن خِطْبَـتِـهَـا تَسْلَمِ
2) إن الَّتِي تَخْطُبُ غَـدَّارَةٌ قَـرِيبَـةُ العُـرْسِ مِنَ المأْتَمِ

وقال أيضا:

[السريع]

1) النَّاسُ لِلمَـوْتِ كَخَـيْلِ الطِّرادْ والسَّـابِقُ السَّـابِقُ مِنْهَـا الجَـوَادْ
2) واللَّـهُ لا يَـدعُـو إلى دارِهِ إلاَّ مَنِ اسْتَـخْلَصَ مِنْ ذا العِبَـادْ

وقال يخاطب الشريف الأستاذ، سيّدي عبد الواحد بوعنان[74]:

[الخفيف]

1) سَيِّداً فاقَ في الذَّكاءِ إيَاسا — والسَّخَا حاتِمًا، وفي البَأسِ عَمْرًا

2) وسَمَا رُتْبَةً يُقَصِّرُ عنهَا — قَلَمُ المادِحِينَ نَظْمًا ونَثْرًا

3) أنا مُنْتَظِرٌ لإنجازِ وَعْدٍ — مِنْكَ، تُهْدِي لَنَا بِفَضْلِكَ هِرَّا

4) فَلَقَدْ ضَرَّ خِلَّكَ الفارُ فابْعَثْ — مَا تُزِيحُ بِهِ هُمُومًا وَضَرًّا

5) تَكُنِ الفَعْلَةُ الجَمِيلَةُ مِنْكُمْ — دُمْتَ في فِعْلِكَ المفَاخِرَ بَدْرًا

وقال أيضا[75]:

[الرجز]

1) نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلى أبي البَشَرْ — فِيمَا حَكَاهُ الدَّيْلَمِيُّ اثْنَيْ عَشَرْ

2) إدرِيسُ يعقُوبُ لِكُلٍّ نَزَلا — أرْبَعَ مَرَّاتٍ على مَا نُقِلا

3) وَعَشْرةٌ عيسى. وأيُّوبَ أتَى — ثَلاثَ مَرَّاتٍ عَلى مَا أثْبِتَا

4) وَنوحٌ خَمْسِينَ وأرْبَعِينا — على الخَليلِ، حَكَى يَقِينا[76]

5) وأرْبَعًا موسى مِنَ المئِينا — وسَيِّدُ الورى المُفضلِينا

6) قَد جاءَهُ عِشْرِينَ ألفَ مَرَّةْ — وَخَمْسَهَا. أعظَمَ رَبِّي[77] قَدْرَهْ

7) صَلّى وسَلَّمَ عَلَيْهِ اللّهُ — مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ إلى مَثْوَاهُ

[استطراد صغير]

قلت: نقل القسطلاني في شرح الصحيح، عن ابن عادل، أن جبريل نزل على الخليل اثنتين وأربعين مرة. قال: والعهدة عليه. انتهى. فلو أبدل الشطر الثامن بقوله:

---

[74]- أديب فقيه فاسي. (ت 1106هـ). ترجمته في: النشر: 3/66. الالتقاط: 266-267. رقم 401 السلوة: 1/200-201. الاستقصا: 7/74.

[75]- القطعة في: حاشية المؤلف: 1/84، ما عدا البيت الأخير.

[76]- حاشية المؤلف: 1/84: ثبتا.

[77]- في الأصل: عظم الله. ولا يستقيم به الوزن، والتصويب من الحاشية: 1/84.

1- «واثْنَيْنِ لِلخَليلِ قُلْ يَقـينا»

لوافقه.

[في جنان حمدون الأبَّار]

وذكر العلامة سيدي العربي بَرْدَلَّة[78] قال: أنشدنا صاحبنا سيدي عبد الله العياشي، ونحن مجموعون بجنان شيخنا سَيِّدي حمدون الأبار، المسمى بقَصَبِيَّة:

[البسيط]

1) يا صاحِبِي فَما العُمْرُ بِأَجْمَعِهِ،	وإنْ تطاولَ، مِنْ يَوْمِ السُّرُورِ، بَدَلْ
2) فاغْتَنِمَا اليَوْمَ في بُسْتَانِ قَصَبِيَّةٍ	عَشِيَّةٌ هِيَ لِلْمُشْتَاقِ أقصى أَمَلْ
3) ما بيْنَ دَوْحٍ وأزْهَارٍ مُنَمَّقَةٍ	وجَدْوَلٍ مِثْلَ دَمْعٍ في الخُدودِ هَمَلْ
4) ومَجْلِسٍ لا تَسَلْ عَنْ حُسْنِ مَنْظَرِهِ	والنَّهْرُ مِنْ تَحْتِهِ، إن شِئْتَ[[79]]

قال: فقلت:

1) في فِتْيَةٍ كَبُدُورِ التَّمِّ قَد طَلَعَتْ	إذا رأى حُسْنَهُمْ بَدْرُ السَّماءِ أَفَلْ

وقال صاحبنا سيِّدي أحمد ابن الحاجّ:

[البسيط]

1) وَالوُرْقُ تَشْدو على الأزهارِ راقِصَةٌ	كَأنَّهَا أَبْصَرَتْ وَجْهَ الحَبيبِ وَصَلْ

وقال سيِّدي عبد الله:

[البسيط]

1) وَغَنَّتِ الطَّيْرُ، والأغصانُ مُطْرِقَةٌ	وَقَد كَساها أصيلُ اليَوْمِ ثَوْبَ خَجَلْ
2) والنَّهْرُ حَنَّ، كَمَا حَنَّ لِفُرْقَتِكُمْ	قَلْبٌ حَلَلْتُمْ بِهِ، يا قَوْمِ، خَيْرَ مَحَلّ

---

[78]- محمد العربي بن أحمد بردلة الأندلسي الفاسي. فقيه عالم (ت 1133هـ) ترجمته في: النشر: 3/247. الالتقاط. 320-321. رقم 480. الدرر: 2/349. الاستقصا: 7/113. السلوة. 3/138-139. الشجرة: 1/332-333. رقم 1305. الفكر السامي: 2/285.

[79]- بياض في الأصل.

فقلت:

[البسيط]

1) فَيا لَهُ زَمَنًا نِلْنَا السُّرُورَ بِهِ وَغابَ عَنَّا الأسى. لَوْ كانَ فيه مَهَلْ

وقال العلامة سيِّدي العربي بردلَّة، مداعبة لسيِّدي عبد الله أعَبّش[80]:

[مجزوء الرجز]

1) لنا خليلٌ لا يَفي بِوَعْدِهِ، إذا وَعَدْ
2) يَرْتاحُ لِلْجَدْوَى إذا كانَ لِوَقْتِها أمَدْ
3) ثُمَّ إذا اسْتَجْزَتَهُ عِنْدَ حُلولِها جَحَدْ

فأجابه سيدي أحمد ابن الحاجّ، بقوله:

1) اسْتَغْفِرِ اللَّهَ ولا تَقُلْ مَقالاً يُنْتَقَدْ
2) فَمَنْ وَصَفْتَ لا يَفي مِثْلَ وفاتِهِ أحَدْ

فأجابه سيدي العربي بقوله:

1) بَلِ اتَّقِ اللَّهَ ولا تَشْهَدْ شَهادَةً تُرَدّ
2) وقُلْ بِما تَعْلَمُهُ فَقَوْلُكَ الحَقُّ أسَدّ

فأجابه سيِّدي عبد الله بقوله:

1) دَعْوى بِغَيْرِ مُسْتَنَدْ وذاكَ مِنْ شَأنِ الفَنَدْ
2) فَخِلْتَنيهِ يافَتى إذْ قِسْتَ دونَ مُسْتَنَدْ
3) هذا جَوابي والَّذي تَرَكْتُ مِن قَولي أشَدّ
4) ومَنْ بَدا أظْلَمُ والظُّلْمُ أوْلى بالنَّكَدْ
5) فَإن تَعُدْ عَقْرَبُكُمْ عُدْنا لَها بِلا عَدَدْ
6) فَعِنْدَكُمْ إذايَةٌ وَعِنْدَنا نَعْلٌ وَيَدْ
7) لَوْ قادَكَ التَّوفيقُ كُنْتَ كَأخيكَ ذِي الرُّشَدْ

80- هو نفسه عبد الله العياشي المذكور قبل قليل.

8) جَنَحَ لِلرُّشْدِ وَمَا	قَطُّ إلى هَجْوِي قَصَدْ
9) وَصَفَنِي [اللهُ][81] بِوَصْفِهِ	أكْرَمَهُ اللهُ الأحَدْ
10) اِسْتَغْفِرِ اللهَ لِكَيْ	يُصْلِحَ مِنْكَ مَا فَسَدْ

[عبد الله أعياش يستنجزه وعده]

ووعد أبو الفضل، أحمد بن العربي، بالزيارة لصاحبه سيدي عبد الله أعَيَّاش، في يوم الثلاثاء فلم يَفِ. فبعث إليه سيدي عبد الله المذكور يوم الأحد ما نصه:

[الوافر]

1) وَعَدتُّمْ يَوْمَ الثُّلاثاء أنْ تَزُوروا[82]	فَطالَ الأربعاءُ بِالانتِظارِ
2) ولَمْ أرَ في الخَميسِ لَكُمْ رَسولاً	ولَمْ يَكُ في العَروبَةِ مِنْ مَزارِ
3) ولَيْتَ السَّبْتَ جادَ لَنا بِوَصْلٍ	فَقَدْ يَسْخو المُبَخَّلُ بِالنَّزارِ
4) وَقَد بَلَغَ الجَفاءُ الحدَّ، ما لي	عَلى هذا الجَفاءِ مِنِ اصْطِبارِ
5) وكَفِّرْ ذَنْبَ هَجْرِكَ لي بِوَصْلٍ	عَديمِ اثْنَيْنِ: بُعْدٍ واقْتِصارِ
6) عليْكَ سلامُ مُقْتَرِبٍ إلَيْكُمْ	ومُغْتَرِفٍ ومُغْتَرِبِ الدِّيارِ

[منظومته في الإدغام]

ومن نظم أبي الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج، رحمه الله، هذه الأبيات، نظم فيها كلام المرادي[83] وغيره في باب الإدغام، في شرح قول ابن مالك[84] وفي:

[81]- كذا بالأصل. ولا يستقيم الوزن إلا بإسقاط اسم الجلالة.

[82]- لا يستقيم وزن الشطر.

[83]- الحسن بن قاسم. نحوي مصري. (ت 749هـ). ترجمته في: البغية. 517/1. رقم 1070. الغاية: 1/ 227-228. رقم 1038. الدرة: 1/241- 242. رقم 362. الدرر الكامنة: 2/32-33. رقم 1546. طبقات الداودي: 1/142-143. رقم 137.

[84]- جمال الدين، محمد بن عبد الله الطائي الجياني. نحوي أندلسي. (ت 672هـ). ترجمته في. الوافي: 3/359-366. رقم 1439. الغاية: 2/180-181. رقم 3163. البغية: 1/130-137 رقم 224. النفح: 2/222-223.

[الرجز]

1) «جَزْمٍ وشِبْهِ الجَزْمِ تَخْيِيرٌ قُفِي»[85]

[الرجز]

1) إِنْ جُـزِمَ الفِـعْلُ الَّذي قَـدْ شُـدِّدَا   آخِــرُهُ كَــلاَ تَضُــرَّ أحَــدا

2) فـاكْسِرَهْ مُطْلَقًا لِقَوْمٍ وافْتَحَا   لآخَــرِينَ، ثُمَّ إِنَّ الفُــصَحــا

3) مِنْ هَؤُلاءِ حَــيْثُ يَلْقَى سـاكِنًا   يَأْتُونَ بِالكَسْـرِ: كَسْـرُ الحازِنا

4) ثَالِثَــةُ اللُّغَــات أَنْ يُتْـبِعِ مـا   يَلِي، فَـإِثْرَ ضَـمَّـةٍ لَهُ اضْـمُـمَ

5) وافْـتَـحْـهُ بَعْـدَ فَـتْـحَـةٍ أو ألِفِ   وبَعْـدَ كَـسْـرَةٍ لَهُ الكَسْـرُ يَفِي

6) إِلاَّ بِنَحْــوِ: مُــسُّــهُ وفِــرُّهُ   فَــالضَّمُّ عِنْدَهُمْ كَــلا تُمِــرُّهُ

7) ونَحْـوُ: رُدُّها وحِبُّـهـا، افْـتَـحَـا   لِصِلَةٍ وخِـفَّــةٍ قَـدْ وَضَـحـا

8) ونَحْوُ: غُضَّ الطَّرْفَ، عَضِّ اللَّحْما   فـاكْسِـرَهْ لِلسَّـاكِنِ، وابْغِ العِلْمَا

[استطراد في شرح المنظومة][86]

وحاصل ما أشار إليه، أن العرب على ثلاثة فرق: كاسرون وفاتحون ومتبعون. فالكاسرون يكسرون مطلقا، على أصل التقاء الساكنين نحو: رُدِّ زَيداً ولم يَرُدِّ عَمْرا. قال الشاعر:

[الرجز]

1) قـــالَ أبو لَيلى لِحَـــبْلٍ مُـــدِّهِ   حَـــتَّى إذَا مَـــدَدْتَهُ فَـــشُــدِّهِ

والفاتحون على قسمين: فصحاء وغير فصحاء، فالفصحاء ينتقلون إلى الكسر، إذا عارضهم ساكن من كلمة أخرى، فيقولون: مُدِّ الحبل، وشُدِّ الرَّحْلَ. وقياس لغتهم الفتح في الجميع. وعليه أيضا يقال: ما لم تَصْفَرِّ الشَّمس. بالكسر.

وغير الفصحاء لايزالون على أصلهم من الفتح مطلقا، فيقولون: ما لم تصفرَّ. بفتح الراء. وعليه قول جرير:

---

[85]– شرح ابن عقيل: 590/2.

[86]– هذا الشرح منقول من الأنيس: 171-172. المهمات: 330.

[الوافر]

1) فَــغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَــيْــرٍ[87] فَــلا كَــعْــبًــا بَلَغْتَ ولا كِــلابَا

والمُتبعون يُتبعون الحرف المضعف لحركة الذي قبله، فإن كانت ضمة ضموه، نحو: لم يَرُدُّ ورَدُّوا. وإن كانت فتحة أو ألفا فتحوه، نحو: لم يعضَّ زيد، وعضَّ عمرو، أو قوله تعالى: «لا تُضارُّ والِدَةٌ بِوَلَدِها»[88]. وإن كانت كسرة كسروه. نحو: لم يَفِرِّ وفِرِّ يا عمرو، إلا في ثلاثة مواضع، فإنهم يُتبعون لما قبله: أحدها: إذا اتصل بالفعل ضمير مذكر غائب، فإنهم إنما يتبعون إلى الضمير الذي بعده نحو: لم يردُّه وردُّه ولا تردُّه. وعلى هذا، يمكن أن يكون قوله تعالى: «لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرونَ»[89] نفيا ونهيا، ويكون في النهي على لغة المُتْبِعين.

ثانيها: إذا اتصل بالفعل ضمير مؤنثة غائبة، نحو: رُدَّها ولا تَرُدَّها، فيُفتح المضعَّف اتباعا لحركة الضمير بعده، وإنما فعلوا ذلك في الموضعين لخفة الهاء، فلم يعتدوا بها، فكأن الضمة باشرت واو الصلة، والفتحة باشرت الألف.

ثالثها: إذا لقي آخر الفعل بساكن من كلمة أخرى نحو: رُدِّ القوم، ولم يَرُدِّ القوم، فيرجع المتبع ها هنا إلى الكسر، وعليه يقال: ما لم تَصْفَرِّ الشمس. انتهى.

وفي هذه المسألة حكاية اتَّفقت للراعي[90] مع شيخه ابن سمعة[91]، ذكرها العلامة المحقق سيدي محمد ابن زكري[92]، في شرحه على الفريدة[93]، والشيخ الأديب البارع سيدي محمد بن

---

[87]- شرح ديوانه: 75/1.

[88]- سورة البقرة: 233.

[89]- سورة الواقعة: 79.

[90]- محمد بن محمد الغرناطي. فقيه نحوي. (ت 853هـ). ترجمته في: النيل: 310. الدرة: 290/2. رقم 816. النفح: 694/2-699. البغية: 233/1. رقم 422. الضوء اللامع: 203/9-204.

[91]- أبو الحسن، علي بن محمد الغرناطي، فقيه نحوي. ترجمته في: النيل: 207.

[92]- محمد بن عبد الرحمان الفاسي. فقيه صوفي نحوي. (ت 1144هـ). ترجمته في: النشر: 338/3-339. الالتقاط: 356-357. رقم 505. الاستقصا: 83/8. السلوة: 158/1-160. النبوغ: 288/1-289. الحياة. 217-219. الموسوعة: 113/1. معجم المطبوعات: 143-144. رقم 337.

[93]- المهمات: 328-329.

الطيب[94]، صاحب الأنيس المطرب، في ترجمة البوعصامي[95]. انظرها إن شئت[96].

[منظومات وأشعار أخرى له]

ومن نظمه أيضا قوله مذيّلا لقول الإمام القصّار:

[الرجز]

1) إنْ وَلِيَ النَّفْيُ فَلِلتَّخْصِيصِ أوْلاً فَقَدْ وَقَرَ على المنصوصِ

ما نصه:

1) هذا مَقولُ الشَّيخِ عَبدِ القاهِرِ لا فَرقَ بينَ مُظْهَرٍ ومُضْمَرِ

2) ولا مُعَرَّفٍ ولا مُنَكَّرِ نَفْيًا وإثْبَاتًا بِذالِكَ حَرِي

3) ومَذْهَبُ السُّكَّاكي في المُنَكَّرِ الاختِصاصُ حَيثُ لا مَنْعَ حَرِي

4) و[قد][97] وُقِّرَ بِمُضْمَرٍ وما عَدا ذَيْنِ، فَلِلتَّقوى دائِماً بَدا

ومن نظمه أيضا، مُلغزا في القوس والنُّشّاب:

[الخفيف]

1) ما عَجوزٌ كبيرةٌ بَلَغَتْ عُمْـ رًا طويلا وتَشْتَهيها الرِّجالُ؟

2) قَد عَلا جِسمَها اصْفِرارٌ ولم تَشْـ كُ سَقامًا، ولا عَراها هُزالُ

3) وَلَها في البَنِينَ سَهْمٌ وقَسْمٌ وبَنوها كِبارُ قَدْرٍ، نِبالُ

4) وأراهُمْ لَمْ يُشْبِهُوها، فَفي الأُمِّ اعْوِجاجٌ، وفي البَنِينَ اعْتِدالُ

هذا، وقد وجدتُ بخط صاحب الترجمة هذه المقطعات. ولم أدر أهي له أم لا. منها:

---

[94]- العلمي. أديب فاسي كبير. (ت 1135هـ). ترجمته في: النشر: 3/263-264. الالتقاط: 326-327. رقم 486. النبوغ: 1/314-315. الحياة: 177-195. الموسوعة: 2/32. معجم المطبوعات: 243. رقم 562.

[95]- أبو عبد الله محمد. أديب صوفي. ترجمته في الأنيس: 168-192.

[96]- الأنيس: 170-172.

[97]- كذا بالأصل. ويجب إسقاط «قد» ليستقيم الوزن.

[الطويل]

1) عَجِبْتُ لِضَحْكِ المرءِ، والموتُ خَلْفَهُ، وللْمُشْتَري دُنْيَاهُ بِالدينِ أعْجَبُ

2) وأعْجَبُ من هذَيْن مَن باعَ دينَهُ بِدُنيا سِواهُ، فَهْوَ مِنْ ذاكَ أعْجَبُ

ومنها:

[الطويل]

1) إذَا كُنتَ صَبَّاراً لِوَقْعِ النَّوائِبِ وسَطْوَةِ جَبَّارٍ، وجَفْوَةِ صاحِبِ

2) ودِنْتَ بِمَنْعِ النَّفْسِ عَنْ شَهْوَاتِهَا ونَيْلِ هَواها خَوفَ سوءِ العَواقِبِ

3) فَقَدْ حُزْتَ أشْتَاتَ المكارِمِ كُلِّها وأحْرَزْتَ سَبْقَ الفَضْلِ مِنْ كُلِّ جانِبِ

ومنها:

[الطويل]

1) فَصَاحَةُ سَحْبَانٍ، وخَطُّ ابنِ مُقْلَةٍ وحِكْمَةُ لُقْمَانٍ، وزُهْدُ ابنِ أدْهَمِ

2) إذا اجتَمَعَتْ في المرءِ، والمرءُ مُفْلِسٌ فلَيْسَ يُساوي في الورى نِصْفَ دِرْهَمِ[98]

ومنها[99]:

[الرمل]

1) لِي حَبِيبٌ حُبُّهُ حَشْوُ الحَشَا[100] لَوْ يشاءُ[101] يَمشي على خدِّي مَشَى

2) روحُهُ روحي، وَروحي روحُهُ إنْ يَشَا شِئْتُ، وإنْ شِئْتُ يَشا

ومنها لغات أصبع. جمعت في هذا البيت:

[البسيط]

1) بِتَثْليثِ باءِ أُصبعٍ مَعْ شَكْلِ هَمْزَتِهِ(*) مِن غير قيد مع الأُصبوعِ قد كملا

[98]– هذا البيت غير واضح في ميم.

[99]– البيتان من قطعة للحلاج. شرح ديوانه: 229.

[100]– شرح ديوان الحلاج: 229: وسط الحشا.

[101]– شرح ديوان الحلاج: 229: إن يشاء.

(*)– الشطر ساقط الوزن.

ولغات الفم أربع عشرة، جمعت في هذين البيتين:

[البسيط]

1) بِتَثْليثِ فاءٍ فَمٍ مَعْ نَقْصِ آخِرِهِ(*) كَذَاكَ في حالتَيْ قَصْرٍ وَتَضعيفِ

2) والفاءُ تَتْبَعُ ميمًا حينَ تُعْرِبُهُ فَهَذِهِ عَشْرَةٌ مِن غَيرِ تكليفِ

ولغات هيهات ستة وثلاثون. جمعت في هذا البيت:

[البسيط]

1) ثَلِّثْ وصَرِّفْ ولا وابْدَأْ بِهَمْزٍ وها هَيْهَاتَ هيهاتَ هايَهاتَ لَو حُسِبا

ومنها:

[الطويل]

1) أَلَمْ تَرَ أَنَّ المرءَ طولَ حَيساتِهِ مُعَنًّى بِأَمْرٍ لا يَزَالُ يُعالِجُهْ

2) وذاكَ كَدودِ القَزِّ يَنْسِجُ دائِمًا فَيَهْلَكُ غَمًّا وَسْطَ ما هُوَ ناسِجُهْ

ومنها[102]:

[مجزوء الرمل]

1) قُلتُ قَولاً بِاخْتِصارِ وهْوَ صِدْقٌ لا مُحَالَةْ

2) مَنْ لَهُ في الغَيْبِ شَيءٌ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَنَالَهْ

ولنختم كلامه بقوله مضمنا أبياتا للشيخ القصار، يذكر سنده لصحيحي البخاري ومسلم[103]:

[الرجز]

1) يَقولُ أَحْمَدُ الكَثيرُ العَيْبِ الحَمْدُ لِلَّهِ الغَفورِ الذَّنْبِ

2) مُصَلِّيًا عَلَى النَّبِيِّ وآلِهْ وَصَحْبِهِ وجامِعي أَقْوالِهْ

3) رَوَيْتُ عن شيخي الإمامِ الأَمْجَدْ جمالِ الإسلامِ أبي مُحَمَّدْ

102- البيتان في حاشية المؤلف: 153/2.

103- المنظومة فيها اضطراب عروضي.

4) وَسِـيلَتي لِلَّهِ عـبـدِ القـادرِ[104] عَنْ عَـمِّـهِ الوليِّ ذي المفـاخِـرِ[105]

5) عَنْ شَيْخِهِ ذي العِلْمِ والفَضَائِلْ العَلَمِ القَـصَّـارِ وَهْوَ القـائِلْ:

6) «رَوَيْتُ عَنْ مُـحَـمَّـدٍ خـروفِ عَنِ الطُّويلِ القـادري لـمَـعـروفِ

7) عَنِ الحِجَـازي شِـهَـابِ الدِّينِ عَنْ إبن أبي المَجْـدِ عَنِ الحـجَّـارِ عَنْ

8) عَنِ الزُّبَيْـدي عَنْ أبي الوقْتِ عَنْ [الداوُدي عَنِ السَّرْخَسِي الفَطِنْ][106]

9) عَنِ الفَـرَبْري عَنِ البُـخَـاري وَمُـسْلِمًـا لِزكَـريـاءَ الدَّاري

10) عَنِ الزُّرْكَشي عَنِ البَيـانِ المُسْنِدِ عَنِ العَـسَـاكِـري عَنِ المُؤَيَّدِ

11) عَنِ الفـزاري مُـسْنِدِ الوُجُـودِ عَنْ عَـبْـدِ غـافِـرٍ عَنِ الجَلودي

12) عَنِ ابنِ سُفْيَانَ الولي عَنْ مُسْلِمِ أَبْقَـاهُ رَبُّنا لِـكُلِّ مُـسْـلِمِ»

وله من رواية سيِّدي رضوان[107]:

[الرجز]

1) رَوَيْتُ عَنْ إمـامِنا رِضْـوانِ عن سَيِّدي سُقَيْنٍ السُّفْيَـاني[108]

2) عَنْ زكَـرِياءَ عَنِ ابنِ حَـجَـرِ عَنِ التَّنوخي عَنِ الحَـجَّـارِ

3) عَـنِ الـزبيــــدي...

إلخ، كذا هو بخط الشيخ أبي الفضل.

---

[104]- عبد القادر الفاسي الفهري.

[105]- العربي بن يوسف الفاسي الفهري.

[106]- بياض في الأصل، ملأناه من النُّزهة: 131. والأبيات بعده في النزهة كذالك.

[107]- رضوان بن عبد الله الجنوي. فقيه محدث فاسي (ت 991هـ). ترجمته في: النشر: 1/89. الصفوة: 6-8. الدرة: 1/274-275. رقم 424. الجذوة: 1/197. رقم 157. السلوة: 2/257-262. الشجرة: 1/286. رقم 1092 الفهرس: 1/434-436. الفكر السامي: 2/269-270.

[108]- أبو زيد، عبد الرحمان بن علي سقين السفياني. فقيه محدث كبير. (ت 956هـ). ترجمته في: الدوحة: 58 رقم 43. فهرس المنجور: 10-11. السلوة: 2/159-162. الفهرس 2/987-988. الشجرة: 1/279. رقم 1047. النبوغ: 1/264. الفكر السامي: 2/268.

ويقوله:

[الطويل]

1) إلاهي مَضَى لِلعُمْرِ سَبْعُونَ حِجَّةً جَنَيْتُ بهـا، لمَا جَنَيْتُ، الدَّواهِيـ

2) وعَـبْـدُكَ قَـدْ أَمْـسَى عَلِيلَ ذُنوبِهِ فَجُدْ لِي بِرُحْمَى مِنْكَ تَمْحُو الدَّواهِي

ويقوله من قصيدة، يستغيث بالمصطفى عند عظم الخطب بفاس من الفتن:

[الطويل]

1) فَـإنّا أتينا البَـيْتَ مِن بابِهِ فَـقَـدْ رَغِـبْنَا بِمَن نالَ المحـبَّـةَ والوَحْـيَـ

2) وحَلْيـتَـهُ في الذكْرِ إذ قُلتَ مُخْبِرا: «رَؤوفٌ رحيمٌ»، حِلْيَـةٌ فـاقَتِ الحَلْيَـا

[نموذج من نثره الفني]

ومن نثره، رضي الله عنه، ما كتبه على الشرح المسمى بـ «فتح الفتَّاح، على مراتع الأرواح» لشهاب الدين، أبي العباس، أحمد بن عبد الحي الحلبي[109]. ونصه:

«الحمد لله الذي اختص من أراد فخامة مقداره، وإدامة مجده وفخاره، بتوفيق لصالح القول والعمل، فسعى فيما ينيله من رضى الله تعالى غاية الأمل، وجدّ كلّ الجدّ في أسباب ذالك، وفَرَّح الجذل، وملأ قلبه اللطيف، بالحب الشريف، غير مصغ لعذل من عدل.

والصلاة والسلام على منبع الجود، ومعدن المحاسن والجمال، سيد الوجود، وقطب دائرة الكمال، سيدنا ونبينا ومولانا محمد، إمام المرسلين على التفصيل والإجمال، وعلى آله وأصحابه الذين نصروه وصدقوه في المقال والفعال. صلاة وسلاما عدد خلق الله، بدوام الله الملك الكبير المتعال.

وبعد، فإن الشيخ العلامة، الدرّاكة، الفهّامة، بديع الزمن، ومحرز قصبات السبق في المعاني والبيان، غُرَّة العصر وفخر الأوان، حامل لواء الفصحة بين الأقران، صاحب المدائح

[109]- أديب شامي وفد على المغرب وأقام بفاس. (ت 1120هـ) ترجمته في: النشر. 3/197-201 الالتقاط: 302-303. رقم 456. الأنيس: 6-19. السلوة: 2/164-171. تاريخ تطوان: 3/118-119. الإعلام 2/332-352 رقم 250. الموسوعة: 3/104. السلوة. 2/164-167. معجم المطبوعات: 88-89. رقم 223.

المصطفوية، التي ملأ صيتها الأغوار والنجود، واستصبت معانيها البديعة، ومبانيها الرفيعة، الركّع السّجود، شهاب الدين، أبا العباس، سيدي أحمد بن عبد الحي الحلبي، بلّغه الله تعالى أمله، وزكّى قوله وعمله، أطلعني على كتابه المسمى «فتح الفتاح، على مراتع الأرواح»، فطالعت منه جملة وافرة، فإذا هو يأخذ بمجامع القلوب، ويشوّق الأرواح السّريّة، والنّفوس الزكيّة، إلى أفضل وسيلة، وأشرف مطلوب. قد حوى من الأنوار اللدنيّة، والأسرار القدسيّة، أوفر نصيب، ورتع من رياض الحقائق والرقائق بمرتع خصيب، وضرب في فنون من العلوم الشريفة بسهم مصيب، وقيّد من فرائد الفوائد، ما نفر وشرد، وجمع من عوارف المعارف، وطرائف اللطائف، ما شذّ وانفرد، وفرّع من هضاب قواعد العقائد، ما عجز عنه الغير وقعد، وكلّ عن التوصل لمراقيه السامية ورقد. فللّه من مؤلَّف به وجوه أسرار البلاغة مسفرة، وأبكار الأفكار ضاحكة مستبشرة، وأزهار الأنظار مونقة طيبة عطرة، «وكيمياء السعادة» وكنوزها بادية منتشرة، و«شذور الذهب» سالمة غير منكسرة، «وقلائد العقيان» لآليها غير منتشرة، وروائع البدائع في حليها متبخترة، «والجواهر الحسان» كاملة متوفرة، و«الدرر اللوامع» مكبَّرة غير مصغرة، والزرابيّ مطروزة محبَّرة:

[الكامل]

1) كَالرَّوْضِ مُؤْتَلِقٌ بِحُمْرَةِ نَوْرِهِ ... وَبَيَاضِ زَهْرَتِهِ وخُضْرَةِ عُشْبِهِ

2) وكأنُّها، والسَّمْعُ مَعقودٌ بِها، ... وَجْهُ الحَبيبِ بدا لِعينِ مُحِبِّهِ

لا جرم أنه السحر الحلال، بيد أنه لم يَجْنِ قتل المسلم المتحرز. قد شهد شهادة قاطعة أن مؤلفه، الأوحد السابق المبرز، لا يشق له ضليعٌ غبارا، ولا يُشَكُّ أنه لا يُجارى ولا يُبارى، وإن كان الأخيرَ زمانُه، فقد قدّمه على من تقدمه قلمُه ولسانُه:

[الرمل]

1) يا أبا العبّاسِ، يا فَخْرَ الأدَبْ ... جِئْتَ في ذا العَصْرِ مِنهُ بالعجَبْ

2) حُزْتَ في العَلْيَاءِ أسْنَى رُتْبَةٍ ... قَصُرَتْ مِنْ دُونِ أدناها الرُّتَبْ

3) يا لَمَجْدٍ وَعُلومٍ جَمَّةٍ ... وبَديعٍ قَدْ تَبَدَّتْ مِنْ حَلَبْ!!

فهنيئا لك يا ابن عبد الحي بسداد الرأي، ورشاد السعي، وشرفا لك بذا المقصد المحمود، تنال به بعون الله تعالى، دخول دار الخلود. ومنتهى السول عليه، والحمد لله كما ينبغي لعظمته وجلاله، أولا وآخرا، وباطنا وظاهرا. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، مُسكة التمام، ولبنة التمام، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته.

قال هذا وكتبه بخط يده، العبد الفقير لمولاه، أحمد بن محمد العربي، شُهِرَ بابن الحاجّ. كان الله له في الدنيا والآخرة، ولوالديه ولجميع المسلمين، بتاريخ ثاني عشر الحجة الحرام، متم اثنين وتسعين وألف (1092-1681).

ومن نثره أيضا، ما كتب به على مطلع «الإشراق، في الأشراف القادمين من العراق»، لتلميذه العلامة الشريف مولاي عبد السلام بن الطيب القادري الحسني[110]:

[111]

[من أخباره]

وذكر العلامة الشريف، صاحب النوازل[112]، في بعض مقيداته، أن الشيخ أبا الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاجّ، صلّى مع الناس يوما صلاة الاستسقاء، ورجع لداره، وقلبه محزون من أجل عدم المطر. فاتفق أن كان بيده تأليف لابن قُنْفُذ[113] في أخبار الشيخ أبي مدين، ففتحه، فأول ما وقعت عليه عينه، قول الشاعر:

---

[110]– علامة مؤرخ. (ت 1110هـ). ترجمته في: النشر 3/86-115. الالتقاط: 275-280. رقم 418. السلوة: 3/348-350. الدرر: 192-193. الشجرة: 1/328. رقم 1283. مؤرخو الشرفاء: 195-197. الحياة: 142-146.

[111]– بياض في الأصل، قدره صفحة ونصف.

[112]– هو تلميذه أبو الحسن، علي بن عيسى العلمي. فقيه نوازلي من أهل شفشاون. ترجمته في: الدرر: 106. الشجرة: 1/336. رقم 1323. معجم المطبوعات: 242-243 رقم 560.

[113]– أبو العباس، أحمد بن حسن القسنطيني المعروف بابن الخطيب وابن قنفذ. فقيه صوفي مؤرخ. (ت 810 هـ) ترجمته في: الدرة: 1/121-123. رقم 150. الجذوة: 1/154-155. رقم 103. النيل 75-76 الشجرة: 1/250. رقم 903. تعريف الخلف: 1/32-37. النشر: 1/12. الإعلام: 2/224 226. رقم 195.

[الكامل]

1) سَيَكونُ ما هو كائنٌ في وقتِهِ | وأخو الجَهالةِ مُتْعَبٌ مَحزونُ[114]
2) فلعلَّ ما تَخْشاهُ لَيْسَ بِكائنٍ | ولَعَلَّ ما تَرجوهُ سَوفَ يَكونُ

فشرح الله صدره للتسليم لقضائه.

[تعريف أبي عبد الله محمد ابن زاكور به]

وبعد أن ذكر العلامة الأديب اللغوي، أبو عبد الله، سيدي محمد بن قسم ابن زاكور، صاحب «النفحات»، في تأليف له جملة من أشياخه، قال ما نصه[115]:

«وأما شيخنا ذو النور الوهّاج، الّذي فاض فيض معارفه وهج، أبو البركات، سيدي أحمد ابن الحاجّ، لازالت أنواره تُسرج كلّ داج، فهو الّذي أخرجني من الظلمات إلى النّور، وأتحفني بملابس السنا عن حناديس الديجور، وأولاني مقاليد الفنون، وأخبأني أماليد روضه الهتون، وطوّقني قلائد شعره الذي يبرأ المغمور بذكره. وهو ما راجعني بها عن قطعة:

[الطويل]

1) أفائِقَ أرْبابِ البلاغَةِ في الشّعْرِ[116] | [وسَابِقَ فُرْسانِ الفَصَاحَةِ في العَصْرِ]
2) وَمُمْتَطِيًا مِنْ ذَرْوَةِ المَجْدِ رُتْبَةً | سَمَتْ بِكَ في أُفُقِ المكارِمِ والفَخْرِ
3) فتاهَتْ وباهَتْ، وازْدَهَتْ بِجَمالِها | وحَيَّتْ بِمِعْطارِ الشَّذَى أرَجَ النَّشْرِ
4) صَبَوْتُ لَها مِنْ بَعْدِ أن شابَ مَفْرِقي | وقَدْ زِدْتُ فَوْقَ الأربعينَ على عَشْرِ
5) ولا بِدْعَ أنَّ الحُسْنَ يأخُذُ مُهْجَتي | وأنَّ الهَوَى العُذْرِيَّ مَلَّكْتُهُ أمْرِي
6) وَصارَ لِقَلبي لوْمُها وَعِتابُها | ألَذُّ مِنَ الماءِ القَراحِ لِذي حَرٍّ
7) وأقْرَرْتُ أنّي قَدْ بَخَسْتُ حُقُوقَها | لِتَرْضى، وإن كُنتُ البَرِيءَ بِلا نُكْرِ
8) فَما سمِعَتْ أُذْنايَ عذبَ البُحور تَسْـ | ـتَقي، وهْيَ ذاتُ الفَيْضِ، مِن ثَمدٍ مُرٍّ

[114]- البيتان في: أنس الفقير: 67. تحفة الإخوان: 67 (عن فهرسة ابن عتاب). والبيت الأول في: الإيقاظ: 423 (ضمن قطعة).

[115]- النص الآتي من نشر أزاهر البستان: 90-95.

[116]- هنا بياض في الأصل، مقداره نحو نصف صفحة. وقد ملأنا الفراغ من نشر أزاهر البستان: 90-91.

9) عليك أخي منّي أزكى تحيّةٍ تكونُ كَعُشْرِ العُشْرِ من واجب الشُّكْرِ

10) ودُمْ في سرورٍ رافلاً ثَوْبَ رِفْعَةٍ ودَهْرُكَ طلْقُ الوَجْهِ، يَلْقَاكَ بالبِشْرِ

فَبِحُلاه طرّزت أشعاري، وإليه زففتُ أبكاري، من بنات أفكاري، فمن ذالك ما مدحته به، وأنشد بين يديه، يوم ختمنا مختصر خليل عليه، وذالك في يوم الأحد، عقب صفر، سنة ثلاث وتسعين وألف (1682/1093)، وهو:

[رائيته في مدحه][117]

[الطويل]

1) لِيَ اللهُ، قلبي كَمْ يَذُوبُ مِنَ الذِّكْرى وكَمْ كَبِدي تُفْرى، وكَم عَبْرَتي تُذْرَى!

2) حَنيني لِمَنْ قَدْ شَطَّ عَنّي مَزارُهُمْ أتاحَ لِيَ الأشْجانَ[118] مِنْ حَيْثُ لا يُدرَى

3) فيا دارَنا الغرّاءَ على الرَّبْوةِ الخَضْرا لدَى الصَّدَفَيْنِ المُشْرِفَيْنِ عَلَى الحَمْرَا

4) سَقاكِ رَذاذُ الغَيْثِ مِنْ بَعْدِ وَبْلِهِ وَزادكِ إلْمامُ الصَّبا، بَهْجَةً أخرى

5) وحَيَّتْكِ أنْفاسُ الأزاهِرِ مَوْهِنًا ونَمَّتْ لَكِ الأرواحُ مِنْ طِيبِها نَشْرا[119]

6) ذكَرْتُ بِمَغْناكِ الكَريمِ مَعاهِداً مُنَضَّرَةً، أذكَتْ لظَى كَبِدي الحَرَّا[120]

7) ليالِيَ خِدْنِي كُلُّ يَمْؤُودٍ أغْيَدٍ تَجلَّى عَلى أطْواقِهِ وجْهُهُ بَدْرَا

8) يَبِيتُ يُعاطِيني سُلافَ رَحِيقِهِ فَأكْرِمْ بِهِ بَدْراً، وأعْظِمْ به خَمْرَا!!

9) إذِ الدَّهْرُ دَهْرٌ، والزَّمانُ مُساعِدٌ ونَوْرُ الصِّبَا غَضٌّ، سقاهُ الحَيا نُورا

10) وَلِلَّهِ لَيْلٌ في رُباكَ سَهِرْتُهُ على ضِفَّتَيْ نَهْرٍ، بِشَنِّيلَ قَدْ أزْرَى

11) كَساهُ ضِياءُ البَدْرِ لأْمَةَ فِضَّةٍ وقَتْ[121] ذُبالَ الشَّمْعِ في مَتْنِهِ تِبْرَا

[117]- القصيدة في: المنتخب: 42-44. نشر أزاهر البستان: 92-95.

[118]- في الأصل: أتاني لي الأشجان. وفي المنتخب: 42. أتاح لي الأحزان. والتصويب من: نشر أزاهر البستان: 92.

[119]- المنتخب: 42: ونثت لك الأرواح من طيها.

[120]- بياض في الأصل، ملأناه من: نشر أزاهر البستان: 92. المنتخب: 42.

[121]- في الأصل: وفتت، ولا يستقيم به الوزن. والتصويب من المنتخب: 42.

12) فَشَبَّهْ بِهِ نَهْرَ المَجَرَّةِ حَلَّهُ عُطَارِدُ والجوزَاءُ والقُطْبُ والشّعْرَى

13) أَدَرْنا عَلَيهِ الرَّاحَ، راحَ مَسَرَّةٍ وقد مَدَّ جَيْشُ اللَّيْلِ ألْوِيَةً سَمْرَا

14) وأَرْخَى على ضَوْءِ النَّهارِ سُتُورَهُ وباتَتْ نُجومُ الأُفْقِ تَزْجُرهُ زَجْرَا

15) إلى أنْ بدَا الإصْبَاحُ يَضْرِبُ في الدُّجَى بِنَصْلِ حُسَامِ الفَجْرِ صاحَبَ بِهِ ذُعْرًا[122]

16) وَمَدَّتْ على آثارِهِ، وهْوَ هاربٌ وقد أَفْرَتْ أَفْراسُها خَلْفَهُ أَفْرا[123]

17) كَأَنَّ الدَّرارِيَ الشُّهْبَ في كَبِدِ السَّما قَواريرُ بِلَوْرٍ على لُجَّةٍ خَضْرَا

18) كَأَنَّ سُهَيْلاً إِذْ تألَّقَ مُفْرَداً صَرِيعُ هَوى، قَدْ نالَ مِنْ حُبِّهِ هَجْرَا

19) يُرِيدُ الثُّرَيَّا، والبِعادُ يَعوقُهُ وهَيْهَاتَ: أمّا الصَّبْرُ عنها فَلا صَبْرا[124]

20) وقد رَقَّتِ الشِّعْرَى العَبُورُ لِحالِهِ وَحَنَّتْ له كَيْمَا تَشُدُّ لَهُ [أَزْرًا][125]

21) وقد عَبَرتْ نَهْرَ المَجَرَّةِ نَحْوَهُ وَلَمْ تَسْتَطِعْ عَبْراً شَقيقَتُها الأُخْرى

22) لذلكَ ما تَوَلَّى أنينًا[126] وزَفْرَةً[127] وتُرْسِلُ مِن أجفانِها عَبْرَةً عَبْرَى

23) تُرِيدُ أخاها، إِذْ أَضَرَّ بِهِ النَّوى وَقَدْ عاقَها العَيُّوقُ عَنْ قَصدِها قَسْرا[128]

24) كَأنَّ ضِياءَ البَدْرِ، والشُّهْبُ حَوْلَهُ، سَنَا شَيْخِنا ابنِ الحاجِ في حَلْقَةِ الإقْرا

25) يَكَادُ يَرِيبُ الجاهِلِينَ شُعاعُهُ إذا لَمَحُوا أَنْوارَهُ في الدُّجَى تَتْرا

26) يَقولونَ جَهْلاً إِذْ أَضاءَ مَعالِما أَبَدْرٌ بَدا، أم بارِقٌ قَد سَرى مَسْرَى؟!

27) بَلى إِنَّهُ نورُ الهُدَى لاحَ في الدُّجَى دُجَى الوَهْمِ فانْزاحَتْ دَياجيرُهُ تُفْرَى

28) فَياوَهْمُ، ما أَدْجَاكَ في أَعْيُنِ الوَرَى ويا نُورُ، ما أَجْلَى سُطُوعَكَ إِذْ أُورى!!

---

[122]- لم يرد البيتان في المنتخب، ولا في نشر أزاهر البستان.

[123]- لم يرد البيتان في المنتخب، ولا في نشر أزاهر البستان.

[124]- بياض بميم ملأناه من باء.

[125]- ما بعده لم يرد في نشر أزاهر البستان.

[126]- في الأصل: إليها. والتصويب من المنتخب: 43.

[127]- بياض في الأصل، ملأناه من المنتخب: 43.

[128]- في الأصل: نسرا. والتصويب من المنتخب. وما بعده وارد في نشر أزاهر البستان.

29) تجلّتْ به حُورُ[129] العلومِ عرائسًا فشاهَدَها مَنْ كانَ لا يُبْصِرُ البَدْرا

30) إمامٌ حَباهُ اللهُ عِلمًا[130] وسُؤْدَدًا وَخَوَّلَهُ عِلمًا، وأَعْظِمْ بِهِ فَخْرا!!

31) إذا استُصْعِبَتْ غُرُّ المعاني لِمَعْشَرٍ وَقَدْ وَجَموا، قالَتْ طلاقَتُهُ: بُشْرى

32) وَرَوَّضَها حتّى تَذَلَّلَ صَعْبُها وَخاطَبَها سِرًا، فَدانَتْ لهُ جَهْرا

33) هُمامٌ تَرَدّى بِالصِّيانَةِ والتُّقى لَهُ خُلُقٌ زُفَّتْ لَهُ الحَمْدَ والشُّكْرا

34) صَبُورٌ على هَجْرِ الألى ساءَ طَبْعُهُمْ صَفُوحٌ على ذي هَفْوَةٍ أوْجَبَتْ نَغْرا

35) مُصيخٌ لِمَنْ أَبْدَى إليهِ مَعاذِرًا حَليمٌ على الجُهّالِ يُبْدي لَهُمْ بِشْرا

36) تأبّى عَنِ الأقْذارِ، لا مُهْتَمٌ لِما حَوى هِمَمًا ما نالَ أيْسَرَها كِسْرى[131]

37) فلَوْ بُلَغاءُ العَصْرِ عَدُّوا خِصالَهُ[132] لَما بلغوا مِنْها، ولَوْ كَثُروا، عُشْرا

38) فَأنّى لِمَغْمورِ الحَشا، وهُوَ واحِدٌ يُحيطُ بِها نَظْمًا، وَيودِعُها شِعرا؟!!

39) وَهَبْني امرأَ القَيْسِ بْنَ حُجْرٍ وخالَهُ، أَأَقْدِرُ أنْ أُحْصي الكواكِبَ والقَطْرا[133]؟

40) بِعَيْشِكَ أنْصِتْ لي فقَدْ بَرَّحَ الجوى بِقَلْبي، وأذْكى الوَجْدُ في كَبِدي جَمْرا

41) أعِنْدَكَ أنّي قَدْ بُليتُ بِمَعْشَرٍ يُؤْذونَني جَهْرًا، ويُؤْذونَني سِرًا؟

42) عَلى أنَّني لادَرَّ لِلّهِ دَرُّهُمْ، أَبَحْتُهُمْ مِنّي الأضالِعَ والصَّدْرا

43) يَوَدّونَ إخْفائي، وهَيْهاتَ إنَّما أنا الكوكَبُ الوَهّاجُ في اللَّيْلَةِ الغَرّا

44) فَلَوْلا سماءُ الحِلْمِ تَهْدي[134] نُجومُها لأوْلَيْتُهُمْ مِنْ مِقولي البَطْشَةَ الكُبْرى

45) وجَنَّدْتُ مِنْ فِكْري إلَيْهِمْ كَتائِبًا تَؤُزُّهُمُ أزًّا، وتَنْظُرُهُمْ شَزْرا

46) وتُصْميهِمُ، حَيْثُ استَقَلّوا، سِهامُها فَلا يَجِدونَ، الدَّهْرَ، في حَرْبِها نَصْرا

---

[129]- نشر أزاهر البستان: 94: غيد.

[130]- المنتخب: 43: حلما.

[131]- في الأصل: كبرا. والتصويب من نشر أزاهر البستان: 94.

[132]- نشر أزاهر البستان: 94: راموا خصالها.

[133]- لم يرد هذا البيت في المنتخب. وما بعده ساقط من نشر أزاهر البستان.

[134]- المنتخب: 44: تهوي.

47) ولَكِنْ نَهَـتْنِي[135] هِمَّـةٌ أدَبِيَّـةٌ سَمَتْ لِلْعُلَى لا ترْتَضِي أبَداً غَـدْرَا

48) فَلا زِلْتَ تَرْقَى في سَمَاءِ مَعارِفٍ وَنورُك يَبدُو في غَيَاهِبِها فَجْرَا

49) وَمِنِّي سَـلامُ اللَّهِ مَـا لاحَ بارِقٌ عَلَيْكَ، أبا العبَّاسِ، حَمَّلْتُهُ عِطْرا

50) وَأهْدِي صَلاةَ اللهِ ما هبّتِ الصَّبا إلى خاتَمَةِ الأرسالِ أعْلَقِهِمْ خَطْرَا

51) مُـحَـمَّـدٍ أزكَى العـالَمِينَ وآلِهِ وأصحابِهِ مَنْ أشْبَهُوا أنْجُمًا زُهْرا

52) صَلاةٌ يَضوعُ الكَونُ مِنْ نَفَحاتِها تُباري شَذَا العِطرَيْنِ دارينَ والشِّحْرا

53) يُظَلِّلُنِي يَوْمَ القِيَـامَـةِ ظِلُّهَـا وتُلبِسُنِي مِنْ نَسْجِهَا حُلَلاً خضْرا[136]

54) وَهاكَ عَروسًا مِنْ بُنَيَّاتِ خاطِري تُطاوِلُ خَوْدًا، ألْبِسَتْ حُلَلاً حَمْرا

55) شَرِيفَـةَ قَدْرٍ، لَمْ أجِدْ كُفْؤاً لهـا سِواكَ، أبا العَبّاسِ، فَاهنأْ بِها بِكْرا

56) رَشوقًا أنوقًا، عَذْبَةَ القَوْلِ، غادَةً مُعَطَّرَةً، أرجو القَبولَ لَها مَهْرا

57) فَـلا تَنْتَـقِـدْها بِالملامِ فَـإنَّنِي أُحَمِّلُها بَيْـتًـا يَكونُ لَها عُذْرا

58) «فإنَّ الّذي يُهدي إلى مِصْقَعٍ شِعْرًا نَظيرُ الذي يُهدي إلى طَيْبَةٍ تَمْرا»[137]

[نونيته في مدحه][138]

ومن ذلك حين ختمنا عليه «الشّمائل النبوية»، ووافق ذلك يوم المولد النبوي الشريف:

[البسيط]

1) نورُ الهُـدى في ظَلامِ البَيْنِ هادِينا فَـمـا لَنا ولِتَـزويدِ الهَـوائينا؟!

2) يُحـاوِلُ العَـذْلُ يُسلينا أحِـبَّـتنا لا كـانَ شيءٌ عَنِ الأحبابِ يُسَلِّينا

3) ناشَـدتُكَ اللهَ دَعْنَا وصَـبـابَتَنا يا مَنْ غـدا بِنِبالِ اللَّوْمِ يُصْمِينا

4) إنَّا أخَـذنا عُـهـوداً مِنْ أحِـبَّـتِنا أنْ لا نـزالَ لأهْلِ اللَّوْمِ قـالِينا

5) أنا أرَقُّ عِـبـادِ اللَّهِ أفْـئِـدَةً فَـلا تَلُمْنا، فَـإنَّ اللَّوْمَ أرْدانا

[135]- المنتخب: 44: أبت لي.

[136]- لم يرد البيت في المنتخب، وبه انتهى ما سقط من نشر أزاهر البستان.

[137]- انتهى ما نقله المؤلف من نشر أزاهر البستان.

[138]- لم ترد القصيدة في المنتخب.

6) ولا تُعاقِبْ على فَرْطِ الضَّنى دَنِفًا إنَّ الضَّنَى خيرُ أوصافِ المُحِبِّينا

7) إنَّا، معاشرَ أهلِ الحُبِّ، أنفُسُنا تَشْجَى طويلاً بما سُرَّتْ به حين

8) نَفسي الفداءُ، وما يُجدي الفداءُ، لِمَنْ شَيَّبَني حُبُّهُمْ في إثْرِ عِشْرِينا

9) أهلَهُ، لَوْ رأتْ عَيْنَاكَ بَهْجَتَهُمْ، لصِرْتَ مِنْ وَلَهٍ تَحْكِي المجانينا

10) بالعَنْتَ في عَذْلِنا، لَوْ كانَ يَنْفَعُنا لكنَّهُ بالضَّنَى والوَجْدِ يُغْرِينا

11) لا يَنْفَعُ الدَّنِفَ المَفْؤُودَ شَيْءٌ سِوى شَمائِلِ المُصطفى، وشَمْسِ النَّبِيِّينا

12) مُحَمَّدٍ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ قاطِبَةً فَهُنَّ نِعَمٌ مِنَ الأشْجَانِ تُبْرِينا

13) جَزَى الإلاهُ أبا عيسى بِأفْضَلِ ما جزَى الّذِي شادَ تَصْنيفًا وتَدْوِينا

14) أتْحَفَنَا بِكِتَابٍ قَدْ حَوَى دُرَرًا جَليلةً عَنْ نَفيسِ الدُّرِّ تُغْنِينا

15) هِيَ «شَمائِلُ» خَيْرِ الرُّسْلِ مَنْ نَطَقَتْ لَهُ الجماداتُ إفْصاحًا وتَبْيِينا

16) وحَنَّ مِنْ بَيْنِهِ الجِذْعُ وكَلَّمَهُ ضَبُّ الفَلاةِ بِما غاظَ المُعادِينا

17) وفاضَ مِنْ يَدِهِ الماءُ الزُّلالُ وقَدْ شَكا البَعيرُ إليْهِ الكَدَّ تلقِينا

18) والذِّيبُ أفْصَحَ عَنْ أنْباءِ بَعْثَتِهِ في قِصَّةٍ تَبْهَرُ الألْبابَ تَعْيِينا

19) كَمْ مِنْ فَضائِلَ لا يُحصى تَعَدُّدُها بَدَتْ لِكَهْفِ الوَرَى، غَوْثِ المُنادِينا

20) صَلَّى عليْهِ إلاهُ العرشِ ما طَفِقَتْ وُرْقُ الحَمائِمِ في دَوْحٍ تُناغِينا

21) وآلِهِ وجَميعِ الصَّحْبِ ما قَطَفَتْ يَدُ الصَّبابَةِ ألْبابَ المُحِبِّينا

22) يارَبِّ بالمُصْطفَى الهادي وَشيعَتِهِ اغْفِرْ لنا وتَجاوَزْ عَن مَساوِينا

23) وَوالِدِينا وأهْلِينا وَشيعَتِنا إنَّا مَدَدْنَا أكُفَّ الذُّلِّ داعِينا

24) مُسْتَشْفِعِينَ بجاهِ الخَلْقِ قاطِبَةً مُنْتَجِعِينَ حَيا جَدْواكَ راجِينا

25) شَفِّعْ رَسولَكَ فينا يَوْمَ مَحْشَرِنا عَساهُ مِنْ سُنْدُسِ الفِرْدَوْسِ يَكْسِينا

26) وامْدُدْ مَدَى شَيخِنا هذا الهُمامِ الّذي أمْسى شَمائِلَ خَيْرِ الرُّسْلِ يُقْرِينا

27) بَدْرُ العُلومِ، ومِصْباحُ الزَّمانِ، أبُو العبَّاسِ مَن حازَ إبداعَ وتَحسين

28) شَمْسُ العُلى، أحْمَدُ ابنُ الحاجِ، دَيْدَنُهُ دَرْسُ العُلومِ، وتَبْكيتُ المُناوِينا

29) واَكْلأهُ مِنْ كُلِّ ما تُخشى عَواقِبُهُ   ويَرْحَمُ اللّهُ عَبْداً قالَ آمينا

[ميميته في مدحه][139]

[مجزوء الكامل]

1) ثَغْرُ السِّيادَةِ قَدْ تَبَسَّمْ   عَنْ هَدْيِ قُدْوَتِنا المُعَظَّمْ

2) وبِحَمْدِهِ عَنْ قَصْدِهِ   طَيْرُ السَّعادَةِ قَدْ تَرَنَّمْ

3) شَمْسُ المفاخِرِ في الأوا   خِرِ، فيهِ سائِرُ مَنْ تَقَدَّمْ

4) فالحِلْمُ حَشْوُ بُرودِهِ   والحِلْمُ رائِدُهُ المُقَدَّمْ

5) والدِّينُ والتَّوْفيقُ مِنْ   لَفْظِ الثَّناءِ عَلَيْهِ يُعْلَمْ

6) إذْ مَدْحُ أعْلامِ الهُدَى   لِرُقِيِّ دينِ اللّهِ سُلَّمْ

7) مَقْفُوُّ أحْمَدَ والهُدى   خِلاّنِ، ذاكَ بِذاكَ مُغْرَمْ

8) أبْنِيَةُ الوَرَعِ الّتي   طافَ الرَّشادُ بِها وأحْرَمْ

9) إنَّ السِّيادَةَ أحْرُفٌ   بِعُلاكَ، يا مَوْلايَ، تُعْجَمْ

10) ولَدَيْكَ مَدْلُولُ الحَقا   ئِقِ والدَّقائِقِ[140] حَسْبَ يُفْهَمْ

11) وَسَناكُمْ يَهْدي إلى   دُرَرِ المفاخِرِ كَيْفَ تُنْظَمْ

12) فاسْلَمْ لِتَنْويرِ الزَّما   نِ، أشْمَسَ بَهْجَتِهِ، لِنَسْلَمْ

[لامية محمد بن عبد السلام بناني في مدحه]

وقال تلميذه شيخ الجماعة، العلامة البركة الصّالح، شارح الاكتفاء، سيدي محمد بن عبد السلام بناني، عند ختمه «الرسالة» عليه، أوائل عام أربعة ومئة وألف: (1104/ 1692):

[الخفيف]

1) «ذي المَعالي فَلْيَعْلُونْ مَنْ تَعالى   هاكَذا هاكَذا وإلاّ فَلا لا»[141]

[139]- القصيدة في: المنتخب: 59-60.

[140]- المنتخب: 59: الرقائق. وهو أفضل.

[141]- البيت مقتبس.

2) شَــرَفٌ دائِمٌ وعِــزٌ ومَــجْــدٌ   وسناءٌ وبَهْــجَــةٌ تَتَــلالا

3) وَسُــعــودٌ لِطالِعِ أُفُقَ العَلْـ   ياءِ مُــزْدَهِيًــا سَنًا وَجَــمــالا

4) ســـاطِعٌ ناصِعٌ زَهِيٌ بَهِيٌ   مُــخْــجِلٌ مَنْ بَغَى الكمــالَ فنالا

5) لَنْ يُوازَى ولَنْ يُطاوَلَ قَــدْراً   وعُـــلاهُ يُقَلْقِلُ الأجْــبــالا

6) لا، ولَنْ يُمْتَطى سَنامًا سِوى أَنَّ (م)   العُلى ســاوَرَتْ سَناهُ كَــمــالا

7) قُلْ لِمَنْ رامَ شَأْوَهُ: أَقْصِرَنْ عَنْـ   كَ الونَى، فَقَدِ انْتَجَعْتَ مُحالا

8) إِذْ تَيَمَّمْتَ مَتْنَ طَوْدِ العُلى إمْـ   ســاكَ نَجْمٍ مُطَأْطِئٍ شَــمْــلالا

9) وَجَشَّمْتَ الرِّهانَ مُمْتَطِيًا ذا   تَ خِداعٍ مُجارِيًا فَجِبالا

10) هَيْكَلاً ناهِداً، سَليمَ الشَّظا، عَدْ   لَ الشَّوى، شَنِجَ النَّسا، جَوَّالا

11) أَلِشُهْبِ العُلى، ذَواتِ الهُدَى، مِنْ   مُــرْتَقى فَــتَــقْــضِيَ الآمــالا؟

12) أَمْ لِبَــدْرِ الدُّجَى عِنانٌ إلى الأَرْ   ضِ سِوَى قَدْحِ زَنْدِهِ فَيُوالى؟

13) أَمْ لِشَمْسِ البَهَا مَعاهِدُ إلْفٍ   أَمْ غَرِيبٌ رأى إِلَيْهــا مِثالا؟

14) أَمْ لِمُــفْــرَدٍ لا نَظيــرَ لَهُ تَثْـ   نِيَــةٌ، لا ولا بِجَــمْعٍ يُوالى؟

15) فاحْتَسِبْ، أَيُّها المُقَلِّدُ، أَثْنا   نَ الرَّدى، وتَأَوَّدَنْ تِمْثــالا

16) فَلَكَمْ ظَلْتَ في تَفَــقُّــدِ أَطْوا   دٍ عَلَتْ، وَسِهــامِــهِ تَضْــلالا

17) وكَمِ ارْتَضْتَ، إِذْ تَسَنَّمْتَ عَلْيا   ءَ فَلُذْتَ بِمَــقْــوَدٍ إِذْلالا

18) وهَصَرْتَ عَلى فُؤادِكَ أَعْطا   فَ الجَوى، فَتَهَدَّلَتْ إِجْلالا

19) والمَعالي كَأَنَّها خِيسُ أَسا   دٍ تَخِذْنَ أَكْنافَــهــا أَغْــوالا

20) وكَأَنَّ أُسُــودَها أَنْجُمُ لَيْـ   سَتْ تُعــادى، ولا بِحالٍ تُقــالا

21) ساوَرَتْكَ الأَمانُ، إِنْ هِمْتَ مِثْلي   وتَخِذْتَ الغَرامَ خِدْنًا مُوالى

22) وثَنَيْتَ الزِّمامَ مُلْتَحِفًا مِنْ   مُلْحِفاتِ سُكْرِ الهَوى سِرْبالا

23) حَيْثُ رَوْضُ المُنَى تأَرَّجَ نِسْرِيـ   نُهُ، لَمَّا اغْتَدَى جَدَى هَطَّالا

24) حَيْثُ فَيْضُ الغِنَا جَرى دِجْلَةً مِنْ   كَوْثَرٍ مُتْرَعٍ مُدامًا حَلالا

25) حَـيْثُ تَهْبُ العَنَا شـرودٌ، ومُتْزو رُ الضَّنى ، نازحُ الونَى، مـعْطالا

26) حَيْثُ لا تَخْـتَـشي النُّكادَ ولا تُو لِي مِنَ الأزْمِ سَـــورَةً أو نَـكالا

27) حَـيْثُ نَسْـرُ السَّنا تطاوَلَ حَـتَّى أخْـجَلَ البَـدْرَ، وألْهَى الهِـلالا

28) حَـيْثُ بَحْـرُ النَّوالِ أصْلَتَ مِنْ أصْـ داف جَـوْهَرِهِ عُـبَـابٌ زُلالا

29) حَـيْثُ بَدْرُ الكمالِ أزْهَى فَـأزْهَى مَـرْبعًـا قَـد كَـسـاهُ مِنْهُ جَـلالا

30) حَيْثُ شَمْسُ العَوالِ ترْفُلُ في سُنْـ دُسِ إبراقِـهـا عُلَى وَجَـلالا

31) إنْ حَبَها البَهـا، وأدْلَى عليها ذَيْلَهُ الطَّالِعُ السُّعـيـدُ سِـدالا

32) وأثارَ بِعَـرْبِهـا بَهْـجَـةً قَـدْ طالَـمـا شِـيمَ بَرْقُـهـا مُـغْـتـالا

33) إذا دَرَّ عَليـه مِن سُـحْبِ آلا ئِه صَـيِّبُ مُـزْنُهُ السَّلْسـالا

34) وانتَـدَى لانحَـا بِبَـاصِـيهِ شَمْـ سَ هُدى مُـتَـهَلِّلاً تَهْـلالا

35) خِلْتُ لمَّا أبْصَـرْتُ طَلْعَـةَ صَـرْ حِ الزَّمـانِ قَـد ارتَدى أرقـالا

36) وتَحَـيَّـرْتُ بَيْنَ عَـيْنٍ وَعَـيْنٍ سامتِ الغَـرْبَ مِن سَناها حِـجالا

37) وَعُـبـابُ كَـمـالِ لألائهِـ روْ ضُ قساسِ البَـهـا، فَـراقَتْ أثالا

38) فَـبـدا لي أنَّهـا شَـمْسُ أعْـلا مِ الهُـدى، لاحَ نورُها فـاسـتطـالا

39) عَنْ سَنًا مِنْ جَنَى الجلالِ فَما اغْتا لَ عِـدَى غُـرَرِ البَهـ حيثُ صـالا

40) مَنْ حَـوى حُلَلَ المَـعـالي وأزْرى بِبُـدُورِ الكَمـالِ حـيثُ تلالا

41) مَنْ كَـأنَّ سُطوعَ ضَوْءِ مُحَـيَّـا هُ بَدا لِلعِـداةِ سُـمًّـا ثِمـالا

42) مَنْ غـدَا مقْصَدَ الطَّريدِ وكَهْـفًا لِلأرامِـلِ، مَلْجَـأ وثِمـالا

43) مَنْ أجَمَّ بِفـاسِنا أنْعُـمًـا فـاكْـ تَسَتِ الأرضُ مِـنْ سَنـاهـا دَلالا

44) مَنْ بِهِ نَصَـرَ الإلاهُ طريقَ الرُّ شْـدِ وَالحَقِّ، فَـازْدَهَتْ تَتَـلالا

45) مَنْ أقـامَ بِالاسـتِـقـامَـةِ قـامـ تِ التُّقى والهُدى، فَـأضْحَتْ مَنالا

46) فَسَمَا بِجلالِهِ الَّذي سَما، تا[142] شِـرَ ألْوِيَةِ عَليـهِ سِـجـالا

[142]- في الشطر كسر عروضي.

47) وَبِمـا ذرَّ مِنْ شُمـوسِ الهُـدى عَنْ ... سِـرِّ إخـمـادِهِ الرَّدَى والضَّـلالا

48) وَبِكامِلِ حِلمِــهِ وَسَنا عَــفْـ ... ـوِهِ، عَــمَّ جَـنَـــى، ورامَ نِـــزالا

49) ما حوى ذو مَكارِمٍ ما حَوى قـ(م) ... ـطُّ ولا نــالَ نَـيْـلَـهُ مَـنْ نــالا

50) قـدْ تَسَنَّمَ في رِعـانِ العُلى حَـ(م) ... ـتَّى تَولَّى مَناقِـيًــا وخِــلالا

51) وَتَنَاهى مَــدارُهُ فَــغَـدا قُطْـ ... ـبَ هُدَى، رائِقًــا سَنًا وَجَـمــالا

52) لم يَشِنْهُ شَيءٌ سِوى أنّهُ مُدْنِي(م) ... المُنَى، مُــؤَيِّدُ العَنا والجِـبـالا[143]

53) تَحْسَبُ البَدْرَ والدَّرارِيَّ في مَجْـ ... ـلِسِ إقْـرائِهِ اشْـتَعَلَ اشْـتِـعـالا

54) أوْ كـأنَّ المها لَدى شَيْخِنا ابنِ الْـ ... ـحاجِ، لَيْثِ الشَّرى أرَدْنَ اغْتِيـالا

55) فَــتَــراهُ لِهـؤُلاء بَشِـيـراً ... ونَذِيراً لا مُــبْـعِــداً نِبــالا

56) وكَــأَيِّنْ تَراهُ ناشِــرَ جِلبــا ... بِ الرَّدى عَنْ وَجْـهِ غَـدا مِـشْكالا

57) فَــتَــوَخَّ حِــمــاهُ وَالزمْ فِناهُ ... وبِمَــجْـــدِ رُباهُ حُطَّ الرِّحــالا

58) فَهُوَ مَنْ يورِدُ الشَّرابَ وَيَغْدو [144] (م) ... النَّفَـحـاتِ، وَيُسْبِغُ الأفْـضـالا

59) وَيَقِي كَــيْـدَ كُلَّ خَطِيَّــةٍ مَسْـ ... ـمومَــةٍ، وَيُبَــدِّدُ الآمــالا

60) قَـدْ أنَخْنا بِهِ الرِّكـابَ فَـمـا أبْـ ... ـقَى النَّبــالُ بِبــالِنا بَلْبــالا

61) وانْتَجَعْنا جَدْواهُ، فـارفُضْ في رَوْ ... ضِ المُنى وابلُ الغِنَا، سَلْســالا

62) وأدارَ عَـلـى زُهْـرِ الـرُّبـى مِـنْ ... سِــرِّ أنوارِهِ كُـــؤوسًــا طِلالا

63) وأفـادَ جَـمِـيـعَنا مُـخْجِلَ اليـا ... قـوتِ مِـمَّـا تَضَـمَّنَتْـهُ الرِّسـالا

64) فانْتَشَى مِنْ نَشَى كَما طَرِبَ المطْـ ... ـرابُ مِـنْ مُــــزَّةِ الغِنا، إذْ قالا

65) دامَ في جـبـهَـةِ العُلى عِـزَّةً طا ... لِعِ سَـعْـدِ الكَمـالِ جَـمًّا نَوالا

66) وحَوَتْ جَدَثَ الرِّضى القَيْرَوانِيُّ(م) ... هواطِلُ رَحْـــمَـــةٍ تتــوالى

67) بِشَـفِـيعِ الوَرى، إمـامِ الوَرى، أنْـ ... ـصِتْ لِنَظمِي، وَسَـدِّدِ الأقْـيـالا

[143]- في البيت كسر وتصحيف.

[144]- كذا بالأصل. ولعل الصواب: يغدق أو يغرف.

68) وَلْتكُنْ عــاذِرِي، فلسْتُ زُهَيْــراً	أوْ حَـبِـيـبًـا، أوِ الفَـتى المِفْضـالا
69) وَهَبْنِي كَـذا، فَـمَنْ لي بإحْـصـا	ني المكارِمَ والحَـصى والرِّمــالا
70) فَلْتُـفِـدْ وَفْدَنَا الرِّضى مِنْكَ حتَّى	لا نرى الوَشْـــزَ والخَنا والوَبالا
71) ولْتُناد بِبِـرٍّ سِـرُّكَ اللّـ (م)[145]	ـهَ اغْـفِـرَنْ ذَنْبَ مَنْ أَتى سَـئـالا
72) بِرَسُـولِ الإلاهِ سِرِّ الصَّـفـا، بَحْـ	رِ الوَفـا، رَحْـمَـةِ الإلاهِ، تَعـالى
73) صَلَواتُ الرَّحْـمـانِ تَصْحَبُـهُ والْـ	ـالَ طُراً، وصَــحْـبَـهُ الأبْطالا
74) وَعَلى مَجْـدِكَ السَّنِيِّ، أبِ العبّا	سِ، تَتْــرَى تَحِـيّـتـهُ وَتَوالى
75) مــ تَأوَّدَ غُـصْـنُ بانٍ، وَمــا وَرْ	قَـــاءُ غَنَّتْ، ورَدَّدَتْ أزْجـــالا
76) ما سَعى وَفْدُنا إلَيْكَ، وما دا [146]	مَ يُبِينُ العُلى الحِـجـا جــوَّالا
77) مِنْ كَـثِـيبٍ مُـضَـمَّـنٍ قَـولُهُمْ «ها	ذِي المعالي، فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعالى»[147]

[رسالة محمد بن أحمد المسناوي إليه]

ووُجد بخط[148] تلميذه، الشيخ الإمام المحقّق، سيّدي محمد بن أحمد المسناوي، زمن إقامته بمراكش، ما نصه:

«الحمد لله. وصلى الله على سيدن محمد وآله وصحبه وسلم.

أدام الله سيادة شيخنا الإمام، نخبة الأكابر وبقية الأعلام، العلامة الفقيه المطهَّر من دنس العُجْب والتيه، المستمسك بعرى الدين، والسالك سُنن المهتدين، المستضاء بنور علمه في لبل الجهل الداج، سيدن وسندن، أبي العباس، أحمد ابن الحاج، أعلى الله قدره، وخلد في الصالحات ذكره، وأنار بتوفيقه سراجه، وعدَّل بشراب حبه مزاجه.

نهدي لسيدن من السلام مـ يليق بقدره العظيم، ونقبل بشفه الروح أرضا أقلّت بساطه الكريم، وننهي لكريم علمه، أن العبد على ما يُعتاد منه في جانبكم من صفاء المودة، وخلوص

[145]- وزن الشطر ساقط.

[146]- وزن الشطر ساقط.

[147]- هذا الشطر هو عينه مطلع القصيدة.

[148]- بـ ا «: وكتب إليه.

الطوية والاعتقاد، وإن شطّ المزار، وعاقت عن القرب الأقدار:

[الوافر]

1) لئِنْ أَصْبَحْتُ مُرتَحِلاً بِجِسمي فَقَلْبي عِنْدَكُمْ أَبَداً مُقِيمُ[149]

2) ولَكِنْ لِلعِيانِ لَطِيفُ مَعْنى لِذا سَألَ المُعايَنَةَ الكَلِيمُ

وكيف لا ؟! وما أنِسنا نار الهدى إلا من طور سيناكم، ولا اقتبسنا جذوةَ الاهتداء إلاّ من سناكم، فلكم علينا الحق الذي نُجلّ عن التضييع عظيمَ قدره، والإحسان الذي نُقرّ بالعجز عن الوفاء بشكره، و«العجز عن الإدراك إدراك». والله يُجازيكم عنا بأجر غير ممنون، ويتولى حفظكم ورعايتكم في كل حركة وسكون. ونحن، والحمد لله، في أحسن حال، وأعز مقام، وأجمل صحبة وأتمّ إكرام، وحظوة تامّة، لدى الخاصة والعامّة، منذ فارقت الديار، وركبت متون الأسفار، مع نعمة صحة البدن، وفراغ البال من سوى الحنين إلى الوطن. ولقد صدق في الخبر من قال:

[المديد]

1) «إِنَّ فَقْدَ العِزِّ في الحَضَرِ»

وذاك نتيجة ما اغترفنا من فيض حياضكم، وثمرة ما اقتطفنا من زهر رياضكم:

[الكامل]

1) لَمّا انْتَسَبْتُ إلى حِماكَ تَشَرَّفَتْ ذاتِي فَصِرْتُ أنا. وإلاّ مَنْ أنا ؟!!

انتهى المقصود منه.

[أخبار أخرى له]

وكانت له الحرمة المكينة عند السلطان وجميع أكابر الدولة. لا يشفع في شيء إلا شفّعوه في الحال. وكان يأتيه الكبراء والرؤساء من شُمّ الأنوف، على أنفتهم وشدة شوكتهم، فيخضعون بين يديه، وقد يستأذنون فلا يؤذن لهم في الدخول عليه، ويرجعون.

أخبرني الشريف البركة، المُسنّ الخيّر، الديّن الصالح، مولانا أبو محمد، هاشم العراقي

149– البيتان في النفح: 82/2. وهما لابن حزم الأندلسي.

الحُسيني، أن الشيخ أب الفضل، أحمد بن العربي، لما مرض المرض الذي توفي منه، استأذنه [في الدخول عليه][150] أبو علي الروسي[151]، أحد قواد مولانا إسماعيل، لأجل أن يعوده، فلم يأذن له، وقال ما معناه: لا أرى وجه هذا الظالم في آخر يوم من الدنيا.

واستأْذنه في الحين شريف عراقي، فقال لأهله: احملوني لملاقاته والفرح به، فحملوه لباب داره، وتلاقى معه، وتشفَّع به وبنسبه الطاهر إلى الله، تبارك وتعالى، لأن يمُنَّ عليه بمنيته.

وله، رضي الله عنه، من الكرامات ما لا يُنكر، ولا يُستقصى بالعد ولا يُحصى. وناهيك منها بمثل ما صح عنه أنه كان يحضر في غالب أوقاته الصلوات الخمس بالمسجد الحرام. وتقدم قول شارح الاكتفاء: إن الله قد نفع به كل من قرأ عليه، لحسن نيته وطويّته.

[تلاميذه]

وممن انتفع به: الشيخ الإمام الشهيد، أبو محمد، عبد السلام بن حمدون جَسّوس[152].

- والشيخ أبو محمد، عبد السلام بن الطيب القادري الحسني.
- والشيخ أبو عبد الله، محمد بن قاسم ابن زاكور، صاحب «النُّفحات».
- والشيخ سيّدي الطيِّب بن محمد الفاسي[153].
- والشيخ سيّدي محمد ابن الحاج ابنه[154].
- والشيخ المسناوي. وهو من معتمَدي شيوخه في سائر الفنون المتداولة، حسبما ذكر ذلك في إجازة كتبها سيدي أحمد ابن مبارك[155].

150- لم ترد هذه الزيادة في ميم.

151- أبو علي بن عبد الخالق الروسي. قائد فاس للمولى إسماعيل. (ت 1139هـ). أخباره في: تاريخ الضُّعيف. 99. 103. الاستقصا: 7/91-98. 114. 122. 134. 138.

152- فقيه محدّث صوفي. استشهد في فتنة الحراطين سنة 1121هـ. ترجمته في: النشر: 3/207-208. الالتقاط. 306. رقم 460. الاستقصا: 7/94-96. السلوة: 2/14-15. الشجرة: 1/331. رقم 1297.

153- محمد الطيب الفاسي الفهري. علامة مشارك. (ت 1113هـ) ترجمته في: النشر: 3/131-133. الالتقاط: 282-283. رقم 423. الدرر: 2/283. السلوة: 1/318-319. العناية: 46-47.

154- ستأتي ترجمته. رقم 35.

155- اللمطي السجلماسي. عالم صوفي. (ت 1156هـ) ترجمته في: النشر: 4/40-42. الالتقاط: 393-

- والشيخ أبو العباس، سيدي أحمد الجَرَنْدي[156].

- وشارح الاكتفاء، سيدي محمد بن عبد السلام بَنّاني.

- والشيخ سيّدي محمد ابن زكري. وغيرهم ممن لا يحصى بكلّ أقطار المغرب.

[وفاته]

توفي، رضي الله عنه، مبطونا شهيداً ضحوة يوم الأربعاء، أول ربيع الأول، سنة تسع بالمثنّاة، ومئة وألف. (1109هـ/1697م)، ودفن في بيت اشترِي له، وأُدخل في ضريح سيدى عزيز، بدرب الطويل. وهو الآن مزارة عظمى، من أنفع المزارات في نيل البركات، وظهور الكرامات.

[موقفه من قضية الحراطين]

قال العلامة الشريف، مولاي إدريس المنجرَة، في ترجمة صاحب الترجمة، عقب ما تقدم:

«ولما خوطب، أي صاحب الترجمة، بالوقوع على ما ابتُلِيَ به هذا القطر المغربي من تمليك الحراطين، تضجّرَ من ذالك كثيرا، وقصد ضريح رائحة النبوة، مولانا إدريس بن إدريس بفاس، بين الظهرين أو بعد العصر، الشك مني. وجلس أمام القبر ساعة، وجرت دموعه، ودعا بما شاء الله أن يدعو به. ثم قام ورجع ثلاث مرات يُكِبُّ على القبر في كل منه، ويرجع القهقرى. وبعد الثلاثة، خرج من المسجد، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام ولحق بربّه. وعصمه الله سبحانه، مما ابتلى به معاصروه من قتل أو نهب أو فتنة، بعد الوقوع على الضلال. نسأل الله العافية». انتهى.

---

394. رقم 527. السلوة. 3/203-204. الحياة: 237-238.

[156]- أحمد بن علي. فقيه مشارك فاسي. (ت 1125هـ). ترجمته في: النشر: 3/215. الالتقاط: 308-309. رقم 468. السلوة: 2/14-17.

[أخبار أخرى له عن فهرسة بناني]

وقال شارح الاكتفاء، في ترجمته من فهرسته، بعدما أطنب فيه الغاية:

«وكان، رضي الله عنه، كثيرا ما يحكي لنا حكايات الصالحين، ويحدثنا بمسائل الصوفية، ويعظنا جدا في غالب أحواله، وينشدنا من الأبيات الشعرية ما لا يحصى عددا.

وآخر ما أنشدنا، رحمه الله، فيما يشبه الاقتباس، قول القائل:

[الكامل]

1) وَوَعَدْتَ أَمْسِ بِأَنْ تَزورَ فلمْ تَزُرْ[157] فغَدَوْتُ مَسْلُوبَ الفؤادِ مُشَتَّتا

2) لي مُهْجَةٌ في «النَّازِعاتِ» وعَبْرَةٌ[158] في «المُرْسَلاتِ» وفِكْرَةٌ في «هَلْ أَتَى»[159]

وقول بعض تلامذة ابن دقيق العيد:

[المتقارب]

1) مَجازَ حَقيقَتِها فَاعْبُروا ولا تَغْمُروا، هَوِّنوها تَهُنِ

2) وما حُسْنُ بَيْتٍ لهُ زُخْرُفُ تَراهُ، إذَا زُلْزِلَتْ، لَمْ يَكُنِ

وقول الآخر[160]:

[مجزوء الكامل]

1) مَرِضَ الحَبيبُ فَعُدْتُهُ فَمَرِضْتُ منْ شَغَفي عَلَيْهِ[161]

2) قَامَ الحَبيبُ فَزارَني[162] فَشُفيتُ[163] مِن نَظَري إلَيْهِ

[157]- البيتان لابن الوردي. ديوانه: 456. المسلك: 166.

[158]- ما بين قوسين سورتان من سور القرآن.

[159]- سورة الإنسان: 1.

[160]- البيتان للشافعي. ديوانه: 148. وفي محاضرة الأبرار: 1/406، أنهما لأبي بكر الصديق.

[161]- ديوانه: 148: حذري عليه.

[162]- ديوانه: 148: فأتى الحبيب يعودني.

[163]- ديوانه: 148: فبرئت.

[164]

وقد تنافست في شجوه القرائح، وبكاه الغادي والرائح. قال في «الروض الأريض، في بديع التوشيح والقريض»[165]:

[مرثية أبي عبد الله ابن زاكور له]

[البسيط]

1) ليسَ لَنَا في سِوى ابنِ الحاجِ من حاجِ — شَيْخٌ سَمـا لِلْعُلى بِأيِّ مِعْراجِ
2) بِالعِلْمِ والحِلْمِ والإدراكِ في مَهَلٍ — لَمَّا تَعاصى عَلى السُّمَّارِ في الدَّاجي
3) ضاعَتْ معارِفُهُ في غَيْرِ ناحِيَةٍ — كَالبَدْرِ يُبْدي سَنًا في غَيْرِ أَبْراجِ
4) بَحْرٌ، وما البَحْرُ إلاّ مِنْ مُشابِهِهِ — عُمْقٌ بِعُمْقٍ، وأمْواجٌ بِأمْواجِ
5) أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَيْنَ البَحْرُ مُلْتَطِمًا — مِنْ ذي مَوارِدَ عَذْبٍ غَيْرِ مُهْتاجِ؟!
6) وراكِبُ البَحْرِ لا يَنْفَكُّ مِنْ خَطَرٍ — وبَحْرُهُ مُمْتَطيهِ كُلُّهُ ناجي
7) بَدْرٌ مُنيفٌ، وأَيْنَ البَدْرُ ذا كُلَفٍ — مِنْ كَوكَبٍ في سَماءِ النُّبْلِ وَهَّاجِ؟!
8) نَعَمْ مَآثِرُهُ كَالبَدْرِ مُكْتَمِلاً — نورٌ بِنورٍ، وإدْلاجٌ بِإدْلاجِ
9) نَعَى لَنا موتَهُ مَنْ كانَ أَشْبَهَهُمْ[166] — كَالنَّمَري وعَبْدِ الحَقِّ والباجي
10) وَمَن تَقَدَّمَهُمْ مِنْ كُلِّ مُعْتَبَرٍ — كَالفارِسِيِّ وعَمْرٍو وابنِ سِراجِ
11) على ثَراهُ سَلامٌ فائِحٌ عَبِقٌ — ورَحْمَةُ اللهِ تَغْشاهُ بِأَفْواجِ
12) وَنَوَّرَ اللهُ قَبْراً ضَمَّ مِنْهُ سَنى — مِنْهُ اقْتَبَسْنا بِإبْلاجٍ وإسْراجِ
13) وهِمَّما تَلِفُ أَدْناها إلى نَهَلٍ — مِنَ الحِمامِ، وقَدْ عَلَتْ بِأَحْداجِ
14) تَخَلَّصَا مِنْ أَذى ما إنْ يُلائِمُهُ — إلا السُّلوكُ لَهُ في غَيْرِ مِنْهاجِ
15) لَقَى الحِمامَ بِوَجْهِ المُتَّقِينَ ولا — لَقِيَ الهَوانَ بِوَجْهٍ غَيْرِ بَهَّاجِ
16) لَهْفي على ما فَقَدْنا مِنْ شَمائِلِهِ — إنَّا فَقَدْنا بِهِ ياقوتَةَ التَّاجِ

[164]– بياض في الأصل. قدره حوالي ثلثي صفحة.

[165]– القصيدة غير واردة فيه. (مخطوط طنجة).

[166]– في الأصل: أشبهم. ولعل الصواب ما أثبتنا.

17) وخلعًا كانَ شَخْصُ الدّينِ يَلْبِسُها طارَتْ بِهـا كلُّ أعْـصـارٍ بأدراجِ

18) وحُلَّةً كـانتِ التُـقْـوى تُلِمُّ بِهـا أَلْفَتْ بِهـا هوجَ أهوالٍ بِعَـجـاجِ

19) كـانتْ مَنِيَّـتُـهُ أحَبَّ مُنْيَـتِـهِ فَنالَها نَبْلَ مُحْتـاجٍ لِمُحتـاجِ

20) إنَّ المنايا أمـانـي الأفْـضَلينَ إذا خافوا الدُّنايا على ما كانَ مِنْ حاجِ

21) بِئْسَ الأذِلَّةُ قَـوْمٌ ضَلَّ سَـعْـيُـهُمُ فَـرَمَّدُوا مـا شَوَوْا مِنْ بَعْدِ إِنْضاجِ

22) واسْتَسْلَمُوا للدُّنْيا، وَهْيَ تَقْذَعُهُمْ مِـنْ حُـبِّ أولادٍ، أوْ مِـنْ حُـبِّ أزواجِ

23) وأُخْلِدُوا لِلأمـانـى، لا تُخَلِّدُهُمْ فَـأُزْعِـجـوا لِلمَنايا أيَّ إزعـاجِ

وأشار بقوله: «كانت منيَّته» إلخ. إلى ما تقدم عن المنجرة.

[مرثية محمد بن عبد السلام بَنّاني له]

وقال شارح الاكتفاء:

[الطويل]

1) أَحِنُّ، ومـا يُجْـدي الحنينُ أوِ الوَجْـدُ وأَصْبُو، وما تُجْدي الصَّبابَةُ وَالنَّكْدُ؟!

2) وقَـدْ هُدَّ طَوْدُ العِلْمِ والحِلْمِ والهُـدَى وَعِـقْـدُ لآلي الرُّشْـدِ نيطَ بِهِ فَـقْـدُ

3) وَشَمْسُ سمـاءِ الهُـدى قَلَّدَ عَـهْـدُها عُهُودَ الخَفا، إذ سامَها حاجِبٌ نَهْدُ

4) وَوارى سَنـاءَ الأنْهـا وَعَـلائِهـا على حِينِ مُهْدِي هَدْيِها ضَمَّهُ اللَّحْدُ

5) عَلى حينِ غـالَتْـهُ المَنِيَّـةُ فـانطوى كـما طُوِيَتْ في مشْرَفِيَّتِها الغِمْدُ

6) عَلى حِينِ لا عَـيْشٌ يَلَذُّ، ولا نَكَدٌ يَنِدُّ، ولا شَـوْقٌ يَصُـدُّ، ولا نَقْـدُ

7) على حِينِ لا قَلْبٌ يُسـالِمُـهُ هَنا ولا صَـبْـرَ إلا أنْ يَحـومَ رَدُّ

8) ولا جَفْنَ إلا ما [جَفَتْ[167]] سِنَةُ الكَرى وخُـدَّدَ بالخَـدَّيْنِ مِنْ دَمْـعِـهِ خَـدُّ

9) «وما كنتُ أدري قَبْلَ عَزَّةَ ما البُكا ولا موجعاتِ القَلْبِ»[168]! [كيفَ][169] تَخْدُو

10) فَـأيُّ أسى بيْنَ الجَـوانِحِ لم يَكَدْ وأيُّ عَنَا بِالقَلْبِ لَمْ يَعْـرُهُ رَقْـدُ؟!

---

[167]- بياض بالأصل، عوضناه بما ناسب.

[168]- ما سبق مقتبس من بيت مشهور لكثير عزة تمامه: «حتى تولت» ديوانه: 95.

[169]- بياض بالأصل عوضناه بما ناسب.

11) وَأَيُّ ضَنَى مَنْ ودَّعوا ونَعَى بِهِمْ — نَعْيُ المَنايا لا يُجيبُ لَهُ زَنْدُ؟!

12) وأَيُّ هُمُومٍ من ثُنائِي وواحِدٍ — فُؤادي لم تَقْتُلْ، وأنَّى لها تعْدو؟!

13) بَلَى! لَهْفَ نَفْسِي، والمعالي طَما بِنا — على كَدِّنا من حادثِنِ الرَّدَى جَهْدُ

14) كأنَّا على صَرْفِ اللَّيالي هَواجِسٌ — تُهادي بِنا سُودَ الخطابِ وترْتَدُّ

15) «فَكُنَّا كَنَدْمانَيْ جَذيمَةَ حِقْبَةً — من الدَّهْرِ حتَّى قيلَ: ما إن لنا جَدُّ»[170]

16) فلما تعرَّفنا، وطالَ يدُ النَّوى — بِنا، فكأنَّا لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً نَحْدُو

17) وحَسْبُ المنايا أن تَفُوزَ بِمِثْلِ مَنْ — تَجْرِي بِه طَوْداً، ولِلَّه ما طَوْدُ

18) بِهِ سَمَحَ الدَّهْرُ العَقِيمُ ولَمْ يَكُنْ — على مَدِّهِ مِنْ مِثْلِه تَقَعُ الوُلْدُ

19) فَكانَ ضِياءَ الُمهْتَدينَ ومَلْجأ الْـ (م) — ذِينَ لَهُمْ مِنْ هَدْيِه مُنْتَصَرٌ رَشْدُ

20) وكانَ مَلاذَ الآملين، رُواءَ مَنْ — يُرْجَى لدى مُزْنِ الحَيا مُزَّةٌ تغْدُو

21) يَرْوِي جَواداً مِن حَديثٍ وفِقْهِهِ — وتَفْسيرِه، والغَوْرُ مِنْهُ أو النَّجْدُ

22) ويُغْني ويُقْنِي مِنْ مَواهِبِ سِرِّهِ — وتَوْضيحِ ما يُعنى الفُؤادُ بِهِ لُدُّ

23) فَمَنْ لِلعُلى، مَنْ للحُلى، مَنْ عَلَى الوَلا — يُقرِّرُ في الأصلَيْن. يتلُوهُما السَّعْدُ؟

24) ومَنْ لِذُرى عِلْمِ الحَقيقَةِ يَمْتَطي — ويَنْقُدُ مِنْ سرِّ الجلالةِ مَنْ يَحْدُو؟

25) غَدا في سبيلِ اللهِ عَنْ جوانِحِ الوِها — دِ، فَهَلْ يُرْجَى لَهُ أبَداً عَوْدُ؟

26) «وهَلْ تَجْمَعُ الأيّامُ يا أُمَّ مالِكٍ — بِهِ شَمْلَ مَنْ أَضْنَى على صَبْرِه الصَّدُّ»[171]

27) فَلَوْلا وعيدُ الشَّرْعِ يَنْهى أولي النُّهى — لشُقَّ عليهِ مِنْهُمُ الجَيْبُ والخَدُّ

28) ولولاَ ادِّكارٌ بِالحِمَى، عارِضَ الحُمى — لَكانَ إلى عَمْدِ المنايا لنا وَخْدُ

29) [[172]] — عَلَى فَقْدِ شَمْسٍ لا يُطاقُ لَها بُعْدُ

30) ويَا ساجِعاتِ الأيْكِ تَبْكِي الهَذِيلَ في — أرائكِها، ما إن يَكُنْ لَهُ وَجْدُ

31) جَديرٌ لكِ التَّغْريدُ ما دُمْتِ في الوَرى — ولَكِنْ بِلا حُلى بِطَوْقِكِ والسُّهْدُ

---

[170]- البيت مقتبس.

[171]- لعل البيت مقتبس.

[172]- بياض بالأصل.

32) لفقد عماد الدين، شمس ضحاه، من لهُ في العُلى قُربٌ، لهُ في العُلا بُعْدُ
33) إمامُ الورى، سامي الذُّرى، نازحُ المرا، حميدُ السُّرى، [دامَ[173]] لعِرفانِه الوجْدُ
34) غيثُ البلادِ، المُحرزُ السَّبْقِ في العُلى وقُطبُ رحاها، بدرُها العَلَمُ الفَـرْدُ
35) أبو السُّؤدَدِ ابنُ الحاجِ، شَيْخُ الشيوخِ مَنْ إليه انتهى التدريسُ والحَلُّ والعَقْدُ
36) بعِلمِ ابنِ عبَّاسٍ، وحِلمِ ابنِ أدْهَمٍ وزُهْدِ ابنِ عبَّادٍ، فما إنْ لهُ نِدُّ
37) ثوَى في ثرَى روْضٍ أريضٍ مُكلَّلٍ وغادرَنا صرْعَى لنا في الجوى رَمْدُ
38) فأجْرُ ابنِ عبْدِ السَّلامِ مُحمَّدٍ على مَنْ لدَيْهِ الأجْرُ، لا حَصْرٌ ولا عَدُّ
39) فمَنْ لقيادي، مَنْ لرُشْدي ومِنْحَتي معارِفَ لا [[174]] سَرْداً بَعْدُ
40) ومَنْ لي بهُدى، مَنْ لنُصْحٍ سادجًا ومَن[175] [[176]] القضاءِ منْ عَذْبِه وِرْدُ
41) على أنْ، بحَمْدِ الله، أنْدى جُبورَنا بنَجْلٍ أريبٍ ماجدٍ، زانَهُ القَصْدُ
42) زَهيٌّ بَهِيٌّ، عالِمٌ مُتبَحِّرٌ سَعيدٌ حميدٌ، لا يُجارى به سَعْدُ
43) سَريٌّ سَنِيٌّ، عالِمٌ مُتبَحِّرٌ لعَمْري. ما يعدوهُ عَمْرٌو ولا زَيْدُ
44) أدامَ الإلاهُ مَجْدَهُ وَحَمى بِهِ حِمى كُلِّ ذي وُدٍّ. ودامَ بهِ الرُّشْدُ
45) وبَوَّأَ فِردَوْسَ الجِنانِ عِمادَنا أباهُ وحَيَّى روْضَهُ ما شَدا رَنْدُ

35) [أبو عبد الله بن أبي الفضل ابن الحاج السُّلمي][177]

ومنهم العلامة المحقق، القاضي الأعدل، أبو عبد الله، امَحَمَّد (فتحا) ابن الشيخ الإمام أبي الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج السُّلمي[178].

[173]- بياض بالأصل. عوضناه بما ناسب.

[174]- بياض بالأصل.

[175]- الشطر هكذا هو في الأصل. وهو ساقط الوزن.

[176]- بياض في الأصل.

[177]- با،: القصاد.

[178]- ترجمته في: الشجرة: 1/332. رقم 1302. السلوة: 1/155-156.

[مولده]

ولد، رضي الله عنه، بفاس في حدود النّيّف والستين والألف. (1649/1060)، وبها نشأ في حجر والده، وقرأ القرآن وجوّده تجويد أهل الضبط والإتقان. ثم أخذ في العلوم على طريق المشاركة، لا يفوته فَنّ إلا تداركه.

[مشيخته]

فأخذ عن جمع عظيم من مشيخة المغرب، كوالده الشيخ أبي الفضل، أحمد بن العربي، وعليه كان اعتماده في علمي الظاهر والباطن.

- والشيخ أبي علي، سَيّدي الحسن اليوسي.

- والشيخ أبي عبد الله، سيّدي محمد بن عبد القادر الفاسي[179].

- والشيخ الشريف، سيّدي محمّد القَسَنْطيني الكَمَّاد[180].

- والشيخ سيدي العربي بَرْدَلّة.

وأدرك من أشياخ والده:

- حمدون المزوار، ولازمه في عدة من علوم الآلات.

- والشيخ أبا محمد سيّدي عبد القادر الفاسي، وقرأ عليه الربع[181] الأخير من «الإحياء» لأبي حامد الغزالي، وعهود الشعراني، ونحو النصف من صحيح البخاري، وشرح المَحَلي على جمع الجوامع، وغير ذالك.

وأجازه، رضي الله عنه، إجازة عامة باللفظ والخطّ، كتب له ذالك في آخر نسخة من فهرسته التي جمعها ولده، سيوطي زمانه، أبو زيد، سيدي عبد الرحمان، عن إذنه، حين ورد استدعاء من الفقيه أبي سالم، سيدي عبد الله العياشي، يطلب فيه الإجازة من الشيخ سيدي

[179]- علامة مشارك. (ت 1116هـ). ترجمته في: النشر: 3/151-154. الالتقاط: 292-293. رقم 439. الصفوة: 215-217. السلوة: 1/316-318. الدرر: 2/270-272. الفكر السامي: 2/284. العناية: 48-50.

[180]- علامة مشارك: (ت 1116هـ). ترجمته في: النشر: 3/154-155. الالتقاط: 293. رقم 441. الصفوة: 218-219. السلوة: 2/30-31. الشجرة: 1/320. رقم 1251.

[181]- ميم: ربع.

عبد القادر، له ولجماعة، وذالك بتاريخ آخر ربيع الثاني، عام ثمانية وسبعين وألف (1078/ 1667). وكانت إجازته لصاحب الترجمة أوائل المحرم، عام خمسة وثمانين وألف (1085/ 1674).

[علمه وشخصيته]

كان صاحب الترجمة، رضي الله عنه، علامة حافظا متبحّرا متفنّنا، ماهرا في العربية، متضلّعا بالفقه والحديث، والتفسير والأصلين، والبيان والمنطق والتصوف، منفردا بعلم الحساب والفرائض، بصيرا بالتاريخ وملح النوادر، مع الإقدام في حل المشكلات، وفهم المعضلات، وحسن التعبير في الإلقاء، والجمع بين البراعة والتحقيق في التدريس، والتأليف والإفتاء. يتصرف في ذلك كله تصرف أهل الطريقة المثلى، مع سلامة القريحة، ونزاهة السّاحة، والاجتهاد وكمال الاعتناء، مطالعة ومباحثة وتقييدا، منتهجا طريقة الفقراء، من العزلة والصبر والزهد، والورع والتهجد، والصيام والقيام.

[وظائفه]

وبعد وفاة والده، تولى ما كان بيده من الوظائف الشرعية، كتدريس فقه مدرسة الخَصّة، ومدرسة العطّارين، وتدريس صحيح البخاريّ بالكرسي الذي بظهر خَصّة العين، من جامع القرويين، والقضاء والإمامة والخطابة بفاس العليا. وكان ذلك على عهد أبي الظفر، مولانا إسماعيل. فأقام[182] بذلك كله أحسن قيام، على سائر مر الليالي والأيام.

[تآليفه]

له شرح على فرائض ابن عرفة، أظهر فيه ما كان خَفِيّا وعرّفه، وأجاد فيه بما يدل على سعة علمه، وكمال عنايته.

[182]- كذا بالأصل. ولعل الصواب: فقام.

[نموذج من نظمه]

ومن نظمه ليكتب على ضريح شيخه، سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي:

[البسيط]

1) هَذي رياضُ الخُلْدِ مـــا نَظرَت[183]	عَـيْنٌ، ولا سَـمِـعَتْ أُذْنٌ ولا خَطَرَتْ
2) هَذي مظاهِرُ سِـرِّ اللَّهِ مُـشْـرِقَـةٌ	في حَضْرَةِ ابنِ النَّبيِّ الرَّسولِ قَدْ بَهَرَتْ
3) وفـاةُ سَـيِّـدِنا، إنْ رُمْتَ مَـعْـرِفَـةً،	فَـفي زَكِيٍّ سَـمـا أَسـمـائِهِم ظَهَـرتْ
4) مُـحَـمَّـدِ بْنِ عُبَـيْـدِ القـادِرِ بْنِ عَلِيٍّ	لِيـوسُفِ الحُـسْنِ أَعْـراقٌ بِهِ اشْـتُـهِرَتْ

[تعريف محمد بن قاسم جسوس به]

ولما عرّف العلاّمة المُجمع على صلاحه، شيخ الجماعة، سيّدي محمد بن قاسم جَسّوس[184]، بقريبه العلاّمة الأديب، سيّدي عبد الله[185]، ابن الشيخ الشّهيد أبي محمد، عبد السّلام جَسّوس، وعدّ جماعة من أشياخه، قال ما نصُّه:

«ومنهم الفقيه النّبيه، الحيسوبيّ الفَرَضي، القاضي العدل النّزيه، خطيب الحفل، الجامع بين إمامة الفرض والنّفل، ذو الفوائد الحسنة، والآداب المرونقة المزيّنة، سيّدي أبو عبد الله، محمّد، ابن الإمام الشهير، الناسك الخاشع، المدرّس العارف بصناعة التّقرير، القاضي العدل، سيدي أبي العبّاس ابن الحاج. فقد استفاد منه في آخر أمده، ولازمه وأخذ عنه من علم الحساب وغيره. وقد كتب هذا الشيخ يتشوق أولاده أيام غيبته عنهم، وألمّ بالتّشفّي من بعض الظلمة المجترئين على أهل العلم والدين، لما قُتِل شرّ قتلة، بعد أنواع من العذاب، مخبرا صاحب الترجمة بذالك بما نصه:

183- في الأصل: ظهرت. ولعل الصواب ما أثبتنا.

184- علامة مشارك. (ت 1182هـ). ترجمته في: النشر: 4/188-192. السلوة: 1/330-331. الشجرة: 1/355. رقم 1421. الفكر السامي: 2/291. معجم المطبوعات: 75-76. رقم 190.

185- أديب شاعر (ت 1136هـ). ترجمته في: النشر: 3/280. الالتقاط. 330. رقم 490. السلوة 2/ 15.

[ميمية الشيخ عبد الله جسوس]

[الوافر]

1) عَلَى الأفلاذِ من كَبِدي سَلامي	إلى الأفْوادِ مِنْ وَلَدي كَلامي
2) إذَا يَوْمًا تَصابى الشَّيخُ إنِّي	تَجَدَّدَ كُلَّ يَوْمٍ لي غَرامِي
3) عَلَى الزُّهْرِ الكواكِبِ ثاقِباتٍ	وشَمْسِ الأرْضِ مَعْ بَدْرِ التَّمامِ
4) مَطالِعُها بِفاسٍ مُشْرِقاتٌ	لذا «حَجَّامَةُ» الغَرا هُيامي
5) مَرَاسِمُ لا أزَالُ، الدَّهْرَ، أقْضي	وأزْفِرُ لَوْعَةً حتَّى الحِمامِ
6) وخُصُّوا، مَعْشَرَ الأحْبابِ، فَذًا	بَديعَ زَمَانِهِ، نَجْلَ الإمامِ
7) بِأخْذِ الثَّأرِ مِنْ خِبٍّ ذَميمٍ	وبَشِّرْ بالجَحيمِ مَعَ اللِّئامِ
8) شَفَا واسْتَشْفِ يا حِبِّي وزِدْني	بَشائِرَ فَجاة الموتى الرِّجامِ[186]
9) فَلا زالَتْ كُئوسًا مُفْرَعاتٍ	لَهُمْ في كلِّ آنٍ بازْدِحامِ

فراجعه [سيدي أبو عبد الله[187]]، صاحب الترجمة، بما نصه:

[ميمية أبي عبد الله، امحمد بن أحمد ابن الحاج، في مراجعة الشيخ عبد الله جسوس]

[الوافر]

1) نَضَتْ عن حُسْنِها سُجُفَ اللِّثَامِ	فَمَزَّقَ نورُها حُجُبَ الظَّلامِ
2) وأحْيَتْ بِالسَّلامِ غَداةَ حَيَّتْ	تَفوقُ بِعَرْفِها مِسْكَ الخِتامِ
3) تلاقَتْ شَيِّقًا عَنها سَؤولاً	لِتُطْفِئَ مَا يُقاسي مِنْ أوامِ
4) عَروبٌ تَبْهَرُ الأعرابَ حُسْنًا	إذَا نُسِبَتْ إلى الشَّيخِ الهُمامِ
5) خَليفَةُ والدي تَفْديكَ نَفْسي	بِمَا أحْرَزْتَ مِنْ رَعْيِ الذِّمامِ
6) شَفَيْتُمْ[188] بِالتَّشَفِّي مِنْ ظَلومٍ	عَدا طوْراً، فَعادَ إلى انعِدامِ
7) وَمَهْما الشَّيْءُ يَوْمًا قَدْ تَناهى	لِغايَتِهِ، فَأبْشِرْ بِالتَّمامِ

[186]- البيت لا يستقيم وزنه ولا معناه.

[187]- زيادة من باء.

[188]- باء: كتبتم.

8) تَمادى في الضَّلالِ وما دَرى أنْ لَهُ الأقْدارُ رائِشَةُ السِّهامِ
9) هِيَ الأيّامُ تُدْرِكُ كُلَّ ثَأرٍ فلا تَأسَفْ على فَوْتِ انتِقامِ
10) تَلَوَّنُ مِثْلَ حَرْباءٍ سَريعًا وتُمْهِلُ ثُمَّ تُعقِبُ بِالقِيامِ
11) إذا ابْتَسَمَتْ إلى الإنسانِ يَوْمًا فَلا تُغْرَرْ مِنها بِابْتِسامِ
12) تُذيقُ بَني الرِّياسَةِ عَذْبَ ذَرٍّ وتَسْقيهِمْ عَذابًا في انْفِطامِ
13) وتَبْسُطُ وجْهَها لَهُمْ وتَسْطُو سَطاءَ اللَّيْثِ أخْذًا بِانتِقامِ
14) وتَرْمي بِالخُطوبِ، ولَيْسَ تُرمى وإنْ وَصَلَتْ، تَعودُ إلى انصِرامِ
15) فَهَدَّتْ، يا سَلامُ، السِّرَّ مِنْهُ وجُرِّعَ بعْدَها كَأسَ الحِمامِ
16) وكانَ لِذا المَليكِ رَئيسَ قَوْمٍ فأصْبَحَ نَهْبَ ذِيبٍ أوْ رَخامِ
17) وأمْسى مُلْكُهُ خَبَرًا مُعادًا فَسُبْحانَ المَليكِ على الدَّوامِ
18) قَلَتْهُ فَقَلَّبَتْ مِنْهُ مِجَنًّا وكَمْ قالَتْ إذا قالَتْ حَذامِ
19) وأَلْوَتْ وَجْهَها عَنْهُ وَوَلَّتْ وكانَتْ قَبْلَ ذالِكَ كَالغُلامِ
20) ولَمْ تُفِدِ التَّمائِمُ مِنْ سُحورٍ وقَدْ قَضَتِ المَقادِرُ بِالتَّمامِ
21) وعَفَّرَتِ التُّرابَ بِوجْنَتَيْهِ وكَمْ أَنِفَ المَسيرَ على الرُّخامِ
22) وأَلْهَمَتِ الأميرَ وسَلْطَنَتْهُ وكَمْ خَدَمَتْهُ بِالجَيْشِ اللُّهامِ
23) وأشْمَتَتِ العِداةَ غَداةَ شامَتْ لَهُ في السِّجْنِ بارِقَةَ الحُسامِ
24) وأرْدَتْ صِنْوَهُ تَبَعًا فَأرْضَتْ ورَضَّتْ بَعْدُ لِلرَّهْطِ اللِّئامِ
25) وَسَقَّتْ مِنْ دِمائِهِمْ بَسيطًا وكَمْ أسْقَتْهُمُ كَأسَ المُدامِ
26) دَمُ الأخَوَيْنِ داوى جُرْحَ قَلْبي وأبْرا ما أُكابِدُ مِنْ سَقامِ
27) فَلا شَخْصُ، تَرى، يَبكي عَلَيْهِمْ سِوى إبْليسَ أنْشَدَ مِنْ كَلامِ
28) «وَماذا بِالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ[189] مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ؟!»

[189]- البيتان مقتبسان من قصيدة لشداد بن الأسود، يرثي بها قتلى المشركين يوم بدر. والبيت الثاني هو مطلع القصيدة. سيرة ابن هشام: 3-4/29.

29) تُحَيِّي بِالسَّلامَةِ أُمُّ بَكْرٍ	وهَلْ لي، بَعْدَ قَومِي مِنْ سَلامِ»؟!
30) شَفَى الغازي غليلاً في فُؤادي	وعالَجَ ما أعاني مِنْ ضِرامِ
31) ولَسْتُ بِذاكَ مُختصّا ولكِنْ	أنا أولَى بِما آذى إمامي
32) تَولَّى كِبْرَهُ فيهِ فَوافَى	بِها دَهْياءَ قَدْ أوْهَتْ عِظامي
33) وأبْقَى نارَها في القَلْبِ تَذْكُو	فَوالَهْفاهُ مِنْ فَرْطِ اغْتِمامِ
34) مُصابٌ فَتَّتَ الأعْضاءَ وأُجْرى	لِشِدَّةِ وَقْعِهِ عَيْنَ الجَهامِ
35) وأعْظَمُ ما عَلَى الإنسانِ فيها	إذا ما الغَمْرُ أوْقَعَ بِالعِظامِ
36) نَسِيمَ الرَّوْضِ عرِّجْ نَحْوَ قَبْرٍ	وخُصَّ اللَّحْدَ عَنِّي بِالسَّلامِ
37) وَجُرَّ الذَّيْلَ فَوقَ ضَرِيحِ شَيْخِي	وبُثَّ الطِّيبَ في ذاكَ الرَّغامِ
38) وقُلْ: يا أيُّها المرحُومُ تَدْرِي	بِأنَّ اللَّهَ أوْقَعَ بِالحَرامي؟!
39) وفَضَّ اللَّهُ ثَغْراً كانَ يُؤْذِي	جَنابَكَ بِالسِّعايَةِ لِلإمامِ
40) فَلا غَفَرَ الإلاهُ لَهُ ذُنُوبًا	ولا أدْناهُ مِنْ دارِ السَّلامِ
41) وأُنْهِي لِلسِّيادَةِ والمَعالي	سَلامًا فائِقًا زَهْرَ الأكْمامِ
42) وأطْلُبُ مِنْ مَثابَتِكُمْ تُؤَدِّي	إلى مَيَّارَةَ الأسْمَى سَلامي
43) وتَرْجُو اللَّهَ مَولانا لِيُسْنِي	إيابَكُما فَنَبْلُغَ بِالمَرامِ»

انتهى ما ذكره الشيخ سيدي محمد بن قاسم جَسّوس. وقوله: «دم الأخوين» إلخ، أصله للوزير ابن الخطيب، وَضَمَّنَه مع تغيير قافيته، وهي تورية بديعة.

وفي بعض مقيداتي أن هذه القصيدة، قالها صاحب الترجمة، حين قتل السلطان مولانا إسماعيل، كاتبه الرئيس الخياط ابن منصور، وأخاه عبد الرحمان[96]، وكانا معا يؤذيان والد المكتوب له أشد الإذاية.

[96] - قتلا بمدينة مكناس سنة 1125 هـ. أخبارهما في: تدريج الضعيف: 92، الاستقصا، 96/7.

[علماء فاس وقضية الحراطين]

وكان صاحب الترجمة، رضي الله عنه، يقوم للحق، ويبذل النصيحة للخلق، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ ما أمكن بالسنة وصحيح الأثر. لا يخشى صولة ظالم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وإن كان يؤدي ذالك إلى قتله أو سبه أو تعذيبه بأي نوع من أنواع العذاب.

ذكر العلامة شيخ الجماعة، شارح الاكتفاء، أبو عبد الله، سيدي محمد بن عبد السلام بناني، في بعض مقيّداته، أن علماء فاس وكافة شهودها، لما ذهبوا إلى مكناسة لحضرة السلطان أبي النصر، مولانا إسماعيل، في ربيع الأول، عام عشرين ومئة وألف، (1120/ 1708م) في شأن قضية جمع الحراطين بفاس وحرز كمياتهم، تكلم مع السلطان منهم في تحريم ذالك أربعة: القاضي أبو المحامد، العربي بردلّة، والشيخ الشهيد، أبو محمد، عبد السلام بن حمدون جسوس، والشيخ أبو عبد الله، محمد ابن الشيخ سيّدي أحمد ابن الحاج، والشيخ سيدي محمد ميارة، حفيد شارح التُّحفة، فأمر السلطان بإزالة رأس سيدي محمّد ابن الحاج بحينه، ثم أمر بكيّه، ثم أمر بكحل عينيه، ثم عفا الله سبحانه، فلم يكن شيء من ذالك.

ثم التفت إلى الشيخ سيدي العربي بردلة، وقال له: ألست طليبن، وقد قتلتم مولاي الحفيد[191]، حتى أفحمه. ثم التفت إلى الشيخ جسوس، فبادره الشيخ بالكلام قائلا: أن بالله وبالشرع معك، أمولاي. قالها ثلاث مرات. فقال له: تكلم، فأراد أن يسرد أوراقا بيده، كانوا جمعوا فيها آيات وأحاديث وأقاويل العلماء في تحريم ما ذكر، فبدر السلطان إلى القيام، فجذبه الشيخ جسوس بعنف، حتى مزّق ثوبه وقال: اجلس حتى تسمع حكم الله في المسألة. فكان ذالك سبب حقده عليه، حتى قُتِل بسجن فاس في منتصف ربيع النبوي، سنة إحدى وعشرين ومئة وألف (1121/1709م)، بعد أن عُذِّب بأنواع العذاب، وأغرمه مالا جسيما، حتى جعل يجلس في الأسواق، ويطلب الفدية من المسلمين.

انتهى باختصار.

---

[191]- الحفيد ابن المولى إسماعيل. أمير علوي تولى لوالده ولاية شرق المغرب وفاس. (ت 1115هـ) أخباره في: النشر: 3/113-114. تاريخ الضعيف: 80. الاستقصا: 7/90-91. الدرر 1/150

ومن بديع نظم الشيخ[192]:

[الوافر]

1) جَــزَى اللهُ الشَّــدائِدَ كُلُّ خَــيْــرٍ ... وإنْ حَكَمَتْ بإفـلاسي وَضِــيــقي[193]

2) ومـــا مَــدْحِي لَهـــا شُكراً ولَكنْ ... عَــرَفْتُ بِهـــا عَــدُوِّي مِنْ صَــديقي

وقوله في مدح الشَّمائل[194]:

[الكامل]

1) عَلِمَتْ محاسِنُ أَحْمَدَ حينَ اخْتَفَتْ ... فَـقْـدَ التَّـصَـبُّـرِ مِن رَقـيقٍ مـائِلِ

2) فَـبَـدَتْ وأبْدَتْ لِلعَـيـرِ شَـمـائِلاً ... فَـإذا الـمحـاسِنُ كلُّهـا بِشَـمـائِلِ

ومن ألطف قول ولده أبي محمد، سيدي عبد الله، مُخَمِّسٌ بيتي عبد الله بن حَذلَمٍ اللَّخمي[195]، في رثاء بعض أمراء المغرب. أدخلَ رمسه بين صلاة العصر والمغرب، ومنزّلا له على قضية والده[196]:

[السريع]

1) أقـــولُ: بَدْرُ قَلْبِي قَـــدْ أَفَـــلا ... ودَمْعُ أَجــفـــاني غَــدا مُــرْسَـــلا

2) [[197]]بَدْرُ الهُدى، والدَّمْعَ قَدْ أَرْسَلا

3) وَسَلَّ سَـيْـفَ البَـغْيِ واسـتَـعْـمَـلاً ... «قِفْ لِتَرَى»[198] مَغْرِبَ شَمْسِ العُلى

[192]- البيتان في: شرح جسوس: 361. غير منسوبين.

[193]- شرح جسوس: 361: «وإن كانت تغصصني بريقي».

[194]- البيتان في: شرح جسوس: 7.

[195]- في الأصل: جديم اللخمي وهو تصحيف والصواب عبد الله بن حذلم اللخمي أديب كاتب. (ت ق 8هـ) ترجمته في: النفح: 5/382-383 مستودع العلامة: 74-75.

[196]- البيتان المخمسان في: مستودع العلامة: 75. النفح 5/168. 5/169. بروايتين مختلفتين. نزهة الأنظار: 1/586. وقد نسبا فيه إلى ابن الخصب، وليسا في ديوانه.

[197]- بياض في الأصل.

[198]- نزهة الأنظار: 1/586. مستودع العلامة. 75. النفح: 5/168. 5/169. كي ترى.

4) بَيْنَ صَلاةِ العَصْرِ والمَغْرِبِ»

5) وابْكِ مَعَ العَلْيَا عَلَى تُرْبِهَا وَسَاعِدِ الوُرْقَ عَلَى نَدْبِهَا

6) واعْتَبِرِ الأَيَّامَ في سَلْبِهَا «واسْتَرْحِمِ اللَّهَ قَتِيلاً بِهَا»[199]

7) كَانَ وحِيدَ العَصْرِ في المَغْرِبِ[200]»

[وفاة أبي عبد الله، امحمد بن أبي الفضل ابن الحاج]

تُوفي صاحب الترجمة أبو عبد الله، امحمد ابن الحاج، رحمه الله، ليلة الأربعاء، لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، عام ثمانية وعشرين ومئة وألف (1128/1715م)، ودفن بروضتهم المشهورة بدرب الطويل، المجاورة لروضة سيدي عزيز.

36) [أبو العباس، أحمد الحفيد، ابن الحاج السُّلمي][201]

ومنهم أبو العباس، أحمد، المدعوّ الحفيد، ابن مَحَمَّد (فتحا) ابن الشيخ أبي الفضل، أحمد.

[مولده]

ولد سنة أربع وتسعين وألف (1094هـ/1682م)، ونشأ في حجر والده وجده، نشأة نزاهة وصيانة وعفاف وكفاف، فقرأ القرآن، وتغذّى من حفظه بأعذب لُبان.

[مشيخته وعلمه]

ثم أخذ في العلم أخذ اجتهاد، جاثيا على ركبتيه لطلبه بكلّ ناد، فلزم والده وجده، والشيخ سيّدي محمد بن عبد القادر الفاسي، والشيخ القَسَنطيني الكَمّاد، والشيخ بَرْدَلّة، والشيخ

199- النفح: 169/5: دفينا به.

200- مستودع العلامة: 75: «كان وحيد العصر والمغرب». النفح: 168/5: «كان إمام العصر في المعرب». النفح: 169/5: «كان مليك العصر في المغرب».

201- ترجمته في: الالتقاط: 321. رقم 481. النشر: 251/3. السلوة: 156/1. الشجرة: 332/1. رقم 1303. الدليل: 389/2. (حيث نسب له ديوانا حافلا).

الحُسيني، أن الشيخ أبا الفضل، أحمد بن العربي، لما مرض المرض الذي توفي منه، استأذنه [في الدخول عليه][150] أبو علي الروسي[151]، أحد قواد مولانا إسماعيل، لأجل أن يعوده، فلم يأذن له، وقال ما معناه: لا أرى وجه هذا الظالم في آخر يوم من الدنيا.

واستأذنه في الحين شريف عراقي، فقال لأهله: احملوني لملاقاته والفرح به، فحملوه لباب داره، وتلاقى معه، وتشفّع به وبنسبه الطاهر إلى الله، تبارك وتعالى، لأن يمُنّ عليه بمنيته.

وله، رضي الله عنه، من الكرامات ما لا يُنكر، ولا يُستقصى بالعد ولا يُحصى. وناهيك منها بمثل ما صح عنه أنه كان يحضر في غالب أوقاته الصلوات الخمس بالمسجد الحرام. وتقدم قول شارح الاكتفاء: إن الله قد نفع به كل من قرأ عليه، لِحسن نيته وطويّته.

[تلاميذه]

ومن انتفع به: الشيخ الإمام الشهيد، أبو محمد، عبد السلام بن حمدون جَسّوس[152].

- والشيخ أبو محمد، عبد السلام بن الطيب القادري الحسني.
- والشيخ أبو عبد الله، محمد بن قاسم ابن زاكور، صاحب «النُّفحات».
- والشيخ سيّدي الطيّب بن محمد الفاسي[153].
- والشيخ سيّدي محمد ابن الحاج ابنه[154].
- والشيخ المسناوي. وهو من معتمَدي شيوخه في سائر الفنون المتداولة، حسبما ذكر ذاك في إجازة كتبها سيدي أحمد ابن مبارك[155].

---

[150]- لم ترد هذه الزيادة في ميم.

[151]- أبو علي بن عبد الخالق الروسي. قائد فاس للمولى إسماعيل. (ت 1139هـ). أخباره في: تاريخ الضُعيف: 99. 103 الاستقصا: 7/91-98. 114. 122. 134. 138.

[152]- فقيه محدّث صوفي. استشهد في فتنة الحراطين سنة 1121هـ. ترجمته في: النشر: 3/207-208. الالتقاط. 306. رقم 460. الاستقصا: 7/94-96. السلوة: 2/14-15. الشجرة: 1/331. رقم 1297.

[153]- محمد الطيب الفاسي الفهري. علامة مشارك. (ت 1113هـ) ترجمته في: النشر: 3/131-133 الالتقاط: 282-283. رقم 423. الدرر: 2/283 السلوة: 1/318-319. العناية: 46-47.

[154]- ستأتي ترجمته. رقم 35.

[155]- اللمطي السجلماسي. عالم صوفي. (ت 1156هـ) ترجمته في: النشر: 4/40-42. الالتقاط: 393.

- والشيخ أبو العباس، سيدي أحمد الجَرَنْدي[156].

- وشارح الاكتفاء، سيدي محمد بن عبد السلام بَنّاني.

- والشيخ سيّدي محمد ابن زكري. وغيرهم ممن لا يحصى بكلّ أقطار المغرب.

[وفاته]

توفي، رضي الله عنه، مبطونا شهيداً ضحوة يوم الأربعاء، أول ربيع الأول، سنة تسع بالمُثنّاة، ومئة وألف. (1109هـ/1697م)، ودفن في بيت اشتُرِي له، وأُدخل في ضريح سيدي عزيز، بدرب الطويل. وهو الآن مزارة عظمى، من أنفع المزارات في نيل البركات، وظهور الكرامات.

[موقفه من قضية الحراطين]

قال العلامة الشريف، مولاي إدريس المنجَرَة، في ترجمة صاحب الترجمة، عقب ما تقدم:

«ولما خوطب، أي صاحب الترجمة، بالوقوع على ما ابتُلِيَ به هذا القطر المغربي من عبيد الحراطين، تضجرُ من ذالك كثيرا، وقصد ضريح رائحة النبوة، مولانا إدريس بن إدريس بفاس، بين الظهرين أو بعد العصر، الشك مني. وجلس أمام القبر ساعة، وجرت دموعه، ودعا بما شاء الله أن يدعو به. ثم قام ورجع ثلاث مرات يُكبُّ على القبر في كل منها، ويرجع القهقرى. وبعد الثلاثة، خرج من المسجد، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام ولحق بربّه. وعصمه الله سبحانه، مما ابتلي به معاصروه من قتل أو نهب أو فتنة، بعد الوقوع على الضلال. نسأل الله العافية». انتهى.

---

394. رقم 527. السلوة: 3/203-204. الحياة: 237-238.

[156] - أحمد بن علي. فقيه مشارك فاسي. (ت 1125هـ). ترجمته في: النشر. 3/215. الالتقاط. 308-309. رقم 468. السلوة: 2/14-17.

[أخبار أخرى له عن فهرسة بناني]

وقال شارح الاكتفاء، في ترجمته من فهرسته، بعدما أطنب فيها الغاية:

«وكان، رضي الله عنه، كثيرا ما يحكي لنا حكايات الصالحين، ويحدثنا بمسائل الصوفية، ويعظنا جدا في غالب أحواله، وينشدنا من الأبيات الشعرية ما لا يحصى عددا.

وآخر ما أنشدنا، رحمه الله، فيما يشبه الاقتباس، قول القائل:

[الكامل]

1) وَوَعَدْتَ أَمْسِ بِأَنْ تَزورَ فلمْ تَزُرْ[157] فغَدَوْتُ مَسْلُوبَ الفؤادِ مُشَتَّتا

2) لي مُهْجَةٌ في «النَّازِعاتِ» وعَبْرَةٌ[158] في «المُرْسَلاتِ» وفِكْرَةٌ في «هَلْ أَتَى»[159]

وقول بعض تلامذة ابن دقيق العيد:

[المتقارب]

1) مَجازٌ حَقيقَتُها فَاعْبُروا ولا تَعْمُروا. هَوِّنوها تَهُنِ

2) وما حُسْنُ بَيْتٍ لهُ زُخْرُفٌ تَراهُ، إذا زُلْزِلَتْ، لَمْ يَكُنِ

وقول الآخر[160]:

[مجزوء الكامل]

1) مَرِضَ الحَبيبُ فَعُدْتُهُ فَمَرِضْتُ مِنْ شَغَفي عَلَيْهِ[161]

2) قَامَ الحَبيبُ فَزارَني[162] فَشُفيتُ[163] مِن نَظَري إِلَيْهِ

[157]– البيتان لابن الوردي. ديوانه: 456. المسلك: 166.

[158]– ما بين قوسين سورتان من سور القرآن.

[159]– سورة الإنسان: 1.

[160]– البيتان للشافعي. ديوانه: 148. وفي محاضرة الأبرار: 1/406. أنهما لأبي بكر الصديق

[161]– ديوانه: 148: حذري عليه.

[162]– ديوانه: 148: فأتى الحبيب يعودني.

[163]– ديوانه: 148: فبرئت.

[164]

وقد تنافست في شجوه القرائح، وبكاه الغادي والرائح. قال في «الروض الأريض، في بديع التوشيح والقريض»[165]:

[مرثية أبي عبد الله ابن زاكور له]

[البسيط]

1) لَيسَ لَنَا في سِوى ابنِ الحاجِ من حاجٍ — شَيخٌ سَما لِلعُلى بِأيِّ مِعْراجِ

2) بِالعِلْمِ والحِلْمِ والإدراكِ في مَهَلٍ — لَمَّا تَعاصى عَلى السُّمَّارِ في الدَّاجِي

3) ضاءَتْ معارِفُهُ في غَيْرِ ناحِيَةٍ — كَالبَدْرِ يُبْدي سَنًا في غَيْرِ أبْراجِ

4) بَحْرٌ، وما البَحْرُ إلاَّ مِنْ مُشابِهِهِ — عُمْقٌ بِعُمْقٍ، وأمْواجٌ بِأمْواجِ

5) أسْتَغْفِرُ اللّه، أيْنَ البَحْرُ مُلْتَطِمًا — مِنْ ذي مَوارِدَ عَذْبٍ غَيْرِ مُهْتاجِ؟!

6) وراكِبُ البَحْرِ لا يَنْفَكُّ مِنْ خَطَرٍ — وبَحْرُهُ مُسْتَطيهِ كُلُّهُ ناجِي

7) بَدْرٌ مُنيفٌ، وأيْنَ البَدْرُ ذا كُلَفٍ — مِنْ كَوكَبٍ في سَماءِ النُّبْلِ وَهّاجِ؟!

8) نَعَمْ مَآثِرُهُ كَالبَدْرِ مُكْتَمِلاً — نُورٌ بِنُورٍ، وإدْلاجٌ بِإدْلاجِ

9) نَعَى لَنا موتَهُ مَنْ كانَ أشْبَهَهُمْ[166] — كَالنَّضْرِي وعَبْدِ الحَقِّ والباجي

10) وَمَن تَقَدَّمَهُمْ مِنْ كُلِّ مُعْتَبَرٍ — كَالفارِسِيِّ وعَمْرٍو وابنِ سِراجِ

11) على ثَراهُ سَلامٌ فائِحٌ عَبِقٌ — ورَحْمَةُ اللّهِ تَغْشاهُ بِأفْواجِ

12) وَنَوَّرَ اللّهُ قَبْراً ضَمَّ مِنْهُ سَنى — مِنْهُ اقْتَبَسْنا بِإبْلاجٍ وإسْراجِ

13) وهِمَّما تَلِفُ أدْناها إلى نَهَلٍ — مِنَ الجِمامِ، وقَدْ عَلَتْ بِأحْداجِ

14) تَخَلَّصا مِنْ أذَى ما إنْ يُلائِمُهُ — إلا السُّلوكُ لَهُ في غَيْرِ مِنْهاجِ

15) لقَى الحِمامَ بِوَجْهِ المُتَّقِينَ ولا — لَقِيَ الهَوانَ بِوَجْهٍ غَيْرِ بَهّاجِ

16) لَهْفي على ما فَقَدْنا مِنْ شَمائِلِهِ — إنَّا فَقَدْنا بِهِ ياقوتَةَ التّاجِ

[164]– بياض في الأصل. قدره حوالى ثلثي صفحة.

[165]– القصيدة غير واردة فيه. (مخطوط طنجة).

[166]– في الأصل: أشبهم. ولعل الصواب ما أثبتنا.

17) وخلعًا كانَ شَخصُ الدّين يَلْبِسُها طارَتْ بِها كلُّ أعْصارٍ بِأدراجِ

18) وحُلّةً كانتِ التّقوى تُلِمُّ بِها ألْغَتْ بِها هوجَ أهوالٍ بِعَجاجِ

19) كانتْ مَنيّتُهُ أحَبُّ مُنْيَتِهِ فَنالها نَيْلَ مُحْتاجٍ لِمُحتاجِ

20) إنَّ المنايا أماني الأفْضَلينَ إذا خافوا الدَّنايا على ما كانَ مِنْ حاجِ

21) بِئْسَ الأذِلّةُ قومٌ ضَلَّ سَعْيُهُمُ فَرَمَّدُوا ما شَوَوا مِنْ بَعْدِ إنْضاجِ

22) واستَسْلَمُوا للدُّنْيَا، وَهْيَ تَقْذَعُهُمْ مِنْ حُبِّ أولادٍ، أوْ مِنْ حُبِّ أزواجِ

23) وأخْلَدُوا لِلأماني، لا تُخَلّدُهُمْ فَأزْعِجوا لِلمَنايا أيَّ إزعاجِ

وأشار بقوله: «كانت منيّته» إلخ. إلى ما تقدم عن المنجرة.

[مرثية محمد بن عبد السلام بَنّاني له]

وقال شارح الاكتفاء:

[الطويل]

1) أحِنُّ، وما يُجْدي الحنينُ أوِ الوَجْدُ وأصْبو، وما تُجْدي الصَّبابَةُ وَالنُّكْدُ؟!

2) وقَدْ هُدَّ طَوْدُ العِلْمِ والحِلْمِ والهُدَى وَعِقْدُ لآلي الرُّشْدِ نيطَ بِهِ فَقْدُ

3) وَشَمْسُ سماءِ الهُدى قَلَّدَ عَهْدُها عُهُودَ الخَفا، إذ سامَها حاجِبٌ نَهْدُ

4) وَوارى سَناءَ الأبْهَا وَعَلاتِها على حِينِ مُهْدي هَدْيِها ضَمَّهُ اللَّحْدُ

5) عَلى حينِ غالَتْهُ المَنيّةُ فانطوى كما طُوِيَتْ في مشْرَفيّتِها الغِمْدُ

6) عَلى حِينِ لا عَيْشٌ يَلَذُّ، ولا نَكَدٌ يَنِدُّ، ولا شَوْقٌ يَصُدُّ، ولا نَقْدُ

7) على حِينِ لا قَلْبٌ يُسالِمُهُ هَنا ولا صَبْرَ إلا أنْ يَحُومَ رَدُّ

8) ولا جَفْنَ إلا ما [جَفَتْ[167]] سِنَةُ الكَرى وخُدِّدَ بالخَدَّيْنِ مِنْ دَمْعِهِ خَدُّ

9) «وما كنتُ أدري قَبْلَ عَزَّةَ ما البُكا ولا موجِعاتِ القَلْبِ»[168] [كيفَ][169] تَخْدُو

10) فَأيُّ أسى بيْنَ الجَوانِحِ لم يَكَدْ وأيُّ عَنَا بِالقَلْبِ لَمْ يَغْمُرْهُ رَقْدُ؟!

---

[167]- بياض بالأصل، عوضناه بما ناسب.

[168]- ما سبق مقتبس من بيت مشهور لكثير عزة تمامه: «حتى تولت». ديوانه: 95.

[169]- بياض بالأصل عوضناه بما ناسب.

11) وَأَيُّ ضَنًى مَنْ ودَّعوا ونَعَى بِهِمْ نَعْيُ المَنايا لا يُجِيبُ لَهُ زَنْدُ؟!

12) وأيُّ هُمُومٍ من ثُنائِي وواحِدٍ فُؤادِي لم تَقْتُلْ، وأنَّى لها تَعْدو؟!

13) بَلَى! لَهْفَ نَفْسِي، والمعالي طَما بِنا على كَدِّنا من حادثاتِ الرَّدَى جَهْدُ

14) كأنَّا على صَرْفِ اللَّيالِي هَواجِسٌ تُهادِي بِنا سُودَ الخطابِ وتَرتَدُّ

15) «فَكُنَّا كَنَدْمانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً من الدَّهْرِ حتَّى قيلَ: ما إن لنا جَدُّ»[170]

16) فلمَّا تعرَّفْنا، وطالَ يدُ النَّوى بِنا، فكأنَّا لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً نَحْدُو

17) وحَسْبُ المنايا أن تَفُوزَ بِمِثْلِ مَنْ تَجْرِي بِهِ طَوْداً، ولِلَّهِ ما طَوْدُ

18) بِهِ سَمَحَ الدَّهْرُ العَقِيمُ ولَمْ يَكُنْ على مُدَّةٍ مِنْ مِثْلِهِ تَقَعُ الوُلْدُ

19) فَكانَ ضِياءَ المُهْتَدِينَ ومَلْجأَ الـ(م) ذِينَ لَهُمْ مِنْ هَدْيِهِ مُنْتَصَرٌ رَشْدُ

20) وكانَ مَلاذَ الآمِلِين، رُواءَ مَنْ يُرْجَى لدى مُزْنِ الحَيا مُرَّةً تَغْدُو

21) يَرْوِي جَواداً مِن حَدِيثٍ وفِقْهِهِ وتَفْسِيرِهِ، والغَوْرُ مِنْهُ أوِ النَّجْدُ

22) ويُغْنِي ويُقْنِي مِنْ مَواهِبِ سِرِّهِ وتَوْضِيحِ ما يُعنى الفُؤادُ بِهِ لَدُّ

23) فَمَنْ لِلعُلى، مَنْ للحُلى، مَنْ عَلَى الوَلا يُقرِّرُ في الأصلَيْنِ، يَتْلُوهُما السَّعْدُ؟

24) ومَنْ لِذُرى عِلْمِ الحَقِيقَةِ يَمْتَطِي ويَنْقُدُ مِنْ سِرِّ الجلالةِ مَنْ يَحْدُو؟

25) غَدا في سبيلِ اللهِ عَنْ جوانحِ الوِها دِ، فَهَلْ يُرْجَى لَهُ أبَداً عَوْدُ؟

26) «وهَلْ تَجْمَعُ الأيَّامُ يا أُمَّ مالِكٍ بِهِ شَمْلَ مَنْ أضْنَى على صَبْرِهِ الصَّدُّ»[171]

27) فَلَوْلا وعِيدُ الشَّرْعِ يَنْهَى أُولِي النُّهَى لَشُقَّ عليهِ مِنْهُمُ الجَيْبُ والخَدُّ

28) ولولا ادِّكارٌ بِالحِمَى، عارِضَ الحِمَى لَكانَ إلى عَمْدِ المَنايا لَنا وَخْدُ

29) [[172]] عَلَى فَقْدِ شَمْسٍ لا يُطاقُ لَها بُعْدُ

30) ويَا ساجِعاتِ الأيْكِ تَبْكِي الهَدِيلَ في أرائِكِها، ما إن يَكُنْ لَها وَجْدُ

31) جَدِيرٌ لَكِ التَّغْرِيدُ ما دُمْتِ في الوَرَى ولَكِنْ بِلا حُلى بِطَوْقِكِ والسُّهْدُ

---

[170]- البيت مقتبس.

[171]- لعل البيت مقتبس.

[172]- بياض بالأصل.

32) لِفَقْدِ عِمادِ الدِّينِ، شَمْسِ ضُحاهُ، مَنْ لَهُ في العُلَى قُرْبٌ، لَهُ في العُلا بُعْدُ

33) إِمامُ الوَرى، سامي الذُّرى، نازِحُ المِرا، حميدُ السُّرى، [دامَ[173]] لِعِرْفانِهِ الوَجْدُ

34) غِيَاثُ البِلاَدِ، المُحرِزُ السَّبْقِ في العُلى وقُطْبُ رَحاها، بدْرُها العَلَمُ الفَرْدُ

35) أَبُو السُّؤْدَدِ ابنُ الحاجِ، شَيْخُ الشُيوخِ مَنْ إليه انتهى التَّدريسُ والحَلُّ والعَقْدُ

36) بِعِلْمِ ابنِ عبَّاسٍ، وحِلْمِ ابنِ أَدْهَمٍ وزُهْدِ ابنِ عبَّادٍ، فَما إِنْ لَهُ نِدُّ

37) ثَوَى في ثَرَى رَوْضٍ أَرِيضٍ مُكَلَّلٍ وغادَرَنا صَرْعَى لَنا في الجوى رَمْدُ

38) فَأجْرُ ابنِ عبدِ السَّلامِ مُحَمَّدٍ على مَنْ لَدَيْهِ الأجْرُ، لا حَصْرٌ ولا عَدُّ

39) فَمَنْ لِقبادي، مَنْ لِرُشْدي ومِنْحَتِي معارِفَ لا [[174]] سَرْداً بَعْدُ

40) ومَنْ لي بِهُدى، مَنْ لِنُصْحٍ ساذِجًا ومَن[175] [[176]] القضاء، مِنْ عَذْبِهِ وِرْدُ

41) على أنْ، بِحَمْدِ اللهِ، أنْدَى حُبورَنا بِنَجْلٍ أريبٍ ماجِدٍ، زانَهُ القَصْدُ

42) زَهِيٌّ بَهِيٌّ، عالِمٌ مُتَبَحِّرٌ سَعِيدٌ حميدٌ، لا يُجارى بِهِ سَعْدُ

43) سَرِيٌّ سَنِيٌّ، عالِمٌ مُتَبَحِّرٌ لَعَمْري. ما يعدوهُ عَمْرٌو ولا زَيْدُ

44) أدامَ الإلاهُ مَجْدَهُ وَحَمى بِهِ حِمى كُلِّ ذي وُدٍّ. ودامَ بِهِ الرُّشْدُ

45) وَبَوّأَ فِرْدَوْسَ الجِنانِ عِمادَنا أباهُ وَحَيَّى رَوْضَهُ ما شَدا رَنْدُ

35) [أبو عبد الله بن أبي الفضل ابن الحاج السُّلمي][177]

ومنهم العلامة المحقق، القاضي الأعدل، أبو عبد الله، امَحَمَّد (فتحا) ابن الشيخ الإمام أبي الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج السُّلَمِي[178].

[173] - بياض بالأصل. عوضناه بما ناسب.

[174] - بياض بالأصل.

[175] - الشطر هكذا هو في الأصل. وهو ساقط الوزن.

[176] - بياض في الأصل.

[177] - باء: القصاد.

[178] - ترجمته في: الشجرة: 1/332. رقم 1302. السلوة: 1/155-156.

[مولده]

ولد، رضي الله عنه، بفاس في حدود النّيِّف والستين والألف. (1060/1649)، وبها نشأ في حجر والده، وقرأ القرآن وجوّده تجويد أهل الضبط والإتقان. ثم أخذ في العلوم على طريق المشاركة، لا يفوته فَنٌّ إلا تداركه.

[مشيخته]

فأخذ عن جمع عظيم من مشيخة المغرب، كوالده الشيخ أبي الفضل، أحمد بن العربي، وعليه كان اعتماده في علمي الظاهر والباطن.

- والشيخ أبي علي، سَيِّدي الحسن اليوسي.
- والشيخ أبي عبد الله، سيِّدي محمد بن عبد القادر الفاسي[179].
- والشيخ الشريف، سيِّدي محمَّد القَسَنْطيني الكَمَّاد[180].
- والشيخ سيدي العربي بَرْدَلّة.

وأدرك من أشياخ والده:

- حمدون المزوار، ولازمه في عدة من علوم الآلات.
- والشيخ أبا محمد سيِّدي عبد القادر الفاسي، وقرأ عليه الربع[181] الأخير من «الإحياء» لأبي حامد الغزالي، وعهود الشعراني، ونحو النصف من صحيح البخاري، وشرح المَحَلي على جمع الجوامع، وغير ذالك.

وأجازه، رضي الله عنه، إجازة عامة باللفظ والخطّ، كتب له ذالك في آخر نسخة من فهرسته التي جمعها ولده، سيوطي زمانه، أبو زيد، سيدي عبد الرحمان، عن إذنه، حين ورد استدعاء من الفقيه أبي سالم، سيدي عبد الله العياشي، يطلب فيه الإجازة من الشيخ سيدي

[179]- علامة مشارك. (ت 1116هـ). ترجمته في: النشر: 3/151-154. الالتقاط. 292-293. رقم 439. الصفوة: 215-217. السلوة: 1/316-318. الدرر: 2/270-272. الفكر السامي: 2/284. العناية: 48-50.

[180]- علامة مشارك: (ت 1116هـ). ترجمته في: النشر: 3/154-155. الالتقاط: 293. رقم 441. الصفوة: 218-219. السلوة: 2/30-31. الشجرة: 1/320. رقم 1251.

[181]- ميم: ربع.

عبد القادر، له ولجماعة، وذالك بتاريخ آخر ربيع الثاني، عام ثمانية وسبعين وألف (1078/ 1667). وكانت إجازته لصاحب الترجمة أوائل المحرم، عام خمسة وثمانين وألف (1085/ 1674).

[علمه وشخصيته]

كان صاحب الترجمة، رضي الله عنه، علامة حافظا متبحّرا متفنّنا، ماهرا في العربية، متضلّعا بالفقه والحديث، والتفسير والأصلين، والبيان والمنطق والتصوف، منفردا بعلم الحساب والفرائض، بصيرا بالتاريخ وملح النوادر، مع الإقدام في حل المشكلات، وفهم المعضلات، وحسن التعبير في الإلقاء، والجمع بين البراعة والتحقيق في التدريس، والتأليف والإفتاء. يتصرف في ذلك كله تصرف أهل الطريقة المثلى، مع سلامة القريحة، ونزاهة السّاحة، والاجتهاد وكمال الاعتناء، مطالعة ومباحثة وتقييدا، منتهجا طريقة الفقراء، من العزلة والصبر والزهد، والورع والتهجد، والصيام والقيام.

[وظائفه]

وبعد وفاة والده، تولى ما كان بيده من الوظائف الشرعية، كتدريس فقه مدرسة الخصّة، ومدرسة العطّارين، وتدريس صحيح البخاريّ بالكرسي الذي بظهر خَصَّة العين، من جامع القرويين، والقضاء والإمامة والخطابة بفاس العليا. وكان ذلك على عهد أبي الظفر، مولاي إسماعيل. فأقام[182] بذلك كله أحسن قيام، على سائر مر الليالي والأيام.

[تآليفه]

له شرح على فرائض ابن عرفة، أظهر فيه ما كان خَفِيّا وعرّفه، وأجاد فيه بما يدل على سعة علمه، وكمال عنايته.

---

[182]- كذا بالأصل. ولعل الصواب: فقام.

[نموذج من نظمه]

ومن نظمه ليكتب على ضريح شيخه، سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي:

[البسيط]

1) هَذي رياضُ الخُلْدِ مـــا نَظَرَتْ[183] عَـيْنٌ، ولا سَـمِـعَتْ أُذْنٌ ولا خَطَرَتْ

2) هَذي مظاهِرُ سِـرُّ اللَّهِ مُـشْـرِقَـةٌ في حَضْرَةِ ابن النَّبيِّ الرَّسولِ قَدْ بَهَرتْ

3) وفـاةُ سَيِّـدِنا، إِنْ رُمْتَ مَـعْـرِفَـةً، فَـفي زكِيٍّ سَـمـا أسـمـائِهِم ظَهَـرتْ

4) مُـحَمَّـدِ بْنِ عُـبَيْـدِ القـادِرِ بْنِ عَلِيِّ لِيـوسُفِ الحُسْنِ أَعْراقُ بِهِ اشْتُهِرَتْ

[تعريف محمد بن قاسم جسوس به]

ولما عرّف العلاّمة المُجمع على صلاحه، شيخ الجماعة، سيّدي محمد بن قاسم جَسّوس[184]، بقريبه العلاّمة الأديب، سيّدي عبد الله[185]، ابن الشيخ الشّهيد أبي محمد، عبد السّلام جَسّوس، وعدّ جماعة من أشياخه، قال ما نصُّه:

«ومنهم الفقيه النّبيه، الحيسوبيّ الفَرَضي، القاضي العدل النّزيه، خطيب الحفل، الجامع بين إمامة الفرض والنّفل، ذو الفوائد الحسنة، والآداب المرونقة المزيّنة، سيّدي أبو عبد الله، محمّد، ابن الإمام الشهير، الناسك الخاشع، المدرّس العارف بصناعة التّقرير، القاضي العدل، سيدي أبي العبّاس ابن الحاج. فقد استفاد منه في آخر أمده، ولازمه وأخذ عنه من علم الحساب وَغـيره. وقد كتب هذا الشيخ يتشوق أولاده أيام غيبته عنهم، وألمّ بالتّشفّي من بعض الظلمة المجترئين على أهل العلم والدين، لما قُتِل شرّ قتلة، بعد أنواع من العذاب، مخبرا صاحب الترجمة بذالك بما نصه:

---

[183]– في الأصل: ظهرت. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[184]– علامة مشارك. (ت 1182هـ). ترجمته في: النشر: 4/188-192. السلوة: 1/330-331 الشجرة: 1/355. رقم 1421. الفكر السامي: 2/291. معجم المطبوعات 75-76. رقم 190

[185]– أديب شاعر (ت 1136هـ). ترجمته في: النشر: 3/280. الالتقاط: 330. رقم 490. السلوة: 2/ 15.

[ميمية الشيخ عبد الله جسوس]

[الوافر]

1) عَلَى الأفلاذِ من كَبِدي سَلامي إلى الأفوادِ مِنْ وَلَدي كَلامي

2) إذَا يَوْمًا تَصابى الشَّيخُ إنّي تَجَدَّدَ كُلَّ يَوْمٍ لِي غَرامِي

3) عَلَى الزُّهْرِ الكواكِبِ ثاقِباتٍ وشَمْسِ الأرْضِ مَعْ بَدْرِ التَّمامِ

4) مَطالِعُها بِفاسٍ مُشْرِقاتٌ لِذا «حَجَّامَةُ» الغَرا هُيامي

5) مَراسِمُ لا أزالُ، الدَّهْرَ، أقضي وأزْفِرُ لَوْعَةً حتّى الحِمامِ

6) وخُصُّوا، مَعْشَرَ الأحْبابِ، فَذَا بَديعَ زَمانِهِ، نَجْلَ الإمامِ

7) بِأخْذِ الثَّأرِ مِنْ خِبٍّ ذَميمٍ وبَشِّرْ بالجَحيمِ مَعَ اللِّئامِ

8) شَفَا واسْتَشْفِ يا حِبِّي وزِدْني بَشائِرَ فَجاةَ الموتى الرِّجامِ[186]

9) فلا زالتْ كُؤوسًا مُفْرَعاتٍ لَهُمْ في كلِّ آنٍ بِازْدِحامِ

فراجعه [سيدي أبو عبد الله[187]] ، صاحب الترجمة، بما نصه:

[ميمية أبي عبد الله، امحمد بن أحمد ابن الحاج، في مراجعة الشيخ عبد الله جسوس]

[الوافر]

1) نَضَتْ عن حُسْنِها سُجُفَ اللِّثامِ فَمَزَّقَ نورُها حُجُبَ الظَّلامِ

2) وأُحْيِيَتْ بِالسَّلامِ غَداةَ حَيَّتْ تَفوقُ بِعَرْفِها مِسْكَ الخِتامِ

3) تلاقَتْ شَيِّقًا عَنها سَؤولاً لِتُطْفِئَ ما يُقاسي مِنْ أُوامِ

4) عَروبٌ تَبْهَرُ الأعرابَ حُسنًا إذَا نُسِبَتْ إلى الشَّيخِ الهُمامِ

5) خَليفَةَ والِدي تَفْديكَ نَفسي بِما أحْرَزْتَ مِنْ رَعْيِ الذِّمامِ

6) شَفَيْتُمْ[188] بِالتَّشَفّي مِنْ ظَلومٍ عَدا طَوْرًا، فَعادَ إلى انعِدامِ

7) وَمَهْما الشَّيْءُ يَوْمًا قَدْ تَناهى لِغايَتِهِ، فَأبْشِرْ بِالتَّمامِ

[186]– البيت لا يستقيم وزنه ولا معناه.

[187]– زيادة من باء.

[188]– باء: كتبتم.

8) تَمادى في الضَّلالِ وما دَرى أنْ — لَهُ الأقْدارُ رائِشَةُ السِّهامِ
9) هِيَ الأيّامُ تُدرِكُ كُلَّ ثأرٍ — فلا تأسَفْ على فَوْتِ انتِقامِ
10) تَلَوَّنُ مِثْلَ حَرباءٍ سَريعًا — وتُمْهِلُ ثُمَّ تُعقِبُ بِالقِيامِ
11) إذا ابْتَسَمَتْ إلى الإنسانِ يَوْمًا — فَلا تُغْرَرْ مِنها بِابْتِسامِ
12) تُذيقُ بَني الرِّياسَةِ عَذْبَ دَرٍّ — وتَسْقيهِمْ عَذابًا في انْفِطامِ
13) وتَبْسُطُ وجْهَها لَهُمْ وتَسْطُو — سَطاءَ اللَّيْثِ أخْذًا بِانتِقامِ
14) وتَرْمي بِالخُطوبِ، ولَيْسَ تُرمى — وإنْ وَصَلَتْ، تَعودُ إلى انصِرامِ
15) فَهَدَّتْ، يا سَلامُ، السِّرَّ مِنْهُ — وجُرِّعَ بعْدَها كَأسَ الحِمامِ
16) وكانَ لِذا المَليكِ رَئيسَ قَوْمٍ — فأصْبَحَ نَهْبَ ذيبٍ أوْ رَخامِ
17) وأمْسَى مُلْكُهُ خَبَرًا مُعادًا — فَسُبْحانَ المليكِ على الدَّوامِ
18) قَلَتْهُ فَسَقَلَّبَتْ مِنْهُ مِجَنًّا — وكَمْ قالَتْ إذا قالَتْ حَذامِ
19) وألْوَتْ وَجْهَها عَنْهُ وَوَلَّتْ — وكانَتْ قَبْلَ ذالِكَ كالغُلامِ
20) ولَمْ تُفِدِ التَّمائِمُ مِنْ سُحورٍ — وقَدْ قَضَتِ المَقادِرُ بِالتَّمامِ
21) وعَفَّرَتِ التُّرابَ بِوجْنَتَيْهِ — وكَمْ أنِفَ المَسيرَ على الرُّخامِ
22) وألْهَمَتِ الأميرَ وسَلْطَنَتْهُ — وكَمْ خَدَمَتْهُ بِالجَيْشِ اللُّهامِ
23) وأشْمَتَتِ العِداةَ غَداةَ شامَتْ — لَهُ في السِّجْنِ بارِقَةَ الحُسامِ
24) وأرْدَتْ صِنْوَهُ تَبَعًا فَأرْضَتْ — ورَضَتْ بَعْدُ لِلرَّهْطِ اللِّئامِ
25) وَسَقَتْ مِنْ دِمائِهِمْ بَسيطًا — وكَمْ أسْقَتْهُمُ كَأسَ المُدامِ
26) دَمُ الأخَوَيْنِ داوى جُرْحَ قَلْبِي — وأبْرا ما أكابِدُ مِنْ سَقامِ
27) فلا شَخْصٌ، تَرى، يَبْكي عَلَيْهِمْ — سِوى إبْليسَ أنْشَدَ مِنْ كَلامِ
28) «ومَاذا بِالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ[189] — مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ؟!»

[189]- البيتان مقتبسان من قصيدة لشداد بن الأسود، يرثي بها قتلى المشركين يوم بدر. والبيت الثاني هو مطلع القصيدة. سيرة ابن هشام: 3-4/29.

29) تُحَـيِّي بِالسَّـلامَـةِ أُمُّ بَكْرٍ وهَلْ لي، بَعْدَ قَومِي مِنْ سَلام»؟!

30) شَفَى الغازي غليلاً في فُؤادي وعالَجَ ما أعاني مِنْ ضِرام

31) ولَسْتُ بِذاكَ مُخْتَصّاً ولكِنْ أنا أولَى بِما آذى إمامي

32) تَولَّى كِبْرَهُ فيهِ فَواقي بِها دَهْيَاءَ قَدْ أَوْهَتْ عِظامي

33) وأبْقَى نارَها في القَلْبِ تَذْكُو فَوالهَفاهُ مِنْ فَرْطِ اغْتِمام

34) مُصابٌ فَتَّتَ الأعْضاءَ وأجْرى لِشِدَّةِ وَقْعِهِ عَيْنَ الجَهام

35) وأعْظَمُ ما عَلَى الإنسانِ فيها إذا ما الغَمْرُ أوقَعَ بِالعِظامِ

36) نَسِيمَ الرَّوْضِ عَرِّجْ نَحْوَ قَبْرٍ وخُصَّ اللَّحْدَ عَنِّي بِالسَّلامِ

37) وَجُرَّ الذَّيْلَ فوقَ ضَريحِ شَيْخِي وبُثَّ الطِّيبَ في ذاكَ الرَّغامِ

38) وقُلْ: يا أَيُّها المرحُومُ تَدْرِي بِأنَّ اللَّهَ أوْقَعَ بِالحَرامي؟!

39) وقَضَّ اللَّهُ ثَغْراً كانَ يُؤْذِي جَنابَكَ بِالسِّعايَةِ لِلإمامِ

40) فَلا غَفَرَ الإلاهُ لَهُ ذُنُوبًا ولا أدْناهُ مِنْ دارِ السَّلامِ

41) وأُنهِي لِلسِّيادَةِ والمَعالي سَلامًا فائِقًا زَهْرَ الأكامِ

42) وأطْلُبُ مِنْ مَثابَتِكُمْ تُؤَدِّي إلى مَيَّارَةَ الأسْمَى سَلامي

43) وتَرْجُو اللَّهَ مَولانا لِيُسْنِي إيابَكُما فَنَبْلُغَ بِالمَرامِ»

انتهى ما ذكره الشيخ سيدي محمد بن قاسم جَسّوس. وقوله: «دم الأخوين» إلخ، أصله للوزير ابن الخطيب، وَضَمَّنَه مع تغيير قافيته، وهي تورية بديعة.

وفي بعض مقيداتي أن هذه القصيدة، قالها صاحب الترجمة، حين قتل السلطان مولانا إسماعيل، كاتبه الرئيس الخياط ابن منصور، وأخاه عبد الرحمان[190]، وكانا معا يؤذيان والد المكتوب له أشد الإذاية.

190- قتلا بمدينة مكناس سنة 1125 هـ. أخبارهما في: تاريخ الضعيف: 92. الاستقصا: 96/7

وكان صاحب الترجمة، رضي الله عنه، يقوم للحق، ويبذل النصيحة للخلق، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ ما أمكن بالسنة وصحيح الأثر. لا يخشى صولة ظالم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وإن كان يؤدي ذالك إلى قتله أو سبه أو تعذيبه بأي نوع من أنواع العذاب.

ذكر العلامة شيخ الجماعة، شارح الاكتفاء، أبو عبد الله، سيدي محمد بن عبد السلام بناني، في بعض مقيّداته، أن علماء فاس وكافة شهودها، لما ذهبوا إلى مكناسة لحضرة السلطان أبي النصر، مولانا إسماعيل، في ربيع الأول، عام عشرين ومئة وألف، (1120/1708م) في شأن قضية جمع الحراطين بفاس وحرز كمياتهم، تكلم مع السلطان منهم في تحريم ذالك أربعة: القاضي أبو المحامد، العربي بردلة، والشيخ الشهيد، أبو محمد، عبد السلام بن حمدون جسوس، والشيخ أبو عبد الله، محمد ابن الشيخ سيّدي أحمد ابن الحاج، والشيخ سيدي محمد ميارة، حفيد شارح التُّحفة. فأمر السلطان بإزالة رأس سيدي محمّد ابن الحاج بحينه، ثم أمر بكيّه، ثم أمر بكحل عينيه، ثم عفا الله سبحانه، فلم يكن شيء من ذالك.

ثم التفت إلى الشيخ سيدي العربي بردلة، وقال له: ألست طلبتنا، وقد قتلتم مولاي الحفيد[191]، حتى أفحمه. ثم التفت إلى الشيخ جسوس، فبادره الشيخ بالكلام قائلا: أنا بالله وبالشرع معك، أمولاي. قالها ثلاث مرات. فقال له: تكلم، فأراد أن يسرد أوراق بيده، كانوا جمعوا فيها آيات وأحاديث وأقاويل العلماء في تحريم ما ذكر، فبدر السلطان إلى القدم، فجذبه الشيخ جسوس بعنف، حتى مزّق ثوبه وقال: اجلس حتى تسمع حكم الله في المسألة. فكان ذالك سبب حقده عليه، حتى قُتل بسجن فاس في منتصف ربيع النبوي، سنة إحدى وعشرين ومئة وألف (1121/1709م)، بعد أن عُذّب بأنواع العذاب، وأُغرم مالا جسيما، حتى جعل يجلس في الأسواق، ويطلب الفدية من المسلمين.

انتهى باختصار.

---

[191]– الحفيد ابن المولى إسماعيل. أمير علوي تولى لوالده ولاية شرق المغرب وفاس. (ت 1115هـ). أخباره في: النشر: 3/113-114. تاريخ الضعيف: 80. الاستقصا: 7/90-91. الدرر 1/150

[نماذج من شعر عبد السلام جسوس، وولده عبد الله]

ومن بديع نظم الشيخ[192]:

[الوافر]

1) جَـزَى اللهُ الشَّـدائدَ كُلَّ خَـيْـرٍ وإنْ حَكَّمَتْ بإفلاسي وَضيـقي[193]

2) ومـا مَـدْحي لَهـا شُكراً ولَكنْ عَـرَفْتُ بِهـا عَـدُوّي مِنْ صَـديقي

وقوله في مدح الشّمائل[194]:

[الكامل]

1) عَلِمَتْ محاسِنُ أحْمَدَ حينَ اخْتَفَتْ فَـقْـدَ التَّـصَـبُّـرِ مِن رَقـيقٍ مـائِلِ

2) فَـبَـدَتْ وأبْدَتْ لِلْعِـيـانِ شَـمـائلاً فَـإذا الْـمـحـاسِنُ كلُّهـا بِشَـمـائِلِ

وما ألطف قول ولده أبي محمد، سيدي عبد الله، مُخَمِّسًا بيتي عبد الله بن حَذلَمٍ اللَّخمي[195]، في رثاء بعض أمراء المغرب، أدخلَ رمسَه بين صلاة العصر والمغرب، ومنزّلا لها على قضية والده[196]:

[السريع]

1) أقـولُ: بَدْرُ قَلْبِي قَـدْ أفَـلا ودَمْعُ أجـفـاني غَـدا مُـرْسَـلا

2) [[197]]بَدْرُ الهُدى، والدَّمْعَ قَدْ أرْسَلا

3) وَسَلَّ سَـيْفَ البَـغْيِ واسـتَـعْـمَـلاً «قِفْ لِتَرَى[198] مَغْرِبَ شَمْسِ العُلى

[192]- البيتان في: شرح جسوس: 361. غير منسوبين.

[193]- شرح جسوس: 361: «وإن كانت تغصصني بريقي».

[194]- البيتان في: شرح جسوس: 7.

[195]- في الأصل: جذيم اللخمي. وهو تصحيف والصواب عبد الله بن حدلم اللخمي. أديب كاتب. (ت ق 8هـ) ترجمته في: النفح: 5/382-383. مستودع العلامة. 74-75.

[196]- البيتان المخمسان في: مستودع العلامة: 75. النفح: 5/168. 5/169. بروايتين مختلفتين. نزهة الأنظار: 1/586. وقد نسبا فيه إلى ابن الخطيب، وليسا في ديوانه.

[197]- بياض في الأصل.

[198]- نزهة الأنظار. 1/586. مستودع العلامة: 75. النفح: 5/168. 5/169: كي ترى.

4) بَيْنَ صَلاةِ العَصْرِ والمَغْرِبِ»

5) وابْكِ مَعَ العَلْيَا عَلَى تُرْبِهَا وَسَاعِدِ الوُرْقَ عَلَى نَدْبِهَا

6) واعْتَبِرِ الأيَّامَ في سَلْبِهَا «واسْتَرْحِمِ اللّهَ قَتِيلاً بِهِ[199]

7) كانَ وحِيدَ العَصْرِ في المَغْرِبِ[200]»

[وفاة أبي عبد الله، امحمد بن أبي الفضل ابن الحاج]

تُوفي صاحب الترجمة أبو عبد الله، امحمد ابن الحاج، رحمه الله، ليلة الأربعاء، لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، عام ثمانية وعشرين ومئة وألف (1128/1715م)، ودفن بروضتهم المشهورة بدرب الطويل، المجاورة لروضة سيدي عزيز.

36) [أبو العباس، أحمد الحفيد، ابن الحاج السُّلمي][201]

ومنهم أبو العباس، أحمد، المدعوّ الحفيد، ابن مَحَمَّد (فتحا) ابن الشيخ أبي الفضل، أحمد.

[مولده]

ولد سنة أربع وتسعين وألف (1094هـ/1682م)، ونشأ في حجر والده وجده، نشأة نزاهة وصيانة وعفاف وكفاف، فقرأ القرآن، وتغذّى من حفظه بأعذب لُبان.

[مشيخته وعلمه]

ثم أخذ في العلم أخذ اجتهاد، جاثيا على ركبتيه لطلبه بكلّ ناد، فلزم والده وجده، والشيخ سيّدي محمد بن عبد القادر الفاسي، والشيخ القَسَنطيني الكَمّاد، والشيخ بَرْدَلَة، والشيخ

[199]- النفح: 169/5: دفينا به.

[200]- مستودع العلامة: 75: «كان وحيد العصر والمغرب». النفح: 168/5: «كان إمام العصر في المغرب». النفح: 169/5: «كان مليك العصر في المغرب».

[201]- ترجمته في: الالتقاط: 321. رقم 481. النشر: 251/3. السلوة: 156/1. الشجرة: 332/1 رقم 1303. الدليل: 389/2. (حيث نسب له ديوانا حافلا).

المسناوي وغيرهم، في جملة من المتون، في غير واحد من الفنون، حتى ظهر في سماء التحصيل نورُه، وتحصن بسر المعرفة سورُه، وصار بدرا يُستضاء به في المدلهمّات، وحصنا يُسند إليه في المهمّات، علاّمة درّاكة، حافظا متفنّنا، ماهرا ضابطا، تامّ المشاركة في جميع علوم العربية، قوي العارضة في الأصلين والمنطق، والحديث والتفسير، لا يُجارى في التصوف والتاريخ والأنساب، منفردا بعلم الحساب والفرائض، مجتهدا في العبادة، ممتطيا متن السيادة، سمحا وقورا، حييّا صبورا، عفيفا جميلا، قانعا شكورا، ملجأ للأيتام والأرامل والمساكين، مع الدّين المتين، والانحياش إلى عباد الله الصالحين، والذكر والتلاوة، والقيام بالمعروف، والنهي عن المنكر.

[وظائفه وبلاغته]

تولى جميع ما كان بيد والده وجده من الوظائف الشّرعيّة، والمناصب السّنيّة، فأقام[202] بذلك أحسن قيام، ورُزق الناسُ الانتفاع به، فازدحموا على مورده، والمورد العذب كثير الازدحام. وكلامه كله، نثرا كان أو نظما، أعلى طبقات البلاغة، لاستكماله أدواتها، على طريقة الأقدمين من أهلها.

[نموذج من شعره]

ومن غرر نظمه، قوله من قصيدة في مدح المصطفى، صلى الله عليه وسلم:

[الطويل]

1) رسولٌ أتى في ساقَةِ الرُّسْلِ بَعْثُـهُ ... ومِنْ قَبْلِهِمْ في الفَضلِ والخَلْقِ يُحْسَبُ

2) ولمْ يتـأخَّـرْ بَعْـثُـهُ لِغَـضـاضَـةٍ ... ولكنَّمـا الأبطالُ تَدْنُو فَـتُـعْـقَبُ

3) تَأخَّرَ كَيْ يَحْمِيَ الذِّمارَ فإنَّها[203] ... الأواخرُ فيها الغَيثُ يُخشى ويُرْهَبُ

4) تأخَّـرَ كي لا يَسْـتَطيلَ مُـقـدِمُـهُ ... وأمّـتُـهُ تَحْتَ الثّرى حينَ غُـيِّـبـوا

5) تأخَّـرَ كَيْ لا يَعْتَـرِيَ النَّسْخُ شَرْعَهُ ... ومِلَّتَـهُ، مـادام طِفْلٌ وأشْـيَبُ

[202]- كذا بالأصل. والصواب: فقام.

[203]- لعل الصواب: فإنما.

6) تَفَتَّرَتِ الأَرْسالُ، إِذْ جاءَ بَعْثُهُ ... وغَشَّى سناهُمْ ضَوْؤُهُ المُتَلَهِّبُ

7) لِذاكَ نُجُومُ اللَّيْلِ، وإِنْ حنَّ مَطْلَعٌ ... لِشَمْسِ الضُّحى، أَبْصَرْتَها تَتَغَيَّبُ

8) رسولٌ، إذا قومٌ عَصَوهُ، أذاقَهُمْ ... لِباسَ الطَّوى والخَوْفِ، حتَّى يَتُوبُوا

[وفاته]

غير أنه بغته الأجل، قبل استيفاء الأمل، وغرب بدره قبل التوسط وأفل، في صبيحة يوم السَّبت، لثِنْتَي عشرة ليلة بقيت من ربيع الثاني، عام ثلاثة وثلاثين ومئة وألف (1133 / 1720م). وصُلّي عليه في جامع القرويين بعد صلاة العصر، ودفن مجاورا لوالده.

[لامية محمد بن الطيب العلمي في رثائه]

ورثاه العلامة الأديب البارع المتفنّن المشارك، سيّدي محمد بن الطيّب، صاحب الأنيس المطرب، بقوله:

[الخفيف]

1) نارُ قلبِي مِنَ الأسى في اشتِعالِ ... وسَحابُ مَحاجِري في انْهِمالِ

2) فتَعَجَّبْ مِنْ دَمْعتي، وَهْيَ ماءٌ، ... كَيْفَ مِنْ بَرْدِها تَزيدُ اشتِعالي

3) وقُوايَ وَهَتْ، وَصَبْري تَلاشَى، ... وَرياضي ذَوى، وغُيِّرَ حالي

4) أأُعِيبُ على الدُّنا، وأنا أعْـ ... ـلَمُ أنَّ الأحوالَ ذاتُ انتِقالِ؟!

5) بَلْ أُسايِرُها وأَرْفُضُ ما قَدْ ... كُنْتُ فيهِ مِنَ الزَّمانِ الخالي

6) فَبَقاءُ الأحوالِ صافِيَةً لا ... شَكَّ أنَّها مِنْ قَضايا المُحالِ

7) فاجْتِماعٌ وفُرْقَةٌ وسُرورٌ ... وَشُرورٌ مَعْ كُثْرٍ او[204] إِقْلالِ

8) وسَقامٌ وصِحَّةٌ وثَراءٌ ... وافْتِقارٌ تَتْرَى مِنَ الأحوالِ

9) بَعْضُ حكْمِ الزَّمانِ في الخلقِ هذا ... وَصُروفٌ جَلَّتْ عَنِ الأقْوالِ

10) وأجَلُّ خُطوبِهِ أنْ يُصيبَ الْـ ... كُلَّ مِنّا بِأَسْهُمٍ ونِبالِ

11) فَيُزيلَ الأطفالَ مِنْ أبَوَيْهِمْ ... ويُزيلَ الآباءَ لِلأطفالِ

[204]- تسهل همزة أو لإقامة الوزن.

12) أَيْنَ عَــيْشٌ يَطِيبُ لي مَعَ دَهْرٍ صَــارَ عنهُ أَهْلُ التُّــقى والجَــلالِ

13) إِنَّ مِنْ أَعظمِ المصــائِبِ أَنْ قَــدْ مَـاتَ هُمَـامٌ لَهُ جَمِيعُ الصِّفَاتِ[205]

14) الفَـقـيــهُ الغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَـدْحٍ المَـوْصُوف[206] بِالفَضْلِ والإفْضَالِ

15) كَــانَ في دِينِهِ نَقِيّـاً طَهُــوراً لاجْتِـهـادٍ في عِلْمِـهِ وَاشْـتِـغَالِ

16) كَانَ فيـهِ الوَقَارُ والنُّسْكُ والعِفَّـ ـةُ والحِلْمُ مَعْ كَــرِيمِ الخِـــلالِ

17) كَــانَ صَــاحِبَ حُـرْمَــةٍ وَجَــلالٍ وَسَــخَــاءٍ، وَرَحْـمَـــةٍ وجَــمَــالِ

18) وَسُــمُــوٌّ وَهَيْـبَــةٍ واحـتِــرامٍ واحْــتِـــزَامٍ لِدِينِهِ وكَـــمَـــالِ

19) واعْــتِـنَاءٍ بِرَبِّهِ واغْـــتِـنَاءٍ وعَنِ الغَيْــرِ، مِنْ سِوى اللهِ، سَالِي

20) كَـانَ مَلْجَأً طَالِبِيـهِ ومَلْجَا[207] هُمْ مِنَ المُعْــضِــلاتِ وَالأَوْحَــالِ

21) كَــانَ مُخْـرِجَــهُمْ إِلى نُورِ عِلْمٍ بِسَنَاهُ مِنْ ظُلْمَـــةِ الجُـــهَّـــالِ

22) مَنْ لِعِلْمِ الحَدِيثِ والفِـقْـهِ والمِيـ ـراثِ والحِـســابِ والإرســالِ؟!

23) مَنْ لِدَرْسِ العُلُومِ في كُلِّ وَقْتٍ مَنْ يُـنِـيلُ الطُّلاَّبَ كُلَّ مَنَالِ؟!

24) بَعْدَ هذا الحَبْرِ الَّذي طاوَلَ البَحْـ ـرَ بِفَـيْـضِ عُلُومِــهِ السَّلْســالِ

25) أَحْمَدُ المُرْتَضى الهُمَامُ سَلِيلُ الْـ ـحَاجِ، نَجْلُ الأكـابِرِ الأَفْـضَـالِ

26) كُنَّا نَأْمُلُ أَنْ سَـــيَكْمُلُ بَدْرًا فَـاعْـتَـرَاهُ الخُسُـوفُ قَـبْلَ الكَمَالِ

27) مَاتَ صَبْرِي لِمَوْتِهِ فَاشْتَهَتْ مُذْ مَــاتَ، أَنْ لَوْ تَمُــوتُ كُلُّ الرِّجَــالِ

28) لَوْ تُفَدَّى مِنَ الرَّدَى، يا أَبا العبَّا سِ فَـــــدَاكَ والــدِي وَآلِـي

29) أَوْ تُفَدَّى بِعَسْجَدٍ أَو نَسِيكٍ لَفَـــدَاكَ الوَرَى بِأَغْلَى المَالِ

30) كَيْفَ تَبْقَى، وأَنْتَ تعلَمُ أَنَّ الْـ ـخَلْقَ كُلَّهُمْ[208] مَــآلُهُمْ لِلزَّوالِ

31) يا بَنِي الحاجِ عَنْهُ صَبْرًا جَمِيلاً كُلُّ مَنْ في الثَّرى يُرَى لارْتِحَالِ

[205]- الشطر مكسور الوزن.

[206]- الشطر مكسور الوزن. ويمكن أن يصح هكذا: «موصوف بالفضل»

[207]- تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

[208]- الشطر مكسور الوزن.

32) كُلُّ مَنْ في السَّماءِ والأرضِ يَفْنَى ... والخُلُودُ لِربِّنا المُتَعالي

33) أحْمَدُ كانَ صَفْوَةً فاصْطَفَاهُ ... لِلِقاهُ تَفَضُّلاً ذو الجَلالِ

34) إنْ يَكنْ ماتَ فيكُمُ [209] ...]، بِحُسْنِ الأقْوالِ والأفْعالِ

35) فَأخُو العِلمِ خالِدٌ بَعْدَما يَفْـ ... نَى، وإنْ كانَ رُمَّةَ الأوصالِ

36) فَعَلَيْهِ مِنَ المُهَيْمِنِ تَتْرى ... رَحْمَةٌ في البُكورِ والآصالِ

37) ولَهُ فَسَّحَ الإلاهُ تَعالى ... في جِنانِ الخُلْدِ القُصورَ العَوالي

38) وَثَراهُ حَيَّ الإلاهُ وأحْيَا ... بِالحَيا المُتَراكِبِ المُتَوالي

37) [أبو زيد، عبد الرحمان ابن الحاجّ السُّلمي][210]

ومنهم أبو زيد، عبد الرحمان ابن مَحَمَّد (فتحا)، ابن الشيخ أبي الفضل أحمد، بن العربي ابن الحاجّ.

[مولده]

وُلِد بفاس، في النيف والتسعين والألف (1090/1678م). وبها نشأ في حجر والده وجدّه مرضيّ الحال، نعيم البال. فقرأ القرآن، وجوّده تجويد الإتقان.

[مشيخته]

ثم اشتغل بقراءة العلم على والده، الشيخ أبي عبد الله، مَحَمّد.

- والشيخ سيدي العربي بردلّة.
- والشيخ سيدي عبد السلام جسوس.
- والشيخ المسناوي.
- والشيخ سيدي أحمد الجرندي.
- والشيخ سيدي محمد الفاسي الصغير[211]، وعليه كان اعتماده في علمي الظاهر

[209]- بياض بالأصل.

[210]- له مجموعة إجازات مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم ق 172.

[211]- محمد بن عبد الرحمان الفاسي. (ت 1134هـ). ترجمته في: النشر: 3/524. الالتقاط: 323-324

والباطن.

- وأدرك جده أبا الفضل.

- والشيخ سيدي محمد بن عبد القادر الفاسيّ.

- والشيخ القسنطيني الكَمَاد الشّريف.

ونال من يُمن إدراكهم وإجابة دعوتهم، بما كان يبدو من السرّ في واضح طلعته، فقرأ عليهم وانتفع بهم.

وأخذ زمن رحلته للحرمين عن:

- الشيخ أبي عبد الله، سيدي محمد بن عبد الباقي الزُرقاني[212]، شارح الموطإ والمواهب.

- والشيخ العارف بالله، أبي إسحاق، إبراهيم الفيُومي[213]، شارح شرح اللّقانيّ على خطبة خليل.

- والشيخ العارف القطب، سيدي محمد بن سعيد النُفاني الطرابلسي، نزيل العَمروس، وغيرهم من مشايخ العصر.

[علمه وشخصيته]

كان، رضي الله عنه، ممن تضلع في جميع العلوم، وخاض بفُلك ذهنه بحار الفهوم، إلى أن كان إماما حجة، وسالكا واضح المحجة، قائما بتدريس الفنون، قيام محقق حافظ ضابط مُحَصّل محرز. وكان آية من آيات الله تعالى في الحفظ، لايجارى في ذلك في سائر الفنون، مع قُوَّة الفهم، وحسن العبارة، ولين الجانب، ومكارم الأخلاق، وسرعة الدَّمعة، والإقبال على الصغير والكبير بالبشاشة والإكرام، كامل الصيانة والعفاف، طاهر الذَّيْل من قبيح الأوصاف، مع الدين المتين، والاغتراف من عين اليقين، قائما على قدم الاستقامة، ناشرا في مجال العبدة

رقم 482. الصفوة: 226-227. الدرر: 2/283. السلوة: 1/319-320. مؤرخو الشرفاء. 210. العناية: 51. معجم المطبوعات: 269. رقم 621.

[212]- فقيه مصري. (ت 1122هـ) ترجمته في الشجرة: 1/317-318. رقم 1237. الفكر السامي. 2/ 248. الفهرس: 1/456-457.

[213]- فقيه مصري. (ت 1137هـ) ترجمته في: الشجرة: 1/318. رقم 1240.

أعلامه.

[رحلاته المشرقية]

وكان، رحمه الله، كثيرا ما يستعمل الرحلة إلى بيت الله الحرام، غير مبال بما يلاقي في ذالك من المشاق العظام، بل يُهَوِّن ما يلقى في سبيل المطلوب، حتى ظفر بالمنى، وفاز بالمرغوب، فحجَّ مرارا، وزار وانخلع عن الآثام وأثقال الأوزار، منشدا بلسان الحال، قول من قال:

[البسيط]

1) إنْ كانَ سَفْكُ دمي، أقصى مُرادِكُمو[214] فما غَلَتْ نَظْرَةٌ، مِنكُمْ بِسَفْكِ دَمي

وقول الآخر[215]:

[الكامل]

2) مالي سِوى روحي، وباذِلُ روحِهِ في حُبِّ مَن يَهواهُ ليسَ بِمُسرِفِ

3) فَلَئِنْ رضيتَ بِها، فَقَدْ أسْعَفْتَني يا خَيْبَةَ المسْعى، إذا لَمْ تُسْعِفِ

وكان زمن رحلته الأولى، في الثاني والعشرين من جمادى الأخيرة، عام خمسة عشر ومئة وألف (1703/1115م). فلقي هناك أشياخا من أهل الشريعة والحقيقة، سلكوا به على مُثلى الطريقة، فتهذب بهم وتكمّل، وتردّى منهم بالعرفان وتجمّل، وحصلت بينه وبين علماء مصر والحرمين معرفة ومواصلة، ومحبة أكيدة، ومذاكرة ومراسلات.

[رسالة العلامة زين العابدين إلى عبد الله جسوس]

ذكر شيخ الجماعة، العلأمة الصالح، سيدي محمد جسّوس، في تأليفه السابق الذكر، رسالة بعثها العلأمة زين العابدين، ابن خطيب بيت الله الحرام، أبي المعالي، سيدي سعيد المنوفي، المغربي الأصل، الحسني الإدريسي العبد سلامي، للأديب البارع، سيدي عبد الله جسوس، ومن جملة فصولها في شأن صاحب الترجمة:

[214]– ينسب البيت لمهيار الديلمي، وليس في ديوانه. وهو في: تحفة الأكابر: 457. محاضرة الأبرار: 2/ 215.

[215]– البيتان لابن الفارض. ديوانه: 151. المسلك: 119.

«ولَـمَّا أنْ منَّ الله، عزّ وجلّ، علينا بالاجتماع بأخينا الأجلّ، قرة عين الأدب، ولُباب المجد والحسب، حائز فضيلتي الظرف والكيس، ونور إنسان الفصاحة التي يعجز عنها قدامة وقيس، خلاصة الفضلاء، وسلالة النبلاء، من تكلّ ألسنة الأقلام، عن وصف سجاياه الجميلة، وتقصر الدفاتر والأرقام، عن إحصاء مناقبه الجليلة:

[البسيط]

1) وَما تَناهَيْتُ في وَصفِي محامِدَهُ[216] إلاّ وأكْـثَـرُ مِـمَّـا قُلتُ مـا أَدَعُ

سيدي الشيخ عبد الرحمان ابن الحاج، أدام الله به وله المسرة والابتهاج، أخبرني بأنه اطّلع كتابكم الذي كتبتموه لإرساله إلينا، وكان لكم بوصوله المنة العظمى علينا، فأزال عني ذالك الوهم، ورفع بم أبداه مادةَ الجزم. ولطالما كان يُشنّف بذكركم المحافل والمجامع، ويصف من محاسنكم ما يُدهش السامع، وكانت لنا به أيام أنس تُعَدّ من أيام الجنة، وتُعَدّ من الأكدار جُنّة، حتّى نغّص الزمانُ صفو العيش بتَرحاله عنّ إلى المدينة النبوية، على ساكنها أشرف السّلام والتّحيـة، ووالله، ثم والله، لقد حلّ من القلب سُوَيداءه، وشفى بتَرياقِ مفاكهته داءه». أنظر تمامها فيه.

[وفاته]

توفي، رضي الله عنه، بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام، عام سبعين ومئة وألف (1756/1170م).

38) [أبو محمد بن أبي زيد ابن الحاج السُّلَمِيّ]

ومنهم أبو محمّد، عبد الله بن عبد الرحمان بن محمد، ابن الشيخ أبي الفضل، أحمد ابن الحاجّ.

[مولده]

وُلِد بفاس، ونشأ بها في حجر أبيه وجدّه، فقرأ القرآن العظيم في ذالك لوجهه الكريم، ثم

[216]- البيت في: الشذرات: 376/8، غير منسوب.

اشتغل بقراءة العلوم، واقتباس أنوار الفهوم، فلزم أباه سفرا وحضرا، فتأدّب بآدابه، مقتطف من شيمَتَيْ معاشرته ولين خطابه. وسمع منه الحديث، وأخذ عنه من كل فن طرف.

[مشيخته]

- وأخذ عن جدّه، الشيخ أبي عبد الله، محمّد.
- والشّيخ أبي المحامد، سيّدي العربي بردلّة.
- والشّيخ بنّاني، صاحب الفوائد المسجلة.
- والشّيخ المسناوِيّ.
- والشّيخ ابن زاكور.
- وشارح الاكتفاء.

وغيرهم، حتى تمكن من الملكة في كثير من الفنون، عربية وبيانا وأصولا، وفقها وحديث وتصوفا. انفرد ببراعة الإنشا، وتحكم في القول كيف شا.

[نموذج من شعره، في مخاطبة عبد الله جسوس]

ومن نظمه ما كتب به من زاوية سيدي حمزة بن عبد الله أعيش، للأديب البارع، سيْدي عبد الله جسوس، صدر رسالة يطلب منه أن ينوب عنه في تقبيل يد والده وجدّه، وعمّه أبي العباس، أحمد، وطلب الرضى منهم له:

[الطويل]

1) نَسيمَ الصَّبا باللهِ أبْلِغْ أحِبَّتي	كَلامًا يَفوقُ المِسْكَ مِنْ شِدَّةِ العَبَقِ
2) خُصوصا أبا زَيْدٍ السَّريُّ الّذي لَهُ	مَحاسِنُ فَخْرٍ قَد تَسامَتْ عَلى الأُفُقِ
3) وبُثَّ لَهُ وَجْداً بِقَلْبي وقُلْ لَهُ:	عُبَيْدُكَ يا مَوْلايَ ماتَ مِنَ الشَّوْقِ
4) وقَبِّلْ حِذاهُ، واطلُبْ مِنْهُ لي الرِّضى	فَلَوْلا رِضاهُ مـ نَجَوْتُ مِنَ الغَرْقِ
5) ومِلْ نَحْوَ بَحْرِ العِلْمِ مَنْ خَضَعَتْ لَهُ	جَميعُ العُلومِ، وَهْوَ مازالَ يَسْتَرقى
6) فَذاكَ أبو عَبْدِ الإلاهِ الّذي به انْـ (م)	تَفَعَ القَوْمُ الكِرامُ ذَوُو الذَّوْقِ
7) فَبِاللهِ أبْلِغْهُ السَّلامَ وقُلْ لَهُ:	حَفيدُكَ، يا مَوْلايَ، ماتَ مِنَ الشَّوْقِ

8) وَسَلِّمْ سَلامًا فَائِحَ النَّشْرِ دائِمًا على شَيْخِنا المَخصوصِ بِالحِلْمِ والصِّدْقِ

9) عنَيْتُ أبا العَبّاسِ شَيْخي ومُنْقِذي مِنَ الجَهْلِ حَتّى سَارَ بي إلى الحَقِّ

10) ومِنْ بَعْدِ ما خَصَصْتُ جُمْلَةً ما احْتَوَتْ «حَجّامَتُنا» الغَرّاءُ عَلَيْهِ مِنَ الخَلْقِ

فأجابه سيدي عبد الله جَسّوس، بقوله:

[الطويل]

1) نَسيمُ الصَّبا أدّى التَّحِيَّةَ عنكُمُ فَأَحْيا جَريحَ القَلْبِ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ

2) وَرَدَّ على الأجْفانِ شارِدَ نَوْمِها وَسَكَّنَ مِنْ وَجْدٍ، وقَد شَبَّ عَنْ طَوْقِ

3) كَأنّي، وقَد وافى السَّفيرُ بطِرْسِهِ، رَقيقُ يَمينٍ جاءَهُ خَبَرُ العِتْقِ

4) لئِنْ كُنْتَ في شَوْقٍ إلَيْنا مُبَرِّحٍ فَنَحْنُ كَما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِلا فَرْقِ

5) لكَ اللهُ مِنْ نَظْمٍ بَديعٍ مُهَذَّبٍ تَمَنَّتْهُ عِقْداً في الطُّلى رَبَّةُ الطَّوْقِ

6) على أنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ[217] مَنْ حَبا بِهِ وعَلَّمَهُ طُرْقَ البَلاغَةِ في النُّطْقِ

7) مَخايِلُهُ تُنْبي بِأنْ مُقَيِّدَهْ[218] سَيُحْرِزُ في شأوِ العُلى قَصَبَ السَّبْقِ

8) وما ذاكَ إلاّ نَفْحَةٌ مِنْ دِيارِ مَنْ نزَلْتَ بِهِمْ، فَهْيَ المُنيلةُ ما تُلقي

9) دِيارُ هُدى قَدْ حَلَّها المَجْدُ والتُّقى مَلاذاً لِمَنْ[219] يَخْشَى، شِفاءً لِمُسْتَرْقي

10) فَأَبْلِغْ سَلامًا طَيِّبًا حَمْزَةَ الرِّضى وقَبِّلْ بِكفٍّ مِنهُ عَنّيَ ذا صِدْقِ

11) وَخُصَّ أبا عَبْدِ الإلاهِ سليلَهُ وكُلُّ مُحِبٍّ حَلَّ في ذالك الأفْقِ

ذكر هذه الأبيات الشيخ سيدي محمد جسوس، في تأليفه السابق.

وبالجملة، فقد اتّصف صاحب الترجمة بكلّ فضيلة، وحصّل من جلّ العلوم كلّ دقيقة وجليلة، وكان دينا قائما على قدم الصدق في التوجّه، مخلصا وقورا مهابا في عين الخاصّ والعامّ، صادعا بالحقّ، إذا تكلم اتُّبع. لا تأخذه في الله لومة لائم.

---

[217]- في الأصل: يذكره. ولا يستقيم به وزن ولا معنى.

[218]- تسكن الهاء لإقامة الوزن.

[219]- الكلمة غير واضحة في الأصل.

[وفاته]

توفي، رحمه الله، عام تسعين ومئة وألف (1190/1775م).

39) [أبو محمد، عبد الله الأصغر، ابن عبد الرحمان[220]
ابن الحاج السُّلمي]

ومنهم شقيق الشيخ أبي الفيض، أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمان [ابن حمدون، بن عبد الرحمان بن محمد، بن العربي ابن الحاج][221].

[ولادته ومشيخته]

ولد، رحمه الله، بفاس، تقريبا، سنة ثمان وسبعين ومئة وألف (1178/1764م)، وأخذ عن أخيه، وشاركه في جل أشياخه:

- كشيخ الإسلام، أبي عبد الله، سيدي التّاودي ابن سودة المري.
- والشيخ أبي محمد، سيدي عبد الكريم اليازغي[222].
- والشيخ سيّدي الجيلاني السّباعي.
- والشيخ أبي محمد، سيّدي عبد القادر ابن شقرون[223].
- والشيخ أبي عبد الله، سيدي محمد بن أحمد بَنّيس[224].

---

[220]- عم المؤلف. ترجمته في: السلوة: 34/3.

[221]- بقية النسب مضروب عليه في ميم، لكنه مقروء بوضوح.

- يلاحظ أن المؤلف ختم تراجم ذرية أحمد بن العربي ليبدأ في الترجمة لذرية أخيه محمد بن العربي ابن الحاج، الذين ينتمي إليهم هو مباشرة.

[222]- عالم فاسي. (ت 1199هـ)، ترجمته في: الشجرة. 359/1. رقم 1433. السلوة: 2/115-116

[223]- عالم فاسي. (ت 1219هـ). ترجمته في: الشجرة: 374/1-375. رقم 1497. السلوة: 1/95-96. الإتحاف: 264/1. 320-330. الشّرب: 127. الفكر السّامي. 295/2. معجم المطبوعات: 191-192. رقم 442.

[224]- عالم فاسي. (ت 1214هـ) ترجمته في: الشجرة: 374/1. رقم 1493. السلوة: 1/204-205 الفكر السامي: 295/2. الشّرب: 216. معجم المطبوعات: 46-47. رقم 113.

- والشيخ سيّدي الطيب ابن كيران[225].

[علمه وشخصيته]

كان رضي الله عنه، ممن برز في حلائب الأدب، وأحرز قصب السبق في مضمار الحسب، ونسخ بآي شمسه ليل المشكلات، وسبح بحفظه بحار العقليّات والنّقليّات، وانفرد بتحقيق العلوم العربية، والمعارف اللدنية. بل كان من الأئمة الكاملين، الفضلاء المنتخبين، مُتّفقا على إمامته وجلالته، وعلمه وعمله، وبراعته وورعه وزهده، ناسكا عابدا، سخيا حليما، كاملا ملازما للسيرة النبويّة، مؤثرا للخمول، تاركا لما لا يعني، عاملا بيده، آكلا من كسب يمينه، دؤوب على نسخ كتب العلم لضرورياته، اقتداء بمالك بن دينار وغيره. وأصوله كلّها في غاية الصّحّة، ونهاية الإتقان، لاهتمامه بمقابلتها، وعكوفه على تصحيحها، مؤيدا على ذلك، بحسن الخطّ، وإتقان التّقييد والضّبط، اللّذيْن برز فيهما على متقدمي الأكابر من مشاهير أهلها. أثمر المغالاة فيها بعد وفاته، حتى تجووزت في أثمانها الغاية التي لا عهد لها، وقادت رغبة الناس في اقتناء ما يوجد بخطه أو تصحيحه ومنافستُهم إلى الآن.

ثم نبذ السُّوى، وأقبل على أهل الله بقلبه وقالبه، فأينعت في باطنه أغصان الهداية، وأشرقت في ظاهره أنوار العناية.

[الطويل]

1) وَأَصْبَحَ عَيْنَ القَوْلِ، والقَوْلُ قَوْلُهُ[226] ولا أحـــدٌ في النّاسِ يبلُغُ قـــدرَهُ

[وفاته]

إلى أن استُشهِد [من غير عقب][227] بالطاعون، لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة الحرام، متمّ سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف (1213/1798م)، ودفن بروضة الوليّ الصّالح، العالم

---

[225]- عالم فاسي كبير. (ت 1227هـ). ترجمته في: الشجرة: 1/376-377. رقم 1506. السلوة: 3/2-4. النبوغ: 1/345-347. الحياة: 345-347. الفكر السامي: 2/295. الشّرب: 218. معجم المطبوعات: 308-309. رقم 694.

[226]- البيت في جواهر المعاني: 1/36.

[227]- زيادة من باء.

النّسك، أبي عبد الله، سيِّدي محمد الهدي، ابن الشيخ مولانا زين العابدين لحُسَيني الكربلائي، الشهير بالعراقي[228]، خارج باب الفتوح، عن يمين الداخل إليها. رحمه الله.

[نموذج من شعره]

ومن نظمه قوله مخاطب الشيخ سيدي التّودي، وقد أتى له برسم ليكتب له عليه:

[الخفيف]

1) أيُّها العالِمُ المهذَّبُ خُلْقًا — دُمْتَ للعِلْمِ ناشِراً ومُبِينا

2) فالصَّحيحُ ما صَحَّ عنكُمْ وإلاَّ — فَهْوَ واللهِ، لا يُفِيدُ يَقينا

40) [أبو عبد الله، محمد الاصغر، ابن عبد الرحمان ابن الحاج السُّلمي]

ومنهم شقيقه أيضا، أبو عبد الله، محمد [بن عبد الرحمان، بن حمدون ابن الحاج][229]

[مولده]

وُلِد بفاس في حدود الثمانين ومئة وألف (1180/1766م)، وبها نشأ ورُبِّيَ في كفالة أبيه.

[مشيخته]

وقرأ القرآن، وتميز بقوة الإيقان. ثم شرع في مقدمات العلم بالأخذ في مبدئه، حفظا للمتون المتداولة بحسب كُلّ فن، وقراءتها على مشيخة الوقت. فلازم أخاه الشيخ أب الفيض، حمدون، والشيخ أبا محمد، عبد القادر ابن شقرون، والشيخ أبا عبد الله، محمد الطيب ابن كيران. فانتفع بملازمتهم، ولاحت عليه أنوار هَدْيهم، وانتهت إليه الرياسة في حسن الخط والتَّزويق، وتنميق الأشكال العجيبة برائق الألوان والذهب الأنيق. يُعدُّ في ذالك من نظراء أبي علي بن مقلة[230]، الذي قيل في خطِّه:

228– تمييزا له عن غيره.

229– ما بين قوسين مضروب عليه في الأصل.

230– أبو علي، محمد بن علي، وزير المقتدر العبسي. (ت 328هـ) ترجمته في الوفيات: 5/113 118 رقم 698.

[البسيط]

1) خَطُّ ابنِ مُـقْلَةَ مَنْ أرْعَـاهُ مُـقْلَتَـهُ   وَدَّتْ جـوارِحُـهُ لو أصبَحَتْ مُـقَـلا

وأبي الحسن، عليّ بن هلال، المعروف بابن البوّاب[231]، الّذي رثاه بعضهم بقوله:

[الكامل]

1) اسـتَـشْعَـرَ الكُتّابُ فَـقْدَكَ سالِفًا   وَقَـضَتْ بِصِـحَّـةِ ذالِكَ الأيّامْ

2) فلذاك سُـوِّدَتِ الدَّواةُ كَـآبَةً،   أسَـفًـا عَلَيْكَ، وشُـقَّتِ الأقـلامْ

وكان أخذهُ هذه الصناعة عن الفقيه أبي الحسن، علي الوافلاوي، الذي قال فيه الشيخ أبو الفيض حمدون:

[مجزوء البسيط]

1) بَدَوْتَ في الخطِّ أنْتَ مُـقْلَتُـهْ   مـا لابنِهـا رقْمُ خطِّكَ الحَسَنْ[232]

2) يقـولُ كُلُّ لبيبٍ أبْصَـرَهُ:   لِلَّه درُّكَ يـا أبـا الحَسَنْ

[حاله]

وكثيرا ما يتأثر بالسماع، وينفعل بنغمات الألحان، عارفا بطبوعها، وقوالب أصواتها، متين الدين، جاريا على منهج المهتدين، مُحَدِّثا واعظ، متقشفا زاهدا، ورعا خاملا، شاعرا مُجيدا مطبوعا.

[تآليفه]

له تآليف في أسرار العبادات، كل قضية يشير فيها للصلاة على النبي (ص)، كما عند صاحِبَيْ «تنبيه الأنام»، و«سبرة المحتاج، في صاحب اللواء والتاج»[233].

[231] - أبو الحسن، علي بن هلال الكاتب. (ت 413 أو 423هـ). ترجمته في الوفيات. 3/342-344.. رقم 457.

[232] - البيتان في ديوانه: 283.

[233] - لعل المقصود «ذخيرة المحتاج، في الصلاة على صاحب اللواء والتاج»، لمحمد المعطي الشرقي. (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2770 ك).

[وله منظومة ميمية في علم الكلام، ومقطعات] نفيسة[234].

41) [أبو عبد الله، محمد المحدث، ابن الحاج السُّلَمِيّ][235]

[ومنهم أبو عبد الله، محمد ابن الشيخ][236] أبي الفيض، حمدون. شيخنا أبقى الله مجادته.

[مولده]

ولد بفاس في نيِّف ومئتين وألف (1200هـ/1785م)، وبها نشأ في حِجر والده وعمه، أبي محمد، عبد الله، على أحسن نبات، وأجمل صفات. وقرأ القرآن وجوَّده على الشريف الأستاذ الصالح، أبي محمد، عبد السلام بن أحمد أخريف الحسني.

[مشيخته]

ثم شمَّر عن ساعد الجدّ في قراءة العلم على علماء العصر بقدر الإمكان، والفتح الرباني يسير به في الفهم، مسير شهر في يوم. ولما خامرته نشوة التحصيل، انثال في طلب التحقيق إلى مجلس كل شيخ جليل. فاعتمد في العربية والفقه صِهْرَيه: العلامة أبا عبد الله، محمد بن عمرو الزروالي[237]، والحافظ أبا عبد الله، محمد ابن منصور[238]، والعلامة أبا العلاء، إدريس، ابن مولانا زين العابدين الحُسيني العراقي[239].

---

[234]- العبارة مضروب عليها في ميم.

[235]- اشتهر هذا العلامة بلقب المحدث بين علماء فاس، لحفظه الصحيحين، فأثبتناه له، تمييزا له عن غيره.

[236]- ما سبق مضروب عليه في ميم. وترجمته في: الدرر. 328/2. السلوة: 156/1-157. الإعلام 6/ 306-308. رقم 819. الشجرة: 401/1. رقم 1405. الشرب: 238. إعلام أئمة الإسلام: ملزمة 2 ص 5-6. معجم المطبوعات: 100-101. رقم 255. توفي سنة 1274هـ. بعد وفاة المؤلف شقيقه.

[237]- فقيه عالم فاسي. (ت 1230هـ). ترجمته في: الشجرة: 377/1. رقم 1511. السلوة: 5/3-6. الشرب: 219.

[238]- فقيه فاسي. (ت 1332هـ). ترجمته في: السلوة: 6/3. الشرب: 221.

[239]- عالم فاسي. (ت 1228هـ). ترجمته في: الشرب: 218. السلوة: 33/3-34.

واعتمد في الكلام والأصلين، والبيان والمنطق، والتفسير والحديث، والتصوف والفقه، والده الشيخ أب الفيض، حمدون، والشيخ أبا عبد الله، محمد الطَيِّب ابن كيران.

حتى بلغ الأرب، في تحقيق علوم الأدب، من النحو والتصريف، والاشتقاق واللغة، والعروض والمعاني والبيان، والأصلين والمنطق، وانفرد في علم الحديث بالحفظ والإتقان والضبط، وصار ممن يُرجَع إليه في بيان المتن والتعليل، وعليه يُعتَمد في طرق الجرح والتعديل، فاتسعت بذالك عارضته، واشتدت في العلم والعمل عنايته، مع الدين المتين، والسير على سنن المهتدين، والهمة العالية، والرتبة السامية، والورع والزهد، وكثرة الصيام والتهجد.

[تتلمذ المؤلف عليه]

قرأتُ عليه صحيحَي البخاري ومسلم، والشفا للقاضي عياض، وموطأ الإمام مالك، وشمائل الترمذي، وألفيَّة العراقيّ في الاصطلاح، وألفيَّة ابن مالك بشرحَي المكوديّ وابن هشام، والسّعد والمَحَلّي، والنّصف من مختصر خليل، وخريدة الشيخ أبي الفيض والده في المنطق، بشرح الشيخ سيدي الطَيِّب، والجرومية وابن عاشر. واستفدت من علومه بالمذاكرة في غالب الفنون، ما وجدتُ بركة الانتفاع به في ديني ودُنياي. وسمعتُ من حكمه ومواعظه ووصاياه ونصائحه، ما تتأثر به القلوب القاسية، وتنقاد له النفوس الأبية.

[مؤلفاته]

له مؤلفات مجلوّة في منصّة الإفادة، كالعرائس مُقلّدات من تحقيقاته بالجواهر النفائس. منها:

- الشرح على بعض الأبيات من الخُمُسين الأخيرين من ميمية والده الشيخ أبي الفيض. كَمَّل به شرح والده عليها بإذن منه عند وفاته. قال له فيه: لم يبق شيء من الدنيا في قلبي، إلاَّ عدم إكمالي الميميّة. ولكن لا يخفى عليك شيء، إن شاء الله. ولا يصعب عليك إلا الترتيب، وصفته كذا وكذا. وشرحه، لعمري، من أحسنها وَضعا، وأبدعها صُنعا، وأوسعها جَمعا، وأعمّها نَفعا. تبدو إحسان النُّكَت خلال سُطوره، فكأنه الحور العينُ داخل قصوره.

- ومنها: [الشرح على خريدة والده في المنطق][240]، وهو عن باعه في هذا الفن وغيره ينطق. سماه بـ «الجوهرة الفريدة، في حل رموز الخريدة».

[نماذج من أشعاره]

[وله في نظم الشعر][241] عارضة، وتحتقر[242] بديهتُه صريع الغواني[243]، وبديع الزمن[244].

فمن ذالك قوله في مدح مولانا السلطان، أبي الظفر والنَّصر، عبد الرحمن بن هشام، لما فتح قصبة الشرادي، بعد أن أكل اشتوكة والشياظمة[245].

[الحائية في مدح المولى عبد الرحمان]

وقال في ذالك بعض كتابه قصيدة مطلعها:

[الوافر]

1) فُتوحٌ في مُضَمَّنِها فُتوحُ	بِهِ تَغْدو البشائرُ أو تَروحُ
2) ونَصْرٌ خافِقُ الأعلامِ نامٍ	و«سَعْدٌ» في مُصَنَّفِهِ شُروحُ
3) إذا المَنصورُ أزْمَعَ أرضَ قَومٍ	تَلاقَتْهُ البَشائِرُ والفُتوحُ
4) وجاءتْ نَحْوَهُ الأعداءُ تَسْعى	عَلَيْها مِنْ تَذَلُّلِها كُلوحُ
5) ولما بَغَتْ زُرارَةُ واستَطالَهُمْ	شيعَتُها وَغَرَّهُمُ الوَقيحُ
6) طَوى عَرْضَ البَسيطَةِ في جُنودٍ	تَضيقُ بِها البَسيطَةُ، وَهْيَ فيحُ
7) أباحَ حِماهُمُ فَكُسوا هَوانًا	وَذو الإعجابِ مَهْلَكُهُ صَحيحُ
8) وَغَرَّهُمُ التَّحَصُّنُ بِالمَباني	وهَلْ تُنْجِي مِنَ القَدَرِ الصُّروحُ؟!

240- ما بين معقوفين مضروب عليه في ميم.

241- ما بين معقوفين مضروب عليه في ميم.

242- كذا بالأصل. والصواب إسقاط الواو.

243- شاعر عباسي اسمه مسلم بن الوليد الأنصاري. (ت حوالى 200هـ) ترجمته في: طبقات الشعراء، 234-240. الشعر والشعراء: 2/712-720. فوات الوفيات: 4/136-142 رقم 524.

244- أحمد بن الحسين. أديب عباسي كبير (ت 398هـ) ترجمته في: يتيمة الدهر: 4/293-344. رقم 64 الوفيات: 1/127-129. رقم 52.

245- كان فتحها سنة 1244/1828. انظر الاستقصا: 9/17-24.

9) وَأغْـواهُمْ[246] مُـضِلُّهُم، بِزورٍ   فَـأَصْبَحَ لِلفَـسَـادِ لَهُمْ طُمـوحُ
10) غَـدَتْ هامـاتُهُمْ ثَمَـرَ العَـوالي   وحُكِّمَ في رِقـابِهِمُ الصَّـفـيحُ
11) فَـهُمْ مِنْ بَعْـدِ قَـتْلٍ وانهِـزامٍ   أَسـيرٌ أو شَـريدٌ أو جَـريحُ
12) وَفَـرَّ مُـضِلُّهُمْ فَـأَضْـحَـوا   أَيادِ(ي) سَبَا وَوَعْـدُ عَـلاهُ ريحُ[247]

ومنها:

13) وَهُدَّتْ مِن قُـصـورِهِم مَـبـانٍ   وعَـمَّـتْـهُمْ على رَغْمٍ فَـضوحُ
14) فَـأَضْـحَتْ بَعْـدَ عِـزَّتِهـا يَبـابًا   عَلَيْـهـا اليَـوْمَ عـاكِـفَـةٌ تنوحُ
15) إذا مـا اللّهُ شـاءَ هَلاكَ قَـوْمٍ   فَـلا حَـذَرٌ لِبَلْواهُمْ يُزيحُ
16) عَمُوا عَنْ رُشْدِهِم بَغْيًا وَصَمُّوا   فَـلا وَعْظٌ يُفِـيـدُ ولا نَصـيحُ

ومنها في مدح مولانا السلطان:

17) فَـلا عَـدِمَـتْكَ أَبْنِيَـةُ المَـعـالي   فَـإِنَّكَ لِلعُلى جِـسْمٌ وروحُ

وبعث بها مولانا السلطان لحضرة فاس، واستمطر أنواء قرائح أعلامها في قصائد في ذالك المعنى. فكان من جملة من قال في ذالك صاحب الرحمة، ونَصُّه:

[حائية أبي عبد الله محمد المحدث]

[الوافر]

1) إذا نَـصْـرٌ لِذي مُلْكٍ تَبَـدّى   فَـلا عَـجَبٌ لَهُ سَـعْيٌ ربيحُ
2) بدا بَدْرًا مُنيـرًا في نُجُـومٍ   طَوالِعُـهـا الخُـيُـولُ لَهُ سَبـوحُ
3) تُبَـشِّـرُنا بِفَـتْحٍ كُلَّ حينٍ   ومـا تُنْبي به، فَـهْـوَ الصَّـحيحُ
4) ثُغـورُ فُـتـوحِـهـا ذاتُ ابتِـسامٍ   «فُـتوحٌ في مُضَـمَّنِها فُـتوحُ»[248]
5) جَلَتْ وَجْـهًـا يُلازِمُـهُ احْـتِـشامٌ   وَلَكِنْ لِلعِـدى وَجْـهٌ وَقـيحُ
6) حَـقِـيـقَـتُـهُمْ لَهـا فَـشَلٌ وَجُبْنٌ   وَتُرَّهَـةٌ، وكَلْبُـهُمْ يَصـيحُ

[246]- الكلمة مضروب عليها في الأصل.
[247]- عروض الشطر مكسور. ويستقيم بالمد في «أيادي» وتسهيل همزة «سبإ».
[248]- الشطر مقتبس من مطلع القصيدة السابقة المعارضة.

7) خُرافَتُهُ حَوَتْ خَرَقًا وحُمْقًا ... وخِسَّتُها نِهايَتُها النُّبيحُ

8) دَهاهُمْ ما دَهاهُ، وقَدْ دَعاهُمْ ... ولَيْسَ بِنافِعٍ شِقًّا سَطيحُ[249]

9) دُروعٌ سابِغاتٌ في الوَرى قَدْ ... أرَتْهُمْ مِنْ عَمى سَيْلاً يَسيحُ

10) رأوا مِنْ سَطْوَةِ القَهّارِ لَمّا ... يُحاطُ بِهِ، وشارِدُهُمْ يَنوحُ

11) زُرارَتُهُ غَدَتْ ذاتَ انْهِزامٍ ... لُحومُهُمْ على وَضَحٍ طَريحُ

12) طَمَتْ وَحَسَّ عَلَيْها كُلَّ وَقْتٍ ... وَثائِرُها لَهُ نَعْيٌ صَريحُ

13) ظُبى تَبْري وتُبْدي كُلَّ سوءٍ ... وَشَرُّ الظّالِمينَ لَهُ مُزيحُ

14) كِفاحُهُمُ صَفيرٌ أو مُكاءٌ ... وَشَأنُ الخِبْ سَفْسَطَةٌ وريحُ

15) لُيوثُهُمُ غَدَتْ كَلْبًا نَبيحًا ... وشِبْلُهُم غدا ذِئبًا يَصيحُ

16) مَحَتْ عِبَرٌ مَحاسِنَهُم كُهولاً ... وشُبّانًا نِساءَهُمُ تُبيحُ

17) نَحَتْ غَمَراتِ مَوْتٍ ثم ألْقَتْ ... بِأيديها لِتَهْلُكَةٍ تُريحُ

18) ضُروبٌ مِن دُهورٍ قد أفادتْ ... وَهُدَّتْ مِن سُلالِها الوَطيحُ

19) ضُروبٌ مِن شآمَتِهِمْ أباحَتْ ... دِماءَهُمُ بِفَيْفَ فيهِ فَيحُ

20) عَلَتْ هاماتِهِمْ بِمَنارِ نارٍ ... وإفلاسٍ لَهُم تُبْديهِ يوحُ

21) غَلَتْ مُهَجٌ لَديهِمْ إذ تَلَقَّتْ ... حُتوفًا مِن نُحوسِهِمُ تُريحُ

22) فَدَيْتُكَ قُمْ على ساقٍ وَجِدٍّ ... لِخِدْمَةِ مَن لَهُ نَسَبٌ مُريحُ

23) قَريبٌ خَيْرُهُ مُتَدارَكٌ لا ... يُنالُ بِحيلَةٍ، حَبْرٌ فَصيحُ

24) سَريعُ ندى، طويلُ هُدى، تَقِيٌّ ... مَديدٌ يَدًا، مَحاسِنُهُ تَلوحُ

25) شَريفٌ مِن كَريمٍ مِنْ زَكِيٍّ ... سُلالَتُهُ نَوافِحُها تَفوحُ

26) هِلالُ سَناهُ يُبْديهِ السَّماحُ ... فَيا لَهُ مِنْ سَنًا تَفْديهِ روحُ!

27) وَجيهٌ لا يُقاسُ بِهِ سِواهُ ... نَزيهٌ، مِن نَباهَتِهِ صَفوحُ

28) يَحِقُّ خِتامُنا بِثَناءِ حادٍ ... على هادٍ مَدائِحُهُ تَروحُ

---

[249]- شق وسطيح من كهان الجاهلية. انظر سيرة ابن هشام.

ولما وصلت قصائد أهل فاس، وهي نحو الثلاثين، لحضرة السلطان بمراكش، وقُرئت كلها بين يديه، وقد أخذت بمجامع قلبه وقالبه، وأُعجب بها، وأجازهم بنحو ألف مثقال، حضر هناك من قد أضمر قلبه حسدا ونفاقا، وبغضا وشقاقا، وتكلم فيها بما هي بريئة منه، وأغرى الأديب السيد عبد الله الرّوميّ الشُّنكيطيّ على أن قال:

[لامية عبد الله الرومي الشنكيطي

في نقد شعراء فاس وهجائهم]

[الطويل]

1) إلى شُعَراءِ الغَرْبِ دارِ التَّجَمُّلِ	ودارِ مُلوكِ الخَيْرِ أَهْلِ التَّفَضُّلِ
2) سَلامُ امرئٍ نائي المزارِ مُسائِلٍ	ومن يَرَ مِنْ نادي العَجائِبِ يُسْأَلِ
3) لأيِّ مَرامٍ فَاصْدُقُونا[250] عَمَيْتُمُ	أَمِنْ فَقْدِكُمْ أَهْلَ النَّسيبِ المُعَلَّلِ؟
4) جَلَبْتُمْ مِنَ الغَرْبِ القَصِيِّ قَصيدكُم	وما كانتِ العَجْفَاءُ أَهْلَ التَّنَقُّلِ
5) قَصائِدُ ما صلَّتْ عَلى خيرةِ الوَرَى	وما طُوِّقَتْ من حِلْيَةِ المتَغَزِّلِ
6) عَواطِلُ مِن مُسْتَحْسَنِ الشِّعْرِ لَمْ تَزَلْ	تَجُرُّ ذيولَ المَقْتِ في كُلِّ مَنْزِلِ
7) ولم تَحْظَ مِن عِلْمِ البَلاغَةِ بِالَّذي	يَزينُ مَديحَ المُسْتَمِيحِ المُؤَمِّلِ
8) تَمُرُّ عَلى الآذانِ، وهْيَ ثَقيلةٌ	كَأنْ على القاري صَفائِحُ جَنْدَلِ
9) ولا الجُلُّ منها ذو اتِّزانٍ وأَنْتُمُ،	لَعَمْرِي، رِعاعٌ مِن رِعاعِ المُضَلَّلِ
10) وذالِكَ مِن جَهْلِ البَيانِ الَّذي بِهِ	عُذُوبَةُ قَوْلِ الشَّاعِرِ المتطاوِلِ
11) جَهِلْتُمْ مِنَ الشِّعْرِ الجميلَ، إِنَّهُ	بديعُ المعاني، ذو البَيانِ المُفَصَّلِ
12) ومن حاكَ أمداحَ الملوكِ ولَمْ يَكُنْ	خَبيراً بِأَسرارِ البَلاغَةِ يُعْذَلِ
13) تَشاغَلْتُمْ بِالفِقْهِ إذ كانَ هَمُّكُمْ	طِلابَ المعالي بِالقَضاءِ المُضَلَّلِ
14) تخالُونَ كُلَّ العِزِّ في خُطَّةِ القَضا	ودارُ القَضا دارُ السَّخيفِ المُذَلَّلِ؟!
15) إذا كانَ هَمُّ المرْءِ تَحْصيلَ عَيْشِهِ	فَأيُّ جَميلٍ يَقْتَنيهِ مؤَثِّلِ؟!

[250]– في الأصل: واصدقونا.

16) وإنَّ فتى الفتيانِ مَنْ كانَ سَعْيُهُ إلى أدَبٍ يَزْكُو لدى كُلِّ مَحْفَلِ

17) وكانَ مِنَ المَطلوبِ أن تتأنَّقُوا بِكُلِّ ثَلاثٍ جَهْلُها غَيْرُ أمْثَلِ

18) وقد بَسَطَتْ أيْدِي الرِّجالِ مُهِمَّها بِخاتِمَةِ «التَّلخيصِ» للمُتَأمِّلِ

وقد رد عليه أهل فاس، وشنعوا عليه في ذالك غاية. ومن حملة من قال في ذلك صاحب التَّرجمة، ونصُّه:

[لامية أبي عبد الله، محمد المحدّث، في الرّدّ على عبد الله الرّومِيّ الشّنكيطي]

[الطويل]

1) ألسْتَ تَرى شِبْلاً تَجَرّأ في الوَغَى يُبارِزُ أعلامًا بِرُمْحٍ مُهَوَّلِ

2) وَوَاللَّهِ، والمُختارِ، لولا دِيانَةٌ لوافَتْهُ أعباءٌ بِذَمٍّ مُثَقَّلِ

3) يُمَسِّوهُ أقوالاً بِزورٍ وزُخْرُفٍ وحَدْسٍ وتَخْمينٍ ومَيْلِ مُضَلِّلِ

4) يُمَزِّقُ أعراضًا ذَوُوها تَنَزَّهوا عَنِ النُّطقِ بِالفَحْشا، وعَيْبٍ مُنَكَّلِ

5) بِعِلْمٍ تَوَسَّلُوا، وحِلْمٍ تَوَصَّلُوا وَسادوا عَلَى الأعداءِ بِمَجْدٍ مُؤَثَّلِ

6) لَهُمْ سَلَفٌ بِالمَكْرُماتِ تَقَدَّموا لَهُمْ شَرَفٌ يَعْلُو على كُلِّ مُعْتَلِي

7) بِدايَتُهُمْ تَحْصِيلُ سَعْيٍ مُطَوَّلٍ وَغايَتُهُمْ تَفْصِيلُ لُغْزٍ ومُشْكِلِ

8) فَما الفِقْهُ إلاّ ما حَوَتْهُ صُدورُهُمْ بِتَحْرِيرِ أنْقالٍ، وحِفْظِ «مُحَصَّلِ»

9) بِهِ قامَ شَرْعُنا، ومن يُلْفَ زائِغًا يَحِدْ عَنْ نَعيمِ ظِلِّ عَيْشٍ مُظَلَّلِ

10) ومِنْهُ صَلاتُنا على خَيْرِ مُرْسَلٍ ثَوابٌ لَها بادٍ بِنُطْقٍ مُوَصَّلِ

11) بِهِ اتَّسَقَتْ عِبادَةٌ قَدْ تَنَاسَقَتْ بِدارِ قَضاءٍ، دارِ هادٍ مُفَضَّلِ

12) هُوَ العالِمُ النِّحريرُ، والسَّيِّدُ الَّذي سَما واعْتَلَى قَدْراً «بِسَعْدٍ مُطَوَّلِ»

13) هُوَ الماجِدُ الحامي الذِّمارِ ومَنْ يَكُنْ بِهِ يَحْتَمي، يَظْفَرْ بِمَرْغوبِهِ الجَلي

14) وَلَمْ يَخْشَ مِن عادٍ يَعُدُّ مَعائِبًا لأشعارِ غَرْبٍ، لَيْسَتْهُ لم يُعَوِّلِ!

15) جرَى صاحِبُ القَرِيضِ في غَيْرِ مَهْيَعٍ ولا حَرَجٌ يُلفيهِ: أفْعى بِأخْيَلِ

16) وما الشِّعْرُ إلاّ مِن قَواعِدَ أُسِّسَتْ يُحَبِّرُها الحُذّاقُ في كُلِّ مَحْفَلِ

17) ومـا القَـصْـدُ بالبَليغِ إلا تَطابُقٌ لِما يَقْتَـضِيـه الحالُ من ذي تَأمُّلِ

18) وَحالُ قَصيدٍ مِن وزيرٍ قَدِ اقتضَى مُـعـارَضَـةً مَـعـروفَـةً لِلمُـؤَهَّلِ

19) أيَخْـفَى تَأنُّقٌ على ذي فَـصاحَـةٍ غزا له صَرْمًا[251] في البـهاءِ المُهَلَّلِ

20) تَعالَيْتَ، إذ أبْدَيْتَ قَدْحًا تَذَمُّمًا تَعـالَيْتَ، إذْ أَخْفَيْتَ مدحًا ولمْ تَلِ

21) وَمـا أنْتَ إلاّ مِنْ فَـريقٍ تَشَـرَّدوا وَآبوا بِخُـسْـرانٍ وخَـسْفٍ مُـعَـجَّلِ

22) وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في شِعْرٍ غَرْبٍ لَنا سوى مَـديحِ أبي زَيْدٍ، كَـفَى في التَّنَفُّلِ

23) مَليكٌ سَبَا حُسْنٌ لَهُ كُلُّ مُحْسِنٍ وإحسـانُهُ أربى عَلى كُلِّ مُـعْـتَلي

24) مَليكٌ إمـامٌ عـدلُهُ عَنْ تواتُرٍ وَخَيْـراتُهُ عَنْ كُلِّ خَبْـرٍ مُـحَـصَّلِ

25) مَليكٌ، غَـمـامٌ وَبْلِهِ في تراكُمٍ وغَـيْـثُـهُ قَـدْ وافى بِزَيْدٍ مُـسَلْسَلِ

26) سَليلُ هِشَـامٍ زانَهُ اللهُ بِالحَـيَـا وبـالعِـلْمِ والحِلْمِ الـنَّقِـيِّ المُوَصَّلِ

27) فَـلا زالتِ الأقْـيـالُ تَخْـدُمُ بابَهُ وَتَرْصُدُ نجـمًـا في سُعَيْـدٍ مُؤَمَّلِ

28) بِحُـرْمَـةِ مَنْ أنْشـاهُ قـافِيَ جَدِّهِ عَلَيْـهِ صَلاةٌ مِن حَـبيبٍ مُكَمَّلِ

[نماذج من شعره]

ومن نظمه أيضا مخاطبا لبعض قضاة العصر، على لسان الغير، لأمر اقتضاه الحال:

[الطويل]

1) أقـاضِـيَنا نَجْمَ الهُـداةِ وَنَجْلَهُمْ وأَسْوَتَهُمْ في الفَضْلِ إذْ هُوَ بِهِ أحْرَى

2) وَصَلْتَ بِحَـبْلٍ لِلشَّـريعَـةِ فَـصْلَهُمْ فَلَمْ يَختَـشـوا زَيْداً، لِذاكَ، ولا عَـمْراً

3) أَبَنْتَ لَهُمْ مَجْداً صَـمـيمًـا مُرَفَّعًا بِمَحْوِ ظَلامِ الجَوْرِ، غـايَتُكَ الشِّعْرى

4) فَـوافَى وعْـدٌ مِنْكَ وافٍ مُـوَفَّـرٌ وإنْجـازُهُ سيـمـا الكِرامِ، ولا فَـخْراً

5) جـزاكَ إلاهُ العـرْشِ خَـيْـرَ جَـزائِهِ ولَقّاكَ ما يُرْضيكَ في ذي وفي الأُخْرَى

6) بِجـاهِ مُـحَـمَّـدٍ وآلِهِ وصَـحْـبِـهِ وتابِعـهِمْ يَسْـمـو بِطَلْعَـتِكَ الغـرّا

وقال مُعَجِّزا، وقلت مُصَدِّرا، لبيتي الفقيه الجليل الماجد، أبي مالك، مولانا عبد الواحد،

[251]- كذا في الأصل.

ابن أمير المؤمنين، سيدي محمد بن عبد الله[252]، حين وقف على ما قاله البقاعي[253] في حق ابن الفارض والحاتمي[254]:

[الطويل]

1) أبو حَفْصِنا والحاتمي تَمايَلا — بِسُكْرِ كُؤوسِ الحُبِّ في ذي الوَرى قِدْما

2) وأشْرَقَ سِرٌّ باطِنٍ مِنْهُما سَنًا — فباحَ بما قَدْ كانَ يَسْتَوجِبُ الكَتْمَ

3) لِذا جُلِدا بِالسَّيْفِ عِنْدَ أئِمَّةٍ — بظاهِرٍ، إذ لم يَألَفُوهُ لَهُمْ فَهْمَ

4) وكُلٌّ عَلى كُلٍّ هُدى، ولكن هُما قَدَى — لِقَولِهِما بِما أحاطا بِهِ عِلْمَ

ووقع بينه وبين قضاة العصر شنآن، فأنشده والده ارتجالا[255]:

[مجزوء البسيط]

1) احْفَظْ[256] عِدادَكَ مِنْ عُدولٍ — مادامَ هذا القَضاءُ ساقِطْ

2) قاضِيكَ لو كانَ مِنْ شُهودٍ، — وأنتَ قاضِيهِ، كُنتَ ساخِطْ

[[257]]

وسيأتي، إن شاء الله، بعض الكلام فيه، زيادة على هذا في باب التلاميذ[258]

---

[252]- ترجمته في: الدرر: 1/172.

[253]- أبو الحسن، برهان الدين، إبراهيم بن عمر الرباط الحرباوي. (ت 885هـ). ترجمته في: الضوء اللامع 1/101-111. وله كتاب اسمه: «تنبيه الغبي، إلى تكفير ابن عربي». نشر بعنوان: «مصرع التصوف».

[254]- محيي الدين، أبو بكر ابن عربي الطائي الإشبيلي المرسي (ت638هـ). ترجمته في: الذيل: 6/493-498. رقم 1277. العنوان: 58-160. الوافي: 4/173-178. النفح: 2/161-169. التكملة: رقم 1023. فوات الوفيات: 3/435-400. رقم 484.

[255]- البيتان في: الإعلام: 6/308. ديوان حمدون: 155.

[256]- الإعلام: 6/308. ديوان حمدون: 115: أسقط.

[257]- بياض في الأصل نحو سبعة أسطر.

[258]- لم يكتب المؤلف هذا الباب في تقديرنا.

رَوْضَةُ الأُقْحُوان

في حالِ الشَّيخ أبي الفَيضِ حَمدونَ
في الـمَنشأِ والعُنفُوان.



الباب الأول

في نشأته في البداية، وما منّ الله به عليه

من أسرار العلوم في النّهاية.

قد تظهر في أول نشأة الإنسان علامات يُعَزُّ بها أو يُهان، فيستدلّ على ما يكون بما كان. وربّ فراسة أصدق من عيان. فأقول:

[مولده]

ولد الشيخ أبو الفيض، حمدون ابن الحاج بحضرة فاس، سنة أربع وسبعين ومئة وألف (1760/1174). ولم أحصّل على التّعيين في ذالك، لأن الشيخ كان يخفيه، ولم يجب السائل عنه يوماً ما بما يكفيه، أخذاً برأي الأكابر الّذين رأوا الصّفح عنه في الزمان الأول والآخر، صوناً للمروءة عمّا يُخِلّ، حتى تتوفّر دواعيها ولا تضمحلّ.

قال ابن الخطيب في الإحاطة[259]، نقلاً عن شيخه المقري[260] صاحب الكلّيّات، في ترجمته من الإحاطة، بسنده إلى بعض أصحاب الإمام الشافعي، وكلّ يقول:

«سألت فلاناً عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت مالكاً عن سنّه فقال: أقبل على شأنك. ليس من المروءة للرجل أن يخبر عن سنّه».

وفي الديباج[261] عن الأبهري[262]، قال مالك: «إخبار الشيوخ عن سنّهم سفه».

[259]- الإحاطة: 226/2. بتصرف في النقل.

[260]- أبو عبد الله، محمد القرشي المقري. (ت 759هـ). أديب فقيه. ترجمته في: الإحاطة: 2/191-226. النفح: 5/203-350. المرقبة: 169-170. تاريخ ابن خلدون. 7/534-536. النيل: 249-254. السلوة: 273-271/3.

[261]- الديباج: 209/2. وفيه: «إخبار الشيوخ عن أسنانهم من السفه».

[262]- أبو بكر، محمد بن عبد الله. (ت 395هـ) فقيه مصري. ترجمته في: الديباج: 2/206-210. الوافي 308/3، رقم 1357.

قال بدر الدين القرافي[263] في «توشيح الديباج، وحلية الابتهج»[264] ما حاصله:

«وإنما كان الإخبار بالسنّ ليس من المروءة، لأنه يستدعي تذكرة الولادة، وما يكون عليه المولود في البداية، مما لا تتيسَّر أسباب المروءة معه، مع الجهل بالمضرّة والمنفعة، ولأنه يدعو فى الجملة إلى التكذيب، ممن لا يرى أن الله عليه رقيب.» انتهى.

وإلى هذا تتوجّه العناية بقول الشيخ أبي البركات[265] ابن الحاج، المتقدم الذكر:

[الكامل]

1) احْفَظْ لِسانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَةٍ	سِنٍّ ومالٍ، إنْ سُئِلْتَ، ومَذهَبِ
2) فعَلى الثَّلاثَةِ تُبْتَلى بِثَلاثَةٍ	بِمُكَفِّرٍ وبِحاسِدٍ ومُكَذِّبِ

وقول الشيخ أبي حفص الفاسي[266]:

[الكامل]

1) الْمَرْءُ يُسْأَلُ دائِماً عَنْ سِنِّهِ[267]	والرَّأْيُ والمالُ المُسَوَّدُ مَنْ يَسودْ
2) فإذا سُئِلْتَ فَلا تُجِبْ عَنْ واحِدٍ	خَوْفَ المُكَذِّبِ والمُكَفِّرِ والحَسودْ

فالتعرض للكذب من أقبح الشيم، وآفة المروءة الوقوف بمواقف التُّهم.

قيل لعبد الملك بن مروان: أكان مُصعَب بن الزُّبير يشرب الطِّلى؟ قال : لو علم مُصعَب أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

---

[263]- محمد بن يحيى. الفقيه القاضي. (ت 1009 هـ) ترجمته في: النيل:245. ومقدمة التوشيح. الفكر السامي:273/2.

[264]- التوشيح: 44، بتصرف كبير في المعنى.

[265]- في النفح: 207/2 (بالهامش)، أن البيتين لمحمد بن عبد الباقي البزار، عن صيد الخاطر لابن الجوزي. 346 .

[266]- عمر بن عبد الله الفاسي. أديب عالم فاسي. (ت 1188 هـ). ترجمته في الدرر:286/2. الحياة: 306-311. تاريخ تطوان:80/3. العناية: 60-66.

[267]- البيتان في: العناية:61 . السلوة: 337/1.

وقيل:

[الطويل]

1) أعِفُّ عَنِ الأمرِ القَبيحِ تكَرُّمــاً ... وإن لَمْ أكُنْ بَرّاً ولا مُتَخَشِّعــا

2) وأمنَعُ نَفْسي ما تَلَذُّ وتَشتَهي ... إذا أنا يَوْمًا خِفْتُ عَيْبًا ومَقْرَعا

3) ولو خِلْتُ أنَّ الماءَ يَوْماً يَشينُني ... لمِتُّ، ولَمْ أجْرَعْ مِنَ الماءِ مَجْرَعا

[نشأته]

ونشأ الشيخ أبو الفيض في حِجر والده، نشأة عفّة وصيانة، يسمو به شَمَم همّته إلى أشرف مكانة. صانته أصالة الرأي عن الخطل، وحاشته فضيلة العقل أن يرعى مع الهَمَل.

ولما بلغ سن التعليم، صرفه والده للمكتب، فكان لا يبرح ولا يريم، دائمَ السُّلوك في طرق المراشد، حريص على الاعتناء بجميع أنواع المحامد، مقبلا على المفروض والمسنون، تاركا للصبيان في خوضهم يلعبون، آخذا بالجد والاجتهاد، وظاهرا في مظاهر الإقبال والإمداد، موفّق مؤيّدا، مُعانا مُسَوّدا، حافظا لما يُملى عليه، عارفا بما رُسِم لديه، فحفِظ القرآن في أقرب مدّة، ووصل لما يرجع لتجويده ورسمه وشكله حدّه، وأبدع في جودة الخط على كيفيت من التضييق والبسط، لمكن التمكُّن في الحضارة، التي هي في أشكال الصنائع نتيجة المهارة، فكان مشرقيّ تارة، وأندلسيًا أخرى. وكلاهما في باب الجودة آية كبرى.

ثم أخذ في الاعتناء بحفظ المتون، على حسب المتداول بين الناس في الفنون، مقاصد ووسائل على نهج الأكابر والأوائل.

[دراسته]

ولما كوشف له نور الرُّشاد، عن وجود أهل الخير والسُّداد، كان لا يطوف إلا بكعبتهم، ولا يُنيخ رحله إلا بمحلتهم، فيقصد بلوحه للابتداء بعد الختمة، من يُقطع بأن وجوده في الناس أمان لهم ورحمة، فكانوا يدعون له بالفتح المبين، ويتعجبون من سيره طفلا على سنن المهتدين.

[الطويل]

1) وَرَجُّ الفتى لِلخَيرِ ما أن رَأيتَهُ ... عَلى السِّنِّ خَيرا لايَزال يُريدُ

ولله درّ من قال:

[البسيط]

1) في المَهْدِ يَنْطِقُ عَنْ سَعادَةِ جَدِّهُ   أَثَرُ النَّجابَةِ ساطِعُ البُرهانِ

ومن حسن إخلاص والده في نيّته، ورجوعه إلى الله في شأنه، متبرئا من الحول والقوة، أن اختار لتعليمه من المكاتب، ما تحقق عنده تعجيلُ المنافع بحصول المآرب، بأن انحاش إلى حيث مطلع الإشراق والأنوار، وبحر المعارف والأسرار، الوليُّ الصالح، سيدي أنوار، فكان أول ما صرفه عند كمال فطنته إلى مؤدب كان بداخل روضته، وهو الفقيه الأجلّ التالي لكتاب الله عزّ وجل، الراقي مرقى الدّراري، أبو الحسن، عليّ الهَواريّ.

فلا غرو، إذن، أن حصّل الشيخ أبو الفيض، نفع الله به، في الحين على أسنى الرغبات، لما سنّى الله به منذ كان من تتابع البركات.

ثم لما شرح الله صدره للفهوم، وألهمه العناية بطلب العلوم، والأخذ منها بجامع الخصوص والعموم، والوقوف على حقائقها بمضائق التّحقيق، والكشف عن وجوه مشكلاتها بيد التصور والتصديق، فجلس بين يدي جلّ أشياخ عصره، الآتي ذكرهم، للتعليم في المبادئ الواجبة التقديم، وحلّ منهم محلَّ الإثمد من العيون، كاشفا بأنوار أبحاثه عن السرّ المصون، بذهن أمضى من الصّارم المسلول، في جملة من أوضاع المعقول والمنقول، إلى أن خاض من وسائلها كلّ بحر ونهر، واجتلى من مقاصدها كلّ شمس وبدر، وفُتِحَ له الباب، وكُشِفَ عن فكره الحجاب، وتضلّع بالعلوم، وتحقق في دقائق الفهوم، وآنس من نفسه النّجابة، ورأى فكره سابقا في مجال الإصابة، فاقتصر على أوسعهم نظرا في مسارح التحقيق، وأحسنهم تعبيرا في فصل المخاطبة بالتصور والتصديق، فلزمه في أكثر الفنون المتداولة، كان هو المملي في جُلّها بعبارةٍ تنسجم إعرابا وبيانا، كأنما ينفث سحرا أو ينثر جمانا، وفهْمٍ بلغ في مسالك الإدراك أقصاها، وحفظ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجهة كالمغناطيس، تجلب النفع الظاهر والباطن، وتكشف عما كان من الأسرار اللدنية، كالكنز الكامن. حتى كمل بدره، وفاض بالتحصيل بحره، وتمت به ملكة الاقتدار في أسواق العلوم، على الاقتناء والادخار، وتأهل للأخذ عنه والانتفاع به، وصدر

علاّمة الدُّنيا، ويده في المشكلات هي العليا، بحرا زخّارا، حَبْرا نَظّارا، جامعا لأدوات الاجتهاد، مائلا إليه في الحكم والاعتقاد، يَرُدُّ على أئمة المذاهب بالدليل الواضح، والاعتبار المناسب، بالغا غاية الأرب، في تحقيق علوم الأدب، من النحو والتصريف والاشتقاق، واللغة والعروض والقوافي، والمعاني والبيان والبديع، وصناعة الشّعر والتّرسيل والخطب، والسِّيَر والمغازي وأنساب العرب وأيّامها، وتواريخ غيرها من الأمم السالفة، وتراجم الأعيان وسائر المحاضرات، لا يُدرك شأوَه علاّمة جُرجان، في مجال الكلام والأصلين، والمنطق والبيان، متحكما في الخبر والإنشاء، من صناعة الإنشاء. لا يُشَقّ له في مضمار الشّعر الغبار، وإذا شنّ الغارة على أبطال النثر، لا يسعهم إلا الفرار:

[البسيط]

1) إن هَزَّ أقلامَهُ يومًا ليُعملها	أنساكَ كُلَّ كَمِيٍّ هزَّ عامِلَهُ
2) وإن أقَرَّ على رَقٍّ أنامِلَهُ	أقَرَّ بالرِّقِّ كُتّابُ الأنامِ لَهُ

جديرا بقول القائل:

[الخفيف]

1) وإن اسْتَنْطَقَ الأناملَ جاءَتْ	ببَيانٍ كالجَوْهَرِ المَنْضُودِ
2) في سُطورٍ كأنَّما نَشَرَتْ يُمنا	هُ منها عَصائِبًا مِنْ بُرودِ
3) فقَرٌ لم يَزَلْ فقيراً إليها	كُلَّ مُبْدي بَلاغَةٍ ومُعيدِ
4) يَقْتَدي البارعُ المفيدُ لدنْها	لاحِقًا بالمُقَصِّرِ المُسْتَفيدِ
5) بِبَيانٍ شافٍ، ولَفْظٍ مُصيبٍ،	واختِصَارٍ كافٍ، ومَعْنًى سديدِ

بصيرا بالأحوال والمقامات، مميزا بين كلام أهل البدايات والنهايات، إلى المشاركة على سبيل التحقيق في كل علم من التصور أو التصديق.

[تدريسه العلم]

فأذن له، إذ ذاك، جمع من أشياخه في الجلوس للإفادة والتدريس. فكان أخذه في نشر العلم عن [*] الفتح المبين، وهو في زمان الشباب ابن نيّف وعشرين، فابتدأ أولا من العلوم العربية بنحو الأرجوزة الألفية، حتى عمّ ذكره، وصدق خبره، وانحشر إليه الطلبون من كل وجه ينسابون، فعند ذاك صرف أيضا العنان إلى إقراء المنطق والأصلين والعروض والبيان. وكل ذالك بموضوعاته المتداولة إلى هذا العهد، مع ما هو شأن أهل التحقيق في الأنظار من القبول والرد. ولسان حاله يقول وينشد[268]:

[المتقارب]

1) إذا المُشْكِلاتُ تَعَرَّضْنَ لي[269] كَشَفْتُ حَقائِقَها بِالنَّظَرْ

2) وَلَسْتُ بِإِمَّعَةٍ في الرِّجالِ أُسائِلُ هذا وذا ما الخَبَرْ

ثم بعد استقراء الوسائل بالإقراء، تصدى للمقصود من التفسير والحديث بأقسامه، والتصوف المؤيَّد بالكتاب والسنة والفقه بالتدريس والتصنيف والإفتاء، فارتفعت أسعاره في سوق عنايته، ورجحت موازينه بكفة دلالته.

[تولية المولى سليمان إياه مدرسا للحديث بالقرويين]

ولاّه سلطان الوقت، الكريم الشِّيَم، المعترف له بنو أبيه، على جلالتهم، بعلوّ الهمة، وعظم الشَّمَم، ربيعُ القلوب والأزمان، أبو الربيع، مولانا سليمان، تدريس علم الحديث بجامع القرويين، ونفّذ له الكرسيُّ المعيَّن له هنالك عند ظهر خصّة العين. وهو من جملة ما كان خُصّص على خصوص عمّ جدّ والده، الشيخ الإمام العارف بالله، أبي الفضل، أحمد بن العربيّ ابن الحاجّ، وعقبه من بعده، وقصر المحبس النّظر في ذالك، وأن ينفذوه لمن شاءوا، حسب ذلك عندنا برسم مسجّل. واستمرّ بيد أعقابه يتوارثونه، إلى أن ضعف الباقي منهم برسم العلم عن

*- كلمة غير مقروءة في الأصل.

268- البيتان في ديوان الشافعي: 82-83. ريحانة الكتب: 2/304. وقد ينسب البيت الأول لعلي بن أبي طالب. أنظر شرح الشريشي. 3/159. معيار الاختيار: 71.

269- ديوان الشافعي/82: تصدين.

القيام به، في حدود السبعين، بالموحَّدَة، ومئة وألف (1756/1170)، فصار إلى الشيخ العلاّمة، الحافظ الحجّة اللُّغويّ، أبي عبد الله، محمد ابن الخياط الدُّكَّاليّ المشنزائِيّ، عُرِف بابن إبراهيم، والمتوفى سنة أربع وثمانين ومئة وألف (1184/1770م)[270].

وإلى زمن هذا السلطان الجليل، أحب بتنفيذه للشيخ أبي الفيض حمدون رسمَه، لينشر في الناس عن كمال الاستحقاق علمه، فدرَّس فيه حينئذ من دواوين الحديث، الصحيحين وغيرهما من الكتب الستة، تدريس الفحول من الأئمة المتضلِّعين بالمعقول والمنقول، فحقَّق الظن فيه باستحقاق التبريز، ولرسم الانتصاب على التمييز، بعد أن اختُبِرَت سبائكُ تحقيقه في محطّ الأنظار، فكانت خالصة الإبريز.

[تدريسُه لصحيح البخاري]

ثم ثابر على إقراء البخاري في كلّ حين، فلم يكد يدعه في سائر السنين، ولاسيما شهر رمضان، فكان هجّيراه فيه، وكان يأتي من تحقيقه بما يشفي الغليل، من الكشف عن المفردات معنى واشتقاقا وتصريفا، والإعراب للمركَّبات بما لا يُبقي في الأصل وهما ولا تحريفا، مع تخصيص العموم، وتقييد الإطلاق، وتفصيل الإجمال، وتبيين محل الخلاف والاتفاق، واعتبار مقتضيات الأحوال، والاقتدار على استخراج جوامع التَّشبيه من خزانة الخيال، في بناء مقصور المجازات على قواعد العلاقات، فتنكشف المعاني المخدَّرات في خدور الكنايات والاستعارات، من ألفاظ أُلبِسَت حُلَل التَّحسين، على أبدع نسج وأجمل تزيين، إلى القدم الراسخ، في بيان المنسوخ من النَّسخ، واستنتاج الحكم من أشرف الأشكال، في قياس يُفيد اليقين، بعلة يرجع معها الإشكال يضرب بسهام حُجَجه في صدر أهل الأهواء والبدع، لحسم مادة اعتقادهم، فلم يُبْقِ من شُبَهِهم شيئا ولم يَدَع، ويردُّ الفرع إلى أصله، وينسبُ القول إلى أهله، ويبرهن على المطالب، باعتبار كلّ المذاهب، ثم يُبَيِّنُ ما به الفتوى من مذهب مالك، ويُوَسِّع النقل على أئمته في ضَيِّق المسالك، ويَجِدُّ كل الجِدِّ في البحث مع ابن حجر والعيني والقسطلاني، ومن يرقاهم[271]

[270]– ترجمته في: النشر: 4/196-197. السلوة: 2/78-79.

[271]– في الأصل: يرقهم. ولعل الصواب ما أثبتنا.

بالقبول والرد.

هذا بعد القيام على تعريف الرجال، وتمييز اللقب الواقع في الحديث مثل الوقف والإرسال. بل كان مِمَّن انتهت إليهم الرياسة في الرجوع في بيان المتن والتعليل، والاعتماد في طرق الجرح والتعديل، والعلم بالاصطِلاح، والقدرة على استخراج الضِّعاف من الصحاح، والاستحضار لأحاديث الصحيحين، وجل الكتب الستة. لا يعزب عنه من صحيح البخاري حرف ولا حركة ولا راو، ولا ما يتعلق به من اللغة وغيرها.

وكثيرا ما ينتزع مضمن أحاديثه من الآيات القرآنية، ويبين في كُلٍّ ترجمة أصلها من الكتاب، وهذه طريقة أهل العلم المستبحرين في العلوم.

قال رضي الله عنه، في شرح نظمه لاختصار مقدمة ابن حجر عند قوله:

[الطويل]

1) كـأنَّ كِـتـابَ اللهِ مَنْسـوجُ سُنْدُسٍ[272] ولَفْظَ رَسـولِ اللهِ طرزٌ مُـعلَّمِ

2) كـأنَّ كِـتـابَ اللهِ مـرقُـومُ عَـسْجَـدٍ ولَفْظَ رسـولِ اللهِ غَنْجُ مُنمْنمِ

ما نَصُّه[273]:

«كنت وأنا أدرِّس الصحيح، أبيِّن في كل باب أصله من الكتاب، فرأيتُ في النوم كأن في حِجري لوحًا أخضر، مُرَصَّعا بجواهر ترصيعا لا يُرى مثلُه، ولا أرى حَدًا للَّوح في الارتفاع إلى السَّماء، فأوَّلت اللوح بالكتاب، والجواهر المرصَّعة له بالأحاديث المبينة المكمِّلة لحسنه. ثم رأيت بعدُ كأن قرطاسا نزل من السماء، مكتوبا بالذهب بخط المولى، جل شأنا وعظم سلطانا، وقد أكمله النبي(ص)، بالغنج، فأخذتُه وبيدي قلم غَنج، فجعلت أتتبَّع هل ترك النبي، ﷺ حرفا منه لم يُكحِله، فلم أظفر به، فأوَّلت ذالك بذالك، لأن كتابة الذهب لا تتبين إلا بالغَنْج.» انتهى.

وفي أزهار الرياض[274]: «قال عبد الرحمان ابن القصير الغرناطي[275]: كان بعض من أدركته

[272]- البيتان في: ديوانه: 202، من قصيدة طويلة.

[273]- النص بعده في نفحة المسك: 5.

[274]- الأزهار: لم نقف على هذا النص بها.

من أهل العلم يقول: الحديث الصحيح اطلبوا لفظه أو بعض لفظه، أو معناه في القرآن، تجدوه».

وذكر ابن مرزوق[276] عن بعض شيوخه، أنه كان كثيرا ما ينتزع مضمن الأحاديث من الآيات. وقال، رحمه الله، حين ذُكِر له الصَّبر عند الصدمة الأولى. الحديث: إن نظره من القرآن قوله تعالى: «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.» هـ[277].

وقد كان الشيخ أبو الفيض، رضي الله عنه، شرع في تعليق على البخاري، مضمَّنه ذكر كلّ ما اتفق معه في إخراج حديث كلّ ترجمة، ومناسبة كلّ ترجمة لما قبلها وما بعدها، ومصداق كلّ حديث من الكتاب، ولعلك نلم ببعض من ذالك في روضة النِّسرين، فإن بالوقوف عليه، يُعتَرف بوجوب الرجوع إليه.

ثم استمرَّ الشيخ مشتغلا بالحديث وبغيره من العلوم السابقة، في وسائله ومقاصدها، على مثلى الطريقة، إلى أواسط العشرة الأولى من هذا القرن، وهو مُقيمٌ بالحرمين. أراد الله أن يتم بفضله أنوار شمسه، فجاءه الإذن الكريم بإقراء تفسير القرآن العظيم.

[الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الرباطي يبشره بتدريس التفسير]

كثيرا ما كان يخبر الوليّ الصّالح، العارف المُسِنّ البركة، أبو إسحاق، سيدي إبراهيم، المعروف بالرباطي[278]، بما معناه أنه رأى المصطفى، (ص)، في النّوم، وهو بالمدينة المنورة وقال: قل لفلان يقرأ التفسير بدار سلطان المغرب. ولم يكن الشيخ يرى من نفسه أهلية لذالك، ولا خطر له ببال. فلما رجع إلى المغرب عام ثمانية ومئتين وألف (1208/1793)، أمره مولانا

---

[275]- أبو جعفر، عبد الرحمان بن أحمد، فقيه غرناطي (ت 576هـ) ترجمته في: الأزهار: 3/15-16. الديباج: 1/486.

[276]- أبو عبد الله، محمد بن مرزوق التلمساني (ت 781هـ) ترجمته في: الإحاطة. 3/103-130 النفح: 5/390-418 الديباج. 2/290-296. تاريخ ابن خلدون. 7/528-532. البغية: 1/46-47. رقم 75 الدرر الكامنة: 3/360-362. رقم 957 النيل. 267-270. الدرة: 2/275-276. رقم 782 الجذوة: 2/225-227. رقم 194.

[277]- سورة البقرة: 177.

[278]- ترجمته في: الاغتباط: 241.

السلطان[279] بقراءته، فأثّر فيه حينئذ كلام الشيخ إبراهيم، وقويت الدواعي، وتهيأت الأسباب، ورأى بأمر الله العجب العُجاب، فأخذ في القراءة بحول الله وقوته، وحضره الشيخ إبراهيم، إلى أن ختمه مرارا، وبقي ملازما له إلى أن توفي الشيخ أبو الفيض.

[الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الرياطي]

وكان الشيخ إبراهيم رجلا عظيم القدر، عُمدة الأشراف، رأسا فيهم، صلبا في الحق، ليّن الجانب للمساكين، متين الدّين، يصوم الدهر، ويقوم من اللّيل، مع إدمان الذّكر، والتّلاوة والصّلاة على النبي، (ص)، يختم «دلائل الخيرات» في اليوم مرات، خاشعا خاضعا زوّارا للصالحين، محبوبا عند العارفين، ملازما للمسجد، وخصوص القرويين وضريح مولانا إدريس. لا يكاد يفارقهم عامة أوقاته.

زرته مرارا ودعا لي بما أرجو قبوله. وكان قبل موته رأى في منامه كأنه ذهب والشيخ أبو الفيض إلى الروضة المشرّفة، فدخل الشيخ إلى القبر الشريف، وانطوت عليه الأرض وبقي هو، ففُسّرَت له بموت الشيخ في عامه، وتأخيره هو. فلما توفي الشّيخ، خرج إلى المدينة المنورة، وبقي هناك إلى أن توفّي، رحمه الله.

[منهجه في التفسير]

وكان أخذ الشيخ في إقراء التفسير بوفق هذا الإذن الشريف بمسجد الرُّصيف الأكبر، ثم انتقل إلى القرويين في الكرسي الذي بظهر خَصّة العين. وعادته في إقرائه التّحرّي من نقص عمّا يُحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادة لا تليق بالغرض، ومن كون المفسر فيه زيغ عن المعنى، وعدول عن طريقه. ويراعي المعنى الحقيقي والمجازي، فيبتدئ بتحقيق الألفاظ المفردة، فيتكلم عليها من جهة اللغة، ثم الاشتقاق، ثم يتكلّم عليها بحسب التركيب، فيبدأ بالإعراب، ثم ما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع، ثم تبيين المعنى المراد، ثم أسباب النزول، ثم علم الحديث والأثر، ثم علم المناسبة، ثم الاستنباط، ثم الإشارات.

وناهيك به فيه، فكم من أسرار أبدى فيه. يكشف بكشّاف المعاني والبيان، عن مُخدّرات

---

[279]- السلطان المقصود هو المولى سليمان. (1206-1238).

النُّكَت الحسان، ولا يكتفي عن الإظهار بالإبراز في مضمرات دلائل الإعجاز.

ثم لا يُبقي ولا يدع في الاستدلال على أهل الأهواء والبدع، مستحضرا لما عورض به من الأبيات أو الأحاديث، وما قيل في ذلك، وما أُجيب به. لم يُرَ في عصره وما قبله، في قطره وما حوله، أبصرُ منه بمعاني الكتاب والسنة، ومأخذ الأحكام منها، ورجوع نتائج الكشف والفتح لمدلولهما، واستخراج منزع الصوفية منها، ولا أحسن تهديا منه إلى إشارتهما، ومواقع فصل القضاء بمقتضياتهما، ولا أمضى تنفيذا لفهمه فيهما. يتكلّم في كلّ منهما بما لم يُسبَق إليه، ويتعقب كلّ كلام من المفسّرين والشُّرّاح بما يظهر له، وما يُفتَح له فيه. يُقرِّر ذالك كلّه أحسن تقرير، ويُحَرِّرُه أكمل تحرير. وربما قال في آخر كلامه: اسمعوا هذا القول، فإنكم لا تجدونه في كتاب. يشير إلى أنه فتح من الله.

[استطراد في تزكية النفس]

وهذا ونحوه يصدر من المشايخ والعلماء، لا على طريقة الابتهاج والتبجُّح بما عندهم، بل ذالك تصريح بالحق، وإخبار بالواقع للتنبيه على الاعتناء بتلك المسألة، والدُّلالة على الأخذ عنه، والحرص على هداية الخلق لمصالحهم. وإنما ذالك يصح لمن سقطت نفسه من حينه، وتحقق بعدم المبالاة بإقبال الخلق وإدبارهم، وكن جاداً في هدايتهم وإرشادهم.

قال العارف بالله، سيّدي عبد الوهاب الشّعراني[280]: «قد أجمع المحققون على أنّه لا أعلى من تزكية الإنسان نفسه، وإن كان صادقا، لأنه يُخبر عن ذوق، وغيره إنما يخبر عن حسن ظنّ لا غير. فما فوق تزكية الإنسان نفسه إلا تزكية الله ورسوله. ومن هنا قالوا: سلام الله على يحيى أعلى من سلام عيسى على نفسه. أو يقال: ذاك من قبيل التحدث بالنعم، لأن التحدث به شُكر، كما ورد في الحديث: «إنَّ اللهَ إذا أنعَمَ علَى عَبْدٍ، أَحَبَّ أن يُظهِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ». ولذا قال (ص): «أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، ولا فَخْرَ» «أنا النَّبِيُّ لا كَذِبَ، أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ». وقال يوسف، عليه السّلام: «اجْعَلْني على خَزائِنِ الأرْضِ. إنّي حَفيظٌ عَليمٌ»[281]. وقال حسّان في الرّدّ

[280]- عالم صوفي مصري (ت 973هـ) ترجمته في: النشر: 1/57. السر: 48-49. الشذرات: 8/372-374.

[281]- سورة يوسف: 55.

على بني تميم[282]:

[الطويل]

1) هَبَلْتُمْ عَلَيْنا، تَفْـخَـرونَ وأَنْتُمُ لنا خَـوَلٌ مـا بينَ قِنٍّ[283] وخـادِمِ

وقال الشيخ عبد القادر[284]: «قدمي هذه على رقبة كلّ ولي». والحاصل أن كل ما ورد في الشرع أو كلام الأئمة مما صورته فخر، فالمراد به إمّا التحدث بالنعم، أو النُّصح لعباد الله.

[ثناء العلماء عليه]

هذا، وقد أثنى عليه في التبحر في علمي الظاهر والباطن، وبلوغ النِّهاية في الأدب، جماعة من العلماء الأعيان، كما سيأتي.

وناهيك بقول الشيخ القطب العارف بالله، أبي العباس، سيدي أحمد التيجاني[285] فيه، من رسالة بعثها لبعض أصحابه: إنه سيد علماء وقته، وأن أسأل الله، تعالى، أن يكتبه في ديوان السعداء، وأن لا يتصرف فيه مخلوق.

[تعريف أبي محمد، عبد القادر الكوهن به]

ولما عرّف شيخنا العلامة الصوفي، الشُّهير النَّفّاع، أبو محمَّد، عبد القادر بن أحمد الكوهَن[286]، بجماعة من أشياخه في فهرسته: «إمداد ذوي الاستعداد، لمعالي الرِّواية والإسناد» قال ما نصُّه:

«ومنهم شيخنا العارف بالله، القائم بسنَّة رسول الله، والمَمَدُّ بالمنح الإلاهية، والمواهب

[282]- ديوانه: 237.

[283]- ديوانه: 237: من بين ظئر.

[284]- عبد القادر بن موسى الجيلي الحسني. شيخ الطريقة القادرية (ت 561هـ). ترجمته في الطبقات الكبرى: 126-132. رقم 248. فوات الوفيات: 2/373-374. رقم 295.

[285]- شيخ الطريقة التجانية. (ت 1230هـ). ترجمته في: السلوة: 1/180-183. الشرب: 219-220 الشجرة: 1/378. رقم 1513. الموسوعة: 3/140-141. ولأبي الفيض حمدون ابن الحاج قصيدة طويلة في مدحه. ديوانه: 279-280.

[286]- عالم فاسي. (ت 1254هـ). ترجمته في: السلوة: 2/169-171. الشجرة: 1/397. رقم 1582 الفهرس: 1/490-493. مؤرخو الشرفاء: 244-245.

الاختصـاصية، الحائز قصبات السبق في المنقول والمعقول، الفائز بما لم يَحُم حوله سوابق الفحول، ذو النَّظم الرائق، والمعنى الفائق، أبو الفيض، حمدون بن عبد الرحمان بن حمدون، بن عبد الله بن محمد بن العربي، بن محمد بن محمد بن علي بن محمد، الشُّهير بابن الحاج السُّلَمِيّ المِرداسِيّ.

أخذت عنه، رضي الله عنه، التَّفسير بالبيضاويّ وبغَيرِه، وصحيح البخاري، ومسند أبي داوود، والشِّفا للقاضي عياض، والمواهب اللَّدُنِيَّة، والاكتفاء لأبي الربيع سليمان الكَلاعي، والحكم لابن عطاء الله، وميميَّته في السِّيَر، ووتْرِيَاته على نسق وِتْرِيَات البغداديّ، وهمزية البوصيري ومختصر السَّعد مرتين، بحاشيته عليه، والمَحَلِّيّ، ومختصر السَّنوسيّ في المنطق[287]، وهو يروي عن أشياخ من قبله».

إلى أن قال:

«كان الشيخ أبو الفيض حمدون، رضي اللّه عنه، ممن انتهت إليه الرِّياسة في جميع العلوم، واستكمل أدوات الاجتهاد على الخصوص والعموم. وأحرز قصبات السبق في مجال الاستنباط، وارتُبِطَت بذهنه العلل ومسالكها أيّ ارتباط، وانفرد بالمهارة والتَّبحُّر في جميع الفنون، وخصوصا التفسير والحديث، والتصوف المؤيّد بالكتاب والسنة، والأصلين وعلوم العربية.

مع الخشية والخضوع والوقار، والبكاء والاعتبار، والاستغراق في بحر العشق المحمّدي، والخبرة فيه بدلالة المهتدي والمقتدي، ومحبَّة أهل البيت، والانحياش لأهل الخير، الحيّ منهم والميت.

قرّط الآذان، وشنّف بجوهر ما قيده أو ألف. له حاشية على مختصر السعد».

إلى أن قال:

«يسلك في جميع ما يقرره كتابة أو إملاء، طريق التَّحصيل والتَّحقيق على الأئمة الأكابر. بل هو في ذلك كله آية الإعجاز في الصُّدور والأعجاز، مع أدب يزخر بحره، وتتزين به لبَّة الزمان ونحره، وسجيَّة خلصت خلوص التِّبر، ونفس سلمت من الخُيلاء والكِبر، وهمم أنافت على الكوكب، وكَرَم صاب كالغمام السَّاكب.

[287]- كلمة مستغلقة في الأصل.

[وفاته]

تُوُفِيّ، رحمه الله، عشية يوم الإثنين، سابع ربيع الثاني، عام اثنين وثلاثين ومئتين وألف (1232/1817م). ودُفِنَ عن يمين شيخه سيدي الطَّيِّب ابن كيران، بإذن أمر مولوي[288]. ومولده تقريبا سنة خمس وسبعين ومئة، بالإفراد، وألف[289] (1175/1760م)». انتهى.

[تحلية العربي الدمناتي له][290]

وجرى ذكره في إجازة كتبها لي ولبعض أصحاب شيخنا العلامة الرحلة، الأديب البرع اللّغويّ الكاتب، أبي المحامد، سيدي الحاجّ العربيّ الدّمناتي، فقال ما نصُّه:

«شيخُنا العلاّمة، الّذي فضله أكبر من ضياء النهار، ومجدُه المثل في الاشتهار. واسطة العقد بحضرة فاس، والإمام المنوَّه به في أرجائها الأرِجة الأنفاس، حتى استنارت به على ما سواها، وأحرز فيها الغاية وحواها، ونشر مطارف المعارف وما طواها، ونفّق للآداب بها سوقا بسقت فروعُها بُسوقا، وقلّد نحر العصر من عقوده دُرًا منسوقا، وتقدَّم إلى الخطابة بعد الإمامة، أطهر من ماء الغمامة، وأطيب من نبت الكمامة [[291]] آمادها، وأصبح من الصدور فؤادها، ومن العيون سوادها، وجلت [[292]] [293].

---

[288]– السلطان الحاكم يومئذ هو المولى سليمان.

[289]– كذا في ميم. وأما في باء، فقد سقطت كلمة «تقريبا» وجزم أنها سنة أربع وسبعين.

[290]– النص الآتي ثابت في أسفل الهامش بخط دقيق مدمج في ميم، سقط في ب ء.

[291]– كلمتان غير واضحتين.

[292]– كلمتان غير واضحتين.

[293]– سقط سطر غير واضح.

الباب الثاني

في سيرته السنية، وجمل من أخلاقه السنية

أقول:

كان الشيخ أبو الفيض حمدون ابن الحاج، رضي الله عنه، في موافقة الشريعة ومتابعة السنة آية، ممن وصل في التحافظ عليهما الغاية. قد حكّم السنة في نفسه وعياله، وجعلها شعاره في جميع أحواله، فحسنت لديه السِّير والشمائل، وعذبت فيه الشِّيم والفضائل، وطابق ظاهر سيرته وفعاله، باطنَ خلقه وخلاله، وتحقق بالإرث من رسول الله، والتحق بالسابقين من أهل حزب الله.

[البسيط]

1) لَوْ لمْ تكنْ آيةٌ لهُ مُبَيِّنَةٌ لكَانَ مَنْظَرُهُ يُنَبِّيكَ بِالخَبَرِ[294]

[سيرته]

فأما سيرته، فكان شديد الحزم والورع والتحفظ في الدين على التهمة فيه، شديد الحرص على مهماته، بعد القيام بواجباته، كله حزم وعزم. لا يحب التأويلات، ولايميل إلى ارتكاب الرُّخَص.

ويُعظم أمر الشرع، ويُحبّ موافقة السنة، وعدم الخروج عنها في شيء من الأشياء، ولو دعت إليه الضرورة، وكان لا بأس به، لأن الخير كله في الاتِباع، والشرّ في الابتداع، عاملا على ترك الحظوظ واللحوظ، دالاً غيره على ذالك أبداً. يؤدي الفرائض والسنن على أكمل وجه وأتمّ وصف، في سكينة وطمأنينة وأدب مع الله، عزّ وجلّ، صلاة الخاشعين العارفين أمثاله. لا تسل عن كثرة خشوع وخضوع وحُسن سَمت، ويُواظب على كثير من النوافل الواردة، وما يسّر

294- البيت في: شرح جسوس:9. محاضرة الأبرار: 204/2.
(مع خلاف في الرواية)

الله من زيادة بعد ذالك. ويقوم الليل ويحض على قيامه، ويرغّب فيه أتمّ ترغيب، وينشّط لها النفوس بأن ذالك الوقت تتنزّل فيه الرحمات، وتهبُ فيه عواطر النفَحات[295]، ويصوم، زيادة على الفريضة، الأيام الفضلة الذي ورد في الحديث الترغيب في صيامها، كيوم عرفة ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كلّ شهر، ورجب وشعبان.

ويواظب على تلاوة القرآن العظيم تلاوة تدبّر، من حفظه أو من المصحف الكريم. فكنت له سلكة يختمها كل شهر مع الحزابين، حزبٌ بالغداة وحزباً بالعشيّ على العدة. لا يدعه إلاّ لضرورة، وسلكة أخرى يختمها كلّ أسبوع، لورود الأمر به حسبما في الإحياء[296].

وكان يقرأ في المصحف مع جودة حفظه وحُسن أدائه، لما فيه من الفضل على القراءة عن ظهر قلب، لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فتجمع القراءة والنظر. كما قاله القضي حسين، وأبو حامد الغزالي، وجماعة من السلَف.

ونقل في الإحياء[297] أن كثيراً من الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يقرأون من المصحف، ويكرهون أن يخرجوا يومًا ولم ينظروا في المصحف.

وروى ابن أبي داوود القراءة في المصحف عن كثير من السلَف. قال النَّووي: ولم أر فيه خلافًا. فإذا كانت أيام الاستراحة من التدريس، كما هي العادة في العواشر، ربما ختم سلكة أخرى في يوم أو يومين، ويتهجَّد به نافلة، وطالما أقام مصلّيًا به الليلة الكاملة. وليست حالة الصحة كالسقم، ولا حالة الشبيبة كالهرم. ويذكر الله، عزّ وجلّ، في كل أحيانه من ليل ونهار، عند النوم واليقظة. لا تفارقه سبحته، ويحبّ الإكثار منه، ويحضّ عليه، ويقول: لكل شيء حدّ إلا الذكر، لقوله تعالى:« يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اذكُروا اللهَ ذِكْراً كَثيراً »[298] أي دائما أبدا. ويقول

---

[295]- بعده في الهامش بيتان ناقصان ولا يقرآن بوضوح: وما تبقى منهما هو: وينشد: طوبى لمن سهرت في وبات ذا قلق في حب. يشكو لي ربه ماقد. وم تحلل من بلوى. حتى كان لسان حل ـ....: الـ.. حلنا عن فراشي مسجده. نهاره وليله ما يرقده مفتدع».

[296]- الإحياء: 1/275-276.

[297]- الإحياء: 1/279.

[298]- سورة الأحزاب: 41.

يس، بعد كتاب الله، عبادة تُؤدّى باللسان، أفضل من الذكر ورفع الحاجات بالأدعية الصالحة إلى الله، لقوله تعالى: « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ »[299] وقوله: « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ »[300]، أيْ من كلّ عبادة سواه، أو من ذكرنا إياه، كما قال ابن عباس.

وكان يلازم الأذكار الواردة في السنة، في أوقات مخصوصة، كالذي بعد الفجر، وعند النوم واليقظة وغير ذالك[301]، وليس له وِرد معين يتقيّد به، سوى ما ذُكر مـ ورد جميعه في السنة، والاشتغال بأفضل الأذكار: لا إلاه إلا الله. محمد رسول الله.

وكان شديد الحرص على التّعلم والتّعليم، مكين الملكة في الاقتدار على التّفهُّم والتفهيم، ممن اختار الله له السلوك على طريقة الشّيخين، أبي محمد بن أبي زيد[302]، وأبي محمد، دَرّاس بن إسماعيل[303]، ونظرائهما من راسخي الأئمة، الذين كن أكثرهم هِجّيراهم نشر علوم الشريعة في هذه الأمة، إذ لادرجة فوق درجة التعليم، لحديث: «فَضْلُ العالِمِ على العابد، كَفَضْلي عَلى أَدْناكُم.» زاد في رواية: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّماواتِ وأَهْلَ الأرضِ، حَتّى النَّمْلَةُ فى جُحْرِها، والحيتانُ في الْبَحْرِ، يُصَلّونَ على مُعَلِّمِ النّاسِ الْخَيْرَ». أخرجه التِّرمذيّ، وصحّحه عن أبي أمامة.

وكان نشر علمه في ذالك لوجه الله، لا عمل من اتّخذ إلاهه هواه، فشكرَ اللهُ صنعه، وأدام إلى يوم الدين نفعه. وكان أجره لا ينحصر عدداً، وعمله لا ينقطع أبداً، لحديث: «مَنْ بَثَّ عِلْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُعْطِيَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِثْلَ رَمْلِ عالِجَ حَسَنَاتٍ، وكانَ لَهُ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ إِلى يَوْمِ

[299]- سورة البقرة: 152.

(*) كذا في الأصل.

[300]- سورة العنكبوت: 45.

[301]- بعده في الهامش بيتان ناقصان هما «أنت داخله. ل له الانفاس حراسًا.. لـ بيت فيه تدكره. حدن القلب غراسًا».

[302]- فقيه قيرواني كبير..(ت 368هـ) ترجمته في: الترتيب. 6/215-222. الديباج: 1/424-430. الشجرة: 1/69. رقم 227.

[303]- فقيه فاسي. (ت 357هـ) ترجمته في: الترتيب: 6/81 84. تاريخ العلماء. 1/264. رقم 432. بغية الملتمس: 278. رقم 738. الجذوة: 1/194-196 رقم 155. الينبوع. 1/49-50 .الشجرة. 1/103. رقم 263. السلوة: 2/175-179.

القِيامَةِ» وحديث: «مَنْ دَعَا إلى هُدى، كانَ لَهُ مِنَ الأجرِ مِثْلَ أجورِ مَنْ تَبِعَهُ، ولا يَنْقُصُ ذالك مِنْ أُجورِهِم شَيْئًا.» أخرجه مسلم.

[فائدة العلم والعمل به][304]

[الكامل]

1) اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تُؤْتَ[305] حُكْمًا[306] إنّما جَـدْوى عُلومِ المرْءِ نَهْجُ الأقْـوَمِ

2) وإذا الفَتى قدْ نالَ [عِلْمًا ثُمَّ][307] لمْ يَعْـمَلْ بِهِ [فكأنَّهُ لمْ يَعْلَمِ][308]

[لأن][309] الجاهل خير منه، لقوله في الحِكَم[310]: «العِلْمُ، إن [قارنَتْهُ][311] الخشية فلك، وإلا فعليك».

ولأبي القاسم ابن جُزَيّ الكَلْبي:[312]

[المتقارب]

1) وقـائِلَةٍ لِمْ هَجَـرْتَ التَّصـابي وَسِنُّكَ في عُنْفُـوانِ الشَّـبـاب[313]

2) يَمُـرُّ زَمـانُ الصِّـبـا ضـائِعـاً ولمْ تَلْهُ فـيـه بِبَـعْضِ اللُّعـاب[314]

[304]- البيتان لإبراهيم بن محمد التنوخي (ت726هـ). وهما في البغية: 1/425. الإحاطة 1/376. وما بعدهما وارد في طرّة ميم.

[305]- في الأصل: تورث.

[306]- الإحاطة 1/376. علما. البغية: 1/425: حكمة.

[307]- مابين معقوفين ساقط في الأصل.

[308]- مابين معقوفين ساقط في الأصل.

[309]- كلمة ساقطة في الأصل عوضناها بما يناسب.

[310]- شرح الحكم: 2/51.

[311]- سقط من الأصل. والتعويض من شرح الحكم: 2/51.

[312]- محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي. عالم أديب. (ت 741هـ) ترجمته في الديباج: 2/274-276. الكتيبة · 46-48. النيل: 238-239. الدرة: 2/117-118. رقم 566. الأزهار: 3/184-187. معجم المطبوعات: 76-77. رقم 191.

[313]- المقطوعة في: الكتيبة: 47.

[314]- الكتيبة: 47: ببيض الكعاب.

3) ولـمْ تَـدْرِ لَـذَّةَ طيبِ الهَـوَى — ولَمْ تَرْوَ مِنْ سَلْسَبِيلِ الرُّضَابِ

4) فَقُلْتُ: أبى العِلْمُ إلاّ التُّقى — وهَجْرَ المعاصي، وَوَصْلَ المَتَابِ

5) ومَنْ لَمْ يُفِدْهُ طِلاَبُ العُلو — م، رَجاءَ الثَّوابِ وَخَوْفَ العقابِ[315]

6) فَخَيْرٌ لَهُ الجَهْلُ مِنْ عِلمِهِ — وأنْجَى لَهُ مِنْ أليمِ العَذابِ

[و] لـ [أبي الفيض][316] من قصيدة[317]:

[الرمل]

1) واتَّقِ اللَّهَ فَبِالعِلمِ الفَتى — يَتَحَلّى بِرَجاءٍ وَوَجَلْ

2) جَهْلُهُ أنْجَى لهُ مِنْ عِلمِهِ — إن تَخَلّى عَنْ صَلاحٍ وَعَمَلْ

لكن، قال [بدر[318]] الدين القرافي[319]: «من عَمِلَ بِمَ عَلِمَ، فقد أطاع الله طاعتين، ومن لم يعلم ولم يعمَل، فقد عصى الله معصيتين. ومن علم ولم يعمل [بِ][320] علمه، فقد أطاع الله سبحانه طاعة، وعصاه معصية».

وقال القاشاني[321]: «من علم وعمل بعمله، ورّثه الله علم ما لم يعلم، وأثيب عى [...][322]، ومن علم ولم يعمل، أثيب على [...] عقوبة العصيان، بترك، [...]، ومن لم يعدم ولم يعمل عصى[323]. وأما من عمل بلا علم، فقال: عمه صحيح». انتهى.

315- البيتان الخامس والسادس في: الأزهار الطيبة: 20.

316- مابين معقوفين محو في الأصل.

317- البيتان في الأزهار الطيبة: 21. ديوانه: 180.

318- كلمة محوة في الأصل.

319- محمد بن يحيى. فقيه مصري. (ت 946هـ). ترجمته في: النيل: 342. مقدمة كتابه «توشيح الديباج».

320- زيادة لم ترد بالأصل. ليستقيم المعنى.

321- لعل المقصود هو كمال الدين، عبد الرزاق بن أحمد القشاني الصوفي مؤلف اصطلاحات الصوفية. (ت 730 أو 735هـ). ترجمته في: مقدمة كتابه المذكور.

322- جمل ساقطة.

323- جمل ساقطة.

[استطراد عن أجر المعلمين][324]

ويُؤخَذُ منه أنه إذا تعدد الداعون إلى الهدى ورُتِّبوا، فأجر الأول ضعف أجر الثاني، وأجر الثاني ضعف أجر الثالث، وهكذا.

كما إذا ترتّب عشرة من المعلمين، الأول علّم الثاني، والثاني الثالث، إلى العاشر، والأجر الذي للعاشر، وللثامن أربعة: أجر تعليمه التاسع، وأجر التاسع، وأجر العاشر، وهكذا إلى الأول، لكل ضعف ما بعده. ومثال ذلك:

1	2	4	8	16	32	64	128	256	512

هذا بيان للأجور بدون تضعيف، فإن اعتبرت التضعيف، فقدم على ما لكل واحد صفرا، فيكون للعاشر عشرة، وللأول أربعة آلاف ومئة وعشرون. هكذا:

[الكامل]

وَالمرءُ في ميزانِهِ أتْباعُهُ[325] ... فَاقْدُرْ بِهِ[326] قَدْرَ النَّبيِّ مُحَمَّدِ

[برنامج تدريسه لعلوم الدين]

أدركته، رضي الله عنه، في آخر عمره، يُقرئ صحيح البخاري في ضريح مولانا إدريس، بعد صلاة الصبح، ثم يقرئ مختصر خليل بالعَنْزَة من جامع القرويين، مع القيام على متداول

324- انتهى ما ورد بهامش الأصل وطرته.

*- ب «علم غيره، وإن للعاشر أجرا واحد بتعليم غيره، وللتاسع أجران، أجر تعليمه هو العاشر، والأجر الذي للعاشر...».

325- البيت في: الأزهار العاطرة: 74، منسوب لابن وفا. وهو في: ديوان البوصيري. 74. مع تغيير في الألفاظ.

326- الأزهار العاطرة: 74: بذا. ديوان البوصيري: 74: إذن.

شروحه، التَّتائي والخُرشي والزُّرقاني وحواشيهم، والحَطَّاب والموّاق، وشرح الشيخ جَسّوس، وكان يعتمده أفراد الأئمة المحصلين، والجهابذ المتبحرين العرفين، يعارض بين أدلته، ويُرجِّح ويُضعِّف في أقواله، ويُصَحِّح ويُبَيِّن أصل كلّ سورة من سُوَره من الكتاب والسنة.

ثمّ يُقرئ بين الظهرين «تلخيص المفتاح» في المعاني والبيان، بشرحيه المطوَّل والمختصر، وحواشيهما، إقراء ذي المَلَكَة الراسخة في الحقيقة والمجاز، المتمسكة من أسرار البلاغة بدلائل الإعجاز.

ثم يُقرئ بعد صلاة العصر التَّفسير بالبيضاوي وحواشيه: الشيخ زادة والأسيوطي وزكرياء، مع مراجعة الكشاف وحواشيه: الطِّيبيّ والسَّعد وزكرياء، ومخرِّج أحاديثه ومختصراته كأبي السعود، وكان يعتمده ويبتهج بذكره، وابن كمال باشا، والنَّسَفي، ويراجع النَّيسابوري، وابن عرفة وابن عادل، والثَّعلبي، وابنَ كثير، والبِقاعي، وأحكام ابن عَرَبي، والوَرتَجيبي. وكان يحضره جماعة من أشياخنا، انتهت إليهم الرياسة في معرفة مواد الأقيسة ومسالك العلل، وقوة الإدراك في مضائق الاستنباط، مع تمام الملكة وثقوب الذِّهن، وصدق التوجه بارتجال الفكر، إلى سرعة الوعي مما يُملي عليهم.

ثمّ يُقرئ بين العشائين التَّفسير أيضا، يحضره جماعة من العلماء، وعامة الطلبة، بيد أنه لم يتقيد بتفسير ولا تعليق، بل يذهب حيثما ذهب التحقيق.

[أخلاقه وسلوكه]

وكان يحفظ جوارحه مما نهى الله عنه، فيُعرض عن اللَّغو وما لا يعني، ويصون عنه لسانَه، ولا يسمع الباطل، ولا يقدر أحد أن يذكره بحضره.

[327]وينشد قول القائل:

[المتقارب]

1) وسَمْعَكَ صُنْ عَن سَماعِ القَبيحِ　　　كَصَوْنِ اللّسانِ عَنِ النُّطقِ بِهِ[328]

[327]– هذا النص وارد في أعلى الهمش بالأصل ميم، ساقط في النسخ الأخرى.

[328] البيت الأول في: حاشية المؤلف، 126/2. والبيتان معا في: شرح الشريشي: 116/3. (مع خلاف في الرواية).

2) فَـإِنَّكَ عِنْدَ سَمَـاعِ القَبِيحِ   شَـرِيكٌ لِقَـائِلِهِ فـانْتَبِـهِ

وقول الآخر:

[مجزوء البسيط]

1) الأُذْنُ كَـالوَرْدَةِ مَـفْـتُـوحَـةٌ   فَـلا تُمِـرَّنَّ عَلَيْـهـا الخَنَا

2) فَـإِنَّهُ [329] خَـفِـيـفَـةٌ   فـاحْـذَرْ على الوَرْدَةِ أن تَنْثَنِيَا

يُحذِّر عن الغَيبة غاية التُحذير، ويُنفِّر منها غاية التنفير، ولا يُذكر عنده أحد بسوء، إلاّ أن يكون على سبيل الشكاية ورفع المظلمة، بل كان ينام عن عيوب الخلق نوماً مثل نوم الفَهد أو عبود، بترك البحث عن تحقيق مظنونه، والإغضاء عن الموجود، ويقول: الإغضاء عن عيوب الناس مطلوب، وسترها مُرَغَّب فيه محبوب، فكما يرغب الإنسان في ستر عيوب نفسه، يُطلَب منه ستر عيوب أبناء جنسه.

نعم كان أبصر من الهُدهُد وزرقاء اليمامة. يحقّق عيب نفسه الذي طوّقه طوق الحمامة، لأنَّ من أبصر عيب نفسه، شغله عن عيوب الناس. ومن عَمِيَ عنه، تفرَّغ لعيوبهم، وانغمس في البحث عنها وإذاعتها أيَّ انغماس.

لا يحبّ الإكثار من الحَلف بالله، مخافة الوقوع في الحنث، ويقول. ينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه عند إرادة الحلف قول «إن شاء الله»، مخافة أن يعقد اليمين فلا يفي، أو يحنث فلا يكفّر.

وجلّ ضحكه التَّبسُّم، فإذا زاد عليه لم يُقَهقِه، ولا يُحِبُّ الإكثار منه، وينهى عنه، لأنه يُميت القلب، ويكره الهزل والمشتغل به، وكثرة الممازحة في الأمور.

ويطلب الخمول والخفاء أبدا، ولا يُحِبُّ الظهور، ولا يتظاهر أو يتميز بشيء، كما يأتي في زهده.

ولا يُحِبُّ الإكثار من ملاقاة الناس، ولا الخوض معهم فيما هم فيه من أمر دنياهم[330].

[329]- سقط بالأصل، ولم نهتد إلى الإصلاح.

[330]- النص التالي وارد في طرة ميم، ساقط في غيره.

ويذكر قول بعض الحكماء: «[الخمول نعمة][331] والنفس تأباه، والظهور نقمة، [والنفس][332] تهواه».

وينشد قول الحضرمي[333]:

[البسيط]

1) عِشْ خاملَ الذكْرِ بين الناس [وارضَ به][334] فَـــذاكَ أسْلَمُ للدُّنيـــا وللدِّين[335]

2) مَنْ عـاشَـرَ النَّاسَ لمْ تَسْلَمْ ديانَتُـهُ ولَمْ يَـزَلْ بَيْـنَ تَـحْـــريكٍ وتَسْكينِ

ويتحرى الصِّدق في حديثه، ويحضُّ على تحرّيه، ولأجل اتصافه به وعدم المبالاة برضى الخلق ولا بسخطهم، كان لا يبالي بما يقول إذا كان حقا، ولو كره ذالك من كرهه، ولا يعتبر كيف يراه الخلق، ولا على أيِّ حالة يكون. شديدَ الإقدام على السُّلطان في الحق، كالنصيحة المأمور بها، وتعمير الثّغُور، والإحسان إلى ذوي العلم والأشراف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيما يرتكبه الولاة من الجور على الرعايا. كلمته في ذالك كلّه مسموعة مقبولة، لا يُضاهى جاهُه الرَّفيع، ولا يكون مقبولا مثله عند الجميع.

وكان يُحِبُّ أولياء الله الصالحين، من المجذوبين والسّالكين، ويستنزل الرحمات بذكرهم في المحافل، غير أنه لا يكتفي منهم بمجرد الدعوى عن ثبوت الفضائل، إذ لم يكن ممن يُخدَع بحال، ولا بإمّعة في الرِّجال. لقي من أكابر الأولياء الآتي ذكر بعضهم عِدَّةً، ممن كانوا في الوقت لمداواة القلوب عُمدَة، فألقى إليهم السَّلم، وآوى إليهم في الاغتراف من بحر الكرم، فعرفوه ولم يجهلوه، وقبلوه وعمَّموه بالفضل والإحسان، وشفعوا علمه بالعرفان، حرص على كمال إنسانيته بالجمع بين صلاح سِرِّه وعلانيته، حتى كان الإنسان الكامل الذي لا يُؤثِّر فيه العلل.

[331] – محو في الأصل. عوضناه من الإيقاظ: 27.

[332] – محو في الأصل. عوضناه من الإيقاظ: 27.

[333] – نسب البيتان عرضا في الورقة الأولى من المجموع 504 بالمكتبة العامة بتطوان إلى من سمى ابن عقبة.

[334] – محو بالأصل. والبيتان في: الإيقاظ: 27. تحفة الإخوان: 260، وبهما انتهى ما في الطره.

[335] – تحفة الإخوان: 260: في الدنيا وفي الدين.

إذا رأيتَه ذكرت اللّه، وأُنسيتَ ما سواه، واستيقظت لأول وهلة، وانقشعت عنك سحائب الغفلة، ووجدت بقلبك تعظيما وإجلالا وتكريما، فإذا جالسته تداركتك لمحاته، وسَرَت إليك نفحاته، وعَلِقَ بك طيبُه الفائح، وعلمتَ أنه الجليس الصالح. لا يخيب من فوائد أو حكمٍ جليسُه، ولا يعدم شيئا من الخيرات أنيسُه[336]. وكان يحب السُّنّة واتّباعه، وعدم الخروج عنه في شيء من الأشياء، ولو دعت إليه الضرورة، والاقتداء بالرسول (ص)، في جميع موارده ومصادره، ويذكر قول الجنيد[337]: «الطرق كلُّها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر رسول الله (ص)»، وقول ابن عطاء الله: «من ألزم نفسه آداب الشريعة، نوَّر الله قلبه بنور المعرفة. ولامقام أشرف من متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله».

[فوائد تعليم السيرة النبوية عنده]

ومن أجل هذا، كان كثيرا ما يَحضُّ على تعليم علم السِّيَر، بمطالعة كتبه وممارستها، ويذكر أن له فوائد:

منها أن معرفة صفته، صلى الله عليه وسلّم، تهدي إلى الطريق، لقول الغزالي[338] في كتاب الأربعين[339] «اعلم أن مفتاح السُّعادة [في] اتِّباع السُّنّة، والاقتداء برسول الله، صلى الله عليه وسلم، في موارده ومصادره، وحركاته وسكناته، حتى في هيئة أكله وقيامه وكلامه. فَبِهِ يحصل الانتفاع المطلوب، كما قال تعالى: «قُلْ إِنْ كُنتُم»[340] إلخ... وقال: «ما أتاكمْ

---

[336]- بعدها في ميم عبارات مضروب عليها، غير أنها ما تزال مقروءة وهي: «وكثيرا ما كان يرى النبي (ص) في عالم نومه، ويستمد من [مدده]. ومرائيه له (ص) كثيرة كان أخذ بقيدها في مبدإ الظهور ثم كفّ ذلك بعد أن قيد منها جملة وافرة قال رضي الله عنه: «رأيت النبي (ص) مرارا وأما».

وفي الطرة عبارات مضروبة تكمل ما سبق هي: «وكان لا يرى رؤيا إلا ظهر مصداقها ولو بعد حين لأن رؤيا الإنسان الصادق تدل على ما ينتهي إليه أمر[ه] في الغالب، كما قالت عائشة: «أول ما بدئ به رسول الله (ص)، من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

[337]- أبو القاسم الجنيد بن محمد، الصوفي المشهور، (ت 297 أو 298هـ) ترجمته في: الروض، 1/373-375، رقم 144. الطبقات الكبرى: 1/84-85، رقم 164. الرسالة: 18-20.

[338]- ينقل المؤلف هذه الفوائد من شرح العقود: 1/23-24، مع بعض الاختصار.

[339]- كتاب الأربعين: 89-90، مع تصرف كبير في النقل بالاختصار.

[340]- سورة آل عمران: 31.

الرَّسولُ فخذوهُ»[341]. فعليك أن تتسرول قاعدا، وتتعمَّم قائما، وتأكل بيمينك، وتُقَلِّم أظفارك، وتبتدئ بمسبحة يدك اليُمنى، وتختم بإبهامها، وفي الرِّجل تبتدئ بخِنصَرِك اليُمنى، وكذلك في جميع حركاتك وسكناتك، فقد كان محمد بن أُسْلَم[342] لا يأكل البِطيخ، لأنه لم تُنقل كيفية أكل رسول الله (ص). فلا ينبغي أن يتساهل في مثل ذلك فيقول: هذا ما يتعلق بالعادات فلا اتِّباع فيه، فإنَّ ذلك يُغلِق عنك بابا عظيما من أبواب السَّعادة».

ومنها[343] أنَّها تملأ القلوب بعظمته، (ص)، لما تُطلع عليه من محاسن الخَلق والخُلُق، وجميع الأفعال، وبسط جاهه عند الكريم المتعال، واستعظامُه سبب لاِستعظام الشرع، الأصل منه والفرع، [لأن حرمة الكلام عند المخاطب، على قدر حرمة المتكلِّم به][344]، واستعظامُ الشَّرع موجِب للجري على ما يقتضيه، وتقديمه على ما تشتهيه النفس وترتضيه. وهو معنى الانقطاع إلى الله، الَّذي لأجله خلق الإنسان وسَوّاه. وذالك من فوائد ذكر تنويه الله بقدره، في غير ما آية من مُحكَم ذِكره. وهذا من فوائد افتتاح الكتاب العزيز بالفاتحة، المتضمِّنَة للثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن منه، تعالى، المبدأ، وإليه المرجع والمنتهى، وبه البقاء، حتى يكون لأوامره ونواهيه تعالى موقع عظيم في القلوب، وتأثير عجيب في النفوس، فإن تعظيم الأمر والنهي على قدر معرفة عظمة الآمر والناهي.

ومنها[345] تضمُّنها معرفة كيفية الارتقاء إلى حضرة القدس، على سُلَّمَي الصَّبر والشُّكر، الرافعي الرأس. وذالك أنها تُطلع على بعض ما أدَّبه به مولاه من جميل صبره، في المواطن التي تنحلُّ فيها العُرى، وجزيل شكره، التي لا يحيطُ به خُبرا. وذالك من فوائد ذكر ما لَقِيَ من المشركين منذ بعثته إلى هجرته، وما لقوا منه بعد هجرته إلى حلوله بروضته، ولو حمل ذلك

---

[341]– سورة الحشر: 7.

[342]– الطوسي. صوفي مشهور. (ت 226هـ) ترجمته في: لوافي: 2/204. رقم 583. الطبقات الكبرى: 1/63. رقم 112.

[343]– النص في: شرح العقود: 1/25. مع بعض الاختصار.

[344]– زيادة من المؤلف.

[345]– النص في: شرح العقود: 1/25-26. مع بعض الاختصار للأسانيد.

على طريقتي الغزالي والشاذلي، لكان لذالك وجه وجيه.

ومنها[346] تضمُّنها معرفة حُسنه وإحسانه، وذالك وسيلة إلى محبته، لأن أسباب المحبة، وإن تكاثرت، فمدارها على أمرين: الحُسن والإحسان، لأن النفس مجبولة على الميل إلى الحسن، كما أنها مجبولة على حب المحسن إليها، ولا حُسْن ولا إحسان يماثلان حُسنه وإحسانه، (ص)، إذ كلّ نعمة وبركة، قلّت أو جلّت، فمنه حصلت، وعلى يديه وصلت، ومنه كانت محبته شرط في الإيمان، وكمالها شرطَ كمال له. والمحبة له، (ص)، سبب للنجاة من النار، وللمَعيَّة، لخبر. «ما اختَلطَ حُبّي بِقَلْبِ أحَدٍ فأحَبَّني، إلا حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلى النّار». وخبر: «المرءُ معَ مَنْ أحَبَّ». قال تعالى: «وَمَنْ يُطِعْ» إلخ[347]، وعلامة حب الله.

رُوي عن الحسن[348] أن قوما قالوا: يا رسول الله، إنا نحب الله، فأنزل الله: «قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ»[349]، أي ليس الشأن أن تكونوا مُحِبّين، بل أن تكونوا محبوبين. واتباعه، صلى الله عليه وسلم، يثمر المحبوبية للعبد من الله، تعالى، كما قال: «يُحْبِبْكُمُ اللّهُ»[350]، وهي أشرف المقامات وأعلاها. قال بعضهم: ظهرت هنا منزلتان لكريمين. قال إبراهيم: «فَمَنْ تَبِعَني فَإنَّهُ مِنّي»[351]. وقال سيدنا محمد: «فَاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللّهُ»[352] وذالك من فوائد خَلقه وخُلُقه، وامتنان الله ببعثته، والأمر بالاقتداء به.

ومنها[353]، وهو ثمرة ما قبله، تشخُّص صورته الشريفة، وطلعته المنيفة، لأن الطالب إذا عَظُمت رغبته في شيء، يكثر تصوُّره إياه، فربما يُخيَّل إليه حاصلا، لما تقرر أن الاتصال

[346]- النص في: شرح العقود، 1/25-26. مع بعض الاختصار للأسانيد.

[347]- سورة النساء: 13.

[348]- أبو سعيد، الحسن البصري، الفقيه الزاهد، (ت 110هـ) ترجمته في: الوفيات، 2/69-73 رقم 156 الطبقات الكبرى: 1/29-30، رقم 33.

[349]- سورة آل عمران: 31.

[350]- سورة آل عمران: 31.

[351]- سورة إبراهيم: 36.

[352]- آل عمران: 31.

[353]- شرح العقود: 1/26.

الروحاني كثيرا ما يُتَوَهَّم أنه جسماني، وذالك معين على رؤيته نوما ثم يقظة، فيحصل لمشاهده بفكره من الأسرار والأنوار ما لا يُكَيَّف.

قال الشيخ أبو الفيض في شرح الميمية[354]: «بل نقول: النبى (ص) جليس ذاكره، لأنه متخَلِّق بخُلُق مولاه. وفي الصَّحيحَين من حديث أبي هُرَيرة: «هُمُ القومُ لا يشقى جَليسُهُم بِهِم» وما نالوا ذالك إلاّ بمدده السّاري فيهم. وفي صحيح مُسلم: «لَوْ تَدومونَ كمَا تكونونَ عِندي، لصافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ في الطُّرُقِ».

ولنا[355] في هذا[356]:

[البسيط]

1) لِذاكــري اللهِ والرَّســولِ أيُّ غِنى	يُغني وَلِلغــافلين أيُّ إفــلاسِ
2) اللّهُ، جَلَّ عُلى، جَليسُ ذاكِــرِهِ	كَما أتى في الحَديثِ الثّابِتِ الرّاسي
3) وَحـاجِبٌ لَهُ مِنْ شَـرِّ القَـرينِ كَـمـا	بِسورَةِ «النّاسِ» فاحَ فَوحَـةَ الآسِ
4) وَمَـنْ يَـكُنْ رَبُّـهُ هُوَ الجَليسَ لَـهُ	أنّى لإبليسَ سَوْمُـهُ بِوَسْـواسِ؟!
5) كَـذالِكَ المُـصطفَى جَليسُ ذاكِرِهِ	وحــاجِبٌ لَهُ مِن دونِ البــاسِ
6) أليسَ ذاكِـرُهُ مُسْتَحْضِراً لَهُ في	ذِكْـرٍ يَراهُ جَليسًـا بَيْنَ جُـلاّسِ
7) "ولَوْ تَدومـونَ صافَحَتْ مَلائِكَةٌ"	إيناسُ حَـجْبٍ لَهُ، وأيُّ إيناسٍ؟!
8) بلْ ذِكْـرُهُ عينُ ذِكْـرِ اللهِ لا تَكُ في	ذِكْـرٍ لَهُ بِالغـافِلِ النّاسي
9) وَقُلْ: «أعوذُ بِرَبِّ النّاسِ» أيْ مَلِكِ الـ(م)	ـنّاس، إلاهِهِمْ مِنْ شَـرِّ وَسْـواسِ
10) وَسْواسٍ خَنّاسٍ الّذي يُوَسْوِسُ في	صُـدورِ ناسٍ مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ

ومنها: وهو نتيجة الثَّمرة قبله، أخرج التِّرمذي وقال: حسن، عن زيد بن ثابت رفعه: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنّا[357] حَديثًا فَحَفِظَهُ حَتّى بَلَّغَهُ غَيْرَه، فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقيه».

[354]- شرح العقود: 26/1.

[355]- ما يزال المؤلف ينقل من شرح العقود: 27/1. والقصيدة في ديوان حمدون: 325.

[356]- ما يزال المؤلف ينقل من شرح العقود: 27/1. والقصيدة في ديوان حمدون: 325.

[357]- شرح العقود: 27/1: «مني».

وقوله: «مِنَّا» لا يستلزم المشافهة، بل يشمل ما كان بواسطة، بدليل رواية أبي داوود وغيره عنه، ورواية التِّرمذي وغيره عن ابن مسعود: «نَضَّرَ اللهُ عبداً سَمِعَ مقالتي فوعاها، وَحَفِظَه ثُمَّ أدَّاها إلى مَنْ لَمْ يَسْمَعْها». الحديث.

وقد دلَّ على المفازة بهذه الدَّعوة الجليلة المبشِّرة بما في قوله، تعالى: «تَعْرِفُ في وُجوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعيمِ»[358] وقوله تعالى: «وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ»[359] إلخ..

وفي نَفْح الطِّيب[360]: «قال القاضي أبو بكر ابن العربي[361]: قال علماء الحديث: ما من رحل يطلب الحديث إلاّ كان على وجهه نَضْرَة».

وإلى هذا أشار أبو العباس العَزَفي[362] بقوله:

[الكامل]

1) أهلُ الحديثِ عِصابةُ الحَقِّ[363]	فازوا بِدَعْوَةِ سَيِّدِ الخَلْقِ
2) فَوُجوهُهُمْ زُهْرٌ مُنَضَّرَةٌ	لألاؤُها كَتَلألُؤِ البَرْقِ
3) يا لَيْتَني مَعَهُمْ فَيُدْرِكَني	ما أدْرَكوهُ مِنَ السَّبْقِ

وهذا من أجل حُدوثه من تلك اللذات المنيرة، فما بالك مما كان من متعلَّقاتها وخصائصها ووقائعها الشهيرة؟!

ومنها[364]، أنها تُنَعِّم القلب واللِّسان والسَّمع بأوصاف الحبيب (ص). وذالك ضرب من

358- سورة المطففين: 24.

359- سورة القيامة: 22.

360- النفح: 36/2.

361- الفقيه المالكي الإشبيلي المشهور. (ت 543هـ). ترجمته في: الرايات: 44. المُغرب: 254/1-255 المرقبة: 105-107. الأزهار: 86/3-95. بغية الملتمس: 82-88. رقم 79. النفح. 25/1-43 الدِّيباج: 252/2-256. الوفيات: 296/4-297. رقم 226.

362- فقيه مُحَدِّث سبتيّ. (ت 633هـ). ترجمته في: النَّيل: 63. الوافي: 349/7. رقم 3339، ومواضع متفرقة في الأزهار وبرنامج التُّجيبي ومَلء العَيْبة والنَّفح وتاريخ ابن خلدون.

363- القطعة في: النفح: 36/2. الأزهار الطيبة: 149. نفحة المسك: 35.

364- شرح العقود: 28/1.

الوصال، ووجه من وجوه القرب والاتصال، وجابرٌ لشيء مما فات من رؤية البصر، واجتماع الصُّوَر.

قال في الشّفاء[365]:

«ومن علامة محبة النبي (ص)، كثرة ذكره له، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره»[366].

قال الشاعر[367]:

[البسيط]

1) يـ وارداً مِنْ أَهْيْل الحيّ يُخبِـرُني ... عَن حيرتي، شَنِّفِ الأسماعَ بِالخَبَر

2) ناشَدْتُكَ اللَّهَ ياراوي حَديثِهمو ... حَدِّثْ، فَقَد نابَ سَمعي اليَوْمَ عَنْ بَصَري

[368]**وقال البوصيري**[369]:

[الخفيف]

1) فَتَنَزَّهْ في ذاتِهِ وَمَعـانيـ ... ـهِ اسْتِماعًا، إِنْ عَزَّ مِنْها اجْتِلاءُ

2) وامْلإِ السَّمْعَ مِنْ مَحاسِنَ يُمْليها ... عَلَيْكَ الإِنْشادُ والإِنشاءُ[370]

وقال الشيخ أبو مَدْيَنَ الغَوث، رضي اللّه عنه[371]:

[الطويل]

1) ونَحْيَى بِذِكراكُم[372]، إِذا لَمْ نَراكُمُ ... أَلا إِنَّ تَذْكارَ الأَحِبَّةِ يُنْعِشُنا

2) فَلَوْلاَ مَعَانيكُمْ تَراها قُلوبُنا ... إذا نَحْنُ أَيْقاظٌ، وفي النَّوم، إِنْ غِبْنا

[365]- الشفا، 572/2.

[366]- الشفا: 572/2. «أكثر ذالك».

- قطع المؤلف النقل عن شرح العقود مؤقتا.

[367]- البيتان في: شرح جَسّوس 7. والنقول الشعرية الأتية تنظر عموما إلى شرح جسوس: 8.

[368]- انتهى الاستطراد، وعاد النقل إلى: شرح العُقود: 28/1.

[369]- ديوانه: 57.

[370]- انقطع النقل عن شرح العقود.

[371]- الأبيات في: تُحفة الإخوان: 10. شرح جَسّوس: 7.

[372]- تحفة الإخوان: 10: ذكركم.

3) لَمُتْنَا أَسَى مِنْ بُعْدِكُمْ وَصَبَابَةً   وَلَكِنْ فِي المَعْنَى مَعَانِيكُمْ مَعْنْ

وقال[373] ابن الجَزَرِي[374] في كتاب الشُّمائل[375]:

[الطَّويل]

1) أَخِلَّأيَ، إن شَطَّ الحَبِيبُ وَرَبعُهُ   وَعَزَّ تَلاقِيهِ، ونَاءَتْ مَنَازِلُهْ

2) وَفَاتَكُم أن تَنظُرُوهُ بِعَينِكُمْ   فَمَا فَاتَكُم بِالسَّمْعِ هذي شَمَائِلُهْ

وقال بعضُهم فيه أيضا[376]:

[الكامل]

1) يا عينُ، إن بَعُدَ الحَبِيبُ ودارُهُ   ونَأَتْ مَرَابِعُهُ وَشَطَّ مَزَارُهُ

2) فَلَقَدْ ظَفِرْتِ مِنَ الحَبِيبِ[377] بِطَائِلٍ   إِنْ لم تَرَيْهِ، فَهَذِهِ آثَارُهُ[378]

وقال العارف بالله، الشَّهيد سَيِّدي عبد السَّلام جَسُّوس[379]:

[الكامل]

1) عَلِمَتْ مَحَاسِنُ أَحمدَ لَمَّا اخْتَفَتْ   فَقْدَ التَّصَبُّرِ مِنْ رَقِيقٍ مَائِلِ

2) فَبَدَتْ وَأَبْدَتْ لِلعِيَانِ شَمَائِلاً   فَإِذَا المَحَاسِنُ كُلُّهَا بِشَمَائِلِ

وقال ابن الفارض[380] رضي اللهُ عنه[381]:

373- رجع النقل إلى شرح العقود: 1/28.

374- شرح جسّوس: 7. ابن الجزيري. شرح العقود: 1/28. ابن الجزري.

375- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 189. شرح العقود: 7.

376- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 195. فتح المتعال: 190 (منسوبان إلى حلال الدين ابن خطيب داريا عن بدائع الزهور).

377- فتح المتعال: 190: الزمان.

378- انتهى الاستطراد، ورجع النقل إلى شرح العقود: 1/28.

379- البيتان في شرح جسوس: 7.

380- أبو حفص، عمر بن علي. شاعر صوفي. (ت 632هـ) ترجمته في: الوفيات: 3/454-456 رقم 500. الشذرات: 5/140-150.

381- شرح العقود: 1/28. «ولله ابن الفارض إذ قال».

[البسيط]

1) حَـديثُـهُ أو حَـديثٌ عَنْهُ يُطرِبُني[382] هذا، إذا غـابَ، أو هذا إذا حَـضَـرا

2) كِـلاهُـمـا حَـسَنٌ عِندي أُسَـرُّ بِهِ لكنَّ أحـلاهُـمـا مـا وافَقَ النَّظَرا

وقال أيضا[383]:

[الطويل]

1) أُدِرْ ذِكْـرَ مَنْ أَهْوَى، وَلَوْ بِمَلامِ فَـإِنَّ أحـاديثَ الحَـبيبِ مُـدامي[384]

وأصل هذا المعنى لبشار إذ قال[385]:

[البسيط]

1) يا قَـوْمِ أُذْني لِبَعْضِ الحَيِّ عـاشِقَـةٌ وَالأُذْنُ تَعْـشَقُ قَـبلَ العَـيْنِ أحيـانا

2) قالوا: بِمَنْ لا تَرى تَهْذي، فَقُلْتُ لَهُمْ: الأُذْنُ كَالعَيْنِ توفي القَلْبَ ما كانا[386]

وهذا أيضا يجري بالنِّسبة إلى الرب، عز وجل. وفي الحِكَم[387]: «أمرك في هذه الدَّار».

ومنها أن سعينا فيها، الذي هو من نتائج حُبِّه وعلامتِه، إذ من علامة حُبِّه التَّجَسُّس

على أخباره:

[الطويل]

1) وَمـا شَـرِبَ الإيمانَ إلاَّ فُـؤادُ مَنْ بِأخبـارِ خـيـرِ الخَلْقِ قَـدْ مَـلأَ الأُذْنا

ثناء عليه، وتحبُّب إليه، وذلك تَعَرُّض لنفحات إحسانه، واستمطار لسحائب امتنانه، إذ لا

ريب في أن مدح الأفاضل تَعَرُّض لإحسانهم الهاطل[388].

---

[382]- ديوانه: 183. الأزهار الطيبة: 196.

[383]- شرح العقود: 28/1: «وقال».

[384]- ديوانه: 162. الأزهار الطيبة. 196 وقد انقطع نقل المؤلف مؤقتا.

[385]- ديوانه: 217-218.

[386]- انتهى الاستطراد، ورجع النقل إلى شرح العقود: 28/1.

[387]- شرح الحكم: 89/1. الإيقاظ: 167-176. 465.

[388]- بعده في شرح العقود: 28/1: «ولأمية بن أبي الصلت. أأذكر حاجتي» إلخ. ولم يذكر البيتين.

قال أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلت، رضي الله عنه[389]:

[الوافر]

1) أأذكُرُ حاجَتي، أمْ قَدْ كَفاني[390] حَياؤُكَ، إنَّ شيمَتَكَ الحَياءُ

2) إذا أثنى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا كَفاهُ مِن تَعَرُّضِهِ الثَّناءُ

وفيه أيضا انتساب له، صلّى الله عليه وسلم، واستناد إليه، واحتماء به، وتمنُّع وتحصُّن[391].

قال الشّيخ العارف بالله، سيِّدي عبد الوهّاب الشّعرانيّ [رضي الله عنه][392] «ما في الوجود من جعل الله تعالى، له الحَلّ والرَّبط، دُنيا وآخرة، مثل النّبيّ (ص)، فمن خدمه على المحبّة والصّدق والوفاء، دانت له رقاب الجبابرة، وأكرمه جميع المؤمنين، كما ترى ذالك فيمن كان مُقرَّبا عند ملوك الدُّنيا. ومن خدم السَّيِّد، خدمته العبيد. وكما أن غلام الوالي لا يُتعرّضُ له إذا سَكِر مثلا، إكراما للوالي، فكذا خُدّام النّبيّ، (ص)، لا تتعرّض له الزّبانية يوم القيامة، إكراما لرسول الله (ص)، فقد فعلت الحماية مع التقصير، ما لا تفعله كثرة الأعمال الصالحة، مع عدم الاستناد لرسول الله (ص)، الاستناد الخاصّ». انتهى.

وللشيخ ابن زكري في همزيته[393]:

[الخفيف]

1) وإذا ما الجَنابُ كانَ عَظيمًا مُدَّ منْهُ لِخادِميهِ لِواءُ

2) وإذا عَظُمَت سِيادةُ مَتبو عٍ أجَلُّ أتباعَهُ الكُبَراءُ[394]

وله أيضا من قصيدة[395]:

---

[389]- شاعر جاهليّ ترجمته في: الشّعر والشعراء: 2/369-372. طبقات ابن سلام: 66-68.

[390]- البيت الأول في طبقات ابن سلاّم: 67.

[391]- أسقط المؤلف، بعدما سبق، نصّا صغيرا ورد في شرح العقود: 1/28.

[392]- زيادة من المؤلف.

[393]- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 197. شرح جسّوس: 7.

[394]- البيتان الواردان بعدُ من زيادات المؤلف.

[395]- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 197.

[الوافر]

1) حَـبـيـبُ اللّهِ أوصلَنا إليْـهِ وخُـدّامُ الحَبيبِ مُـقـرَّبونا

2) وإنَّ عِـنـايَـةَ المَـمْـلوكِ تَـعْـلـو بِقَـدْرِ عُـلا المَـوالي المالِكينا[396]

ومنها أنها تُحَرِّك الحبَّ السّاكن، والشّوق الكامِن، وتُنعش الأرواح، وتُطرِب الأشباح، وتُقَوّي داعيَ الإقبال، وتُغَيِّب فيه البال، وبالغيبة فيه تحصل حلاوة الإيمان، واستحلاء الطاعات، والبعدُ عن أسباب العصيان. وما أحسنَ قولَ أبي مَدْيَن[397]:

[الطويل]

1) يُحَـرِّكُنا ذِكْـرُ الأحـاديثِ عَنْكُمُـو وَلولا هواكُمْ في الحَشا ما تَـحَرَّكْنا

وقولَ الآخر[398]:

[الوافر]

1) إذا ذُكِرَتْ شَمـائِلُ مَنْ إليـه انـ(م) تمَتْ بينَ الوَرى أسْـمَى الشّـمـائِلْ

2) رَأيْتَ العـاشِـقِينَ[399] تَمـيلُ وجْـداً كَـأغْـصـانٍ تُحَـرِّكُـهـا الشَّـمـائِلْ

وإذا كان ذالك يحصل عند ذكر مطلق المحبين لمُطلق المحبوبين، حتّى قال الشّاعر[400]:

[الطويل]

1) وَإنّي لَتَـعْـروني لِذِكْـراكِ هَزَّةٌ كَمـا انْتَـفَضَ العُـصـفورُ بلَّلَهُ القطْرُ

فما الظن بأشرف المحبوبين الكُمَّل، وقد تكاملت فيه أسباب المحبّة على الكمال؟! ولله البُرَعِيُّ إذ قال[401]:

[396]– انتهى ما زاد المؤلف، وعاد إلى شرح العقود: 1/29.

[397]– البيت من قصيدة في شرح جسوس: 7. شرح المباحث: 58. تُحفة الإخوان: 10.

[398]– شرح العقود: 1/29. «وقد أحسن القائل» والبيتان في: شرح العقود: 1/29. الأزهار الطيبة: 197. شرح جسّوس: 1.

[399]– شرح جسّوس: 1: السّامعين.

[400]– أبو صَخْرٍ الهُذَليّ. والبيت من شواهد الألفية. شرح ابن عقيل. 2/20.

[401]– عبد الرحيم البُرَعِيُّ اليمني. شاعر مَدّاح من أهل القرن الخامس. والأبيات في. ديوانه: 48-49. الأزهار الطيّبة: 197. المجموعة النّبهانيّة: 1/121-122. والبيت الأول في شرح العقود. 2/53.

[الوافر]

1) نَبِيٌّ مَــا رَأَتْهُ الشَّــمْسُ إلاَّ — وَكَلَّتْ عَنْ مَحَــاسِنِه حَيَــاءً[402]

2) نَحِنُّ لِذِكْــرِهِ طَرَبًا وَشَــوقًــا — فَتَحْسَــبُنَا تَعَاطَيْنَ الطِّلاءَ

3) وَمَــالِي لا أَحِنُّ إلى حَــبِيبٍ — ثَمِلْتُ بِراحِ مِدْحَتِهِ حَيَــاءَ

وقال[403]:

[الطويل]

1) وَتَأْخُــذُ قَلْبِي نَشْــوَةٌ عِنْدَ ذِكْــرِكُمْ — كَمَا ارتَاحَ صَبٌّ خَامَرَتْهُ خُمُورُ[404]

2) أَصُومُ عَنِ الأغيَــارِ قَطْعًا وذِكْرُكُمْ — سُحورٌ لِصَوْمٍ فِي الهَوَى وفُطُورُ[405]

3) وَمَدْحُ رسُولِ اللهِ أَصْلُ[406] سَعَادَتِي — أَفُــوزُ بِهِ يَوْمَ السَّــمَاءُ تَمُــورُ

4) نَقِيٌّ تَقِيٌّ أَرْيَحِيٌّ مُــهَــذَّبٌ — بَشِيــرٌ، لِكُلِّ العَــالَمِينَ نَذِيرُ

5) إذا ذُكِــرَ ارتَاحَتْ قُلُوبٌ لِذِكْــرِهِ — وَطَابَتْ نُفُوسٌ، وانْشَرَحَتْ صُدُورُ

وبالجملة، فذِكْر محاسنه، (ص)، يُحرِّك ما في القلوب من الحُبّ والشّوق، ويُحصِّل من انشراح الصّدر، وتفريج القلب، ما يناسب احلاء تلك المحاسن[407]. «ولاسيما إذا كان القارئ حسن الصّوت، وكانت قراءته على وجه يُثير الخشوع، ويرقّق القلوب، كما هو المطلوب عند قراءة القرآن».

[فوائد تعليم السّيرة في ميميّته]

وإلى هذه الفوائد التّسع الّتي ذكرنا لعلم الشمائل والسِّيَر، أشار الشيخ أبو الفضل حمدون بقوله[408]:

402– ديوانه: 49. انتشاء.

403– الأبيات في: ديوانه: 76. شرح حسوس: 8. المجموعة النبهانية: 2/93-94.

404– ما بعده من إضافات المؤلف.

405– ديوانه: 76: «لِصَومي سُحورٌ في الهوى وفُطور».

406– ديوانه: 76: فأل.

407– ما بعده من شرح العقود: 1/31.

408– شرح العقود: 1/23-29.

[البسيط]

1) أطْيِبْ[409] بِها سيرَةً مِنْ نَشْرِها عَبِقَتْ	شَـمـائِلُ لَهُ تَهْـدينا إلى اللَّقَمِ
2) شَـمـائِلُ لِعَظيمِ الجـاهِ مُطْلِعَـةٌ	عَلى الَّذي يَـمـلأُ القُلوبَ مِنْ عِظَمِ
3) شَمـائِلُ عَـرَفَتْ كَيْفَ العُروجُ عَلى	مِـعْراجِ صَبْـرٍ وشُكْرٍ رافِـعَيْ حِكَمِ
4) شَمـائِلُ صَبَغَتْ حُبُّ القُلُوبِ عَلى	حُبٍّ لَهُ مُـشْمِـرِ النَّجـاةِ مِنْ ضَـرَمِ
5) وَمُشْمِرٍ لِمَحَبَّةِ الرَّسُولِ وَحُبٍّ (م)	اللَّهِ، حَيٌّ عَلى حُبٍّ لِذي القِـدَمِ
6) شَـمَـائِلُ أشْـهَـدَتْنا ذاتَهُ طَلعَتْ	شَمْسًـا بِقَلْبٍ، تُزيلُ سُدْفَةَ الظُّلَمِ
7) شَـمـائِلُ تَشْـمَلُ المُحَـدِّثِينَ بِهـا	وَالسَّـامِـعِينَ لَهـا نَضـارَةُ الإمَمِ
8) شَـمـائِلُ مَـرُّها بِنُطْقٍ أَو أُذُنٍ	ضَـرْبٌ مِنَ الأُنْسِ والوِصـالِ وَالأَمَمِ
9) شَمـائِلُ سَعْيُنا في عِلمِهـا قُـرَبٌ	وَخِـدْمَـةٌ لِجَنابٍ رافِعِ الخِـدَمِ
10) شَـمـائِلُ حَـرَّكَتْ شَـوْقًـا وهَوى	كَـمـا تُحَـرِّكُ أغْـصـانًا على أكَمِ

[فوائد قراءة علم التَّصوُّف عنده]

وكان الشَّيخ أبو الفيض، رضي الله عنه، كثيرا ما يَحُضّ على قراءة علم التَّصَوُّف، والإكباب على مطالعة كتبه، ويقول إنه يحصل للمُكِبِّين عليه، وإن كانوا مُخلِّطين، فوائدُ عظيمة.

– منها تقوية أنوار الإيمان واليقين، لأن لكلام القوم صولةً تُحِقُّ الحقّ، وتُبطِل الباطل، ونورا تامًا لبُروزه من قلوب مُنَوَّرة. وكلُّ كلام يبرز عليه كُسوة القلب الذي منه برز.

– ومنها معرفة آداب العبودية اللائقة بين يدي الربوبية، إذ التصوف كلُّه آداب، كما قال أبو حفص الحَدّاد[410]: «والتَّصوُّف كلّه آداب، ولكل وقت أدب، ولكلّ حال أدب، ولكلّ مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات، بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيّع الأدب، فهو بعيد من حيث يظنُّ القُرب، مردود من حيث يظُنُّ القبول».

---

[409]- شرح العقود. 1/23. أكرم.

[410]- أبو حفص، عمر بن سالم الحداد النيسابوري الصّوفي: (ت 270هـ). ترجمته في: الطبقات الكبرى: 1/ 82-83. رقم 156. الرِّسالة: 17.

- ومنها ما يحصل لمن سمع آدابهم وأخلاقهم الكريمة، ونظر في أوصاف نفسه الذَّميمة، من علمه أنه بمعزل عن الاستقامة، فيستصغر نفسه، ويحتقرها، فيتواضع وينتفي عنه الكِبْر والعُجْب، ويرى أنه مفلس من كلّ خير، فيقف بباب مولاه بالاضطرار، ومن فُتح له باب الاضطرار، فُتحت له أبواب الجنة.

- ومنها ما تنتجه معرفة خصائصهم ومحاسنهم من جَذب القلب لتعظيمهم ومحبتهم، ومن أحبَّ المُحبّين لله، التحق بهم، وكان معهم لحديث: «اَلْمَرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». رواه الشّيخان وغيرهما من حديث ابن مسعود وأنس بن مالك، وحديث: «هُمُ القَوْمُ لا يَشْقى جليسُهُم». رواه الشيخان والتِّرمذيّ من حديث أبي هُرَيْرَة.

- ومنها أنه يوصل إلى التَّصديق بهذا العلم، وذالك ولاية. قال الجُنَيد: «التَّصديق بعلمنا هذا ولاية، وإذا فاتتك المِنّة في نفسك، فلا يفتك أن تُصدّق بها في غيرك». وقال أبو يزيد[411]: «إذا رأيتَ من يومن بكلام أهل الطريق، فقل له يدعو لك، فإنه مُجابُ الدَّعوة».

وقال الصّقِلّيّ في كتابه: «أنوار القلوب، في علم الموهوب»: «كلّ من صدّق بهذا العلم فهو من الخاصة. وكل من فهمه فهو من خاصّة الخاصّة. وكلُّ من عبّر عنه وتكلّم فيه، فهو النَّجم الذي لا يُدرك، والبحر الذي لا يَنزَف».

وذكر بعضهم أنه رأى النبي (ص)، في المنام، قال: فقلت له: أنا المتطفّل في هذا العلم يا رسولَ الله. قال: اقرأ كلام القوم، فإن المتطفّل على هذا العلم هو الوليّ. وأما العالِم به، فهو النَّجم الذي لا يُدرك.

وإلى هذا أشار أبو الفيض بقوله[412]:

[الطويل]

1) طُفَيْلِيُّ أَهْلِ اللّهِ خَيْرُ طُفَيْلي وآتيهِمُ المَمْنوحُ أَحْسَنَ نَيْلِ

2) إذا خَلِيَتْ أُذْناكَ مِنْ حِكَمٍ لَهُمْ فَفُوتُهُمْ تَشُمُّ تُرْبَةَ ذَيْلِ

[411]- أبو زيد، طيفور بن عيسى البسطامي الصوفيّ الكبير. (ت 261هـ). ترجمته في الوفيات. 2/531. رقم 312. الطّبقات الكبرى: 1/76-77. رقم 148. الرسالة: 13-14

[412]- القطعة في: الأزهار الطيّبة: 160. ديوانه: 168.

3) فـلا تَعْـدُوَنْ عـيْنَاكَ عَنْهُمْ ولا تَقُلْ   تَأَخَّـرْ عَنْ أبوابٍ لَهُمْ يا طُفَيْـلِي

4) ولا تَحْـقِـرَنِّي مِن ثِيَـابٍ تَدَنَّسَتْ   فَـقَـدْ يَذْهَبُ الفَـجْـرُ المُنيـرُ بِلَيْلِ

[محبته لآل البيت]

وكان، رضي الله عنه، يُحبُّ أهل البيت المحبَّةَ العظيمة، ويودُّهم المودَّةَ الجسيمة، ويهتمُّ بأمورهم، ويعتني بشؤونهم. لا يزال حريصا على إيصال الخير إليهم، ويسعى في قضاء حوائجهم ما أمكنه، ويتضرع إلى الله فيما يُصلِحهُم، ويتواضع لهم أعظم التَّواضع، ويُكرِمُهم غاية الإكرام، ويَبَرُّ بهم أشدَّ البرور، ويذكر كثيرا إذا سمع حديث: «مَنْ أَوْسَعَ على أهله وعياله يومَ عاشوراء، أوسعَ اللَّهُ عَلَيْهِ سائِرَ السَّنَةِ»، أن عيال النَّبيِّ (ص)، وأهله مُقدَّمون على عيالنا وأهلنا. لا نُؤثِر عيالنا وأهلنا عليهم، إلاَّ لعظيم جهلنا بما له من الحقوق علينا، وهو في ذالك موافق لقول أبي بكر: «لَقرابةُ رسولِ الله (ص)، أحبُّ إليَّ من أهلِ قرابتي». ويقول: إن محبتهم وإكرامهم مما تنفرج به الكُربات والشدائد المُدْلَهِمات.

وإذا تلاقى مع واحد منهم، يُؤكِّد الرَّبط بينه وبينه، ويأخذ عليه العهد بأن يشفع له في عَرصات القيامة، وأن لا يُسلِمَه في تلك الشَّدائد، اقتداء بالسَّلف الصَّالح، كمالكٍ وأضرابه. ويَعِظهُم ويُذكِّرُهُم ويُرشِدُهم إلى التخلق بأخلاق جَدِّهم، (ص)، والعمل بسُنَّته، ويبذُل لهم النُّصح بتعليم جاهلهم، وتنبيه غافلهم، وصرف وجوهِهِم عن الدنيا، ورفع هِمَّتِهم إلى المراتب العُليا، واجتناب الثَّناء مشافهة عليهم، بمالهم من الخِصال الحميدة، والأفعال السَّديدة، لأنَّ ذالك ذريعة للاغترار منهم والإعجاب، وارتكاب ما يُفيد البُعد عن الله والحِجاب، ويَحُضّ النَّاس على محبتهم وتوقيرهم، والتَّواضع لهم والأدب معهم، واجتناب إذايتهم قولا وفعلا، ولا يُحبُّ من يُخالطهم على حظٍّ دنيوي، أو يُخادعهم في شيء، أو يكتمُ عنهم نصيحة، ويرى أن التَّوانيَ في أمورهم ومحبَّتهم نقص في الإيمان. ولما وقف، رحمه الله، على قصيدة عبد الله بن المُعتزّ، التي يقول فيها مفتخرا على أهل البيت:

[قصيدة ابن المعتز[413] في الطَّعن[414] على آل البيت]

[المتقارب]

1) نَهَيْتُ بَني رَحِمي ناصِحًا[415]	نَصيحَةَ بَرٍّ بِأنسابِها
2) وقَدْ ركِبُوا[416] بَغْيَهُمْ وارتَقَوا	مَعارِجَ تَهْوي[417] بِرُكَّابِها
3) فَدانَوا[418] فَرائِسَ أُسْدِ الشَّرَى	وَقَدْ نَشَبَتْ بينَ أنيابِها
4) دَعُوا الأُسْدَ تَفْرِسُ ثُمَّ اتْبعوا	بِما تُفْضِلُ[419] الأُسْدُ في غابِها
5) قَتَلْنا أُمَيَّةَ في دارِها[420]	ونحْنُ أحَقُّ بِأسْلابِها
6) ولَمَّا أبى اللهُ أن تَمْلِكوا	نَهَضْنا إلَيْها، وَقُمْنا بِها
7) ونَحْنُ وَرِثْنا ثِيابَ النَّبِي	فَكَمْ تَجْذِبونَ بِأهدابِها[421]
8) لَكُمْ رَحِمٌ يا بَني بِنْتِهِ	ونَحْنُ[422] بَنو العَمِّ أولى بِها
9) فَمَهْلا بَني عَمِّنا إنَّها	عَطِيَّةُ رَبٍّ حَبانا بِها
10) وكانتْ تَزَلْزَلُ في العالَمينَ	فَشُدَّتْ لَدَيْنا[423] بِأطْنابِها

---

[413]- عبد الله ابن الخليفة المُعتزّ العبّاسي. أمير شاعر ناقد. (ت 296هـ) ترجمته في: الوفيات: 3/76-80. رقم 341. الأغاني: 1/286.

[414]- ديوانه: 1/221-222.

[415]- الديوان: نصحت بني رحمي لو وعوا.

[416]- الديوان: وقد عقدوا.

[417]- الديوان: بزلاء تنزو.

[418]- الديوان: ورامو.

[419]- الديوان: تدع.

[420]- الأبيات 5، 6، 7، 8 في: الأزهار الطيبة: 89. ديوان حمدون: 46.

[421]- الديوان: بهدابها.

[422]- الديوان: ولكن.

[423]- الديوان: إلينا.

[قصيدة صَفيِّ الدّينِ الحلّيِّ في الرَّدِّ على ابن المعتزّ]

ووقف على قول[424] صفيِّ الدّين الحلّيِّ[425] في الرّدِّ عليه من قصيدة[426]:

[المتقارب]

1) أأنتَ تُفَاخِرُ آلَ النَّبي — وتَجْحَدُها فَضْلَ أنسابِها[427]

2) بِكُمْ بِأهلِ المُصطفى أم بِهِم — فَرَدُّ العِداةَ بأوصابِها؟!

3) أعَنْكُمْ نَفى الرِّجْسَ أم عَنْهُمُ — لِطُهرِ النُّفوسِ وألبابِها[428]

4) هُمُ الصّائِمونَ، هُمُ القائِمونا — هُمُ السّاجِدونَ بِمحْرابِها

5) هُمُ الزّاهِدُونَ، هُمُ العابِدونا — هُمُ العالِمونَ بِآدابِها

6) هُمُ قُطْبُ مِلَّةِ دينِ الإلاهِ — ودَوْرُ الرَّحاةِ بِأقطابِها

7) تَقُولُ[429]: وَرِثْنا ثِيابَ النَّبي — فَكَمْ تَجْذِبونَ بِأهدابِها

8) وعِنْدَكَ لا تُورَثُ الأنبياءُ — فَكَيْفَ حَظيتُمْ بِأثوابِها

9) [أبوهُمْ وَصِيُّ نَبِيِّ الإلاهِ — وأهلُ الوصيَّةِ أولى بِها][430]

10) أجَدُّكَ يَرضى بِما قُلْتَهُ — وما كانَ يَوْمًا بِمُرتابِها

11) وكانَ بِصِفِّينَ مِنْ حِزْبِهِمْ — بِحَرْبِ البُغاةِ تَواخَوا بِها[431]

424– ميم: «على قول قصيدة».

425– صفي الدين، عبد العزيز بن سرايا الطائيّ. (ت 752هـ) شاعر مشهور. ترجمته في: الدُّرة، 3/119-121، رقم 1060. الدُّرر الكامنة، 2/369-371. نثير الفرائد، 221-227

426– ديوانه: 92-94. مع تقديم وتأخير وتغيير.

427– ديوانه: أصحابها. والبيتان بعده في ديوان حمدون: 46.

428– بعده في رواية الديوان:

(9) هُمُ الزاهدون هم العابدون — هم الساجدون بمحرابها

(10) هم الصائمون هم القائمون — هم العالمون بآدابها

429– الديوان: 93: وقلت.

430– سقط البيت من رواية الديوان.

431– الديوان: 93: لحرب الطغاة وأحزابها.

12) وَصَلَّى مَعَ النَّاسِ طولَ الحَـيـاةِ وحَـيْـدَرُ في صَـدْرِ مِـحْـرابِـهـا[432]

13) فَـهَـلاَّ تقَـمَّـصَـهـا جَـدُّكُمْ وَهَلْ كـانَ مِنْ بَعْضِ خُطَّابِهـا[433]

14) وإِذْ جَـعَلَ الأَمْـرَ شـورَى فَـهَلْ[434] كـانَ مِنْ بَعْضِ أَرْبابِهـا

15) وَقَـولُكَ: أنتُمْ بَنو بِنْتِـهِ وَلكِنْ بَنو العَمِّ أولى بِهـا

16) بَنو البِنْتِ أيضاً بَنو عَـمِّـهِ وذالِكَ أدنَى لأنسـابِهـا

17) وَقُلْتُمْ[435] بِأنَّكُمُ القـاتِلونا أسُـودَ أُمَـيَّـةَ في غـابِهـا

18) كَـذِبْتَ، ولَولا أبو مُـسْلِمٍ[436] لعَـزَّت عَلى جَـهْـدِ طُلاَّبِهـ

19) وقَـدْ كـانَ عَـبْـداً[437] لَهُمْ لا لَكُمْ رَأى عِنْدَكُم[438] قُـربَ أنْسـابِهـا

20) وكُنْتُمْ أسـارى بُطونِ الحَـبْسِ[439] وقَـدْ شَـفَّكُمْ[440] لَثْمُ أعـتـابِهـا

21) فـأَخْـرَجَكُمْ وحَـبـاكُمْ بِهـا وقَـمَّـصَكُمْ فَـضْلَ جِلبـابِهـا

22) فَـجـازَيْتُـمـوهُ أشَـدَّ الجَـزاءِ[441] بِطَغْـوى[442] النُّفـوسِ وإعـجـابِهـا

23) فَدَعْ في الخِلافَةِ فَصْلَ[443] الخِلافِ فَلَسْتَ[444] ذَلولاً لِرُكّـابِهـا

24) ومـا أنتَ والفَـحْصُ عَنْ شَـأنِهـا وَمـا قَـمَّـصُـوكَ بِأثوابِهـا

---

[432]- في الأصل: وحيدر بمحرابها. والتصويب من الديوان: 93.

[433]- الديوان: 93: إذا كان إذ ذاك أحرى بها.

[434]- الديوان: 83: لئا جعل الأمر شورى لهم.

[435]- الديوان: 93: وقولك.

[436]- الديوان: 94. ولولا سيوف أبي مسلم.

[437]- الديوان: 94: وذالك عبد.

[438]- الديوان: 94: رعى فيكم.

[439]- الديوان: 94: بيطن الحبوس.

[440]- الديوان: 94: شفكم.

[441]- الديوان: 94: بشر الجزاء.

[442]- الديوان: 94: لطغوى.

[443]- الديوان: 94: فصل.

[444]- الديوان: 94: فليست.

25) وَمَا سَاوَرَتْكَ سِوَى سَاعَةٍ ... فَمَا كُنْتَ أَهْلاً لأَسْبَابِهَا

26) وَدَعْ[445] ذِكْرَ قَوْمٍ رَضُوا بِالكَفَافِ ... وَجَاءُوا القَنَاعَةَ[446] مِنْ بَابِهَا

قال، رضي الله عنه، هذه القصيدة الغرّاء في أقرب من ساعة، وذالك مما يُحقّق به. اللّهُمّ أيّده بروح القُدُس:

[قصيدة الشّيخ أبي الفيض حمدون في الرّدّ على ابن المعتزّ]

[المتقارب]

1) مُعَيِّرَ أبناءِ فاطِمَةٍ[447] ... بِكَلْمَتِهِ الّتي أنْسى بِهَا[448]

2) وَمَا كَانَ عَالٍ بِغَيْرِ عُلاها ... ومُعْتَزُّ إلاّ بِأنسابِها

3) ويا مُبْدِيَ الشُّهْبِ مِنْ كَلِماتٍ ... لِنَفْسٍ لَهُ كَانَ أكْسوى بِهَا

4) وَمُهْدِيَ كَأْسٍ لَهُ أسْكَرَتْ ... وَعَرْبَدَ مِنْ شَمِّ أكْوابِها

5) لَوَ انَّكَ تَعْرِفُ مَا فُهْتَ أصْلاً ... بِهَا، لَمْ تَعِبْ أصْلَ أصْلابِها

6) لِحَوْطَتِهِ لِلنَّبِيِّ وكَانَ ... بِنارِ أعاديهِ أصلى بِهَا

7) لَعَمْرِي، لَوْ كَانَ يُفْدى بِنَفْسٍ ... وأهْلٍ لَما كَانَ أوْدَى بِهَا

8) وَذالِكَ مِنْ شِيمَةٍ لِنُفُوسٍ ... مُحِبّي مُحَمَّدٍ اوْ دَأْبِها[449]

9) بِنِسْبَتِكُمْ لَهُمْ قَدْ رَأسْتُمْ ... وإلاّ لَكُنْتُمْ مِنَ اذْنابِها

10) بِهَا لُحْتُمْ قابَ قَوْسَيْنِ مِنْ ... ثُرَيَّا السَّمَاءِ أوْ أدْنى بِهَا

11) أبوهُمُو قَبْلَكُمْ وارِثٌ ... لَهَا، وأحَقُّ وأرْبى بِهَا

12) وَفِي «أجَعَلْتُمْ»[450] شَهادَةُ رَبٍّ ... لَهُ أنَّهُ خَيْرُ أرْبابِها

---

[445]- الديوان: 94: فدع.

[446]- الديوان: 94: الخلاقة.

[447]- البيتان 1، 2 في الأزهار الطّيبة: 90. والقصيدة في ديوانه: 46-49، وفيها 47 بيتا.

[448]- تسهيل الهمزة لإقامة الوزن كثير في هذا النص.

[449]- ديوان حمدون47: «محب محمد أودى بها» . ولا يستقيم به الشطر

[450]- سورة التوبة:19.

13) وكــان ابنُهُ حَــسَنٌ بَعْـدَمَــا تَولّى، وقَـدْ كـانَ أقْـوى بِهـا

14) تَخَلَّفَ عَنْهــا ولَولاهُ مَــا تَخَلَّصَ قــابٌ مِنَ اقْــوابِهــا

15) ولولا أخــوهُ لَكُمْ رَدَّ شـيـــعَـةَ بَعْـدَ ذالكَ، وأوْصى بِهـا

16) لَـمــا جُـرِّتَ أذْيالُهــا لَكُمــو وَمــا ذُقْـتُمْ غَـيْـرَ أوْصــابِهــا

17) أبو مُــسْلِمٍ بِهِمْ قَــدْ دَعــا لَكُمْ، ثُمَّ كُنْتُمْ مِنَ اعْـتى بِهـا[451]

18) بِـهِـمْ نِـلْـتُـمْ أيَّ مَـنْـزِلَـةٍ تَخِـرُّ البُـدورُ بِأعْـتـابِهـا

19) أتى بِمَــقـانِبَ أخْــيَتْ مَنا قِبَ فـيكُمْ، وأعْـدادٍ[452] اثْوى بِهـا

20) وأعْــراهُمُ مِنْ رِياسَــتِــهِمْ وألْبَــسَكُمْ حُــسْنَ أثْوابِهــا

21) وإنْ بِمَــلاءَتِكُمْ قَــدْ سُـتِـرتُمْ فَلَمْ تَهْــدِ نارٌ لأنْقــابِهــا

22) فَــهُمْ بِالكِســاءِ أجَلُّ وأعْلى وأغْلى وأتْقى وأنْقى بِهــا

23) وَإنْ قَدْ سَبَيْتُم[453] قُلوبًا بِقُرْبى[454] أبٍ لِلنَّبي وَأسْــبــابِهــا

24) فَــهُمْ بِقَــرابَتِــهِمْ مِنْ أبٍ وَأُمٍّ عَلَتْ قَــدْرًا اسْـبى بِهـا[455]

25) اوَإنْ كــانَ يُسليكُم أنْ سَلَبْـتُمْ مِنْ أُمَـيَّـةَ بَعضَ أسـلابِهــا

26) فَـهُم بِخِـلافَـتِـهِمْ باطِنًا أقَــرُّ عُــيـونًا وأسلى بِهــ

27) وكُنتُمْ بِظاهِرِها تَعْـــتَنو نَ، وكــانوا بِظاهِرِ أعْنَى بِهــا

28) وَقَـدْ قَطفـوا[456] بِيَـدَيْ كَـرَمٍ جَنَى جَنَّتِــهــا[457] وأعنابِهــا

29) وَهَلْ فـيكُمْ مِـثْلُ إدريسَ فـيـهِمُ، أصـابَ، ومـا كـانَ أشوى بِهـا

---

[451]- ديوان حمدون47: «كنتم أعتى بها».

[452]- ديوان حمدون47: أعدا.

[453]- الأزهار الطيبة: 90: سلبتم.

[454]- في الأصل: بالقربى.

[455]- ترك المؤلف في الأصل صفحة فارغة. وقد أتممنا النصّ لملء الفراغ من ديوان حمدون: 48-49 وقابلنا ثمانية من الأبيات على: الأزهار الطَّيِّبة: 90، وهي الأبيات رقم 25-29،36،40،41.

[456]- الأزهار الطيبة: 90: قطعوا.

[457]- الأزهار الطيبة: 90: جناها.

30) وَأَقْـبَلَ غَـرْبٌ وَشَـرْقٌ إِلَيْـهِ	مِنَ اوجَـهِـهـا وَمِنَ اشْـوابِهـا
31) أتى مَـغْـرِبًا فَـغَـدا مَـشْـرِقًـا	بِمـا جَـرَّ فـيـهِ مِنَ اهْدابِهـا
32) بِهِ أَرضُ زَرْهونَ تعلو السَّـمـا	ومـا أرضُ صَنْعـا مِنَ اتْرابِهـا
33) بِزَرهونَ زُرْهُ تَـنَـلْ مـا تمنّى	بِـزَوْرَتِـهِ كُـلُّ أتْـرى بِهـا
34) وكَـابنِهِ مَنْ قَـدْ جَنى زَهْرَةَ الْـ	خِـلافَـةِ يَنْأى عَنَ اجْنادِها
35) وكـانَ بِإِخْـلافِ أهْصَـرَ ها	صِـبْـرٍ للرَّعـايا، وَأجنى بِهـا
36) وهَلْ فـيكُمُ كـابنِهِ ابنِ مَـشِـيشٍ	مُـديرِ الكُؤوسِ لأصـحـابِهـا ؟!
37) وَقَـدْ ذاقَ كَـأسًـا دِهاقًـا ولَمْ	يُغَـرِّبْدْ بَلْ كـانَ أصْـحى بِهـا
38) وكـالشّـاذِلِيِّ الّذي قَـدْ جَـلا	طَريقَـةَ الرَّبِّ، أحـبَى بِهـا
39) طَريقَـةَ رَبٍّ، فَـسَـعْـداً لِمَنْ	يَهـدي، وكـانَ مِنَ احْـبـابِهـا
40) وَمِـثْلَ أَبي الفَـيضِ مِنْ دَولَةٍ	لَـهُ كلُّ دَوْلَةٍ اعْـرى بِهـا
41) وَفَـوقَ الرِّقـابِ لَهُ قَـدَمٌ	مِنِ اعـجـامِـهـا وَمِنِ اعـرابِها
42) وَمِـثْلَ الجَـزولي دَلاتِلَهُ	مِنَ الدَّرَكـاتِ كَمْ انجى بِهـا
43) وكَمْ لَهُ مِنْ تابعٍ مُـرْشِـدٍ	مِنَ اقْطابِهـا، ومِنَ انْجـابِهـا ؟!
44) وفي البَـدَوِيِّ شِـفـاءُ كُلومِ	لِـمَـرْضَى قُلوبٍ وأنـدابِهـا
45) يا مُنْيَـةُ الزّائرينَ حَـيـاةً	وَمَـوتًا مِنَ السُّحْبِ أندى بِهـا ؟!
46) وكَـمْ لاحَـتَ انْـوارُهُـمْ وَهَـدَتْ	لَنا اللهُ أهدى وأقْـرى بِهـا
47) ومَنْ خـاضَ في لُجَّـةٍ مَنْ هَدى	فَـمـا خـاضَ إلاّ بِأَقْـرابِهـا][458]

[تتمة محبته لآل البيت]

ويُقابل ما يأتي من قِبَلهم من الإذاية بالعفو والصَّفح، ويقول: إذا كُنّا مأمورين بمقابلة ما يصدر في جانبنا من مُطلَق الناس من الإساءة والامتحان، بالعفو والصَّبر والإحسان، فما بالك بما يصدر من آل البيت الكريم، المحفوفين بالتَّبجيل والتَّكريم؟! فبحق على كل من كَمُل إيمانه،

[458]- انتهى ما ملأنا به الفراغ في الأصل.

أن يُقابل ما يأتي من قِبَلهم من الجَوْر والظُّلم، بالعفو والصَّبر والحِلْم، ويُنَزِّله، كما قال الشيخ زروق[459] منزلة القضاء الوارد من الله تعالى، كالغَرَق والحرق ونحو ذلك، إذْ لَهم من الحرمة ما (لسيدهم الذي نسبوا إليه، لأن للجزء منها ما للكلّ). وذالك مقتضى حقيقة المحبة وانتها، كما أشار إليه القطب سيدي عليّ بن وفا[460] بقوله[461]:

[المتقارب]

1) وفي حالةِ السُّخْطِ لا في الرِّضى   يَبِيـنُ المُحِبُّ مِنَ المُبْغِض

ومن عظيم محبَّته إياهم، أنّه كان كثيرا ما يوصي بعدم المصاهرة لهم، بأن يُنْكح منهم، مخافة أن يرى الإنسان نفسه أهلا لذالك، أو يُقَصِّر في شيء من الحقوق التي تجب لهم عليه، فيُغضب بذالك فاطمة الزهراء، الموفي إلى غضب المصطفى، الموفي إلى الخسران الدنيويّ والأخرويّ، لحديث: «فاطمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي، يُغضِبُني ما يُغضِبُها، ويَبْسُطُني ما يَبْسُطُها». أخرجه الإمام أحمد، والطبرانيّ والحاكم والبَيْهَقِيّ.

والحاصل أن محبَّته لأهل البيت النبويّ، وتعظيمَه إيّاهم، أمر عظيم. لم نرَ مثله لأحد من زماننا، ولا رُؤِي في زمان من قَبلنا، بل هو شيء انفرد به، فاشتُهِر به اشتهارا، وامتاز به امتيازا، حتّى عُرِف به، وتحقّق منه ذالك جمة الشرفاء. ثم لا يُعلَم أحد أطبق أهل البيت على تعظيم أمره، وترفيع قدره مثلُه. ولقد تواطأوا على محبَّته، وائتَلفت قلوبهم على مودَّته، لما سرى من قلبه إليهم، وظهر من أثره عليهم، والقلب مرآة القلب، ومظهر آثار رحمات الرب.

قيل لبعض العارفين: إنّي أحب آل البيت. فقال له: هيهات ذالك. لو كنتَ تُحِبُّهم لاتَّبعوك من وراء. أي لأحبّوك وعَلِقوا بك، لِما عُلِم من سَرَيان المحبَّة عند ذوي القلوب السَّليمة، والطِّباع

[459]- أبو العباس، أحمد بن أحمد البَرْنُسِي. عالم صوفيّ كبير. (ت 899هـ) ترجمته في: الدُّرّة 1/90-91 رقم 126. النَّيل: 84-87. الشَّجرة: 1/267-268 رقم 988. الجذوة: 1/128-131. رقم 66 الدَّوحة: 48-51. السلوة: 3/183-184. الفكر السامي: 2/264. معجم المطبوعات: 141 149 رقم 334.

[460]- أبو الحسن، علي بن محمد بن وفا القُرشيّ الشاذليّ. (ت 807هـ). صوفيّ مصريّ. ترجمته في: الطبقات الكبرى: 2/22-65. رقم 315. الشّجرة: 1/240. رقم 860.

[461]- البيت في: تحفة الأكابر: 460. وفيه: «وفي ساعة السخط لا في الرضى»

المستضيمة. ومحبةُ آل البيت النبوي، رزقنا الله منها أوفر نصيب، من نتائج الإيمان الحقيقيّ وثمراته، وكذا سائر هذه السيرة المحمديّة التي سار بها هذا الشيخ، مما في بيان آثارها، ونشر أخبارها، عبرة للمعتبرين، وتذكرة للمُذَكّرين. رزقنا الله بركته، وضاعف لنا محبته.

[أخلاقه]

وأما أخلاقه، أي ما تكيّف به من الأوصاف المسمّاة بمكارم الأخلاق، وهي الذكاء والفطنة والشُجاعة والنُجدة، والحنانة والشفقة، والرأفة والرُحمة، والصّبر والاحتمال، والتّواضع والأدب، وعُلُوُّ الهِمّة، التي هي العفاف والصّيانة والوفاء، والفتُوّة التي هي الكرم والسّخاء، والحِلم والأناة، والعفو والإيثار، والسّعي في حوائج الأبرار، فقد جُبِل عليها في أصل فطرته. ولما فُتِح عليه، عادت قُربى إلى الله، وصِلة لحضرته، فأنزل كُلاً منها بمحلّه، ولما خُلق لأجله، فصارت كُلّها لله وفي الله.

وأما ذكاؤه وفطنته، فكان له منذ شبَّ عقل تامّ، وذكاء قويّ، وفهم نافذ، وفطنة سريعة. لا يفوته إدراك معنى من المعاني، ولا يسبقه أحد إلى فهم من الفُهوم، ولا يُخدَع في شيء من الأشياء إلاّ اتّفاقا. ولا يُعوِزُه أمر من الأمور، حتّى إنّه ليُدرِكُ الحِرَف والصّناعات إذا توجّه إليها دون تعلّم. وإذا أراد الله تأهيل عبد وتهيِئَتَه لما خُلِقَ لأجله من إرادة خصوصيّة، وفَضْله، أكمل خُلُقه وسجاياه، ثم أظهر مزاياه ومفاخره، فيُكَمّل له عقل التّمييز، ليتهيأ به إلى عقل التّخصيص. والأوليات إشارة للأخرَيات، والبدايات عنوان النّهايات.

وأما شجاعته ونجدته، فأمر شهير. لم يُجاوز قط قَرن من أقرانه حدّه في شجاعة ولا نجدة، حسبما تشهد لذالك وقائع كثيرة، يطول إيراد النّزر اليسير منها.

خرج يوما وهو متولي الأحكام بالغرب[462] لجباية زكاتهم وأعشارهم، فاصطف لقتله منهم نحو خمسين فارسا، فخرج فيهم، وهدّدهم ووبخهم، وعصمه الله منهم.

وأما حنانته وشفقته، ورأفته ورحمته، فأمر عظيم. لا تجده إلاّ عطوفا رؤوف، شفيقا رفيقا على المسلمين، ويَرِقُّ للمساكين، ويألم لمُصابهم، ويُشفِق لما بهم، ويُلاطِف ذوي الحاجات،

[462]- المقصود العرائش وأعمالها.

ويُواسي ذوي الفاقات، ويودُّ ذوي الاغتراب، أكثر من ذوي الاِقتراب، ويميل إليهم، ويتعطَّفُ عليهم، ويُجالسهم ويُؤانسهم، ويُنازلهم ويعاملهم. ما شكا له أحد ألما ومرضا إلا اهتمَّ له، وعَظُمت شفقته عليه. ولا يزال داعيا له، وسائلا عنه وعن مُصابه، حتّى يسمعَ خبر شفائه ومعافاته. وما أبصر ذا مصيبة، وإن لم يَشْكُ صاحبها إليه، إلا رقَّ له، وسَلاّه وواساه، أو جمع بينهما، كأنما الناس كلُّهم أبناؤه وإخوانه وأوِدّاؤه. لا يزال حريصا على نفعهم وردّهم إلى الله ودفعهم.

وأما صبرُه واحتماله، فعظيم. لا ترى أصبر منه للتّكاليف، ولا أثبتَ منه في الأمراض والمخاويف، كأنه الجبل لا يتزحزح، ولا يَبْرَح مكانه. قويٌّ في ذاته، غيرُ مَهينٍ ولا مُتَضعِّف، متحمِّل للمشاقّ، لا يتبين عليه أثر النَّصَب، ولا يظهر عليه كَرْب نفس ولا قَلَق. ولا ينقُص من نوافله ووظائفه الدِّينيّة شيئا. وربما يبيت الليل ساهرا، فيصبح بالنهار على عمله. أو يظلُّ على عمله، فيبيت ساهرا. ويتحمل إذاية من آذاه، ولا ينتصر إلاّ لأخ في الله، أو أحد من آل البيت، أو حقّ من حقوق الله. ولقد أوذيَ في أشياء، فما سَئِم ولا ضجِر، ولا شَرَدَ ولا نَفَر. تمرُّ به أو بمن معه عظيم الدَّواهي، وحاله في الوقت كما هي، من الاستمرار على ما كان عليه من عادة أو عبادة، ركونا واستسلاما لمن له القدرة والإرادة. وكثيرا ما يذكر أن الصبر مفتاح الفرَج، وأن انتظار الفرَج بالصَّبْرِ عبادة، ومع كل عُسْرٍ يُسر. ولكل بداية نهاية. ويُنشِدُ في ذالك قول عليّ بنِ الجَهْمْ[463]:

[البسيط]

1) فَما تَجَرَّعَ كأسَ الصَّبْرِ مُعْتَصِمٌ | بِاللّهِ إلاّ أتاهُ اللّه بِالفَرَجِ[464]

وقولَ محمّد بن بَشّار:

---

[463]- شاعر عباسي. (ت 249هـ) ترجمته في: الوفيات: 3/355-358. رقم 462. طبقات ابن المعتز: 319-322.

[464]- لم أجد البيت في ديوانه. وهو في حاشية المؤلف: 2/170.

[البسيط]:

1) إنَّ الأمورَ إذا انْسَدَّتْ مَسالِكُها فَالصَّبْرُ يفتَحُ مِنْها كُلَّ ما ارتَتَجا[465]

2) لا تَيْأَسَنَّ، وإن طالَتْ مُطالَبَةٌ[466] إذا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أنْ تَرى فَرَجا

3) أخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ أنْ يَحْظى بِحاجَتِه وَمُدْمِنِ القَرْعِ لِلأبْوابِ أن يَلِجا!

وقولَ بدر الدّين الدّماميني[467]:

[الطويل]

1) إذا عَضَّكَ الدَّهْرُ الخَؤونُ بِنابِه فَلا تَقْرَعَنَّ السِنَّ، واستَعْمِلِ الصَّبرا[468]

2) فَمَهْلاً، فحالُ الدَّهْرِ ما قَدْ عَلِمتَهُ فَيَوْمًا تَرى عُسْرًا ويَوْمًا تَرى يُسْرا

وقولَ الآخر:

[البسيط]

1) إنّي رَأيتُ، وفي الأيّامِ تَجْرِبَةٌ لِلصَّبْرِ عاقِبَةٌ مَحْمودَةَ الأثَرِ

2) وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أمْرٍ يُطالِبُهُ واستَصْحَبَ الصَّبْرَ، إلاّ فازَ بِالظَّفَرِ

وكان يقول: ينبغي للعبد أن يُوطِّن نفسَه على المِحَن والمصائب، حتى يهون عليه ما يلقاه، ويجد السُّلُوَّ عند فُقدان ما يهواه، وينشد في ذالك قولَ القائل:

[المتقارب]

1) يُمَثِّلُ ذو اللُّبِّ في لُبِّهِ[469] شَدائِدَهُ[470] قَبْلَ أن تَنْزِلا

465- الأبيات في: شرح الحِكَم: 25. حاشية المؤلف: 2/170.

466- في الأصل: مغالبة. والتصويب من شرح الحِكَم: 25. والحاشية: 2/190.

467- محمد بن أبي بكر المخزومي القرشي فقيه أديب مصري (ت 827هـ). ترجمته في: البُغيَة: 1/66-67. رقم 113. الشّجرة: 1/240. رقم 863.

468- البيتان في حاشية المؤلف: 2/170.

469- الأبيات في شرح الحكم: 24. الإيقاظ: 57.

470- شرح الحكم: 24. الإيقاظ: 57: شدائد. ولا يستقيم الوزن به.

2) فَـإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَـةً لَمْ تَرُعْـهُ لِمَـا كَـانَ فِي ذِهْنِه[471] مَـثَّـلا

3) رَأَى الأَمْـرَ يُفْـضِي إِلى آخِـرٍ فَـصَـيَّـرَ آخِـرَهُ أَوَّلا

4) وَذو الجَـهْـلِ يَأْمَنُ أَيَّامَـهُ وَيَنْسَى مَـصَارِعَ مَنْ قَدْ خَـلا

5) فَـإِن دَهَـمَـتْـهُ صُروفُ الزَّمَـا نِ بِبَـعْضِ مَـصَـائِبِـهِ أعْـوَلا

6) وَلَوْ قَـدَّمَ الحَـزْمَ في[472] نَفْـسِـهِ لَعَلَّمَـهُ الصَّـبـرَ عِنْدَ البَـلا

أمّا تواضعُه وأدبه، فكان يتواضع في نفسه لله، وفي ذات الله، لعباد الله، أهل النسبة إلى الله، وإلى البيت النبويّ، وكلّ ذي نسبة دينيّة، ومحبة إيمانيّة. أمّ في نفسه، فإنّه لا يرى لها قدرا، أو لا ينسب لها أمرا، ولا يرى في الأرض أحدا، ولو كان كافرا، أدنى منه منزلة، وأخفضَ منه عند الله مرتبة، لأن الخاتمة مُبهَمة. ويذكر في ذالك قول الشُّريسي[473]:

[الطويل]

1) وَلَسْتَ تَرى في الأَرْضِ دونَكَ مومِنًا وَلا كـافِراً حَتَّى تُغَيَّبَ في القَبْرِ[474]

2) فَـإِنَّ خِـتَـامَ الأَمْـرِ عَنْكَ مُـغَـيَّبٌ وَمَنْ لَيْسَ ذا خُسْرٍ، يَخافُ مِنَ المَكْرِ

وقول أبي الحسن الشاذليُّ: «وقد أبهمتَ الأمر علينا، لنرجُو أو نخاف».

وأما التواضعُ في الله لعباد الله، فإنّه يخدُم بنفسه من والاه من الأصحاب وغيرهم في الحَضَر والسَّفَر. لا يُبالي بعناء نفسه في وُرودٍ ولا صدور. إذا ظهر أمر يحتاج الناس لمزاولته، كان أوّلَ سابق إليه، ولا يترك أحدا يشتغل بتعظيمه، أو يُمَيِّزُه بشيء كتقبيل اليدِ أو نحوه، وكثيرا ما كان يحُضُّ عليه. ويذكُرُ أن من تواضع لله دون قدره، رفعه الله فوق قدره، ويُنشد قول القائل:

---

[471]- الإيقاظ: 57: نفسه.

[472]- الإيقاظ: 57: من.

[473]- تاج الدّين، أبو العبّاس، أحمد بن محمد البكري الشُّريسيّ السّلويّ. عالم صوفيّ. (ت 640هـ) ترجمته في: التّكملة: 115/1. البُغيَة: 360/1-361. رقم 700. الإعلام: 143/2-144. رقم 170 الموسوعة: 128/3.

[474]- من رائيته المشهورة في التّصوف، أنوار السّرائر، وسرائر الأنوار.

[الطويل]

1) تَواضَعْ تَكُنْ كَـالبَـدْرِ لاحَ بِشَكْلِهِ   عَلى صَـفَـحـاتِ المـاءِ، وَهْوَ رَفـيـعُ

2) ولاتَكُ كَـالدُّخَـانِ يَعْلو بِنَفْـسِـهِ   إلى دَرَجـاتِ الجَـوِّ، وَهْوَ وَضـيـعُ

نعم. كان يتكبّر على أهل الكِبْر، ويهجُرُهم، ولا يرى لهم قدرا، ويذكر في ذلك قول أبي الحسن الشاذِليّ: «واهجُرهُم رحمةً بِهِم لا تَعَزُّزاً عليهِم».

وقد ورد أن التّكبُّر على المتكبرينَ تواضع. وما أحسنَ قولَ المَحَلّي[475]:

[البسيط]

1) لَمْ أَلْقَ مُـسْـتَكبِـراً إلاّ تَحَـوَّلَ لي   عِندَ لِقـائي لَهُ الكِبْـرُ الّذي فـيـهِ

2) ولا خَـلا لي مِنَ الدُّنيـا وزينَتِـهـا   إلاّ مُـقـابَلَتي لِلتّـيـهِ بِالتّـيـهِ[476]

وأما أدبه ظاهرا وباطنا في الشّريعة المحمّدِيّة، ومع الله جلّ جلاله، فشيء بلغ فيه أقصى الغايات، وبرع فيه أهلَ البدايات والنهايات، حسبما عُلم ذالك من مقامه ومقاله، ويشهد له ما تقدّم من خِلاله وفِعاله.

[استطراد عن الأدب عند الفقهاء وعند الصوفية]

والأدب عند الفقهاء، عبارة عن القيام بما بعد الواجبات، والسُّنَن من الفضائل والرّغائب المتعلقة بأحوال الإنسان، من نوم ويقظة، وأكل وشرب، ودعاء ونحو ذالك.

وعند الصوفية، عبارة عن جمع خصال الخير، وأوصاف البِرّ. فهو وصف جامع لأوصاف مَجيدة، وأخلاق حميدة، تُناسِب وصف العبودية، وحال الرُّبوبِيّة. من جَمَعَها فقد اتّصف بالأدب، وكان أديبا متأدّبا مع الله ورسوله.

والأدب بالمعنى الفقهي مندرج في هذا. فمن أدبه الظاهر، مواظبته على ما ورد في السُّنَّة من الآداب الشرعية المتعلقة بأحوال الإنسان، ومحافظته عليها بقدر الطّاقة والإمكان، في

---

[475]- محمد بن أحمد المَحَلّيّ المصريّ. عالم فقيه كبير (ت 864 هـ). ترجمته في: الضّوء اللامع: 7/39-40. الفكر السّاميّ: 2/351. الدرّة: 2/243-244 رقم 711. معجم المطبوعات. 319-320. رقم 711.

[476]- البيت في: تُحفَة الأكابر: 471. وقد نُسِب فيه إلى الشافعي.

قيامه وقُعوده، واضطجاعه ومشيه وجلوسه مع الناس، وقد تقدم كثير من ذلك أثناء هذا الباب.

ومن أدبه الباطن، الّذي دلّت عليه أقوالُه وأفعاله، أنه كان لا يختار مع اللّه ولا يريد مع تدبيره شيئا، ويذكر قول أبي الحَسَن[477]: «إن كان ولابُدَّ من التَّدبير، فدبِّروا ألاّ تُدبِّروا، لأنه إذا كان لا يقع إلا ما أراده اللّه، أحبَّ العبد أم كَرِه، لقوله تعالى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ»[478]. فالتدبير مجرَّدُ تعب، وكَدٌّ بلا طائل.

ولله دَرُّ الوليِّ الصّالح الكامل، سَيِّدي ياقوت العَرْشِي[479] في قوله:

[مجزوء الكامل]

1) مـــا ثَمَّ إلاّ مـــا أرادْ اطْرَحْ هُمـــومَكَ وَانْطرِحْ

2) وَاتْرُكْ شَـــواغِلَكَ الّتي شَـــغَلَتْكَ عَنْهُ تَسْـــتَرِحْ

وفي الحديث «أنَّ اللّهَ جَعَلَ الرَّوْحَ والرّاحَةَ في الرِّضى واليَقين». وفي حديث آخر: «ذاقَ طعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ باللّه ربّا، وبالإسلام دينًا، وبِمُحَمَّدٍ (ص) رَسولاً».

والرِّضى برُبوبيَّتِهِ، تعالى، يقتضي الاِستسلامَ لأحكامه، وتركَ التدبير معه. وممّا يحملُك على تركه، علمُك بسابق تدبيره، وكونِه لك قبل أن تكون لنفسك. ولذلك قال الحلاّج[480]:

[مجزوء البسيط]

1) كُنْ لي كـما كنتَ لي إذْ لَمْ أكُن شـبـتُ في[481] حين لم أكُن[482]

[477]- المقصود أبو الحسن الشاذلي.

[478]- سورة القَصَص: 68.

[479]- ياقوت بن عبد الله الحَبَشِيّ الشاذلي. (ت 732هـ). صوفيّ مصريّ. ترجمته في: الدُّرر الكامنة 4/ 408. رقم 1127. الطبقات الكبرى: 20/2. رقم 311. والبيتان في: حاشية المؤلف: 176/2 الإيقاظ: 18.

[480]- أبو مُغيث، الحُسَين بن منصور. الشاعر الصوفيّ. (ت 304هـ) ترجمته في. لوفيات: 140/2 157 رقم 189. الطبقات الكبرى: 1/107-109. رقم 209. مقدّمة ديوانه.

[481]- سقط من الأصل. والتعويض من شرح ديوانه: 392.

[482]- شرح ديوانه: 392. (ويليه بيت آخر. وقد يُنسبان إلى سُمنون المُحِبّ). وحاشية المؤلف: 177/2 برواية أخرى. ويُلاحظ أن الشَّطر الثاني ساقط الوزن.

وإليه أشار الشيخ أبو الفيض بقوله[483]:

[البسيط]

1) كُنْ لي كَما كُنْتَ لي إذْ لَمْ أكُنْ شَيًا	يا مَنْ بِهِ، لَيْسَ إلاّ، قامَتِ الأشيا
2) يا رَبُّ يا حَيُّ يا قَيُّومُ يا أحَدُ	بِذِكْرِهِ طابَتِ المَماتُ والمَحْيا[484]
3) غَيِّبْ بِفَضْلِكَ كُلَّ الخَلْقِ عَنْ نَظَري	حَتّى أراكَ ولا أراهُمْ شَيّا
4) واجْعَلْ حِجابَك، روحَ الخَلْقِ، سِرَّهُمُ	حَياةَ روحي، وَسِراً لي بِهِ أحْيا[485]
5) بِسِرِّ أحْمَدَ ثُمَّ سِرِّ فاطِمَةٍ	وَسِرِّ رَيْحانَتَيْهِ النّاشِرِ الطَّيّا[486]
6) كُنْ لي كَمَا كُنْتَ لي إذْ لَمْ أكُن شَيًا[487]	يا مَنْ بِهِ طابَ لي[488] المَماتُ والمَحْيا
7) رَضِيتُ بِاللهِ رَبّاً لَيْسَ لي مَعَهُ	أمْرٌ وَما أنا إلاَّ مَيْتَةٌ[489] الأحْيا
8) يا رَبُّ هَيِّئْ لَنا مِنْ أمْرِنا رَشَداً	وكُنْ لَنا حَيْثُ كُنّا، واكْسُنا هَدْيا
9) وَغَيِّبِ الفِكْرَ عَنْ فِكْري وَعَنْ نَظَري	حَتّى أراكَ، وكُلٌّ انْطوى طَيّا

ومن حسن تدبيره السابق، ما أشار إليه ابن جابر الغَسَّاني[490] في قوله:

---

[483]- القصيدة في: حاشية المؤلف: 2/ 177. ديوان حمدون: 346.

[484]- حاشية المؤلف: 2/ 177: طاب لي الممات.

[485]- في الأصل. إلى به أحيا. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/ 177.

[486]- في الأصل: الضيا. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/ 177. وبعده في ديوان حمدون: 346: «وقال رضي الله عنه»، للدلالة على أن النص اللاحق مستقل.

[487]- في الأصل: أك. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/ 177.

[488]- في الأصل: يا من طابت به. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/ 177. وفي ديوان حمدون: 346: يا من به طابت».

[489]- حاشية المؤلف: 2/ 177. ديوانه: 346: ميت.

[490]- أبو عبد الله محمد بن جابر الغَسَّانيّ المكناسي. عالم أديب (ت 827هـ) ترجمته في: الروض الهتون: 56-57. الدرة: 2/ 278-279 رقم 790. النيل: 286-287.

[قصيدة ابن جابر الغساني في الموعظة والحكمة]

[مجزوء الخفيف]

1) قُلْ لِلحَرِيصِ تَفَكَّرْ — إذْ كُنْتَ فِي بَطْنِ أُمِّكْ[491]

2) أَكُنْتَ أَعْدَدْتَ رِزْقًا — يُقيمُ نَشْأَةَ جِسْمِكْ؟!

3) وَعِنْدَ خَلْقِكَ لَمَّا — أَصْبَحْتَ أَضْعَفَ قَوْمِكْ

4) هَلْ قُمْتَ تُنْشِئُ ثَدْيًا — يُدِرُّ رِزْقًا بِرَسْمِكْ

5) حَتَّى فُطِمْتَ فَأَضْحى — أبوكَ يَسْعى لِطعْمِكْ

6) والأُمُّ تَجْهَدُ مَعْهُ فيـ — ـهِ إلى وَقْتِ حُلْمِكْ

7) فَحِينَ صِرْتَ قَوِيًّا — أخا احْتِيالٍ بِزَعْمِكْ

8) خِفْتَ الضَّياعَ، فَأَضْحَتْ — دُنْياكَ أكْبَرَ هَمِّكْ

9) هذا، لَعَمْري، سَفاهُ — قَضَى بِهِ سُوءُ فَهْمِكْ

وقال بعضهم[492]:

[الطويل]

1) تَذَكَّرْ جَميلي فيكَ، إذْ كُنْتَ نُطْفَةً — وَلا تَنْسَ تَصْوِيري لِشَخْصِكَ في الحَشا

2) وَسَلِّمْ لي[493] التَّدْبِيرَ واعْلَمْ بِأَنَّني — أُصرِّفُ أحكامي، وأفعلُ ما أشا

3) وكُن واثِقًا بي في أُمورِكَ كُلِّها — سَأَكْفيكَ مِنْها ما يُخافُ ويُخْتَشَى

[عودة إلى أخلاقه]

ومن أدبه أنه كان غيرَ مهتمٍّ بالرِّزق، مع الانقطاع عن أسبابه في آخر عمره جملة، وعدم الاكتراث بتغيُّر الأحوال والأسعار.

وكثيرا ما كان يحُضُّ على ترك الاجتهاد والحرص فيه، ويذكر أن الاجتهاد في ذالك، مع

[491]- القصيدة في حاشية المؤلف: 2/177.

[492]- الأبيات في حاشية المؤلف: 2/177-178. ولها تخميس في: الأنيس: 43. (مع تبديل في الرواية) الإيقاظ: 139.

[493]- الإيقاظ: 139: إلي. ولا يستقيم به الوزن.

التَّقصير في الحقوق الشرعيَّة، دليل على انطماس البصيرة، لأنَّ الرزق إذا كان موكولا إلى القسمة الأزلية، فهو لا يزيد ولا ينقص، ولا يُنال بحيلة. فما كُتب منه لكلّ أحد، لابد وأن يصل إليه، بين صغير وكبير، وشريف وحقير، وقويّ وضعيف، حتّى قيل[494]:

[البسيط]

1) لَوْ كانَ عَنْ قُوَّةٍ[495] أو عَنْ مُغالَبَةٍ   طارَ البُزاةُ بِأرزاقِ العَصافيرِ

وللإمام الشافعيّ، رضي الله عنه[496]:

[الكامل]

1) لَوْ كانَ بالحِيَلِ الغِنى، لَرَأيْتَني[497]   بِنُجومِ أقطارِ السَّماءِ[498] تَعَلُّقي[499]

2) لكنَّ منْ رُزِقَ الحِجا، حُرِمَ الغِنى   ضِدّانِ مُفْتَرِقانِ أيَّ تَفَرُّقِ

3) ومِنَ الدَّليلِ على القَضاءِ وكَوْنِهِ   بُؤْسُ اللَّبيبِ وطيبُ عَيْشِ الأحْمَقِ

ولبعضهم[500]:

[البسيط]

1) يا طالِبَ الرِّزْقِ، والأرزاقُ قَدْ قُسِّمَتْ   بَيْنَ الخَلائِقِ، لَمْ تَنْقُصْ، ولَمْ تَزِدِ

2) أتْعَبْتَ نَفْسَكَ، فيما لَسْتَ مُدْرِكَهُ   وَضاعَ عُمْرُكَ في هَمٍّ وفي نَكَدِ

3) لَوْ طِرْتَ بَيْنَ السَّما[501] والأرضِ مُجْتَهِداً   في شُرْبَةِ الماءِ، فَوْقَ الرِّزْقِ لَمْ تَزِدِ

4) هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإنَّ الرِّزْقَ عَنْ قَدَرٍ   يَأتي، ولَوْ أنَّهُ في جَبْهَةِ الأسَدِ

[494]- البيت من قطعة في: تحفة الإخوان: 68. (عن كتاب الوعظ لابن فرحون).

[495]- في الأصل: قلق. والتصويب من تحفة الإخوان: 68.

[496]- ديوانه: 104. من قصيدة زهدية.

[497]- ديوانه: 104. لوجدتني.

[498]- ديوانه: 104. بأجلّ أسباب السماء.

[499]- في الأصل: أتعلق. والتصويب من ديوانه: 104.

[500]- القطعة في: حاشية المؤلف: 2/152-153.

[501]- في الأصل: السماء. والتصويب من حاشية المؤلف.

[استطراد في قضية قسمة الأرزاق]

ومما يوضّح لك أمر القِسمة الإلاهية، حرمان كثير من الأقوياء الأذكياء، وسمحُه وإفاضتُه على كثير من الضعفاء والأغبياء، لِتَعلَم أن «ذالك تَقْديرُ العَزيزِ العَليم[502]»، وتدبير الملك الرّحيم. وفي ذالك قيل[503]:

[البسيط]

1) كَمْ مِنْ قَـوِي قَـوِيٌ في تَقَلُّبِـهِ	مُهذَّبِ الرَّأي، عَنْهُ[504] الرِّزْقُ يَنْحرِفُ
2) وكَمْ ضَعيفٍ ضَعيفٍ في تَقَلُّبِهِ	كَـأنَّهُ مِنْ خَليجِ البَحْرِ يَغْتَرِفُ
3) هـذا دَلـيـلٌ عَـلـى أنَّ الإلاهَ لَـهُ	في الخَلْقِ سِـرٌّ خَـفيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

وتقدم قول الشّافعيّ: «ومن الدّليل» إلخ. وقال بعضهم:

[السريع]

1) كَمْ مِـنْ عَليمٍ فَـهِمٍ بالُهُ	مُـسْـتَكْمِلِ الْعَقْلِ، مُـقِلٌّ عَـديمْ
2) وَمِنْ جَـهـولٍ مُكْثَـرٍ مـالُهُ	«ذالِكَ تَقْـديرُ الْعَـزيزِ العَليمْ»[505]

أوحى الله إلى موسى، عليه السّلام: أتدري لماذا رزقتُ الأحمق ؟ قل: لا. يارب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرّزق ليس بالاحتيال.

فإن قلت: الاهتمام بالرزق مما عمّت به البلوى، وشمل دؤاه العُضال أكثر الخلق. فقلّما شكوتَ لأحد بذالك، إلاّ شكا لكَ بمثله، كما قيل[506]:

[الرمل]

1) كُلَّمـا رُمْتُ لأشْكو عِلَّتي	لَمْ أجِدْ لي غَيْرَ[ذي] قَلْبٍ قَريح[507] ؟

[502]- سورة ياسين: 38.

[503]- الأبيات في: ديوان الشافعي:98. منهاج العابدين: 134. تُحفة الإخوان:68. (مع خلاف في الرواية)

[504]- في الأصل عند. والتصويب من ديوان الشافعي:98.

[505]- سورة ياسين:38.

[506]- البيتان في : الرسائل الكبرى:155.

[507]- ما بين معقوفتين زيادة ليستقيم الوزن. وفي الرسائل الكبرى: 155. « لا أرى غير دوي قلب قريح » و«لم أجد غير ذي قلب جريح».

2) كُلُّهُمْ يَشْكو الَّذي أشْكو بِهِ يا لَقَومي، ما عَلَيْها مُسْتَريحْ؟

فهل له من دواء يُستَعان به على دفعه؟ قلت: دواؤه، بتوفيق من الله، استحضارُ وقوع القسمة الإلاهية، والفراغِ منها، كما قيل:

[مجزوء الرمل]

1) قُلْتُ قَولاً باخْتِصارِ وَهْوَ صِدْقٌ لا مَحالَةْ

2) مَنْ لَهُ في الغَيْبِ شَيْءٌ لَمْ يَمُتْ حَتّى يَنالَهْ

فإن من استحضر ذالك لم يهتمّ.

قيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه وقال: الّذي خلق الرَّحى، يأتيها بالطَّحين.

وسأل رجل سَهْل بن عبد الله[508] عن القوت فقال: هو الحيُّ الذي لا يموت. فقال: إنما سألتك عن الغذاء. قال: الغِذاء هو الذِّكر. قال: إنما سألتك عن طُعمَة الجسد. فقال: مالك وللجسد؟ دع من تولاه أولاً، يتولاّه آخراً.

«وروي[509] أن قوما من العرب زرعوا زرعًا، فلما بلغ، أصابته آفة، فاشتدّ ذالك عليهم، فخرجت أعرابيّة منهم فقالت: مالي أراكم مَتغيِّرةً ألوانُكم، مَيِّتَةً قلوبُكم؟ هو ربُّنا، فليفعلْ بنا مايشاء، ويرزُقُنا حيث شاء. ثم قالت[510]:

[البسيط]

1) لَوْ أنَّ في صَخْرةٍ، في البَحْرِ راسِيَةٍ[511] صَمًّا مُلَمْلَمَةٍ مَلْسًا نَواحِيها

2) رِزْقًا لِعَبْدٍ بَراهُ اللهُ لانْفَلَقَتْ حَتّى تُؤدِّي إليهِ كُلُّ ما فيها

3) أوْ كانَ فَوقَ طِباقِ السَّبْعِ مَسْلَكُها لَسَهَّلَ اللهُ في المَرْقى مَراقيها

4) حَتّى يَنالَ الّذي في اللَّوحِ خُطَّ لَهُ فَإنْ أتَتْهُ، وإلاّ، سَوْفَ يَأتيها

[508]- سهل بن عبد الله التُّسْتُريّ. صوفيّ مشهور. (ت283هـ)ترجمته في: الوفيات: 2/429-430. رقم281. الطبقات الكبرى: 1/77-79 رقم149 الرِّسالة:14-15.

[509]- الحكاية في تُحفَة الإخوان:68-69.

[510]- الأبيات في:حاشية المؤلف:2/153. تُحفَة الإخوان:68-69.

[511]- في الأصل: راسية. والتَّصويب من حاشية المؤلف:2/153.

وقال رجل لأعرابيّ في فلاة: من أين معيشتُك؟ فقال: لو كنّا لا نعيش إلا من حيث نعلم، لطال جوعنا».

فهذا كله من استحضار القسمة الأزلية، والوثوق بالضّمان. وفي التنزيل: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ»[512]. الآية. قدّم المُسنَد إليه على الفعل، ليتكرّر الإسناد، ويتقوّى ويفيدَ قصرَ القَلْب والإفراد. أي نحن وحدنا، لاغيرنا وحده، أو معنا. وفيه أنّ القسمة في غاية الإحكام، وإصابة الصواب، وأنه لا محلّ للحسن، إذ ليس إلا تخطئة لمن هو عين الحكمة والصواب، وإساءة الأدب على ربّ الأرباب. ولقد أحسن من قال[513]:

[المتقارب]

1) ألا قُلْ لِمَنْ باتَ لي حاسِدا   أتَدْري عَلى مَنْ أسَأْتَ الأدَبْ؟
2) أسَأْت على اللّهِ في حُكْمِهِ   لأنَّكَ لَمْ تَرْضَ لي ما وَهَبْ
3) فَجازاكَ عَنّي بِأنْ زادَني   وَسَدَّ عَلَيْكَ وُجوهَ الطَّلَبْ

وأنه إذا كان هو القاسم، لم يكن إلا ما أراد، فمن رضي، فله الرِّضى، ومن سخِط، فله السُّخط.

وفي الآية بيان حكمة التّفاوت في الرِّزق، وأنها تَعاوُنهم وتَوافُقهم، واستسخار بعضهم بعضًا، فيستعمل الأغنياء الفقراء في الأعمال الشاقّة بالأجرة، والفقراء الأغنياء في متاعب الأسفار، وجلب السّلع التي يحتاج إليها الفقراء من بعيد الأقطار.

[عودة أخرى إلى أخلاقه]

ومن أدبه، أنه لا يُريد الخوض في شيء من تصاريف أقدار الحق، سبحانه، ولا التّعرُّض للكلام فيما وقع، ولا تمنّيَ زوال ما هو واقع منها. ويَعُدُّ الخوض في ذالك كلّه، اعتراضٌ على الحق،[و][514] سوءَ أدب معه. وينسب القصور للنّفس، ويرى النقص منها فيما يُبتلى به العبد من القضاء، بعد الاعتراف أنّه من الله، تخلّقا بأخلاق الشريعة المحمدية، وتحقّقًا بأن الكمال لا

512– سورة الزُّخرُف:32.

513– الأبيات في: حاشية المؤلف:2/156. تُحفة الإخوان: 238.

514– زيادة ليستقيم التركيب.

يُنسب إلاّ إليه.

وأمّا كرمه وسخاؤه، فعظيم. ليس على سَنَن ما يُؤلَف. جعله الله له وصفًا طبيعيًا، ثم صرفه فيه تصريفًا شرعيًا، فكانت وقائعه في ذالك عظيمة، وأياديه فيه حسيمة. يُعطي عطاءَ من لايخاف الإفقار، ولايبالي بإفراط ولا بإكثار:

[البسيط]

1) لا يَألَفُ الدِّرْهَمُ المَضروبُ صُرَّتَهُ[515] لكِنْ يَمُـرُّ عَلَيْـهـا، وَهْوَ مُنْطَلِقُ

وكيف يُبالي من تخلّى قلبُه عن العرض الفان، ورَقِيَ مقام الإحسان والعرفان؟ إذ من عين الوجود يُنفق، وبوابل فضله يَدْفُق. ومن عادته في ذالك، المبالغة في الإخفاء جدّاً، حتّى لا يشعُر في الغالب المعطى (بالفتح)، فضلاً عن غيره، بمن وصل له منه ذالك، طلبًا للوجه الأكمل، الذي فضّل الله في كتابه بقوله: «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»[516]، وحرصاً على رفع همّة المُعْطى له، ليشكر نعمة مولاه، ولايتشوّف للّذي جرت المنحة على يده. وقد قال في بعض خطبه:

[من كلام له]

«إنّ أهمّ وأفضل ما له العبد تَدَرَّعَ، أن يتثبّت فيما يدّخره، ليوم يحصد فيه الزّارع ما زرع، فيخلّصه من الرّياء والسمعة ابتداء، ومن المَنّ والأذى انتهاء، ولئلاّ يُضيعَ ماله في لا شيء، ولا يكون له ظِلّ ولا فيء، بل يُنقل من أنفس الدّرجات، إلى أخسّ الدّركات، وأن يجتهد في أن يُنفق من حلال، فبقدر حلّه يزكو عند ذي الجلال، وأن يُؤثر بالأحب الأجْود على نفسه، لينجح ثمّ غرسُه».

وكثيرا ما كان يَحُض على الجود ويقول: «إن من أراد أن يتيسّرَ له، بإذن الله ما تعسّر، وينفعل له الوُجود، وتنهلّ عليه سحائب الخيرات، دنيا وأخرى وتجود، فليتخلّ عن رذيلة الشُّحّ، ويتحلّ بفضيلة الجود، ويتعوّدْ بسْط اليدين، وبذل الموجود».

ويقول، كما قال أبو العبّاس المُرسِيّ: «أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان، وأصل

[515]– البيت في: نزهة الأنظار: 342/2. جواهر المعاني: 32/1.
[516]– سورة البقرة: 271.

الشر في الدنيا والآخرة البخل».

ويقول: «الإحسان هو قطب رحى التَّوحيد، وشمس ضُحى العبادات، وسعد سُعود التّجريد، وقمر كواكب المجاهدات، الهادية إلى حضرات الأنس والشهود. لم لا؟! وهو خُلُق الله، وخُلُق أكرم رسول لِله[517]، وخُلُق صحابته الّذين بذلوا في اتّباعه المجهود».

هذا، ومن جملة جزئيات قضاياه، وبعض ما شوهد من وافر إحسانه وعطاياه، أن عمد إلى جنان له كبير بالمَرْج، فباعه غَيْرَ محتاج إلى بيعه، بألفَيْ مثقل (بالتَّثنية)، وأنفقه كُلَّه وحلّه في سبيل الله، وخصوصا أهل البيت، إذ كانت عادة بعض القبائل منهم قبل هذه السِّنين، لا يلبسون إلا الحُيُك[518] المنسوجة بالحرير، فاشترى بذلك حُيُك[519] كثيرة من المُحَرْبَل[520] والقطن، [وأرسل بها][521] إلى كلّ واحد منهم إلى موضعه، ويُذَكِّرُه بآيات وأحاديث، وأقاويل العلماء، ويدفع له حائكا من ذالك، ومن الدَّراهم ما يُناسبه، ويأخذ عليه العهد أن لا يعود إلى لبس الحرير أبدا، لا هو ولا من تلزمه نفقته، فلم يَعُدْ واحد منهم إلى لُبْسِه أبدا، فضلا من الله ورحمة.

وأمّا فُتُوّتُه، فقد تقدَّم ما يُنبِئ عن شيء منها، عند التَّعَرُّض للكلام عن بعض أخلاقه، والمروءةُ شُعبة منها. والفُتُوَّةُ من الأخلاق الجامعة لأنواع الأصناف الحميدة، كالحِلْم والعَفْو، والسَّخاء والوفاء، والسَّتر على عُيوب الناس، وإعانتهم ومعاملتهم بجميل الإحسان. ومرجعها إلى الإيثار، والسَّخاء الأعظم، أي السَّخاء بالنفوس. وأصلها كما قال القُشَيْرِيّ[522]: «أن يكون ساعيا في أمر غيره دائما»[523].

---

[517]- بياء: رسول الله.

[518]- جمع حائك. وهو ضرب من الجلاليب المغربية القديمة.

[519]- كذا بالأصل وغيره. ويلاحظ بعض الاضطراب في هذه الفقرة.

[520]- ضرب من الثِّياب.

[521]- بياض في الأصل، قدره كلمتان أو كلمة، ملأناه بما ناسب.

[522]- أبو القاسم، عبد الكريم بن هَوازِن، صوفيّ مشهور. (ت 465هـ) ترجمته في: الوفيات. 3/205-208. رقم 394. طبقات المفسّرين: 61-63. رقم 64. طبقات الداودي: 1/344-352. رقم 302.

[523]- الرِّسالة: 102.

وقد بيّنها أهل الطريق بتفسيرات أوردها في «الرّسالة»[524] وعبّروا عنها بعبارات، كُلٌّ بِحَسَب ما غلب عليه، وبِحَسَب نوع من أنواعها، فسّروها بكفِّ الأذى، وبذل النّدى. وهي عبارة الجُنَيد[525].

وبالصّفح عن عثرات الإخوان، بأن تُنْصِف ولا تَنتَصِف، وبأن إذا أُعطِيْتَ آثَرْت، وإذا مُنِعْتَ شَكَرْت. وبأن لا ترى نفسك فيها. وبحُسْنِ الخُلُق، وبـتّبـاع السُّنّة.

وأكثر ما يُستَعمل عندهم في المساواة، والعِفّة عند الإساءات. قال سَيِّدي أبو مدين، رضي الله عنه، في قصيدته الرائيّة[526]:

[البسيط]

1) وبالتّـفَـتّي على الإخوان جُـدْ أبداً حِسّاً ومَعْنى، وغُضّ الطَّرْفَ، إن عثرا

وللشيخ أبي الفيض من هذه الأوصاف أعظم نصيب، والسّهم الذي ما عثر عليه في وقته مُصيب.

وأما سخاؤه بنفسه، الذي هو أعظمها، فإنه إذا كان وقتُ خوف من لصوص وغيره، رأيته يتقدّم بنفسه، ويدفع بها عن غيره، إيثارا له بنفسه.

ويندرج فيه ما عُلِمَ من شِدّة إقدامه على مولان السُّلطان، في الصَّدْع بالأمر بالمعروف، والنّهي عن المُنْكر، فيما يرتكبه الولاة من الجَوْر على الرّعايا. ولُبِّس عليه، كما تقدّم، حتّى لَقِيَ منه في ذالك مكاره، عَتْبا مرة، وهجرانا أُخرى

وقد أمَرَ يوما بسَلِّ لسانه، فنجّاه الله منه. وقال له مرّة: أتعرف الحالة التي قُتِلَ عليها ابنُ زَمْرَك؟ ولم يكن يرده ذالك في الغالب عن مخاطبته بما ذُكِر، لصدق نِيّته، وحُسْن طوِيّته. وربّما تقاعس. وأنشد يوما لنفسه[527]:

---

[524]- الرّسالة: 103-105.

[525]- الرّسالة: 104.

[526]- القصيدة في: تُحفة الإخوان: 56. رماح حزب الرحيم: 1/25-26.

[527]- البيتان في: النوافح: 438.

[المجتث]

1) دعِ الأميرَ وسوقَهْ فإنَّما نحنُ سوقَهْ
2) يَلقَ جزاءَ هُداهُ أو جَوْرَهُ وفُسوقَهْ

وأما حلمه وعفوه، فشأنُه الصفح عمَّن اشتغل بإذايته، وعدم المؤاخذة له، والنَّظرُ فيه بعين الحقيقة، والتماس المعذرة له، لأن من نظر إلى ما يجري على الناس من الأقدار، عذرهم، وإنما يجيء الملام من عدم شهود أمر الله النافذ فيهم[528]. وكان يُنشِد قول ابن عطاء الله[529]:

[الكامل]

1) لا تَشْتَغِلْ بالعَتْبِ يَوْمًا للورى فيَضيعَ وَقْتُكَ، والزَّمانُ قصيرُ
2) وَعَلامَ تَعْتِبُهُمْ، وأنتَ مُصَدِّقٌ أنَّ الأمورَ جَرى بها المَقْدورُ؟
3) هُمْ لَمْ يُوَفُّوا لِلإلاهِ[530] بِحَقِّهِ أتُريدُ تَوْفِيَةً، وأنتَ حَقيرُ؟
4) فَاشْهَدْ[531] حُقوقَهُمْ عَلَيْكَ وقُمْ بِها واسْتَوْفِ مِنْك لَهُمْ، وأنتَ صَبورُ
5) وإذا فَعَلْتَ، فأنْتَ أنْتَ بِعَيْنِ مَنْ[532] هُوَ بالخَفايا عالِمٌ وبَصيرُ[533]

ومع ذالك، كان يَمُرُّ على المُسيء إليه[534]، ويُشفق من حالهم، ويُعاملهم ويُهديهم، ويُلاطفهم قولا وفعلا، حتَّى يستحي ذالك المُسيء ويخجل، وخصوصا من كانت له قرابة.

أخبرني الشَّريف العالم الأديب، أبو العباس، أحمد بن إدريسَ العلميُّ العبدُ السَّلاميّ، أحد تلامذة الشيخ، أنه كان هجا [الشيخ][535] بأبيات. ولما وصلت إليه، قال له بطلاقة وجه وبشاشة: عندك على وجه نسامحك. أعني قرابته بمولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم.

---

[528]- ما بعده ساقط في باء.

[529]- الأبيات في: التَّنوير: 44.

[530]- في الأصل: الإلاه. والتَّصويب من: التَّنوير: 44.

[531]- في الأصل: واشهد. والتَّصويب من: التَّنوير: 44.

[532]- التنوير: 44: «وإذا غفلت فاشهد بعين من» ولايستقيم به الوزن.

[533]- التنوير: 44: خبير.

[534]- انتهى ما سقط من باء.

[535]- بياض في الأصل، وزيادة من باء.

وهذا[536] في صُغرى أمة من إمائه تقول: «شتَّتَ الله شملك بالماء والشَّطَابَة إلى قاع البحر». ولم يُغَيِّرها بشيء. وبالجملة حاله في ذالك كما قيل[537]:

[الطويل]

1) صَفوحٌ عنِ الزَّلَّاتِ[538] حَتَّى كَأنَّهُ   مِنَ العَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجرما

2) ولَيْسَ يُبالي أن يَكونَ بِهِ الأذى   إذا الأذى لَمْ يَغْشَ في النَّاسِ مُسلِما

وأما وفاؤه فعجيب. إذا استسلف شيئا قضاه بسرعة، ومنه الوفاء بمعاملة الإخوان، وحِفْظُ عهودهم في كلّ أوان. ما جاءه أحد يلتمس قضاء حاجته منه، أو من غيره بواسطة، إلاّ قضاها له لا محالة، وسعى في تحصيلها ما أمكن. وكثيرا ما كان ينشد في ذالك لنفسه في الحضّ على الوفاء بالعهد[539]:

[البسيط]

1) كُنْ مِثْلَ صورَةِ بدْرٍ وافِياً أبداً   بِوَعْدِهِ مُبْهِجاً لَنا بإسعادِ

2) لا مِثْلَ صورَةِ بدْرٍ في تَفَرُّدِها   بِحَذْفِ ميعادِها لِسِرِّها البادي[540]

3) إذْ كانَ ميعادَ خَلْفٍ، لا ثَباتَ لَهُ   لا خالِفُ غَيْرَ حاذِقٍ لِميعادِ

ومما يندرج في هذا الوفاء أيضا، توفيتُه في معاملة مولاه، وعبادته له، وقيامُه لله في سائر حركاته، ولا يرجع عن شيء لله عزم عليه. وأعظِمْ بذالك وفاءً ومنّةً من الله وعطاء!

وأما إيثارُه للغير على نفسه، فممّا لاحتْ للعيان دلائله، وأوضحت مآثره وفعائله. وكم له فيه من مآثر غريبة، ومنقبة عجيبة! أُعطِيَت له بدرب جَنْبارة من فاس، دارُ مُناصفةً بينه وبين العلاّمة المحقّق البليغ، أبي عبد الله، محمّد بن عمرو الزّروالي، المُتَوَفّى عن غير عَقِب، في صبيحة يوم الأحد، ثاني عشر ذي القعْدَة، عام ثلاثين ومئتين وألف (1230-1815)، فآثره

[536]- هنا ينتهي تماما نص المخطوطين ميم وباء، وبعده وارد في خاء، ثم في روضة النِّيْلوفر.

[537]- البيتان في: شرح جسوس: 204.

[538]- شرح جسوس: 204. الاجرام.

[539]- الأبيات في ديوانه: 96.

[540]- خاء. بياض سطرين.

على نفسه في حَظّه، وسلّم له فيه لله.

وأما رفع هِمّته، أي الحالة العارضة للقلب، وهي قوة إرادة، وغلبة انبعاث إلى نيل مقصودها، وتكون عالية، إن تعلّقت بمعالي الأمور، وسافلة، إن تعلقت بأدناها. قال الشّاعر[541]:

[المتقارب]

1) وقائلةٍ: لِمْ عَلَتْكَ الهمومُ — وأمْرُكَ مُمْتَثِلٌ في الأمم

2) فقُلْتُ: ذريني على حالتي — فإن الهمومَ بقدر الهِمَمْ

فإنه لا تعلُّقَ له بغير الله، ولا تعريج له على ما سواه. مَصونُ السِّرِّ عن الالتفات إلى الأغيار، أو عدم تأميلهم في نفع أو إضرار، اكتفاء بالمولى، وتحفُّظا باسمه الأعلى. وكثيرا ما كان يُنشِد قولَ ابن عطاء الله[542]:

[الكامل]

1) اللهُ يَعْلَمُ أنّي ذو هِمَّةٍ — تأبَى الدَّنايا عِفَّةً وتَظرُّفا

2) لِمَ لا أصونُ عَنِ الورَى ديباجَتي — وأُريهِمُ[543] عِزَّ الملوكِ وأشْرَفا؟!

3) أأُريهِمُ أنّي الفقيرُ إليهِمُ — وَجَميعُهُمْ لا يَسْتَطيعُ تصرُّفا؟!

4) أم كَيْفَ أسألُ رِزْقَهُ مِنْ خَلْقِهِ[544] — هذا لعَمْري، إنْ فعَلْتُ، هُوَ الجَفا

5) شَكوى الضَّعيفِ إلى الضَّعيفِ مِثْلِه[545] — عَجْزٌ أقامَ بِحامِليهِ عَلى شَفا

6) فاسْتَرْزِقِ اللهَ الّذي إحسانُهُ — عَمَّ البَرِيَّةَ مِنَّةً وتَلَطُّفا[546]

[541]- البيتان في: السّلوة: 3/139.

[542]- الأبيات في: التّنوير (من قصيدة): 54-55. لطائف المِنن. 76. تحفة الإخوان: 43. شرح حسّوس. 286.

[543]- خاء: فأريهم.

[544]- تحفة الإخوان: 43: من غيره.

[545]- خاء: ضعيف إلى ضعيف مثله. وفضلنا رواية التّنوير: 55.

[546]- خاء: تعطفا.

7) والْجَأْ إِلَيْهِ تَجِدْهُ[547] فيما تَرْتَجِي   لا تَعْـدُ عَنْ أبوابِهِ مُـتَـحَـرِّف

وقولَ الآخر:

[الخفيف]

1) مُـذْ عَـرَفْتُ الإلاهَ لَمْ أرَ غَـيْـرَهُ[548]   وكَـذا الغَـيْـرُ عِنْدَنَا مَـمْنوعُ

2) مُذ تَجَمَّعْتُ ما خَشيتُ افْتِراقًا   فَـأنا اليَـوْمَ واصِلٌ مَـجْـمـوعُ

وأمّا ورعُه، فرجل لا ينطق إلا بالله، ولا يدلُّ إلاّ عليه، ولا يُعَرِّجُ على مخلوق سواه، مع شدّة الاحتياط في سائر مُعاملاته ومُناولاته، وسائر تصرُّفاته، فيما يتعلّقُ به وبأولاده، ومن له ارتبط به، بالغا في ذالك الغاية، واصلا فيه النّهاية.

وأما زهدُه، فقد أحرز قصبات السَّبْق في مراتبه الثلاث: ترك المنهِيّات، الّذي هو زُهد العوامّ، وتركُ فُضول الحَلال، الّذي هو زهد الخَواصّ، وتركُ ما يشغل القلب عن الله، الذي هو زُهد العارفين.

والنّوع الأوّل منه مندرج في السِّيرة. والمقصود هنا الزُّهد الخاصّ الّذي هو باقي النّوعين، وهو أمر باطنيّ، ووصف قلبيّ. لكن تظهر في الأفعال نتائجه وثَمَراته، وتلوح على الظاهر أماراته. وهو على قسمين: ما يتعلق بالأمور الظّاهرة. فمنه الزُّهد في المال والجاه، والرِّياسة والظُّهور، وثناء الخلق ومَحْمَدَتِهم، ومُوالاتهم ومَوَدّتهم. ويندرج في هذا القسم المرتبة الثّانِيَة كلُّها، وبعض الأخيرة. وباقيها يندرج في القسم الثاني، وهو ما يتعلق بالباطن، إذ هو زهد العارفين خاصة.

أما زهدُه في المال، فيُعلَم بتفرقته إيّاه على الدوام والاستمرار، كما تقدّم. وكثيرا ما كان يتولّى عَدَّهُ وإنفاقه غيرُه، ممن يباشر عملا من أعماله.

وأما الزُّهد في الجاه والظُّهور، فاعلم أنه بعد أن كان في أول أمره، غُرَّةً في جبين المُلك، ودُرَّةً لا تصلح إلا لذلك السِّلك، وباهت به الأيام، وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت

[547]- خاء: تجد له. ولا يستقيم به الوزن.

[548]- البيتان في: الإيقاظ: 136 رسائل الدَّرقاوي: 50. 71. 86

عليه الدَّولة السُّليمانيَّةُ اشتمال الأكمام على النَّوْر، وانسربت إليه الأماني انسرابَ الغماء إلى الغَوْر، وانتظم في سلك الرِّياسة وارتبط، وحُكِّم ما شاء فحَكَّم اختصاصه بها وربط. تَخلّى عن ذلك تَخَلِّيَ العِقْدِ عن عنق الحسناء، وأعرض عنها إعراضَ النَّسيم عن الرَّوضة الغنَّاء، فانقبض عن أنواع الناس وأجناسهم، واستوحش من إيناسهم، وأنِس بنتائج أفكاره، وهام بعُون العلم وأبكاره، وصرف وجهه تجاه البِرِّ والتُّقوى، وترك ربْع الحَظوة عافيا قد أقوى، وصار يلتمس الخفاء والإخمال، ويُلقي نفسه في زوايا الإغفال والإهمال.

وكان، قبل ذلك، جَبَرَهُ مولانا السُّلطان[549] على تولية خطة الأحكام بجميع نواحي الغَرب، لمَّا تحقق أنه البحر النقيّ السّاكن العذب، وأقعده في ثغر العرائش على كلّ المنصة، وبوأه المراتب اللائقة به المختصة، فقبلها، على رغم منه، في طاعة الله بطاعة أميره، وأقالها ووضع في يد التُّقوى عقالها، وحماها بأسنَّةٍ من العدل وشِفاره، وأراها وجه الديانة[550] عند الإسفار. لا يُسْتَنْزَلُ في حقيقة، ولا يتنزَّل عنها بملك النعمان ذي الشقيقة[551]، فحَبِيت به الرَّعايا، ولويت إلى ألسُن البقا والسعاب، وطار بعدله طائر الاشتهار، في سائر النواحي من القرى والأمصار. ثم زهد في ذلك، واستعفاه بقصيدة غرّاء فأعفاه. نَصُّها:

[رائية أبي الفيض حمدون، في استعفاء المولى سليمان ومدحه][552]

[مجزوء الكامل]

1) قَدْ كِدْتُ مِنْ فَرَحِي أطيرْ	لَوْ أنَّ إنسانٌ يطيرْ
2) لَمَّا شَمَمْتُ نَسِيمَها	وبُروقَ عِطْفٍ لي تُشيرْ

549- السلطان المقصود هو المولى سليمان.

550- كلمة مدمجة تشبه أن تكون: الفح.

551- خا.. بن الشُّقيقة. وهو تصحيف. والمقصود النُّعمان بن المنذر، ملك العرب بالحيرة، وإليه تنسب الشقائق، وهي نَوْرٌ أحمر.

552- القصيدة في النَّوامح: 370-374. وهي مؤرخة بأول عام 1219هـ/1804م. وهي عموما تنظر إلى قصيدة المنخل اليشكريّ المشهورة. الأصمعيات: 58-61.

3) هيَ يوسُفُ، وكَأنَّني يَعقُوبُ إذ جاءَ البَشيرْ

4) زِدْ مِنْ حَديثِكَ يا نَسِيـ ـمُ، فأنتَ لي الأنَس[553] السَّميرْ

5) وأدِرْ مُدامَةَ ذِكْرِها لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ مُديرْ!

6) فالقَلبُ منِّي في لَظًى والطَّرْفُ منِّي في غَديرْ

7) لَمْ أنْسَ إذ زارَتْ، ومِنْ ألحاظِها كَأسي أُديرْ

8) لَمْ يَنْكَسِر لَحْظٌ لَها إلاَّ غَدا قَلبي كَسيرْ

9) خَصَرَتْ لنا ما في الفَلا فَغَدا الغَزالُ فيها خَسيرْ

10) وتَمايَلَتْ في رَوْضَةٍ كَتَمايُلِ الغُصْنِ النَّضيرْ

11) وشَمَمْتُ زَهْرَةَ ثَغْرِها ما المِسْكُ مِنْها وَما العَبيرْ

12) ولَمَسْتُها كَأنَّني لامَسْتُ طاقاتِ الحَريرْ

13) وَضَمَمْتُها فاهْتَزَّ مِنْ فَرْطِ السُّرورِ بِها السَّريرْ

14) ولَثَمْتُها فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفُّسِ الظَّبْيِ العَقيرْ

15) فَسَألْتُها عَنْ حالِها فَتُجيبُ: إنَّ أبي خَسيرْ

16) مازالَ في سِجْنِ العَرا ئشِ لا يُجيبُ ولا يُجيرْ

17) ولأنتَ أشْعَرُ شاعِرٍ تُنْسي الفَرَزْدَقَ، بلْ جَريرْ

18) بِاللهِ قُلْ لي: هَلْ تَرى في الدَّهْرِ مِثلَكَ في نَثيرْ

19) أو في نِظامِ قَلائِدٍ مِنْها العَرائسُ تَسْتَعيرْ

20) ما رَدُّ مِثْلَكَ شافِعًا مَلِكٌ، ولَوْ هُوَ أزْدَشيرْ

21) لَوْ قَدْ رَثَيْتَ لِحالَتي لَشَفَعْتَ لي عِنْدَ الأميرْ

22) عِنْدَ الأميرِ أبي الرَّبيـ ـعِ، أبي السُّعودِ المُسْتَنيرْ

23) الصَّفْحُ مِنْ صَفَحاتِ وجْـ ـهِهِ طالِعٌ[554] بَدْرًا مُنيرْ

---

[553]- النوافح: 370: أنيس.

[554]- في الأصل: طالعا.

24) أوَ مـا تَراهُ قَـدْ عَـفـا عَـمَّنْ جَنى الذَّنْبَ الكَبيـرْ
25) عَنْ بَربَرٍ قَـدْ طالَـمـا ظَنُّوا بِأنَّ لَهُمْ نَصيـرْ
26) حَـتَّى إذا لَمْ يَعْـرِفـوا دَهَشَـا قَـبـيـلاً مِنْ دبيـرْ
27) مَنْ كـانَ في عـيـرٍ ومَنْ قَـدْ كـانَ مِنْهُمْ في نَفيـرْ
28) مَـدُّوا لَهُ أعناقَـهُـمْ ويَدا الكَبيـرُ هُوَ الصَّـغيـرْ
29) حَـتَّى إذا كـانوا بِأسْـرِهِمْ أسـيـراً لا يَسـيـرْ
30) قَـدْ عَفَ عَنْهُمْ وابْتَـغى مِنْ رَبِّهِ العَـفْـوَ الغَـزيرْ
31) مِنْ بَعْـدِمـا حَلُّوا لَظى مِنْ بأسِـهِ لَهُمْ زَفـيـرْ
32) امْـتَنَّ فَـدَخَّلَهُمْ جِنا نَ العَـفْـوِ والفَضْلِ الكَثيـرْ
33) وَرِثَ السَّـمـاحَـةَ مِنْ أبٍ لأبٍ، إلى الشَّـرَفِ الأثيـرْ
34) الزَّمْـزَمِيُّ المُسْـتَـجـيـبِ لِمُسْـتَجيـرٍ مِنْ سَعيـرْ
35) وكَـأنَّـهُ في مُـلْـكِـهِ رَبُّ الخَـوَرْنَقِ والسَّـديرْ
36) لا وَالَّذي أحْـيـا بِهِ الـ(م) ـعُـمَـرَيْنِ مـا لَهُ مِنْ نَظيـرْ
37) هُوَ في السِّـيـادَةِ مُـفْـرَدٌ مـا إن لَهُ فـيـهـا وَزيرْ
38) وَمَـتى سَـألْتَـهُ عَنْ عُلو مٍ، لَمْ تَبِنْ تَسْـألْ خَـبـيـرْ
39) [وَمَـتى سَـألْتَـهُ أن يَمـيـرَ، تَسَلْ بِهِ بَحْـراً يَمـيـرْ][555]
40) وَمَـتى انْتَـصَـرْتَ بِهِ لِحـادِثَةٍ، تَجِـدْ نِعْمَ النَّصِـيـرْ!
41) وَمَـتى هَـزَزْتَـهُ لِلنَّدى تَثْـقفْ بِهِ ريحـاً تُثـيـرْ
42) إنْ كـانَ ريحـاً في نَدى هُوَ في رزانَتِـهِ ثَبـيـرْ
43) وإذا رأيْـتَ، رأيْـتَ ثـَـ(م) ـمَّ نَعـيـمـاً أو مُلكاً كَـبـيـرْ
44) لا وَالَّذي رَفَعَ السَّـمـاءَ، وفَـجْـرُهُ فـيـهـا يُنيـرْ[556]

[555]– سقط من الأصل. والتعويض من: النّوافح: 374.
[556]– النوافح: 374: منير.

45) مــــا إن رأيتُ ولا ســـمِــعْـ	تُ بِمثْلِ فَـجْـرِهِ يَسْتطيـرْ
46) ولَـهُ الجَـزائرُ تَـمْـتَطِي	كَيْ تَسْتَضِيءَ وتَسْتَنِيرْ
47) اَللّـهُ يُؤْتِيـهـا كَـمـا	آتى السُّوى، وَهُوَ البَصِيرْ
48) ويُديمُ نَشْـرَ كَـمـالِـهِ	مـا دامَ نَشْـرٌ مِنْ عَـبِـيرْ
49) ويُطيلُ كَـحْـلَ جُـفـونِـنا	بِهِ، لا كَـجَـفْنٍ مِنْ غَـرِيرْ
50) حَـتَّى يعـودَ الكُلُّ مِنْ	فَـيْضٍ يُمَـدُّ بِهِ قَـدِيرْ

[تتمّة عن سيرته]

وأما فيما يتعلق بالأمور الباطنية، كالزُّهد في المقامات والأحوال، بترقّي الإنسان عنها شيئا فشيئا، وانتقاله من مقام إلى مقام، بالزُّهد فيما هو فيه، فينقله الله إلى ما هو خير منه، أو التّخلّي عنها دفعة، والمحْوُ عنها رأسا، إلى ما لا يُعبَّر عنه ولا يظفر به إلا من منَّ عليه الله سبحانه. وقد رَقِي الشيخ أبو الفيض حمدون، في آخر عُمره من هذا، فكان مكينا، ولاح في سمائه بدرا مُبينا، كما يُعلم ذلك من إشراته وكلامه.

وأما حديثُه، فحسبُك دليلا عليها ما تقدم من عُلُوِّ همته في كلّ شيء، وعظيم زهده ظاهرا وباطنا، وكثرة إيثاره سِراً وإعلانا، إلى ما اتُّصف به من وافر العلم والمعرفة، وخالص التوحيد، الدالَّيْنِ على كمال عبوديّته، الدالّة على تمام حُريته، والحرِّيّة حاصلُها الخروص والاعتبار. قال القُشَيْرِيّ[557] «هي أن لا يكون العبد بقلبه تحت رِقِّ شيء من المخلوقات، لا من أعراض الدنيا، ولا من أعراض الآخرة، فيكون فَرْدَ الفَرْد، لم يسترِقّه عاجلُ دنيا ولا آجل، ولا سؤالٌ ولا قصد، ولا حَظٌّ ولا أرب». اهـ. وإنما أربُه مولاه، وحظُّه حُبُّه ورضاه.

هذا ما تيَسَّر من سيرته السَّنيَّة، والجُمَل من أخلاقه السُّنِّيَّة، ولنختمْ هذا البب بقصائد ثلاث له في التَّحلّي بالفضائل، والتَّخلّي عن الرَّذائل، كلُّ واحدة منها اشتملت على أمثال وحِكَم، بما تَقْصُر دونه الهِمَم، الأولى لامية من بحر الرَّمل، المحذوفة العروض والضَّرب، المقيَّدة

[557]- الرسالة: 100. (مع بعض الاختصار).

القافية، عارض بها قصيدة الشيخ أبي حفص، عُمَرَ ابن الوردي[558] الشهيرة. نَصُّها:

[لامية حمدون ابن الحاجّ][559]

[الرمل]

1) ألْبِسِ النَّفسَ حَلْيًا وحُلَل[560]	مِنْ زكيِّ الخُلْقِ في خَيْرِ المِلَلْ
2) إنَّما المرْءُ بِنَفْسٍ شَرُفَتْ	وكَذا السَّيْفُ بِنَصْلٍ وَعَمَلْ
3) قُلْ لِمَنْ يَرْفُلُ في حَلْيٍ وَفي	حُلَلٍ: هَيهاتَ، ما الكُحْلُ كَالكَحَلْ!!
4) فَأَعِرْ أُذْنَيْكَ مِنْ حَدَثٍ لا	تُولِهِ وَصُمَّ التَّفاتٍ وَمَلَلْ
5) وتَذَلَّلْ في مَقامِ الذُّلِّ لا	تَتَذَلَّلْ، رُبَّما ذاكَ أذَلْ
6) وتَواضَعْ تَعْلُ، فَالماءُ جَرى	في عُروقٍ فاعْتَلى حَتَّى وَصَلْ
7) وَدَعِ الكِبْرَ ولا تَهْدِمْ بِهِ	رُكْنَ مَجْدٍ في عُلاهُ الطَّرْفُ كَلْ
8) زَهْرُ الأغْصانِ مِنْ إعجابِهِ	بِمَعالِيهِ تَرَدَّى ونَزَلْ
9) حَلَّ في الأصدافِ والحَيَّةِ ما	صارَ لُؤْلُؤًا وسُمًّا قَدْ قَتَلْ
10) واتْرُكِ الغادِرَ، والغالِبَ خَفْ	وَتَصَدَّقْ بِمُداراةِ السُّفَلْ
11) واحْتَمِلْ ضَرَّ المُسيئينَ فَما	أعْقَلَ المرْءَ، إذا الضُّرُّ احْتَمَلْ!
12) كَمْ مُسيءٍ صَدَّني عَنْ جُرْمِهِ	جُبْنُ حِلْمي، وَهْوَ في الجُرْمِ بَطَلْ!!
13) زادَ طيبُ النَّدِّ من إحراقِهِ	فَأَزِيدُ الحِلْمَ، إن زادَ، دَغَلْ
14) فَاعْفُ عَنْ مِثْلِكَ واعْرِفْ قَدْرَ مَنْ	قَدْ تَعَلَّى، واتَّئِدْ عَمَّنْ سَفَلْ
15) إنْ يُضِعْ حَقَّكَ ذو نَقْصٍ فَلا	يَعْرِفُ الكامِلَ إلا مَن كَمَلْ
16) أنا لا أرضى مُجازاتي لَهُ	إنَّما يَجْزي الفَتى لَيْسَ الجَمَلْ

[558]- زين الدين، أبو حفص، عمر بن مظفَّر البكري. شاعر من العصر المملوكي. وهو صاحب اللامية المسماة «نصيحة الإخوان، ومرشد الخلاّن»، وسوف يورد المؤلف نصَّها. (ت 749هـ) ترجمته في: الدُّرر الكامنة 3/ 195. رقم 472. البُغية: 2/226-227. رقم 1858.

[559]- القصيدة في ديوانه: 175-181.

[560]- الأبيات الثلاثة الأولى في: حاشية المؤلف: 2/33. شرح العقود: 2/43.

17) وَتَغـافَلْ تُكْفَ أحْـزانًا، وإنْ … أسْـرَعَ الأوْغـادُ فـاذْهَبْ ذا قَـزَلْ

18) لا تَضِقْ ذَرْعًـا بِأعـداءٍ، فَكَمْ … جَنَّبـوا المَرءَ وُقـوعـاً في الزَّلَلْ

19) إنَّ سـوءَ الظَّنِّ مِنْ حَـزْمِ الفَـتى … لا تُصَـدِّقْ واشِـيًـا فـيـمـا نَقَلْ

20) واكتُمِ السِّـرَّ، فـإنْ أفـشَـيْـتَـهُ … مـا على مُـفـشـيـهِ مِنْ بَعْـدُ عَـذَلْ

21) واخْـتَـصِـرْ نُطْقَكَ، لا تَنْطِقْ بِما … فيهِ سوءٌ، «ولْيُقَسْ ما لَمْ يُقَلْ»[561]

22) فَـحَـيـاءُ الـمَـرءِ خَـيْـرٌ كُلُّهُ … مـا أتى إلاّ بِخَـيْـرٍ ونَـفَلْ

23) وإذا لَمْ تَسْـتَحِ[562] اصْنَعْ ما تَشَـا … كلُّ شَيْءٍ تَرتَضـيـهِ الآنَ حِلْ

24) شـاوِرِ الألبـابَ تأمَنْ نَدَمًـا … لا يرى الطَّرْفُ مُـحِـبًّا فـيـهِ خَلْ

25) بـالتَّـأنّي يُدْرِكُ المرءُ، وكَمْ … فـازَ مِقْدامٌ وأصـحـابُ العَـجَلْ!!

26) إن تُرِدْ شَـرًا فـأمْـهِـلْ، وإذا … مـا أرَدْتَ الخَـيْـرَ لا تَصْـحَبْ مَـهَلْ

27) وتَـفَـكَّرْ آخِـرَ الأمْـرِ لِكَيْ … تَسْـتَـريحَ النَّفسُ، إن خَطْبٌ نَزَلْ

28) لا تَجُـرْ، لو دَكَّ ظُلْمًـا جَـبَلاً … جَـبَـلاً، لانْدَكَّ في الحينِ الجَـبَلْ

29) واحْذَرْ أنْ تَحْسُـدَ مَنْ أصبَحَ في … أكـمَلِ الحالِ، عَلى عَـيْشٍ خَـضَلْ

30) خَوفَ أن تُحْرَمَ، إذ في ذاكَ مـا … فـيـهِ مِنْ رَدٍّ على مَـولاكَ الأجَلْ

31) يَكْمُلُ العَـيْشُ لِنَقْصٍ، وإذا … كَـمُلَ البَـدْرُ، فَلِلنُّقْصِ اكْـتَـمَلْ

32) وَهْوَ كـالعُنَّابِ فـيـهِ مُشْـتَـهًى … مُـسْـتطابٌ، مَعْ شَـوكٍ يُعْـتَـزَلْ

33) فَـإذا مـا عَـضَّكَ الدَّهْرُ فَـلا … تَقْـرَعَنَّ السِّنَّ مِن خَطْبٍ جَلَلْ

34) إنَّ لِلخَـيْـرِ ولِلشَّـرِّ مَـدى … وكِـلا ذالِكَ وَجْـهٌ وَقُـبَلْ

35) هذهِ الدُّنيـا، ومِنْ عـادَتِهـا … تُبْـعِـدُ العـالي، وتُدني مَنْ سَـفَلْ

36) إن سَـهَتْ يَومًـا فَـزارَتْكَ فَـلا … تَسْـتَـغـرِنَّ بِقـانٍ مُـخْـتَـزَلْ

37) واشْكُرِ اللّهَ، تُزَدْ إنعـامَـهُ … وبِقَـيْـدِ الشُّكرِ يَبْـقى مـا حَـصَلْ

[561]– من ألفية ابن مالك في النحو: شرح ابن عقيل: 1/216.

[562]– في الأصل تستحيي. ولا يستقيم به الوزن.

38) وَأَنِلْهَا المُسْتَحِقِّينَ، فَإِنْ ... لَمْ يُصِبْهُمْ وَابِلٌ مِنْكَ فَطَلّْ

39) إِنْ تَعُدْ، أَعْطَيتَ، أو دِنْتَ، فَدَعْ ... عَنْكَ شَيْنَ الدَّيْنِ، لا تَصْحَبْ بَخَلْ

40) وإذا[563] وَلَّتْ، فَصَبْراً، واقْتَنِعْ ... إِنَّمَا لِلْمَرْءِ مَالٌ مَا انْخَزَلْ

41) إِنَّ حُسْنَ الشَّمْسِ في صَحْوَتِهَا ... لَمْ يَزُلْ عَنْهَا بِإِطْبَاقِ الطَّفَلْ

42) أَرِحِ القَلْبَ بِزُهْدٍ عَازِمًا[564] ... إِنَّمَا الكُلُّ قَضَاءُ اللهِ جَلّْ

43) وَانْظُرِ الأَكْثَرَ دِينًا وتُقَى ... وَاهْجُرِ الأَدْوَنَ دِينًا والأَقَلّْ

44) كَمْ عَلِيمٍ لَمْ تُفِدْهُ حِيلَةٌ ... وَجَهُولٍ نَالَ مِنْ غَيْرِ حِيَلْ!

45) يُبْذَلُ المالُ لإِصْلاحِ الفَتَى ... لا تَنَلْ ذاكَ بِعِرْضٍ مُبْتَذَلْ

46) وَاقْطَعِ الآمَالَ إذا مَا بَسَقَتْ ... ذِلَّةً إلاَّ عَلَى بَدْرٍ أَفَلْ

47) وَاعْتَصِمْ بِاللهِ وَاسْأَلْهُ فَمَا ... خَابَ، حَاشَا، مَنْ لِمَوْلاهُ سَأَلْ

48) لا تُجَاوِزْهُ إِلَى ذِي بَخَلٍ ... فَالكَرِيمُ مَا تَخَطَّاهُ الأَمَلْ

49) بَلْ طِلابُ اللهِ فِيهِ غُنْيَةٌ ... وَطِلابُ الغَيْرِ مِنْ فَقْدِ الخَجَلْ

50) فَتَشَوَّفْ لِعُيُوبٍ بَطَنَتْ ... فِيكَ، وَاقْطَعْهُ بِمَا عَنْكَ أَفَلْ

51) هَادِ مَنْ أَحْبَبْتَهُ مَا يَشْتَهِي ... فَالهَدَايَا تُورِثُ الحُبَّ الرَّفَلْ

52) وَأَنِلْهُ كُلَّمَا يَرْضَى بِهِ ... غَيْرَ مُعْتَاضٍ، وإلاَّ فَتَخَلّْ

53) وإذا أَحْبَبْتَ أو أَبْغَضْتَ لا ... تَتَوَغَّلْ، رُبَّمَا الأَمْرُ انْتَقَلْ

54) وإذا خَالَفَ خِلٌّ فِي الَّذِي ... مِلْتَ عَنْهُ، أو إِلَيْهِ، قَدْ أَخَلّْ

55) كَمْ لَئِيمٍ خَالِصِ البُغْضِ عَلَى ... نِعْمَتِ خِدْنٍ لَمْ تُرِدْ عَنْهُ بَدَلْ

56) وَكَرِيمٍ لَسْتَ تَرْضَى قُرْبَهُ ... وَلَدَى الحَاجَاتِ يَشْفِي مِنْ عِلَلْ

57) لا يَغُرَّنَّكَ قُرْبٌ مِنْ فَتَى ... فَاقْتِرَابُ الشَّمْسِ يَدْنُو بِالأَجَلْ

58) أو تَكُنْ تَغْتَرُّ بِالحُسْنِ فَمَا ... كُلُّ زَهْرِ الرَّوْضِ لِلشَّمِّ يَحِلْ[565]

---

[563]- في الأصل: فإذا. وفضلنا رواية ديوان حمدون: 177.

[564]- في الأصل: عارفا. وفضلنا رواية ديوانه: 177.

[565]- في الأصل: يحل. وفضلنا رواية ديوان حمدون: 178.

59) نَعَمْ، إنْ حَقَّقْتَ وُدّاً مِنْ فَتَى لَمْ يُخالِفْ بينَ قَوْلٍ وَعَمَلْ

60) فاحْفَظِ الميثاقَ في غَيْبَتِهِ واشْدُدِ المَرْمُوقَ مِنْهُ بالخَلَلْ

61) واخْتَبِرْ صِدْقَهُ إنْ شِئْتَ، بِما قالَهُ في شَأْنِ أصحابِ أُوَلْ

62) لا تَخَلْ تُلْفي خَليلاً وافِيًا أيُّ خِلٍّ قَدْ تَخَلَّى عَنْ خَلَلْ!!

63) لا تَكُنْ تَفْحَصُ عَنْ أحوالِهِ فَهْوَ كالنَّوْرِ لِعَرْكٍ ما احْتَمَلْ

64) وإذا ما زَلَّ، سامِحْهُ فَكَمْ مِنْ خَليلٍ قَدْ تَجافى مِنْ عَذَلْ

65) وإذا أبْدَى اعْتِذاراً ظالِمًا[566] لم يَدَعْ لِلَّوْمِ والعَتْبِ مَحَلْ

66) زُرْ قَليلاً تَحْظَ بالقُرْبِ ولا تَكُ كالشَّمْسِ طُلوعًا فَتُمَلْ

67) قَدِّمِ الجارَ على الدَّارِ وخُذْ مَنْ بِعَلْيائِهِ ذو النُّقْصِ اكْتَمَلْ

68) فإذا جاوَرَ ريحٌ طَيِّبًا طَيَّبَ الأرْجاءَ مِنْ طيبٍ حَمَلْ

69) واحْمِهِ مِنْ كُلِّ ما شاءَ ولا تَخَفِ المَكْروهَ جُبْنًا فَتُذَلْ

70) فابْذُلِ[567] النَّفْسَ ولا تُحْجِمْ فَما يَدْفَعُ الإحْجامُ مَقْدورَ الأزَلْ

71) إنْ تَمُتْ، فالذِّكْرُ حَيٌّ دائِمًا فَلَكَ السَّعْدُ أو القَبْرُ مَحَلْ

72) وانْتَقِلْ عَنْ مَوْضِعٍ لا يُرْتَضَى تَلْقَ ما تَرْضى [بِأذْيالِ][568] النُّقَلْ

73) نَقْلَةُ الدُّرِّ عَنِ البَحْرِ ارْتَقَتْ بِهِ لِلنَّحْرِ[569]، وفي التِّيجانِ حَلْ

74) وإذا ما شِئْتَ أنْ تَخْطُبَ في مِنْبَرِ المَجْدِ، وتَعْلو وتَجِلْ

75) شَمِّرِ السَّاقَيْنِ، وانْهَضْ قائِمًا بِقُوى العَزْمِ، ودَعْ عَنْكَ الكَسَلْ

76) عَجَبًا لِلْمَرْءِ يَبْغي رِفْعَةً جِدُّهُ فيها «عَسى ولَعَلْ»

77) إبَرٌ دونَ جَنَى الشُّهْدِ ومَنْ خَطَبَ الحَسْناءَ يَحْقِرْ ما بَذَلْ

78) لا تَقُلْ أصْلي وفَرْعي، إنَّهُ لَقَصيرٌ مَنْ على هذا اتَّكَلْ

566– في الأصل: ظالم. وفضلنا رواية ديوانه: 178.

567– في الأصل: وابذل. وفضلنا رواية ديوان حمدون: 179.

568– بياض في الأصل، ملأناه من ديوانه: 179.

569– في الأصل: للخير. وفضلنا رواية ديوانه: 179.

79) [مَعْ أنّي مِنْ أُناسٍ شَيَّدُوا رُتَباً، عَلْياءَ أَرْبَتْ بِزُحَل[570]

80) مِنْ بَني مِرْداسٍ لكِنّي فَتَى ما اعْتَمَدْتُ منهُمْ فَضْلاً وَصَلْ]

81) إنَّ أَصْلَ المِسْكِ نَجْسٌ وَدَمٌ وبَهِيُّ الوَرْدِ مِنْ شَوْكٍ حَصَلْ

82) وَاشْتَغِلْ بالعِلْمِ والفِقْهِ وخُذْ ثاقِبَ الذِّهْنِ فَتَحْيَا ما انتَقَلْ

83) وانْشُرِ الأَوراقَ، واقْطِفْ ما طَوَتْ مِنْ أزاهيرَ تَحاشَتْ عَنْ مَثَلْ

84) وَاعْنَ بالإنصافِ فَالإنصافُ مِنْ شِيَمِ الأشرافِ، مِنْ دونِ الجَدَلْ

85) واسْتَفِدْ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ولا تُفِدِ الجَدَّ، تَسْلَمْ مِنْ عِلَلْ

86) وَبِأَسْحارِ اللَّيالي فَاجْتَهِدْ جاهِدِ الكافِرَ تَظْفَرْ بالنَّفَلْ

87) واتَّقِ اللَّهَ، فَبِالعِلْمِ الفَتَى يَتَحَلّى بِرَجاءٍ ووَجَلْ

88) جَهْلُهُ أَنْجَى لَهُ مِنْ عِلْمِهِ إن تَخَلَّى عَنْ صَلاحٍ وَعَمَلْ

89) فيما يَعْنيكَ فاعْتَمِدْ تارِكًا «قالَ» أو «قيلَ» إذا شِئْتَ تَجِلْ

90) وارْكَبِ الجِدَّ، ولا تَحْفِلْ بِما فيه لَهْوٌ مِنْ أغانٍ أو غَزَلْ

91) واكْفُفِ الألحاظَ عمَّن لَوْ بَدا أَفْزَعَ الظَّبْيَ، وأزْرَى بالأَسَلْ

92) ساحِرُ اللُّبِّ بِطَرْفٍ بابِلِي سَبْقُهُ جَنَّةَ خَدَّيْهِ أَظَلْ

93) [إن تَزِدْهُ نَظَراً، زِدْتَ بِهِ ما سَبَى اللُّبَّ وأَدْهَى مَنْ عَقَلْ][571]

94) وَاسْلُ عَمَّنْ خالَعَ الأحْشاءَ إنْ يُسْتَطَلْ وَصْلٌ، وإن لَمْ يُسْتَطَلْ

95) وإذا لَمْ تَسْتَطِعْ ذاكَ فَكُنْ ذا عَفافٍ يَتَأَبّى عَنْ دَخَلْ

96) آفَةُ الدينِ الهَوى فَاحْذَرْ، فَمَنْ أَمَّهُ واتَّبَعَ الصَّيْدَ، غَفَلْ

97) قَدْ ذَوى غُصْنُ شَبابي سَفَهًا وَلَذيذُ العَيْشِ ما عَنّي انْفَصَلْ

98) صاحِبي حَتَّى مَتى نَحْنُ على آلَةِ اللَّهْوِ وَتَطْويلِ الأَمَلْ؟!

99) عَدَمُ الحُزْنِ عَلى ما فاتَ مِنْ مَوْتِ قَلْبٍ، وَالتَّراخي مِنْ زَلَلْ

[570]- سقط البيتان من الأصل. والزيادة من: ديوان حمدون: 179.

[571]- سقط البيت من الأصل. والزيادة من ديوان حمدون: 180.

100) قُمْ إلى رَوْضِ الأحبَّـاءِ لِكَيْ — تَجْـتَنِي مِنهُ أزاهيـرَ العَمَلْ

101) والتَـزِمْ مَنْ يُنْهِضُ المرْءَ إلى — نَفَحـاتٍ، وَعَلى مَـوْلاهُ دَلْ

102) واشْرَبِ الرَّاحَـةَ مِنْ راحَـتِـهِ — وتَحاشَ عن مُـواخـاةِ الهَـمَلْ

103) لاتَسَلْ أصْلاً على حالِ الفَتى — وَعَلى حـالِ أخِـلاَّئِهِ سَلْ

104) رُبَّما كُنتَ مُسيئًا فَأرَتْ — صُحْبَةُ الأسواءِ إحسانًا جَلَلْ

105) واحْذَرْ أن تَرْضى عَنِ النَّفْسِ فَفي — عَدَمِ الرِّضْوانِ عَنْها الخَيْرُ حَلْ

106) فَسَيُجْزَى فاعِلٌ عَنْ فِعْلِهِ — وسَيَلْقَى رَبَّه، عَزَّ وجَلّ

ونصّ قصيدة الشّيخ ابن الورديّ:

[لامية ابن الوردي][572]

[الرَّمَل]

1) اِعْتَزِلْ ذِكْرَ الأغاني والغَزَلْ — وقُلِ الفَصْلَ وجانِبْ مَنْ هَزَلْ

2) ودَعِ الذِّكْرَى لأيّامِ الصِّبا — فَلأيّامِ الصِّبا نَجْمٌ أفَلْ

3) إنّ أحلى عيشَةٍ قَضَّيْتُها — ذَهَبَتْ لَذّاتُها، والإثْمُ حَلّ

4) واتْرُكِ الغادَةَ لا تَحْفَلْ بِها — تُمْسِ في عِزٍّ وتُرْفَعْ وتُجَلّ

5) والْهُ عَنْ آلاتِ لَهْوٍ أطْرَبَتْ — وعَنِ الأمْرَدِ مُرْتَجِّ الكَفَلْ

6) إن تَبَدَّى تَنْكَسِفْ شَمْسُ الضُّحى — وإذا ما ماسَ يُزْرِي بِالأسَلْ

7) زادَ، إن قِسْناهُ بِالشَّمْسِ سَنًى، — أو عَدَلْناهُ بِغُصْنٍ فاعْتَدَلْ

8) وافْتَكِرْ في مُنْتَهى حُسْنِ الّذي — أنتَ تَهْواهُ تَجِدْ أمراً جَلَلْ[573]

9) واهْجُرِ الخَمْرَةَ، إن كُنْتَ فَتى، — كَيْفَ يَسْعَى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ؟!!

10) واتَّقِ اللّهَ، فَتَقْوى اللّهِ ما — جاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إلاّ وَصَلْ

11) لَيْسَ من يَقْطَعُ طُرْقًا بَطَلاً — إنّما مَنْ يَتَّقِي اللّهَ البَطَلْ

---

[572]– القصيدة في ديوانه: 435-439. وعليها قابلنا النصّ.

[573]– البيت تأخر في رواية الديوان: 435، إلى مكان البيت الحادي عشر.

12) صَدِّقِ الشَّرْعَ، ولا تَرْكَنْ إلى — رَجُلٍ يَرْصُدُ في اللَّيْلِ زُحَلْ

13) حارَتِ الأفكارُ في قُدرةِ مَنْ — قَدْ هَدانا سُبْلَنا[574] عَزَّ وجَلْ

14) كَتَبَ الموتَ عَلى الخَلْقِ فَكَمْ — فَلَّ مِنْ جَمْعٍ، وأفْنى مِنْ دُوَلْ

15) أيْنَ نَمْرودُ وكَنْعانُ ومَنْ — مَلَكَ الأرضَ، وَوَلَّى وَعَزَلْ؟!

16) [أين عادٌ، أينَ فِرْعَونُ ومَنْ — رَفَعَ الأهرامَ، مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ][575]؟!

17) أيْنَ مَنْ سادُوا وَشادُوا وبَنَوا — هَلَكَ الكُلُّ فَلَمْ[576] تُغْنِ القُلَلْ؟

18) أيْنَ أربابُ الحِجا، أهْلُ النُّهى — أيْنَ أهْلُ العِلْمِ والقَومُ الأُوَلْ؟!

19) سَيُعيدُ اللهُ كُلاًّ مِنْهُمُ — وسَيَجْزِي فاعِلاً ما قَدْ فَعَلْ

20) أيْ بُنَيَّ اسْمَعْ وَصايا جَمَعَتْ — حِكَمًا خُصَّتْ بِها خَيْرُ المِلَلْ

21) واطْلُبِ العِلْمَ، ولا تَكْسَلْ فَما — أبْعَدَ الخَيْرَ عَنْ أهْلِ الكَسَلْ!

22) واحْتَفِلْ لِلفِقْهِ في الدِّينِ ولا — تَشْتَغِلْ عنهُ بِمالٍ أو خَوَلْ

23) واهْجُرِ النَّوْمَ، وَحَصِّلْهُ فَمَنْ — يَعْرِفِ المَطْلوبَ، يَحْقِرْ ما بَذَلْ

24) لا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أرْبابُهُ — كُلُّ مَنْ سارَ عَلى الدَّرْبِ وَصَلْ

25) في ازْدِيادِ العِلْمِ إرْغامُ العِدى — وَجَمالُ العِلْمِ إصْلاحُ[577] العَمَلْ

26) جَمِّلِ المَنْطِقَ بِالنَّحْوِ فَمَنْ — يُحْرَمِ الإعرابَ في النُّطْقِ اخْتَبَلْ

27) اِنْظِمِ الشِّعْرَ، ولازِمْ مَذْهَبي — فَاطِّراحُ الرِّفْدِ في الدُّنيا أقَلْ

28) فَهْوَ عُنْوانٌ على الفَضْلِ، وما — أحْسَنَ الشِّعْرَ، إذا لَمْ يُبْتَذَلْ!

29) ماتَ أهلُ الجودِ، لَمْ يَبْقَ سِوى — مُقْرِفٍ، أو مَنْ عَلى الأصلِ اتَّكَلْ

30) أنا لا أخْتارُ تَقْبيلَ يَدٍ — قَطْعُها أجْمَلُ من تلكَ القُبَلْ

[574]- ديوان ابن الوردي: 436. سبلا.

[575]- سقط البيت من الأصل. والزيادة من ديوان ابن الوردي: 436.

[576]- ديوان ابن الوردي: 436. ولم.

[577]- ديوان ابن الوردي: 436: يا صاح.

31) إن جَزَتْني[578] عَنْ مَديحي صِرْتُ في ... رِقِّـهـا، أوْلا، فَـيَكْفي الخَجَلْ

32) أعْـذَبُ الألْفاظِ قَـوْلي لكَ: خُـذْ ... وأمَـــرُّ اللَّـفْظِ نُطْقي[579] بِلَعَلْ

33) مُلْكُ كِسْرى تُغْني عَنْهُ كِسْرَةٌ[580] ... وَعَنِ البَـحْـرِ اجْـتِـزاءٌ[581] بِالوَشَلْ

34) اعتَبِرْ: «نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ»[582] ... تَلْقَـــهُ حَـــقّــاً، وَبِالحَقِّ نَزَلْ

35) لَيْسَ ما يَحْوي الفَتى مِنْ عَزْمِهِ[583] ... لا ولا مــا فــاتَ يَوْمًــا بِالكَسَلْ

36) فَـاطْرَحِ الدُّنْيَـا، فَـمِنْ عـادَتِها ... تَخْـفِضُ العالي، وتُعْلي مَنْ سَفَلْ

37) عـيشَـةُ الزّاهِدِ في تحصيلِها ... عـيشَـةُ الجاهِدِ، بَل هَذا أذَلّ[584]

38) كَمْ مِنْ جَهولٍ، وهوَ مُثْرٍ مُكْثِرٌ ... وَعَليمٍ[585] مــاتَ مِنْهــا بِالعِلَلْ

39) كَمْ شُجاعٍ لَمْ يَنَلْ مِنْها المُنى[586] ... وَجَبـــانٍ نالَ غـاياتِ الأمَلْ!!

40) فَاتْرُكِ الحيلَةَ فـيهـا واتَّئِدْ ... إنَّمــا الحـيلَةُ في تَرْكِ الحِـيَلْ

41) أيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِدْ مِمّـا تُفِدْ[587] ... فَـرَمَـاها[588] اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ

42) لا تَقُلْ أصْلي وفَـصْلي أبَداً ... إنّما أصْلُ الفَـتى مـا قَـدْ حَـصَلْ

43) قَـدْ يَسودُ المرءُ مِنْ غَـيْرِ أبٍ ... وَبِحُسْنِ السَّبْكِ قَد يُنفَى الزَّغَلْ

44) وكَــذا الوَرْدُ مِنَ الشَّوكِ ومَــا ... يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إلا مِـنْ بَصَلْ

45) مَعَ أنّي أحـمَــدُ اللّهَ على ... نَسَـــبي، إذ بِأبي بَكْرٍ اتَّصَلْ

---

[578]– ديوان ابن الوردي: 437: تجزني.

[579]– ديوان ابن الوردي: 437: وأمرّ القول قولي.

[580]– ديوان ابن الوردي: 437: عنه تغني كسرة.

[581]– ديوان ابن الوردي: 437: ارتشاف.

[582]– سورة الزخرف: 32.

[583]– ديوان ابن الوردي: 437: عن عزمه.

[584]– ديوان ابن الوردي: 437: أزل.

[585]– ديوان ابن الوردي: 437: وحكيم.

[586]– ديوان ابن الوردي: 437: عنى.

[587]– ديوان ابن الوردي: 437: أي كف لم تنل منها الغنى.

[588]– ديوان ابن الوردي: 437: فبلاها.

46) قيمةُ الإنسانِ ما يُحسِنُهُ أكْثَرَ الإنسانُ منْهُ أو أقَلْ

47) أكتُمِ الأمْرَيْنِ: فَقْراً أو غِنى[589] واكْسَبِ الفَلْسَ، وحاسِبْ من بَطَلْ

48) وادَّرِعْ جِداً وكَداً واجْتَنِبْ صُحْبَةَ الحَمْقَى وأرباب الخَلَل[590]

49) بَيْنَ تَبْذيرٍ وبُخْلٍ رُتْبَةٌ وكِلا هَذَيْنِ، إن زادَ، قَتَلْ

50) لا تَخُضْ في سَبِّ ساداتٍ مَضَواْ إنَّهُمْ لَيْسوا بِأهْلٍ لِلزَّلَلْ

51) وتَغافَلْ عَنْ أُمورٍ، إنَّهُ لمْ يَفُزْ بِالحَمْدِ[591] إلاَّ مَنْ غَفَلْ

52) لَيْسَ يَخْلو المَرْءُ مِن[592] ضِدٍّ، وإن حاوَلَ العُزْلَةَ في رأسِ جَبَلْ

53) مِلْ[593] عَنِ النَّمّامِ واهْجُرْهُ فَما بَلَّغَ المَكْروهَ إلاَّ مَنْ نَقَلْ

54) دارِ جارَ الدّارِ، إن جارَ، وإن لم تَجِدْ صَبْراً، فَما أحْلى النَّقَلْ!!

55) جانِبِ السُّلْطانَ، واحْذَرْ بَطْشَهُ لا تُعانِدْ[594] مَنْ إذا قالَ فَعَلْ!!

56) لا تَلِ الحُكْمَ، وإن هُمْ سَألوا رَغْبَةً فيكَ، وخالِفْ مَنْ عَذَلْ

57) إنَّ نِصْفَ النّاسِ أعداءٌ لِمَنْ وَلِيَ الأحْكامَ، هَذا إنْ عَدَلْ

58) فَهْوَ كالمَحْبوسِ عَنْ لَذاتِهِ وكِلا كَفَّيْهِ في الحَشْرِ تُغَلْ

59) إنَّ لِلنَّقْصِ[595] والاسْتِثْقالِ في لَفْظَةِ القاضي، لَوَعْظاً[596] ومَثَلْ

60) لا تُوازى لَذَّةُ الحُكْمِ بِما ذاقَهُ المَرْءُ، إذا المَرْءُ انْعَزَلْ

61) فَالوِلاياتُ[597]، وإن طابَتْ لِمَنْ ذاقَها، فالسُّمُّ في ذاكَ العَسَلْ

---

[589]– ديوان ابن الوردي: 437: وغنى.

[590]– ديوان ابن الوردي: 437: البخل.

[591]– ديوان ابن الوردي: 438: بالرفد.

[592]– ديوان ابن الوردي: 438: عن.

[593]– ديوان ابن الوردي: 438: غب.

[594]– ديوان ابن الوردي: 438: لا تخاصم.

[595]– ديوان ابن الوردي: 438: إنما النقص.

[596]– ديوان ابن الوردي: 438: لوعظ.

[597]– ديوان ابن الوردي: 438: والولايات.

62) نَصَبُ المَنْصِبِ أَوْهى جَلَدي وَعَنائي مِنْ مُداراةِ السَّفَلْ

63) قَصِّرِ الآمالَ في الدُّنيا تَفُزْ فَدَليلُ العَقْلِ تَقْصيرُ الأَمَلْ

64) إنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ المَوْتُ على غِرَّةٍ مِنْهُ، جَديرٌ بِالوَجَلْ

65) غِبْ وزُرْ غِبًّا، تَزِدْ حُبًّا، فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدادَ، أَضْناهُ المَلَلْ

66) خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ، واتركْ غِمْدَهُ واعْتَبِرْ فَضْلَ الفَتى دونَ الحُلَلْ

67) لا يَضُرُّ الفَضْلَ إقْلالٌ كَما لا يَضُرُّ الشَّمْسَ إطْباقُ الطَّفَلْ[598]

68) حُبُّكَ الأَوْطانَ عَجْزٌ ظاهِرٌ فاغْتَرِبْ تلْقَ عَنِ الأَهْلِ بَدَلْ

69) فَبِمَكْثِ الماءِ يَبْقى آسِنًا وسُرى البَدْرِ بِهِ البَدْرُ اكْتَمَلْ

70) أَيُّها العائِبُ قَوْلي عَبَثًا إنَّ طيبَ الوَرْدِ مُؤْذٍ بِالجُعَلْ

71) عَدِّ عَنْ أَسْهُمِ لَفْظي واسْتَتِرْ لا يُصيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلْ

72) لا يَغُرَّنَّكَ لينٌ من فَتى إنَّ لِلحَيّاتِ لينًا يُعْتَزَلْ

73) أنا مِثْلُ الماءِ سَهْلٌ سائِغٌ وَمَتى سُخِّنَ آذى وقَتَلْ

74) أنا كَالخَيْروزِ صَعْبٌ كَسْرُهُ وَهْوَ لينٌ[599] كيفَما شِئْتَ انْفَتَلْ

75) غَيْرَ أَنّي في زَمانٍ مَنْ يَكُنْ فيهِ ذا مالٍ، هُوَ المَوْلى الأَجَلْ

76) واجِبٌ عِنْدَ الوَرى إكْرامُهُ وقَليلُ المالِ فيهِمْ يُسْتَقَلْ

77) كلُّ أهلِ العَصْرِ غُمْرٌ وأنا مِنهُمْ، فاتْرُكْ تَفاصيلَ الجُمَلْ

القصيدة الثانية، لاميَّة من الضَّرب الثاني للعروض الأول، من بحر البسيط، وهي هذه[600]:

1) عَقيلَةُ المَجْدِ بينَ البِيضِ والأَسَلِ وَلَيْسَ يَخْطُبُها ذو جُبْنٍ أو كَسَلِ

2) [وَما تُشامُ ثَناياها الَّتي ابْتَسَمَتْ بَرْقًا إلى أن يُشامَ البَرْقُ من نُصُلِ

598- البيت ساقط في ديوان ابن الوردي.

599- ديوان ابن الوردي: 439: لدن.

600- أورد المؤلف البيت الأول من هذه القصيدة فقط، وترك ما بعده بياضا في الأصل. وقد عمَّرنا الفراغ من ديوان حمدون: 181-184.

3) وَمَـا يُعَـانِقُ ذابِلٌ بِقَـامَـتِـهـا حَتّى يُعانِقَ قاماتِ القَنا الذُّبَّلِ

4) وَدونَ قَطْفِكَ مِنْ وردٍ بِوَجْنَتِـهـا شَوكٌ مِنَ الصُّدْغِ، فَذي حَمَّةُ الأَجَلِ

5) وَدونَ رَشْفِكَ مِنْ شَهْدٍ بِمَبْسَمِها رَشْقُ الفُؤادِ بِوَخْزِ الأَعْيُنِ النُّجُلِ

6) فَانْهَضْ لِخِطْبَتِها بِهِمَّةٍ سَبَقَتْ مُجِدَّةٍ غَيْرِ نَهْضِ الشّارِبِ الثَّمِلِ

7) وَلا تَمْلِكْ ظِلالَ راحَـةٍ عَـرَضَتْ فَلَيْسَ يَرْتاحُ جـانٍ زَهْرَةَ الأَمَلِ

8) هَيْـهـاتَ، لا أَمَلَ إلاّ وَأَحْـرُقُـهُ تُصاغُ مِنْ أَلَمٍ، واللَّسْعُ في العَسَلِ

9) فَاصْبِرْ عَلى عَضِّ أَعْداءٍ بُليتَ بِهِمْ فَذُو المفاخِرِ قِدْمًا بِالكِلابِ بُلِي

10) لَمْ يَنْجُ مِنْ وَخْزِ أَلْسُنِ العَقارِبِ مِنْ أَقارِبٍ، كَيْفَ حالُ الأَبْعَدِ السُّفُلِ

11) ولا تَأَسَفْ على مَيْلِ الزَّمـانِ إلى وَغْدٍ، فَمِنْ طَبْعِهِ مَيْلٌ لِذي مَيَلِ

12) ولا عَلى عَدَمِ الإِنْصافِ مِنْ رَجُلٍ فَلَسْتَ تَنْشُرُ مَيْتَ الأَعْصُرِ الأُوَلِ

13) إن كُنْتَ تَأسى مِنَ الحُسّادِ إن شَمَتُوا فَأَيُّ يومٍ تَكونُ فِيـهِ ذا جَـذَلٍ؟!

14) وَغُضَّ عَنْ عَثَراتِ مَنْ تُخالِلُهُ فَمـا خَليلٌ تَخَلّى اليَومَ عَنْ خَلَلِ

15) سَأَلْتُ دُنْيايَ خِلاًّ لا أَغُصُّ بِهِ قالَتْ: سَأَلْتَ الّذي مِنْهُ الزَّمانُ خَلِي

16) فَإِن تَكُنْ مِنْ أُناسٍ طابَ خيمُهُمُ فَاصْبِرْ لَهُ، واشْدُدِ المَرْمُوقَ بِالخُلَلِ

17) أَوْ عِشْ بِظِلِّ انْفِرادٍ، تَسْتَرِحْ وتُرِحْ وتَبْتَهِجْ يَوْمَ يَأْتي اللّهُ في ظُلَلِ

18) وَامْسِكْ لِحاظَكَ، لا تُرْسِلْ أَعِنَّتَها فَمـا زِنادُ الهَوى إلاّ مِنَ المُقَلِ

19) وَاشْكُلْ لِسانَك، لا تَلْدَغَنْكَ صَمْتَةٌ فالصَّمْتُ أَنْفَعُ في كَثيرٍ مِنْ رُسُلٍ[601]

20) وَحَلِّ بِالصِّدْقِ جيدَ ما نَطَقْتَ بِهِ يَزِنْكَ صِدْقُكَ زَيْنَ الطَّرْفِ بِالمُقَلِ

21) وَإِن تَشَأْ راحَةً ما شانَها نَصَبٌ فاعْمَدْ لِما أَنْتَ عَنْهُ الدَّهْرَ في شُغُلِ

22) اِفْتَحْ عُيونَكَ في عُيوبِ نَفْسِكَ ذا جِدٍّ، وَديباجَةُ الشَّبابِ لَمْ تَحُلِ

23) وَداوِ قَلْبَكَ مِنْ ضَنًى أَضَرَّ بِهِ فَمُعْضِلُ الدّاءِ ما في القَلْبِ مِنْ عِلَلِ

[601]- البيت مضطرب الوزن.

24) لا تُبْدِ يا رَجُلُ العِلاَّتِ مُعْتَذِراً فَلَيْسَ تَعْجِزُ خَرْقًا عَنِ العِلَلِ[602]

25) وَجِدٌ سَيْراً، وإن أعْيَى البَعيرُ فَزِدْ نَوْطًا على حَمْلِه، يَزِدْكَ مِنْ رَمَلِ

26) لا عِطْرَ بَعْدَ عَروسٍ. بِالشَّبيبَةِ طِبْ وَاعْمَلْ. فَعُمْرُكَ في النُّقصانِ ذا عَمَلِ[603]

27) وابْغِ الخُمولَ، تَرُقْ لَكَ الخَمائِلُ مِنْ مُناكَ، لَيْسَ لها في الرَّوْضِ مِنْ مَثَلِ

28) وفي مَوارِجِ خَفْضِ الجانِبِ ارْتَقِ عَنْ مَعارِجِ الرَّفْعِ، فَهْيَ أوثَقُ الوَصَلِ

29) أما تَرى الغَيْثَ مُنْصَبًّا إلى صَبَبٍ يَسْقي مَنابِتَهُ مِنْ قُنَّةِ الجَبَلِ

30) وَاجْرُرْ عَلى رافِعٍ أنْفًا ذُيولَكَ ذا تيهٍ، كَأنَّكَ عِزاً مِنْ فُروعِ عَلي

31) ودَعْهُ يَنْشَلُ مِنْ عُجْبٍ ومِنْ غَلَطٍ لي أُسْوَةٌ بِانحِطاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ[604]

32) ولا تَكُنْ حاسِداً أخاكَ، إنْ خَضَلَتْ رِياضُ أنْعُمِهِ، وابْتَلْ بِالبَلَلِ

33) وَسَلْ إلاهَكَ ما تَشاءُ تَحْظَ بِهِ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ، وَغَيْرَ اللهِ لا تَسَلِ

34) وَحَيْثُ لم يَكُ بُدٌّ مِنْ سُؤالِكَ صُنْ ديباجَةَ الوَجْهِ عَنْ إبْلاءِ مُبْتَذَلِ

35) إنَّ البَخيلَ، إذا أتَيْتَ تَسْألُهُ بَراكَ أثْقَلَ في عَيْنَيْهِ مِنْ جَبَلِ

36) ولا تَشِحَّ، وَجُدْ ولَوْ بِطَلٍّ يَدٍ إنْ لم يُصَبْ مِنْكَ وَبْلُ الصَّيِّبِ الهَطِلِ

37) وَالحُرُّ لَمْ يَتَغَيَّرْ ثَرْوَةً وغِنًى «والشَّمْسُ رأْدَ الضُّحَى كَالشَّمْسِ في الطَّفَلِ»[605]

38) وَالفَقْرُ أفْضَلُ حُلاَّتٍ كَساكَ بِها رَبٌّ لَطيفٌ خَبيرٌ، جَلَّ عَنْ بَخَلِ

39) وَفي الزَّهادَةِ راحَةٌ وَمَزْرَعَةٌ لِحُبِّ رَبٍّ، وَما لِلرَّبِّ مِنْ بَدَلِ

40) إيَّاكَ وَالطَّعْمَ مِنْ حَبٍّ فَطاعِمُهُ عَديمُ رُشْدٍ، ولا يَزالُ في وَحَلِ

41) الزَّرْعُ كَالبَذْرِ ما بَدَوْتَ تَحْصُدُهُ ولَمْ يَطِبْ غَيْرُ نَدْبٍ طَيِّبُ الأُكُلِ

42) بِهِ اجْتَنَى ثَمَراتٍ مِنْ سَوابِقِهِ بَواسِقَ ذاتَ طَعْمٍ غَيْرِ مُنْبَتِلِ

---

[602]- الشطر ساقط الوزن.

[603]- لعل الصواب. ذو عمل.

[604]- الشطر مضمن من لامية الطغرائي.

[605]- الشطر مقتبس من لامية الطغرائي.

43) تخالُهُ بَيْضَةَ الأنوقِ، أصْعَبَ مِنْ مَناطِ عَيُّوقٍ، وَالمُحالُ لَمْ يُنَلِ

44) وَلَيْسَ ذاكَ كَذاكَ مَنْ يَعَفَّ يَصِلْ لَهُ فَجَرِّبْ، وَلا تَعُدْ إلى حَوَلِ

45) ياذا مُقارَعَةٍ عَلى الوُصولِ لَهُ بِلا مُسارَعَةٍ لِلمُقْتَضى الجَلَلِ

46) لا تَخْدَعَنْكَ ذي الدُّنيا بِزَهْرَتِها فَإنَّها ذاتُ شَوكٍ موهِنِ البَطَلِ

47) سُرورُها بِالشُّرورِ شيبَ، تَقْطَعُ عَنْ رَبٍّ، وَعَنْ ضَرَّةٍ أُخْرى وَلَمْ تَطُلِ

48) نَصَحْتُ غَيْرِي، وابْني غَيْرُ مُنْتَصِحٍ وَرُبَّ ناصِحِ جَنْبٍ، جَدَّ في عَذَلي

49) يا عاطِلَ الجيدِ إلاّ مِنْ قَبائِحِهِ مُقَلِّداً جيدَ قافٍ، قَولُهُ بَخَلي:

50) ظَلَمْتَ نَفْسَكَ ظُلْمَ الخَيْفَقانِ تَرى نوراً، وَأَنْتَ بِذاكَ النّورِ في شُغُلِ

51) يا ذا مُجالَسَةٍ لِلعِلْمِ تَنْشُرُهُ بِلا مُجانَسَةٍ لِلقَولِ وَالعَمَلِ

52) هَلْ نَوْطُ حِلْيَتِهِ إلاّ بِلَبَّةِ مَنْ في طاعَةِ اللهِ، لَجَّ غَيْرَ ذي ثِقَلِ؟!

53) قَدْ طالَ سالِفُ لَيْلٍ بِتُّ أظْفُرُهُ بِخَبْطِ شَجْوي، لِما قَدَّمْتُ مِنْ زَلَلِ

54) لكِنَّ مَنْ بَدَأَ الوَرى بِنِعْمَتِهِ أَرْجوهُ يَعْفو بِجاهِ خاتِمِ الرُّسُلِ

55) صَلّى عَلَيْهِ إلاهُهُ وَسَلَّمَ ما حَلَّتْ بِساحَتِهِ نَجائِبُ الأمَلِ]

ومن هذا المعنى والبحر والرّويّ، قصيدة الطُّغرائي[606] الشُّهيرة الذكر:

[لاميّة الطُّغرائي][607]

[البسيط]

1) أصالةُ الرّأيِ صانَتْني عَنِ الخَطَلِ وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانَتْني لَدى العَطَلِ

2) مَجْدي أخيراً وَمَجْدي أوّلاً شَرَعٌ وَالشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحى، كَالشَّمْسِ في الطَّفَلِ

3) فيمَ الإقامةُ بِالزَّوراءِ لا سَكَني بِها، ولا ناقَتي فيها ولا جَمَلي

[606]- فخر الكتاب، أبو إسماعيل، الحسين بن علي (ت 513 أو 514 هـ). ترجمته في الوفيات 2/185-190. رقم 197.

[607]- القصيدة في ديوانه: 301-309، وعليها قابلنا النص.

4) ناءٍ عنِ الأهْلِ، صِفْرُ الكفِّ مُنْفَرِدٌ كَالنَّصْلِ[608] عُرِّيَ مَتْناهُ عَنِ[609] الخَلَلِ
5) فَلا صَديقٌ إليْهِ مُشْتَكى حَزَني ولا أنيسٌ إليْهِ مُنْتَهى جَذَلي
6) طالَ اغْتِرابي حَتَّى حَنَّ راحِلتي وَرَحْلُها، وقِرى العَسَّالَةِ الذُّبُلِ
7) وَضَجَّ مِنْ لَغَبٍ نِضْوي، وَعَجَّ لِما ألقى[610] رِكابي، ولَجَّ الرَّكْبُ في عذَلي
8) أُريدُ بَسْطَةَ كَفٍّ أسْتَعينُ بِها على قَضاءِ حُقوقٍ للعُلى قِبَلي
9) والدَّهْرُ يَعْكِسُ آمالي ويُقْنِعُني مِنَ الغَنيمَةِ بَعْدَ الكَدِّ بالقَفَلِ
10) وَذي شَطاطٍ كَصَدْرِ الرُّمْحِ مُعْتَقِلٍ بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيّابٍ ولا وَجِلِ
11) حُلْوُ الفُكاهَةِ، مُرُّ الجِدِّ قَدْ مُزِجَتْ بِشِدَّةِ[611] البَأْسِ مِنْهُ[612] رِقَّةُ الغَزَلِ
12) طَرَدْتُ سَرْحَ الكَرى عَنْ وِرْدِ مُقْلَتِهِ واللَّيْلُ أغْرى سَوامَ النَّوْمِ بالمُقَلِ
13) والرَّكْبُ ميلٌ عَنِ الأكوارِ، مِنْ طَرَبٍ صاحٍ، وآخَرُ مِنْ خَمْرِ الكَرى ثَمِلِ
14) أَقْبَلْتُ[613] أدعوكَ للجُلّى لِتَنْصُرَني وأنْتَ تَخْذُلُني في الحادِثِ الجَلَلِ
15) تَنامُ عَيْني، وَعَيْنُ النَّجْمِ ساهِرَةٌ وتَسْتَحيلُ وَصَبْغُ اللَّيْلِ لَمْ يَحُلِ
16) فَهَلْ تُعينُ على غَيٍّ هَمَمْتُ بِهِ والغَيُّ يَزْجُرُ أحْيانًا عَنِ الفَشَلِ
17) إنّي أُريدُ طُروقَ الحَيِّ مِنْ إضَمٍ وَقَدْ حَماهُ رُماةٌ مِنْ بَني ثُعَلِ
18) يَحْمونَ بِالبيضِ والسُّمْرِ اللِّدانِ بِهِ سودَ الغَدائِرِ، حُمْرَ الحَلْيِ والحُلَلِ
19) فَسِرْ بِنا في ذِمامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا[614] فَنَفْحَةُ[615] الطِّيبِ تَهْديْنا إلى الحُلَلِ
20) فَالحُبُّ حَيْثُ العِدى، والأُسْدُ رابِضَةٌ حَوْلَ الكِناسِ لَها غابٌ مِنَ الأسَلِ

---

[608]- ديوانه: 302: كالسيف.

[609]- ديوانه: 302: من.

[610]- ديوانه: 302: يلقى.

[611]- ديوانه: 303: بقسوة.

[612]- ديوانه: 303: فيه.

[613]- ديوانه: 303: فقلت.

[614]- ديوانه: 304: مهتديا.

[615]- ديوانه: 304: بنفحة.

21) نَوُمٌ ناشِئَةَ الجِزْعِ قَدْ سُقِيَتْ   نِصالُها بِمِياهِ الغَنْجِ والكَحَلِ

22) قَدْ زادَ طِيبُ أحاديثِ الكِرامِ بِها   ما بِالكَرائِمِ مِنْ جُبْنٍ ومِنْ بَخَلِ

23) تَبيتُ نارُ الهَوى مِنْهُنَّ في كَبِدٍ   حَرَّى، وَنارُ القِرى مِنْهُمْ عَلى القُلَلِ

24) يَقْتُلْنَ أنْضاءَ حُبٍّ لا حَراكَ بِهِ   وَيَنْحَرونَ كِرامَ الخَيْلِ والإبِلِ .

25) يَشْفى لَديغُ العَوالي[616] في بُيوتِهِم   بِنَهْلَةٍ مِنْ غَديرِ الخَمْرِ والعَسَلِ

26) لَعَلَّ إلمامَةً بِالجِزْعِ ثانِيَةً   يَدِبُّ مِنْها نَسيمُ البُرْءِ في عِلَلِ

27) أكْرَهُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ قَدْ شُفِعَتْ   بِرَشْقَةٍ مِنْ نِبالِ الأعْيُنِ النُّجُلِ

28) ولا أعافُ الصِّفاحَ البيضَ تُسْعِدُني   بِاللَّمْحِ مِنْ خَلَلِ الأسْتارِ والكِلَلِ[617]

29) ولا أُخِلُّ بِغِزْلانٍ تُغازِلُني[618]   وَلَوْ دَهَتْني أسودُ الغيلِ بِالغِيَلِ

30) حُبُّ السَّلامَةِ يَثْني هَمَّ صاحِبِهِ   عَنِ المَعالي، ويُغْري المَرْءَ بِالكَسَلِ

31) فَإنْ جَنَحْتَ إلَيْهِ. فَاتَّخِذْ نَفَقًا   في الأرْضِ، أو سُلَّمًا في الجَوِّ فَاعْتَزِلِ

32) ودَعْ غِمارَ العُلى لِلْمُقْدِمينَ عَلى   رُكوبِها، واقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بِالبَلَلِ

33) رِضى الذَّليلِ بِخَفْضِ العَيْشِ مَسْكَنَةٌ[619]   والعِزُّ عِنْدَ رَسيمِ الأيْنُقِ الذُّلُلِ

34) فَادْرَأْ بِها في نُحورِ البيدِ جافِلَةً   مُعارِضاتٍ مَثانيَ اللُّجْمِ بِالجُدُلِ

35) إنَّ العُلى حَدَّثَتْني، وهْيَ صادِقَةٌ   فيما تُحَدِّثُ أنَّ العِزَّ في النُّقَلِ

36) لوْ أنَّ في شَرَفِ المَأْوى بُلوغَ مُنًى   لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يومًا دارَةَ الحَمَلِ

37) أهَبْتُ بِالحَظِّ، لوْ نادَيْتُ مُسْتَمِعًا   وَالحَظُّ عَنّي بِالجُهّالِ في شُغُلِ

38) لَعَلَّهُ إنْ بَدا فَضْلي وَنَقْصُهُمُ   لِعَيْنِهِ نامَ عَنْهُمْ. أو تَنَبَّهَ لي

39) أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِالآمالِ أرْقُبُها   ما أضْيَقَ العَيْشَ، لَولا فُسْحَةُ الأمَلِ!

40) لَمْ أرْتَضِ العَيْشَ، وَالأيامُ مُقْبِلَةٌ   فَكَيْفَ أرضى، وقَدْ وَلَّتْ عَلى عَجَلِ!

---

[616]– ديوانه: 304: الغواني.

[617]– ديوانه. 305: ولا أهاب صفاح البيض تُسْعِدُني *** بِاللَّمح من صفحات البيض في الكلل

[618]– ديوانه: 305: أغازلها.

[619]– ديوانه: 305: يخفضه.

41) غالَى بِنَفْسي عِرْفاني بِقيمَتِها فَصُنْتُها عَنْ رَخيصِ القَدْرِ مُبْتَذَلِ

42) وعادَةُ النَّصْلِ أن يَزْهى بِجَوْهَرِه ولَيْسَ يَعْمَلُ إلاَّ في يَدَيْ بَطَلِ

43) ما كُنْتُ أوثِرُ أن يَمْتَدَّ بي زَمَني حَتَّى أرى دَوْلَةَ الأوْغادِ وَالسَّفَلِ

44) تَقَدَّمَتْني أُناسٌ كانَ شَوْطُهُمُ وراءَ خَطْوي، لَو[620] أمْشي عَلى مَهَلِ

45) هَذا جَزاءُ امْرِئٍ أقرانُهُ دَرَجوا مِنْ قَبْلِه، فَتَمَنَّى فُسْحَةَ الأمَلِ

46) وَإن عَلاني مَنْ دوني، فَلا عَجَبٌ لي أُسْوَةٌ بِانحطاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ

47) اِصْبِرْ لَها غَيْرَ مُحْتالٍ ولا ضَجِرٍ في حادثِ الدَّهْرِ ما يُغْني عَنِ الحِيَلِ

48) أعدَى عَدُوِّكَ، أدنى مَنْ وثِقْتَ بِهِ فَحاذِرِ النَّاسَ، واصْحَبْهُمْ عَلى دَخَلِ

49) فَإنَّما رَجُلُ الدُّنْيا وَواحِدُها مَنْ لا يُعَوِّلُ في الدُّنْيا عَلى رَجُلِ

50) وحُسْنُ ظَنِّكَ بالأيَّامِ مَعْجَزَةٌ فظُنَّ شَراً، وكُنْ منها على وجلِ

51) غاضَ الوَفاءُ، وَفاضَ الغَدْرُ وانْفَرَجَتْ مَسافَةُ الخُلْفِ بَيْنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ

52) وَشانَ صِدْقَكَ عِندَ النَّاسِ كَذِبُهُمُ وهَلْ يُطابَقُ مُعْوَجٌّ بِمُعْتَدِلِ؟!

53) إن كانَ يَنْجَعُ شَيْءٌ في ثَباتِهِمُ عَلى العُهودِ، فَسَبْقُ السَّيْفِ لِلعَذَلِ

54) يا وارِداً سُؤْرَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ أنْفَقْتَ صَفْوَكَ[621] في أيَّامِكَ الأُوَلِ

55) فيمَ اقْتِحامُكَ[622] لُجَّ البَحْرِ تَرْكَبُهُ وَأنْتَ يَكْفيكَ مِنْهُ مَصَّةُ الوَشَلِ!!

56) مُلْكُ القَناعَةِ لا يُخْشى عَلَيْهِ ولا يُحْتاجُ فيهِ إلى الأنْصارِ وَالخَوَلِ

57) تَرْجو البَقاءَ بِدارٍ لا ثَباتَ لَها فَهَلْ سَمِعْتَ بِظِلٍّ غَيْرِ مُنْتَقِلِ!!

58) وَيا خَبيراً على الأسرارِ مُطَّلِعاً أُصْمُتْ، فَفي الصَّمْتِ مَنْجاةٌ مِنَ الزَّلَلِ[623]

59) قَدْ رَشَّحوكَ لأمْرٍ، إن فطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أن تَرْعى مَعَ الهَمَلِ

---

[620]- ديوانه: 307: إذ.

[621]- ديوانه: 308: عمرك.

[622]- ديوانه: 308: اعتراضك.

[623]- هنا انتهى مخطوط خاء.



رَوْضَةُ النَّيْلُوفَر

فِي ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَبَعْضِ مَنَاقِبِهِ الَّتِي هِيَ أَعْطَرُ مِنَ الـمِسْكِ الأَذْفَـرَ

رَوضَةُ النَّيلوفر،

في ثَناءِ النّاسِ عَلَيْهِ وبَعضِ مَناقِبِهِ الّتي هِيَ أَعْطَرُ مِنَ الـمِسكِ الأَذفَرِ،

وبعض ماقيل فيه من المقطَعات الشِّعريّة، المُنبئة عن محاسنه. أوردتُها آخر الكتاب، لتكون مسكة ختاميّة، ويكمل فيها ما يُستملح من الكلام نثرِه ونظامِه، ويظفر المُحبّ بمرامه، ويشفيَ غليل لوعته وغرامه.

قد طالما خاطبته ببليغ أشعارها الشعراء، فيما عرض لهم أو لغيرهم من الأغراض وعرا، فيرتاح إلى الإنشاد، ويُجيب مسرعا إلى المُراد.

[مخاطبات سليمان الحوّات وحمدون ابن الحاجّ]

فمن ذالك قول ذي الأدب الُمحَلّي للآذان والأذهان، الآخذ عند التّسابق في ميدان لبراعة الرّهان، السّاري كلامه في الأنباء، مسرى كؤوس الصّهباء، الذي لم يأت الدهر بمثله ولا هو آت، العلاّمة الشّريفة، أبي الربيع، مولانا سُليمان الحَوّات:

[البسيط]

1) «إذا عَـرَتْكَ مِنَ الأَيّامِ نائِبَـةٌ[624] فَـلا يُخَلِّصُ مِنْها غَيْـرُ حَمْـدونِ

2) خُـذي رِبْحَنا بِتَجْرٍ مِنْ مَـوَدَّتِهِ[625] في صَفْقَةٍ لَم تَكُنْ فيها بِمَغْبونِ

3) إِنْ مَنَّ ذو الوُدِّ يَوْماً حَبْلَ وَصْلَتِهِ فَحَبْلُهُ أَبَداً لَيْسَ بِمَمْنونِ

4) عَلى سَجِيَّتِهِ مِنَ التَّحِيَّةِ ما يَقوهُ مِنْ حَقِّهِ عَنّي بِمَسْنونِ

الطبع يحنُّ إلى الطَّبع، والنُّفس تميل إلى حيث النَّفع، والطَّير لا يقصد إلا الُملتقَط، وبدل الاشتمال ليس كبدل الغَلَط[626]:

[624]- المقطوعة في: ديوان حمدون: 283. الإشراف: 116.

[625]- الشطر مكسور التفعيلة الأولى والمعنى، وهو كذا بالأصل.

[626]- البيت في: رماح حزب الرَّحيم: 2/88.

[البسيط]

1) والنَّاسُ أَكْيَسُ من أن يَمْدَحوا رَجُلاً ما لَمْ[627] يَرَوا عِنْدَهُ آثارَ إحْسانِ

على أن الظَّنّ بك في كلّ شيء جميل، والله على ما نقول وكيل». فأجابه الشيخ أبو الفيض بقوله[628]:

[البسيط]

1) «أبا الرَّبيعِ سُلَيْمانُ أَتَيْتَ بِما لَمْ يَأْتِ يَوْماً بِمِثْلِهِ ابْنُ عَبْدون

2) رِسالَةٌ نَبَّأَتْ بِصَفْوِ [وُدِّكَ][629] لي ما شابَهَتْها رِسالَةُ ابْنِ زَيْدون

3) شَيْطانُ فِكْرِكَ غَوّاصٌ عَلى دُرَرٍ أَقَرَّ بِالْعَجْزِ عَنْها فِكْرُ حَمْدون

4) لازِلْتَ مُفْتَرِشَ الْجَوْزاءِ مُرْتَفِعاً[630] وَمَنْ يُعاديكَ في الْمَنازِلِ الدّون

سَيِّدي: أتاني كتابُك، فسرَّني خطابُك، فقلت: «هاؤُمُ اقْرَأُوا كِتابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ[631]» وها أنا من محبَّتك الصَّافية، «في عيشَةٍ راضِيةٍ»[632] ومن كلماتك الغالية، «في جَنَّةٍ عالِيَةٍ، قُطوفُها دانِيَةٌ»[633] «أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَريمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمان، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمانِ الرَّحيمِ»[634] كيت وكيت، فمتثلتُ ولبَّيتُ، مُجيباً إلى المنثور والمُدْرَج، المُصَرَّحِ به والمُدْمَج».

فكتب إليه مُوَرِّياً قوله[635]:

[الطويل]

1) أَخي اجْتَهِدْ في حُكْمِ ما كانَ مُدْرَجاً فَإِنَّكَ في اسْتِنْباطِهِ كامِلُ الْوَصْفِ

[627]- رماح حزب الرَّحيم: 2/88: حتى.

[628]- القطعة في ديوانه: 283. الإشراف: 116.

[629]- الكلمة ساقطة من الأصل، عوضناها من ديوان حمدون: 283.

[630]- الإشراف: 116: معتليا.

[631]- سورة الحاقة: 19-20.

[632]- سورة الحاقة: 21.

[633]- سورة الحاقة: 22-23.

[634]- سورة النمل: 29-30.

[635]- البيتان في ديوان حمدون: 311.

2) وعِنْدَ تَعارُضِ الأدِلَّةِ تارَةً يَقولُ الّذي يَبْغي السَّلامَةَ بالوَقْفِ

وقولُه:

[الطويل]

1) أُحِبُّكَ يا حَمْدُونَ وفَوْقَ مَكانَةٍ تَحُلُّ مِنَ الجَوْزاءِ عِقْدَ نِطاقِ

2) وَأُخْفي الّذي فَهِمْتُ عَنْ دَهْرٍ حاسِدٍ بِتَوْرِيَةٍ سِيقَتْ بِحُسْنِ سِياقِ

فقضى الشيخ أبو الفيض وطره من السُّلطان، وكتب إليه مُوَرِّيًا[636]:

[الطويل]

1) سَمِيُّكَ مولانا سُلَيْمانُ قائِلٌ بما اخْتَرْتَهُ، تَبْغي السَّلامَةَ مِنْ وَقْفِ

2) وما لَكُما صَرْفٌ عَنِ المُبْتَغى وفي سُلَيْمانَ فَضْلٌ مانِعٌ لهُ مِنْ صَرْفِ

وقوله[637]:

[الطويل]

1) سَمِيُّكَ مولانا سُلَيْمانُ حاكِمٌ بِما قُلْتَ مِنْ وَقْفٍ، وما لَهُ مِنْ وَقْفِ

2) ولا صَرْفَ لي في نَحْوِهِ إن سَأَلْتَهُ لِعِلْمِهِ أَنَّ حَمْدونَ يُمْنَعُ مِنْ صَرْفِ

ومن ذالك قول أبي الربيع، سيّدي سليمان الحوات أيضا[638]:

[الخفيف]

1) أنا إنْ ما ضَلَلْتُ فالشِّعْرُ هادٍ لِذُراكُمْ لا طارِفي وتِلادي

2) أَطْلَعَتْ لي أَنْوارُهُ البَدْرَ يَهْدي[639] كُلُّ مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِ الرَّشادِ

3) فاجْتَلَيْتُ بِنُورِهِ مِنْهُ بَحْراً مَوْجُهُ العِلْمُ والعُبابُ الأيادي

---

[636]- البيتان في ديوانه: 311.

[637]- البيتان في ديوانه: 311.

[638]- القصيدة في ديوان حمدون: 103-104.

[639] سقطت بعده 4 أبيات موجودة في ديوان حمدون: 103-104.

4) يا مَنارَ الهُدى وأيُّ مَنارٍ!! غَوْثَ ذي أزْمةٍ وغَيْثَ الصَّوادي[640]

5) بِيَدَيْكُمْ أَمْرُ الأَميرِ ومِنْكُمُ اقْ تَبَسَتْ ضَوْءَهُ جَميعُ العِبادِ

6) وَمُقَلِّدٍ جيدَكَ الدُّرَّ شِعْراً شامَ عِنْدَكَ بَرقاً مِنْ مُرادِ

7) فَأَناخَ الرِّكابَ يَرْجو اقْتِباساً مِنْ سِراجِ اعْتِنائِكَ الوَقّادِ

8) فَإِذا ما قابَلْتَهُ بِقَبولٍ اتَّخَذْتُ الشِّعْرى العَبورَ وِسادي

9) وإذا ما لِلْبَحْرِ أَهْدَيْتُ دُرّاً فَالكَريمُ يَرْتاحُ لِلإِنْشادِ

10) وَعَلَيْكَ السَّلامُ مادُمْتَ تَسْمو في سَماءِ العُلى عَلى الأَطْوادِ

1) سَيِّدي حَمْدونُ لِلّهِ أَقْلِعْ[641] عَمّا يُداخِلُكَ في شَأْني مِنَ الإِعْراضِ

2) وأَصْغِ إِلى فَصْلِ خِطابي فيما تُقَرْطِسُهُ مِنَ الأَغْراضِ

واعرف قدر ما رسمتُه لك معرفة الشاكرين، لـكون سعدك كالشَّجى في حلق الحاسدين، ولا تغضَّ ممن لم يجنح لك قبل الانتصاب بعامل الوزارة، إذ من الضَّروريِّ أن الطَّير لا تقع إلا بحيث تبدو لها على الملتَقَط الأمارة، على أن آثار المحبَّة إنما تظهر[642] لغرض، والحُرّ لا تقول عند ظهوره عرض، لا سيما من مثلي ذي النفس الأبيّة، فإنه لا تحمل على التَّصنُّع في أفعالها البادية، ولا عبرة بالأقوال عند عقلاء الرجال، لكن «أَعوذُ بِرَبِّ النّاسِ[643] مِنْ شَرِّ الوَسْواسِ الخَنّاسِ»[644]. هذا، والكلام يطول، وأنت، كما أظنُّ، ملول، وغاية المسؤول من سليمان بهذا الكتاب الكريم، أن بعثني بحامله الشريف مولاي عبد الكريم، فلِلّه اقضِ في حقّه ما أنت قاضٍ، حتّى يرجع عن زكيِّ خيرَ راضٍ. والسَّلام».

---

[640]- في الأصل: البدوي. والتصويب من ديوانه: 103.

[641]- البيتان ساقطا الوزن. وفوقهما في الأصل خطان طويلان، يشبهان علامة الإلغاء. ولعلّهما نثر لا شعر.

[642]- في الأصل: يظهر.

[643]- سورة الناس: 1.

[644]- سورة الناس: 4.

فأجابه الشيخ أبو الفيض حمدون، رحمه الله، بقوله بعد أن قضى وَطَرَه[645]:

[الخفيف]

1) لكَ ذِكْـرٌ يَفـوحُ في الأمْـجـادِ — طائِرٌ في الأغْـوارِ والأنْجـادِ

2) وبِهِ رنّتِ الحَـمـامُ وَغَنَّى — مَـعْـبَـدٌ والغَـريضُ في كُلِّ نادِ

3) لكَ أشْعـارٌ، لوْ أصاخَ لها النُّعْـ — ـمانُ لَمْ يَلْتَـفِتْ لِشِـعْـرِ زِيادِ

4) أو أصاخَتْ خَوْدٌ لها افْتَقَدَتْ ما — عَلّقَـتْـهُ مِنْ قَـبْلُ في الأجْـيادِ

5) طَلْعَةَ الفَجْرِ، نُخْبَةَ العَصْرِ، مَولا — نا سُلَيْـمـانُ، شـامِخَ الأطْوادِ

6) قَدْ أتاني مِنْكُمْ كِتابٌ كَريمٌ — طِرْسُ كـافـورٍ نَقْـشُـهُ مِنْ زَبادِ

7) طَيُّـهُ فـائِحٌ بِهِ النَّشْـرُ عُنْوا — نُهُ حـادٍ لِمـا حَـوى مِنْ مُـرادِ

8) كِدْتُ مِنْ تَقْـبيلي لهُ قَبْلَ أن أقْـ — ـراهُ أمْـحـو مـا بِهِ مِنْ سَـوادِ[646]

9) وَعَطِسْتُ مِنْ أنفٍ[647] عِـزٌّ ومَـجْـدٍ — بالّذي ضـاعَ مِنْ شَـذاهُ الهـادي

10) وَعَلَيْكَ السَّـلامُ مـا رَنَّ شـادٍ — يا بَديعَ الإنْشـاءِ والإنْشـاد

ومن ذالك قولُ أبي الربيع أيضا:

[الطويل]

1) أحَـمْـدونُ: إنَّ اللّهَ أولاكَ رُتْبَـةً — مِنَ المَلِكِ المَنْصورِ تَسْتَسْهِلُ الصَّعْبَا

2) وأنْتَ لَهـا أهْلٌ وإلاّ فَـمَنْ لَهـا؟! — تَبَـوَّأْ بِهـا مِنَ العُلى مَنْزِلاً رَحْبـا

3) وَهذا المُـفَـضَّلُ الّذي أنْتَ عـارِفٌ — فَلِلّهِ كُنْ مِنْ حـالِهِ خَيْـرَ مَنْ أنْبـا

4) وَدونَكَ فَـاسْتَـمْطِرْ لِمَـحْلٍ رَبْعِـهِ — إمـامـاً يَرُدُّ جَدْبَهُ كُلَّهُ خِـصْـبـاً

5) وَمَنْ أوْصَلَ المَعْروفَ مِنْ مُسْتَحِقِّهِ — يَنالُ مِنَ اللّهِ المَـثـوبَةَ والقُـرْبى

6) وَحَسْبُكَ في هذا اغْتِنامُ الّذي تَرى — مِنَ اللّهِ في: «إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبى»[648]

[645]- القصيدة في: ديوانه: 104-105.

[646]- ديوانه: 105: مداد.

[647]- ديوانه: 105: بأنف.

[648]- سورة الشورى: 23.

7) عَلَيكَ سَلامٌ مِنْ سُلَيمانَ ما جَرى حَديثُكَ في خِطابِكَ سَلْسَلاً عَذْبا »[66]

[بيتان للطيب ابن كيران]

ومن ذالك قول خاتمة المحقّقين، سيّدي الطيّب ابن كيران، وقد حصلت بينهما نُفرة:

[الطويل]

1) فَلا تَطْرُدُوا صَبّاً كَئيباً أتاكُمُ ولا تَهْجُروا، ما الْهَجْرُ إلاّ مَنونُ

2) ولا تَعْجَلوا بِالقَتْلِ قَبْلَ وِصالِكُمْ فَقَتْلُ الفَتى عِندَ اللّقاءِ يَكونُ

[رائية محمد بن عامر التّادلاوي]

ومن ذالك قول العلامة الإخباري المطالع، الحافظ الحجّة، أبي عبد الله، محمد بن محمد بن محمد بن عامر التّادلاوي:

[البسيط]

1) صَدْرَ الصُّدورِ ونَجْلَ الْحاجِ سَيِّدَنا حَمْدونُ مَنْ بِالمعالي ظَلَّ مُؤْتَزِرا

2) وَمَنْ بِهِ افْتَخَرَتْ فاسٌ وَفيهِ بَدا كَالشَّمْسِ في الأُفْقِ مِنها النُّورُ قَدْ بَهَرا

3) تَكَرَّرَ الخَطْوُ مِنّا لِزِيارَتِكُمْ فَلَمْ تَقْدِرْ، وذا عُذْرٌ لها ظَهَرا

4) لَكُمْ عَلَيْنا حُقوقٌ لَيْسَ يَجْحَدُها مَنِ ارْتَدى بِرِداءِ الفَخْرِ واتَّزَرا

5) فَاللّهُ يُبْقيكُمْ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ فَالدَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ بِكُم قَدِ افْتَخَرا

ومن ذالك قول بعض الأدباء:

[نونيّة غُفل]

[الوافر]

1) ألا فَدَعِ التَّأخُّرَ وَالتَّواني وَأقْدِمْ مِثْلَ إقْدامِ السِّنانِ

2) وَخاطِرْ، إن تَرُمْ إدْراكَ مَجْدٍ، فَلَيْسَ المَجْدُ يُدْرَكُ بِالأماني

3) وإن وَطَنٌ نَبا، جاوِزْهُ، وَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أن تُقيمَ على هَوانِ

[66]- انتهت مخاطبات حمدون ابن الحاج وسليمان الحوات.

4) وإن زَمَنٌ عَدا، فَاعْمَدْ إلى مَنْ — بِهِ قَدْ يُسْتَجارُ مِنَ الزَّمانِ
5) إلى ابْنِ الحاجِ حَمْدونَ المُرَجّى — إلى مَنْ لا لَهُ في النّاسِ ثانِ
6) فَإن حَلَّتْ رِكابُكَ في ذُراهُ — فَأَنْتَ مِنَ الحَوادِثِ في أمانِ
7) فَتى راقَ الثَّناءُ عَلَيْهِ حُسْناً — كَما راقَ الحِلى على الحِسانِ
8) عَظيمُ الجودِ مِنْ غَيْرِ اعْتِدادٍ — ومُعْطي الجَمِّ مِنْ غَيْرِ امْتِنانِ
9) بَليغٌ: إن يَقُلْ، يَأتي بِقَولٍ — وَجيزِ اللَّفظِ مُغْتَرِفِ المَعاني
10) كَفاهُ تَكَلُّفَ التَّجْريبِ عَقْلٌ — وَأَغْنَتْهُ الظُّنونُ عَنِ العِيانِ
11) حَلَتْ فيهِ المَدائِحُ فَهْيَ أشْهى — وأعْذَبُ مِنْ مُعَتَّقَةِ الدِّنانِ
12) فَيا أمْني، إذا أخْشى، وحِصْني — وَياتِرْسي ومِنْصَلي اليَماني
13) إلَيْكَ رَحَلَتْ ناجِيَةٌ فَجاءَتْـ — ـكَ تَطوي كُلَّ أفْيَحَ صَحْصَحانِ
14) عَلى عِلمٍ بِأنَّكَ يارَجائي — على الأحْداثِ أنْفَعُ مُسْتَعانِ
15) فَأَيِّدْني، فَداكَ أبي، بِنَصْرٍ — أعِزُّ بِهِ، وأكْبِتُ كُلَّ شاني
16) بَقيتَ بَقاءَ دَهْرِكَ أو ثَنائي — فَإنَّهُما، وجَدِّكَ، خالِدانِ

[نونيّة ثانية غُفل]

وقولُ آخر يستعير منه «حاشيته» على «التّلخيص»:

[الكامل]

1) صَوْبُ الحَيا، رَوْضُ المُنى بِهِ زانا — فَتَراهُ مُبْتَسِماً بِهِ مُزْدانا
2) مُخْضَرَّةٌ أغْصانُها قَدْ أثْمَرَتْ — وَزَهْوُها يَنْعى لَنا الأحْزانا
3) والسَّعْدُ أقْبَلَ في أتَمِّ مَسَرَّةٍ — مُتَعَمِّماً في تيهِهِ تيجانا
4) والدَّهْرُ ساعَدَ بِالمُنى بَعْدَما — أنْ كانَ ذا بُخْلٍ بِهِ أزْمانا
5) وَتَوالَتِ الأفْراحُ وانْزاحَ الأسى — فَتَخالُ فينا ذا الجَوى نَشْوانا
6) لِمَ لا، وبَدْرُ التَّمِّ في أُفُقِ العُلى — قَدْ حَلَّ لا يَخْشى به نُقْصانا!!؟

7) وقـد اسْـتَنارَ [650] بَعْـدَ ظَلامِـهِ [651] مَنْ بِعِلْمِـهِ أحْـيـان

8) حـازَ الْمَـزايـا والسَّـمـاحَـةَ كُلَّهـا وكَـذا الْبَـلاغَـةَ قَـدْ عَـلا سَـحْـبـانا

9) قُطْبُ الرَّحى وكِياسُهُ فَـوْقَ السُّهى وَجُـودُهُ يَرْوي بِهِ ظَمْـآنـا

10) حَمْدونُ: هَلْ لابْنِ الْبَـراعَـةِ مِنْهُمُ يَشْكو الْجَـوى وَعَـيْنَهُ أقْـرانا

11) وأوْدى بِجِسْمِهِ حُبُّ «حاشِيَةٍ» لَكُمْ سَـتَـرَ الَّذي في لُبِّـهِ كِـتْـمـانا

12) ياسَـيِّـداً كَلُّ الوَرى في مَـدْحِـهِ ولَـطـالَـمـا أبْـدَوا لَـهُ أوْزان

13) دُمْ في سَـمـاءِ الْمَجْدِ فَرْداً ثانِياً يَلْقى عَـدُوُّكَ في الْوَرى خُـسْـران

14) مُـتَنَكِّراً في دَهْرِهِ مُـتَـحَـزِّناً لا يَرْتَجي رَوْحـاً ولا سُـلْوان

15) وعَلَيْكَ، مـا هبَّ النَّسيمُ، تَحِيَّةٌ مـانالَ في رَوْضِ الْمُنى أغْـصـان

[فائيَّة غُفْل]

وقولُ آخر:

[الكامل]

1) إنّي لِصـادِقِ وَعْـدِكُمْ أتَشَـوَّفُ يامَنْ وَقَـفْتُ بِبـابِهِمْ أتَكَفَّفُ

2) لَوْ جِـئْـتَـهُمْ لِدِفـاعِ كُلِّ مُلِمَّـةٍ مـا إن أرى لك مَطْلَبًـا يَتَـوَقَّفُ

3) فَـاحْـرِصْ على عِزِّ الوُقـوفِ بِبابِهِمْ تَلْقَ النَّجـاحَ، لأنَّهُمْ بِكَ أرْأفُ

4) يا واحِـداً في الْعَـصْـرِ لَيْسَ يَصُدُّهُ عَنْ مَنْهَجٍ في رُشْـدِهِ مُـسْـتَنْكِفُ

5) أنتُمْ سِـراجُ الْعَـصْـرِ مِنْ أخْـلاقِكُمْ أذْنُ الزَّمـانِ والأمـانـي تُشَنِّفُ

6) وَلِذاكَ جِـئْـتُـكُمْ لِنَيْلِ تَخَلُّصٍ مِنْ حَـديثِ صَـعْبٍ عَلَيْنا يوقَفُ

7) فَـادْفَـعْـهُ يا حَـمْـدونُ بِاللهِ الَّذي أوْلاكَ مـا عَنْهُ الأفـاضِلُ تُصْـرَفُ

8) وانْظُرْ بِفِكْرِكَ ذي الإصـابَةِ ضارِعًـا مِنْ أجْلِ فـاقَـتِـهِ ولا تَتَـوَقَّـفوا[652]

9) فَـاللهُ يُبْـقِـيكُمْ ويُرْقِـيكُمْ إلى عِـزٍّ مِنَ اللـهِ الـكَـريمِ يُؤَلَّفُ

650- بياض في الأصل.

651- بياض في الأصل.

652- في الأصل: تتوقف. ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

10) وَعَلَيْكَ خَيْرُ تَحِيَّةٍ مِنْ رَبِّنا   وَرِضاؤُهُ مُتَتابِعًا قَدْ يُؤْلَفُ

وكثيرا أيضا ما رُفِعَت للشيخ أبي الفيض حمدون، القصائد الموجبة على اختلاف الأغراض من الرِّثاء والتَّهنِئَة.

[تهنئات ومدائح مرفوعة لأبي الفيض حمدون]

[نونيّة محمّد بن طاهر الهوّاريّ]

فمن ذلك قول العلاّمة قاضي الحضرتين، أبي عبد الله، سيّدي محمّد بن طاهر الهَوّاري[653]، يُهَنِّيه بشفاء السّلطان أبي الربيع من مرض[654]:

[الكامل]

1) يا بارِقًا قَدْ لاحَ مِنْ زَرْهونِ   عَرِّجْ على مِكناسَةِ الزَّيْتونِ

2) ثُمَّ انطلِقْ مِنْ غَيْرِ بُطْءٍ لِلفَتى   زَهْرِ الرِّياضِ المُنْتَقى حَمْدونِ

3) بَلِّغْهُ مِنْ عِنْدي سَلامًا عاطِراً   يُزْري شَذاهُ بِنَفْحَةِ النِّسْرينِ

4) فَلَقَدْ ظَمِئْتُ[655] إلى وُرودِ كِتابِهِ   أَشْفي الغَليلَ بِسِرِّهِ المَكْنونِ

5) وَلْيَهْنِهِ والمُسْلِمينَ شِفاءُ مَنْ   مُحَيّاهُ فيهِ حِمايَةٌ لِلدِّينِ

6) راياتُهُ مَنْصورَةٌ وَلِواؤُهُ   لا خَيَّبَ الرَّحْمنُ فيهِ ظُنونِي

7) وَأَدامَهُ وأَعانَهُ مَنْ أَمْرُهُ   ما بَيْنَ حَرْفَيْ كافِهِ والنّونِ

[نونيّة أبي الفيض حمدون جوابا عنها]

فأجابه الشيخ أبو الفيض بقوله[656]:

[الكامل]

1) يا رامِيًا لِلُؤْلُؤِ المَكْنونِ   مِنْ بَحْرِ عِلْمٍ فائِضٍ مَشْحونِ

2) أَبْياتُكَ السَّبْعُ المَثاني حَرَّكَتْ   مِنّي سَواكِنَ مِنْ هَوى وَشُجونِ

653- أديب عالم. (ت 1210هـ). ترجمته في: الشرب: 7-8. الشجرة: 1/375. رقم 1498.

654- المقطوعة في ديوان حمدون: 281.

655- في الأصل: طلعت. والتصويب من ديوان حمدون: 281.

656- القصيدة في ديوانه: 281.

3) وَبِذِكْرِ مَولانا سُليمانَ عَلَتْ وَعَلَتْ بِها السَّبْعَ الطِّباقَ شُجوني

4) مَلِكٌ عَلى المَنْصورِ أَرْبى نَصْرُهُ وَبِرُشْدِهِ أَرْبى عَلى هارونِ

5) وكَأَنَّهُ المأمونُ في حِلْمٍ وفي سَعْدٍ بِهِ ذي طائرٍ مَيْمونِ

6) وكَأَنَّكَ الحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ مُهْدِيًا بورانَ مِنْ مَنْظومِكَ المَوْضونِ

7) فَعَلَيْكَ مِنْهُ تَحِيَّةٌ مِسْكِيَّةٌ ما فاحَ حَمْدٌ لاحَ مِنْ حَمْدونِ

[بائية الطَّيِّب ابن كيران]

ومن ذالك قول العلامة المحقِّق، سيّدي الطَّيِّب ابن كيران، عن إذن المنصور[657]:

[الكامل]

1) ما بالُ مَنْ قَدْ كانَ يُقْري مُكْرِمًا أَسْماعَنَا ما يُسْتَطابُ ويَعْذُبُ

2) في مَولِدِ المُخْتارِ كانَ مُعَلِّلاً لِنُفوسِنا بِمُرَقِّصاتٍ تُطرِبُ

3) في غَفْلَةٍ، أَوْ غَفْوَةٍ، أَوْ هَفْوَةٍ، أَوْ نَوْمَةٍ، أَوْ غَيْبَةٍ لا تُغْلَبُ

4) أَوْ في التَّشاغُلِ وَالتَّكاسُلِ مُغْرِقًا فَغَدا عَنِ الفَرْضِ المُحَتَّمِ يَرْغَبُ

5) فَأَفِقْ مِنَ السِّنَةِ الَّتي قَدْ عَطَّلَتْ ما كانَ مِنْكَ مِنَ المَعاني يُرْتَقَبُ

6) والفَرْضُ، إن يَكُ فاتَ وَقْتُ أَدائِه[658] فَقَضاؤُهُ مُتَأَكِّدٌ مُسْتَصْوَبُ

فبعث إليه الشيخ مُشيراً إلى الاعتراض عن التأخير، وأنّ أيامه كلّها أعياد، مصدّراً لها بقوله:

[البسيط]

1) أَمَرْتَني بِإِقامَةٍ ولَمْ يَكُ لي[659] وَقَدْ تَرَحَّلْتُ، في إقامَةٍ أَرَبُ

2) وكانَ مِنْ أَدَبي سَيْري إِلَيْكَ فَهَلْ يُقَدَّمُ الأَمْرُ، أو يُقَدَّمُ الأَدَبُ؟

---

[657]- القطعة في النّوافح الغالية: 2/289-290.

[658]- في الأصل: إدراكه، ولا يستقيم به الوزن. والتّصويب من النوافح الغالية: 290.

[659]- القطعة في النوافح الغالية: 2/290.

[رائيّة غُفل]

غيره[660]:

[الكامل]

1) طابَتْ بِطيبِ حَياتِكَ الأعْمارُ — وتَضاءلَت بِضِيائِكَ[661] الأقْمارُ

2) واليومُ كُلُّهُ بُكْرَةٌ وعَشِيَّةٌ — بِكَ، والليالي كُلُّها أسْحارُ

3) والدَّهْرُ كُلُّهُ لَيْسَ إلاّ مَوْسِماً — بِكَ حَقُّهُ الإجْلالُ والإكْبارُ

4) والغَرْبُ كُلُّهُ لَيْسَ إلا الشّامَ مِنْ — ما شامَهُ مِنْ جودِكَ النُّظّارُ

5) فَبِأيِّ أرْضٍ مُنْذُ بِنْتَ ولَمْ تَبِنْ — مِمّا تُفيضُ يَمينُكَ الأنْهارُ؟!

6) بِنَداكَ عودُ الدِّينِ أصْبَحَ مُورِقاً — وتَفَتَّقَتْ فيهِ لَنا أزْهارُ

7) وعَلى الحَقيقَةِ والشَّريعَةِ مِنْ هُدى — لَكَ أشْرَقَتْ، أسْرارُهُ أسْرارُ[662]

8) ضاعَتْ وضاءَتْ مِنْ نَداكَ ومِنْ سَنا — كَ، لِناشِقٍ ولِناظِرٍ أنْوارُ

9) ما أنْتَ إلا مِسْكَةٌ دارِيَّةٌ — عَبِقَتْ بِها الأنْجادُ والأغْوارُ

10) ما الشَّمْسُ في حَمَلٍ سِواكَ، حَلَلْتَ في — قَصْرٍ تُضيءُ بِنورِكَ الأمْصارُ

11) أبْدَيْتَ آثاراً بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ — عَجِبَتْ لَها الأسْماعُ والأبْصارُ

12) لَمْ تُسْفِرِ الأسْفارُ عَنْ مِثْلٍ لِما — تُبْدي، ولَمْ تَنْطِقْ بِهِ أجْفارُ

13) أنْشِئْتَ في حِجْرِ المَفاخِرِ راضِعاً — ثَدْيَ المَكارِمِ، يَعْتَليكَ وَقارُ

14) وَجَرَيْتَ في شَأْوِ العُلى مُتَوَحِّداً — تَجْري بِما تَخْتارُهُ الأقْدارُ

15) المُلْكُ عِقْدٌ أنْتَ واسِطَةٌ لَهُ — لَوْلاكَ لَمْ تُفْصِحْ[663] لَهُ أقْدارُ

---

[660]- القصيدة في النوافح الغالية: 2/290-293.

[661]- النوافح الغالية:290: لضيائك.

[662]- النوافح الغالية:291: أسوار.

[663]- في الأصل: تفضح. والتصويب من النّوافح الغالية: 291. وقد تكرر البيت في الأصل وعليه علامة الإلغاء.

16) عُقِدَتْ عَلَيْكَ خَناصِرُ العَلْياءِ مُذْ[664] عُـقِـدَتْ على صَـدْرٍ لكَ الأزْرارُ

17) وَسَـمَـا بِكَ المُلْكُ الذي أُوتِيتَـهُ فَلَهُ سُـمُـوٌّ ثابتٌ وفَـخَـارُ

18) وبِكَ الخِلافَةُ قَدْ تَمَنْطَقَ خِصْرُها ولَهـا قَـلائِدُ مِنْ عُلى وسِـوارُ

19) وإذا عَلَوْتَ الصَّافِناتِ رَنَتْ إلى أُفُقٍ كَـأنَ جَـوْزاؤُهُ مِـضْـمـارُ

20) أتَرى المَجَـرَّةَ مَوْرِداً عَـذْباً لها يَحْلو بِهِ الإيرادُ والإصْـدارُ؟!

21) ومِنَ العَجائِبِ أن تُثيرَ رِياحَها دَأْباً، وأنْتَ الدِّيمَةُ المِـدْرارُ

22) وَيَبِينَ رُمْحُكَ في دُجُنَّةِ نَقْعِـها وكَـأنَّهُ عَلَمٌ بِرَأْسِـهِ نـارُ

23) قـاسُوكَ بالطائِيِّ جَـهْـلاً مِنْهُمُ أنَّى تُقـاسُ جَـداوِلٌ وبِحـارُ؟!

24) العِلْمُ رَوْضٌ يُجْـتَنى لَوْلاكَ لَمْ تَنْشَقَّ مِنْ أكْـمـامِهِ الأثْـمـارُ

25) والحِلْمُ بَيْتٌ أنْتَ سـاكِنُهُ وكَمْ حَلَّتْ بِهِ أشْراكُـهـا الأشْـرارُ!!؟

26) وَمِنَ الجَـلالِ[665] عَلَيْكَ أيُّ مَـلاءَةٍ ومِنَ الجَـمـالِ قَـبـاءَةٌ وإزارُ

27) جُـرْثومَـةٌ لكَ لَمْ تَزَلْ تُبْـدي لَنا مـا يَعْـتَلي كَـعْبٌ بِهِ ونِزارُ

28) لِلَّهِ أيُّ شَـمـائِلٍ خَلَعَتْ عَلى ذاكَ الجَنابِ أُرومَـةٌ ونِجـارُ

29) فَـمَـتى أدَرْنا أوْ أرَدْنا ذِكْـرَها خِلْناكَ أنَّكَ رَوْضَـةٌ مِـعْـطارُ

30) وَسَـرى بِشُكْرِكَ كُلُّ ريحٍ سـائِرٍ وَتَرَنَّـمَتْ بِثَـنائِكَ الأطْـيـارُ

31) وَتَطيرُ أمْداحٌ[666] إلَيْكَ مَعَ الصَّبا أبَداً، وفَـرْضـاً تُمْـدَحُ الأخْـيـارُ

32) مـا عـاقَني عَنْ فَـرْضِـهـا إلاّ يَدٌ بَسَـقَتْ، ولَمْ يُبْلَغْ لها مِـعْـشـارُ

33) وكَـفَى مَـديحَكَ أنَّهُ في طَيِّـهِ مَـدْحُ النَّبِيِّ المُـصْطَفى المُـخْـتـارُ

34) أصْلُ الوُجـودِ ورَوحُـهُ، لَوْلاهُ لا فَـرْشٌ ولا عَـرْشٌ ولا أنْـوارُ

وتقدم تمامُها عند التعرُّض للمَوْلِديَّات[667].

---

[664]– في الأصل: من. والتَّصويب من النَّوافع الغالية: 291.

[665]– في الأصل: الجلال. والتَّصويب من النَّوافع الغالية: 292.

[666]– في الأصل. أمواج. والتصويب من النوافع الغالية: 292.

[667]– لم يرد منها شيء في رياض الورد. ولعل المؤلف يحيل على النوافع الغالية، حيث ورد تمامها (100

[بائية غُفل]

ومن ذالك قولُ بعض الأدباء:

[الطويل]

1) ألا حَيِّ سَلمى قَبْلَ زَمِّ الركائبِ ... إذا كُنْتَ يَوْمَ الجِدِّ لي جِدَّ صاحِبِ

2) عَقيلَةُ أتْرابٍ لها قَدُّ بانَةٍ ... تُجاذِبُها الأرْواحُ غِبَّ سَحائِبِ

3) بَعيدَةُ مَهْوى[668] القُرْطِ، مَهْضومَةُ الحَشى ... أسيلَةُ ما بَيْنَ البُرى والذَّوائِبِ

4) يُضيءُ دُجى اللَّيلِ البَهيمِ ابْتِسامُها ... كَما لاح بَرْقُ الدَّرْقِ[669] بَيْنَ الغَياهِبِ

5) تَحِيَّةُ مِسْكٍ، ضاعَ وَهْناً ذَكِيَّةُ ... تَضَوَّعُ في أرْدانِها والتَّرائِبِ

ومنها:

6) ودَعْ ذا، وَعَدِّ القَولَ في أيِّ ضارِعٍ ... إلى سَيِّدي حَمْدونَ زَيْنِ المَواكِبِ

7) هُوَ البَحْرُ غَرّاقُ العَبيرِ، ومَنْ لَهُ ... يَوافيتُ تُنْسي عِلْقَ حُلى الخَراعِبِ

8) لَهُ في رِياضِ العِلْمِ والحِلْمِ رَوْضَةٌ ... خَمائِلُها مُرْتادُها غَيْرُ كاذِبِ

9) ونِعْمَ الفَتى تَعْشو إلى ضَوْءِ نارِهِ ... تَهاداكَ نُكْبُ الصَّرِّ بَيْنَ السَّباسِبِ

10) وَظَنّي بِهِ يَوْمَ اللِّقاءِ مُجَرَّباً ... يُطارِدُ أولي الخَيْلِ قَبْلَ الكَتائِبِ

11) لَعَمْري، لأولى السَّعْدِ يَوْمُ ظُهورِهِ ... سَموحَ نَبِيٍّ عَنْ شِيات[670] الضَّرائِبِ

12) إذا جالَسَ الفِتْيانَ أشْرَقَ وَجْهُهُ ... كَإشْراقِ بَدْرِ التِّمِّ بَيْنَ الكَواكِبِ

13) يُعاطيهِمْ بَعْدَ اللآلي جَواهِراً ... وَهَى سِلْكُها في أَيْدِ خُمْصِ الكَواعِبِ

14) ولَوْ كانَ يَفْنى الشِّعْرُ أفْناهُ ما قَرَتْ ... حِياضُكَ مِنْهُ، في العُصورِ الذَّواهِبِ

15) ولاكِنَّهُ صَوْبُ العُقولِ إذا انْجَلَتْ ... سَحائِبُ مِنْهُ أعْقِبَتْ بِسَحائِبِ[671]

بيت) النوافح: 2/290-298، أو على القطعة المفقودة من رياض الورد.

[668]- في الأصل: مأوى، وهو تصحيف.

[669]- كذا بالأصل.

[670]- في الأصل: سينات. ولا يستقيم به وزن ولا معنى. ولعل الصواب ما أثبت.

[671]- البيتان لأبي تمام. ديوانه: 1/214.

16) لِيُدْرِكَهُ مَنْ[672] رامَ يُدْرِكَهُ ولا يُلائِمُ رَكْضَ الحُمْرِ نَصُّ النَّجائِبِ

17) وَقاهُ إِلاهُ العَرْشِ عَيْنَ حَسُودِهِ بِأَسْمائِهِ الحُسْنى وَالآيِ[673] الثَّواقِبِ

18) قَصيدَتُنا زُفَّتْ إِلَيْكَ وَمَهْرُها دُعاءٌ بِحُسْنِ الخَتْمِ مِنْ ظَهْرِ غائِبِ

19) وَبَعْدُ، فَصَلَّى اللهُ خالِقُنا على مُحَمَّدٍ المُخْتارِ مِنْ آلِ غالِبِ

[نونيّة غُفل]

وقول آخر:

[البسيط]

1) فاسٌ، إذا نَطَقَتْ، فَالرُّومُ ساكِتَةٌ إِذْ لا يُجاوِبُها العِراقُ وَالصِّينُ

2) فَمِنْ مَفاخِرِها، بِالمَجْدِ مُفْرَدَةٌ لَمَّا العُلومُ بِها، وَالحُسْنُ مَخْزونُ

3) بَغْدادُ أَضْحَتْ لها بِالرَّغْمِ صاغِرَةً وَمِصْرُ وَالشَّامُ وَالأَقْصى خُراسانُ

4) صَنْعاءُ مِنْ أَسَفٍ تَبْكي بِمُقْلَتِها لا فَخْرَ تَذْكُرُهُ، وَالقَلْبُ مَحْزونُ

5) فَالآنَ أَضْحَتْ لَها الآثارُ شاهِدَةً بِأَنَّها جَنَّةٌ، وَالحورُ وَالعَيْنُ

6) كَأَنَّها عِنْدَما تُرى بِغُوطَتِها خَمَّاءُ كَالدُّرِّ، في الأَصْدافِ مَكْنونُ

7) إِنِّي أَقولُ، وَإِنَّ القَوْلَ حَقٌّ: كَفى فَخْراً بِأَنْ بِها الإِمامُ حَمْدونُ

[رائيّة غُفل]

وقول آخر:

[السريع]

1) فَرائِسٌ أَوْلَيْتَ مِن بِرِّهِ حَتَّى أَخَذْتَ الدِّينَ عَنْ ذِكْرِهِ

2) فَلَيْسَ في أَوْقاتِهِ غَيْرُنا بَلْ [و][674] يَعُمُّ النَّاسَ مِنْ خَيْرِهِ

3) وَيَحْمِلُ الأَثْقالَ حَتَّى أَرى جُرْدَ النِّياقِ خِفْنَ مِنْ صَبْرِهِ

4) فَكُلُّ فَخْرٍ رِبَىً في غَيْرِهِ فَإِنَّما أُعيرَ مِنْ فَخْرِهِ

672– ورد في الأصل بعده: قد رام وقد أسقطنا قد ليستقيم الوزن.

673– تسهل الهمزة ليستقيم الوزن.

674– زيادة منا لم ترد بالأصل، ليستقيم الوزن.

5) وكُلُّ دُرٍّ فــائِقٍ في نُحــو ... رِ الغِيد قَدْ أُغْرِفَ مِنْ بَحْرِهِ
6) وبَحْــرُهُ فـي وَجْــهِــهِ رَوْنَقٌ ... وَجَــيِّــدُ اللُّؤلُؤِ في قَــعْــرِهِ
7) ومــاؤهُ مُــسَلْسَلٌ جَـرْيُهُ ... أُمِنْتُ طولَ الدَّهْرِ مِنْ غَــوْرِهِ
8) وبَحْــرُ جـودٍ قَــدْ غَنيتُ بِهِ ... وبـالِغُ اللَّمَــعــانِ مِنْ دُرِّهِ
9) كَــأنَّهُ مِنْ غُــصْنٍ وَرْدٍ نَشَــا ... فَطيبُ الأكْــوانِ مِنْ نَشْــرِهِ
10) فَـهْـوَ الفَـريدُ في جَـميعِ الوَرى ... يَسْـمـو عَلى الأطْوادِ في عِـزِّهِ
11) لا عَــجَبٌ في حُبِّ ذاتٍ[675] لَهُ ... لأنَّهُ كَــالرُّوحِ في مِــصْــرِهِ
12) لَـمَّــا أتانا صُبْحَ يَوْمِ المُنى ... فَكانَ كَــالصَّــادِعِ مِنْ فَــجْـرِهِ
13) فَكُلُّ مــا يَفــوحُ مِنْ عَنْبَـرٍ ... فَــهْــوَ الَّذي يُشْـبِـهُ مِنْ عِطْرِهِ
14) في سَحَرٍ يَسْعى إلى مَسْجِدٍ ... يَحْـسُـدُهُ البَـدْرُ على سَـيْـرِهِ
15) مَـهْـمـا يَراه[676] مُسْرِفٌ مُذْنِبٌ ... إلاَّ وَقَــد جُــرِّدَ مِنْ وِزْرِهِ
16) إنْ طالتِ الصَّــلاةُ مِنْ غَـيْـرِهِ ... تُعَــدُّ تِلكَ البَـعْضَ مِنْ قَــصْـرِهِ
17) لَوْ تُجْـعَلُ القِبْلَةُ في سَــيِّــدٍ ... فَلَمْ تَكُنْ إلاّ مِنْ شِــعْــرِهِ
18) نَغْـمَـتُـهُ، إنْ كـانَ في مَـجْلِسٍ ... تُغْـني مِنَ العــودِ وعَنْ نَقْــرِهِ
19) أهْدَيْتُــهُ قِــلادَةً رُصِّــعَتْ ... بِدُرَّةٍ تَزْدانُ مِنْ نَـحْــــرِهِ
20) سَيْفُ الهُدى، عَيْنُ العُلى، روحُها ... لُبُّ الوَرى، والخَلْقُ مِنْ قِشْــرِهِ
21) كَــأنَّمــا سُطِّرَ[677] مِنْ فَــوْقِنا ... سُــحْبُ النَّدى، فكُنْتَ مِنْ قَطْرِهِ
22) يا واحِــداً لا واحِــداً مِــثْلَهُ ... بَلْ لا يُقــالُ الفَــرْدُ في غَـيْـرِهِ
23) كَــأنَّـمــا أنْذَرَ هذا الزَّمــا ... نُ خَيْــرَةً، فكُنْتَ مِنْ قَــدْرِهِ
24) فَـخَـيْـرٌ، بِالحَـمْـدِ زارِعٌ[678] ... في دينِهِ، فــأنْتَ مِنْ ثَمَــرِهِ

675- في الأصل: ذوات. ولا يستقيم به الوزن. ولعل الصواب ما أثبتنا.

676- كذا بالأصل.

677- في الأصل: أسطر، ولا معنى لها. ولعل الصواب ما أثبتنا.

678- كذا بالأصل. والشطر ساقط الوزن، ومبهم المعنى.

25) كَسَوْتَ أَرْبَعاً لَنَ بَهْجَةً كَما كَسَا الجَوُّ مِنْ بَدْرِهِ[679]

26) هُوَ الَّذي لَوْ رُمْتَ حَصْرَ المُنى فيهِ، فَنى المِجْبارُ مِنْ خَبْرِهِ

27) فَكُلَّمَا بَذْلُهُ مِنْ حِكْمَةٍ في النَّاسِ طُرّاً، فَهْيَ مِنْ سِرِّهْ

28) وَهُوَ الَّذي عَلَّمَ هذا الدَّهْـ رَ كَيْفَ [680] مِنْ غَدْرِهِ

29) فَما أَبانَ سَيْفَهُ كَفُّهُ إلاّ أُصيبَ الدَّهْرُ في جَذْرِهِ

30) وَقَدْ قَنيَتْ سَيفُهُ عَذْلَهُ[681] لَمّا تَوَلّى الحُكْمَ في أَمْرِهِ

31) وَكُلَّما في النَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ تُشْبِهُ بِالْقَليلِ مِنْ يُسْرِهِ

32) يَعْلَمُ ما أَخْفَيْتَ في باطِنٍ كَأَنَّما أُخْفِيَ في صَدْرِهِ

33) وَقَد جَزاني إِذْ جَعَلْتُ المُنى وِصالَهُ بِالأَمْسِ مِنْ هَجْرِهِ

34) وإذْ رَأى أَخْلَصْتُ في وُدِّهِ أَمْكَنَني بِالمَحْضِ مِنْ سِرِّهْ

35) فَسِرُّهُ أَضْحى لَنا بادِياً كَما بَدا لِلنَّاسِ مِنْ جَهْرِهِ

36) يَشْرَبُ في حَوْضِ المُنى سِرُّهُ وَتَشْرَبُ المُلوكُ مِنْ كَدْرِهِ

37) يَجْلِسُ، إِنْ يَحُلَّ في مَجْلِسٍ مَبْدَعَ الإِتْقانِ في صَدْرِهِ

38) حَلَلْتُ، إِذْ كُنْتُ لَهُ مادِحاً، مِنْ ذَرْوَةِ الكُرْسِيِّ في نَسْرِهِ

39) يُقْسِمُ مَنْ يَرى مَديحي بِما: لِلَّهِ قَد[682] رُبِّيتَ في حِجْرِهِ!!

40) تِهْتُ عَلى الأَقْيالِ مِنْ حِمْيَرٍ لَمّا تَشَرَّفْتُ مِنْ ذِكْرِهِ[683]

41) لَمّا رَأَتْهُ الشَّمْسُ في نُورِها قَدْ زيدَ فيهِ الضَّوْءُ مِنْ نورِهِ

42) لَمّا رَأَيْتُهُ كَثيرَ السَّنا أَلْفَيتُ كَالفَراشِ مِنْ قَدْرِهِ

43) لَمّا رَآهُ الدَّهْرُ أَوْما إِلى سِلْمٍ، وَقَدْ أَبْدا مِنْ مَكْرِهِ

679- كذا بالأصل. ولا يستقيم به وزن ولا معنى.

680- بياض بالأصل.

681- كذا بالأصل. ولا يستقيم به وزن ولا معنى. وقد يصح بقوله: وقد سبقت سيفه عذله.

682- في الأصل: لقد. ولا يستقيم به الوزن.

683- كذا بالأصل. ووزن الشطر ساقط.

44) يَهْصِرُ بالفَهْمِ صَغير [684] حَتَّى تَخافُ الأُسْدُ مِنْ هَصْرِهِ

45) إنْ كانَ رَبُّنا مُدَّخِراً خَيْراً، فأَنْتَ كُنْتَ من ذُخْرِهِ

46) يا سَيِّدي حَمْدونُ خِلْفَ الرِّضى: أتاكَ كُلُّ السَّعْدِ مِنْ خِدْرِهِ

47) وَجاءَكَ المُحِبُّ يَرْجو، عَسى يَراكَ مُقْبِلاً عَلى شِعْرِهِ!!

48) فَانْعَمْ بِما غَرَسْتَ في رَوْضِنا واسْتَنْشِقَنْ[685] العِطْرَ مِنْ زَهْرِهِ

49) واحْصُدْ كَما غَرَسْتَ في أرْضِنا مِنْ أدَبٍ، وانْتَقِ مِنْ بِرِّهِ

50) أنْتَ الَّذي نَشا[686] بِكَفِّ النَّدى وَالحِلْمِ والإعطاءِ مِنْ صُغْرِهِ

51) لَوْ يَدْرِهِ[687] القِسِّيسُ مِنْ رومَةٍ لَجاءَ لِلإسْلامِ مِنْ دَيْرِهِ

52) أوْ قوبِلَتْ ذوو[688] المَعالي بِهِ فَما يَكونوا[689] النِّصْفَ من شِبْرِهِ

53) لازالَ فَضْلُ رَبِّنا مُسْدَلاً[690] عَلَيْهِ، ثُمَّ زيدَ في بِرِّهِ

[داليَّة محمد بن إدريس العمراويّ الوزير]

وقول الوزير الأعظم، أبي عبد الله، سيدي محمّد بن إدريس العمراويّ، شُهر بابن الحاجّ، يُهنّيه بعيد الفطر سنة 1231: [6-1815]

[الكامل]

1) بِوُجودِكُمْ، تَتَزَيَّنُ الأعْيادُ، وبِمَجْدِكُمْ، يَتَطرَّزُ الإنْشادُ

2) ولِمَدْحِكُمْ، يَرْتاحُ كُلُّ مُهَذَّبٍ وبِمَدْحِكُمْ، يَتَنَزَّلُ الإمْدادُ

3) وبِنورِكُمْ، يُهْدى إلى سُبُلِ الهُدى ونَعِمَ مَنْ ناديكُمُ الإرْشادُ

4) وَلِمِثْلِكُمْ، في عِلْمِهِ وَسَنانِهِ، تُنْضى الرِّكابُ، وتُضْرَبُ الأكْبادُ

[684]- بياض بالأصل قدره كلمة. ووزن الشطر ناقص به.

[685]- في الأصل. واستنشق. ولا يستقيم به الوزن، ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

[686]- تُسهّل الهمزة ليستقيم الوزن.

[687]- كذا بالأصل. وبه يستقيم الوزن.

[688]- في الأصل: ذو. ولا يستقيم به وزن ولا تركيب.

[689]- كذا بالأصل. وبه يستقيم الوزن.

[690]- في الأصل: مسدل.

5) أَنْتُمْ لأَشْبَاحِ الْعُلَى الأَرْوَاحُ بَلْ — أَنْتُمْ لأَرْضٍ وُجُودِهِ الأَوْتَادُ
6) يا أيُّها الشَّيْخُ الإِمَامُ المُرْتَضَى — واللَّوْذَعِيُّ الكَوْكَبُ الوَقَّادُ
7) وَالعَالِمُ العَلَمُ الهُمَامُ المُنْتَقَى — بَحْرُ العُلومِ المُتْقِنُ النُّقَّادُ
8) هُنِّئْتَ بِالعِيدِ السَّعِيدِ ومِثْلُكُمْ — بِوُجُودِهِ تَتَهَنَّأُ الأَعْيَادُ
9) سَعِدَ الزمانُ وأَهْلُهُ بِوُجودِكُمْ — فَجَمِيعُهُ مِنْ فَضْلِكُمْ أَعْيادُ
10) لِلَّهِ مَا قَدْ حُزْتُمْ مِنْ سُؤْدَدٍ — فَخْمٍ تَذِلُّ لِعِزِّهِ الأَنْدادُ
11) وَجَمَعْتُمْ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ رائقٍ — عَمِيَتْ بِرُؤْيَةِ نورِهِ الحُسَّادُ
12) عِلْمٌ وحِلْمٌ، عِفَّةٌ وَمُروءَةٌ، — جُودٌ وَبَحْرٌ، طارِفٌ وتِلادُ
13) يا حائِزاً قَصَبَ السِّباقِ وفائزاً — بِصِفاتِ فَضْلٍ نورُها وَقَّادُ
14) وَمُحِبُّ خَيْرِ المُسْلِمِينَ وآلِهِ — وَمَلاذَنا، إنْ عَمَّنا أَنْكادُ
15) وَمَنِ الَّذي حَسِدَ الوَرى مِنْ عِلْمِهِ — وذَكائِهِ الإصْدارَ والإيرادَ[691]
16) ومَنِ الَّذي أَخْلاقُهُ وصِفاتُهُ — طابَتْ بِها الأَغْوارُ والأَنْجادُ
17) والمُنْتَقى مِنْ أُسْرَةٍ حازوا[692] العُلَى — وَلِكُلِّ مَكْرُمَةٍ وفَخْرٍ شادوا
18) نَصَرَ النَّبِيَّ سِنانُهُمْ وَلِسانُهُمْ — فَلِذاكَ أَعْلامَ البَرِيَّةِ سادوا
19) لَهُمُ السَّماحَةُ والحِمايَةُ[693] شيمَةٌ — وهُمُ السَّراةُ السَّادَةُ الأَنْجادُ[694]
20) قَوْمٌ، إذا حَضَروا النَّدى، سَحائبٌ — وهُمُو، إذا حَضَروا الدُّنا، آسادُ
21) أَحْيى وجودُكَ ذِكْرَهُمْ فَكَأنَّهُمْ — لَمْ تُخْفِهِمْ بِوُجودِكَ الأَلْحادُ
22) خُذْها كَما شاءَ الوِدادُ خَريدَةً — عَزَّتْ لَها بَيْنَ الوَرى أَضْدادُ
23) لازِلْتَ يا حَمْدونُ بَدْرَ دُجُنَّةٍ — يُهْدى بِنورِ رَشادِهِ القُصَّادُ

---

[691]- في البيت إقواء.

[692]- الأبيات 17-21 في الباب الأول من رياض الورد.

[693]- الباب الأول: الحماسة.

[694]- الباب الاول: الأمجاد.

وقوله أيضا:

[البسيط]

1) أمـا وَدُرٌّ نظيمٍ تحْتَ شـاربِهِ ... وَريقِ ثَغْرٍ غدا خَمْراً لِشارِبِهِ

2) وَقَدٌّ بانٍ عَلاً مِنْ فَوْقِهِ قَمَرٌ ... مِنْ تَحْتِ لَيْلٍ بَهيمٍ مِنْ ذَوائِبِهِ

3) وَرَوْضِ وَرْدٍ عَلى السُّوسانِ مَنْبَتُهُ ... وَقَد غَدا القَلْبُ مُضْنى مِنْ عَقارِبِهِ

4) وَخالِهِ العَنْبَري[695] لَوْناً ورائِحَةً ... وَصَدْغِهِ المُكْتَسي آساً بِجانِبِهِ

5) وَأسْهُمٍ مِنْ لِحاظِ أحْوَرٍ غَنِجٍ ... قَدْ أقْصَدَتْ مُهْجَتي مِنْ قَوْسِ حاجِبِهِ

6) وَسَيْفِ طَرْفٍ غَدا قَلْبي الكَليمُ بِهِ ... ما الهِنْدُواني[696] بِأمْضى مِنْ مَضارِبِهِ

7) لَقَدْ كَساني الهَوى ثَوْبَ السَّقامِ فَما ... أبيتُ إلاّ صَريعاً مِنْ مَصائِبِهِ

8) مَنْ لي بِأهْيَفَ أحْوى الطَّرْفِ أحْوَرِهِ ... مُمَزِّقِ الوُدِّ، خَلْفِ الوَعْدِ، كاذِبِهِ

9) بَدْرٌ، ولَكِنْ حَشايَ مِنْ مَطالِعِهِ ... ظَبْيٌ، ولَكِنْ فُؤادي مِنْ مَلاعِبِهِ

10) رَفَعْتُ رايَةَ حُبّي، إذْ حَفِظْتُ لَهُ، ... قَدْري، فَجادَ بِجَرّي عَنْ نَواصِبِهِ

11) لَوْ لَمْ يَكُنْ حُبُّهُ قَدْ حَلَّ في خَلَدي ... ما بِتُّ لَيْلي أرْعى في كَواكِبِهِ

12) أقولُ لِلنَّفْسِ، إذْ لَجَّ الغَرامُ بِها، ... أما تَرَيْنَ الجَوى الّذي كَواكِ بِهِ؟!!

13) دَعِ التَّغَزُّلَ فيهِ والغَرامَ بِهِ ... وَخُضْ بِنا مَدْحَ سامٍ في مَراتِبِهِ

14) شَيْخِ المَشايِخِ حَمْدونَ الّذي حُمِدَتْ ... بِهِ المَعالي وراقَتْ مِنْ مَناقِبِهِ

15) وَعالِمِ المَغْرِبِ الأقْصى وَسَيِّدِهِ ... وشاعِرِ العَصْرِ في الدُّنْيا وكاتِبِهِ

16) مَحاسِنُ العَصْرِ بَعْضٌ مِنْ مَحاسِنِهِ ... وَزينَةُ الدَّهْرِ بَعْضٌ مِنْ مَواهِبِهِ

17) تَبَوّأ[697] مِنْ ذُرى العَلْياءِ أرْفَعَها ... فَلَيْسَ يُدْرِكُ قُرْبٌ مِنْ مَناصِبِهِ

18) يَجْلو دُجى المُشْكِلاتِ، إنْ عَرَضْنَ لَهُ، ... بِنورِ ذِهْنٍ، ذَكِيِّ الفَهْمِ، ثاقِبِهِ

695– تخفف الياء لإقامة الوزن.

696– تخفف الياء لإقامة الوزن.

697– تسهل الهمزة ليستقيم الوزن.

19) يَخوضُ قاموسَ بَحْرِ الْعِلْمِ خاطِرُهُ ... فَيَأْتِ[698] بِالْمُعْجِزاتِ مِنْ عَجائِبِهِ
20) في مُحْكَمِ الدَّرْسِ يُبْدي فَهْمُهُ عَجَباً ... يُحَيِّرُ السّامِعينَ في غَرائِبِهِ
21) يا طالِبَ الْعِلْمِ: لا تَبْغِ[699] بِهِ بَدَلاً ... فَما وَرَدْتَ بِأَصْفى مِنْ مَشارِبِهِ
22) يُنَبِّئْكَ عِلْماً غَريباً لَيْسَ يُدْرِكُهُ ... مَنْ قَدْ تَقَدَّمَهُ، سُبْحانَ واهِبِهِ!
23) ناهيكَ مِنْ رَجُلٍ، كَنْزٍ لِطالِبِهِ، ... حِرْزٍ لِراغِبِهِ، عِزٍّ لِصاحِبِهِ
24) الْعِلْمُ والحِلْمُ بَعْضٌ مِنْ مَسالِكِهِ، ... وَالْعِزُّ والحَزْمُ بَعْضٌ مِنْ مَراكِبِهِ
25) يَزْهو بِهِ الْغَرْبُ فَخْراً، وَالزَّمانُ عَلى، ... وَيَسْتَضيءُ الأَنامُ مِنْ ثَواقِبِهِ
26) وَيَعْبَقُ الْجَوُّ طيباً مِنْ مَفاخِرِهِ ... وَيُشْرِقُ الأُفْقُ نوراً مِنْ مَناسِبِهِ
27) مَجْدٌ تَأَثَّلَ قِدْماً عَنْ أَبٍ فَأَبٍ ... فَلَمْ يَدَعْ مَفْخَراً يَوْماً لِكاسِبِهِ
28) مِفْتاحُ خَيْرٍ لِذي الحاجاتِ مَنْصِبُهُ ... وَكَهْفُ أَمْنٍ لِفارٍّ مِنْ نَوائِبِهِ
29) قُطْبُ الْمُحِبّينَ في الْمُخْتارِ مِنْ مُضَرٍ ... وَآلِهِ، والإمامُ في مَذاهِبِهِ
30) عَلامَةُ الْحُبِّ فَوْقَ الْوَجْهِ ظاهِرَةٌ ... أَما تَرى النُّورَ يَبْدو مِنْ جَوانِبِهِ!!
31) مَنْ لي بِحَصْرِ الَّذي قَدْ حازَ مِنْ شَرَفٍ ... أَوْ عَدِّ ماشاءَ فَخْراً مِنْ مَكاسِبِهِ؟!
32) وَلَوْ نَظَمْتُ الدَّراري في امْتِداحي لَهُ ... ما كُنْتُ يَوْماً لأَقْضي بَعْضَ واجِبِهِ
33) يا مَنْ هُوَ الْمَلْجَأُ الأَحْمى لِمُلْتَجِئٍ ... وَمَنْ هُوَ الأَمَلُ الأَقْصى لِطالِبِهِ
34) خُذْها عَقيلَةَ حَيٍّ راقَ مَخْبَرُها ... وَاخْتارَها الْفِكْرُ مِنْ أَحْظى كَواعِبِهِ
35) هَدِيَّةٌ مِنْ صَحيحِ الْوُدِّ خالِصَةٌ ... إِذْ أَقْبَلَتْ تُعَدُّ مِنْ مَناقِبِهِ
36) واسْلَمْ لِدَهْرٍ غَدَوْتَ شَمْسَهُ شَرَفاً ... وَدُمْ عَزيزاً رَفيعاً في مَراتِبِهِ

[مقطوعة محمَّد اليازغيّ السينيَّة]

وقول شيخنا العالم البليغ، أبي عبد الله، محمَّد اليازغي، وقد كان جالسا مع الشَّيخ أبي الفيض حمدون، على شاطئ وادي سبو:

[698]- كذا بالأصل. وبه يستقيم الوزن.

[699]- في الأصل: لا تبغيَ. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[الكامل]

1) لَمَّا رَأَيْتُ سَبو تَتابَعَ جَرْيُهُ — طَرَباً لِحُسْنٍ راقَ مِنْ خُلاسِ

2) وأطالَ ذَيْلَ الفَخْرِ مِنْ إعْجابِهِ — لَمَّا اسْتَطَبْنَ فيهِ شُرْبَ الْكاسِ

3) خاطَبْتُهُ يا نَهْرُ لا تَتَكَبَّرَنْ — فَعَلَيْكَ بَحْرٌ مِنْ بَني مِرْداسِ

4) حَمْدونُ مَنْ عَذُبَتْ مَوارِدُ خُلْقِهِ — وَجَرَتْ مَحاسِنُهُ على مِقْياسِ

[نصوص متعدّدة لمحمّد بن عليّ العسريّ الوزّاني]

وقول الأديب البارع، أبي عبد الله، سيّدي محمّد، ابن الفقيه الأديب الكاتب، أبي الحسن، عليّ العسريّ الوزّاني[700] عند قدوم الشيخ أبي الفيض من سفر:

[الوافر]

1) أتَتْ ياقوتَةٌ عَصْما يَتيمَةْ — مِنَ الآفاتِ قَدْ جاءَتْ سَليمَةْ

2) قِبابُ العِزِّ قَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْها — تُنادِمُ في أعاليها جَذيمَةْ

3) كَحِبٍّ مَعْ حَبيبِهِ، إنْ تَلاقَى، — وَوَفَّى بِالْوِدادِ، إذَنْ، غَريمَةْ

4) وَجاءَ الحَبْرُ حَمْدونُ المُرَقَّى — على فَنَنِ الكَمالاتِ الحَسيمَةْ

5) أدامَ اللهُ وَقْتاً فيهِ لاحَتْ — مَزاياهُ المُنيفاتُ الوَسيمَةْ

6) بِأخْلاقٍ وَإحْسانٍ وَجُودٍ — وَعِرْفانٍ لِمِثْلِهِ، ذاتَ شيمَةْ

7) لَقَدْ خَضَعَتْ لِسَطْوَتِهِ كِبارٌ — وَصارَ الكُلُّ مَدْعُوّاً خَديمَةْ

وقوله أيضاً، حين شفاه الله من مَرَضٍ كان به:

[المجتث]

1) حَمْدونُنا ذو ارْتِقاءِ — شَيْخي وَفيهِ مُنائي

2) أبْقاهُ رَبّي مُحَلّى — بِحُلَّةٍ مِنْ ثَنائي

3) مُهَنّاً ومُعافَى — مُرَوَّقاً بِشِفاءِ

4) بِجاهِ خَيْرِ البَرايا — وَسَيِّدِ الأنْبِياءِ

[700]– لم نقف على ترجمة الابن. أما الأب فقد توفي سنة 1186هـ. ترجمته في: النشر:4/199

وقوله أيضاً:

[الكامل المجزوء]

1) حَــــمْــــدونُ يـا كَنْزَ المُنى   أغْنَيْتَ عَـصْـرَنْ قَـدْ غَـبَـرْ
2) في مَـــدْحِ نِعْمَ المُـــصْطَفى   أحْــيَـيْتَ مِنْهُ مــا انْدَثَرْ
3) لَمْ تُغْنِ سُـــبُّـــاقٌ بِمـــا   أبْدَتْهُ سُــبَّـــاقُ بَهَــرْ
4) مَــعَ أمِّ هــانـــي [701] والَّــذي   مِنْ آلِ بَغْــــدادٍ ظَهَــرْ
5) وكَــذالِكَ البـوصــيـري [702] مَعْ   تَصْـــفـــيـرِ مــا يُجْنَى زَهَرْ
6) وابنُ الخَطيبِ كَــــذاكَ لَيْـ   سَ يَفي بِمــا عَنْهُ اشْـتَـهَـرْ
7) أبْـقَـــــاكَ مَـنْ أبْـداكَ آ   يَـتَـــهُ بِلا نَسْخٍ صَـــدَرْ
8) لازالَ بَـدْرُكَ صـــاعِـــداً   بِسَــــعـــادَةٍ لَـكَ تُنْـتَـظَرْ
9) وَيَـــدُ تَــراهـــا عِـــنْـــدَهُ   طولى، فَلَمْ يَعْـرُها قِـصَـرْ [703]
10) فَــاهْنَأْ بِسَـعْـدٍ أسْـعَـدٍ   مــا شــابَهُ أبَداً كَــدَرْ
11) وَدَوامِ أمْـــنٍ مِـــنْ أســـى   وجِـوارِ مَنْ ســادَ البَــشَـرْ
12) صَلّى عَليْــهِ اللهُ مـــا   أسْــدَتْ سَـمـــاءٌ مِنْ مَطَرْ
13) وَالآلُ والأصْــحـــابُ مَعْ [704]   مَنْ قَــــدْ تَـلاهُمْ في الأثَـرْ

وقوله أيضاً، يخاطب الفقيه أب عبد الله، بوراس المُعَسْكَري [705]، مُحَشّي الخُرَشي والمَكوديّ، وشارح المقامات الحريرية، وقد دخل إلى مسجد القرويين، فوجد الشيخ أب الفيض حمدون يقرأ «التلخيص»، فسأل عن من هو:

---

[701] - تُسهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

[702] - يسقط المدّ ليستقيم الوزن.

[703] - الشُّطر ساقط الوزن.

[704] - الشُّطر ساقط الوزن.

[705] - محمد بن أحمد. عالم فقيه. (ت 1238 هـ) ترجمته في: الفهرس. 1/150-152. تعريف الخلف. 341-342.

[الطويل]

1) أَتَسْأَلُ عَنْ شَمْسٍ تَجودُ بِسِرِّها عَلى النَّاسِ، وَهْيَ في مَحاسِنِها الآسُ؟!

2) فَذاكَ حَمدونٌ، إذا ما رأيْتَهُ، يُطَأْطِئُ في ذَوْقِ الْمَعالي لَهُ الرَّأسُ

وفيه تورية عجيبة.

[مقطوعة لامية لأحمد بن عبد الملك العلوي]

وقول الفقيه العالم، قاضي القضاة بالمغرب، أبي [العباس][706]، أحمد بن عبد الملك الحسني السِّجلماسيّ[707]:

[الطويل]

1) أتاجَ الْمعاني، يانَتيجةَ حِكْمَةٍ أَرَحْبَ الأكُفِّ، يا فَريداً بِلا مِثْلِ

2) أُشَخي الَّذي حَوى الْمَناقِبَ كُلَّها إلى أَحْمدٍ أَسْدَيْتَ جَمّاً مِنَ الفَضْلِ

3) مِنَ الدِّينِ والدُّنيا، فَلا زِلْتَ سَيِّدي مُظِلاً بِظِلِّكَ الْعَميمِ مِنَ الأَهْلِ

4) أَرومُ امْتِداحَكَ السَّنِيَّ وعاقَني قُصوري عَنْ تَعْدادِ نَجْمٍ مَعَ الرَّمْلِ[708]

وقول أمير المؤمنين، الْمُجْمَع على عدله، السلطان أبي الربيع، سليمان بن محمد بن عبد الله، في رسالة بعثها لأبي الفيض، متمثلا بقول المتنبي: «لا بِقَوْمي شَرُفْتُ» إلخ.. وقد أشار بعضهم إلى ذالك بقوله:

[داليَّة غُفل]

[الخفيف]

1) قالَ سَيِّدُنا إِمامُ الْمَزايا سِبْطُ خَيْرِ الْوَرَى وَسِرُّ الْوُجود

2) ناصِرُ الدِّينِ، ذو المزايا سُلَيْما نُ، أَميرُ الْهُدى الْعَظيمُ الْجود

[706]- سقط في الأصل.

[707]- عالم فقيه علوي النسب. (ت 1241 هـ) ترجمته في: الدُّرر: 106/1. الموسوعة: 113/3. الإتحاف 349/1-353.

[708]- الشَّطر ساقط الوزن.

3) مُنْشِداً في ابْنِ الحاجِ حَمْدونَ بَيْتَ ابْـ   نِ الحُسَيْنِ، مُغْرِباً مِنْ قَصِيدِ

4) «ما بِقَوْمي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفوا بي   وبِنَفْسي افْتَخَرْتُ لا بِجُدودي»[709]

5) يا لَهُ مَنْزَعٌ شَرِيفٌ لَطِيفٌ   بِإِطْرَاءِ لِطَارِفٍ وتَلِيدِ!!

[تمثل محمَّد المجيدري المغافري بأبيات

أبي هلال العسكري]

وقول العلاَّمة اللُّغويّ المجتهد على الإطلاق، أبي عبد الله، سيدي محمد المجيدري المغافري الشُّنكيطي، في أيام السُّلطان سيدي محمَّد بن عبد الله[710]، متمثِّلا بقول أبي هلال العسكري[711] اللغوي، وقد مر يوما بسوق العطارين الكبرى، فوجد الشيخ أبا الفيض حمدون، في حانوت يبيع ويشتري، لضيق ضرورياته، وذالك في أول أمره[712]:

[الطويل]

1) جُلوسِيَ في سوقٍ أبيعُ وأشْتري   دَليلٌ عَلى أنَّ الأنامَ قُرودُ

2) وَلا خَيْرَ في قَوْمٍ يَذِلُّ كِرامُهُمْ   ويَعْظُمُ فِيهِمْ نَذْلُهُمْ ويَسودُ

3) وَتَهْجوهُمُ عَنّي رَثاثَةُ حالَتي[713]   هِجاءً قَبيحاً ما عَلَيْهِ مَزيدُ

[تهنئات ومدائح أخرى عند الختم]

وكم أُنشدت بين يدَيْ الشيخ أبي الفيض حمدون في الختم قصائد، فكانت في الحسن كالعروس محلاَّة بالقلائد، والسامعون لها يهتزّون عجبا، ويرتاحون طربا. فمن ذالك قول

709- البيت مقتبس من شعر المتنبي، شرح ديوانه: 322/1.

710- العلوي. سلطان عالم. (1171-1204 هـ) ترجمته وأخباره في: تاريخ الضعيف: 163-201. الاستقصا: 8/3-72. الدرر: 166/1-168 السلوة: 230-231. الشجرة: 371/1. رقم 1481. الإتحاف: 184/3-366. معجم المطبوعات: 218-219 رقم 502. الإعلام: 109/6-133. رقم 769. الحياة: 270-275.

711- لغوي أديب. (ت بعد 400 هـ). ترجمته في. البُغية: 506/1-507 رقم 1046. طبقات الداودي. 138/1-139. رقم 131. طبقات المفسرين: 33. رقم 29.

712- الأبيات في معجم الأدباء: 262/8.

713- معجم الأدباء: 262/8.

العلامة البليغ، نابغة أوانه، أبي عبد الله، سيدي محمد بن العربي قصارة الحِمْيَري[714]، عند ختم الشيخ صحيح البخاري:

[رائيّة محمد بن العربيّ قَصارة]

[الطويل]

1) إلى ما بسَهْمِ البَيْنِ سَلْمَى تُصيبُني؟! وحُبِّي لَها مِنْ قَبْلِ كَوْني مِنَ البَشَرْ

2) جَفَتْ عَنْ لِحاظِي الكَرى بِجَلاتِها وَقَدْ أَلْبَسَتْني السُّقْمَ مِنْ شِدَّةِ السَّهَرْ

3) ولمَّا بَدَتْ جَلا الظَّلامَ ضِياؤُها نُحولي وَها سُقْمي تَبَدَّى لِمَنْ حَضَرْ

4) تَجَبَّرَ جَيْشُ الشَّوقِ يا سَلْمَ فَارْحَمي فُؤاداً عَليلاً بِالكَآبَةِ والغِيَرْ

5) عَلَى الهوىَ في حُكْمِهِ قَدْ بَغَى ولا[715] وَجَدْتُ خَلاصاً. لَيْتَني فُزْتُ بِالنَّظَرْ

6) وَنارُ غَرامِ الحُبِّ تَضْرَمُ في الحَشا فَجُدْ بِالتَّداني قَبْلَ أَنْ يَأتِيَ القَدَرْ

7) فَرُدِّي عَلَيَّ ما سَلَبْتِ فَإِنَّني أَرَى الهَجْرَ أَفْناني، وزادَ بي الضَّرَرْ

8) وما ضَرَّني، وقَدْ تَلِفْتُ بِحُبِّهِ وَمَزَّقَ قَلْبي بِالسِّهامِ وَبِالوَتَرْ

9) إذا لَمْ شَمْلي، أو حَباني بِنَظْرةٍ فَيَصْفُو الفُؤادُ مِنْ وَبالٍ ومِنْ كَدَرْ

10) وَطيبُ حَديثِها بِهِ أَنْفُسٌ حَيَتْ كَما حَيَى العِلْمُ الذي بادَ وانْدَثَرْ[716]

11) بِضَبْطِ هُمامٍ سَيِّدٍ لاحَ في العُلَى وَحيداً بِلا شِبْهٍ، لِمَنْ غابَ أو حَضَرْ

12) فَأَحْيى رُسومَ العِلْمِ بَعْدَ انْدِراسِها وَمازالَ يُبْدي مِنْ لَطائِفَ تُعْتَبَرْ

13) وَذا شَيْخُنا حَمْدونُ حَبْرُ الزَّمانِ مَنْ بِهِ العِلْمُ صارَ في الأقاليمِ يُشْتَهَرْ

14) وَمَنْ هُوَ أَسْرارَ[717] البَلاغَةِ كاشِفٌ ومُسْتَخْرِجٌ مِنْها نَفائِسَ كالدُّرَرْ

15) فَحُجَّةُ أَهْلِ العِلْمِ بِالفَهْمِ ضابِطٌ فَقَدْ سَبَقَتْ لَهُ العِنايةُ في الفِكَرْ

16) تَصَدَّى لِتَدْريسِ البُخارِي مُوَضِّحًا بِجَوْدَةِ فَهْمٍ، كُلُّ مُشْكِلٍ اسْتَتَرْ

[714]- فقيه أديب فاسي. (ت 1257هـ) ترجمته في: الشجرة: 396/1 رقم 1583.

[715]- الشطر ساقط الوزن.

[716]- الشطر ساقط الوزن.

[717]- في الأصل: لأسرار. ولا يستقيم به الوزن. ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

17) يُحَقِّقُ ما عَنْهُ الأَفَاضِلُ أَحْجَمَتْ بِجَزْلٍ مِنَ الأَلْفاظِ يَقْضِي بِها الوَطَرْ

18) أُحَلُّ عَلَيْـهِ حُلَّةً يَوْمَ خَتْمِـهِ فَيا لَها[718] مِنْ سُنْدُسٍ بِالبَهَا سَحَرْ

19) لَهُ قَدَمٌ في العِلْمِ والحِلْمِ والتُّقَى وَلِلضُّعَفاءِ جودُهُ، فَهْوَ كَالمَطَرْ

20) فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ عالِمٍ فاقَ رُتْبَةً تَقاصَرَ عَنْها ذو العُقولِ أَوِ النَّظَرْ!!

21) حَباهُ إِلاهُ العَرْشِ كُلَّ فَضيلَةٍ وأَبْقاهُ رَبِّي في صَفاءٍ بِلا كَدَرْ

22) فَخُذْها خَريدَةً في[719] مَدْحِ جَنابِكُمْ مُطَوَّقَةً دُرَراً تَميلُ مِنَ الخَفَرْ

23) وَزُفَّتْ إِلَيْكُمْ تَرْتَجي حُسْنَ وُدِّكُمْ بِحُسْنِ خِتامٍ في وُرودٍ وفي صَدَرْ

24) بِجاهِ إِمامِ المُرْسَلينَ مُحَمَّدٍ وَشَمْسِ الهُدَى فَجْرِ الصَّباحِ لِمَنْ بَصَرْ

25) عَلَيْهِ سَلامُ اللهِ ما غَرَّدَتْ حَمَا ثُمَّ فَوْقَ أَفْنانِ الرَّياحِينِ في سَحَرْ

26) وَآلِهِ والأَصْحابِ قاطِبَةً ومَنْ بِهِمْ يُقْتَدى، ما فاحَ في رَوْضِهِ الزَّهَرْ

[هائيَّة محمد بن إدريس العمراوي الوزير]

وقول الوزير الأعظم، الهُمام الأفخم، ذي القدر النفيس، أبي عبد الله، محمد بن إدريس:

[الكامل]

1) أَسْنِدْ حَديثَهُمُ، فَما أَحْلاهُ! وارْفَعْ رِوايَتَهُ، فَما أَعْلاهُ!!

2) وأَدِرْ مُدامَةَ ذِكْرِهِمْ فَخِتامُها مِسْكٌ يَفوحُ على الدَّوامِ شَذاهُ!!

3) واخْلَعْ عِذارَكَ في الغَرامِ بِحُبِّهِمْ فَهُمُ الحِسانُ، وما لَهُمْ أَشْباهُ

4) وَاخْضَعْ لِعِزِّهِمُ، وَلُذْ بِجَنابِهِمْ فَمُحِبُّهُمْ، للهِ ما أَهْناهُ!

5) وإذا رَمَوْكَ بِجَفْوَةٍ، فَاصْبِرْ لَها فَالصَّبْرُ قَدْ حَمِدَ الوَرى عُقْباهُ

6) للهِ صَبٌّ مُغْرَمٌ بِجَمالِهِمْ حُشِيَتْ بِأَسْرارِ الغَرامِ حَشاهُ!

7) قَدْ رامَ إِخْفاءَ الغَرامِ عَنِ الوَرَى فَأَبانَ فَيْضُ الدَّمْعِ ما أَخْفاهُ!!

[718]- لا تُشبَع الهاء ليستقيم الوزن.

[719]- لا تُشبَع الياء ليستقيم الوزن.

8) وَرَأى التَّهَتُّكَ في الغَرامِ رَشادَهُ — وألَذُّ شَكْوى الصَّبِّ ما أبْداهُ

9) وإذا المُحِبُّ صَفا شَرابُ غَرامِهِ — ألفى التَّهَتُّكَ في هَواهُ هُداهُ

10) قَلْبي بِمَنْ سَكَنوا بِرامَةَ واجِدٌ — حَيِّي الإلاهُ حِماهُمُ وحَماهُ

11) إنّي يُصَبِّبُني[720] تَألُّقُ بَرْقِهِمْ — ويَروقُني مِنْ حَيِّهِمْ مَرآهُ

12) ويَهيجُ أشْواقي نَسيمُ رُبوعِهِمْ — فَأحِنُّ مِن شَغَفي إلى مَسْراهُ

13) حادي الرِّكابِ: إنْ وَصَلْتَ لِحَيِّهِمْ — وأنَخْتَ عيسَكَ في فِناءِ حِماهُ

14) حَلِّلْ تَرى تِلْكَ الدِّيارَ فَإنَّهُ — قَدْ فاقَ طيبَ الطَّيِّباتِ ذَكاهُ

15) وإذا أرَدْتَ تَوَصُّلاً فَتَوَسَّلَنْ — بِإمامِنا، فَلَهُ لَدَيْهِمْ جاهُ

16) شَيْخُ العُلى حَمْدونُ مَنْ حُمِدَتْ لَهُ — أعْلامُ رُشْدٍ شادَها بِعُلاهُ

17) قُطْبُ العَوارِفِ والمَعارِفِ والنَّدى — بَحْرُ العُلومِ المُتَّقي الأوّاهُ

18) عَلَمُ الهُدى، غَيْثُ الصَّدى، بَحْرُ النَّدى — لَيْثُ العِدى. لِلّهِ ما أعْلاهُ!

19) ما الفَخْرُ إلاّ بَعْضُ صِفاتِهِ — والمَجْدُ إلاّ ما حَواهُ رِداهُ

20) والجودُ إلا ما جَرى بِيَمينِهِ — والفَهْمُ إلا ما أبانَ نَداهُ

21) ألْقَتْ لَهُ كُلُّ العُلومِ قِيادَها — وَحَبَتْهُ مِنْها بِالَّذي تَرْضاهُ

22) فَلَهُ لَدى كُلِّ العُلومِ مَواقِفُ — وَمَراتِبُ لا يَسْتَطيعُها سِواهُ[721]

23) مَن ذا يُحاوِلُ في البَرِيَّةِ شَأوَهُ!؟ — ومَنِ الَّذي يَرْقى إلى مَرْقاهُ؟!

24) وَاللّهُ شَرَّفَهُ بِحَمْلِ عُلومِهِ — وَإلى ذُرى العَلْياءِ قَدْ رَقّاهُ[722]

25) وكَساهُ أثْوابَ النَّباهَةِ والبَها — فَغَدا لِهاذا العِلْمِ بَدْرَ سَماهُ

26) يامَنْ يُؤَمِّلُ في العُلومِ دِرايَةً — ويُريدُ مِنْها[723] بُلوغَ كُلِّ مُناهُ

27) أنْزِلْ رِحالَكَ في ذُراهُ ولُذْ بِهِ — تَلْقَ المُنى وتَفُزْ بِرِضاهُ

[720]- في الأصل: ليصيبني. ولا يستقيم به الوزن.

[721]- الشطر ساقط الوزن. وقد تكرر البيت في الأصل.

[722]- تكرَّر البيت في الأصل.

[723]- لا تُشبَع الهاء ليستقيم الوزن.

28) ما الضَّبْطُ والإتقانُ عَبْرَ كَلامِهِ والْحَقُّ والتَّحْقيقُ تَحْتَ لِواهُ

29) كَمْ مُشْكِلٍ أدْجى، وكَمْ مِنْ غامِضٍ وَقَفَتْ عُقولُ الخَلْقِ عِنْدَ دُجاهُ

30) جَلّى لَيالِيَ ظَلامِهِ بِذَكائِهِ[724] فَبِذاكَ بَدْرُ التَّمِّ لاحَ ضِياهُ

31) وَغَريبِ عِلْمٍ لَمْ يُفِدْهُ مُعَلِّمٌ كَلاّ، ولا حامَ الأنامُ حِماهُ!!

32) أبْدى لِمَجْلِسِ دَرْسِهِ فَتَحَيَّرَتْ طَرَباً عُقولُ النّاسِ مِنْ مَعْناهُ[725]

33) قُلْ لِلْمُحاوِلِ شَأْوَهُ: أقْصِرْ فَذا فَضْلُ الإلاهِ جَناهُ مَنْ يَخْشاهُ

34) ما رَوْضَةٌ سَحَبَ السَّحابُ ذُيولَهُ فيها وَحَيّاها هَتونُ حَياهُ

35) فَكَساهُ مِنْ نَسْجِ الرَّبيعِ مَطارِفاً[726] وَشّى‌ها[727] بِالنَّوْرِ البَديعِ يَداهُ

36) فَتَدَفَّقَتْ أنْهارُها، وَتَفَتَّقَتْ أزْهارُها، كالْمِسْكِ فاحَ شَذاهُ

37) وَجَرى النَّسيمُ الغَضُّ في عَرَصاتِها سَحَراً بِعِطْرٍ مِنْ شَذى أعْلاهُ

38) فَتَرَنَّمَتْ أطْيارُها، وتَمايَلَتْ أغْصانُها، طَرَباً إلى لُقْياهُ

39) بِأجَلَّ وَأبْهى سَنًى ونَضارَةً مِنْ دَرْسِ مَجْلِسِهِ، إذا يَغْشاهُ

40) لِلّهِ يَوْمٌ قَدْ تَشَرَّفَ قَدْرُهُ[728] خَتَمَ البُخاري فيهِ وَقْتَ ضُحاهُ

41) قَدْ أرَّجَ الأرْجا تَأرُّجُ طيبِهِ وبَدا عَلى كُلِّ الوُجودِ سَناهُ

42) أبْدى غَوامِضَهُ، وفَكَّ رُموزَهُ وَبِسِرِّ نورِ ذَكائِهِ جَلّاهُ

43) وكَساهُ بالإتْقانِ أبْدَعَ حُلَّةٍ وَبِحِلْيَةِ التَّحْقيقِ قَدْ حَلّاهُ

44) فَجَزاهُ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزائِهِ وأدامَ في فَلَكِ السُّعودِ عُلاهُ

45) خَتَمَ المُهَيْمِنُ بِالسَّعادَةِ عُمْرَنا فَضْلاً وَعَمَّ جَميعَنا بِرِضاهُ

46) وعَفا عَنِ الزَّلّاتِ مِنْهُ تَكَرُّماً وَأتاحَنا عِنْدَ اللِّقا رُحْماهُ

---

[724]- الشَّطر ساقط الوزن.

[725]- الشَّطر ساقط الوزن.

[726]- الشَّطر ساقط الوزن.

[727]- لا تُشبَع الهاء ليستقيم الوزن.

[728]- في الأصل: قدوة. ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

47) وَشُيوخَنا والوالِدينَ ومَنْ لَهُمْ   وَالمُسْلِمينَ الكُلَّ يا رَبّاهُ

48) بِشَفيعِنا خَيْرِ الخَلائِقِ أَحْمَدٍ   مَنْ لا يُطيقُ ثَناهُ إلاّ اللّهُ

49) صَلّى عَلَيْهِ اللّهُ ما ذُكِرَ اسْمُهُ   فَتَحَلَّتِ الآذانُ وَالأَفْواهُ

50) وَالآلُ والصَّحْبُ الكِرامُ جَميعُهُمْ   أَهْلُ الهُدى، وَالمُهْتَدي لِهُداهُ

[كافية عليّ بن إدريس قَصارَة]

وقول العلاّمة الدرّاكة المشارك أبي الحسن، سيّدي عليّ بن إدريس قَصارَة الحِمْيَري[729]:

[الطويل]

1) أَمِصْباحٌ أَمْ نَجْمٌ، أَمِ البَدْرُ قَدْ بَدا،   أَمِ الشَّمْسُ في أُفْقِ السَّما، أَمْ سَناكا؟!

2) بَلى. نُورُكَ اللأْلاءُ في كُلِّ مَوْطِنٍ   بَدا لِلْوَرى لِيَهْتَدوا بِهُداكا

3) مَطالِعُ شَمْسِ الأُفْقِ دونَهُ رُتْبَةً   فَلا ضَوْءَ إلاّ مِنْ شُموسِ سَماكا

4) عَلَوْتَ مَقاماً دونَهُ زُحَلُ فَلا   يُطيقُ عَلِيٌّ أن يُسامي عُلاكا

5) فَلَوْ أَنَّ ماجِداً سَما لِلسَّما لَما   تَجاوَزَ في الأَصْفادِ شَرْكَ حِذاكا

6) وَمَنْ رامَ يَسْتَقْصي ثَناكَ بِمَدْحِهِ   يَكُنْ فَخْرُهُ أَقْصى بُلوغاً لِذاكا

7) أَيُحْصى الحَصا؟! هَيْهاتَ! وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ   قُلامَةِ ظُفْرٍ مِنْ عَظيمِ ثَناكا!!.

8) فَسُبْحانَ مَنْ أَوْلاكَ عِلْماً وَحِكْمَةً   وَناداكَ مِنْ بَيْنِ الوَرى وَحَباكا

9) وأَحْيى بِكَ العُلومَ بَعْدَ انْدِثارِها   فَطارَ بِأَقْصى المَشْرِقَيْنِ سِماكا

10) فَكَمْ مُشْكِلٍ أَوْضَحْتَهُ أَوْ كَشَفْتَهُ   فَعادَ جَلِيّاً مِنْ صَباحِ حِجاكَ!!

11) وكَمْ آيَةٍ لَمْ يُدْرِ كَشّافُ كَشْفِها   فَأَبْرَزْتَها مِنْ خِدْرِها بِدَهاكا!!

12) لَقَدْ فُقْتَ تَدْقيقَ المَحَلّي فَحُلِّيَتْ   بِطَلْعَتِكَ الدُّنْيا، وَحُسْنِ بَهاكا

13) فَلَوْ قيسَ مِنْ عَلْياكَ مِثْقالُ خَرْدَلٍ   بِأَلْفٍ مِنَ الأَتْرابِ زانَ بِذاكا

14) هَنيئاً أَبا عَبْدِ الإلَهِ بِرُتْبَةٍ   تُجاوِزُ جَوْزاءَ السَّما والسِّماكا

[729]- علاّمة مشارك من أهل فاس. (ت 1259 هـ) ترجمته في: السلوة: 2/265. الشجرة: 1/398. رقم 1588. معجم المطبوعات: 288. رقم 658.

15) فحمداً يا حمدونُ، شكراً لمالكٍ حباكَ: أنالكَ المُنى واصطفاكا

16) فجرَّ ذيولَ الفخرِ في مُضمرِ العُلى فكلُّ فحولِ العصرِ تحتَ لواكا

17) كفاكَ افتخاراً أنّكَ اليومَ واحدٌ كفيتَ الورى عنْ كلِّ شخصٍ سواكا

18) كشفتَ القناعَ عنْ صحيحِ البُخاري[730] ما تركتَ لذي قولٍ مقالاً. حشاكا

19) أبنتَ أسانيداً، ووضّحتَ مُسنَداً، وحقّقتَ إشكالاً، فلا فضَّ فاكا

20) ولازلتَ ملجأً وحصناً لكلِّ منْ يؤمُّكَ راجياً سبيلَ هُداكا

21) فدونكَ مدحاً، يا إمامُ، مُروّقاً رشفتُهُ منْ بحارِ صوبِ نداكا

22) يروقُ جميعَ السّامعينَ عُذوبةً ويُوجِبُ حقّاً عنْ سواهُ غناكا

23) فيا للهِ منْ لي بدعوةٍ مُخلصاً[731] يُضيءُ بها قلبي. جُعلتُ فداكا

24) فبِ ربِّ بالبُخاري[732] ثُمَّ رجالِهِ وجاهِ النّبيِّ اختمْ لنا برضاكا

25) وقابلْ بفضلِ اللهِ كلَّ خطيئةٍ فلا رحمَ يُرجى لفضلٍ سواكا

[تقريظ عليّ بن إدريس قَصارة الحِمْيَريّ لعُقود الفاتحة]

وقوله أيضاً، وهو ما كتبه لأبي الفيض، رحمه الله، على كتابه الموسوم بعقود الفاتحة وشرحه:

«الحمد لله. إن أشرفَ ما وُشّح به بياض وجنات الطُّروس، وأحسنَ ما حَليَت به ترائب السُّطور وتعطرت به النُّفوس، حمدَ اللّه تعالى الحميد الملك الفتّاح، الّذي جعل حبُّ محمد وآله إكسيرا لكلّ فلاح، وسُلّما لسماء كلّ فضيلة ونجاح، وخصَّ من شاء بالتنزُّه في أزاهر تلك الرياحين الرائعة، والنظر لوجوه مخدَّرات هاتيك البساتين الرائعة، بل البارعة، فأطلقوا ألسنتهم في ميادين مدح ذالك الجناب، وأنفقوا فيه شذور ذهب البلاغة التي لم يأت بمثلها حواب. «كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِه»[733]، ويُنفق على قدر بضاعته.

[730]– لا تشبع الياء ليستقيم الوزن.

[731]– الشطر ساقط الوزن.

[732]– لا تشبع الياء ليستقيم الوزن.

[733]– سورة الإسراء: 84.

في لها منحةً ما أعظمها، وموهبةً ما أجلّها وأكرمَها!، إذ أحقُّ ما صُرِفت فيه همم الأئمة الأعلام، ورقمته يد الأقلام، على صفحات الأيام، مدحُ سيِّدنا ومولانا محمّد عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام.

هذا، وإنّ ممن أحرز قصب السَّبق في تلك الميادين، وقطع بسنان براعته لسن الطّلق القوي المتين، النِّحرير الأديب الألمعيّ، الأريب اللوذعيّ، مُقَلِّد جيد البلاغة بعُقود الجمن، وقلائد العِقيان، المفتضّ من غواني المعاني أبكاراً لم يطمثهُنّ إنس قبله ولا جان، لو أدركه قُسُّ بن ساعِدَة، لتمنّى أن يُقبِّل كفّه وساعده، أو لو عاصره سَحْبان، لتملّق لتقبيل أخمصه والبنان، أو لو شاهده مالك، لاعترف أنّه لمذهبه مالك، أو لو أدركه أبو الحسن الأشعري[734]، لأقرّ أنّه بالأمانة في علم الكلام جدير وحريّ.

كيف لا، وهو مالك أزمة العلوم معقولها ومنقولها، والمحيطُ بما في سمائها وأرضها، شمسُ سماء عِلْمَي التَّفسير والحديث، والآتي من رقائق المعاني بما لم يُسبَق إليه به في القديم والحديث، محيي رسوم الطريقة، والجامع بين الشَّريعة والحقيقة، مصباح مشكاة الأنوار، وصاحب الأمداح النبوية التي ملأ صيتُها الأنجاد والأغوار، شيخُنا البدر الوهّاج، اللاّبسُ من مآثر المفاخر الإكليلَ والتّاج، سيّدُنا ووسيلتُنا إلى ربّنا، مولانا حمدونُ ابن الحاج، برَّد اللهُ ضريحَه، وأسكنه من الجنان فسيحَه، فكم له في ذالك من قصائد تُزري بالنجوم الزَّواهر، ومقطَّعاتٌ وتوشيحات سحرت لُبَّ السَّامِع والناظر، سيما هذا النظم العجيب الموسوم بعقود الفاتحة، وشرحه النفيس الّذي به مبانيها واضحة، فقد أبدع، سقى اللّه ثراه، فيهما غاية الإبداع، وأتى من أسرار البلاغة بما لا يُمكِن أن يُستَطاع، وانقضت دون الوصول إليهما الأماني والأطماع.

فيا له من تأليف قد جمع من دقائق المعاني، ما أخجل الدُّرَّ على نُحور الغواني، ومن رقائق الأشعار، ما لم يكن لناظم به إشعار. بيد أن ألفاظَ معانيه ضاحكةٌ مستبشرة، وعيونَ معانيه وافرة منهمرة. قد أخذ بمجامع القلوب، وأحرز من فرائد الفوائد كلَّ مطلوب ومرغوب،

[734]- عليّ بن إسماعيل. إمام المتكلمة الأشاعرة. (ت 334هـ). ترجمته في: لوفيات: 3/248، 268. رقم 429. الترتيب: 5/24-30. الدّيباج: 2/94-96. الشجرة: 1/79. رقم 187.

فبإياك أن يخالج ظنُك أن قد أتى أحدٌ بمثاله، أو نسج على طريقه ومنواله:

[الطويل]

1) فَـفي كُلُّ لَفْظٍ مِنْهُ دُرٌّ مِنَ الْمُنى وَفي كُلِّ سَطْرٍ مِنْهُ عِـقْـدٌ مِنَ الدُّرِّ

تقبَّل الله من مؤلّفه وحباه فضلا كثيرا، وجزاه عن صنيعه جنة وحريرا، وحين وقفتُ على ما كتب عليه بعض الأئمة الأعلام، لم أملك لنفسي [من][735] زمام، حتى أنشأتُ في الحال. وقلتُ شبه ارتجال:

[الكامل]

1) أشُـذورُ إبْريزٍ تَناسَقَ نَظْمُـهـا بِنَفـيـسِ دُرٍّ بـاهِرٍ مَـكْنـونِ؟

2) أحَـمـائِلُ الأزهارِ دبَّجَـهـا الحَـيـا مِنْ أتْرابِ حُـورِ العينِ؟[736]

3) أبَلابِـلُ الأفنانِ تُنْبِـئُـنا بِـمـا قَـدْ أبْصَـرَتْهُ بِرَوْضِـهِ بِلُحـونِ؟

4) أو ذي بُحورُ المِسْكِ ضَاعَ عَبيرُها تُزري بِنَشْـرِ المِسْكِ مِن دارينَ؟

5) أمْ ذي ينابيعُ بالعُلومِ تَفَـجَّـرتْ مِنْ فكْرِ عـالِمِ غَـرْبِنا حَـمْـدونَ؟

6) كَـهْفُ الأنامِ الدُّرَّةُ النُّسَـيـكُ مَنْ أحْـيَى العُلومَ، وَشَـدَ رُكْنَ الدِّينِ

7) صِنْوُ المَعـارِفِ والعَـوارِفِ والتُّقى بَحـرُ النَّوالِ الزّاخِـرِ المأْمـونِ

8) مَنْ قَلَّدَ القِـرطاسَ دُراً مِـثْلَمـا قَـدْ قَـرَّطَ الآذانَ بـالمَـوزونِ

9) تَاللهِ مـا يَأتي الزَّمـانُ وَلا أتى يَوْماً بِمِـثْلِهِ في البَـهـا وَاللّينِ

10) فَجُـزيتَ خَـيْراً عنْ صَنيعِ البِرِّ يا حَـمْـدونُ، مَـحْـموداً لِيَـوْمِ الدِّينِ

11) أنْعَشْـتَنا بِمَـديحِكَ الأسْنى الّذي يَسْـمـو بِنورِ الـمُـصْطَفى ياسينِ

12) فَـأنِلْ إلاهي شَـيْـخَنا بِنَبِـيِّـنـا أجْـراً عظيـمًـا لَيْسَ بالـمَمْنونِ

13) صلّى عَلَيْـهِ وآلِهِ الرَّحـمـانُ مـا صَـدَحَ الهَـزارُ بِروْضِـهِ الـمَـيْـمـونِ

وكتب عبد ربّه، وأسير ذنبه، عليّ بن إدريس بن محمّد بن أحمد قَصارَة الحِمْيَريّ

---

[735]- زيادة منّا ليستقيم الإعراب والفاصلة.

[736]- الشطر ساقط الوزن.

جعله»[737]

[عودة إلى تهنئات الختم]

[رائيّة غُفل]

وقول غيره:

[الكامل]

1) ياجاهلاً يَرْمي الكِرامَ بِغَيْبَةٍ — وَاللّهُ يَعْلَمُ إنّها إحْدى الكُبَرْ

2) ما ضَرَّ دُرّاً في العُقودِ مُنَظَّمًا — سَلَبَ العُقُولَ فَحُسْنُهُ نَفْثُ البَصَرْ

3) يا صَقْرَ مِرْداسٍ وَعالِمَها الّذي — صاغَ الكَلامَ قَلائداً بَيْنَ البَشَرْ

4) لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ هُمامٍ ماهِرٍ — أنْشا[738] وَوَشّى، والمعاني قَدْ حَشَرْ

5) لَمْ أسْتَطِعْ تَعْدادَ أوصافٍ لَكُمْ — لا حَصْرَ، يا بَحْرَ العُلومِ، ولا حَصَرْ

6) حَاشاكَ، ياشَمْسَ العُلى يا ماجِداً، — حَكى الحِلى، وَعَلا جَمالُهُ وانْتَشَرْ

7) أنْتَ الفَريدُ، وَرَوْضُ فِكْرِكَ زاهِرٌ — أنتَ البَديعُ بِسِحْرِ شِعْرِكَ يُفْتَخَرْ

8) قَدْ كُنْتَ «سَعْداً» لِلسُّعودِ «مُطوَّلاً» — في العِلْمِ والإتْقانِ لَيْسَ «بِمُخْتَصَرْ»

9) قَدْ غُصْتَ في بَحْرِ البَلاغَةِ مُفْرَداً — وَأتَيْتَ بِالغُرِّ الكِرامِ وَبِالغُرَرْ

10) قَدْ كُنْتَ تاجًا لِلزَّمانِ مُرَصَّعًا — رَقَصَتْ بِكُمْ زُهرُ النُّجُومِ مَعَ القَمَرْ

11) شَهِدَتْ بِأنَّكَ، يانَزيهُ، مُنَزَّهٌ — حَتّى الأجِنَّةُ والجُنونُ وما ظَهَرْ

12) فَسَقى ضَريحَكَ ثُمَّ روحَكَ عارِضٌ — مِنْ رَحْمَةِ الرَّحمانِ، لا صَوْبُ المَطَرْ

[هائيّة محمَّد اليازِغِي]

وقول العلاّمة الأديب، سيّدي محمَّد اليازغيّ، في مدح أبي الفيض، سيّدي حمدون، عند ختم «مختصر» السَّعد للتفتزاني[739]:

---

[737]– بقيت الجملة غير كاملة في الأصل، وبه انتهى التقريظ.

[738]– تُسهَّل الهمزة لإقامة الوزن.

[739]– مسعود بن عُمَر، بلاغي، مشهور، (ت 791هـ) ترجمته في الدُّرَة: 3/13-14، رقم 900 الدُرر الكامنة:4/350. رقم 953. طبقات الداودي: 2/319. رقم 630. بغية الوعاة: 2/285 رقم 1992.

[الطويل]

1) رَسائِلُ سُعْدى أعْلَمَتْنَا بِوَصْلِها فَبُشْرى لَنا بِقُرْبِها بَعْدَ بُعْدِها

2) خَليلَيَّ آن الوَصْلُ، هذا رِياضُنا تَعَطَّرَتِ الأرجاءُ مِنْهُ بِعَرْفِها

3) يُحَسِّنُها غَيْثُ السَّحابِ بِأحْمَرٍ عَلى أبْيَضٍ تَسْبي وَمانِعِ لَوْنِها

4) وَهذي غُصونُ البانِ فيه تَمَثَّلَتْ لَنا غَيْرَةً فيه لِسُعْدى بِعِطْفِها

5) وَهَذا سَقيطُ الزَّهْرِ فَوْقَ رُؤوسِنا تَبَسَّمَ يَحْكي[740] حُسْنَ ثَغْرِها

6) وَبِماءِ وَرْدِهِ يَحْكي، وَقَدْ رَشَّهُ النَّدى[741] لَها، إذ سَرى ماءُ الحَياءِ بِوَجْهِها

7) وهاؤُها قَدْ راقَ حُسْنًا وَمَنْظَرًا[742] وَشَمْسُ عَشِيٍّ قَدْ حَكَتْهُ بِثَوْبِها

8) [[743]] عليه له تومي سجودا برأسها

9) وأطياره فوق الأراكِ صوادحٌ مهيجة قلبَ العشيقِ بلحنها

10) كما هيجتْ قلبي لوَصلِ غزالةٍ يفوق الغَزال في الضُحى شطرُ حسنها

11) مُهفهَفَةٌ تحكي سوالف حسنها أفاعي يذُدْنَ من يرومُ بنحرِها

12) دَهَتني بُطونُ فاتنٍ صحٌّ نَبلُه سقيمٌ له ظلٌّ على شمس خدها

13) مليحة قدٍّ مائلٍ غير أنها تميّلني نحو الرداد بنحوها

14) إذا برَزَتْ، يزوي صباحُ جبينها وإن نطقتْ، أغْنتْ أحاديثُ لفظِها

15) بكل صباحٍ، أو هلالٍ، وعن سما عِ صوتِ أغانٍ في الملاهي ونقرِها

16) وأغنى رُضابُ الثغرِ منها وقدُّها ولحْظُ جفونٍ عنْ حميًا وشربِها

17) وسيفٍ، وعنْ رمحٍ، فللهِ ماجرى بقلب كئيبٍ منْ جفونٍ وسحرِها

معجم المطبوعات: 58. رقم 144.

[740]– بياض في الأصل.

[741]– الشطر ساقط الوزن، وقد كتب عليه في الأصل «كذا».

[742]– الشطر ساقط الوزن، وقد كتب عليه في الأصل «كذا». ولعل الصّواب: «نهاوُها قد راق...

[743]– بياض في الأصل.

18) فمَنْ لي[بها][744] هيفاءَ تسطو كأنها | بسطوتهـا الزبَّاءُ حلّتْ بقـصـرها
19) نرى حسنها يشفي الغليل لعلّني | تُخلّصُ قلبي من شَغُـولٍ لمدحـهـا
20) ونحيي رسوم الحب بعد فنائها | كـإحيـاء شيخنا العلوم بأسرها
21) وسـيلتنا خُلقُ المجادةِ مبديا | غـوامضَ أستـار المعـاني ولغـزها
22) مـقلّدُ أجيـال العلوم بلفظه | لآلي[745] بيـانٍ لا تُصانُ لصنعـهـا
23) سَمَيدعُنا ذُخْراي[746] حمدون من سما | على كلِّ سـام بالعلوم وفـضلِها
24) زكى خلقا دقّتْ سرائر فـهـمـه | فلا تظفرن أصحاب علم بكتبها
25) بدا بدره فوق السِّماكين مُقْمراً | يعمُّ الورى نورا تحـقُّقَ سـعـدها
26) وكم أظهـرت أسرار علم بمجلسٍ | يميل به سكرًا ابأطيب رشـفـهـا
27) ولا سيـمـا رقّتْ حـواشٍ له فـقـد | تفـيض علينا من جـواهر ثغـرها
28) خليليَ دعْ عنّي مقـالة حـاسـدٍ | [[747]]
29) فأين ترى الشمس المنيرةَ مـقلةٌ | بها رمدٌ هيهـاتَ ذاك بجرمـهـا ؟!
30) جـزاه إلاه العـرش خيـر جـزائه | وأبقـاه دهراً في العلوم يُمِـدُّها
31) وأتحَـفَـه بدْءًا، وفي الختم رحـمـةٌ | بخير الورى، شمسِ المعالي وبدرِها
32) عليـه صـلاة الله والآلِ جـملةٌ | وأزكى سلامٍ، مـا تَحنُّ لوكـرها
33)حـمامٌ وقـالتْ عند وصلِ أحبَّـةٍ: | «رسائلُ سُعدى أعلمتنا بوصلها»

[رائية جسوس]

وللعلامة الصالح، سيدي المفضل جسوس[748] في مدح الشيخ سيدي حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي، رحمه الله:

---

[744]- زيادة لم ترد بالأصل، ليستقيم الوزن والتركيب والمعنى.

[745]- تسهل الهمزة ليستقيم الوزن.

[746]- كذا بالأصل.

[747]- بياض في الأصل.

[748]- أورد المؤلف 13 بيتا من هذه القصيدة في الباب الأول، ونسبها لمحمد جسوس، ولا شك أن الرجلين واحد.

[الكامل]

1) يامن تنَفَّسَ بالمغارب صُبْحُهُ ... وأضاء منه الشرقُ حيثُ أنارا

2) يا ناسخًا بدِرايةٍ وروايةٍ ... ليلَ الجهالةِ، فاستحال نهارا

3) يا[749] معلّما في كل علمٍ معلماً ... درستْ دروسُه فانمحى وتوارى

4) أحيى من الآثار للأثرِ الذي ... قِدمًا عَفَتْ أطلالُهُ آثارا

5) وأعارَ بعد النشرِ طيٌّ لوائِهِ ... وأشاد فيه للاهتداء منارا

6) بَشَّرتمُ من قال في أبوابكمْ ... متكفّفًا من نوركم أسراراً

7) بشّرتموه بأنه قد نال منْ ... علم الحديث وغيره الأوطارا

8) ما ذاك إلا أنكم خَوّلْتمو ... هُ من سحائبِ غيثكمْ مِدْراراً

9) لم لا وقد أضحى قديما جاركم ... ونَوالُكُمْ لا تمنعونه[750] جارا

10) لم لا، وأنتم أهل كل فضيلة ... وبرفدكم صيتُ الورى قد طارا

11) لم لا ونيلُ نيلِكم من كفكمْ ... جرى عُبابهُ، فاستقل بُحارا ؟!

12) إني جديرٌ بالُمناء وبالمنى ... لازَمتُ، سراً بابكمْ، وجهارا

13) طِبْتُمْ فروعًا في الحديث بمجدكم ... وكذاك طبتم في القديم نِجارا[751]

14) قد سدتّمُ في غابرِ الأزمان مَن ... ضاهاكم وغلبتموه فخارا

15) وافتكم بوراثةٍ تلكَ المكا ... رمِ، إذْ وردتم في الفخار نزارا

16) وإذا الفخارُ الفخرُ كان موَصَّلا ... من سالفِ الأجداد كان يبارى

17) هذا هو الشرف الذي لما بدا ... أبدت لغرّته البدورُ صَغارا

---

[749]- لا تشبع الياء ليستقيم الوزن.

[750]- في الأصل: تمنعوه، ولعل الصواب ما أثبتنا.

[751]- الأبيات 13-23 واردة في الباب الأول، وعليه قابلناها.

18) هذا هو الفخر الذي ما ناله[752] لعلُوِّه كِسرى وجاوز دارا

19) لا غورَ في هذا وقد كنتم لخيـ ـرِ المرسلين لديه أنصارا

20) كم ذاد عباسُ بنُ مرداسٍ أبو كمْ عنه، إن حربُ تأجَّجُ نارا

21) ليث الكتائبِ في الوغى ما إن له إن فرَّتِ الأبطالُ ثم فرارا

22) الناسُ كلُّهم دثارٌ، وأنتم كنتم لخير العالمين دثارا[753]

23) مازال نورُه فيكم طورا يلو حُ عليكمُ، ويعمكم أطوارا

24) قد نلتم من ذاك خَلعَة بهجةٍ وجلالةٌ ومهابةٌ ووقارا

25) هذي فنونٌ من أزاهرِ فكرتي تَسبي العقولَ، وتسحرُ الأبصارا

26) هذي عقودُ زَبَرْجَدٍ أولاكها مَن غاص في استجلابِها أفكارا

27) فهاكها من قاصرٍ في وصفكمْ فاقبلْ، وإن لم أحْبُكمْ معشارا

28) لو رمتُ إرْعافَ اليراعِ بمدحكمْ طول الليالي، مابلغت قرارا

29) لا زالت الأيام زهرا باسما بوجودكمْ تسمو به أعصارا

30) لازالت الغبرا بكمْ تسمو على الـ خضرا، تُباهي الشمس والأقمارا

31) وسقى ربوعكم الإلاه بفضله وأماطَ عنه بمَنّه الأكدارا

32) أحمد لحمدون حميد وأحمد[754] عقباهُ واجعل ختمها معطارا

[تائية جعفر بن الطالب ابن سودة]

وهذه القصيدة للفقيه الأديب البارع، أبي فارس، سيدي جعفر، ابن الفقيه سيدي الطالب ابن سودة المري[755]، خاطب بها ولد صاحب الديوان، [الفقيه النبيه القاضي، سيدي محمد الطالب ابن حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي، كان الله للجميع[756]].

[752]- في الأصل: كاله.

[753]- في الأصل: شعاراً.

[754]- كذا بالأصل، ومعنى البيت غير واضح، ووزن الشطر ساقط.

[755]- أديب عالم فاسي، (ت 1276هـ) ترجمته في السلوة: 119/1-120. الدرر 301/2.

[756]- لا ندري كيف ذكر المؤلف اسمه هنا، مع أوصاف التحلية، ولعل هذا من عمل الناسخ

[الكامل]

1) ياطالبَ الإكسير رُحتَ براحةٍ … وبها السعادةُ في صعيد الراحةِ

2) يا روضَ علم زاهرٍ بغصونه … طيرُ البراعةِ أعجزتْ بخطابةِ

3) الفقه عندك، والحديث محبَّرٌ، … ومحرَّرٌ، ومقرَّرٌ، عن قتادة[757]

4) أنت «المطوَّلُ»، طال بحرُ علومه … والسعدُ أنت شقيقُهُ ببلاغةِ

5) طالت لنا التقريرِ أبحاثٌ لكمْ … صالتْ، أخي، بأصالةٍ وإصابةِ

6) أسلاك درٍّ في قلائد جوهرٍ … أسلاك سحر جمالها بملاحةِ

7) عُرفتْ لكمْ، والحال أعدل شاهدٍ، … من ماجدٍ من فكرةٍ وقادةِ

8) أوثقتَ بالتحقيق علمَ وثائقٍ … وسبقتنا لإجادةٍ ومجادةِ

9) فلأنت في حيِّ المكارمِ ثَمرةٌ … تحيي مآثر في بساط عدالةِ

10) ولأنت شمس نباهةٍ ونبالةٍ … ولأنت في التحقيق أعظم آيةِ

11) يا كنز درٍّ، في معادن عسْجَدٍ، … ياطبُّ ضرٍّ، من بلاءِ بلادةِ

12) لا تعتقدْ أن الحسودَ مُسودٌ … مزجَ المُريدُ صفاءَهُ بسفاهةِ

13) أين[758] الذي نشر العلوم وجدُّهُ … نصر الرسولَ فردَّهُ بذخيرةٍ؟!

14) قل للجهول يعُدُّ أسلافًا لهُ … في الفضلِ قد سلفوا، وجئْ بشهادةِ

15) خذها على قصرٍ يزينُ خريدةً … عذراءَ بكراً، قد أتت ببشارةِ

16) ورشاقةٍ في قدِّها، ومنيَّةٍ، … فى لَحْظِها، وحواجبِ رشاقةِ

17) خرَّت لها البلاد فإن تنصب اسمها[759] … لمعاندٍ ومعارضٍ بجهالةِ

18) ترمي بأجفانٍ لها وحواجبٍ … تنسي الأسى حسنيَّةٍ حسانةِ

19) صيغَتْ بديعا في بديعٍ هاكها … شمسَ الضُّحى منقادةً بقلادةِ

[757]- الشطر ساقط الوزن.

[758]- في الأصل: فأين، ولا يستقيم به الوزن.

[759]- كذا بالأصل، ولا يستقيم للشطر وزن ولا معنى.

20) زُفَّتْ لبيتِ المجدِ في جودٍ جرى — في رونقٍ، في رقَّـةٍ، ولطافـةِ
21) في حلَّةٍ، في حِليـةٍ، في حـالةٍ — تنسي الأسى حُسْنيـةٍ حسَّانة
22) مـرحى مـرةً من بليغٍ شـاعـرٍ — بل سـاحـرٍ مستـفـردٍ بصنعـة
23) صـاغ الثناءَ منظَّماً ومنضَّداً — ومرصَّـفا ومرصَّعاً بيتـيمـة

[رثاء الشعراء لأبي الفيض حمدون ابن الحاج]

ولما توفي صاحب هذا الديوان، رحمه الله تعالى، كثرت فيه المراثي، وتنافست في شجوه القرائح، وبكاه الغادي والرائح.

[رائية محمد اليازغي]

فمن المراثي التي أُنشدَت على قبره، قولُ شيخنا العلاّمة الدرّاكَة، تاج الأدباء، أبي عبد الله، سيّدي محمَّد ابن الفقيه العَدْل، أبي بكر، ابن العلامة سيّدي عبد الكريم اليازغي، رحمه الله:

[الطويل]

1) أيا مَعْشَرَ الإسْلامِ كونوا عَلى حَذَرْ — فإنّي أرى عِقْدَ العُلومِ قَدِ انتَثَر
2) فَفي كُلِّ عـامٍ يَنْثُـرُ الدَّهْرُ دُرَّةً — ويُنْزِلُ مِنْ بُرْجِ العُلى والهُدى قَمَرْ
3) ويُسْكِنُ شَمْسَ الفضْلِ في ظُلَمِ الثّرى — ويُخْمِدُ نَجْمَ الهُدى[760] مِنْ بَعْدِما سَفَرْ
4) مَصائِبُ عَنْها الصُّبْحُ أصْبَحَ مُسْفِراً — وأُخْرى عَلى أهوالِها اللَّيلُ قدْ سَفَرْ
5) مَصائبُ منها القَلْبُ يَخْشَنُ ذَوْبُهُ — ويَدْأَبُ في حَيْراتِها اللُّبُّ والبَصَرْ
6) ولا كَمُصـابٍ بالإمـامِ الّذي بهِ — هِلالُ الهُدى قَدْ عَمَّ مِنْ بَعْدِ ما ظَهَرْ
7) سَليلُ التُّقى، حَمْدونُ ذو الخُلُقِ الّذي — مِنَ المِسْكِ أذكى في شَذى، وَمِنَ الزَّهَرْ
8) وَمَنْ كـانَ، والجَـوْزاءُ تَخْـدُمُ نَعْلَهُ، — يُرى في خُصُومٍ، لا ضَعْفٌ ولا خَوَرْ
9) ومَنْ كـانَ، والأيّامُ تَتْبَعُ أمْـرَهُ — لأمْرِ ضَعيفِ النّاسِ يَتْبَعُ، إن أمَرْ
10) ومَنْ كانَ، والإسْعادُ يَعْشَقُ قُرْبَهُ — وإنْ صَدَّ عَنْهُ بالمناكِبِ أوْ هَجَرْ

[760]- لاتشبع الكلمة ليستقيم الوزن.

11) وَمَنْ كـانَ لا يَلْوِي على أحَدٍ ولا   يَرى الفَـضْلَ إلاّ مِنْ إلاهٍ بِهِ غَـبَـرْ

12) وَمَنْ كانَ عَنْ قَيْدِ التَكَلُّفِ مُطْلَقًا   ولَكِنَّهُ قَـدْ قَـيَّـدَ الفِـعْلَ بِالأثَرْ

13) فَسَعْـيًا لِقَبْـرٍ ضَمَّ أعْظُمَـهُ فَكَمْ   حَوى مِنْ عُلى، مَنْ رامَها رُدَّ بِالحَصَرْ

14) فَيا قَـبْرُ لا زالَتْ عَلَيْكَ سَواكِبٌ   مِنَ الرَّحَمـاتِ الوارِداتِ كَمـا المَطَرْ

15) لكَ الشَرَفُ البادي، ألَسْتَ ضَمَمْتَ مَنْ   بِهِ البَدْرُ مَشْغوفٌ، كما شُغِفَ الحَضَرْ

16) ألَسْتَ ضَجيعَ العِلْمِ والحُكْمِ والنَّدى   ألَستَ لِشَمْسِ العِلْمِ أفْضَلَ مُسْتَقَرْ؟

17) فَقَدْ صِرْتَ مَحْسوداً، وحقٌّ لِحاسِدٍ   فَفيكَ رِياضُ الدِّينِ والعِلْمِ قدْ غَبَرْ

18) وَمَن قَـصُـرَتْ أيّامُـهُ، وَعُلومُـهُ   تَحَلَّتْ، فَلا تُرْمى بِقَصْرٍ ولا قِصَرْ

19) عُلومٌ بِهـا باهَى الأوائِلَ وارْتَقى   مَراقِيَ رأسُ النَّجْمِ فيها قَدِ اسْتَقَرْ

20) بِهِ اكْتُسِيَتْ طَرْزًا عَلى طَرْزِ أهْلِها   وزادَتْ بِها في أعْيُنِ الفِكْرِ والنَّظَرْ

21) وصارَتْ رِياضًا بِالتَحَقُّقِ أيْنَعَتْ   وفيها خَليجُ الذَّوْقِ قدْ فاضَ وانْهَمَرْ

22) وَذَلَّلَ من أغْصانِها كُلَّ مُثْمِرٍ   وأطْلَعَ في غُصْنِ الخِلافِ بِها ثَمَرْ

23) وَذالِكَ أجْلى، والبَديهَةُ تَقْتَضي   تَرَتُّبَ إنْتـاجٍ، إذْ ظَهَـرَ الأثَرْ

24) فَأوْضاعُهُ جَلَّتْ، وأجْلَتْ عَرائِسًا   مَحاسِنُهُ كَمْ مِنْ لَبيبٍ بِها سَحَرْ

25) بِها كانَ لِلسَّعْدِ ابْتِهاجٌ وبَهْجَةٌ   ولِلفَخْـرِ نُطْقٌ والمَحـافِلُ تُنْتَظَرْ

26) بِها صُوَرُ الحُسْنِ الفَريدِ تكامَلَتْ   وكَمْ صُوَرٍ فيها مِنَ المَجْدِ تُبْتَكَرْ

27) وَمَنْ بَقِيَتْ أوضاعُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ   فَلا زالَ حَيًا في عُيونِ الوَرى حَوَرْ

28) ولَكِنْ لأحْوالِ العِيـانِ لَطائِفٌ   فَلَهْفي عَلى ذاكَ المُحَيّا الَّذي غَبَرْ

29) ولَهْفي على أيّامِ أُنْسٍ قَضَيْتُها   بِهِ، وَعُيـونُ الدَّهْرِ مِنّا على خَطَرْ

30) ولَهْفي عَلى وُدٍّ حَبـاني صَفْوَهُ   وَما كـانَ في ظَنّي يَؤولُ إلى كَدَرْ

31) ولَكِنَّها الدُّنْيـا قَليلٌ مَتاعُهـا   فَمَنْ رامَها، قَدْ عامَلَ النَّفْسَ بِالغَرَرْ

32) إذا جَمَعَتْ يَوْمًا، فَإنَّ فِراقَها   يُكَسِّرُ مِنْ جَمْعِ السَّلامَةِ ما حَضَرْ

33) ولَكِنْ، عَزاءً مَعْشَرَ النّاسِ، إنَّهُ   مُصابٌ بِهِ نالَ المَفازَ مَنِ اصْطَبَرْ

34) فَما المَوْتُ يُزْرِي بِالشَّرِيفِ، ولا البَقا … شَفوقٌ لِذي جَهْلٍ، يَسوءُ كَما البَقَرْ

35) وفي مَنْ مَضى لِلعاقِلِ الرَّشْدِ إسْوَةٌ … تُسَهِّلُ ما أدْهى الفُؤادَ وما أمَرْ

36) فَمِنْ قَبْلِهِ الصِّدِّيقُ ذاقَ مَنِيَّةً … وَدَبَّتْ إلى الفاروقِ في أحْسَنِ الصُّوَرْ

37) وَما وَقَّرَتْ عُثْمانَ، ثُمَّ انْثَنَتْ إلى … أبي حَسَنٍ عَلِيٍّ الصّارِمِ الذَّكَرْ

38) وَدَبَّتْ إلى سَعْدٍ، وَأوْدَتْ بِخالِدٍ، … وَأخْنَتْ على عَمْرٍو، بِما فَتَكَتْ عُمَرْ

39) وما رَدَّها عَنْ حَمْزَةٍ ضَرَباتُهُ، … وَلا عَنْ زُبَيْرٍ ما بِهِ الكُفْرُ قَدْ زَبَرْ

40) وَما راعَها المِقْدادُ، بِالقَدِّ لِلعِدى، … وَما صَدَّها عَنْ طَلْحَةَ، ما بِهِ بَهَرْ

41) وَلا نَظَرَتْ في ابْنِ المُسَيِّبِ عِلْمَهُ … وَفي ابنِ جُبَيْرٍ، ما بِهِ الدِّينَ قَدْ جَبَرْ

42) وَلا صَدَّهَا عَنْ مالِكٍ، مُلْكُ عِلْمِهِ، … وَلا أبْقَتِ النُّعْمانَ، في الرَّأيِ مُعْتَبَرْ

43) وَلا شَفَعَتْ لِلشّافِعِيِّ، عُلومُهُ، … وَإبْشارُهُ، حَيْثُ السَّحائِبُ تُنْتَظَرْ

44) وَلا عَرَفَتْ نَفْيَ الكَرى، لابْنِ حَنْبَلٍ … وَقَدْ مالَ خَمْرُ النّائِمينَ بِمَنْ سَحَرْ

45) وَهَذي سَجِيّاتُ المَنايا وَدَأْبُها … فَقُلْ لِلعِدى: إنْ ماتَ حَمْدونُ ما انْدَثَرْ

46) وَمَنْ خَلَّفَ الذِّكْرَ الجَميلَ، فَما انْقَضى، … وإنْ سَكَنَ البِلى، فَأيّامُهُ غُرَرْ

47) وَأعْمالُهُ غَرّاءُ، تَزورُهُ سَكْرَةٌ … فَيَسْرَحُ مِنْها في رِياضٍ على نَهَرْ

48) تُغازِلُهُ حورٌ، وَقَدْ كانَ في الدُّنا … تُغازِلُهُ حورُ اللَّطائِفِ وَالدُّرَرْ

49) وَبَيْنَ اقْتِناصِ العِلْمِ والحورِ نِسْبَةٌ … فَقُلْ لِلعِدى: بِالجَهْلِ سِرْتُمْ إلى سَقَرْ

50) وَهَبْ أنَّ الدَّهْرَ أبْقى نَعيمَكُمْ … فَلا بُدَّ مِنْ يَومٍ تَطيشُ بِهِ الفِكَرْ

51) سَلوا الدَّهْرَ عَنْ ساسانَ كَيْفَ أبادَهُمْ … وَأبْقاهُمُ في الكَوْنِ مِنْ أعْظَمِ العِبَرْ

52) وَعَنْ سَبَإٍ، كَيْفَ ارْتَقى لِبُروجِهِمْ … وَأنْزَلَهُم مِنْ بَعْدِ عِزٍّ وَمُفْتَخَرْ

53) وَحاصِلُ هذا الدَّهْرِ، هَدْمُ مُشَيَّدٍ، … بِفُقْدانِ شَيْخٍ، كانَ لِلدَّهْرِ مُدَّخَرْ

54) وَلَكِنْ، بِعَيْنِ الصَّفْحِ نَنْظُرُهُ إذا … بِأبْنائِهِ قَدْ أحْسَنَ الخُبْرَ وَالخَبَرْ

55) أدامَ الإلاهُ عِزَّهُمْ وَأنالَهُمْ … رِضاهُ، وَأوْلاهُمْ مِنَ الفَخْرِ ما يَسُرْ

56) بِجاهِ إمامِ المُرْسَلينَ مُحَمَّدٍ … عَلَيْهِ صَلاةٌ، ما هِلالُ الدُّجى ظَهَرْ

[رائيّة محمّد بوزيد الخُمُسيّ العرائشيّ]

وقول الأديب البارع المشارك، أبي عبد الله، سيدي محمّد بن عليّ بن محمّد، بوزيد العرائشي الخُمُسيّ:

[الكامل]

1) بِأبي ثُرى صافَحْتَ فيهِ الحورا ... ونَزَلْتَ في ساحاتِهِ مَبْسورا

2) وتَركْتَ ياحَمْدونُ أفْئِدَةَ الوَرى ... قَدْ أودعَتْ أحْشاؤُهُنّ سَعيرا

3) وَمَنازِلاً، هاجَرْتها، وَمَعالِمًا، ... وأوانِسًا، فارَقْتَها، وَقُصورا

4) وَمَجالِسًا، دَرَسَتْ، كَأنّكَ لَمْ تَكُنْ، ... تُمْلي بها الآثارَ والتَّفْسيرا

5) وَمَنابِراً، قَدْ طالمَا تَتْلو بِها ... وَعْظًا يُلينُ جَنادِلاً وَصُخورا

6) غادَرْتَنا نَذْري ونُرْسِلُ أدْمُعًا ... رَقَمَتْ على حَرِّ الخُدودِ سُطورا

7) وَتَشُقُّ مِنْ أسَفٍ عَلَيْكَ جُيوبَنا ... والحزْنُ شَقَّ قُلوبَنا وصُدورا

8) وتُساوِرُ البَلْوى بِلَيْلٍ عادَلَتْ ... ساعاتُهُ مِنْ طولِهِنّ دُهُورا

9) لَوْ أنَّ ما حَمَّلْتَناهُ مِنَ الأسى ... حَمَّلْتَهُ طوراً، لَدَكَّ الطُّورا

10) رَجَفَتْ لِمَهْلَكِكَ البِلادُ وَأظْلَمَتْ ... أرْجاءُ أرْضٍ، كُنْتَ فيها النّورا

11) وَعَفَتْ بِمَنْعاكَ المَكارِمُ والعُلى ... والعِلْمُ أصْبَحَ دارِسًا مَهْجورا

12) نابَ البَرِيّةَ مِنْ مُصابِكَ حادِثٌ ... قَدْ صَيَّرَ الخَطْبَ الجَليلَ حَقيرا

13) قَدْ كانَ مَوْتٌ غالَ مِثْلَكَ ظالِمًا ... لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَبِّنا مَأمورا

14) جَسَرَتْ يَداهُ على مَقامٍ لَمْ يَكُنْ ... أحَدٌ لِهَيْبَتِهِ عَلَيْهِ جَسورا

15) لا أعْرِفَنّي بَعْدَ مَوْتِكَ جازِعًا ... مِنْ هائِلٍ، وَبِمُفْرِحٍ مَسْرورا

16) إنْ كانَ شَخْصُكَ قَدْ تَغَيّبَ في الثّرى ... فَحَديثُ فَضْلِكَ لَمْ يزَلْ مَأثورا

17) أحْياكَ ذِكْرٌ بَعْدَ مَوْتِكَ صالِحٌ ... حَتّى كَأنّكَ لَمْ تَزَلْ مَنْشورا

18) شَمَخَ التُّرابُ على السَّماءِ تَرَفُّعاً ... إذْ كُنْتَ في أحْشائِهِ مَقْبورا

19) لِلّهِ قَبْرٌ، أنْتَ ساكِنُ رَمْسِهِ جَمَعَ الفَضائِلَ وَالحِجى وَالخِيرا

20) وَمَعارِفاً وَعَوارِفاً وَخَلائِقاً سُجُحاً غَدا مِنْها النَّسيمُ غَيورا

21) وَفَصاحَةً لَيْسَتْ تَزينُ باطِلاً وَتَزيدُ في الحَقِّ المُبينِ ظُهورا

22) وَسَماحَةً يُغْنى بِشَيْمِ بُروقِها مَنْ كانَ مُغْبَرَّ الجَنابِ فَقيرا

23) ياثاوِياً في رَوْضَةٍ قَدْ ضُمِّنَتْ مِنْ عِلْمِهِ وَنَدى يَدَيْهِ بُحورا

24) فَلَرُبَّ موثَقٍ كُرْبَةٍ أطْلَقْتَهُ قَدْ كانَ في أيْدي الخُطوبِ أسيرا

25) وَلَكَمْ أغَثْتَ مِنَ الرَّدى مُسْتَصْرِخاً وَجَبَرْتَ مَرْهونَ الجَناحِ كَسيرا

26) لَوْ رَدَّ سَيِّدُ مَعْشَرٍ بِجَلالِهِ قَدَراً، لَرَدَّ جَلالُكَ المَقْدورا

27) خُذْ مِنْ رِثاءِ فَتى بِحُبِّكَ هائِمٍ دُرّاً يَفوقُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثورا

28) لَوْ تَسْتَطيعُ أوانِسٌ مِنْ حُسْنِهِ حَلَّتْهُ أجْياداً لَها وَنُحورا

29) بُوِّئْتَ مِنْ دارِ النَّعيمِ مَنازِلاً وَرُزِقْتَ عَيْشاً في الجِنانِ نَضيرا

30) وَسَقى ضَريحَكَ وابِلٌ مِنْ رَحْمَةٍ وَجَزاكَ رَبُّكَ جَنَّةً وَحَريرا

[لاميّة محمد بن إدريس العمراويّ الوزير]

وقول الوزير الأديب البارع، المشارك اللّبيب أبي عبد الله، محمّد بن إدريس ابن الحاجّ العَمْراوِي[761]:

[الطويل]

1) حِياضُ المَنايا لِلنُّفوسِ[762] مَناهِلُ وَكُلُّ الوَرى لِلوِرْدِ مِنْها مُناهِلُ[763]

2) قَضاءٌ مِنَ الرَّحمانِ حَتْمٌ عَلى الوَرى وَكُلُّ قَضاءِ اللّهِ، لا شَكَّ، حاصِلُ[764]

3) فَلا بُدَّ لِلأحْياءِ مِنْ وِرْدِ حَوْضِها كَما وَرَدَتْها في القَديمِ الأوائِلُ

4) وَما هذِهِ الدُّنْيا سِوى دارِ رِحْلَةٍ وَلا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ تُشَدُّ الرَّواحِلُ

---

[761]- القصيدة في الإتحاف: 2/38-41 . وعليه قابلنا النص، وهي كثيرة الإقواء.

[762]- الإتحاف: 2/38. للبرايا.

[763]- الإتحاف: 2/38. مناهل.

[764]- الإتحاف: 2/38. حاصل.

5) فظاهِرُها لِلجاهِلينَ مَحاسِنٌ وَباطِنُها لِلْعارِفينَ رَذائِلُ[765]

6) فيا أيُّها المِسْكينُ[766] وَالآمِلُ البَقا تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيا، فَإنَّكَ راحِلُ

7) وَلا تغْتَرِرْ[767] مِنها بِحُسْنِ زَخارِفٍ فَكُلُّ سِوى اللّهِ المُهَيْمِنِ، باطِلُ

8) وَما نَحْنُ إلاّ كَالجِيادِ بِمُضْمَرٍ وَتَسْبِقُ في المَيْدانِ مِنّا الأفاضِلُ

9) رَأَيْتُ المنايا تَنْتَقي كُلَّ سَيِّدٍ لَها كُلَّ يَوْمٍ غارَةٌ وَجَحافِلُ

10) وَتُردي صَميمَ المَجْدِ مِنْ فَتَكاتِها كَأنَّ عليْها ثَأْرًا عليْهِ تُقاتِلُ

11) «تَحامى الرَّزايا كُلَّ خُفٍّ وَمَنْسِمٍ وَتَلْقى رَداهُنَّ الذُّرى وَالكَواهِلُ[768]»

12) أما وَجَدَتْ عَنّا الخُطوبُ مُعَرَّجًا أما رَدَّها عَنّا العُلى وَالفَواضِلُ؟!

13) لَقَدْ هُدَّ رُكْنُ الصَّبْرِ يَوْمَ نَعَوْا لَنا إمامَ العُلى، مَنْ في الفَضائِلِ كامِلُ

14) وَقُلْتُ: وَلا وَاللّهِ ما كُنْتُ دارِيًا، مِنَ الوَجْدِ وَالأحزانِ، ما أنا قائِلُ:

15) أَحَقًّا عِبادَ اللّهِ، حَمْدونُ قَدْ قَضى؟!! لَقَدْ ثَكَلَتْنا عِنْدَ ذاكَ الثَّواكِلُ

16) نعم قَدْ قَضى شَيْخُ المجادَةِ[769] وَالتُّقى وَغالَتْهُ مِنْ دونِ الأنامِ الغَوائِلُ

17) لَقَدْ كُوِّرَتْ[770] شَمْسُ السِّيادَةِ بَعْدَهُ وَبَدْرُ العُلى وَالعِلْمِ[771] بَعْدَهُ آفِلُ

18) وَهُدَّتْ سَماءُ المَجْدِ وَالجودِ، وَاعْتَرى[772] لِفُقْداتِهِ[773] أَرْضَ القُلوبِ الزَّلازِلُ

19) وَغاضَتْ بُحورُ العِلْمِ بَعْدَ طفوحِهِ[774] وَأَصْبَحَ رَوْضُ[775] النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ذابِلُ[776]

765- أُخِّر هذا البيت في رواية الإتحاف: 39/2، حتى صار السّابع، ولعلّ الأفضل ترتيب الإتحاف.

766- الإتحاف: 39/2. المغرور.

767- في الأصل: فلا تغترر، والتّصويب من الإتحاف: 39/2.

768- البيت لأبي العلاء المعري.

769- الإتحاف: 39/2: الجماعة.

770- في الأصل: لقد كدرت، والتصويب من: الإتحاف: 39/2.

771- الإتحاف: 39/2. والمجد.

772- الإتحاف:39/2. «وهدّ سماء المجد والجود».

773- الإتحاف: 39/2: بفقداته.

774- في الأصل: طفولها. والتّصويب من: الإتحاف: 39/2.

775- الإتحاف: 39/2: وعاد رياض.

20) وَسُدَّتْ طَرِيقُ السَّالِكِينَ إلى العُلى وَعادَتْ طَرِيقُ المُتَّقِينَ[777] مَجاهِلُ[778]

21) رَزِيَّتُهُ أزْرَتْ بِكُلِّ رَزِيَّةٍ وَفُقْدانُهُ خَطْبٌ لَعَمْري هائِلُ

22) لَئِنْ كانَ شَمْساً قَدْ هَوى فَوَراءَهُ هِلالٌ بِآفاقِ السِّيادَةِ كامِلُ

23) وَذِكْرٌ سَرى بَيْنَ البَرِيَّةِ طَيِّبٌ كَما هَبَّ رِيحٌ عَطَّرَتْهُ الخَمائِلُ

24) وَأوْضاعُ عِلْمٍ يُسْتَضاءُ بِنورِها وَنَظْمٌ وَنَثْرٌ لِلمَحاسِنِ شامِلُ

25) فَصَبْراً، أبا عَبْدِ الإلاهِ، فَإنَّما بِقَدْرِ جَليلِ الخَطْبِ، تُعْطى الجَلائِلُ

26) وَإنَّ مُصابَ المُسْلِمِينَ بِفَقْدِهِ مُصابٌ جَليلٌ هاجَ مِنْهُ البَلابِلُ

27) أحَمْدونُ: مَنْ لِلْمُشْكِلاتِ يَحُلُّها إذا قَصَّرَتْ في فَهْمِهِنَّ الأفاضِلُ

28) وَمَنْ لِعُلومِ الدِّينِ يُتْقِنُ دَرْسَها فَتُشْرِقَ نوراً مِنْ ذَكاهُ[779] المَسائِلُ؟!!

29) ومن لِلْبَيانِ وَالمَعاني يُبينُها[780] بِعَضْبِ لِسانٍ لِلْجَهالَةِ قاتِلُ؟!

30) وَمَنْ لامْتِداحِ المُصْطَفى بِمَدائِحٍ عَلَيْها مِنَ السِّحْرِ الحَلالِ دَلائِلُ

31) وَمَنْ لِذَوي المَعْروفِ، إنْ عَنَّ حادِثٌ فَيَلْقاهُمُ بِشْرٌ لَدَيْكَ وَنائِلُ؟!

32) لَقَدْ كُنْتَ غَوْثاً لِلأنامِ وَمَنْهَلاً إذا ما عَرَتْهُمْ مِنْ زَمانٍ نَوازِلُ

33) وَكُنْتَ دَليلَ السَّائِرينَ إلى العُلى وَبَدْراً بِآفاقِ الهُدى مُتَكامِلُ

34) وَكُنْتَ لِهذا الدَّهْرِ زَيْناً وَحِلْيَةً فَأصْبَحَ جيدُ الدَّهْرِ بَعْدَكَ عاطِلُ[781]

35) وَكُنْتَ لِذي الحاجاتِ خَيْرَ وَسيلَةٍ إذا عُدِمَتْ في العالَمينَ الوَسائِلُ

36) [فَأصْبَحْتَ مُقْصًى في دِيارٍ جَنيبَةٍ وَقَدْ عُدِمَتْ تِلْكَ العُلى والفَضائِلُ[782]]

---

[776]– في البيت إقواء.

[777]– الإتحاف: 39/2. المتقنين.

[778]– في البيت إقواء.

[779]– في الأصل: ذكاء، ولعل الأفضل رواية الإتحاف: 40/2.

[780]– الإتحاف: 40/2: «ومن للمعاني والبيان يبينه».

[781]– في البيت إقواء، ورواية الإتحاف: 40/2: «فها جيده من بعد بعدك عاطل».

[782]– سقط البيت من الأصل، وهو في الإتحاف: 40/2.

37) وَأَضْحَتْ رُبوعُ العِلْمِ، وَهْيَ كَئيبَةٌ، خَوالٍ، ونورُ العِزِّ والمجْدِ[783] حائِلُ

38) وأَصْبَحَتِ الطُّلاَّبُ بَعْدَكَ في ظَمَا وَقَدْ كُدِّرَتْ لِلوارِدينَ المَناهِلُ

39) وعاثَتْ جُيوشُ الحُزْنِ فيهِمْ وَحُكِّمَتْ عَلى الرَّغْمِ في الأَحْشا الظُّبى والعَوامِلُ

40) وَنارُ الجَوى بَيْنَ الجَوانِحِ أجِّجَتْ وَسُحْبُ الدُّموعِ في الخُدودِ هَوامِلُ

41) فما عَيْشُهُمْ مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ صالِحٌ وَلا في الحَياةِ بَعْدَ بُعْدِكَ طائِلُ

42) فَلَوْ كُنْتَ تُفْدى بِالنُّفوسِ تَسابَقوا وَلَمْ تَغْلُهُمْ فيكَ النُّفوسُ الجَلائِلُ

43) وَلكِنْ قَضاءُ اللهِ [حُمَّ، فما امْرُؤٌ][784] يُرى، دونَ ما قَدْ قَدَّرَ اللهُ حائِلُ

44) لَقَدْ صِرْتَ لِلبَدْرَيْنِ قَبْلَكَ ثالِثاً بِهِ تَمَّ بَيْنَ العالَمينَ التَّماثُلُ

45) كَأَنْ لا[785] تَرى شِبْهٌ لِفَضْلِكَ في الوَرى فَأَصْبَحْتَ بِالشِّبْهِ المُماثِلِ نازِلُ

46) ثَلاثَةُ أَقْمارٍ حَلَلْنَ[786] بِرَوْضَةٍ عَلَيْها مِنَ النّورِ البَهِيِّ شَمائِلُ

47) جِبالُ عُلومٍ راسِياتٌ لَدى العُلى بُحورٌ[787] لَعَمْري، ما لَهُنَّ سَواحِلُ

48) سَقى تُرْبَ ذاكَ الرَّوْضِ[788] شُؤْبوبُ رَحْمَةٍ وَسَحَّتْ عَلَيْهِ السّارِياتُ الهَواطِلُ

49) وَبُوِّئَ مَنْ قَدْ حَلَّهُ اللهُ جَنَّةً [لَهُمْ بِعُلى الفِرْدَوْسِ مِنْها][789] مَنازِلُ

50) بِجاهِ إِمامِ المُرْسَلينَ وَآلِهِ وَأَصْحابِهِ أَهْلِ الرَّشادِ الأَفاضِلُ

51) عَلَيْهِ[790] صَلاةُ اللهِ، ما ذَرَّ شارِقٌ وَما سَجَعَتْ فَوْقَ الغُصونِ البَلابِلُ

---

[783]- الإتحاف: 40/2. بعدك.

[784]- مابين معقوفين مدمج في الأصل. وهو من الإتحاف. 40/2. والشطر بعده فيه إقواء.

[785]- في الأصل والإتحاف. 40/2. لم . ولعلّ الصواب ما أثبتناه ليستقيم الوزن والتركيب. والشطر بعده فيه إقواء.

[786]- الإتحاف: 40/2 : ثوين.

[787]- الإتحاف: 40/2: بحار.

[788]- في الأصل: النهر، والتصويب من الإتحاف: 40/2.

[789]- بياض في الأصل، ملأناه من الإتحاف: 40/2. وبعده في الأصل: أعلى المنازل.

[790]- الإتحاف: 41/2. عليهم.

[رائيَّة محمَّد أكَنْسوس]

وقـول الأديب البارع، العـالم اللُّغـويّ، أبي عـبـد الله، مـحـمـد بن أحـمـد كنْسـوس الجعفري[791]، يرثيه أيضا:

[البسيط]

1) يا راكِـبينَ عَلى أمْنٍ مِنَ القَـدَرِ	سَـفينةَ الخُسْرِ في بَحْرٍ مِنَ الخَطَرِ
2) وناـِمينَ بِظِلٍّ مِنْ أمـانيـهِمُ	لَقَـدْ تَظَلَّلتُمُ بِلوْحَـةِ الخَطَرِ
3) بِاللهِ مَـهْلاً، عَلى رِسْلٍ، أُسائِلكُمْ	هَلْ تَعْلَمونَ لِهَذَا الأمْرِ مِنْ خَبَرِ؟!
4) عَـفَتْ رُسـومُ أحِبَّتي وَدورُهُمُ	وغـيَّـرَتْهـا هُجـومُ البرْقِ والمطرِ
5) مَحَتْها هوجُ[792] الرِّياحِ والرِّماحِ فَما	تَـرى لألائِـكَ الآرامِ مِـنْ أثَـرِ
6) ولَسْتَ تَسْمَعُ إلاَّ البـومَ صـائِحَـةً	عَلى اليَعافيـرِ والذُّؤْبانِ والبَـقَرِ
7) وبَعْدَما كانَتِ الأقْمارُ تَحْشُدُها	وَذاكَ إذا عَـمَرتْ بِالحُسْنِ والخَـفَرِ
8) مَنازِلُ، بَعُـدَتْ قَـدْراً بِسـاكِنِهـا،	مـا كـانَ أقـرَبَ مِنْهـا مَنْزِلُ القَمَرِ
9) واليَوْمَ، يا مُهْجَتي، صَبْراً عَلَيْها فَقَدْ	غَـدَتْ مَحَاسِنُهـا وَحْيـاً عَلى زُبُرِ
10) وَسـائِلٍ قـالَ: أيْنَ القَوْمُ ما فَـعَلوا	وأيْنَ مـا كـانَ آنِفـاً مِنَ القَـمَرِ؟!
11) فَقُلْتُ: قَدْ شَرِبوا كَأسَ المنايا كَما	شَـرِبْتُ بَعْـدَهُم كَـأسـاً مِنَ الصَّبَرِ
12) كَمْ سـاجَلَتْ مُقْلَتي غُرَّ الغَمامِ، وأيْـ	نَ لِلسَّحائِبِ دَمْعٌ مُشْبِهُ الشَّرَرِ؟!
13) فَمِثْلَ دَمْعي فَابْكِ، ياحَمامُ، إذا	مـا كُنْتِ نائِحَةً يَوْمـاً عَلى الشَّجَرِ
14) ما أظْلَمَ اللَّيلُ. لكنْ في فُؤادي قَدْ	تَكاثَفَتْ ظُلُمـاتُ الهَمِّ والفِكَرِ!!
15) أبيتُ في غَمَراتِ اللَّيلِ مُعْتَكِفاً	أُعَلِّمُ النَّجمَ سـورَةً مِنَ السَّـهَرِ؟!
16) هذا، وكَيْفَ المُقَامُ، والأمانُ وفي	كَفِّ النَّوائِبِ أسْـهُمٌ مِنَ القَـدَرِ؟!

[791]- عالم مؤرخ أديب، (ت 1294هـ) ترجمته في: الحياة: 431-444. الشُّحرة:1/404. رقم 1623 مؤرخو الشُّرفاء: 136-145. البوع: 1/317. معجم المطبوعات: 23. رقم38. الإعلام:7/8 17 رقم 852.

[792]- في الأصل: موج، ولعل الصواب ما أثبتناه، ولا تشبع الهاء قبلها ليستقيم الوزن

17) ما زالَ رَيْبُ الزَّمانِ يَنْتَقي غَرَضاً | حَتّى أصابَ بِذاكَ مُهْجَةَ الفَخْرِ

18) شَيْخَ الجَمَاعَةِ حَمْدونُ الَّذي حُمِدَتْ | بِهِ الأيّامُ[793]، جَميلَ الوِرْدِ والصَّدَرِ

19) فَزُلْزِلَتْ بِهِ أرْضُ الدِّينِ وانْفَطَرَتْ | سَمَــاؤُهُ، وَتَدَلَّتْ أنْجُمُ الكَدَرِ

20) مَنْ لِلأرامِلِ والأيْتامِ بَعْدَكَ يا | حَمْدونُ، ولِمَديحِ سَيِّدِ البَشَرِ؟!

21) مَنْ لِلْمَكارِمِ مِنْ مَجودٍ يَفْعَلُهُ | مِنَ الأحاديثِ والآياتِ والسُّوَرِ؟![794]

22) حَمْدونُ: إنَّ المَعَالي عَزَّ مَطْلَبُها | قَميصُ مَنْ يَبْتَغيها قُدَّ مِنْ دُبُرِ

23) فَمَنْ يُطَرِّزُ بِالبَديعِ حُلَّتَها | وَمَنْ يُفَصِّلُ مَنْظومًا بِمُنْتَثِرِ

24) يا مُهْجَةً كَمْ تَرى[795] لِذَلِكَ مِنْ جَزَعٍ | فَأنْتَ أقْسى لَعَمْرُ اللهِ مِنْ حَجَرِ

25) وَأنتَ يا طالِباً مِنْ بَعْدِهِ شَرَفاً | تَزيدُ شَيْئًا بِلا عَيْنٍ ولا أثَرِ

26) خُذْ ما تَراهُ، وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ | واقْنَعْ بِذاكَ، فَلَيْسَ الخُبْرُ كالخَبَرِ

27) فَإنْ أتَيْتَ إلى بَنيهِ مُلْتَمِساً | أعْطَيْتَ قَوسَكَ رَبَّ[796] القَوْسِ والوَتَرِ

28) إنّا لَنَرْجو بِذالِكَ الفَرْعِ مَنْقَبةً | وَنَكْتَفي عَنْ طُلوعِ الشَّمْسِ بِالقَمَرِ

29) هَذا، ولا تَعْتَذِرْ بِالفَرْقِ بَيْنَهُما | عَلِمْتُ ذاكَ، وَمَنْ لِلعَيْنِ بِالحَوَرِ

30) إنَّ المَكارِمَ قَدْ غَدَتْ بِرُمَّتِها | في طَيِّ ما قَدْ طَوَتْهُ رَوْضَةُ القَبْرِ

31) يا رَوْضَةً وَسِعَتْهُ، جَلَّ ما وَسِعَتْ!! | شَيْءٌ تَفَرَّقَ بَيْنَ البَدْوِ والحَضَرِ

32) بَحْرٌ مِنَ العِلْمِ، مَعْ بَحْرَيْنِ مِنْ كَرَمٍ، | فَكَيْفَ ذالِكَ في شِبْرَيْنِ مِنْ عَفَرِ

33) لا شكَّ أنَّكِ رَحْمَةُ الإلاهِ لَهُ | وَوَسْعُ رَحْمَتِهِ قَدْ جاءَ في الأثَرِ

34) بِاللهِ يا وامِضَ البَرْقِ البَليلِ إذا | ما سُقْتَ جَوْنَ السَّحابِ الطَّيِّبِ المَطَرِ

35) عَرِّجْ على ذالِكَ القَبْرِ السَّعيدِ إلى | أن تَعْبَقَ الأرْضُ بِالأنْوارِ مِنَ الزَّهَرِ

[793]- في الأصل: الايام، ولا يستقيم به الوزن، ولعل الصواب ما أثبتناه.

[794]- الشطر ساقط الوزن.

[795]- في الأصل: تدب أو ترب، ولا يستقيم به وزن ولا معنى، ولعل الصواب ما أثبتناه.

[796]- في الأصل: يارب، والكلمة غير صحيحة وقد أسقطنا الياء (النداء) ليستقيم الوزن. وفي البيت إحالة على المثل العربي: أعطِ القوس باريها.

36) وَعَلِّلَنْهُ مَعَ الأشـــواقِ آونَةً ... وَحَـيِّـهِ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ السَّـحَـرِ

37) ويا نَسيماً جَرى مَعَ العَشِيِّ[797] عَلى ... كَـتـائِبِ النَّوْرِ، بَيْنَ الشِّعْبِ والنَّهَـرِ

38) احمِلْ إلَيْـهِ مِنَ الأزهارِ نَفْحَتَـها ... وَجُــرَّ ذَيْـلَ الرِّداءِ الطَّيِّبِ العَطِرِ

[نونيّة محمد بن العربيّ قَصارة]

وقول الأديب المعقوليّ المشارك، أبي عبد الله، محمّد بن العربيّ قَصارَة الحِمْيَرِي[798] :

[البسيط]

1) حَـوْضُ الـمَنِيَّـةِ، كُلُّ النّاسِ وارِدُهُ ... وَسَـهْـمُـهـا نافِـذٌ في كُلِّ مـا حِينِ

2) والمَرْءُ في غَرَضِ الرَّدى لِذي عَرَضٍ ... لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، وَلَـوْ بِكَنْزِ قَـــارونِ

3) لقَـدْ فُـجِـعْتُ لخطبٍ لم يُطِقْ جلداً ... عَلَيْـهِ قَلْبِي، فَكادَ الوَجْـدُ يُفْنِيني

4) فَـقْـدِ الإمـامِ الّذي عَلَتْ مَنازِلُهُ ... كُلُّ الـمَنازِلِ، بَحْرِ العِلْمِ حَـمْـدونِ

5) شَـمْسُ الخَـلائِقِ، مُنْقِذُ البَرِيَّةِ مِنْ ... جَـهـالةٍ، بِجَـمِـيلِ الفِكْرِ وَالدِّينِ

6) مَنْ كانَ لِلنّاسِ مَلْجَأً، وَمَنْ لِذَوِي الْـ ... ـعِـصْـيـانِ وَالظُّلْمِ آمِرٌ بِتَـحْسِينِ

7) وَمَنْ لِداءِ القُلوبِ كـاشِفٌ ضَــرَراً ... لِلدّينِ، وَالحَقِّ ناصِـرٌ بِتَـبْـيِـينِ

8) كَيْفَ اصْطِبارِي عَلى مَنْ كانَ ذا قَدَمٍ ... في الحِلْمِ والزُّهْدِ، لِلإرشادِ يَهْـدِيني

9) لَقَـدْ أتى بِبَـديعِ النَّظْمِ فـاقَ بِهِ ... كَـعْـبٌ وحَـسّـان في مَديحِ ـ ـسس

10) رِياضُ نَظْمٍ وَنَثْـرٍ بَعْـدَهُ ذَبُلَتْ ... آهِ عـلى أدَبٍ قـــدْ حـلَّ في طِينِ

11) أشكوُ إلى اللهِ من فَقْدِ العُلوم، عَفَتْ، ... خلَتْ مَراسِـمُـهـا ريحـاً تُناجِـيني

12) طيفُ الكَرى قَدْ نَأى عَنْ مُقْلَتي وَبَدا ... صَوْبُ الدُّموعِ مِنَ الأَلحاظِ يَكْوِيني

13) مِنْ فَرْطِ فَيْضِ الجُفونِ خِلْتُ، لا فَتَدُ ... أَمَكَّنُ الـسُّـــقْمَ أيُّ تَـمْكينِ

14) مـا خِلْتُ أنِّي بَعْـدَ فَـقْـدِهِ جَلَدٌ ... وَنارُ جَـمْـرِ الفِـراقِ مِنْهُ تُصْلِيني

15) لا عَجَبٌ، إن خانَنا الزَّمانُ فيهِ[799] ، لِمَن ... شَـأْنِ الحَـوادِثِ غَـورٌ بالأحـاسِنِ

---

[797]– في الأصل: العشي. ولا يستقيم به وزن ولا معنى، ولعل الصواب ما أثبتنا.

[798]– عالم أديب فاسي. (ت 1257هـ) ترجمته في الشجرة: 1/397. رقم 1583

[799]– كذا بالأصل، ويجب إسقاط الكلمة ليستقيم الوزن.

16) لَمّا توارى عَـزيزُ القَـومِ مُنْغَـمِـداً   في لَحْدِه، صـارَتِ الأَشْواقُ تُبْكيني

17) لو كانَ بِالنَّفْسِ يُفْتَدى، فَدَتْهُ، ولا   كِنَّ المَقـاديرَ قَـدْ أَبَتْ لِتُـرْديني

18) ولَـى إلى اللّهِ في عِـزٍّ لَهُ ويَهـا   ولَمْ يَكُن فـيـهِ ظَنّي قَطُّ يُخْـفـيني

19) أُؤَلِّفُ القَلْبَ صَبْراً عَنْهُ محتَسِباً   إِنَّ التَّـجَلُّدَ يُسْلي كُلَّ مَـحْـزونِ

20) في نَسْلِهِ اللّهُ يُبْدي كُلَّ مَكْرُمَـةٍ   مَـحْـفـوظَةٍ فـيـهِ دائِمًـا إلى حينِ

21) سَقى الإلاهُ ضَريحاً ضَمَّ أَعْظُمَـهُ،   وَعَطَّرَ الرَّوضَ مِـسْكاً مَعْ رَياحينِ

22) يارَبِّ: واجْعَلْهُ في الفِرْدَوْسِ مُصْطَحِباً   لأَحْـمَـدَ الـمُصْطَفى خَيْرِ النَّبيئينِ

23) عَلَيْهِ صلّى إلاهُ العَرْشِ ما ابْتَسَمَتْ   مَـبـاسِمُ الزَّهْرِ في دَوْحِ الأَفْـانـينِ

[رائيَّة عليّ بن إدريس قَصارَة]

وقول الأديب المشارك العلاّمة، أبي الحسن، عليّ بن إدريس قَصارَة الحِمْيَري[800]:

[الوافر]

1) هِيَ الدُّنْيَـا زَخـارِفُـهـا غُـرورُ   فَـلا يَغْـرُرْكَ بِاللّهِ الغَـرورُ

2) إذا مـا أَضْـحَكَتْ في الحينِ أَبْكَتْ   وأَعْـقَبَ حُسْنَ بَهْجَتِـهـا ثُبورُ

3) نَوائِبُـهـا مِنَ الأَيّامِ تَتْـرى   وفي أَحْـشـائِهـا نارٌ تَثـورُ

4) فَـثِقْ بِاللّهِ يا قَلْبي وَسَلِّمْ   لِرَبِّكَ أَمْـرَهُ، فَـهْـوَ الخَـبـيـرُ

5) وكُنْ راضٍ[801] بِمَا يَقْضي، صَبوراً   عَلى أَحْكامِـهِ، فَـهْـوَ البَـصـيـرُ

6) لَئِنْ لَحِقَ الفَنا الخَـيّـارَ طُراً   لَنا المَـوْلى، لَنا نِعْمَ النَّصيـرُ!!

7) قَـديمٌ باقٍ حيٌّ، لَيْسَ يَفْنى[802]   بِـمـا في نَفْـسِـا مِنّا خَـبـيـرُ

8) فَـلا تَجْـزَعْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ واصْـبِـرْ   فَـإِنَّ الـمَـوْتَ مَـحْـتـومٌ جَـديرُ

9) تُـنـادي كُـلَّ يَـومٍ عَـنْ يَـقـينٍ:   أَلا توبوا، فَـقَـدْ قَرُبَ الـمَـصيـرُ

800- علاّمة مُشارك من أهل فاس (ت 1259هـ) ترجمته في السُّلوة:265/2 الشجرة:398/1. رقم 1588. معجم المطبوعات: 288. رقم 658.

801- كذا بالأصل، وبه يستقيم الوزن.

802- الشطر ساقط الوزن.

10) وَنَحْنُ عَلى الضَّلالَةِ لا نُبالي إلى أن يَنْزِلَ الوَعْدُ الخَطيرُ

11) سِهامُ المَوْتِ تَرْشُقُ كُلَّ حيٍّ فَسِيَّانِ المُمَوَّلُ وَالفَقيرُ

12) وَسِيَّانِ الرَّفيعُ والوَضيعُ وَسِيَّانِ الكَبيرُ وَالصَّغيرُ

13) فَآهٍ آهِ مِنْ دَهْرٍ دَهاني وَآهٍ آهِ مِنْ دُنْيا غَرورِ[803]

14) فَوا أسَفي وَحَسْرَتي وَلَهْفَتي عَلى مَنْ كانَ لي نِعْمَ الخَفيرُ

15) وَحيدُ الدَّهْرِ، قُطْبُ العِلْمِ، شَمْسُ الـ مَعالي، الألْمَعِي الحَبْرُ الشَّهيرُ

16) إمامُ الرُّشْدِ، حَمْدونُ الَّذي قَدْ أضاءَ بِهِ الدُّجاءُ القَمْطَريرُ

17) مَفاخِرُ عِلْمِهِ يُنبيكَ عَنْهَـ تَآليفُ لَهـا الإعْجازُ سورُ

18) فَكَمْ مِنْ مُشْكِلٍ أجْلاهُ حَتَّى غَدا مِنْ صُبْحِ فِكْرِهِ يُنيرُ؟!

19) وكَمْ لَهُ مِنْ عُقودِ نَظْمِ دُرٍّ بِسِلْكِ لِنَثْرٍ، لَيْسَ لَهُ نَظيرُ؟!

20) وكَمْ أبْدى بِتَقْريرٍ بَديعٍ غَوامِضَ عادَها جَمٌّ غَفيرُ؟!

21) وكَمْ أسدى أيادي[804]، لَيْسَ تُحصى أيُحْصى الطَّيْرُ والوَبْلُ الغَزيرُ؟!

22) مَضى الحَبْرُ الهُمامُ، وبَثَّ عِلْماً فَلِلَّهِ البَقاءُ والمَصيرُ

23) عَلَيْهِ قَدْ بَكَتْ عَيْني نَجيعًا وَحَقَّ لي البُكاءُ والزَّفيرُ

24) فَكَيْفَ وَكَيْفَ لا أبْكي وأُبْكي وَشَيْخي بالثَّرى، تُرى، حَشيرُ

25) لِتَبْكِهِ أُصولُ العِلْمِ طَراً وَتَبْكِيهِ فُروعُهُ والعُصورُ

26) وَتَبْكيهِ المَنابِرُ والكَراسي وأنْدِيَةٌ بِغُرَّتِهِ تَنورُ

27) وتَبكيهِ عَوامُّ النَّاسِ طَرّاً وأشْرافُ لَهُمْ كانَ الوَزيرِ[805]

28) وَيَبكيهِ يَتيمٌ مَعْ فَقيرٍ وَذو مالٍ بَظِلِّهِ يَسْتَجيرُ

29) وَيَبكيهِ فَتى لَمْ يُبْقِ دَهْرٌ لَهُ شَيْخًا[806] بِمُشْكِلِهِ خَبيرُ

803- في البيت إقواء.

804- في الأصل: أياد. ولا يستقيم به الوزن ولا التركيب.

805- في البيت إقواء.

806- في الأصل: شيخ.

30) لَقَدْ عَظُمَ المُصابُ وَجَلَّ رُزْءٌ عَشِيَّةَ قيلَ: قَدْ قُبِضَ النَّذيرُ

31) فَلَوْ يُفْدى بِآلافٍ يُفَدّى وَلكِنَّ المَنايا قَدْ تَجورُ

32) فَصَبْراً، مَعْشَرَ الإسْلامِ، صَبْراً، إلى ما صارَ نَحْنُ قَدْ نَصيرُ

33) فَيا عَجَباً لِشِبْرٍ، غابَ بَحْرٌ بِهِ بَحْرٌ تَمُرُّ بِهِ البُحورُ

34) ألا يا قَبْرُ، وارَيْتَ حُسْناً[807] فَها إحْسانُهُ أبَداً يَسيرُ

35) أحَبُّ لِقاءَهُ الرَّحْمانُ كَيْما تَنَعَّمُ مِنْهُ جَنَّةٌ وَحورُ

36) وَيَجْني ثَمْرَ غَرْسِهِ مِنْ جِنانٍ بِجِوارِ النَّبِيِّ لَها قُصورٌ[808]

37) عَلَيْهِ سَلامٌ مِنْ رَبٍّ سَلامٍ يَفوحُ[809] مِنْ مَحاسِنِهِ عَبيرُ

[نونيَّة العربي المنصوريّ السّلاوي]

وقول الفقيه الأديب، سيدي العربيّ المنصوريّ السّلاوِيّ:

[البسيط]

1) يا لَلأحِبَّةِ كَيْفَ الصَّبْرُ مِنْ حينٍ يا حَسْرَتاي[810] فَلا مَناصَ يُنْجيني

2) هذي الرَّزِيَّةُ، ماتَ العِلْمُ والأدَبُ فَلْيَبْكِ مِنْ أجْلِ ذا ذو [العَقْلِ][811] والدّينِ

3) رُبوعُ دَرْسٍ بَدَتْ تَبْكي لِما فَقَدَتْ يا وَيْحَها، قَدْ غَدَتْ عَلَيْهِ في هونٍ

4) عَفَتْ مَراسِمُها، فُضَّتْ مَباسِمُها صارَتْ مَراسِمُها، أيّامَ مَحْزونٍ

5) آهٍ عَلى كُتُبٍ، آهٍ عَلى حَسَبٍ، آهٍ عَلى أدَبٍ، قَدْ حَلَّ في طينٍ

6) مِنْ رَوْضَةٍ جَمَعَتْ، لأنْجُمٍ طَلَعَتْ بِالدُّرِّ قَدْ لَمَعَتْ، لا كَالأفانينِ

7) قِفْ فانْظُرَنْ، تَرى قَبْراً[812] حَوى قَمَراً كَلَّمَهُ مُخْتَبِراً، يَقولُ[813] في الحينِ:

[807]– الشطر ساقط الوزن.

[808]– الشطر ساقط الوزن.

[809]– الشطر ساقط الوزن.

[810]– كذا بالأصل.

[811]– بياض بالأصل ملأناه بما حسبناه مناسبا.

[812]– في الأصل: ترا، وفوق الكلمة كتب: صح، ولعل الصواب ما أثبتناه.

[813]– كذا بالأصل.

8) هذا إمامُ التُّقى، بِالزُّهْرِ مُرْتَفِقًا ... بالزَّهْرِ مُؤْتَنِقًا، وَرْدٍ ونِسْرينِ

9) فَالعِلْمُ قَدْ عُطِّلَتْ رُبوعُهُ، وخَلَتْ، ... وَشَمْسُهُ أفَلَتْ، بِغَيْرِ حَمْدونِ

10) انقَضَّ كَوكَبُهُ، وانْقَضَّ مَوكِبُهُ، ... وَبانَ مَغْرِبُهُ، بِمِسْكِ دارينِ

11) أَحْسِنْ بِهِ مَوْضِعاً بِالعِلْمِ مُرْتَفِعًا! ... أَحْسِنْ بِهِ مَضْجَعًا، في جَنَّةِ العِينِ!؟

12) فَالنّاسُ في أَسَفٍ، إذْ صارَ في غُرَفٍ، ... وكانَ في صَدَفٍ، كَالدُّرِّ مَكْنونِ

13) وَنَحْنُ في زَمَنٍ، والعِلْمُ في كَفَنٍ، ... والقَلْبُ في شَجَنٍ، في غَيْرِ ما حينِ

14) والعَيْنُ باكِيَةٌ، والدَّمْعُ شاكِيَةٌ ... والنَّفْسُ آسِيَةٌ، بِصاحِبِ النُّونِ

15) آهٍ لِبَحْرِ النَّدى، آهٍ لِنَجْمِ اهْتَدى ... آهٍ لِشَمْسِ هُدى، كَهْفِ المَساكينِ!!

16) لِلّهِ فيهِ فَضْلٌ بِما عَلَيْهِ قَضى ... فَلَيْسَ إلاّ الرِّضَى بِكُلِّ مَفْتونِ

17) كذاكَ يَقْضِ[814] لَنا، إذْ نَأْتِ[815] مَنْزِلَنا ... فَالمَوْتُ بابٌ لَنا، يَبْري المُحِبِّينَ[816]

18) وَقُلْ إذَنْ لِلعِدى فَلْتَفْرَحوا أَبَداً ... على إمامِ الهُدى، ذي الهُدى والدِّينِ

19) سَقى الإلاهُ ثَراهُ وَبْلَ مَغْفِرَةٍ ... تَعُمُّ تِلْكَ الرُّبى مَدى الأحايينِ

20) وَتَنْشِ[817] مِنْ سُحْبِهِ صَوْباً لِرَوْضَتِهِ ... تَهْمي بِروحِ الجِنانِ والرَّياحينِ

[لاميّة إبراهيم بن محمّد السّوسيّ]

وقول الفقيه الأديب العالم، أبي إسحاق، إبراهيم بن محمّد السّوسي[818]:

[الكامل]

1) لاتَسْكُنَنْ إلى الدُّنا مُتَوَلِّعًا ... بِعَرَضِها الفاني، فَإِنَّكَ راحِلُ

2) تَبْغي المُنى، والدَّهْرُ سَيْفٌ صارِمٌ ... وكُلُّ يَوْمٍ أَنْتَ فيهِ هائِلُ

814- كذا في الأصل. والصّواب: يقضي. وستتكرر ظاهرة الجزم.

815- كذا بالأصل، والصّواب: يأتي. وبالجزم يستقيم الوزن.

816- كذا بالأصل.

817- كذا بالأصل. والصّواب: تنشيْ. وبالجزم يستقيم الوزن.

818- لعلّه إبراهيم بن محمد الهلالي السّوسيّ. (ت بعد 1282هـ) ترجمته في الإعلام 1/191-192 رقم 47. الموسوعة:1/16.

3) تَهْوى، وَمَنْ تَهْواهُ حَقًّا مَيِّتٌ … وكُلُّ مَنْ تَراهُ، فَانٍ زائِلُ

4) فَالمُؤْنِسونَ مِنَ الكِرامِ قَدْ مَضَوا … والموحِشونَ مِنَ اللِّئامِ مَحافِلُ

5) أَيْنَ الَّذي إذا أَوَيْتَ إِلَيْهِمُ … آوَوكَ. أَيْنَ النَّاسُ، أَيْنَ الأَفاضِلُ[819]

6) أَيْنَ الهُداةُ المُقْتَدى بِفِعالِهِمْ؟ … قَدْ أَصبَحَتْ تَلي الأُمورَ الأَراذِلُ[820]

7) أَو رُمْتَ جَهْلاً مِنْكَ حَلَّ عَويصَةٍ … دَهاكَ مِنْهُمْ بِالجَوابِ أَباطِلُ

8) ذَهَبَ الرِّجالُ المُنْصِفونَ جَليسَهُمْ … وَبَقيتُ في جيلٍ مَداهُ يُجادِلُ

9) كَبِّرْ عَلى العُلومِ والفُنونِ والـ … فُهومِ يَوْمَ قيلَ: ماتَ الباسِلُ

10) شَيْخُ الوَرى، بَحْرُ النَّدى، زَيْنُ العِبا … دِ، أَبو المَدائِحِ لِلنَّبِيِّ الكامِلُ

11) هُوَ الَّذي عَمَّ الآفاقَ[821] حَمْدُهُ … حَمْدونُ حُمِدَتْ لَهُ الشَّمائِلُ

12) زارَ الثَّرى ثاني الرَّبيعَيْنِ الهُما … مِ بَعْدَ الأَلْفِ[822] عامَ «عيد رابلُ»[823]

13) يا حَسْرَةً على العِبادِ مَنْ لَهُمْ … يَوْمًا بِتَفْسيرِ الكِتابِ يُماثِلُ؟

14) مَنْ ذا الَّذي يَشْفي الغَليلَ مِثْلَهُ؟ … إِنْ جالَ في المَعانِ،[824] نِعْمَ القائِلُ

15) فَنُّ الحَديثِ تَهَدَّمَتْ شُرُفاتُهُ … (وَ) سِيَرُ الرَّسولِ مَنْ لَها يُحاوِلُ[825]

16) عِلْمُ التَّصَوُّفِ قَدْ عَلَتْ زَفَراتُهُ … عِلْمُ المَذاقِ بَعْدَهُ مَخايِلُ

17) فَسَلِ[826] العَروضَ والقَريضَ والقَوا … فِيَ: هَلْ رَأَتْ فَتًى لَهُ يُعادِلُ؟

18) لا تَجْزَعوا، لاتَفْزَعوا، فَإِنَّهُ … ما غابَ حَتَّى نابَ الابْنُ الفاضِلُ

19) كَالبَدْرِ إِثْرَ الشَّمْسِ، حينَ تَغَيَّبَتْ … بانَتْ، وبانَ البَدْرُ فيهِ دَلائِلُ

---

[819]- تُسَهَّلُ الهمزة ليستقيم الوزن.

[820]- تُسَهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

[821]- كذا بالأصل: وبه يستقيم الوزن. والصواب: الآفاق.

[822]- تُسَهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

[823]- بحساب الجمل تساوي عام 1232هـ.

[824]- كذا في الأصل. وبه يستقيم العروض. والصواب: المعاني.

[825]- كذا بالأصل ولا يستقيم وزن الشطر إلا بإسقاط واو العطف من الكلمة الأولى

[826]- كلمة غير واضحة في الأصل.

20) ما ضَرَّ غَيْثَ الجَوِّ بُنْصَبُ رَحْمَةً إنْ جَفَّ، والبَـوارُ مِنْهُ مَنهِلُ

21) لازالَتَ افْكار[827] العِبادِ تَجْتَني مِنْ غَرْسِهِ، والكَوْنُ مِنْهُ حافِلُ

22) جَزاهُ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزائِهِ بِمَحْشَرٍ، وَبِهِ النِّظامُ كامِلُ

23) عَلَيْهِ أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلا مِ، ما رَنَّتْ بِمَدْحِهِ الأفاضِلُ

[سينيّة أحمد بن عبد الله الجَكْنِيّ]

وقول عبيد ربه، أحمد بن عبد الله الجَكْنِيّ، عفا الله عنه، ورحم أبويه:

« الحمد لله الذي جعل الحبر والأقلام، راحةً للنفس والجسم والأقدام، تنبىء عن المحبة، ولو تباعدت الأجسام. وبعد:

[البسيط]

1) حَيِّ المَعاهِدَ مِنْ صَنْهاجَ أوْ فاسِ وَاسْقِ المنازلَ فَيْضَ عَبْرَ إبْساسِ

2) واقْرَ السَّلامَ عَلى مَنْ بِاللِّوى وعَلى مَجْرى السَّوابِقِ مِنْ أنْجادِ مِكْناسِ

3) سَلامَ صَبٍّ بَراهُ الشَّوْقُ بَعْدَهُمُ وقَلْبُهُ دنِفٌ، لَمْ يلْقَ مِنْ اسِ

4) تَاللهِ لَمْ يُنْسِني تَذْكارَ عَهْدِهِمُ تَقادُمُ العَهْدِ، أو أُنْسٌ بِإيناسِ

5) يَرْتاحُ قَلْبي بِذِكْراهُمْ، إذا ذُكِروا أو هَبَّ مِنْ نَحْوِهِمْ نَشْرُ بِأنْفاسِ

6) أقولُ لِلنَّفْسِ، والأحزانُ تَنْزَعُها صَبْراً جميلاً لِذاكَ الخطْبِ والباسِ

7) بَلْ كَيْفَ أصْبِرُ في رُزْءِ الحَبيبِ ومَنْ تَعْلو وتَزْفِرُ بِالأحْزانِ أنْفاسي

8) مَنْ بَيْنَهُ بَيْنَ أحْشاني يَغْلِبُني طولَ الحَياةِ بِأنْواعٍ وأجْناسِ

9) حَمَلْتُ مِنْ فَقْدِهِ ما لَوْ يُصَبُّ على لُبْنانَ لانْهَدَّ مِنْهُ الشّامِخُ الرّاسي

10) وذاكَ حَمْدونُ قُطْبُ العارِفينَ ومَنْ دارتْ عليهِ رَحَى الأقْطابِ في النّاسِ

11) كَفى بِهِ شَرَفاً أنَّ الرَّسولَ لَهُ حِبُّ حَميمٌ بلا شَكٍّ وإلْباسِ

12) أوْلاهُ مَوْلاهُ إجْلالاً وتَكْرِمَةً وعِلْمَهُ اللَّدُني[828] مِنْ قَبْلِ قِرْطاسِ

[827]– تُسَهَّل الهمزة لإقامة الوزن.

[828]– تُخَفَّف الياء ليستقيم الوزن.

13) أحلَهُ رُتْبَـةً لَمْ يَحْـوِها بَشَـرٌ	مِنَ البَـرايا، ولَمْ تُدْرِكْ بِمِقْـياسِ
14) أعْني خَليلي حَمْدونَ الَّذي فَخَرَتْ	بِـهِ المَغـــارِبُ، لانـارٌ عـلى راسِ
15) لِلَّهِ مـا ضَمَّ ذاكَ القَبْـرُ مِنْ شِيَمٍ	تَقْذى بِهـا عَيْنُ حَسودٍ وجَسّـاسِ
16) ومِنْ عُلومٍ جَـلاها، وَهْيَ مُظْلِمَـةٌ	فَـهْمًـا، وغـادَرَهـا كـالشَّمْسِ لِلنّاسِ
17) فَـجْرُ المَعـارِفِ والآدابِ، وارِثُهـا	خُـذْ عِلْمَـهُ ثِقَـةً مِنْ غَيْـرِ إدْلاسِ
18) واحْفَظْ وَسائِلَهُ، واطْلُبْ مَسائِلَهُ،	واسلُكْ مَســالِكَهُ، تَظْفَـرْ بِنِبْـراسِ
19) كَمْ مِنْ جَهـولٍ أتاهُ غَيْـرَ مُكْتَرِثٍ	بِدينِهِ، فَـسَـقـاهُ العِلْمَ بالكـاسِ
20) وعـادَ يُبْـرِقُ مِنْ أنْوارِ طَلْعَتِـهِ	مِنْ غَيْـرِ مـا نَظْرَةٍ في وَجْـهِ كُـراسِ
21) وكَمْ رَهينِ أسى، مِنْ طولِ غَـفْلَتِـهِ	ولانَ بِـالعِلْمِ مِنْهُ قَلْبُــهُ القـاسي
22) وكَمْ يَتـيمٍ كَـفـاهُ فَـقْـدَ والِدِهِ	وَراحَ مِنْ شَـأْنِـهِ كَـالوالِدِ الآسي
23) لِمِثْلِ ذا فَـاسْعَ يا مَنْ كُنْتَ ذا أمَلٍ	وانْهَضْ لِتَجْحَكَ مَشْـاءً على الرّاسِ
24) واخْفِضْ جَناحَكَ، إجْلالاً وتَكْرِمَةً،	وقَبِّلِ التُّرْبَ كَي[829] تَنْجو[830] مِنَ البـاسِ
25) يالَيْـتَني كُنْتُ فِـيمَنْ كـانَ جـاوَرَهُ	لِكَيْ أُفــارِقَ أدْراني وأنْجـــاسي
26) أو لَيْـتَـهُ مَنَّ لي يَوْمًـا بِفـاتِحَـةٍ	لِكَيْ أُطْرُدَ وَسْــــواسي وخَنّـاسي
27) مَنْ لي بِذاكَ الحِمى يَوْمًا فَـألْثِمَهُ	حَـتّى أفـوقَ بِـهِ أهْلي وجُـلاّسي
28) هذا، ومـا زالَتِ الدُّنْيـا دوائِرُهـا	تَـدورُ كَــالفَلَكِ الدَّوّارِ بِـالنّـاسِ
29) صَبْرًا، بَني شيخِنا، لازِلْتُمْ خَلَفًا	عَنْ والِدٍ راحَ لِلْمَـــوْلى بِإيناسِ
30) اللَّهُ يُبْقي ضَريحًـا ضَمَّ أعْظُمَـهُ	سَحـائِبَ العَـفْـوِ لا وانٍ ولا باسِ[831]
31) وَصَلَّ رَبٌّ على الهادي وشيعَتِهِ	ما هَبَّ نَشْرُ الصَّبا إدْبارَ عَسْعاسِ
32) وَعَمَّ آلاً وصَحْبـاً هُمْ نُجومُ هُدى	مــا حَنَّ وُرْقٌ على لَدْنٍ ومَيّــاسِ

هذا، ولكن كلّ من نظر في هذه القصيدة، فليُصَحِّح فهمه، ولا يعجل بالعَذْل، فقد قيل

[829]– في الأصل: لكي. ولا يستقيم به الوزن.

[830]– كذا يستقيم الوزن.

[831]– لعل الصواب: بآس. والشطر غير واضح.

في البيت الشائع الذائع، وهو جدّ غير هزل:

[الوافر]

1) فَكَمْ مِنْ عائِبٍ قَولاً صحيحًا وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقيمِ

نظمها عُبَيْد ربّه، أحمد بن عبد الله الجَكْنيّ، عفا الله عنه ورحم أبويه».

[زجلية محمد النّجار]

وقول الأديب البركة، الشيخ محمّد النجار، رحمه الله[832]:

1) رَحْمَتْ رَبِّي على الفْقيهْ السّي حَمْدونْ والبَركا فاخْليفْتْ عَزْ اوْلادْ
2) واجْبْ تَرْتيهْ فاسْ وقْراهْ وَمْدونْ واكْتيرْ الحُبْ بَقْوى تَغْرادْ
3) غابْ الشّيخْ الشّهيرْ بِالطّبْعْ المُدودْ والجُودْ مْعَ الحْيا، وعِلْمْ وتْشدْ
4) واكْتبْ سْرارْ خافْيا عَنْ ابْنِ خَلْدونْ مِنْ صَرْفْ عْتيقْ راحْ بِالحُكْمْ هادْ
5) وامْلَكْ سْطوى وعْزّ ولْطافْ وهْدونْ[833] فابْسطْ بْمام غرنبا[834] طالْ اسْهادْ
6) ونْشا حُلاً لْشانْها تْنشْطْ لبْدونْ واتْحلاً بِالحْديثْ واسْما بسْندْ
7) يَبْهَتْ، لوْ راهْ في حْياتْ ابنْ عَبدونْ سُبْحنْ اللّي عْطاهْ ورضاهْ وزادْ
8) وارْقى بِلْفاظْ رايْقا عَنْ ابنِ زيدونْ واعْلا منْ بدْ في الحَقيقا احتهادْ
9) وسْرَ السّبيلْ ماوطْا حافر بْرْدونْ وابْلَغْ الحيرْ لْمقاهْ ارْشادْ
10) وانْقرْ بابْ الرّياضْ، وافْتحْ لو سَعْدونْ واجْنا مِنْ غْلتْ، وازْهرْ بْمرادْ
11) ساعا والبِينْ ما عْمَلْ مْنْ دونْ دونْ حتّى رامْ الحْبيبْ كْفنْ والحدْ
12) يْجْعَلْ قَبرُ رْياضْ وارْضاهْ وسْدْ

---

[832]– زجال مراكشي. انظر عنه: الزجل في المغرب: 616-619. وقد اعتزم الأستاذ محمد الفاسي نشر ديوانه. انظر: معلمة الملحون: 16/1. هذا وقد تركنا النص كما هو في الأصل. ولم نتصرف فيه بغير الشكل، بحسب اجتهادنا. وفيه تُلاحظ جمل مبهمة.

[833]– كذا بالأصل.

[834]– كذا بالأصل. ولعل الصّواب: غرْبْنا.

13) خرجت هلْ فاسْ باكْبا هلاً وبْدورْ وكْبارْها مْشورازي[835] الفُرسانْ

14) عالمْ وشْريفْ شاعْ، بْرْهانُ مْشْهورْ صَلاً وعلى الكْرامْ شْيابْ وشُبّانْ

15) واضْحا لْطيبْهُمْ فالرّوْضا جيرانْ

16) شيخْ تْحلاً علَى البْدورْ بْنورْ شْمْسْ تلميدْ له جارْ وارْفيقْ رامْ

17) ماتْ علَى الحَمْدْ والشْهادَة والتْقديسْ حاشَ قاصْدُ يْخيبْ مْثْلْ بْرْحامْ

18) ما بالكْ ضيْفْ سِيدْنا مولايْ ادْريسْ مْنْ كان مُقيمْ للعْبادْ فْامْقامْ

19) بْحْضورْ القلبْ للثْ والطّرْفْ رْجيسْ لْقيامْ الليْلْ واضْيا لْصْيامْ

20) يْجْعَلْ قبرُ رياضْ عاطرْ بْنْسامْ

21) شوقْ لْكْنازَه وْجاها حْدْ كْثيرْ بومْ وْداعو ولاقْوْ خيرْ افْراقوا

22) ياقوتْ السّرْ والدْخير والِيكْسيرْ في صْلاةْ الهاشْمي لْمّنْ بِها راقوا

23) وْدْليلْ الخيرْ كُلُّ حْكْمَ فاوْراقو

24) غابْ مْنْ ضَيْفْهُمْ ضيفْ نالْ اقْراهْ زرْعوا كاسْ الْهْنا، وْراموا مْنْ شْربوهْ

25) فامْدونْ الغَرْبْ شاعْ وْخيامْ وْقْراهْ فْقْدْ المْرْحومْ ما سْمَعْنا مْنْ سْبَبوهْ

26) واخْتمْ نجّارْ قولْها مْدحْ وْقْراهْ اعْلا ولْدْ الرْضى حْسنا مْنْ بوهْ

27) رَحْمَتْ ربي عْليهْ وعْلَ مْنْ حَبّوهْ

28) إذا غابْ الفْقيهْ والبرْ المْذكورْ مْحَضْ النّسْبا العَلْيا ولْزْمْ لْكْفانْ

29) البْركا النّجيبْ لِيمامْ المْنصورْ سُلطان شْفيقْ، ما ظْهرْ عوَضْ فْزْمانْ

30) ولْدْ الهادي شْفيعنا، نِعْمْ المْبْرور مْنْ لاتْحصى مْحاسْنْ، صادْقْ ليمانْ

[835]- كذا بالأصل.

31) اللّه يَدُوم عِزّ مولايْ سُليمانْ

[نونية عبد السلام بن محمد الزَّمّوريّ عند ختم المؤلف الألفية]

ولما ختم ولده الفقيه العلاّمة القاضي، سيّدي الطالب[836] ألفية ابن مالك بمسجد القرويين منتصف عام 1244 [1828م]، أنشده الفقيه الأديب البارع المشارك، أبو[837] محمد، عبد السلام بن محمّد الزموري[838] هذه القصيدة البديعة يذكر فيها محاسن والده، رحمه الله، وتعرّض في آخرها لذكر الختم، نصُّها:

[البسيط]

1) إلى متَى بِسهامِ البَيْنِ تَرْميني — يا مالكي، وَوِصالٌ منكَ يَكْفيني؟!

2) هَلاّ رَثَيْتَ لِقَلْبٍ ذابَ فيكَ أسى — مُقَسَّمٍ بينَ أطرافِ السكاكين

3) يَسْتَشْعِرُ اليأسَ مِنْكُمْ ثُمّ يُطْمِعُهُ — ما عِنْدَكُمْ مِنْ كَريمِ الطَّبْعِ واللّين

4) قدْ كُنْتُ قَبْلُ، وَلَيْسَ الوَصْلُ يُقنِعني، — واليَوْمَ أدنَى خَيالٍ مِنْكَ يُرْضيني

5) يا طولَ شَجْوي، ويا لهفي ويا حُزْني — على ارْتِجاعِ ليالٍ، لَوْ تُوافيني

6) إذْ راحُنا مِنْ زُلالِ الثَّغْرِ نَمْزِجُهُ — وأنتَ يا غايةَ الأمالِ تَسْقيني

7) والدَّهْرُ في غَفْلَةٍ عَنّا، وَنَحْنُ كَما — شِئْنا، وداعي المُنى في الحالِ يَدْعوني

8) لا نَتَّقي نَظَراً مِنْ عَيْنِ حاسِدِنا — ولا نَخافُ أذى، إذ ذاكَ يُؤذيني

9) ولَمْ نَزَلْ بِصَفاءِ العَيْشِ مُغْتَبِطًا — حَتّى فُجِعْتُ بِمَوْتِ الشَّيخِ حَمْدونِ

10) شَيْخي الّذي هُوَ ذُخْري في العُلومِ وَمَنْ — أوصافُهُ لَمْ تَزَلْ بالمَدْحِ[839] تُغْريني

11) العالِمُ العَلَمُ المَرْضِيُّ سيرَتُهُ — المُقْتَفي نَهْجَ أهلِ العِلْمِ والدّين

[836]- ما بعده يظهر أن النّاسخ قد حوّره وأضاف إليه التحلية المعتادة.

[837]- في الأصل: أبا.

[838]- أديب عالم. (ت 1279هـ) ترجمته في: السلوة: 130/3. معجم المطبوعات: 145. رقم 339 الإعلام: 8/487-489. رقم 1290.

[839]- في الأصل: بالممدوح. ولا يستقيم به الوزن. ولعل الصواب ما أثبتنا.

12) المُبْتَغي الأجْرَ في «إلاّ المَوَدَّةَ في الـ ... قُربى»[840]، وأعْظِمْ بأجْرٍ غَيْرِ مَمْنونِ!!

13) السّالِمُ الصَّدْرِ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ ... الطّاهِرُ الجَيْبِ في حِلْمِ ابنِ سيرينِ

14) قَدْ كانَ ما بينَ أعلامِ البيانِ لَهُ ... فَضْلٌ يُمَيِّزُهُ في كُلِّ ما حينِ

15) ما شِئْتَ مِن أدَبٍ غَضٍّ وَمِنْ مُلَحٍ ... أزْرَتْ نَوافِحُها بِمِسْكِ دارينِ

16) ومِنْ غرائِبَ يُبْديها، ومِنْ نُكَتٍ ... بِمَجْلِسِ الدَّرْسِ تُسلي كُلَّ مَحزونِ

17) وَمِنْ مُذاكَرَةٍ تَحْلو مَذاقَتُها ... نيطَتْ بِما راقَ مِنْ عِلْمِ الدَّواوينِ

18) وَمِنْ بُنَيّاتِ أفكارٍ يَسومُ بِها ... سوءَ العَذابِ جَميلاً وَابنَ عَبْدونِ

19) مَنْ لِلبَراعَةِ، أو مَنْ لِليَراعَةِ، أو ... مَنْ لِلضَّراعَةِ، في لَيالي الجُونِ!

20) مَنْ للخَطابَةِ، أو مَنْ لِلكِتابَةِ، أو ... مَن لِلإنابَةِ، في كُلِّ الأحايينِ؟!

21) وقَدْ قَضى وَطَراً مِنْ كُلِّ شارِدَةٍ ... مِنَ العُلومِ بِتَحْقيقٍ وَتَبْيينِ

22) حَتّى مَضى لِسَبيلٍ لا مَحيدَ لَنا ... عَنْهُ، ولازالَ ذاكَ اليَومُ يُبكيني[841]

23) أفْنَيْتُ فيهِ مَصونَ الدَّمعِ مِنْ أسَفٍ ... وَقَلَّ في مَوْتِ أهلِ العِلْمِ تأبيني

24) اعْجَبْ لِمُسْكَةِ نَفْسٍ بَعْدَ ما رُمِيَتْ ... مِنَ النَّوائِبِ بالأبْكارِ والعُونِ!!

25) وَمِنْ نَجاتيَ يومَ البَيْنِ حينَ هَوى ... رُكْني، ولَمْ أخْلُ مِنْ خَرْمٍ يُنجيني!!

26) يا مَنْظَراً كانَ بِالسَّرّاءِ يُضْحِكُني ... يا قُرْبَ ما عادَ بالضَّراءِ يُبكيني!!

27) وبَعْدَ ما كانَ ذاكَ الطَّوْدُ مُبْتَسِماً ... إليَّ أدعوهُ في البَلْوى فَيُدْنيني

28) لَكِنْ لنا في بَنيهِ بَعْدَهُ خَلَفٌ ... مَضى على النَّهْجِ مُستوفي القوانينِ

29) مِثْلُ الفَقيهِ النَّبيهِ الجَيِّدِ الفَهْمِ في ... عِلْمِ الحَديثِ، وَعَنْهُ اليومَ تَلْقيني

30) مُحَمَّدٌ أكْرَمُ الفَرْعَيْنِ مَنْ فَخَرَتْ ... بِهِ مَجالِسُ إقْراءٍ وَتَدْوينِ

31) والطالِبُ الحَبْرُ مَنْ جَلَّتْ فَضائِلُهُ ... مِنْ أنْ تُحاطَ بِتَقْديرٍ وَتَخْمينِ

32) مُوَفَّقُ الرَّأيِ مَحْروسُ النَّجابَةِ في ... [842]

840– سورة الشورى: 23.

841– ورد بعده البيت السابع والعشرون في الأصل، وعليه علامات الإلغاء.

842– تكرر هنا ورود شطر البيت التاسع والعشرين، وعليه علامات الإلغاء.

33) وقَدْ نَشا[843] في عَفافٍ لا يَميلُ بِهِ سِنُّ الحَـداثَةِ نَحْـوَ المَـوْقِفِ الدَّوَنِ

34) ولَمْ يَزَلْ في طِلابِ العِلْمِ مُجتَهِداً حــــتَّى تمكَّنَ مِنْهُ أيَّ تَمَـكينِ

35) لِلّهِ يَومٌ لَهُ في الدَّرسِ قَدْ خُتِمَتْ «وخُلاصَةُ» النَّحوِ في ضَبْطٍ وتَزْيينِ!

36) يُمْلي على حاضِريهِ مِنْ نتـائِجَ لا يَفي بِهـا في مَـديحي كُلُّ مَـوْزونِ

37) وَقَدْ غَدا بَحْرُهُ الفَيَّاضُ مُرتَمِيًا بِلُؤلُؤٍ مِنْ نَفـيسِ القَـولِ مَكْنونِ

38) فَـاللّهُ يَحْرُسُ ذاكَ الفَرْعَ مِنْ غِيَرِ هذا الزمـانَ، وإنْ كـادَتْ لَتُـرْديني

39) بِحَقِّ أشْرَفِ مَبْعوثٍ، وأكْرَمِ مَنْ بِهِ يَلوذُ الورى في المَوْقِفِ الهـونِ

40) صَلّى عَلَيْهِ إلاهُ العَرْشِ ما نَظَرَتْ عينُ الكَمـالِ لِتَطْفيفِ المَـوازينِ

انتهى ما وُجِدَ من تكملة هذا الدّيوان

بحمد الله تعالى، وحُسنِ عونه.

انتهى الجزء الثاني بتجزئة المحقّق، ويليه الجزء الثالث.

والحمد لله أولا وآخرا.

[843]- تُسَهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

فهرس الموضوعات




تادي الكتاب


الجمعية المغربية
للدراسات الأندلسية


جمعية تطاون-أسمير

